الياس خوري

باب الشمس

الياس خوري

باب الشمس

(رواية)

دار الآداب - بيروت

B.HAMDAN

قال رضي اللّه عنه:

ذهب الشيخ الجنيد في سياحة. وفي أثناء سفره أدركه العطش، فوجد بئراً عميقة لا يقدر أن يتناول منها الماء. فحلّ زناره ثم دلاّه في البئر حتى وصل الى الماء. وصار يرفعه ويعصره في فمه. فجاء رجل فقير وقال له: «لماذا تفعل هكذا، قل للماء ارتفع واشرب بيديك». ثم جاء الفقير الى حافة البئر وقال للماء: «ارتفع بإذن اللّه». فارتفع وشرب الشيخ والفقير. ثم التفت الشيخ وقال للفقير: «من أين أنت»؟، قال: «من عباد اللّه»، قال: «من هو شيخك»؟ قال: «شيخي الجنيد والى الآن لم أره». قال: «فبأيّ شيء وصلت الى هذا»، قال: «بحسن ظنّي بشيخي».

الجزء الأول

مستشفى الجليل

ماتت أم حسن.

رأيت الناس يتراكضون في أزقّة المخيّم، وسمعت أصوات البكاء. كان الناس يخرجون من بيوتهم، ينحنون كي يلتقطوا دموعهم، ويركضون.

ماتت نبيلة زوجة محمود القاسمي التي كانت أمّنا. كنّا ندعوها «يا أمّي»، لأن كل الذين ولدوا في مخيم شاتيلا سقطوا من أحشاء أمهاتهم إلى يديها.

وأنا أيضًا، سقطت إلى يديها وركضت يوم موتها.

جاءت أم حسن من الكويكات، قريتها في الجليل، لتصبح القابلة الوحيدة في مخيم شاتيلا. امرأة لا عمر لها ولا أولاد. وأنا لا أعرفها إلا كهلة. كتفان منحنيتان، وجه مليء بالتجاعيد والغضون، وعينان كبيرتان تلتمعان في الوجه الأبيض المربّع، وشال أبيض يغطي شعر رأسها الأبيض.

قالت جارتها سناء، زوجة كريم الجشّي بائع الكنافة، إنّ أم حسن مرت بها ليل أمس، وأخبرتها أنّ الموت سيأتي.

«سمعت صوته يا بنتي، الموت يوشوش وصوته واطي».

تكلّمت بلهجتها نصف البدويّة لتخبر سناء عن هاتف الموت.

«جاءني هاتف في الصباح، وقال لي استعدّي».

وأوصتها على طريقة تكفينها.

«أمسكتني من يدي»، قالت سناء، «وأخذتني إلى بيتها، فتحت خزانتها الخشبيّة البنّيّة وأرتني الكفن الحريري الأبيض، وقالت لي إنها ستتحمم قبل أن تنام. أموت طاهرة، ولا أريد أحدًا على غسلي إلا أنتِ».

ماتت أم حسن.

كل الناس كانوا يعرفون أن صباح هذا الاثنين ٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٥، سوف يكون موعد نبيلة بنت فاطمة مع الموت.

استفاق الناس وانتظروا، ولم يمتلك أحد جرأة الذهاب إلى بيتها من أجل اكتشاف موتها. فأم حسن أخبرت الجميع، والجميع صدّقها.

أنا وحدي فوجئت.

بقيتُ معك حتى الحادية عشرة ليلاً ثم دخلت غرفتي منهكًا ونمت، وكان ليل المخيّم نائمًا، فلم يخبرني أحد.

أما الناس فكانوا يعلمون.

لا أحد لا يصدق أم حسن، فهي لا تقول إلا الحقيقة. ألم تكن وحدها من بكى صباح الخامس من حزيران عام ١٩٦٧. الناس رقصوا في الشوارع استعدادًا للعودة إلى فلسطين، أما هي فبكت. قالت لمن رأته إنها قررت لبس الحداد. ضحك الجميع عليها، وقالوا إن أم حسن أصيبت بالجنون. وخلال أيام الحرب الستة الطويلة لم تفتح نوافذ بيتها. وفي اليوم السابع خرجت لتمسح دموع الناس. قالت إنها تعرف، ففلسطين لن تعود قبل أن نموت جميعًا.

خلال سنواتها الطويلة دفنت أم حسن أولادها الأربعة واحدًا بعد الآخر. كانوا يأتون محمولين على خشبة والدم يغطي ثيابهم. ولم يبق لها سوى ابن اسمه ناجي يعيش في أميركا. وناجي ليس ابنها الحقيقي، لكنه ابنها. التقطته من تحت شجرة زيتون على طريق الكابري ـ ترشيحا، وأرضعته من ثدييها الناشفين، ثم أعطته لأمّه في قرية قانا اللبنانية.

اليوم ماتت أم حسن.

لم يجرؤ أحد على دخول بيتها، تجمّعت حوالى عشرين امرأة أمام الباب ينتظرن. ثم جاءت سناء قرعت الباب فلم يفتح أحد، دفشته فانفتح ودخلت مهرولة إلى غرفة النوم. كانت أم حسن نائمة، ورأسها مغطى بمنديلها الأبيض. اقتربت منها سناء، أمسكتها من كتفيها، فتسرّبت برودة جسد المرأة إلى كفي زوجة بائع الكنافة التي صرخت. ودخلت النسوة وبدأ البكاء يعلو، وتراكض الناس.

وأنا أيضاً أريد أن أركض مع الراكضين وأدخل مع الداخلين، كي أرى أم حسن تنام في سريرها إلى الأبد، وتتنشّق رائحة الزيتون التي يعبق بها بيتها الصغير.

ولكني لم أبكِ.

منذ ثلاثة أشهر وأنا عاجز عن الانفعال. فقط هذا الرجل المعلّق فوق سريره يجعلني أحسّ برعشة الأشياء. منذ ثلاثة أشهر وهو ملقًى فوق سريره في مستشفى الجليل حيث أعمل طبيباً، أو حيث أدّعي أنني طبيب أجلس إلى جانبه وأحاول. أميّتٌ هو أم حيّ؟ لا أدري، أأساعده أم أعذّبه؟ أأحبه أم أكرهه؟ أأروي له أم أستمع إليه؟

منذ ثلاثة أشهر وأنا في غرفته.

واليوم ماتت أم حسن، أريده أن يعرف الخبر، لكنّه لا يسمع، أريده أن يأتي معي إلى جنازتها، لكنه لا ينهض.

قالوا إنه أصيب بالكوما.

انفجار في الدماغ، نتج عنه عطب دائم. رجل مرميّ أمامي، وأنا هنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. فقط أحاول أن لا أتركه يتعفّن حيّاً. فأنا متأكد أنّه نائم وليس ميتاً.

ولكن ما الفرق؟

هل صحيح ما روته أم حسن أن النائم مثل الميت. فالروح تغادر جسد النائم ثم تعود إليه حين يستيقظ، أما الميت فروحه تغادر ولا تعود. أين روح يونس بن إبراهيم بن سليمان الأسدي، هل غادرته إلى البعيد، أم هل تحوم فوقنا في غرفة هذا المستشفى، وتطلب مني أن لا أغادر المكان، لأن الرجل مستلقٍ في ظلمات بعيدة، ويخاف الصمت؟

واللّه لا أعرف.

أم حسن قالت في زيارتها الأولى له إنّ يونس يتعذّب، وقالت إنّه أصبح في برزخ غير برزخنا.

«وماذا أفعل»؟ سألتها.

«افعل ما يقوله»، جاوبتني.

«لكنّه لا يحكي»، قلت.

«بلى يحكي»، قالت، «وعليك أن تسمع صوته».

وأنا لا أسمع، واللّه لا أسمع، لكنني مسمّر على هذا الكرسي، أحكي وأحكي.

قل لي أيُّها الرجل ماذا يجب أن أفعل.

أَجْلسُ إلى جانبك، واستمع إلى بكاء الناس الذي يشقّ نافذة غرفتك. ألا تسمع؟

كلّ الناس يبكون، فلماذا لا تبكي؟

صرنا ننتظر مناسبة للبكاء، فالدموع محبوسة داخل عيوننا، وأم حسن فجّرت مكامن الدمع، فلماذا لا تنهض وتبكي؟

يا أنتَ.

كيف أحكي لك أو معك أو عنك؟

هل أخبرك حكايات تعرفها، أم أسكت وأتركك تمضي إلى حيث تمضي؟

أقترب منك، أمشي على رؤوس أصابعي كي لا أوقظك، ثم أضحك على حالي، فأنا لا أريد من هذه الدنيا سوى إيقاظك، شيء واحد ينقصني، شيء واحد يا اللّه، أن ينهض هذا الرجل السابح في عينيه، أن يفتح عينيه ويقول شيئا.

لكني أكذب.

هل تعرف أنك جعلتني كذّابًا؟

أقول لا أريد سوى شيء واحد، وأنا أريد آلاف الأشياء. أكذب لعل اللّه يشفق عليّ وعليك وعلى أمك المسكينة. صحيح، نسينا أمك، حكيت لي كل الحكايات ولم تخبرني كيف ماتت أمك. أخبرتني عن موت أبيك الأعمى، وكيف تسلّلت إلى الجليل وشاركت في مأتمه. وقفت فوق التلة المشرفة على قرية دير الأسد، ترى ولا تُرى، تبكي ولا تبكي.

يومها صدّقتك، وصدّقت أن حدسك قادك إلى بيتكم هناك، قبل موته بساعات.

أما الآن فلا.

يومها كنت مسحورًا بقصتك، زال السحر ولم أعد أصدّق.

ولكن أمك؟

لماذا لم تروِ شيئًا عن موتها؟

هل ماتت أمك؟

هل تذكر حكاية إيقونة العذراء مريم؟

كنا نعيش الحرب الأهلية في لبنان، وكنت تقول إن الحرب يجب أن لا تكون هكذا، حتى إنك نصحتني بعد عودتي من بكين طبيبًا، بعدم المشاركة في الحرب، وطلبت مني أن أذهب معك إلى فلسطين.

«ولكنّك لا تذهب لتحارب يا أخ يونس، أنت تذهب من أجل امرأتك».

ألقيت عليّ خطابًا طويلاً عن معنى الحرب، ثم قلت شيئًا عن صورة مريم العذراء في بيتكم، ويومها سألتك إذا كانت أمُّك مسيحيَّة، وكيف يمكن لشيخ قرية عين الزيتون، أن يتزوّج امرأة مسيحيَّة؟ فشرحت لي أنَّها ليست مسيحيَّة، وأنَّها كانت تحبّ العذراء وتضع صورتها تحت مخدّتها، وأنُّها جعلتك تحب مريم لأنَّها سيِّدة نساء العالم، ولأنَّ صورتها جميلة. امرأة تحني رأسها فوق ابنها الذي ولد مقمّطًا بكفنه.

«وماذا كان رأي الشيخ؟» سألتك.

يومها شرحت لي أنَّ والدك الشيخ كان ضريرًا، وأنه لم يرَ الصورة على الإطلاق.

متى أخبرتك نهيلة عن موت أمك؟

لماذا لا تخبرني؟ هل لأن زوجتك قالت إن المرأة أوصت بأن تدفن الصورة إلى جانبها، وإنَّ الوصيَّة أثارت مشكلة في القرية.

لماذا تنام هكذا ولا تجاوب؟

تنام كالنوم، تنام في النوم، وتغرق. قال الطبيب إنَّك أصبت بجلطة في الدماغ، وإنَّك ميت سريريًّا، ولا أمل. أمرته أن يزيح، وقلت لا.

أراك أمامي ولا أستطيع شيئًا.

أحاورك، وأخبرك القصص، سوف أخبرك كل شيء. ما رأيكَ، سوف أُعدّ الشاي، ونجلس على الكراسي المنخفضة أمام بيتك ونروي. كنتَ تضحك عليَّ لأنّي لا أدخّن. تأخذ سيجارتك إلى نهايتها، تعلك طرفها المعلّق بين شفتيك، وتشفط الدخان.

والآن، ها أنذا، أغلق باب غرفتك، أجلس إلى جانبك، أشعل سيجارة وأشفطها إلى القعر، وأروي لك، وأنت لا تجاوب.

لماذا لا تحكي معي؟

الشاي صار باردًا وأنا تعبت. وأنت تغرق في أنفاسك ولا تبالي.

أرجوك لا تصدّقهم.

هل تذكر يوم جئتني حزينًا وقلت إنّ الناس سئموا منك، وأنا لم أستطع إزاحة الحزن عن وجهك الأبيض المستدير. ماذا أقول؟ هل أقول إنّ زمنك راح فعلاً أو لم يأتِ بعد. كنت ستزعل أكثر، وأنا لم أستطع أن أكذب عليك. فأنا حزين أيضًا، وحزني ثقبٌ عميق في روحي لا يمكن سدّه لكني والله لا أريدك أن تموت.

لماذا كذبت عليّ؟

لماذا قلت لي بعد أن غادر المعزّون إنّ موت نهيلة لا يهمّ. فالمرأة لا تموت إلا إذا توقف رجلها عن حبِّها. ونهيلة لم تمت لأنّك تحبُّها.

«إنّها هنا»، قلت وأشرت إلى عينيك المفتوحتين على ذلك الرمادي الغامض. لم أستطع ولا مرّة تحديد لون عينيك، وكنت حين أسألك تقول إن نهيلة أيضًا لم تكن تعرف لونهما، وإنها كانت تسألك في باب الشمس، عن ألوان الأشياء.

كذبتَ عليّ ولم تقل لي كل الحقيقة.

أقنعتني أن نهيلة لم تمت ولم تكمل جملتك. يومها لم أستوعب ما قلته، اعتقدته كلمات جميلة يداوي بها عاشق كهل حبّه. لكنّ الموت كان في نصف الجملة الثاني. فالرّجل يموت حين تتوقّف امرأته عن حبِّه. وأنت تموت لأنّ نهيلة توقّفت عن حبّك بموتها.

وها أنت في النعاس.

يا الله، ما هذا النعاس، لماذا أشعر إلى جانبك بنعاس قاتل؟ أتكئ على الكرسي وأنام، وحين أنهض في منتصف الليل، أشعر بالألم في كل أنحائي.

اقترب منك، فأرى دوائر الهواء حولك، وأرى ذلك المكان الذي لم أزره. كنت قد قررت الذهاب، الجميع يذهبون فلماذا لا أذهب أنا أيضًا؟ أذهب لأتفرج، أذهب واضع العلامات في عينيّ. كنت تقول لي إنّك تعرف الأمكنة لأنّها محفورة في عينيك كالعلامة التي لا تزول.

أين العلامات يا رجل؟ كيف سأعرف الطريق، ومن يدلّني؟

أخبرتني عن تلك المغاور المحفورة في الصخور. أصحيح أنّك كنت تلتقي بها هناك؟ أم أنّك كذبت عليَّ؟ قلت إنّ اسمها باب الشمس، وابتسمت وقلت إنّك لا تقصد شمس التي أحببتها، ولا تلك المذبحة الرهيبة في مخيم المية ومية، حين قتلوا شمس.

قلت لي إنّني لم أحبّ شمس، ويجب أن أنساها. «لو كنت تحبّها لانتقمت لها، فالحب يا ابني لا يمكن، أنت تحبّ امرأة لا تحبّك، وهذا لا يمكن».

أنت لا تفهم، كيف أنتقم لامرأة قُتلت من أجل رجل آخر.

«يعني لم تكن تحبّك»، قلت لي.

«بلى، ولكن على طريقتها»، جاوبتك.

«الحب يا ابني له ألف باب، ولكن الحبّ من طرف واحد ليس بابًا، إنّه وهم».

يومها لم أقل لك إنّ حبّك لنهيلة قد يكون وهمًا أيضًا، فأنت لم تكن تلتقي بها إلاّ في رحلات تشبه المنامات.

أقترب منك لأقول لك إنّ القمر اكتمل في السماء. فنحن في الغابسية نحب القمر ونخافه، وحين يكتمل في السماء لا ننام.

قم وانظر إلى القمر.

أنت لم تخبرني عن أمّك، ولكني سأخبرك عن أمّي. الحقيقة أنّني لا أعرف عنها الكثير، اختفت، قالوا إنّها ذهبت إلى أهلها في عمّان، وعندما كنا في الأردن عام ١٩٧٠ بحثت عنها كثيرًا، لكن تلك حكاية أخرى أرويها لك في ما بعد.

أخبرتك عن أمّي، وسأخبرك من جديد. كنت تقول حين تروي لي عن باب الشمس، إنّ القصص كالخمر تتعتق حين تروى. جرار القصص روايتها؟. كنت تستعيد حكايات نهيلة، وتلتمع عيناك بتلك الرغبة.

«سحرتني تلك المرأة»، تقول.

وأنا أعرف أنّك الساحر، كيف أقنعت نهيلة بالاكتفاء منك برائحة السفر.

كانت أمي توقظني في ليل المخيم، توشوشني فأنهض، وأرى القمر مكتملاً، ولا أنام.

قالت المرأة الآتية من الكويكات إنّنا مجانين، «أهل الغابسية مجانين لأنّهم يخافون القمر». ونحن ما كنا نخاف، بلى، كنا نستيقظ الليل كلّه. لم تكن أمّي تتركني في النوم. تعصب رأسها بمنديل أسود، وتطلب مني النظر في صفحة القمر كي أرى وجه أبي الميّت.

«رأيته»، تسألني.

أقول إنّني رأيته، وأنا واللّه ما رأيته. لكنني الآن، هل تصدّق، الآن بعد سنوات وسنوات، الآن حين أنظر إلى صفحة القمر، أرى وجه أبي مضرّجًا بالدم. قالت أمّي إنّهم قتلوه، كوّموه أمام باب الدار ومضوا، قالت إنّه سقط وتكوّم كأنّه ليس رجلاً، كأنّه كيس. وحين اقتربت منه لم تره، أخذوه ودفنوه سرًا في مقبرة الشهداء. «انظر إلى أبيك وقل له ما تريد».

كنت أنظر، فلا أرى، ولا أقول. والآن أرى، فماذا أقول؟

قُمْ أيُّها الرجل وانظر إلى صفحة القمر. هل ترى امرأتك؟ هل ترى أبي؟ من المؤكّد أنّك لن ترى أمّي، وحتى لو رأيتها فلن تتعرّف إليها. فأنا نسيتُها ونسيت صوتها ودموعها. لا أذكر منها سوى طعم العجين الذي كانت تصنعه على الطابون أمام بيتنا. تضع الفلفل الأحمر والزيت والكمون والبصل على قطعة العجين، وتخبزها، ثم تعدّ الشاي وتأكل، وآكل معها، ونحن ننظر إلى القمر. ما يزال الطعم حارّاً في فمي. والآن حين أرى القمر، يأتي ذلك الطعم الحار ويحتلّ لساني وعيوني، فأشرب الشاي وأنظر إلى القمر، وأرى.

أخبرتني أمّي، أنّهم في قرية أبي، لم يكونوا ينامون. فحين يستدير القمر ويجلس في صحن السماء، تستيقظ القرية كلّها، ويجلس المغني الأعمى في الساحة، يعزف على ربابته ذات الوتر الوحيد، ويغني الليل كأنّه يبكي. وكانت أمّي تخبرني الحكاية وتبكي. وأنا أبكي من النعاس وطعم الحرّ وما يشبه المنامات.

اكتمل القمر أيها الرجل السابح في الشراشف البيضاء، انهض وانظر واشرب معي الشاي. أم أنتُم في عين الزيتون، لا تنهضون حين يكتمل القمر.

ولكنّك لست من عين الزيتون. بلى أنت من عين الزيتون، ووالدك الأعمى هاجر إلى دير الأسد، بعد مذبحة القرية عام ١٩٤٨.

ولدت في عين الزيتون، واسموك يونس، قلت لي إنّ والدك الأعمى أسماك يونس، لأنّك كسرت جدار الموت.

أنت لم تخبرني عن أمك، آمنة أخبرتني، ادّعت أنّها ابنة عمك، وأنّها تأتي لتساعدك في ترتيب البيت، وكانت جميلة. لماذا زعلت مني يومها؟ واللّه لم أقصد شيئًا، ابتسمتُ فتجهّم وجهك، وخرجت من البيت، وتركتني معها.

دخلت البيت فرأيتني جالسًا مع آمنة، وكانت تروي لي. قالت إنّها تعرف كل شيء عنّي لأنّك أخبرتها، وطلبت مني الاهتمام بك، لأنّها لا تستطيع المجيء دائمًا من مخيم عين الحلوة إلى مخيم شاتيلا. ابتسمتُ لك وغمزتُك، ومن يومها لم أعد أرى آمنة عندك. واللّه ما قصدت شيئًا، بلى قصدت، وفي النهاية أنت إنسان، لا تزعل. الإنسان هكذا، منذ سيدنا آدم عليه السلام، والإنسان يخون الذين يحبهم، يخونهم ويندم، يخونهم لأنّه يحبّهم، أين المشكلة؟

واللّه حرام. لماذا أمرت آمنة بأن لا تعود إلى زيارتك؟ هل لأنّها أحبّتك؟ أنا أعرف، حين أرى المرأة العاشقة أعرفها، الحب يفيض منها فتصبح ليّنة ومتماوجة. أما الرَّجل فلا. الرجل مسكين لأنّه لا يعرف الليونة التي تكتسح العضلات وتخمّرها.

آمنة كانت تحبّك، لكنّك رفضت الزواج منها. هي أخبرتني، كما أخبرتني أشياء حلّفتني أن لا أذكرها أمامك. أنا في حلّ من قسمي الآن، لأنّك لا تسمع، ولكن حتى لو كنت تسمع، فأنت لا تستطيع أن تفعل شيئًا، كل ما ستقوله هو أن آمنة كذّابة، وتقفل الموضوع.

أخبرتني آمنة قصتك كلّها.

قالت عن أبيك.

قالت إنّ الشيخ إبراهيم بن سالم بن سليمان الأسدي كان في الأربعين حين تزوّج، وبقيت زوجته عشرين سنة تنجب له أولادًا يموتون بعد أيام قليلة على ولادتهم. فزوجته كانت مصابة بمرض لا اسم له. كانت حلمتا ثدييها تلتهبان وتتساقطان حين يبدأ الطفل في الرضاعة منهما. فيموت الطفل من الجوع. ثم ولدت أنت. أنت وحدك، قالت آمنة، نجحت في عضّ

ثدي دون حلمــة. كنت تعضّ الثـدي وتمتصّ، وأمّك تصـــرخ من الـوجع. فنجوت من الموت وعشت.

أنا لم أصدّق آمنة، فالحكاية تبدو مستحيلة. لماذا لم تداوِ أمّك ثدييها؟ ثم لماذا يموت الأطفال؟ لماذا لم يكن والدك يأخذ أطفاله إلى نساء القرية كي يرضعوا من أثدائهن؟

لم أصدق حكاية آمنة، ولكنّك أكّدتها لي، وهو ما زاد في شكوكي. قلت إنّ ما روته آمنة صحيح، وإنّك كنت الطفل الوحيد الذي نجا، لأنّه استطاع أن يلتقط ثديًا دون حلمة، وإن أمّك بقيت طوال حياتها تذكّرك بآلامها حين أرضعتك. وحين سألتك لماذا لم يتزوج أبوك امرأة ثانية، رفعت يدك إلى الأعلى كأنّك لا تريدني طرح هذا السؤال، فأنتم، قلت لي، «لا نتزوّج إلا امرأة واحدة، ومرة واحدة، هذا عهدنا منذ البداية».

تخيلت طفلاً متوحشًا، ورأيت رأسًا كبيرًا وشفتين تلتهمان ثديي المرأة. والمرأة تبكي.

ثم رويت لي أنّ المشكلة لم تكن غياب الحلمتين، فأخواتك وأخوتك ماتوا لأنّهم كانوا يصابون بمرض غامض، ينتقل إليهم من ثديي أمّك الملتهبين.

أراك الآن، أرى ذلك الطفل وأرى رأسه الكبير ووجهه داخل فيض الضوء المنسكب على الشفتين. أرى أمك تتلوّى ألمًا ولذة وهي تشعر بشفتيك تنهشان حليبها. أكاد أستمع إلى تنهداتها، وأرى اللّذة تختمر في عينيها الثقيلتين الناعستين. أراك وأرى موتك وأرى النهاية.

لا تقل إنّك ستموت أرجوك لا، الموت لا. أم حسن قالت لي أن لا أخاف، وأنا لست خائفًا. طلبت مني البقاء إلى جانبك، فلن يجرؤ أحدٌ على اقتحام المستشفى من أجل الوصول إليّ. حتى أم حسن تعتقد أنني حولت موتك مخبإي، حتى أم حسن لا تفهم أنني أحاول إيقاف موتك لا موتي. فأنا لا أخاف منهم، ثم ما علاقتي بموت شمس، ثم لا يحق لهذه الحكاية أن تتداخل بحكايتك التي تشبه الأساطير.

أعلم أنك ستقول طزّ على الأساطير، وأنا موافق، ولكن أرجوك لا تمت. من أجلي، من أجلك، من أجل أن لا يعثروا عليّ.

واللّه ضعت. ضعت وخفت ويئست وتردّدت وتململت وتذكّرت ونسيت.

أقضي أكثر وقتي في غرفتك. أنهي أعمالي في المستشفى وأعود إليك. أجلس إلى جانبك، أحمّمك وأدلكك وأعطّرك وأرشّك بالبودرة وأفرك جسمك بالمراهم. أغطّيك وأتأكد من نومك وأحدثك. الناس يعتقدون أنّني أكلّم نفسي كالمجانين. معك اكتشفت في نفسي نفوسًا كثيرةً، أستطيع إقامة حوار أبديّ معها.

الحقيقة أنّني قرأت في كتاب لم أعد أذكر عنوانه، أن الوعي يمكن استعادته لمن سقط في الغيبوبة مثلك عبر الحوار. الدكتور أمجد قال مستحيل. وأنا أعرف أن ما قرأته ليس علمياً، لكني أحاول، أحاول إيقاظك بالكلام فلماذا لا تجاوبني؟ كلمة واحدة ونخلص.

لا تستطيع أن تحكي أو لا تريد أو لا تعرف.

اذن عليك أن تسمع. أعرف أنّك زهقت من حكاياتي، فأنا أخبرك حكاياتك، أعيد لك ما أخذته منك. أروي وأرى ظلال ابتسامة على شفتيك المطبقتين.

هل تسمع صوتي؟

هل ترى كلماتي ظلالاً سوداء؟

أنا أيضًا تعبت من الكلام. اسكت فتأتي الكلمات. تأتي كعرق يرشح من مسامي، وبدل أن أسمع صوتي، أسمع صوتك يخرج من حنجرتي.

جعلتك تحكي وتحكي، وبدل أن تستيقظ، تغرق في سباتك.

أجلس إلى جانبك صامتًا. استمع إلى حشرجة أنفاسك وأحسّ برعشة البكاء، ولا أبكي. أقول خلص، لن أدخل غرفتك بعد اليوم. ماذا افعل هنا؟ لا شيء.

أمكث مع الموت وأعاشره. وعشرة الموت صعبة يا أبي. أنت أخبرتني عن الجثث الثلاث في غابة الزيتون. أرجوك لا تنْسَ، فأنت «فراريّ»، والفراري لا ينسى. هل تذكر ماذا جرى عندما وصلت إلى مخيم عين الحلوة بعد خروجك من السجن؟ هل تذكر كيف أطلقت النار في الهواء وشتمت الناس، ثم اعتقلوك. قلت للناس، وكان الناس ينصبون خيمًا يخترقها الهواء من الجانبين إننا لسنا لاجئين. نحن فارّون ولا صفات أخرى. نقاتل ونَقْتل ونُقْتل، لكننا لسنا لاجئين. قلت للناس إنّ صفة اللاجئ معيبة، وإنّ الطريق مفتوح إلى كل قرى الجليل. كنت ملتحياً وقذراً، هكذا وصفك تقرير مدير

الشـرطة في مـدينة صـيـدا، تحـمل بندقـيـتك في يدك، وتحكي كـالمجنون. الضـابط اللبناني كتب في تقريره أنّك مـجنون وأطلق سراحك. استمعت إلى تقريره غير مصدّق، لكنه عضّ على شفته السفلى وغمزك، قبل أن يأمرك بمغـادرة المخـفـر. يومـهـا صـرخت بـأنّك لن تغـادر السـجن دون بندقـيّتك، فـأخرجوك منه بالقوة. وبالقوة عدت ليلاً واسترجعت بندقيتك، واستوليت على ثلاث بنادق أخرى من المخفر. وبهذه البنادق بدأتم.

لا أريد البداية الآن. أريد أن أقـول لك إنّ الفـارّ لا ينام. أنت أخـبـرتني كيف كنت تنام بعين واحدة مغمضة، وتفتح الثانية على الخطر.

أين عينك المفتوحة كي تراني؟

تقدمت منك، وفـتحت لك عـينيك، فـرأيت البـياض. يا الله كم البـيـاض أبيض. أعـرف أنّك رأيتني أبحث عنك. ففي العينين البـيضـاوين رأيت كل ظلالك. أليس أخـبـرتني عن رجل يمشي مع ظلاله على تلك الطرقـات البعيدة. أرى في عينيك صورة رجل لا يعيش ولا يموت.

لماذا لا تموت؟

أرجوك لا، الموت لا، فمـاذا سأفعل بعد مـوتك، هل أبقى في المسـتشـفى مختبئًا؟ أم أسافر؟

أرجوك لا، فالموت يخيفني.

هل نسيت غابة الزيتون، وتلك المرأة، والرجال الثلاثة؟

قلت إن المرأة أخـافـتك، «... كل الحـروب لم أخـف منها، أما المرأة فـيا لطيف! جـعلتني أشـعـر بارتخـاء في ركـبتيّ، وارتعـاد في وجـهي... كـانت المرأة تنام تحت شـجـرة الزيتـون، اقـتـربت منهـا، وكـانت تتـغطى بشـعـرهـا الطويل. انحنيت، أزحت الشـعـر، فـرأيت المرأة مـتـجـمـدة بالموت، وشـعـرهـا يغطي طفلة صـغيرة تنام متـقـوقـعـة فـوق أمّـهـا. يومـهـا رأيتُ الموت للمـرة الأولى، تراجـعت إلى الوراء وأشـعـلت سيـجـارة وجلست تحت الشـمس. وهناك خلف إحدى الصخور، رأيت ثلاثة رجال مرميين في العراء».

كنتَ معهم، ولم يكن أمامك من حيلة للهرب، فالرشّاشات الاسرائيلية كانت يومها تحصد المتسلّلين، وكانوا متسلّلين، وكنتَ عائدًا من تسلّلك. قلتَ لي إنّك عشت أسبوعًا على حبات الزيتون. تكسـرها بالعصى وتنقعها

بالماء، وتأكلها مُرّة. «الزيتون ليس مرًا، مرارته تغلف الفم واللسان، لكنه طري، ويجبرك على شرب الماء بعد كل حبة تأكلها».

ولم تستطع أن تحفر لهم قبرًا. حفرت بيديك، لأنك تركت بندقيّتك مطمورة في مغارة تبعد ثلاث ساعات عن دير الأسد. حفرت، ولكنك لم تستطع أن تصنع قبرًا يتسع لأربعتهم. حفرت قبرًا صغيرًا من أجل الطفلة، ثم تردّدت، هل يجوز فصل الطفلة عن أمّها، وفي النهاية لم تدفن أحدًا، كسرت أغصان الزيتون ودفنتهم بها، وقررت العودة مع معولٍ كي تحفر لهم قبورًا. غطيتهم بأغصان الزيتون وأكملت طريقك إلى لبنان. وفي المرات العديدة التي عدت فيها إلى دير الأسد، لم تعثر لهم على أثر.

«الموتى يتكلمون» قلتَ لي.

كنت تستمع إلى أصواتهم في الليل وتخاف. أخبرتني كيف عشت معهم، وكيف كانت أصواتهم الغامضة تمنعك من النوم ليلاً. كنت تغفو في النهار حين ينامون، وتسهر الليل خوفًا منهم.

ماذا كانت أسماؤهم؟

قلت إنّك لم تعثر في جيوبهم على شيء يدلّ على أسمائهم وأسماء قراهم، فأسميتهم كما يحلو لك، وصرت تتحدث معهم. ماذا كان اسم الطفلة؟ ماذا أسميتها؟

✓ وأنا معك الآن، وهذا الليل. الكهرباء مقطوعة، والشمعة ترتجف بظلالك، وأنتَ لا تفتح عينيك.

افتحهما وقل لي، هل نسيت اسمي، أنا الدكتور خليل، أنتَ قلت لي إنني أشبه ابنك الأول إبراهيم، الذي مات. اعتبرني ابنك الذي لم يمت. فلماذا لا تفتح عينًا واحدة وتنظر إليّ؟ لقد تعبت يا أبي. الآن سأدعوك أبي، ولن اسميك باسمك.

ما اسمك؟

في المخيم يسمونك أبو سالم، وفي عين الزيتون أبو إبراهيم، وفي المهمات البعيدة أبو صالح، وفي باب الشمس يونس، وفي دير الأسد الرجل، وفي القطاع الغربي عز الدين. أسماؤك كثيرة، وأنا لا أعرف ماذا أدعوك.

كنت في المرة الأولى التي التقينا بها، تدعى أبو سالم، لكنّي لست متأكّدًا، فأنا لا أذكر المرة الأولى، وأنتَ أيضًا لا تذكرها. تذكر، قلت لي، إنّني كنت وحيدًا في معكسر الأشبال. كانت أمّي قد ذهبت إلى الأردن، وتركتني مع جدتي . كنتُ في التاسعة من عمري، أذكر أنّها تركت لي ورقة بيضاء حفرت عليها أشياء لم أستطع قراءتها. فأمّي لم تكن تعرف القراءة والكتابة، أذكرها الآن بشكل غامض، أذكر امرأة خائفة تعبطني وتنظر إلى كل الناس بريبة، وتقول إنهم سيقتلوننا كما قتلوا أبي. وكنت أخاف من عينيها، كان في عينيها شيء عميق لا أستطيع النظر إليه. فالخوف يا أبي ينام في العيون. وفي عيني تلك المرأة التي كانت أمي، رأيت خوفًا باردًا لم أتخلّص منه إلا حين التقيت بعيني شمس.

أعرف أنك ستضحك عليّ، وتقول إنّني لم أحب شمس، وتطلب مني أن أدعوك أبو سالم، لأنّ سالم سلم من الموت، وعلينا أن لا نموت.

كنت تسمي نهيلة أم سالم، وتقول لها في المغارة أو تحت شجرة الزيتون، أن تتخذ لنفسها اسم ابنها الثاني الذي صار ابنها الأول.

الحقيقة، إنّني لم أعد أعرف الحقيقة، فأنتَ لم ترو لي حكايتك، جاءت الحكاية هكذا، بين نتف الكلمات. وأنا أردتك أن ترويها لي كلّها، ولم أجرؤ أن أطلب منك ذلك. كلمة لم أجرؤ ليست دقيقة. الأفضل هو أن أقول إنّني لم أشعر بقدرتي على سؤالك. أو لم أجد المناسبة، أو لم أقدر أهمّيّة الحكاية، أو لا أدري.

اكتمل القمر يا أبي.

أدعوك أبي وأنت لست أبي. أنت قلت إنّ أمنيتك كانت أن يصبح سالم طبيبًا، لكنّ الظروف: الحكم العسكري ومنع التجول والفقر... فلم يستطع إكمال دراسته وصار ميكانيكيًا، وهو يملك الآن كاراجًا في دير الأسد، ويتكلّم العبريّة والإنكليزيّة.

قلت لي يا دكتور أنتَ مثل ابني، التقطتك وكنتَ في التاسعة، وأحببتك، وطلبت منهم في مخيّم الأشبال الاهتمام بك، وصرت ابني، أنت يتيم الأبوين وأنا يتيم الأولاد. تعال وكن ابنًا لي.

وصرت تناديني ابني الدكتور خليل، وأنا لست دكتورًا كما تعلم، فتدريب ثلاثة أشهر في الصين لا يجعل الواحد دكتورًا. عينتني طبيب

المخيم وطلبت مني تغيير اسمي كما يغيّر الفدائيون أسماءهم، لكنّي لم أغيّر اسمي، والفدائيون مضوا في السفن اليونانية، ولم يبق هنا سوى أنت وأنا. انتهت الحرب، ولم أعد طبيباً. بلى، طلب مني الدكتور أمجد، مدير مستشفى الجليل، العمل كممرض. هل هذا معقول، من طبيب إلى ممرض؟ قلت لا، لكنَّك جئت إلى بيتي ووبختني، وطلبت مني الالتحاق بالمستشفى فوراً.

كنت حين تحكي تفتح عينيك إلى أقصى ما تتسع له العينان، الكلام يخرج من عينيك، وصوتك يرتفع وأنا لا أجاوب. أحني رأسي واسترق النظر إلى عينيك المفتوحتين إلى آخر تخوم الأرض.

في مكتب الشباب، كنت تقف، تمسك بالكرة الأرضيّة وتبرمها وتبرمها، ثم تأمرها بأن تقف. وحين تتوقّف الكرة الصغيرة عن الدوران، تمد إصبعك وتقول: «هذه عكا، هنا السور، وإلى هنا يمتد السهل، وهناك قرى القضاء. هنا عين الزيتون، وهنا دير الأسد، وهنا البروة وهنا الغابسية وهنا الكابري وهنا ترشيحا وهنا باب الشمس. نحن يا أولاد من عين الزيتون، وعين الزيتون صغيرة والجبل يلفّها كي يحميها. عين الزيتون أحلى قرية، لكنَّهم دمروها عام ١٩٤٨، جرفوها بعد أن نسفوا بيوتها، فتركناها إلى دير الأسد. أما أنا فأسَّست قرية لا يعرف أحد مكانها. قرية في الصخور تدخلها الشمس وتنام فيها».

الدكتور أمجد قال إنه غير متأكد. الطبيب قال وأنا أقول إنَّك تسمع الأصوات، لكننا لا ندري. أتدخل الأصوات وعيك، أم تبقى أصواتاً؟

قال الطبيب إنَّك لا ترى، ولم أسأله ماذا يعني ذلك. أيعني أنَّك في الأسود، وهل الأسود لون؟ أم أنَّك في اختفاء الألوان. وماذا يعني اختفاء الألوان. هل ترى ذلك المزيج الخائف بين الأبيض والأسود الذي نسمّيه الرمادي؟ أم ماذا؟ لا ترى الألوان أي أنَّك لست في الأسود، بل في مكان لا نعرفه. ألا تخاف هذا الذي لا تعرفه؟

أنت قلت إنَّك لا تخاف الموت. وإنَّك لم تخف إلا مرّة واحدة، حين عشت مع الموتى في غابة الزيتون، وقلت إنَّ الإنسان يموت لأنَّه يخاف، وإنّ الخوف هو التحت.

هل أنت في التحت؟ وماذا ترى؟

«العمليّة حسابية»، قلت لي، «نحن نخاف لأنّنا نعيش في الوهم، فالحياة منام طويل، الناس يخافون الموت، لكن كان عليهم أن يخافوا ما قبل الولادة. فهم قبل أن يولدوا كانوا في الظلام الأبديّ. لكنه الوهم. الوهم يعطينا شعورًا بأنَّ الحيّ يرث حيوات كل الآخرين. لذلك اخترعوا التاريخ. أنا لست مثقفًا، لكنّي أعرف أن التاريخ خدعة كي يتوهم الإنسان أنّه عاش منذ البداية، وأنّه وريث الموتى. وهذا وهم. الإنسان لا يرث ولا يؤرخ ولا شيء، وحياته معبر بين موتين، وأنا لا أخاف الموت الثاني، لأنّني لم أخف الموت الأول».

«ولكن التاريخ ليس وهمًا»، جاوبتك، و«إلا لماذا»؟

«لماذا ماذا»؟

«لماذا نقاتل ونموت. ألا تستحق فلسطين موتنا، أنت علّمتني التاريخ، وتأتي الآن لتقول إنَّ التاريخ حيلة للتهرُّب من الموت».

يومها ضحكت عليَّ، وقلت إنَّ أباك الشيخ الأعمى كان يتكلَّم هكذا، وإنَّ علينا أن نتعلّم منهم. لا أدري إذا تمَّ هذا النقاش في جلسة واحدة، فنحن لم نكن نناقش، بل نحكي، ولم تكن تنهي جملتك، كنت تقفز من كلمة إلى كلمة، دون أن تحفل بالأسباب والاستنتاجات لكنَّك ضحكت، كنت تضحك كمن ينفجر من الداخل. وكنت أُفاجأ بضحكك. فأنا كنت متأكِّدًا من أن الأبطال لا يضحكون. أرى صور الشهداء المعلَّقة على حيطان المخيم، ولم يكن الشهداء يضحكون، كانت وجوههم مقطبة ومحبوسة، كأنَّها تحبس الموت في داخلها.

أما أنت فلا.

كنت بطلاً وتضحك على الأبطال. والغضون الصغيرة التي تمتدّ على أطراف عينيك، جعلت فيهما ساحة للابتسام والضحك. كنت بطلاً يضحك ومع ذلك لم اقتنع بنظريّاتك ونظريّات أبيك عن الموت والتاريخ.

جاوبتني أنَّ ما يستحق أن نموت من أجله، هو ما نريد أن نعيشه.

«أنا عشت معها ومن أجلها. ففلسطين ليست قضية، بلى! بمعنى ما، لكنَّها ليست، فالأرض لا ترحل من مكانها. هذه الأرض ستبقى، والمسألة ليست لمن السيطرة، فالسيطرة على الأرض وهم. لا أحد يسيطر على الأرض

ما دام سينتهي مدفونًا فيها. الأرض تسيطر على الجميع وتأخذهم إليها. أنا يا حبيبي لم أحارب من أجل التاريخ؛ حاربت من أجل امرأة أحببتها».

لا أستطيع استعادة كلماتك الآن. كلماتك كانت بسيطة وشفافة ومنسابة. فأنت تحكي كأنَّك لا تحكي، وأنا أحكي كأنَّني أحكي. لكنّي أذكر أنَّك قلت عن الروائح. كنا نجلس أمام المستشفى ونشرب الشاي، وكان الربيع الكاذب. في ذلك العام تشقق الربيع في شهر شباط. كانت شمس شباط تشق الشتاء، وتخدع الأرض والأزهار، وكانت الأزهار الصفراء والبيضاء والحمراء، تخرج خجولة وسط ركام المخيم. يومها علّمتني كيف أتنشّق الطبيعة. وضعت كأس الشاي جانبًا، ووقفت، وعبّأت رئتيك بالهواء والرائحة. حبست الرائحة في صدرك، وبدأ وجهك يعبق بالاحمرار. وحين جلست وشربت جرعة من الشاي، وتحدثت عن الزعتر والياسمين والعليق والأزهار البريّة. قلت إنها كالمواسم. وفي كل موسم تأتي كهفك برائحة جديدة. تفلش شعرها الأسود الطويل، فتنتشر روائح الأزهار والأعشاب. وقلت إنَّك كنت تُسحر دائمًا بالروائح الجديدة، كأنَّها تصير امرأة مختلفة.

«المرأة يا ابني جديدة دائمًا، رائحتها تدلك عليها. المرأة رائحة العالم، وأنا معها تعلَّمت أن أملأ رئتي برائحة الأرض».

يومها فهمت معنى ما قلته لي عن موتها. فنهيلة لم تمت لأنَّ رائحتها في صدرك. ولكن أم حسن ماتت. ألا تريد المجيء معي إلى مأتمها؟ كل الناس يتجمعون الآن في منزلها ما عدا ابنها ناجي. ناجي في أميركا كما تعلم، وأنا يجب أن أذهب، أريد أن أحمل نعش أم حسن ولن أخاف أحدًا.

أرجوك قم، نذهب إلى مأتم أم حسن، ثم تعود إلى أولادك وتموت عندهم. اذهب ومت عندهم كما اقترحت أم حسن، وخلّصني.

هل تذكر أم حسن؟

أم حسن كانت أُستاذتي في الطب. نعم أُستاذتي. كنت في المستشفى حين جاءت حالة ولادة، وأنا لم يكن قد سبق لي وأن رأيت امرأة تلد. ففي الصين علمونا تضميد الجروح، واجراء عمليات بسيطة وهذا اسمه الطب الميداني. أما الطب الحقيقي فلم نتعلّمه.

كانت المرأة تتلوّى أمامي وأنا عاجز عن فعل أي شيء ثم تذكّرت أم حسن، أرسلت في طلبها وجاءت. قامت بعملية الولادة وعلّمتني كل شيء، كانت وهي تساعد المرأة على الوضع، تشرح لي كأنّها طبيبة تدرِّب طلابها. ومن يومها تعلّمت، وصرت اجرؤ وأقوم بتوليد الناس لكن الفضل لها. فأم حسن كانت القابلة القانونية الوحيدة في الكويكات، وهي تملك وثائق بريطانيّة تثبت ذلك.

وأنا أراها.

تضع اللكن على رأسها، وتنحني لتلتقط الأطفال في غابة الزيتون. هي في الحقيقة لم تلتقط سوى ناجي الذي صار ابنها. أخبرتك القصة ألا تذكر؟ كانوا في رحلتهم داخل فلسطين، فبعد طردهم من الكويكات، تاهوا في الحقول، ثم أقاموا على أطراف دير القاسي، وطردوا منها، فذهبوا إلى ترشيحا التي جاء الطيران الاسرائيلي وأحرقها، ليجدوا أنفسهم في الطريق إلى جنوبي لبنان، حيث كانت قانا محطتهم الأولى. وفي تلك الطريق، وضعت امرأة تدعى سارة الخطيب مولودها، وكانت أم حسن إلى جانبها. الناس يتراكضون حاملين الصرر فوق رؤوسهم، وسارة ترتمي تحت شجرة وتتلوى بالألم، قامت أم حسن بغسل المولود بماء ساخن، ولفّته بثياب عتيقة، وأعطته لأمه.

ومشى الجميع في رحلتهم الأخيرة. هكذا أسمى أهالي قرى الجليل هجرتهم الجماعية إلى لبنان. لكنّها لم تكن رحلتهم الأخيرة، بل كانت بداية رحلات تيه لا يعلم إلا اللّه كيف ستنتهي.

وفي الرحلة الأخيرة وفيما أم حسن تمشي واللكن فوق رأسها، وحولها أطفالها الأربعة وزوجها وأخوته وزوجاتهم وأولادهم، رأت صرة ثياب عتيقة مرمية تحت شجرة زيتون، واكتشفت أنها الثياب نفسها التي لفت بها طفل سارة. انحنت، حملت الطفل ووضعته في اللكن فوق رأسها وأسمته ناجي. أعطته ثدييها الناشفين، ثم أطعمته طحينًا مبلولاً بالماء. وفي قرية قانا، حيث كانت محطتهم الأولى، جاءت أم الصبي باكية تطلب استرداد ابنها. رفضت أم حسن، لكنّها في النهاية أعطته لأمّه، حين رأت الحليب ينفر من ثدييها ويبقّع ثوبها.

قالت أم حسن إنها أسمته ناجي، ولا يحق لأمّه أن تغيّر اسمه، وافقت سارة بهزة من رأسها، وأخذت الصبي وألقمته ثديها ومضت.

«ناجي ابني الوحيد الباقي»، قالت أم حسن «يرسل لي من أميركا الله يوفقه، صار أستاذًا في أحسن جامعة، وأنا أرسل له زيت الزيتون».

أراها تمشي وتلتقط الأطفال وتضعهم في اللكن فوق رأسها. كأنّها التقطتني، كأنّني ناجي، كأنّ طعم الطحين المبلول ما يزال عالقًا في فمي. كأنّي لا أعرف. والله لا أعرف. أم حسن ماتت هذا الصباح، ويجب أن ندفنها بعد صلاة الظهر، وأنت نائم كأنّك لا تفهم معنى موت هذه المرأة بالنسبة إليّ وإليك وإلى أهل المخيم.

أم حسن أخبرتني كل شيء عن فلسطين. طلبت منها قبل ذهابها لزيارة شقيقتها في الكويكات أو في ما تبقّى من الكويكات، أن تمرّ بالغابسية، وتضع لي قماشة على أحد أغصان شجرة السدرة قرب الجامع. قلت لها إن هذا نذر أبي، وأبي مات قبل الوفاء بنذره للشجرة، لكنه أوصى أمّي، وأمّي أوصتني قبل هربها إلى أهلها في عمان. وأنا لم أذهب، ولم أجرؤ على طلب ذلك منك، خفت أن تهزأ بي وبخرافات أبي. طلبت من أم حسن أن تصلّي في الجامع ركعتين، وتعلّق قطعة قماش سوداء على الشجرة وتضيء لي شمعتين.

حين عادت، أعطتني غصنًا مليئًا بحبّات البرتقال، وقالت إنها ذهبت إلى الجامع وصلّت.

«هل يتنجس الجامع إذا وضعوا فيه طرشًا»؟

أم حسن لم تسأل نفسها هذا السؤال، دخلت جامع الغابسية الذي تحتله الأبقار، ازاحتها، توضأت وصلت، ثم خرجت إلى السدرة، علّقت شريطًا أسود وأضاءت شمعتين.

قالت إن الشجرة مليئة بقطع القماش.

«لا أدري يا ابني، قريتكم مهجورة، وطرقاتها اختفت، والبيوت ليست مهدّمة، لكنّها متكئة على ما يشبه الخراب. لا أعرف لماذا تصبح البيوت هكذا حين يهجرها أهلها، البيت المهجور مثل المرأة المهجورة، يتقوقع على نفسه كأنّه يتساقط. لا أثر للحياة في قريتكم، لكنّ السدرة هنا والجامع هناك، والأقمشة تغطي الأغصان والشموع الذائبة تنتشر على مقربة من الشجرة».

قالت أم حسن إنها خافت من الشجرة حين أخبروها عن عمي الشيخ

عزيز أيوب، وكيف وجد ميتًا تحت الشجرة، لكنّها حين اقتربت من السدرة أحسّت بالخشوع، فركعت وبكت وأضاءت الشموع.

قالت إنها سمعت حفيف الأغصان المليئة بأرواح الموتى. «أرواح الموتى تسكن الأشجار»، قالت: «يجب أن نعود ونهز الأشجار كي تتساقط الأرواح وترتاح في قبورها».

قطعت حبّة برتقال من الغصن كي أذوق طعم برتقال فلسطين، فصرخت أم حسن لا، «هذه ليست للأكل، هذه فلسطين». خجلت من نفسي، وعلّقت الغصن على الحائط في صالون بيتي، وحين جئت لزيارتي ورأيت الغصن المتعفّن، صرخت ما هذه الرائحة أخبرتك القصة، ورأيتك تنفجر غاضبًا.

«كان يجب أن تأكل البرتقال»، قلت لي.

«لكن أم حسن منعتني، وقالت إنه من الوطن».

«أم حسن خرفانة»، جاوبتني، «كان يجب أن تأكل البرتقال. فالوطن يجب أن نأكله لا أن نتركه يأكلنا. يجب أن نأكل برتقال فلسطين ونأكل فلسطين والجليل».

يومها اكتشفت أنّ الحق معك، لكنّ غصن البرتقال كان متعفّنًا. تقدمتَ من الحائط ونزعت الغصن، أخذته من يدك ووقفت حائرًا لا أدري ماذا أفعل بتلك الكومة من العفن.

«ماذا ستفعل»؟ سألتني.

«سأدفنها في التراب»، قلت.

«ولماذا الدفن»؟

«لن أرميها، لأنها من الوطن».

أخذت الغصن من يدي، ورميته في المزبلة

«يا عيب الشوم»، قلت، «ما هذه الخرافات التي تليق بالعجائز. بدل أن تعلق بلادك على الحائط، اكسر الحائط واذهب. يجب أن نأكل كل برتقال العالم ولا نخاف، فوطننا ليس حبات برتقال، وطننا نحن».

أمّ حسن تنتظرني الآن، ألن تأتي معي؟ لن أخبرك ماذا فعلت في الكويكات حين زارت الجليل، أنا مستعجل الآن.

انهض يا رجل، واللّه أتعبتني، المرأة ماتت، وكل الناس في بيتها، والبكاء يخترق جدران المستشفى وأنت لا تسمع.

لن تأتي، طيب، سأذهب وحدي، ولكن قل لي، لماذا تبدو هكذا كطفل صغير مقمَّط بالشراشف البيضاء. منذ ثلاثة أشهر أراك تصغر، يا إلهي، فقط لو تستطيع أن ترى نفسك قبل أن تموت. حرام أن لا تعرف ماذا يجري، حرام أن لا ترى كيف الإنسان، فالإنسان لا يموت بل يعود إلى حيث كان. كنت أظن الشعراء يكذبون حين يقولون إنَّ الإنسان يعود إلى رحم الأرض. لا واللّه، لا يكذبون، فالإنسان يعود طفلاً قبل أن يموت. لا أحد يموت إلا الأطفال. كل الموت هو موت الأطفال. أطفال يبحثون عن أرحام أمهاتهم، ويتكوَّمون كما الجنين، وها أنت تعود طفلاً وتتكوّم حول نفسك ولا ترى. فقط لو ترى.

لا أسمعك جيدًا، لماذا تهمهم هكذا؟ لماذا تحرك يدك اليسرى، تريدني أن أخبرك عن نهيلة. فأنت تعرف القصة. ثم لا، لن أخبرك قصتها بعد اليوم. هل تعتقد نفسك بطل قصة حب؟ لماذا تنسى بطولاتك الأخرى؟ أم أنَّها ليست بطولات. قلت لي، «الناس يعتقدون أن المحاربين أبطال، وهذا ليس صحيحًا، فالإنسان يحارب كما يتنفَّس أو كما يأكل أو كما يذهب إلى المرحاض، الحرب لا شيء، يكفي أن تحارب حتى تحارب. البطولة شيء آخر، البطولة لا وجود لها، حتى الشجاعة ليست قيمة، قد يصبح الشجاع جبانًا والجبان شجاعًا. المهم»... وتوقفت عند كلمة المهم ولم تكمل.

يومها لم أسألك ما المهم. كنت أعرف جوابك، وكنت لا أريد سماعه مرة أخرى. والآن تريدني أن أروي، لا لن أروي. اليوم لا. اليوم أنا مشغول. ارحمني وانهض وخلصني، دخيلك خلِّصني، فأنا تعبان.

تعبت من كل شيء، من مرضك وشكلك الحزين، تعبت من وجه الطفل المدوّر المعلّق فوق عنقك، تعبت من الصلاة لأجلك.

هل تعلم أنِّي أصلّي؟

كانت جدتي تقول إنَّ الصلاة هي أن نفرش كلماتنا كسجادة على الأرض. وأنا أفرش كلماتي كي تمشي عليها.

فلماذا لا تنهض؟

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان في طفل.

لا، أنت لا تحب حكاية ناجي، قلت لي إنّ ناجي كلب. فرغم كل ما فعلته أم حسن من أجله. هاجر إلى أميركا وتركها في الفقر والوحدة.

أرى تكشيرة على وجهك، وأرى في عينيك المغمضتين نقاطًا سوداء، طيّب، لن نبدأ الحكاية بأم حسن ولا بناجي ولا بأميركا. سأخبرك قصة ثانية.

من الأول.

هل تذكر حين كنت تقول من الأول، وتضرب رجلك في الأرض. هل تذكر ماذا فعلت بعد استقالة عبد الناصر عام ٦٧. كان الناس يتجمّعون في أزقة المخيّم ويبكون. كان ليل ورطوبة وأشباح تبكي في العتمة. يومها وقفت في وسط الناس، وبصقت أرضًا، وقلت من الأول.

وبعد ١٩٧٠، وعودتك سالمًا من مذبحة الأحراش في جرش وعجلون. وقفت في المخيم، وقلت للمرأة التي جاءت تسألك عن ابنها، «من الأول يا امرأة». لم تقل لها إنّ ابنها مات، بل قلت من الأول ومشيت.

وبعد دخول الإسرائيليين بيروت. وبعد... وبعد...، كنت تبصق كأنّك تمحو الزمن، وتقول من الأول.

تريد الأول إذن.

وفي الأول، لم يكونوا يقولون كان يا ما كان، بل كانوا يقولون شيئًا آخر. ففي الأول كان أو ما كان. هل تعرف لماذا كانوا يقولون هذا في الأول. عندما قرأت هذه العبارة في كتاب عن الأدب العربي القديم، أذهلتني الفكرة. فهم في الأول، كانوا لا يكذبون. لا يعرفون لكنّهم لا يكذبون،

فيتركون الأمور غامضة، مفضّلين استخدام هذه «الأو» التي تجعل الذي كان كأنَّه ما كان، والذي ما كان كأنَّه كان. فتتساوى القصة بالحياة. فالقصّة هي الحياة التي ما كانت، والحياة هي القصة التي ما رُويت.

هل أعجبتك حكايتي؟

هذه ليست حكاية حقيقيّة، سوف تقول، لكنّي لا أعرف حكايات، فأمي تركتني صغيرًا وذهبت، قبل أن تخبرني بقيّة الحكاية. أمّا الحكايات التي أعرفها، فتعرفها أنت أيضًا.

أعرف أنَّ عينيك تشتعلان بالذكريات، وتطلبان أوّل الحكاية.

يقول أول الحكاية إنّك شبه ميت، ولا أمل بإيقاظك. الدكتور أمجد قال لي: «العوض بسلامتك»، لكنّي لم أقتنع، وقرّرت أن أجرِّب معك علاج الكلام.

كان أو ما كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، كان فتى اسمه يونس.

لا، يجب أن أبدأ من المكان الذي لا تعرفه، أي من هنا، من النهاية. لأنَّ الحكاية لا تبدأ إلاَّ من نهايتها، لا أريد أن يحدث معك ما كان يحدث معي، فأنا لم أكن أعرف نهاية القصص لأنّني كنت أغفو قبل أن تصل أمِّي إلى النهاية.

أما أنت فستعرف الحكاية من نهايتها.

تقول النهاية إنّها كانت التاسعة مساء. كنت أجلس على شرفة منزلي وسط حرّ آب ورطوبته وأشرب كأس عرق. لا شيء في الصيف مثل العرق، لأنَّه يجعلك تشتعل أكثر من الليل. وصرت كل ليلة، أداوي حزني وخوفي بالعرق.

كنت أشرب على الشرفة وآكل بندورة مملّحة وفستقًا، عندما سمعت طرقًا عنيفًا على الباب. فتحت لأجد آمنة أمامي بوجه مرسوم بالأسود. قالت أشياء لم أفهم منها سوى أنّك في المستشفى. اعتقدت أنّك متّ لا سمح الله، أخبرتني آمنة كيف أُغمي عليك وسقطت أرضًا كلوح من الخشب. وكنت أستمع وأنا أنتظر منها إيصالي إلى خبر موتك. ولم أحزن. شعرت بفراغ ينسكب داخل قلبي ولم أزعل. سألتها عن مكانك، فقالت في

المستشفى، حاولت الخروج من الباب كي أذهب إليك، لكنَّ آمنة لم تحد عن الباب. ظلّت جامدة في مكانها وتحكي. أنا أحاول الخروج، وهي تسدّ الباب بيدها كأنَّها تريد منعي.

قالت إنَّ المسألة بدأت ليلة أمس حين فقدت القدرة على النطق. قالت آمنة إنَّها أتت لزيارتك، وإنَّها حين دخلت بيتك وجدتك تحوم في الدار وتهمهم سألتك ما بك، فجاوبتها بلسان عاجز عن صنع الكلمات.

«لحظتها فهمت»، قالت آمنة. «ركضت إلى المستشفى وأخبرتهم، لكن لم يأتِ أحد». قال لها الممرِّض إنَّه سيرسل في طلب الدكتور أمجد، لكنَّ الدكتور لم يأتِ.

«وبقيتُ معه كل الليل، هل تعلم ماذا كان يعني ذلك، كان يدور في بيته ولا يهدأ، يرفع يده اليسرى إلى الأعلى، ويرتفع صوته بكلمات غير مفهومة، حاولت تهدئته، أجلسته وسقيته كاسة ينسون، أمسكته من ذراعه وأخذته إلى غرفة نومه، لكنّه حين رأى السرير صار يركض ويهذي وأنا أركض وراءه. فتح باب البيت وحاول الخروج. انظر إلى كتفي، جسدي مليء بالبقع الزرقاء، لا لم يضربني، لكنَّه كان قويًا كثور، وأنا أركض خلفه وأبكي».

«طيب طيب يا آمنة»، وحاولت أن أفتح لنفسي طريقًا كي أذهب إلى المستشفى، لكنَّها سدّت الطريق بيدها.

قالت إنَّها كانت وحدها معك، وإنَّك أخفتها، وإنَّها ركعت أمامك وصارت تضرب صدرها بقبضتها وإنَّك... قالت إنَّك هدأت عندما رأيتها راكعة أمامك، نظرت إليها كأنَّك لا تفهم، ثم سقطت أرضًا.

عندما قالت إنَّك سقطت، قمت بفتح ثغرة لنفسي بين يدها المستندة إلى الحائط والباب، وخرجت.

مشت آمنة ورائي وهي تحكي وتلهث، وأنا لا أستمع. وأمام باب المستشفى، قالت إنَّ الأطباء كلاب، وإنَّني طبيب مثلهم ولا رحمة في قلبي، وإنَّها انتظرتهم حتى مساء اليوم. وبقيت وحدها معك.

دخلت المستشفى مهرولاً إلى غرفة الممرضين، كي ألبس روبي الأبيض وأذهب إليك، فركضت آمنة خلفي، وقالت إنَّ اللّه لن يسامحنا، ثم برمت ظهرها واختفت.

أنت عاتب على آمنة لأنَّها لا تأتي لزيارتك، لا تزعل منها، فهي لا تعرف أنَّك تسمع وتشعر وتحزن. قالت إنَّك رحت، وهي مقتنعة بذلك، فلماذا تأتي؟

من هي آمنة عبد الرحمن؟

هل هي قريبتك كما قلت لي؟ هل كنت تحبها؟ ولماذا لم تحكِ عنها؟

الحقيقة يا سيدي أنه يجب أن تخبرني قليلاً عن نسائك، فأنت رجل محوط بالنساء، وهناك شيء غريب في وجهك الأبيض المدوّر، يوحي بالحب. إنَّه وجه رجل معشوق. كنت لا تتحدَّث عن نفسك إلا بوصفك عاشقًا، ولكنّي أعتقد أنَّك كنت تخفي عشيقاتك عن الناس. تتحدَّث فقط عن امرأة واحدة، وحتى هذه لم تتحدَّث عنها إلا قليلاً، أنا جمعت الحكاية ورتبت جملك المشتّتة وصارت حكاية. أمّا أنتَ فلم تحكِ عن الحب إلا عرضًا، وكنت تقفز فوق الحكاية الأصلية كأنَّها بركة ماء تخاف من الغرق فيها. مرة واحدة تجرأت وسألتك أين كنت تمارس الحب مع نهيلة، لم أذكر الاسم، بل وضعت مكانه ضميرًا وسألتك، فابتسمت. يومها كان مزاجك رائقًا، التمعت عيناك، ورفعت يدك اليمنى بعلامة استفهام، وقلت هناك في الصخور، وسكتت. وكان عليَّ أنا، أن أجمع جملك الاعتراضية وهمهماتك، وأحولّها قصة أرويها لك.

الآن لم يعد باستطاعتك إسكاتي، أحكي ما أشاء، وأقول لك إن هذه هي حكايتك، لكنَّ هدفي ليس تأليف حكاية، فأنا مجرد نصف طبيب ينتظر موته على أيدي أفراد عائلة شمس الذين يريدون الانتقام.

وعدتك أن أبدأ من النهاية، والنهاية سوف تكون قيامتك من هذا السرير الذي يشبه التابوت. سوف تقوم، وتكون طويلاً وعريض المنكبين، تحمل عصا في يدك وتعود إلى بلادك. وهناك سوف تذهب أولاً إلى مغارة باب الشمس، لن تذهب إلى قبر نهيلة حيث يتوقعك الجميع، سوف تذهب إلى باب الشمس، وتدخل مغارتك - قريتك وتختفي.

هذه هي النهاية الوحيدة التي تليق بحكايتك، وأنت لن تخون الحكاية.

أعرف ماذا ستقول وكيف ستبرم كلمة خيانة في فمك قبل أن تعلن ضرورتها. فحياتك كانت سلسلة من الخيانات. سوف تقول إنه من أجل أن لا نخون يجب أن نتغيّر، أي أن نخون.

سوف تروي لي عن علاقة الفتى الذي كنته في «الجهاد المقدّس» مع عبد القادر رحمه الله، بالشاب الذي صرته في كتائب الفداء العربي، ثم في حركة القوميّين العرب.

وستقول إن الرَّجل الذي صرته في قيادة إقليم لبنان في حركة فتح، هو امتداد لذلك الشاب، لكنَّه يختلف عنه في كل شيء.

وستحدثني عن الكهل الذي صرته، والذي يحلم اليوم بخيانة جديدة، لأنَّ شيئًا ما يجب أن يبدأ.

أين كنا؟

هل تعرف أن هذا الجلوس الطويل في غرفتك يجعلني عاجزًا عن التركيز، فأقفز من حكاية إلى حكاية، وتضيع مني الأشياء، وأنسى بماذا بدأت.

كنت أخبرك عن آمنة، لا! آمنة جاءت عرضًا، كنت أروي لك كيف جاؤوا بك شبه ميت إلى المستشفى. حملناك إلى غرفتك، ووضعناك في السرير. كنت مغمض العينين وترتجف بالحرارة. وضعوا لك مصلاً في شريان يدك اليمنى، بعد أن ربطوها إلى حافة السرير، كي لا تمزّق إبرة المصل شريانك، لأنَّك كنت ترتجف كثيرًا وتبلعط.

وقفت، لا أدري ماذا أفعل. كنت وحدي في غرفتك، أستمع إلى أصوات المرضين التي تأتيني من الممر، وأشمّ الرائحة. تلك كانت المرة الأولى التي أشمّ فيها رائحة مستشفى الجليل. لماذا لا ينظّفون المستشفى؟ ولماذا لم أنتبه قبل اليوم؟ أنا آتي يوميّاً إلى هنا، صحيح أنَّني لا أعمل بشكل جدّي، لأنَّني رفضت الانحدار من مرتبة الطبيب الذي كنته إلى وضعيّة الممرّض، لكنّي لم أشمّ هذه الرائحة الكريهة قبل الآن. غدًا سوف أنظّف كل شيء.

لكنّي غدًا لم أنظّف كل شيء، ومرّ غدٌ وبعده غدٌ، دون أن أفعل شيئًا. يبدو أني تعوّدت، فالرائحة ليست مشكلة، الروائح تتغلغل فينا وتشربنا، لذلك لا تكون إلا في الأول.

نعود إلى الأول.

خرجت من غرفتك بحثًا عن الدكتور أمجد، فوجدته يجلس في عيادته يدخّن ويشرب القهوة ويقرأ الصحف.

دعاني إلى الجلوس، فبقيت واقفًا.

«اقعد يا رجل، ما لك» قال.

فسألته بكلمات متعلثمة عنك.

«جلطة في الدماغ»، قال.

«والعلاج»؟

«فالج لا تعالج»، جاوبني.

«غير معقول»، قلت.

«اللّه هو الشافي» قال. «كبّر عقلك يا دكتور خليل، القضية انتهت، لا أعطيه أكثر من ٧٢ ساعة».

«ومسيّل الدم، هل أعطيته مسيّلاً»؟

«لا لزوم لمسيّل الدم، أجرينا له «سكانر»، واكتشفنا أن النزيف يغطي أكثر من نصف الدماغ، وهذا يعني أنَّنا انتهينا».

و«الحرارة»؟ سألت.

سألت كأنّي لا أعلم وأنا أعلم. يا لطيف كيف يصير الإنسان جاهلاً. أمام الدكتور أمجد نسيت كل علومي الطبّيَّة، ووجدت نفسي مثل الأهبل، وكأنّي لا أعرف شيئًا.

وقفت أمام الدكتور أمجد أسأل وأسأل، والطبيب يجاوبني باقتضاب، متبرّما بأسئلتي، كأنَّني أقاطعه عن عمل هامّ.

أفهمني الدكتور أمجد أنَّك ستموت خلال ثلاثة أيام، وطلب مني الاتّصال بأقربائك من أجل ترتيبات الجنازة، لكنّي بدلاً من محاولة الاتصال بآمنة، عدت إلى غرفتك وبدأت في مزاولة عملي.

لقد أعدتني إلى الطب الذي كرهته ونسيته، وأريد أن أقول لك لا تخف من الحرارة، فتقديري أنَّ الجلطة حصلت في مكان قريب من منطقة الحرارة في الدماغ، وضغط الدم في هذه المنطقة، يقوم بتعطيل توازن الحرارة في جسمك. وهذا يعني أنَّ الحرارة ستزول بعد انحسار الدم.

لا تخف.

أنا لا أوافق الدكتور أمجد على أنّ ارتجافتك هي احتضارك. كنت

ترتجف من الحرارة، والحرارة ستزول. وكما ترى الآن، كان الحق معي. ولكن هل تذكر ماذا فعلت الممرّضة زينب؟ انحنت فوقك وبدأت تمسّد لك صدرك بكفّيها. وعندما سألتها ماذا تفعل، قالت إنها تساعد روحك على الخروج من جسدك.

«ألا ترى كيف ترتجف روحه»؟ قالت.

«هذه حرارة يا حمارة»، صرخت بها، وطردتها من الغرفة، وأقفلت الباب، وجلست لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل.

في تلك الأيام الأولى ضربني اليأس. ثلاثة أيام لم أغادر فيها غرفتك. أغيّر لك المصل، وأضع فيه المضادّات الحيويّة، والدكتور أمجد يهزأ مني قائلاً إنه لا علاقة للحرارة بأي التهاب.

لكنّي كنت أريدك أن لا تموت. ليس لأنّني كافر كما قالت الممرِّضة زينب، فأنا لست كافرًا، ولكنّني لا أريدك أن تموت في السرير.

هل تذكر ماذا قلت لي عندما زرتك معزّيًا بنهيلة؟ استقبلتني بهدوء، وسقيتني القهوة العربية المرّة. سألتك، كما يفعل المعزون عادة، عن ظروف موتها ومرضها، فلم تجاوبني بأيّ تفصيل. قلت إنّها ماتت في المستشفى في مدينة الناصرة. ثم بدأت تردّد بصوت منخفض أبيات المتنبي.

رويت الشعر كأنّك قائله، وقلت إنّك لن تموت هنا. قلت إنّك سوف تمضي كي تموت هناك.

«وإذا مت هنا، حاولوا دفني هناك».

«بأمرك يا أبو سالم»، قلت.

لكنّك نظرت إليّ بعينين غاضبتين، وقلت إن هذا مستحيل، لأنّك تعلم أنّ النهاية سوف تكون في مقبرة في المخيّم، سوف تتحوّل بعد سنوات قليلة ملعب كرة قدم. وأشرت إلى المقبرة الجماعيّة لضحايا مذبحة شاتيلا عام ١٩٨٢، حيث يلعب الأولاد كرة القدم، وتنتشر النفايات فوق القبور. وعدت إلى شعر المتنبي:

«نُعِدُّ المشرفيّة والعوالي
وتقتلنا المنون بلا قتالِ
نودّع بعضنا بعضًا ونمشي

أواخرنا على هام الأوالي».

يومها هل تذكر، يومها اقترحت عليك أن تذهب فورًا إلى دير الأسد، فقلت إن الأوان لم يأتِ بعد، وإنك تعود حين تأتيك العودة.

ثلاثة أيام في غرفتك، أحاول المستحيل كي أنقذك من الموت. كنت تفتح عينيك الحمراوين، فأقوم أنا بإغلاقهما لك، لأنّ بقاء العيون مفتوحة، يشكّل خطرًا كبيرًا على القرنيّة. فالعين ليست مرآة، العين شبكة من المرايا التي يجب عدم تعريضها للهواء طويلاً، وإلا فسدت. ركّزت كلّ اهتمامي على عينيك كي لا تفقد البصر. فأنا في الأيّام الأولى، كنت على يقين من أنّك ستقوم من هذه الغفوة.

والغريب، أنّني في اليوم الرابع عندما انخفضت حرارتك واستقرّ وضعك في السرير، شعرت بخوف شديد، فأنا كنت على يقين من أنّ هبوط الحرارة سوف يعني بداية عودتك إلى الوعي. لكنّ استقرار وضعك الصحي قادك إلى السُبات. حتى عيناك لم تعد تفتحهما أبدًا. صرت أفتحهما، وأمرّر إصبعي أمامهما، والبؤبؤان جامدان لا يتحرّكان. وبدأ البياض ينتشر في العينين، ذهب الاحمرار، وجاء هذا البياض المائل إلى الزرقة.

«دخل في السبات»، قال الدكتور أمجد.

«وما معنى السبات»؟ سألته.

«يعني لا أعرف»، قال: «سيبقى هكذا حتى يموت».

«ومتى يموت»؟

«لا أستطيع تحديد الوقت، لكنّه سيموت».

قرّر الدكتور أمجد الاستعاضة عن حقنة المصل، بأنبوب طعام يدخل من الأنف. اعترضت في البداية، ثم اكتشفت أن الحقّ معهم، فأنبوب الطعام سوف يعيد الحياة إلى أحشائك.

وصرت أعدّ لك طعامك بنفسي. استغنيت عن الطعام الأصفر الجاهز الذي يقدمه المستشفى، ومزجت لك الحليب بالموز. موز وحليب وعسل. ومنذ ثلاثة أشهر وأنت لا تأكل سوى الحليب كأنّك طفل.

أصحيح أن الطفل الحديث الولادة يكون سعيدًا كما يبدو لنا، أم أنَّه مثلك، يفتح عينيه بألم، ويرفض الانخراط في هذه الحياة التي ندفعه إليها دفعًا. كلّ أفكاري حول الطفولة تغيّرت معك. ومع ذلك، ورغم الألم، فإنَّني أحلم بإنجاب طفل، فالطفل يعطيك شعورًا بأنَّك موجود في الآخرين، وأنَّك لن تموت.

هذا شعور خاطئ، سوف تقول.

وسأوافقك الرأي، لكنّي قلت لشمس حين أحببتها إنَّني أتمنى أن أنجب معها طفلاً أسمر يشبهها. لا ليس صحيحًا أنَّني شاركت في قتلها، واللّه لا علاقة لي. المشكلة لم تكن معي، بل مع سامح أبو دياب. قتلوها ثأرًا لسامح بعد أن قتلت سامح ثأرًا لشرفها، وأنا على الهامش. قالت إنَّها تحبّني وذهبت وقتلت سامح. واللّه لم أخطئ في حقها، أحببتها مثل الحب، لكنَّها ذهبت وماتت. قتلته وماتت بعده، وهذا يكفي، لا أريد التحدُّث عنها أكثر من ذلك.

بالي مشغول عليك، فأنت مستقر في هذا الموت، كأنَّك حوَّلت غيبوبتك المؤقّتة إلى وضع دائم.

هل تريد أن تعرف ماذا جرى لي، بعد أن استقرَّ وضعك في هذا الغياب؟

في البداية اجتاحني شعور إجراميّ، ركبتني فكرة واحدة، وهي أن الحلّ الوحيد هو أن أضع مخدّة على وجهك وأضغط حتى تموت اختناقًا. أقتلك قتلاً، بدم بارد وهدوء وحقد. شعرت نحوك بحقد حقيقيّ. ادّعيت أنَّني حاقد على الدنيا لأنَّها فعلت بك ما فعلت، لكن لا، فأنا لم أحقد على الدنيا ولا على القدر ولا على اللّه، بل حقدت عليك أنت بالذات. على يونس أو أبو سالم أو عز الدين، أو لا أدري أيّ اسم يليق بك في هذا السرير.

لا، ليس قتل الأب، كما يقولون في علم النفس، أنت لست أبي، وأبي قتلته أنا وقتلت صورته بعد أن قتلوه أمام بيتنا من زمان. وعشت مع جدّتي التي كانت تنام على وسادتها العجيبة. كنت قد وعدتك بأني سأجلب لك المخدّة، لكنّي نسيت. أجلبها غدًا. وعلى كل حال، لم تعدّ مخدّة جدتي مثل المخدّات، صارت كومة شوك. الأزهار في داخلها ذبلت ونشفت وصارت شوكًا. كانت جدّتي تحشو مخدّتها بتويجات الأزهار، وتقول إنَّها

حين تضع رأسها عليها، تشعر وكأنّها عادت إلى قريتها، وتجبرني على وضع رأسي على المخدّة. أسند رأسي على مخدّتها وأشمّ رائحة العفن. ذهبت إلى الفدائيّين وأنا في التاسعة هربًا من أزهار الغابسيّة التي كانت تقطفها جدتي من مزبلة المخيم. كرهت رائحة العطر المتعفّن، وصرت أربط بين فلسطين ورائحة المخدّة. وكنت مقتنعًا وما أزال بأنّ جدتي أصيبت بخرف الأزهار. وهو مرض شائع عند الفلاحين الفلسطينيين الذين طردوا من قراهم.

ويوم بدأ احتضارها الطويل استدعتني إليها. جاء زوج عمّتي إلى قرية كفرشوبا في الجنوب اللبنانيّ، حيث أقمنا أوّل قاعدة للفدائيّين، وطلب مني النزول إلى بيروت. وفي بيتها في المخيّم كانت المرأة تحتضر فوق مخدّتها. عندما رأتني أشرق وجهها بابتسامة شاحبة، وأشارت بيديها كي يتركونا وحيدين في الغرفة. وبعد أن تأكدت من خروج الجميع، طلبت مني الجلوس إلى جانبها في السرير. وقالت بصوت منخفض إنّها لا تملك شيئًا تتركه لي سوى هذه، وأشارت إلى مخدتها. وهذه، وأشارت إلى ساعتها. وهذا، وأشارت إلى المصحف الشريف.

أمسكتني من يدي وشدّت عليها، كأنّها لا تريد أن تموت، وقالت إنّها اشتاقت إلى أبي، ثم أغمضت عينيها، وبدأ تنفّسها يتقطّع، حاولت أن أفلت يدها، فلم أستطع، فصرخت، وجاءت النساء، وبدأن يبكين. لكنّها لم تمت. مكثت ثلاثة أيام في انتظار موتها، ثم عدت إلى كفرشوبا، وبعد أسبوعين كان عليّ أن أنزل إلى بيروت من جديد، من أجل مأتمها.

وكما ترى، الساعة لا أعلم أين خبأتها، والمصحف دفن معها كما قرّرت نساء المخيم، والمخدّة ما تزال معي. تذكّرت مخدّة جدتي، لأنّي أردت قتلك بمخدّة. غدًا أجلبها لك قبل أن أرميها. يجب أن أرمي مخدة الأزهار المليئة برائحة العفونة. والغريب أنّ كل الذين دخلوا بيتي لم يشمّوا رائحتها. حتى شمس لم تشمها. أنا وحدي أشم تلك الرائحة السرية التي تبعث فيّ شعورًا بالغثيان.

أردت قتلك بالمخدّة لأنّي حقدت على إصرارك العجيب على التمسّك بالحياة، لكنّي تردّدت وخفت، وانتهى الموضوع.

غدا أجلب لك مخدّة جدّتي، وأفتحها لأرى ماذا في داخلها. جدّتي كانت تغيّر الأزهار مع بداية كل فصل، وأعتقد أنّها كانت تتوقّع منّي متابعة هذا التقليد العائلي. أريد أن أفتح المخدّة كي أرى ماذا حلّ بالأزهار. لماذا يصير الإنسان ترابًا بعد موته، بينما تصير الأشياء أشياء أخرى؛ غريب، ألم يخلقنا الله كلنا من تراب؟

غدًا أفتح الوسادة وأخبرك.

قلت إنّني أردت خنقك، ثم تلاشت تلك الرغبة. كان شعورًا عابرًا، مضى إلى غير رجعة. لكنّني شعرت بذلك الشيء الغريب في داخلي. كيف أصفه لك، كأنّه إنسان آخر يعيش معي، يقفز من داخلي، ويجعلني قادرًا على القتل وتدمير كل شيء. وكنت عندما أشعر بهذا الإنسان الآخر، أهرب من غرفتك وأدور في غرف المستشفى، ثم أهدأ قبل أن أعود إليك. الآن صرت هادئًا وبطيئًا، أشعر الأشياء بطيئة حولك وحولي، فقرّرت قتل الوقت بالكلام. هل سمعت هذه العبارة المخيفة التي نستخدمها في لغتنا اليوميّة، نقتل الوقت! الوقت هو الذي يقتلنا ومع ذلك ندّعي أنّنا نقتله!

كي أقتل الوقت ولا أسمح له بقتلي، قررت أن أكتشفك من جديد.

في البداية، أي بعد أن استقررت في السبات، وزالت عنك الحرارة، كانت رائحتك غريبة. لا أستطيع شرح فكرتي، فأصعب شيء هو تحديد الرائحة. فلأقل إنّها رائحة الكهولة. يبدو أنّ هناك هرمونات خاصّة بالعمر تفرز هذا النوع من الروائح. رائحة الكهولة تختلف جذريّاً عن رائحة البلوغ، وخاصة عند الفتيان، حين فجأة وفي سن الثالثة عشرة تفوح منهم رائحة الرجولة والجنس. رائحة الكهولة مختلفة، خافتة وشاحبة، وتشبه وسادة جدّتي، وهي رائحة مزعجة. لا، لم أقل إنّني قرفت منها، معاذ اللّه، لكنّي انزعجت، واعتقدت أنه يجب أن أقوم بتحميمك بنفسي، أدعكك بالصابون مرّتين في اليوم، لكنّ الرائحة كانت أقوى من الصابون. ثم بدأت تلك الرائحة بالزوال، لتحلّ مكانها رائحة جديدة. لا، لم أتعوّد رائحتك كي أقول ما أقوله، المسألة طبيّة وواضحة وتتعلّق بالهرمونات. وأعتقد أنّك لست أدري كيف، بدأت دورة حياة جديدة، لا أستطيع تحديدها الآن، لكني أستشفّها من رائحتك.

ولأنَّ الشيء بالشيء يذكر، كما تقول العرب، أريد أن أقول لك إنَّك غلطان. نظريّاتك عن الكهولة والشباب خاطئة مئة بالمئة. أذكر أني التقيت بك في أحد صباحات شباط الماطرة وأنت تمارس رياضة الركض. استوقفتك وقلت لك إن الركض بعد الستين يضرّ بالقلب والرئتين، وإن عليك ممارسة رياضات خفيفة كالمشي، لأنَّها تساعد على تلافي السمنة وما ينتج عنها من انسداد الأوعية الدموية. وقلت لك إن على الكهول ممارسة رياضة الكهول.

يومها، دعوتني إلى فنجان قهوة في بيتك، والقيت عليَّ محاضرة طويلة عريضة عن الكهولة. «اسمع يا ابني، أبي كان كهلاً، لم أعرف أبي إلا كهلاً هل تعلم لماذا؟ لأنَّه كان أعمى. الإنسان يصير كهلاً في الأربعين وليس في الستين، لأنَّه يفقد شيئين لا يمكن تعويضهما: البصر والأسنان. الكهولة هي أن يشح بصرك وتتساقط أسنانك. في الأربعين يغزو الشيب رأسك، وتتسوّس أسنانك ويضعف نظرك، فتبدو كهلاً. لكنَّك في داخلك تبقى شاباً، كهولتك تأتي من نظرة الآخرين إليك، ومن أولادك. بلى، صحيح، بالإضافة إلى العيون والأسنان هناك الأولاد. نحن الفلاحين نتزوَّج باكرًا، أنا تزوَّجت في الرابعة عشرة، فتخيّل معي أعمار أولادي وأحفادي وأنا في الأربعين. الكهولة يا ابني لم تعد موجودة اليوم لسببين: الأول هو اكتشاف النظارات، بحيث لم يعد شحّ البصر مؤثّرًا في شيء، والثاني هو طب الأسنان، بحيث صار الإنسان، لا يقلع كلّ أسنانه قبل السبعين أو الثمانين. وها أنا اليوم، أسناني في فمي، ونظاراتي تسمح لي بالقراءة، فكيف تصفني بالشيخ العجوز. الشيخوخة وهم. الإنسان، يا ابني يشيخ من الداخل وليس من الخارج. طالما بقي العشق في قلبك، فهذا يعني أنَّك لست شيخًا».

أردت يومها أن أسألك متى رأيتها آخر مرَّة، لكنّي استحيت. وقفت وبدأت تأمّل الصور المعلقة على الحائط. سبعة أبناء وثلاث بنات وخمسة عشر حفيدًا، وفي الوسط صورة إبراهيم الذي مات طفلاً. خمسة وعشرون إنسانًا هي المحصلة الأوّليّة لتلك المغامرة التي صنعتها.

أنت أخبرتني عن غسّان كنفاني.

قلت إنّه جاءك بتوصية من الحكيم جورج حبش، كي تخبره قصتك ويكتبها. أنت دربت جورج حبش ووديع حداد وهاني الهندي، وكل الرعيل الأول. لماذا لم تخبرني كيف كانت تلك التجربة؟ ثم لماذا التحقت بفتح وقوات العاصفة، أمن أجل أبو علي أياد، كما قلت لي، أم لأنّك كنت ضد خطف الطائرات؟ أم حبّاً بالتغيير.

جاء غسّان كنفاني، ورويت له، وسجّل ملاحظات، ثمّ لم يفعل شيئًا، ولم يكتب قصتك.

لماذا لم يكتبها؟ هل أخبرته القصة؟ فأنت لم تخبر قصتك لأحد، لأنّ الجميع كانوا يعرفونها، فلماذا تخبرها؟

عجيب أمر هؤلاء الكتّاب، لا يعرفون أن القصص الحقيقيّة لا تروى لأنّ الناس يعرفونها. غسان كنفاني كان شيئًا آخر. قلت لي إنّك أحببته وحاولت أن تروي له كل شيء. لكنّه لم يكتب، هل تعلم لماذا؟

يوم جاءك، وكان ذلك في أواخر الخمسينات، لم تكن قصتّك قد أصبحت قصّة. كان المئات يتسلّلون من لبنان إلى الجليل. بعضهم يعود وبعضهم الآخر يقتل برصاص حرس الحدود. لذلك، ربما، لم يتابع كنفاني الموضوع معك، لأنّه كان يبحث عن حكايات رمزية، وأنت لم تكن أكثر من حكاية رجل عاشق، أين الرمز في هذا العشق الذي لا مبرر له؟ كيف أردته أن يصدِّق حكاية غرامك بزوجتك؟ وهل تستحقّ قصّة غرام رجل بزوجته أن تكتب؟

لكنك دخلت الأسطورة دون أن تعي. وأريد أن أؤكّد لك أن كنفاني، لو لم يقتله الإسرائيليون عام ١٩٧١، عبر تفجير سيارته في بيروت، وتمزيق جسده، لكان الآن يجلس معي في هذه الغرفة، محاولاً جمع شتات حكايتك.

الأيّام تغيّرت.

كان يجب أن تموت في هذا السرير البارد كي تصبح حكاية. أعرف أنّك تضحك مني، وأنا موافق معك، المهم ليس الحكاية بل الحياة. ولكن ماذا نفعل حين تحاول الحياة إخراجنا من لعبتها؟ المهم الحياة، وهذا ما أحاوله معك، فلماذا لا تقتنع؟ لماذا لا تنهض الآن، وتنفض الموت عن جسدك، وتخرج من هذا المستشفى؟

أنت لا تحبّ القمر، ولا تحبّ المغنّي الأعمى، ولا تستطيع أن تنهض.

ولكن ضوء القمر هو الضوء. ما هذه الحضارة الشمسية التي تقتلنا. وحده ضوء القمر يستحق أن يسمّى ضوءًا. أنت أخبرتني عن ضربة القمر قلت إنّكم كنتم تخافونها أكثر من ضربة الشمس، لذلك كنتم تبحثون عن الفيء من القمر وليس من الشمس.

الحقيقة يا سيدي أن نظريّاتك حول الكهولة خاطئة. فالمسألة ليست في العيون والأسنان، إنّها في الرائحة. الكهولة هي هذا الموت الزاحف الذي يشلّ الجسد والروح. وهي لا تأتي الأ بشكل مفاجئ. طبعًا أستطيع الموافقة معك على أنّ السبب النفسي كان حاسمًا في حالتك، فأنت اكتهلت فجأة حين ماتت نهيلة. غير أنّ موتها لا يفسّر كل شيء، فأنت ما تزال معشوقًا من نساء أخريات، ومع ذلك فرطت.

— لا تضع إصبعك على شفتيك طالبًا مني السكوت. أنا حرّ، وسأقول ما أشاء. لا تريدني أن أحكي عن مدام ندى فيّاض؟! طيب لن أحكي، لكنّها جاءت أمس، ووقفت بباب غرفتك وبكت. امرأة في حوالى الستين من عمرها، جاءت ووقفت بباب الغرفة رافضة الدخول. هذه هي المرّة الرابعة التي تأتي فيها خلال ثلاثة أشهر. وأمس لحقت بها، وطلبت منها الدخول. أوقفتها في الممر، أشعلت سيجارة وقدّمتها لها، وكانت تبكي بحرقة والكحل يسيل على عينيها.

قالت إنّها لا تدخل الغرفة لأنّها لا تريد رؤيتك هكذا. «مش معقول»، قالت: «كيف يعني، تفو على هالدنيا».

فوجئت بلهجتها.

قالت إنّها من الأشرفية في بيروت، وإنّ اسمها ندى فياض، وإنّها تعرفك من زمان، وإنها كانت تعمل معكم في مكتب إعلام فتح في الحمرا.

هل كنت تعمل في الإعلام؟ وما علاقتك بالإعلام والصحافيّين والمثقّفين؟ كنت دائمًا تقول إنّك فلاح ولا تفهم في هذه الخزعبلات! أم أن مدام ندى تكذب؟

سألتني إذا كنت ابنك، وقالت إنّني أشبهك كثيرًا، ثم قبّلتني على خدي ومضت. لا بدّ وأنّك رأيتها حين دخلت، لكنّك لم ترد أن تكلّمها. لماذا لا

تكلّمها؟ هل تعرف قصتك مع نهيلة؟ أم أنّك أخفيت عنها الحكاية، وأخبرتها رواية مختلفة عنك وعن زوجتك وأولادك ورحلاتك إلى بلادك؟

قل الحقيقة، واعترف بأنّك أقمت علاقة مع هذه المرأة، وربما أحببتها، قل لي إنّك أحببتها حتى أصدّق حكاية حبك الأخرى. كيف تريدني أن أصدق أنّك كنت مخلصًا لامرأة واحدة طوال حياتك. حتى آدم عليه السلام، لم يكن مخلصًا لامرأته الوحيدة.

كنت تخفي حقيقتك بالابتسام، وتقول حين أسألك عن النساء الأخريات كلمة واحدة هي لا. لا كبيرة تخرج من شفتيك. الآن انفضحت يا سيدي، آمنة وندى، ولا أعرف من. سيأتين واحدة بعد أخرى. كأن مرضك صار مصيدة للفضيحة. أجلس معك وأعدّ فضائحك.

لا تزعل، أرجوك. فأنا لن أقول لك سوى الحقيقة. شمس علّمتني هذه الحكمة. قالت لي إنّها لن تكذب عليَّ. قالت إنّها كذبت على زوجها ولا مبرِّر لها كي تكذب عليَّ، فهي تحبني من أجل أن لا تكذب. قالت إنّها تعلّمت الكذب بعد فترة العذاب الطويلة التي قضتها مع زوجها، وإنّها استمتعت به لأنّه كان حيلتها كي تعيش. ثم صارت تتعب منه، قالت إنّها كانت تشعر حين تنجح كذبتها، بأنّها ستضمحلّ. ثم قرّرت الهرب من زوجها كي يتوقّف الكذب والاضمحلال. قالت إنّها تريد معي علاقة بيضاء، ثم اكتشفت أنّها كانت تكذب.

قالت حين أحببتها إنّها تكره الجنس، لأنَّ زوجها كان يغتصبها. وصدّقتها، وحاولت أن أقيم معها علاقة بيضاء. لكنّي طبعًا كذبت عليها، قلت علاقة بيضاء كي أنام معها، ثم اكتشفت أنها تغتصبني.

أقول تغتصبني وأكذب، فنحن نكذب لأنّنا لا نجد الكلمات. فالكلمات لا تدلّ على شيء محدّد، لذلك يفهمها كل واحد على ذوقه. أردت أن أقول إنّها كانت تستمتع بالجنس، وأنا أيضًا، وهذا لا يعني أنّها اغتصبتني، بل يعني أنّنا كنا نحب ممارسة الجنس ونفرح به ونضحك ونقفز. وكانت تصرخ بملء صوتها، قالت إن زوجها كان يمنعها من الصراخ، وإنّها تحبني من أجل الصراخ. وكانت تصرخ وأنا أصرخ. لا يحق لي أن أسمي هذا اغتصابًا، لذلك أسحب كلمتي وأعتذر.

أنا متأكّد من أنّ نهيلة كانت شيئًا آخر. لا تريدني أن أتكلم على نهيلة، طيّب، سأسكت. الموضوع لم يكن جنسيّاً، فأنا ضعت مع هذه المرأة. أضعت كل هذه السنوات من حياتي، لأكتشف أنّني مخدوع. أنا لا أوافق شمس نظريّتها في الحب، وأنّ كلّ حب خدعة. كانت قد سيطرت عليّ بشكل كامل، وكانت تعرف ذلك. مرّةً، وبعد غياب دام شهرين، جاءت كأنّها لم تغب، وبدل أن أتخانق معها، ذبت في جسدها. يومها قلت لها إنّني فقدت حيلتي، وإنّني ضائع. وكانت تعرف ذلك. تختفي أيّامًا وأسابيع ثم تظهر لتروي لي حكايات لا تصدّق، وكنت أصدّقها. الآن اكتشف كم كنت مهبولاً، فالحب يجعل الإنسان ساذجًا، ويدفعه إلى تصديق ما لا يصدّق.

غريب أمر هذه المرأة، كانت بعد أن ننتهي من ممارسة الحب والصراخ والتأوّه، تشعل سيجارة وتجلس على طرف السرير بجلدها الأسمر، وتروي مغامراتها وسفرها. مرة تقول إنّها كانت في عمان، ومرّة في الجزائر، ومرّة في تونس. وتقول إنّها تراني كل يوم، وإنّها تسمع صوتي ينده اسمها كل صباح. وتطلب مني ترداد اسمها ولا تمل من سماعه. اقوله مرة واثنتين وثلاثًا وعشرًا، ثم أسكت، فأرى وجهها يصغر كوجوه الأطفال، فأعود إلى الاسم، ونعود إلى الحبّ.

ثم اكتشفت أنّها كانت تكذب.

لا، يومها، حين كنت أردّد اسمها، كنت أعرف، لكنّني كنت استمتع بالكذبة. هذا هو الحب، أن نتمتع بالكذب ثم نستفيق على الحقيقة.

وبعد مقتل سامح أبو دياب، بحثت عنها في كل مكان. كان شعوري الأول هو الخوف. خفت أن تقتلني كما قتلته. قلت هذه امرأة مجنونة تقتل عشاقها. وبدل أن أغار أو أحزن، اكتشفت الخوف. وبدل أن أعيد النظر في علاقتي بهذه المرأة، صرت أرتجف في نومي.

ثم ماتت.

لا، قبل أن تموت ذهبت وبحثت عنها، كي احذّرها من مصيرها.

هل تصدّقني الآن؟ أعلم أنّك يوم انتشر خبر موتها نظرت إليّ بعينين شكّاكتين، وقلت عيب. ما هكذا تقتل امرأة. المرأة العاشقة يجب أن لا تموت.

قلت لك إنّها قاتلة، قتلت الرجل الذي أحبّته، ثم ادّعت أنّها تنتقم بذلك لشرفها، لأنّه خدعها، وعدها بتطليق زوجته والزواج بها، لكنّه لم يفعل.

قلت لك إنّ شمس تكذب، فأنا أعرفها أكثر منكم جميعًا.

«ولماذا تكذب»؟ سألتني.

«لأنّها كانت تحبني».

يومها قلت لي إنّني ساذج، فالقلب مستودع الأسرار، وإن علاقتها بي قد تكون من أجل التخلّص من شبح عشقها لسامح. وشرحت لي أنّ العاشق يلجأ إلى علاقات أخرى، كي يتخلّص من وهج عشقه. احتقرتني لأنّني العلاقة الأخرى، ولم تصدّق أنّه لا علاقة لي بمقتلها. صحيح أنّني مثلت أمام لجنة التحقيق في مخيم عين الحلوة، لكنّي لم أشارك في المذبحة.

الآن أسمّي مقتل شمس مذبحة، بدل أن أسمّيه إعدامًا، كما كنت أفعل دائمًا. وكانت مذبحة رهيبة. خدعوها، طلبوا منها الحضور إلى مخيم المية ومية من أجل المصالحة ودفع دية القتيل، وكانوا في انتظارها. من كل عائلة جاء رجل برشّاشه، واختبأوا خلف التلال المحيطة بالطريق، وحين وصلت... أنت تعرف الذي جرى، ولا لزوم لوصف أشلاء المرأة التي التصقت بحديد السيارة المحترقة.

لماذا أتكلّم على شمس الآن، بينما موضوعنا هو مدام ندى فياض؟ هل كانت ندى وسيلتك للتخلّص من وهج نهيلة.

لا تريدني أن أحكي عن ندى! طيّب اقترح عليّ موضوعًا آخر.

أعلم أنّك لا تحبّ التحدّث في هذه الموضوعات، ولم يكن قصدي الوصول إلى هنا، كنت أريد أن أروي لك الحكاية التي لا تعرفها، ولا أعرف كيف تغيّر الموضوع، يجب أن أركّز، لأن الكلام يجرّ الكلام.

كنت أصف لك وضعك الصحيّ. فبعد أن نزعوا إبرة المصل، وضعوا في أنفك هذا الأنبوب، الذي نستخدمه أربع مرات في اليوم من أجل إطعامك الموز والحليب. وأمس قرّرت أن أمزج مع طعامك دواء يدعى L- Dopa وهو يستخدم للمصابين بداء الصرع، وقد أثبت فعاليّته مع المصابين بغيبوبة دماغية. لكنّي تأخرت: كيف لم يخطر هذا الدواء في بالي

من قبل؟ لا بأس! علينا أن ننتظر بضعة أيام قبل أن تبدأ آثار هذا الدواء الإيجابيّة بالظهور.

أعرف أنّك تتألم، وأشعر بك متجمدًا داخل الهواء الأبيض. هذا أنت، رجل في هواء أبيض، وحوله غبار وضجيج وهمهمات غير مفهومة.

أمّا هذا «الميل» الذي يزعجك، فلا يمكن الاستغناء عنه، وإلا تسمّم جسمك بالبول. فأنت لم تعد تبول وحدك، وبدل أن تشخ تحتك كما توقّعت الممرضة زينب، حبست كل شيء في داخلك، ولم يعد هناك لزوم للمشمّع الذي وضعوه تحت شرشفك، خوفًا من أن تبلّل الفرشة.

أعلم أن ظهرك يؤلمك كثيرًا، أزلت المشمّع الذي وضعوه من أجل البول، وأعدك بأنّ الأمور سوف تتحسّن. أفرك لك ظهرك بالمراهم، مما سيسمح بسريان الدم في عروقك بشكل أفضل. لن أسمح للدم بالتجمّد والتحوُّل قروحًا تلتهمك. لكن القروح لا بدّ منها، المهم معالجتها بسرعة. فمهما فعلنا ودلكنا فلن نستطيع منع القروح الناجمة عن جمودك في السرير.

وضعنا الميل بشكل دائم، وهذا يعني احتمال التهابات في البول. لذلك نقيس حرارتك كل يوم. أعرف أنّك تكره ذلك، ولكنّي مُجبر على القيام به. وأرجوك سامحني على استخدام التحاميل ثلاث مرات في الأسبوع، حتى الحليب يتحوّل خراءً. يا لطيف، كيف نكتشف أن جسدنا مريع، أنبوب للأكل من فوق، وأنبوب للبقايا من تحت، والإنسان بينهما.

لا تكره نفسك، أرجوك، لو تعلم كم كان فرحي كبيرًا حين اكتشفت أن الأشياء لم تمت. فالخلايا تتجدّد حتى داخل هذا الموت.

أقصّ شعرك وأقلّم أظافرك وأحلق ذقنك. والأهم هو رائحتك الجديدة. رائحة حليب وبودرة تشبه رائحة الأطفال.

سوف أصف نهاري معك، كي ترتاح، وتوقف هذا التململ.

أدخل غرفتك في السابعة صباحًا، أرمي البول في المرحاض، وأنظّف المبولة. ثم أشطف غرفتك بالماء. بعد ذلك أحمّمك بالماء والصابون وأنت في سريرك. وأستخدم في ذلك صابونًا غالي الثمن اشتريته أنا، لأنّهم رفضوا هنا في المستشفى شراء «بايبي جونسون»، بحجة أنه مرتفع الثمن ومخصص للأطفال. ثم أغيّر قميصك الأبيض الذي نلفّ به جسمك،

وأستدعي زينب كي تساعدني على حملك وإجلاسك على الكرسي. هي تسندك إلى الكرسي، وأقوم أنا بتغيير الشراشف. لا أريد أن أزيد في همومك، لكن الشراشف كانت مشكلة. ما هذا المستشفى؟ قالوا إنّهم غير مسؤولين عن الشراشف، فاضطررت إلى شراء ثلاثة شراشف، وطلبت إلى زينب القيام بغسلها، لقاء مبلغ صغير أدفعه لها. هكذا ارتحت ووجدت حلاً لضرورة تغيير شراشفك كل يوم. ثم أعيدك إلى السرير، أجلب شفّاطة البلغم، فأنت لم تعد تستطيع السعال وقذف البلغم إلى خارج قصبتك الهوائية، أسحب البلغم، أنظّف الشفاطة، وأرتاح قليلاً.

في الثامنة والنصف، أعدّ لك فطورك، وأطعمك إيّاه من أنفك بهدوء، الثانية عشرة والنصف ظهرًا، أعدّ لك الغداء، وقبل أن أطعمك، أقلبك قليلاً على جنبك، وأمسح وجهك بفوطة مبلّلة بالماء.

الخامسة مساء، أعدّ لك العصرونيّة، وهي مختلفة قليلاً، لأنّني أمزج الحليب بالعسل. جلبت عسلاً بلديّاً من قرية الشرقية في الجنوب.

التاسعة ليلاً، أفرك لك جسمك بالسبيرتو، ثم أرشّ عليه البودرة. وحين أشعر ببداية قروح في مكان ما من جسمك، أتوقّف عن الفرك، وأحمّمك من جديد. لكن الحمام المسائي ليس إجباريًا كل يوم.

التاسعة والنصف ليلاً، تتعشّى.

بعد العشاء أبقى معك قليلاً، وأروي لك الحكايات. مرات أغفو على الكرسي، وأستيقظ في منتصف الليل مذعورًا. أو أغادرك بهدوء وأذهب إلى غرفتي في المستشفى، حيث أنام.

غرفتي هي المشكلة.

كلّهم يعتقدون أنّني أنام هنا لأنّني خائف وهربان. والحقيقة أنّني خائف. منذ ثلاثة أشهر جاءني أمين السعيد. تعرفه؛ كان زميلي في كتيبة أبناء الجليل، في فتح، وهو يقيم الآن في مخيم الرشيدية قرب صور، وأخبرني أنّهم قرروا اتّخاذ إجراءات أمنية خاصة، لأنّ عائلة شمس أرسلت مجموعة من شبابها من الأردن إلى لبنان، للثأر لابنتهم. وطلب مني الحذر. قلت له إنّني لا أبالي، فضميري مرتاح، لكن كما ترى، أنا مسمّر في هذا المستشفى وعاجز عن مغادرته.

والمفاجأة يا سيدي أنّك تغيّرت كثيرًا. لن أخبرك كم نحلت، فأنت تشعر بذلك لا شك، شحمك ذاب، وكرشك الصغير الذي كنت تكرهه، وتركض كل يوم خمسة كيلومترات من أجل ازالته، لم يعد موجودًا. أعتقد أنّك فقدت أكثر من نصف وزنك.

زينب تعتقد أنّ رائحتك الجديدة ناجمة عن الصابون والبودرة والمراهم التي أستخدمها في تدليكك، وهذا ليس صحيحًا. رائحتك صارت كرائحة الأطفال، لأنّك تأكل مثلهم. صارت رائحتك تشبه الحليب، رائحة بيضاء فوق جسم أبيض.

ربما، لا أدري، غدًا سأجلب ماسورة، أعتقد أنّك بدأت تقصر قليلاً. لا تخف، فهذا ناجم عن كون العظام تقصر وتزمّ نتيجة غياب الحركة، أو نتيجة عدم تجدّد خلاياها بسبب الكهولة. عظامك تقصر وأنت تقصر، بس معليش، لا تزعل، غدًا عندما تنهض سوف أنظّم لك أكلاً مدروسًا ومليئًا بالفيتامينات، وسيعود كل شيء كما كان، بل أفضل مما كان.

هل تسمعني؟

لماذا لا تحكي؟

ألم تعجبك القصة؟

أعرف ماذا تريد الآن؛ تريدني أن أتركك لتنام، وتريد الراديو. العكاريت سرقوا الراديو. ليلة أمس تركت الراديو مفتوحًا طوال الليل. قلت يؤنسك في وحدتك لكنّهم سرقوه.

أعرفهم هؤلاء، لم ينسوا العزّ والمال أيام الثورة. ألا يعلمون أنّني أفقر واحد هنا، صحيح أنّني ممرّض ودكتور، ولكنّي شحّاذ. انتهت تلك الأيام، ولكنّهم لم يقتنعوا بعد أنّنا عدنا كما كنّا. فقراء.

وأنت، هل نسيت تلك الأيام؟

هل نسيت كيف كان أبو جهاد الوزير، الله يرحمه، يأخذ ورقة شبه ممزّقة ويصرف عليها أرقامًا خيالية، لطالبي الميزانيّات. أخبرتك عن ذلك بتقزّز، لكنّك لم توافقني. أخبرتك كي أقول لك إنّ المال أفسدنا وسيقضي علينا. ولكنّك يومها، شرحت لي كل شيء، وطلبت مني أن لا أخطئ مع خليل الوزير. «اثنان يا ابني هما زينة الشهداء، أبو علي اياد وأبو جهاد

الوزير». هل كنت تتنبّأ يومها بموته في تونس. هل كنت تعرف، أم قلتها هكذا؟ قلت إن أبو جهاد يصرف المال على ورقة ممزقة، كي يعلن احتقاره له، فالمال لا شيء.

سأشتري لك غدًا راديو جديدًا.

ماذا؟

لا تريد؟

لم تعد تحب الاستماع إلى الأخبار؟

أشتري لك آلة تسجيل وشرائط. أنت تحب فيروز، سوف أشتري لك كل أغاني فيروز وخاصة تلك الأغنية التي تقول: «بشوفك بالصحو جايي من الصحو ضايع بورق اللوز». غدًا أجلب لك الصحو وورق اللوز وفيروز، وكل أغنيات عبد الوهاب القديمة، سوف أجلب لك أغنية «مضناك جفاه مرقده». يا عيني على أمير الشعراء أحمد شوقي، غدًا أخبرك قصته مع المغنّي الشاب محمد عبد الوهاب.

«مولاي وروحي في يده

قد ضيعها سلمت يده»

يا عيني على الغرام يا أبو سالم، غدًا نغني ونعيش الغرام من جديد. أنت تحب وأنا أحب، ونحن وحدنا في غرفة مستشفى وحيد في زاوية مخيم وحيد في مدينة بيروت.

قل معي: «قل أعوذ بربّ الناس، ملك الناس، إله النّاس من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس».

قلها، فالقرآن يريح القلب.

أنا ذاهب الآن، تصبح على خير.

لماذا لا تجاوب؟

لماذا لاتقول أين نجد الخير؟

لماذا تصدّقني؟

أمس قلت لك تصبح على خير، ولم أذهب إلى النوم. كلّ ليلة أقول لك هذه العبارة ولا أذهب. قلت لك تصبح على خير لأنّني سئمت. أجلس معك وأتعب، أجلس وأزهق. طقت روحي من الانتظار. ومع ذلك لا أنام. اتثاءب وأشعر أن جسمي يتهدّم، وأنّي لا أحتاج سوى إلى وضع رأسي على المخدّة كي أغفو، لكنّي لا أنام.

أجمل شيء هو النوم.

أستلقي على سريري، أغمض عينيّ، ويتسلّل إلى رأسي ذلك التنمّل الذي يسبق النوم، ثم ينتفض جسمي وأستيقظ. أشعل سيجارة، وأتأمّل جمرتها في الظلام، فتتثاقل أجفاني. أطفئ السيجارة، أغمض عينيّ، وأترك الخيالات تأخذني إليها. وأفكّر في كفرشوبا. من زمان، وكفرشوبا رفيقة نومي. أستلقي على سريري وأسافر إلى هناك، وأرى القنابل الضوئية.

كنت في السابعة عشرة، حين رأيت القنابل الضوئية للمرة الأولى. يومها، كنت فدائيّاً ضمن المجموعة الأولى، التي جاءت عبر عرنة في سوريا، إلى الجنوب اللبناني، كي تبني أول قاعدة للفدائيين.

سمعت اسم كفرشوبا، وأنا في طريقي إليها، وعلق اسم هذه القرية في ذهني. الحقيقة أن قاعدتنا لم تكن في كفرشوبا، بل في حقل زيتون تابع لقرية مجاورة اسمها الخريبة. لكنّي حين أسافر في نعاسي إلى تلك الأيام، أذهب إلى كفرشوبا.

كنت أصغرهم سنّاً. لست متأكدًا من ذلك، لكنّي كنت صغيرًا على رتبة المفوّض السياسي التي منحني إياها أبو علي اياد.

وكنت خائفًا.

لا يحقّ للمفوّض السياسي أن يخاف، فغطّيت خوفي بكلام كثير، وكان الآمر العسكري للقاعدة، وهو ملازم أشقر في الثامنة والعشرين من عمره، يدعى أبو الفدا يطلق عليّ لقب المفوّض الكلامي.

كنت أتكلّم كثيرًا، لأنّني أردت للمقاتلين امتلاك وعي سياسي بقضيتنا. فنحن لا نريد تحرير الأرض فقط، بل تحرير الإنسان.

وفي تلك الأيام، في تموز عام ١٩٦٨، وصل الأميركيّون إلى القمر، ومشى آرمسترونغ على صفحته البيضاء.

أذكر يومها، أن أبو الفدا غضب كثيرًا وعاقبني. هل يُعقل، مفوّض سياسيّ يُعاقَب أمام العناصر، لأنّه عبّر عن رأيه!

فأنا، على عادة تلك الأيام، أعلنت إلحادي. فإذا كان الإنسان قادرًا على الوصول إلى القمر فهذا يعني أنّ اللّه غير موجود. أستغفر اللّه العليّ العظيم من تلك الأفكار، وحين قُلت ما قلته، لم أكن أقصد سوى الفكرة. فالإلحاد كان مجرّد فكرة. وأنا لم أقلها لأنّي كنت مؤمنًا بها، بل لأنّها كانت منطقيّة، رغم أنّي كنت مثل كل الشباب أصوم رمضان، وأردّد الآيات القرآنيّة في قلبي. كيف لا تردّد الآيات وأنت في مواجهة يوميّة مع الموت. ماذا تقول للموت غير: «ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل اللّه أمواتًا».

أبو الفدا غضب منّي، وأمرني بتسليم سلاحي، ثم أجبرني على الزحف أمام عناصر الفصيل، وزحفت، لن أكذب عليك وأقول إني رفضت تنفيذ الأمر، زحفت وتبهدلت وشعرت أني حشرة. قررت تقديم استقالتي، والالتحاق بقواعد الفدائيين في غور الصافي. غير أنّ الأمور تطوّرت بسرعة، وبدأ الطيران الإسرائيلي يقصف مواقعنا، وانشغلنا بالأعداد الكبيرة من الشهداء، ونسينا آرمسترونغ وقمره وقراراتي وإلحادي.

هناك اكتشفت عناقيد الضوء تشعل غابة الزيتون، وكنا نطلق النار على الضوء هكذا رأيت فلسطين للمرة الأولى، عناقيد ضوء تنفرش فوق أوراق الزيتون اللامعة الخضراء. وهكذا أراها الآن، وأراك تمضي وحيداً،

حاملاً بندقيتك وسط التلال، باحثًا عن قطرة ماء في الصخور المتشققة، كي تصل إلى باب الشمس، حيث نهيلة في انتظارك.

أراك تمشي تحت العناقيد، ولا أشعر بالخوف.

يا لطيف، كيف ننسى ما نشاء، ونتذكر ما نشاء. الآن أتذكّر الضوء متساقطًا في العناقيد، ولكن يومها، وبعد أن احترق المخيّم بعناقيد الضوء، وأكلني الذباب في الشارع الرئيسي لشاتيلا، وعدت إلى المستشفى مليئًا برائحة الموت لم أحمل معي سوى ذاكرة الخوف.

هذا هو الفرق.

أنت تذكرني بالضوء، رغم أنّك نصف ميت، وجثث مذبحة شاتيلا تذكّرني بالخوف، رغم أنّها كانت تنحني فوق بعضها بعضًا، كأنّهم أحياء تجمّدوا في أماكنهم.

هكذا أبدأ رحلتي إلى النوم، بمشهد إطلاق النار على القنابل الضوئية، وبوجه أبو الفدا الملتمع تحت رشّاش الدوشكا المصوّب إلى السماء. أركض في غابة الزيتون، أختبئ خلف صخرة وأطلق النار. ثم أجد نفسي في الهامة أشارك في اجتماعات قيادة القوات، ونناقش الخطط الحربية، ثم أغفو. تأتي الذكريات كقطعان من النمل التي تحتل رأسي، وأذهب مع حركتها اللولبية إلى النوم.

استلقي في سريري وأحاول استدعاء مخيلة النمل، فلا تأتي. أفكّر في شمس، أراها مقطعة إلى أشلاء، ولا يأتي النوم. أفكّر في الحب. لماذا لم أذهب مع سهام إلى الدانمارك؟ أراها تمشي في شوارع كوبنهاغن وتتلفّت إلى الوراء كأنّها تسمع دعساتي. هكذا بدأت قصتنا التي ليست قصة. جاءت إلى المستشفى، وقالت إنها تشكو آلامًا في معدتها. وعندما استلقت على السرير وكشفت على بطنها، ارتجفت مفاصلي. رأيت قطعة من شمس ممسوحة بما يشبه الزيت. يومها وصفت لها مسكّنًا للمعدة، وشرحت لها أنّها مجرد أعراض توتّر نفسي. ومنذ ذلك اليوم، وأنا أراها في ما تبقّى من طرقات هذا المخيم المهدم، تلتفت إلى الوراء، وتبتسم لأنّها سمعت دعساتي، وعرفت أنّني ألحق بها. نمت علاقتنا في المشي والتلفّت والابتسام. ثم سافرت. هل أسافر إليها؟ أم أبقى؟ صحيح! لماذا أبقى؟ ولكن ماذا سأشتغل في الدانمارك؟

سـهـام لا تبـالـي، فـهي لا تفـهم أنّني على مـشـارف الأربعين، وأنّه من الصـعب على الإنسـان في هـذا العـمـر، أن يبـدأ من جـديد، منطلقًـا من الصفر.

«ولكنك في الصفر»، قالت.

معـهـا حق، يجب أن أعترف بهذا الصـفـر كي أبدأ حياتي. ولكن مـاذا يعني أن أبدأ حيـاتـي. وحين أقول أبدأ، هل يعني هذا أن كل مـا فـعلتـه لم يكن شيئًا.

أفكر في سـهـام، وأحاول النوم، وأسافـر مـعـها إلى الدانمارك، وأصـير أمـيـرًا مـثل هـاملت، هاملت عـاش في مملكة الخطأ، وأنا أعـيش في مملكة الخطأ، هـاملت مـات أبوه، وأنا مـات أبي. صـحـيح أنّ عـمـي لم يقـتل أبي ويتـزوج أمي كمـا حـصل لهاملت، لكن ما حصـل لأمّي كان ربما أفظع من ذلك. هاملـت جن بسـبب عـجـزه عن الانـتـقـام، وأنا أكـاد أجن خـوفًـا من الانتقام. هاملت كان أميرًا ورأى شيئًا يتعفّن، وأنا أيضًا أرى شيئًا يتعفّن. هـاملت صـار مجنونًا، وأنا أيضًا.

عندمـا أخـبـرتـني عن إبراهيـم ابنك الأوّل، بشـعـره المجـعّد، وعـينيـه السـوداوين ورمـوشـه الطويلة، فكّرت في هـاملت، أنت تقـول إبراهيم، وأنا أرى هـاملت.

بدأت صـورة هـاملت حين أخبرتني عن موت ابنك. يومـهـا عجبت للناس كيف يتذكرون أشـيـاء مؤلـمة كهذه. لماذا لا ينسون؟ وخطرت في بالي فكرة مرعبة، وهـي أنّ الناس ليسـوا سـوى خيالات ذكرياتهم. جاءت حكاية موت إبراهيم، وأنت تـخـبرني عن فـوائد الـزيت، وكيـف أن أمك لم تكن تسـتـخـدم الأدوية.

«الأدوية عـمرهـا مـا دخلت بيتنا»، قلت لي. «فـأمي كانت تعالـج نفسـهـا، وتعـالـجنا بزيت الزيتون. إذا شـعـرت وجـعًا في بطنها، تغـمس قطنة في إناء الزيت، وتبـتلعـهـا. وإذا عـاد أبـي من الحـقل وقـدمـاه مليـئـتـان بالجـروح، تدهنهمـا بالزيت، وإذا بكى ابنهـا من ألم مـا، تهـرع إلى الفيّة الزيت، حيـث العلاج الشافي».

قلت لنهيلة إن الصبي يشبه جدّته، حين روت لك عن إبراهيم ذي الثلاثة

أعوام الذي لا يحب من الطعام سوى الخبز المغمّس بالزيت. يغمس لقمته بالزيت، ويأكل معها البصل. لا شيء سوى البصل لا يأكل زعترًا أو لبنة. البصل فقط، بل يحب العسل أيضًا.

وأنت لم تكن تعرف الصبي.

جلبته أمه عدة مرات إلى المغارة، ورأيته في قماطه تحت ضوء الشمعة، لكنك لم تره. لم يعلق في ذاكرتك سوى وجه أبيض وعينين نصف مغمضتين. طبعًا أحببته، هل يعقل أن لا يحب الإنسان طفله الأول. كنت تحمله بين ذراعيك، تقبّله، ثم حين تقترب من أمه تنساه. وعندما كبر قليلاً، لم تعد نهيلة تأتي به إلى المغارة.

صارت تصفه لزوجها، وتقلد مشيته وحركاته وكلماته، لكنها رفضت بإصرار جلبه إلى المغارة. قالت إنه صار يفهم ويحكي، وإنه حرام، المخبرون يملأون القرية، ولا يجوز تعريض الصبي للخطر، وكنت توافق معها، وتطلب منها أن تحكي مثله، ثم تنسى الصبي في حمّى الوقت الذي يزرب من المغارة، وتدفن رأسك في شعرها، وتقول لها إنك تريد أن تنام متوسّدًا شعرها، لكنّك لا تنام.

وفي أحد الأيّام، وبينما نهيلة تروي ليونس عن ابنها، خرج يونس من المغارة. ترك زوجته مع كلامها، ومضى. نهيلة عرفت أنه سيذهب إلى البيت، لكنّها لم تلحق به. سوف تقول له حين سيعود، إنّها تسمرّت في مكانها من الخوف.

وصل يونس إلى البيت، دفش الباب الخشبي العتيق، دخل غرفةَ زوجته أضاء الكهرباء ورأى. كان الفتى نائمًا على جنبه الأيسر، يتوسُّد يده الملويّة تحت المخدّة، وشعره الأسود المجعّد يغطي وجهه.

سوف يقول لزوجته، بعد تلك الزيارة بسنوات، إنّه حين وقف أمام السرير نسي نفسه، ودهش من الجمال. سوف يقول لها، إن الشعر المجعد المتدلّي فوق الوجه النائم جانبيًا على المخدة، هو الجمال.

ويونس لا يذكر الوقت. لكنه يذكر دعسات أمه. استفاقت العجوز على الضوء، ونهضت من فراشها، ومشت نحو الغرفة، وهي تسأل نهيلة عمّا إذا كان هناك شيء.

«عندها اطفأت الضوء»، قال لزوجته، «وخرجت من البيت على رؤوس أصابعي».

سوف تروي له نهيلة، أن أمه لم تتوقف عن استنطاقها.

«أمّك تكرهني»، قالت، «أنت تعرف أنها كرهتني منذ اليوم الأول، **لأنَّها** اعتقدت أنَّني مسؤولة عن تلك البهدلة، التي أجبرتها على جرح إصبعي من أجل دماء الشرشف، وظلّت طوال حياتها تقول، إنَّها لم تشعر بالعار كما في تلك الليلة. لكن، ليلة زيارتك تغيّر كل شيء. عدت وكانت جالسة في غرفتي تنتظرني. رأيت في عينيها شيئًا من الحنان. فتحتُ الباب، وكانت الرابعة صباحًا، وسمعت صوتها، كانت تتمشى في الغرفة وتتحدث مع نفسها. دخلت وكان الفجر يوشح البيت».

«هو»؟، قالت، «هو كان هنا، وأنت كنت معه».

«طلبتُ منها أن تخفض صوتها مخافة أن يستيقظ إبراهيم. خفضته دون أن ينخفض، كانت ترتجف بالانفعال وتحكي، وكلماتها تتداخل بكلماتها، لم تسألني شيئًا، لا أذكر ماذا قالت ثم هدأت. ذهبت إلى المطبخ وعادت بكوبين من الشاي، وجلست على الأرض. كنتُ نعسانة وأشعر بجسمي متلاشيًا، شربت الشاي بسرعة وذهبت إلى فراشي. نظرت إليّ بحنان وقالت لي أن لا أهتم فهي ستتولّى إبراهيم حين يصحو».

«اذهبي أنتِ ونامي».

«وشعرت بنظرتها تنغرس في بطني، ومنذ تلك الليلة، وهي لا تنظر إليّ، إلا ابتداء من بطني، استلقيت على فراشي، جاءت، وجلست على طرف الفراش، وطلبت مني أن أسمح لها بمرافقتي إلى هناك، لم تسألني إلى أين أذهب، ولا كيف، ولا أين يقع ذلك الهناك».

«قولي ليونس، أمك تريد أن تراك قبل أن تموت، أعرف يا بنتي أنه يكون مستعجلاً، ولكن قولي له».

ونهيلة قالت ليونس، لكنّه حذّرها.

«إيّاك أن تجلبي المرأة إلى هنا، أنا أذهب وأزورها».

لكنَّه لم يذهب، إلا لحظة موت والده، وأمه قالت بعد ذهابه، إنَّها رأته كأنَّها لم تره.

لم تذهب، قلت لي، لأنَّك لم تعد قادرًا بعد حادثة إبراهيم. «كيف تريدني أن أدخل البيت بعد موت إبراهيم»؟

«أمه»، قلت، «يا حرام يا أمه، أنا رأيت كيف ماتت نهيلة وعاشت. علمت بموته وحدي، واللّه لم يخبرني أحد، سمعت صوته يستغيث بي وذهبت لأجده ميتًا. فبعد زيارتي الوحيدة إلى البيت، حيث رأيته نائمًا في سريره، نشأت بيننا علاقة خاصة. تستطيع أن تقول إنَّني صرت أحبُّه، وصرت أجد مكانًا في جعبتي لهدايا صغيرة اشتريها له. لم تفهم نهيلة في البداية، لماذا أصررت عليها أن تلبسه البيجاما التي دحشتها في الجعبة. قالت إنَّها كبيرة عليه، فطلبت منها تقصيرها، وعندما شرحت لها السبب، ضحكت كثيرًا، وقالت إنَّني مجنون، أريد أن ألبس أنا وابني البيجاما نفسها. ثم قامت هي بتطوير الموضوع. صارت تشتري لنا ثيابنا المشتركة. قلت لها إنَّني لا ألبس ثيابًا اسرائيلية، فقالت إنَّها ليست ثيابًا اسرائيلية، بل خاطتها بيديها، وقالت إنَّ هذا القميص هو كقميص إبراهيم، وإنَّني حين ألبسه أصبح شبيهًا بابني بشكل عجيب. كانت تخيط لنا الثياب نفسها، وتقول إنَّه عندما يكبر إبراهيم، سنصير كتوأمين. وصرت ألبس ثيابي وأتخيّل ابني، وتلبسه ثيابه وتخاطبه كأنَّه رجل. وصرنا كرجل واحد انقسم إلى نصفين، نصفه في المغارة ونصفه في البيت».

وكانت تلك لعبتكما.

نهيلة تقول، إنَّها حين تشتاق إلى زوجها، تلبس إبراهيم بيجامته، فتنحلّ المشكلة. ويونس يخبرها، أنَّه حين لا يخلع قميصه، فهذا يعني أنَّه مشتاق إليها وإلى ابنها. «انظري، تمزق القميص ولم أخلعه، هذا يعني أني اشتقت كثيرًا، ويعني أيضًا أنَّك يجب أن تخيطي لنا ثيابًا جديدة».

صارت الثياب موضوع لقاءات الرجل بزوجته، في تلك المغارة المعلّقة فوق قرية دير الأسد. الرجل يجلب الأقمشة من لبنان، والمرأة تخيطها، وتقول إنَّها لا تريد أن تصير خيّاطة، وإن عليها الاهتمام بالجنين الذي ينمو في بطنها.

«صرت أتحاور مع ابني دون أن أعرفه، صار جزءًا مني. وحتى بعد أن

وضعت نهيلة ابننا الثاني سالم، ومع كل المشاكل التي رافقت الولادة، لم ننسَ لعبة الثياب».

قال يونس إنَّه عرف وحده.

«كنت في لبنان، مختبئًا في دار نزار الصفوري، اللّه يسهّل عليه، حين رأيت ذلك المنام. رأيت نهيلة تبكي عليّ. حلمت إنَّني مرمي في حفرة البروة، ونهيلة تقف على حافة الحفرة، تحاول انتشالي وتبكي. وأنا أطلب منها العودة إلى البيت لا أعلم كيف تكلمت، فأنا كنت ميتًا، أو كيف نظرت إلى الحفرة حيث أنا، ورأيت بيجامتي.

كانت الخامسة صباحًا، والمطر يتساقط غزيرًا، لبست ثيابي وقررت الذهاب إلى دير الأسد. خفت كثيرًا من المنام، لأنَّه تكرر أكثر من مرة. نهضت من نومي مذعورًا لبست ثيابي ومضيت. في بيت نزار تذكرت أنَّني أرى هذا المنام للمرة الثالثة، وكان يتكرَّر بحذافيره، في المرتين السابقتين رأيته في السجن، واعتقدته كابوسًا ناتجًا عن التعذيب، فالسجن يجعلك عاجزًا عن التمييز بين النوم واليقظة. أما في ذلك الصباح، فنهضت مذعورًا، وسمعت شنين المطر المنهمر، وقرّرت الذهاب. قلت إنَّه أبي، مات العجوز ويجب أن أذهب. لا أعلم، حين خطرت لي فكرة موت أبي، أحسست بالراحة، رغم أنَّني صرت أحب الشيخ الأعمى في أيامه الأخيرة، لكنّ موت الأب يأتي هادئًا.

نهض نزار الصفوري مذعورًا من نومه، ووقف أمام الباب كي يمنعني، وقال إنَّهم سيقتلونني هذه المرة، وإنَّني لن أحتمل التعذيب. كنت مرهقًا بعد ثلاثة أشهر في السجن. لا أعلم أين سجنوني، كنت في قبو تحت الأرض، ظلام ورطوبة وبرد. لم أرَ وجه المحقّق سوى مرة واحدة، كان البرد يسكنني، وكان الوجع، وجع العظام الباردة يسحقك من الداخل. فالبرد، حين يسكن العظام، يجعلها قطعًا من الألم متجمّدة. كأن هيكلي العظمي صار قطعًا من الثلج داخل جسمي.

هل تعرف؟ صرت أتمنى الضرب، لأنَّه كان وسيلتي الوحيدة كي أحصل على قليل من الدفء. كنت أنتظر حفلة الضرب وأسرع إليها. ويبدو أنَّهم انتبهوا إلى تمتّعي بالدفء وسط لكماتهم ولبيطهم فقرروا شيئًا آخر.

كنت وسط حلقة الضرب، أنا ممدّد، وفوقي ثلاثة رجال يلبطونني في جميع أنحائي، أتدحرج بين أقدامهم ولا أرى. فقط الأحذية؛ كانت الأحذية تتمدّد فوق خدّيّ وعينيّ، دخل المحقّق فتراجعت الأحذية عن وجهي. أوقفوني، وكنت عاجزًا عن الوقوف، فأسندني أحدهم إلى الحائط، ووضع ذراعه تحت عنقي، وقام آخر بضربي بقبضته الملفوفة بجنزير حديدي على فمي وانبثق الألم. اذكر صوت المحقق وهو يطلب مني أن أبلع، أبصق وأتقيأ، والرجل يغلق فمي بيده كي يجبرني على بلع أسناني المحطمة.

تكلّم معي المحقّق اللبناني، بلهجة فلسطينيّة مفتعلة، كأنّه يتمسخر عليّ، وهدّدني. ثم قال إنّهم سيطلقون سراحي، وإنّهم يعرفون كل شيء، وإنّه يا ويلي إذا حاولت عبور الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية من جديد، لأنّهم سيجبرونني على بلع كل أسناني.

استمعت إليه ولم أجاوب. لا واللّه ما خفت منه، لكنّي كنت عاجزًا عن الكلام دون أسناني الأمامية.

أخذني نزار إلى طبيب أسنان، صديقنا، وركّب لي جسرًا مؤقّتًا، وطلب منّي أن أرتاح شهرًا قبل أن يركّب لي جسرًا ثابتًا.

لم يسألني نزار لماذا ألبس قميصًا ممزقًا، كان همه الوحيد منعي من الخروج. قلت له إنّني لن أتأخّر، فأنا مضطر إلى الذهاب، ومضيت. يومها لبست القميص الأزرق الممزق الذي كنت ألبسه في منام حفرة البروة. وجدت القميص في كعب جعبتي، أنا هو الرجل الوحيد في العالم، الذي يعيش في حقيبته. كل مقتنياتي أضعها في حقيبة تنتقل معي أينما ذهبت.

لن أصف لك كيف وصلت، لأنّك لن تصدّق. صحيح أنّ المسافة بين الجنوب اللبناني، وقرية ترشيحا في الجليل، قصيرة ويمكن قطعها مشيًا خلال أربع أو خمس ساعات. لكن في تلك الأيام، كانت الطريق تحتاج إلى حوالى عشرين ساعة، لأنّه كان علينا تجنّب الدوريّات الاسرائيليّة المتنقلة. لا أذكر كيف، لكنّي كنت أطير. الآن، حين أروي لك، أرى نفسي وكأنّني لا أمشي، لا واللّه، مشيت فوق التراب كأنّني أنزلق، ووصلت ظهرًا.

ذهبت إلى مغارتي في باب الشمس، وقلت أنتظر حلول المساء، ثم أذهب إلى البيت وهناك وجدتها في انتظاري».

«تأخرت»، قالت.

لم يسمع يونس، ولم يرَ، كانت نهيلة تدير ظهرها لمدخل المغارة، المغارة معتمة، وضوء الشمس ينكسر على عينيه فلم يرَ. رأى ظلاً يتأرجح، وما يشبه الكتفين المنحنيتين.

قالت إنَّها أمضت الليل كلّه في انتظاره.

قالت إنَّها تريد أن تموت.

قالت إنَّها ماتت.

وكان كلامها يختلط بأنينها.

«لم تكن تبكي»، قال يونس، «لم أسمع نشيجًا أو صراخًا، سمعت أنينًا يشبه أنين حيوان جريح. اقتربت منها، فانتفضت ثم سقطت أرضًا. عندها فهمت، وبدأت أمزق ثيابي.

قالت إبراهيم، فضربني السكوت وجنون الحزن، وسمعت أنينًا خافتًا يخرج من كل مسامّها.

حاولت أن أستفسر، لكنَّها لم تجاوب، جلستُ أرضًا ومددتُ يدي إلى جسدها المرتعش، فابتعدت. فتحت فمها كي تحكي، فخرج صوت متقطع متحشرج، كأنَّها تحتضر.

مسكينة نهيلة، بقيت هكذا أكثر من سنة. سنة وعيناها تتورمان بالدموع المحبوسة، وجفَّ حليبها، وكاد سالم، ابننا الثاني، أن يموت.

الحقيقة، لم أفهم تصرّفها، هل يمكن أن تفقد أمّ غريزتها، أمّ رفضت لابنها الثاني أن يعيش، كأنَّها أرادته أن يلتحق بابنها الأول.

جفّ حليبها، لكنَّها ظلّت ترضع سالم كأنَّ لا شيء. وأمي لم تنتبه. الطفل يبكي ليلاً نهارًا، تعطيه ثديها، فيسكت قليلاً ثم يعود إلى البكاء. ثم اكتشفت أمي الحقيقة، حين صار لا يتوقف عن البكاء حتى وهو يرضع.

هل تعلم ماذا فعلت أمي؟

سرقت الطفل، خطفته وذهبت به إلى أم سبع زوجة نبيل الخطيب، وطلبت منها أن ترضعه وتبقيه عندها. خافت أمي من أن تتكرر الحكاية، ويموت أولادي كما مات أولادها.

مسكينة نهيلة، الأمهات يا أخي شيء حقيقي».

يومها لم أسألك ماذا جرى لك، وكيف احتملت موت ابنك الذي تشبهه. «أنت تشبهه»، كانت نهيلة تقول، حين تراك حزينًا في المغارة، لأنَّها لم تطبخ لك المحمّر والكبّة النية، كانت تقول إنَّك تشبهه لا في ملامحه وثيابه فقط، بل وفي حركاته أيضًا. فتضحك وترضى بصحن الطعام الذي تكون قد جلبته لك من فضلات طعامهم، بعد أن سمعت نقرة يدك على نافذتها.

لم أسألك، لأنَّك بدوت يومها مجرّد راوٍ للحكاية. رويت أنَّك بقيت شهرين في الوعر خوفًا على زوجتك. كنت تحاول تهدئتها، وتقول إن سالم يجب أن يبقى مع أم سبع كي يعيش. وهي تحكي كلامًا لا ترابط فيه، وتقول إن أمّك كذابة، وإن حليبها لم يجفّ، وإنَّها سوف تموت. بقيت شهرين تنتقل في الحقول، وتعود إليها ثلاث مرات في الأسبوع، وتأخذها إلى باب الشمس.

بقيت معها شهرين، ثم عدت إلى لبنان، لأنّ جسر الأسنان المؤقت الذي وضعه الطبيب في فمك بدأ يتداعى. وفي لبنان، نسيت كل شيء، وبقيت أكثر من سنة دون أن تقوم بزيارة الجليل. قلت لي إنَّك تأخَّرت بسبب مشاغلك الكثيرة، وإنَّكم في تلك الفترة، كنتم تعدّون لمجموعات الفدائيين الأولى، ولكني لم أصدّقك. فأنا أعتقد أنَّك هربت لأنَّك لم تكن تملك حلاً. زوجة على حافة الجنون ولا شيء يعزّيها، فماذا تفعل؟ هربت كما يهرب جميع الرجال. الرجولة أو ما نسميه رجولة هي الهرب. فداخل الهوبرة والتشبيح والكلام الكبير، هناك الهرب من مواجهة الحياة.

عدت إليها بعد أكثر من سنة، كنتَ خجلاً ومترددًا، لكنَّك عدت، قرعت على النافذة وهرولت إلى مغارتك.

وجاءت.

كانت كأنَّها امرأة جديدة. كان شعرها الطويل مربوطًا كذيل حصان، ورائحتها مزيج من البنّ والزعتر، ووجهها يشبه وجهه. أنت لا تعرف إبراهيم إلاّ من خلال الصور، لم تره إلا نائمًا، وشعره يغطي وسادته.

قلت إنَّ المرأة صارت تشبه ابنها الميت، وإنَّك حين شممت رائحة البن والزعتر المتطايرة من شعرها، سقطت في ذلك الشعور الذي لم يفارقك.

قلت إنَّك حين عدت من تلك الزيارة إلى لبنان، صرت كالتائه، تحكي دون تركيز، وتمشي كالنائم، ولا تشعر بوجودك إلاَّ حين تكون في طريقك إلى باب الشمس.

«هذا هو الغرام يا أبو سالم».

رفضتَ الاعتراف بهذه الحقيقة الساطعة، وقلت إنَّ شيئًا ما في داخلك، شيئًا خرج إلى العلن وكان سرِّيّاً، جعلك تعتقد أنَّك لا تطيق عشرة الناس، وأنَّك كالذئب الذي يفضّل العيش في البراري.

في ذلك الزمن، قضى يونس ستّة عشر شهرًا متواصلةً في الغابة. لم يقل لنهيلة إنَّه يعيش بالقرب منها. كان يزورها مرتين في الأسبوع، وهي تعجب من قدرته على قطع كل تلك المسافات والأخطار. لم يقل لها إنّه لا يقطع المسافات، بل يقطع الوقت، فالوقت صار صليبه في أيّام الانتظار ولياليه.

قلتَ للدكتور معين الترشحاني، مسؤول معسكر التدريب الذي أنشأتموه في ميسلون، قرب دمشق، إنَّك ذاهب في عملية استطلاع طويلة، «سأغيب عدة أشهر، وربما سنة، لا تسألوا عني ولا تصدروا البيانات، لن أموت، وسأرجع».

يومها اعتقد الدكتور معين أنَّك أصبت بحمّى العودة، وأن ذلك المرض الذي انتشر في اوائل الخمسينات بين الفلسطينيّين، وقاد المئات منهم إلى حتفهم، وهم يحاولون عبور الحدود اللبنانية عائدين إلى بلادهم، قد أصابك. حاول أن يُثنيك عن قرارك قائلاً إنَّ العودة تكون بعد التحرير.

«لكني لست عائدًا»، قلت له، «أذهب لاستكشف البلاد، وأرجع إليكم كي نعود معًا».

شرح لك الدكتور معين أن الذِّين ينجحون في الوصول لا يستطيعون العيش بكرامة، لأنَّهم يعاملون كحاضرين ـ غائبين، ولا يستطيعون العمل أو التنقّل.

«لا أريد بيانًا ولا نعيًا، سأعود».

ومضيت.

وها أنت تدّعي أنَّك أردت اكتشاف الجليل قطعة قطعة، لكنَّك تكذب. فأنت لم تكتشف الجليل، بل بقيت تحوم حول دير الأسد، وتدور بين شعب

والكابري والغابسية. عشت بين خرائب الأمكنة، وكنت تدخل البيوت المهجورة، وتأكل من مؤونتها. تسطو على ما تركه الناس في بيوتهم، وتتلذّذ بطعم زيت الزيتون المعتّق. أنت قلتَ إنّ الزيت يشبه النبيذ، وإنّه كلما تعتّق في جراره، صار أكثر سلاسة. وشرحتَ لي رأيك في الخبز. اذقتني خبزك الذي كنت تأكله وحيداً طوال أشهر هناك، تعجن الطحين وتقطعه، وتقلي القطع الصغيرة بزيت الزيتون. قلت إنّك تعودت هذا الخبز، وإنّك تصنعه الآن في المخيم كلّما اجتاحك الشوق.

«ولكنه مضرّ، ويجلب الكولسترول»، قلتُ وأنا أشعر بطعمه الحارق.

«نحن لا نصاب بالكولسترول، الفلاحون ضد الكولسترول».

سنة من التشرُّد حول دير الأسد.

سنة من الوحدة والانتظار.

ولم ترو لأحد، ولم يكن أحد على استعداد لسماعك. فالناس في تلك الأيام، كانواَ يتحايلون على موتهم كل يوم.

من يذكر تلك المرأة؟

أنت قلت لي إنّك صلّيت كي يعطيك اللّه نعمة النسيان. وإنّك لا تريد أن تتذكرها، لكنّها تعود إلى مخيّلتك كطيف.

كانت وحيدة، امرأة وحيدة تدور حول مقابر الكابري المهدمة. ولم تكن مقابر. فالجيش الاسرائيلي لم يترك حجرًا على حجر في الكابري بعد احتلالها.

وكانت المرأة تلتقط أشياء عن الأرض، وتضعها في كيس تحمله على ظهرها. اقترب يونس منها، في البداية بدت له كحيوان يدبّ على أربع. شعرها الطويل يغطي وجهها، وتمشي على قدميها ويديها، وتصدر أصواتًا وهمهمة. اقترب يونس منها بحذر، مصوّبًا بندقيته استعدادًا لإطلاق النار. ثم التفتت، ونظرت في عينيه.

«ارتخت يدي، وكادت البندقيّة تسقط»، قال لزوجته، «يبدو أنّها اعتقدتني جندياً اسرائيلياً، وحين وصلت بالقرب منها، حملت كيسها على ظهرها، وبدأت تركض في الوعر. وقفت حيث كانت، وفتشت الأرض، فلم

أعثر على شيء، وجدت عظامًا يابسة، اعتقدت أنَّها لحيوانات ميتة. خطر في بالي اللحاق بها، كي أسألها عن خبرها، لكنَّها كانت تركض بسرعة الحيوانات، وعندما أخبرتني نهيلة حكايتها، عدت إلى ذلك المكان، وجمعت ما تبقّى من عظام ودفنتها في حفرة عميقة».

وحكاية تلك المرأة أرعبت أهل الجليل.

ففي تلك الأيام كان الجليل يرتجف خوفًا: بيوت مهدّمة، بشر تائهون، قرى مهجورة، وكل شيء اختلط بكل شيء.

في تلك الأيّام، كان صوت تلك المرأة كريح تصفر خلف النوافذ. وخاف الناس، أسموها مجنونة الكابري، وكانت تدبّ على الأرض، وتقفز بين الحقول، وتحمل على ظهرها كيسها المليء بالعظام.

قيل إنَّها كانت تجمع عظام الموتى، وتحفر لها قبورًا على رؤوس التلال.

وحين ماتت، تناثرت العظام من كيسها وسط ساحة دير الأسد، وهرول الناس، التقطوا العظام، وأقاموا لها قبرًا جماعيًا، ودفنت مجنونة الكابري إلى جانب العظام التي حملتها.

من هي هذه المرأة؟

لا أحد يعلم، لكنَّ الناس عرفوا حكايتها من كيسها.

قال يونس إنَّه التقى مجنونة الموتى وتحدَّث إليها، وإنَّها لم تكن مجنونة كما قالوا. أطعمتني هندباء نيئة، كانت تفتش عن الهندباء لا عن العظام. وحكايتها أنَّها بقيت في الكابري بعد أن هدمها اليهود انتقامًا لضحايا خربة جدّين. المرأة لم تهرب مع الهاربين لأنَّهم نسوها هناك.

«في تلك الأيّام كنّا ننسى أطفالنا»، قالت أم حسن حين سألتها عن مجنونة الكابري.

«في تلك الأيام، يا ابني، تركنا كل شيء، تركنا الموتى في العراء وانهزمنا».

في تلك الأيام عاش الناس الخوف والحكم العسكري وموت المتسلّلين. لم يعد الإنسان يعرف نفسه وأهله وبلاده. وكان صوتها. تمشي ليلاً، وتولول كريح تصفر وتصطدم بالبيوت المتداعية.

ولم يرَها الناس إلاّ ميتة في ساحة دير الأسد. كانت ميتة ومشلعة، يداها مفتوحتان كصليب، وثوبها الفلاّحيّ الأسود ممزّق فوق أشلاء جسدها، وكيسها الفارغ إلى جانبها، والعظام في كل مكان.

وقف الشيخ أحمد الشطّي، شيخ الجامع في دير الأسد إلى جانب الجثّة، وأمر النساء بمغادرة المكان، لفّها بقماش أسود، وطلب من الأطفال لمّ العظام ووضعها فوق الجثة. لن ينسى أطفال دير الأسد ذلك المشهد، هذا ما قاله لي ربيع في قاعدتنا العسكرية في كفرشوبا. كان ربيع شاباً غريب الأطوار، يضحك كل الوقت. حتى عندما مات أبو نائل الطيراوي برصاصة انطلقت خطأ من رشاشه، صار ربيع يضحك بدل أن يبكي كما بكينا كلنا. كان أبو نائل أول ميت أراه في حياتي. حتى أبي لم أره ميتًا إلاّ من خلال كلمات أمي. رأيت أبو نائل يموت والدم ينفر من أسفل بطنه، ونحن حوله لا ندري ماذا يجب أن نفعل. حملناه إلى السيارة، وفي الطريق إلى المستشفى كان يصرخ أنّه لا يريد أن يموت. كان يموت وهو يصرخ أنّه لا يريد. ثم جمد فجأة وثقل جسمه واختفى وجهه خلف قناع الموت.

لا أعرف كيف هرب ربيع من إسرائيل، لكنّني أذكر عينيه المرعوبتين وهو يقول إنّه لم ينسَ العظام. «الشيخ أحمد الشطي كان متأكدًا من أنّها عظام آدميّة، أما نحن الأطفال فكان رأينا أنّها عظام حيوانات، لذلك كنا ونحن نجمعها، نلهو بها، قبل أن يجبرنا صراخ الشيخ على وضعها فوق الجثة. وكان هناك جمجمة آدمية واحدة في كيس المجنونة، وهذه لم يسمح لنا الشيخ بلمسها، أخذها ووضعها في كيس على حدة، وسرت شائعات بين أطفال القرية أنّه أخذ الجمجمة إلى بيته، وأنّه كان يستخدمها في حلقات السحر التي كان يقيمها».

ربيع ترك كفرشوبا، والتحق بأحد مكاتب الترجمة من العبرية إلى العربية، التابعة للمقاومة، ثم مات خلال قصف الطيران الاسرائيلي منطقة الفاكهاني في بيروت، عام ١٩٨١.

يونس كان متأكدًا من أنّها كانت تلم عظام الناس، وتضعها في كيسها، وأنّها قتلت عن طريق الخطأ. الإسرائيليون قتلوها في حملات التمشيط التي قررها رئيس الوزراء دافيد بن غوريون عام ١٩٥١.

في تلك الأيّام، كانت قرى الجليل مسكونة بليل المتسلّلين، وكانت الأوامر واضحة بإطلاق النار على كل شيء يتحرك ليلاً.

والمجنونة كانت تنتقل ليلاً، تمشي وحيدة، كأنّها شبح الموتى الذين تحملهم في كيسها. وكان الناس يخافونها. لم يرها أحد، والجميع رآها. تلبس ثوبها الأسود الطويل وتمشي بين بقع الظلام.

أخبَرْتَني كل شيء، لكنّك لم تقل الكلمة التي انتظرتها منك، حين رويت حكاية تلك الأشهر الطويلة التي قضيتها بين البيوت المهجورة، وأشباح الليل وأصوات الطلقات الإسرائيلية، التي تحصد الناس.

- هل تخاف كلمة حب؟

- أنا واللّه أخاف، لذلك لا أنام. فالخائف لا ينام. أستلقي على سريري وأطلب من الذكريات أن تأتي كقطعان النمل وأمضي معها في حركتها اللولبيّة. أفكّر في شمس وأخاف.

ماذا لو لم يعد باستطاعتي فتح عينيّ، ماذا لو نمت ولم أقم، ماذا لو جاؤوا وقتلوني؟ أنا خائف.

لا، ليس منهم، ولا من الشائعات التي لا أصدقها. خائف من النوم، من هذه المسافة التي امّحت بين أحلامي وحقيقتي. لم أعد أدري، واللّه لم أعد أعرف الفرق. أتكلم على أشياء حدثت معي، ثم أكتشف أنّها كانت منامات.

وأنت هل ترى منامات؟

يقول العلم إن الدماغ لا يتوقّف عن إنتاج الأفكار والصور. ماذا تتخيّل؟ هل ترى حكايتك كما أرويها لك؟

لكنّي خائف منهم، الشائعات تملأ المخيّم، يقولون إن عصابة شمس سوف تنتقم من كل الذين شاركوا في قتلها. أنا مستعد أن أشرح لهم أن لا علاقة لي. ولكن أين هم؟

أصحيح أنّهم قتلوا أبو علي زايد في مخيم عين الحلوة. لماذا قتلوه؟ هل لأنّه أطلق صفيرًا. هل يقتل الرجل لأنّه صفّر؟ قيل إنّه كان يقف عند مدخل مخيّم الميّة وميّة، وحين رأى سيّارة شمس، وضع إصبعين تحت لسانه وصفّر، فانهمر الرصاص.

وأنا أيضًا سيقتلونني.

أنا لم أفعل شيئًا، أخذوني إلى المحكمة، فأدليت بشهادتي، وهذا كل شيء.

أنا متأكد أنَّها مجرد شائعات. الدكتور أمجد والمرضة العرجاء يعتقدانني مختبئًا في غرفتك خوفًا منهم. ومنذ يومين سمعت المرضة زينب تقول للدكتور أمجد إنَّها لن تعترضهم إذا أتوا. وفهمت أنَّها تقصدني.

وأنت تعلم أنَّني لا أقيم هنا خوفًا من شبح شمس أو عصابتها. أنا معك كي لا تكون وحدك، ولا أكون وحدي، عيب أن نترك بطلاً مثلك يتعفّن في سريره. وأنا أكره الوحدة والسكوت. ما هذه الأيام المغطّاة بالصمت. لم يعد أحد يعرف أحدًا أو يتكلّم مع أحد. حتى الموت ما عاد يوحّدنا، حتى الموت تغيّر وصار يشبه الموت. أنا خائف، والخائف لا ينام.

أستلقي على سريري، أفتح عيني، وأبحلق في العتمة. أنظر إلى سقف الغرفة، فأراه يقترب، كأنَّه سيسقط ويطمرني تحت ركامه. لكنَّ العتمة ليست سوداء وأنا الآن أكتشف ألوان العتمة وأراها. أطفئ القنديل وأرى ألوان الظلام. فالظلام لا وجود له، إنّه مزيج الألوان النائمة التي نكتشفها ببطء، وأنا الآن في البطء والاكتشاف.

لن أصف لك العتمة، لأنِّي أكره الوصف. منذ أيام المدرسة، وأنا أكره الوصف. يعطينا المعلم فرض إنشاء، طالبا منا أن نصف. «صف يومًا ممطرًا». وكنت لا أعرف، لأنَّني أكره تشبيه شيء بشيء آخر. فالشيء يوصف بنفسه، وحين نقارنه ننساه. فوجه الفتاة يشبه وجه الفتاة ولا يشبه القمر. البياض مختلف والاستدارة وكل شيء. حين نقول إن وجه الفتاة يشبه القمر ننسى الفتاة. الوصف هو كي ننسى. وأنا لا أحب أن أنسى. المطر يشبه المطر، ألا يكفي هذا، يكفي أن تمطر حتى نشمّ رائحة الشتاء.

لا أعرف أن أصف، رغم أني حفظت الكثير من الشعر الجاهلي. لا أروع من أمرئ القيس. ملك وشاعر وعاشق وسكّير وفاسق ونصف نبيّ. يا عيني على هذا الشعر الرائع «ترائبها مصقولة كالسجنجل»، يصف صدر المرأة مصقولاً كالمرآة. أسمع الشعر وأقول اللّه وأحبّه. ولكن عيبه

الوصف. كيف يعني يكون صدر المرأة مرآة؟ عيب، ألا يعني هذا أنّه لا يراها بل يرى نفسه؟ وأنّه لا يضاجعها بل يضاجع نفسه؟ وهذا يقودنا إلى افتراض مرعب عن أجدادنا الشعراء.. بالطبع لم يكن امرؤ القيس لوطيّاً ولا المتنبي، ولكن الحق على الوصف.

ومع ذلك، أحب الشعر الجاهلي، وأحبّ المتنبي أحب النغم الذي يدوّر الكلمات داخل إيقاعاتها وقوافيها. أعشق الإيقاع وتناغم الأشياء ورنين الكلمات. وحين أنشد هذا الشعر، تأخذني النشوة التي لا يعادلها سوى نشوة الاستماع إلى صوت أم كلثوم. وهذا نسميه الطرب. نحن شعب الطرب، والطرب ضدّ الوصف، فكيف أصف لك، وأنا لا أعرف؟

لا أنام، ولا أصف، ولا أطرب، ولا أقول الشعر. فأنا خائف، والخائف لا ينام.

أخبرني عن الخوف؟

أعرف أنّك لا تستخدم هذه الكلمة، سوف تقول إنّك انسحبت، لأنّك تتحايل على الحقيقة بالكلمات. هذه هي لعبتك مع الذكريات، تتحايل وتقول ما تريده دون أن تسمّيه.

أعرف أنّك تريدني، بعد ليلة النعاس والأرق والعتمة، أن أتركك. سوف أذهب، ولكن قل لي كيف مات إبراهيم؟

نهيلة روت موته بطريقتين، وأنت صدقتَ الحكايتين.

في المرة الأولى كذبت عليك، لأنّها خافت من ارتكابك حماقة تودي بحياتك، ثم قالت الحقيقة، لأنّها تأكدت من عينيك أنّك سترتكب حماقتك على أية حال، ففضّلت لك حماقة حقيقيّة.

دخل يونس المغارة، وكانت أشعة الشمس تلهب عينيه المحوطتين بدوائر العرق والتعب، ورآها. كانت ظلاً جامداً في أقصى المغارة، تدير ظهرها للمدخل، وتقف جامدة. سمعت وقع قدميه، وشمّت رائحة السفر، لكنّها لم تلتفت. مشى يونس داخل المغارة في اتّجاهها، فرآها تتداعى. كأنّها كانت في انتظاره كي تسقط أرضاً.

رأى كتفيها المرسومتين بالظلال السوداء أمامه، وهما ترتجفان بما يشبه البكاء. اقترب منها لاهثاً، كأنّ كل تلك المسافات التي قطعها

وانحبست في رئتيه، انفجرت الآن. وحين حاول أن يمسك بها من كتفيها، بدأت تئن، وقالت اسمًا واحدًا.

حاول يونس أن يستوضحها، لكنُّها لم تتوقّف عن ترداد كلمة إبراهيم التي صارت جزءًا من أنينها. حاول أن يسأل عن أبيه، لكنُّها لم تجاوب وانهمرت في بكاء طويل يعلو قليلاً قبل أن يختنق.

قالت إنَّ الصبيّ مات، لأنَّها لم تستطع أخذه إلى مستشفى عكّا.

«كان يأكل حين سقط رأسه، قال إن رأسه يطنّ بالألم. ربطت جبينه بقطعة قماش، دهنت عنقه بالزيت، والوجع لا يتوقّف، يمسك صدغيه بيديه كأنَّه يحضن نفسه ويتوجَّع. فقررت نقله إلى مستشفى عكا».

ذهبت نهيلة إلى مقر الحاكم العسكري، كي تطلب تصريح مرور. وهناك خضعت لتحقيق طويل، وحين عادت إلى بيتها دون تصريح، وجدت ابنها في الاحتضار، والشيخ الأعمى فوقه يلقنه.

«لم يضعوا الكيس في رأسي»، قالت، «لكنَّهم رموني في غرفة معتمة لأكثر من ثلاث ساعات، ثم أخذوني إلى مكتب رجل قصير القامة، تحدَّث معي بلهجة عراقيّة. أنا أقول ابني مريض، وهو يسأل عنك. أنا أبكي وهو يهدّد، أقول إن الصبي يموت، وهو يطلب مني التعاون معهم ويسأل عن المتسللين. ثم قال إنَّه لا يستطيع إعطائي تصريحًا إذا لم أجلب له تقريرًا طبّيّاً يثبت مرض ابني».

«لا يوجد طبيب في القرية»، جاوبته.

«هذه هي الأوامر»، قال، «إذا لم تتعاونوا معنا، فلن نتعاون معكم».

عندما أنهت نهيلة خبرها، رأت هدوء وجهك. توقّف لهاثك، ونظرت إليها بريبة كأنَّك تتهمها. رأت نهيلة هدوء جريمتك حين جلست أرضًا، وأشعلت سيجارة، وسألتها عن سالم، وقلت إنَّك ستغيب فترة طويلة.

فهمت نهيلة أنَّك لن تعود.

سألتها عن المستعمرة الإسرائيلية الجديدة، التي تبنى قرب دير الأسد، ثم وقفت وقلت إنَّك ستنتقم، ومشيت خارجًا. أمسكتك من يدك وأعادتك إلى المغارة وروت القصة من جديد.

قالت إن إبراهيم كان يلعب مع الأطفال الآخرين.

قالت إن المستعمرة الجديدة، كانت تطلع على الأرض كنبات وحشي. وإنَّهم سيّجوا الأراضي التي صادروها بالأسلاك الشائكة، وإن الناس كانوا يرون أرضهم تزحل وتروح، ولا يستطيعون شيئًا.

قالت إنَّهم أخذوا الأرض، ونحن نتفرج، كمن يتفرَّج على موته في المرآة.

قالت الأولاد «أنت تعرف الأولاد، كانوا يلعبون قرب الأسلاك، ويتكلمون مع المهاجرين اليمنيّين بالعبريّة، الأولاد يتكلَّمون العبرية، وهم يجاوبون بعربية غريبة. أولادنا يعرفون لغتهم، وهم لا يعرفونها. كان إبراهيم يلعب معهم، ثم جاؤوا به. يا ولدي، كان يرتجف بالموت. قالوا إن حجرًا ضخمًا سقط عليه. كان، كيف أصفه لك، كان رأسه ممعوسًا والدم يتساقط منه. تركته في البيت وركضت كي أطلب تصريحًا لنقله إلى مستشفى عكا. وهناك في مقر الحاكم العسكري اعتقلوني، وتركوني أنتظر أكثر من ثلاث ساعات في الغرفة المعتمة، وهددني العراقي بالضرب وهو يحقق معي. قال إنَّهم يعرفون أنَّك تأتي، وأن رجالهم أفضل منك من أجل ذلك الشيء، وأنَّهم سيقتلونك ويرمونك في ساحة دير الأسد كي تصير عبرة، وطلب معلومات عنك، وأنا أرجوه من أجل التصريح.

ولما وصلت إلى البيت، كان إبراهيم قد راح، ووالدك يجلس إلى رأسه ويلقنه».

جلستَ أشعلتَ سيجارة، وطرحت ألف سؤال وسؤال. كنت تريد أن تعرف هل قتلوه أم مات قضاء وقدرًا. هل رموا عليه الحجر، أم هل سقط عليه الحجر مصادفةً.

ونهيلة لم تعرف الجواب.

وقفت وقلت إنَّك ستقتل أولادهم كما قتلوا ابنك. «غدًا تعرفين وتزغردين لأننا سننتقم».

درت ثلاث ليالٍ حول الأسلاك، كنت تملك بندقيتك، وعشر قنابل يدوية، قرّرت ربط القنابل اليدوية ببعضها بعضًا، وزرعها وسط ورشة المستعمرة اليهودية ولحظة الانفجار، تطلق النار عشوائيّاً على المستوطنين.

كان ليلٌ.

الضـوء الكاشف يدور حـول الأسـلاك، ويونس يختبئ في غـابة الزيتـون القريبة. وبدأ يقتـرب زاحفًـا. أعدّ سلسلة القنابل، ربطها إلى صـاعق، وقرر زرعـهـا في القـاعة الكبيرة شبـه الجاهزة، حيث تنام عـائلات يهودية يمنية متكدسة فوق بعضـهـا بعضًـا. كـان يريد القتل، والقتل فـقط. وعندمـا رويتَ الحـادثة للدكتـور معين، قلتَ إنّك خـلال الاسـتطلاع الثـالث، حلمت بالجثث تتكدّس فوق بعضـهـا بعضًا، وشعرت بقلبك يرتوي.

«كنت عطشـان، فالانتقام مثل العطش. أشرب وأزداد عطشًـا، حتى جاء الوقت، وعندما بدأت بالزحف، احتلّت البرودة قلبي. لما صـار كل شيء على وشك أن يتـحقّق، اختفى العطش. وذهبت إلى العمليّة لا من أجل الانتقام، بل لأنّه كان يجب، لأنّني وعدت نهيلة...»

لن يروي يونس حقيقة ما جرى.

سوف يقول إنّه اكتشف استـحالة تنفيذ العمليّة بنجاح، وقدّر الخسـائر الجسيمة التي ستصيب السكّان من جراء الانتقام الاسرائيليّ المتوقع.

زحف نحو الأسـلاك، وبعد أن مرّت الكشـافة الضـوئيّة فوقه عدة مرات، سـمع حـركـة وصـوت إطلاق نار ونبـاح كـلاب. التـصق بالأرض، وبدل أن يتقدم أو يتراجع، تسـمّر في مكـانه. ثم قرر الانسـحاب إلى الوراء راكضًـا، دون أن يعير قضية الضوء أدنى اهتمـام. انسحب عكس تقدّمه. كـان يتقدّم زاحفًا، ينتظر العتمـة ويزحف، وحين يلتمع الكشّـاف الضـوئي، يجمد في مكانه. أما في الانسحـاب، فركض والطلقات تتطاير حوله، واختفى في غابة الزيتـون، وبدل أن يكمن فـيهـا حتـى الصبـاح تابع انسـحـابه إلى الحـدود اللبنانية.

سـوف يقول إنّه قرر إيقـاف العملية لأنّهـا ثأر فردي، ولأنّ الاسرائيليين سـوف ينتقمـون من سكان القرى العربية. لكنّه لن يروي عن الخـوف الذي جمّده في مكانه، ولا لماذا هرب إلى لبنان.

الآن يا سيدي، صـار يحق لي أن أخـاف.

أمـا يونس فـلا، يونس لـم يخف أو يرتـجف قلبـه. يونس انسـحب لأنّه بطل، أما أنا فأختبئ في غرفته لأنّني جبان. أرأيت معي كيف تتغيّر معاني

الأشياء، تلك الأيام كانت للبطولة، وهذه الأيام للابطولة. يونس خاف فصار بطلاً، وأنا أخاف فأصبح جباناً.

وحين عاد يونس إلى باب الشمس، لم يخبر نهيلة شيئًا عن الانتقام الذي لم يحصل، أما أنا، فالممرضة العرجاء تنظر إليّ باحتقار، كأنّها تنتظر مني أن أقدِّم لها تبريرات إقامتي في المستشفى. هم قتلوا شمس، وعليّ أن أدفع ثمن جريمة لم أرتكبها.

أنا لا أنام.

وأنت، هل نمت بعد انتقامك المؤجل؟

تريد قصة!

أعرف أنّك تريد تغيير مجرى الحوار، فأنت لست موافقًا على طريقتي في إخبار حكاية موت ابنك وانتقامك له. سوف تطلب مني أن أروي بطريقة مختلفة، كأن أقول مثلاً، إنّك فهمت، لحظة اقترابك من الأسلاك الشائكة، أنّ الانتقام الفردي لا جدوى منه، فقررت العودة إلى لبنان من أجل تنظيم المجموعات الفدائية، كي نستأنف الحرب التي لم تكن قد بدأت بعد.

«والله ما كانت حربًا، والله مثل الحلم. لا تصدق يا ابني أنّ اليهود ربحوا حرب الـ ٤٨. في الـ ٤٨ لم نحارب، لم نكن نعرف، ربحوا لأنّنا لم نحارب، هم أيضًا لم يحاربوا، فقط ربحوا، وكانت مثل المنام».

سوف تقول إنّك قررت الحرب لا الانتقام. وأنا مضطر إلى تصديقك، كل الناس سيصدّقون، ويقولون إنّ الحق معك، وإنّي أحاول تخبئة خوفي في خوفك.

أنت لم تخف في تلك الليلة من شهر آذار عام ١٩٥١.

وأنا لست خائفًا الآن!

عندما روى يونس حادثة موت ابنه إبراهيم عام ١٩٥١، تحدث كثيرًا عن عذابات نهيلة وآلامها. لم يتحدث عن آلامه هو، قال فقط إنّه شعر بعطش الانتقام. وسكت.

«ألم تتألم»؟ سألته.

«ألم تشعر برغبة في الموت»؟

«ألم تمت»؟

«أنا لا أفهم، لأنِّي لا أخاف إلا من شيء واحد»، قلت لشمس وأنا أطير معها.

«أخاف من الأولاد».

عندما كنا نمارس الحب، كانت تصرخ انّه البحر. كانت في السرير إلى جانبي وفوقي وتحتي، وتسبح. قالت إنّها تسبح في البحر، والموج يتدفّق من داخلها. كانت تنتصب وتنحني وتتمدّد وتتدوّر، وتقول إنّه الموج. وأنا أطير فوق شمس، أو تحتها، أو بين شمس وشمس، أطير فوق بحرها الأزرق المتموج.

«أنت كل رجال العالم»، قالت «أنام معك كأنّني أنام مع كل الرجال الذين عرفتهم ولم أعرفهم». أطير فوقها أستمع إلى كلماتها، وأحاول تأخير لحظة الالتحام. أقول لها أن تتمهّل قليلاً لأنّني أريد أن أشمَّ رائحة السماء. لكنّها تشدني إلى بحرها وتغمرني وتدفع بي إلى أقصى الحزن.

«أنت رجلي، وكل الرجال».

لم أفهم مساحات عشقها، ورغبتها في الاستيلاء على كل جسمها. كانت تمسّد جسدها وتمسك بثدييها وتغيب. أراها تغيب وكأنها ليست معي، أو كأنّها في حلم بعيد، يشبه جزيرة مسوّرة بالموج.

لم أجرؤ على طلب الزواج منها، لأنّني صدقتها. قالت إنّها امرأة حرة، ولن تتزوّج بعد زواجها الأول. صدقتها وفهمتها ووافقتها، رغم شعوري بذلك الاحتراق الذي لا يطفئه سوى أن تصبح تلك المرأة ملكي.

وافقت معها لأنِّي كنت عاجزًا. لم أجرؤ على أن أخيّرها بين أن نتزوج أو نترك. ففكرة أن لا أراها كانت أكثر صعوبة من الموت.

ثم اكتشفت أنّها قتلت سامح لأنّه رفض أن يتزوّجها. قالوا إنّها وقفت فوق جثته، وقالت بصوت مرتفع سمعه الجميع، «زوّجتك نفسي»، ومضت.

هكذا قالوا في التحقيق، عندما اعتقلوني. أنا لم أقل شيئًا، كنت عاجزًا عن الكلام لأنّني أحسست بالخديعة والخوف. وهناك اكتشفت قرار إعدامها في عيون أعضاء اللجنة. وكان رئيس لجنة التحقيق مستعجلاً، كأنّه يريد إفادتي من أجل اضافة برهان جديد يسوّغ قرار قتلها.

في اللجنة، نظروا إليّ باحتقار، باعتباري العشيق المخدوع، وأنا لم أكن مخدوعًا، ولكن ماذا أقول لهم؟ كنت أشم روائح الرجال الآخرين في جسدها، لكن لم يخطر في بالي أنّها تعشق رجلاً آخر بالطريقة التي أعشقها بها. هناك، أي معه، كانت تسكت وتكاد تبكي وهي تستمع إليه يقول إنّه معها ينام مع كل نساء العالم.

أفهمها، واللّه أفهمها، فالحل الوحيد للعشق هو القتل، أنا لم أصل إلى حافة الجريمة، لكنّي كنت أتمنى موتها، فالموت ينهي المسألة، وقد أنهاها اليوم.

شمس بطلة لأنّها أنهت مسألتها، أما أنا فمجرد رجل نبتت قرونه في رأسه، كما قال رئيس لجنة التحقيق، معتقدًا أنه يطلق نكتة مهضومة.

رفضت الجواب عن أسئلتهم، قلت فقط إنّني مقتنع أنّها امرأة غير طبيعيّة. أعرف أنّني كنت قاسيًا عليها، ولكن ماذا أقول؟ كان عليَّ أن أقول شيئًا، فخرجت تلك العبارة من بين شفتيّ، أما كل ما قيل إنّني قلته فغير صحيح. كذّابون، أنا لم أتحدّث عن حفلات جنس جماعيّة، يا حسرتي، كيف نقيم هذه الحفلات في بيتي المحوط بجثث البيوت؟ هم قوّلوني أشياء لم أقلها، من أجل إيجاد مبررات إضافية لقتل شمس. قلت فقط إنّها كانت صديقتي، وإنّها كانت امرأة متقلبة المزاج. وسمعت ضحكتهم، ونكتة رئيس اللجنة عن قروني.

أمر الرئيس بإطلاق سراحي لأنّني مسكين: «مسكين اللّه يسهّل عليه»، قال.

مسكين يعني أبله، وأنا لم أكن أبله، كنت أريد أن أقول لهم إنّ العشق ليس هبلاً، لكنّي لم أقل شيئًا، تركتهم وذهبت بحثًا عن شمس، حيث اعتقلت مرة ثانية قبل أن يطلق سراحي وأعود إلى بيروت.

ليس هذا ما كنت أريد قوله. كنت أريد أن أقول لك، إنّني في لحظات الموج تلك، كنت أحلم بإنجاب طفل وأخاف، قلت لشمس إن أفظع شيء هو أن يفقد الإنسان، ابنه أو ابنته. ورغم أنّني أعيش وسط هذا الشعب الحزين والمتوحّش الذي تعوّد فقد أبنائه، لا أستطيع تخيّل نفسي في هذا الوضع.

ضحكت شمس وأخبرتني عن ابنتها دلال، في الأردن، وكيف تشعر بالاشتياق إليها، وكأنّها تخرج من أحشائها.

وحين سألتُ يونس عن موت ابنه، أخبرني عن نهيلة.

المرأة كادت تجنّ، كل أهل دير الأسد قالوا إنّ المرأة فقدت عقلها. صارت تمشي في خراج القرية كأنّها تصطاد موتها، تخرج إلى الأماكن التي منع الحاكم العسكري المرور فيها، وكل الأماكن صارت ممنوعة تقريبًا، تمشي وتمشي ثم تعود إلى بيتها منهكة وتنام. ولم تسأل عن ابنها الثاني سالم، الذي هرّبته جدته من البيت خوفًا عليه من جنون أمه.

ولم تعد نهيلة إلى رشدها إلا بعد سنة، حين حبلت بابنتها نور. الابنة لم يكن اسمها نور، أسمتها جدتها فاطمة، لكن يونس قال إن اسم الفتاة نور، لأنّه رأى في منامه إبراهيم، يردّد آيات من سورة النور.

«اسمعي يا امرأة ماذا كان يقول»، ورأت، قالت نهيلة إنّها رأت هالة من النور حول رأس يونس حين قال:

«اللّه نور السموات والأرض مَثَل نورهِ كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنّها كوكب دُرّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي اللّه لنوره من يشاء».

قال يونس إنه احتمل موت ابنه لأنّه لم يصدّق. «فحين لا ترى لا تصدّق. كنت أقول لنهيلة إن إبراهيم سيعود في المساء بعد أن يتعب من اللعب مع الموت. واللّه يا ابني، إبراهيم بالنسبة إليّ ما يزال حيّاً، أنا في انتظاره».

دخلت اليوم إلى غرفتك وأنا أضحك. لقد أضحكتني المرضة العرجاء، وهي تروي لي كيف ضربت المرأة الدكتور أمجد. كنت أعتقد أن أمجد حسين هذا رجل محترم. لا أعرف من أين أتوا به ليتدكتر علينا. يقولون إن الستّ وداد، مديرة الهلال الأحمر، فرضته فرضًا لأنّه قريبها. لكنّه ليس منّا، فهو لم يحارب معنا، ولم يعتقله الإسرائيليّون في معسكر أنصار، إذن من أين أتى؟ لا تسألني الآن، لماذا لم أذهب إلى البقاع حين انسحبت كتيبتنا من النبطية خلال الاجتياح الإسرائيلي، أنا حظي هكذا، انسحبت

مع الكتيبة، وذهبت إلى عين الحلوة، وهناك اعتقلت، ثم أطلقوا سراحي بعد شهر، ووجدت نفسي أذهب إلى بيروت. أما أنت فلا أدري أين اختفيت. قلت لي إنّك حين سمعت خبر دخول الاسرائيليين إلى بيروت، طفشت إلى قرية بطشاي، واختبأت عند كاهن القرية.

«الخوري صاحبي من زمان، وهو يعتقد أنّني مسيحي». قلت لي.

أما أنا، فربطوني إلى تلك الشباك، التي تشبه أقفاص الحيوانات، وعصبوا عينيّ، ولفّوني بما يشبه الحبال، وأخذوني إلى السجن الاسرائيلي، قبل أن أنقل إلى معسكر أنصار.

لن أخبرك الآن، ما أخبرته لكل الناس عن حياتنا داخل معسكر الاعتقال. ففي أنصار خسرت عشرين كيلو، وأصبحت نحيلاً وسقيمًا. كل الناس كانوا في المعسكر ما عدا الدكتور أمجد. حتى أبو محمد الرحال، رئيس اتحاد العمّال خرج سقيمًا، ومات بعد ذلك بشهرين. لم أخبرك منامه الذي كان يرويه لنا كل يوم. لا أعلم ماذا جرى لأبو محمد في معسكر الاعتقال. كنّا آلافًا وسط حقل أجرد تحيط به الأسلاك الشائكة، نداوي همومنا بهمومنا كما كنا نقول. إلاّ أبو محمد، الذي كان يزور كل يوم خيمة جديدة ويروي لساكنيها الحلم نفسه.

«حلمت أمس»، يقول، ويبدأ بإخبار الحلم نفسه، حتى صار نكتة.

«حلمت أمس، انّني لا أعرف واللّه كيف، كنت أقف على الرصيف وأمدّ بشري (كان يُطلق على عضوه هذا الاسم الطريف)، وكان لا أعلم، حاشا السامعين، طويلاً طويلاً، يعني أطول من عرض الطريق، ثم جاءت دبابة اسرائيلية ومشت فوقه».

«هل قطعته الدبابة يا أبو محمد»؟

«هل توجعت كثيرًا»؟

وأبو محمد يقول إنّه خائف من الموت»، فحين يرى الرجل بشره قد قطع في المنام، فهذا يعني موته».

«ومن أين أتيت بهذا التفسير يا أبو محمد»؟

«قرأته في منامات ابن سيرين»، يجاوب.

«ومن هو ابن سيرين هذا؟ هل هو مفسّر أحلام الأعضاء التناسلية»؟

«حاشا وكلا، ابن سيرين متصوّف كبير وعالم كبير، وتفاسيره للمنامات لا تخطئ».

المهم يا سيدي أن ابن سيرين كان محقّاً، لأنّ أبو محمد مات. أما الدكتور أمجد هذا، فلم يكن معنا في أنصار، ولم تقطع دبابة إسرائيلية بشره، لكنه هنا. رجل محترم، ويحب النظافة، لم أرَ في حياتي رجلاً يتناظف على نفسه مثله، يعيش وسط هذا الخراء، وتفوح منه رائحة الكولونيا. يغسل يديه بالصابون، ثم يعطرهما بالكولونيا، ويتأفف من كل شيء. لقد حيّرني هذا الرجل، أنت لم تره، إذن يجب أن أصفه لك رغم أنّي لا أحب الوصف. أصلع، قصير، رفيع، مستطيل الوجه، خدان نافران، وعينان صغيرتان، يضع نظارة على عينيه، إطارها ذهبي لا يتلاءم مع لونها البني، ولا يفارق الغليون فمه. كتفان قريبتان من بعضهما بعضًا، كأنّه لا عرض له، ويتكلّم بسرعة، ناظرًا إلى البعيد، كي يوحي بأهمية ما يقوله.

لم يكن معنا في الحرب، وفي معسكر الاعتقال، وأنا لا أفهم لماذا يشتغل في المستشفى هنا، يقول إنّه نصف فلسطيني، لأنّ أمه سورية من ناحية حلب، ولا يتكلّم اللهجة الفلسطينية، بل لهجة غريبة هي مزيج من الفصحى واللهجة اللبنانية.

أخبرتني زينب اليوم، عن امرأة محجبة ضربته، لأنّه حاول التحرُّش بها.

«سمعت صراخ المرأة، ثم أصوات صفعات. خرجت المرأة مهددة لتعود بعد أقل من ربع ساعة ومعها زوجها، وبدأ الدكتور يتكلّم بصوت مرتبك ويرجو. وبعدها خرجت المرأة مع زوجها، وهو يحمل كيسًا من الأدوية. وكان الدكتور يشكر الزوج ويكاد يتساقط أرضًا، من شدة انحناءة ظهره».

اليوم أنا مبسوط، الدكتور أمجد تشرشح، وأريد التمتُّع بمنظره وهو ينحني أمام الزوج، ويصير مثل الكلب. أريد أن أدخِّن بهدوء وأتأمّل الحياة. ماذا تريد مني اليوم، حمّمتك وأطعمتك، وشفطنا البلغم، وكل شيء. اليوم أنا مبسوط.

والله لا أعرف قصصًا، من أين أجلب القصص، وأنا محبوس في هذا المستشفى. طيّب، سوف أخبرك قصة القطنة، أنت أخبرتني الحكاية، وأنا

متأكد. هل تعرف، عندما سمعت حكاية القطنة تهيّجت كثيراً، رغم أنّي ادّعيت الاشمئزاز، وقدمت مرافعة طويلة عن حرية المرأة، وقلت إنّ تشييء المرأة بهذا الشكل، هو سبب فشلنا وشللنا وهزائمنا. ولكن عندما ذهبت إلى النوم، ركبني عفريت الجنس، ولن أقول أكثر من ذلك، لأنه عيب.

في ذلك الزمان، تقول الحكاية، وفي قرية صغيرة في الجليل، تدعى عين الزيتون، قرر الشيخ إبراهيم بن سليمان الأسدي، تزويج ابنه الوحيد. كان الابن قد وصل إلى سن البلوغ، ونبتت لحيته في الرابعة عشرة. وكان الشيخ الأعمى يتعجّل زوجته كي تجد عروساً لابنها. فالشيخ على حافة قبره، والقبر يستدعي الأحفاد.

والزوجة وافقت، فهي أيضاً كانت تريد تزويج ابنها كي يعقل وينضج ويجد لنفسه عملاً، ويتوقف عن غيباته الطويلة، وحياته في الجبال مع المجاهدين.

والحكاية، أن الفتى، وكان يدعى يونس، لم يعارض الفكرة. فعندما أخبرته أمه أنّها ستطلب له يد نهيلة بنت محمد الشوّاح، وافق رغم أنّه لم يعرف الفتاة، ولم يسبق له أن ألتقى بها. قال إنّه موافق لأنّ اسمها أعجبه، ورسم في رأسه صورة لفتاة بيضاء، بشعرها الأسود الطويل، وعينيها الواسعتين، وجبينها العريض، ووركيها الممتلئتين، وثدييها المستديرين. تخيّل امرأة تنام إلى جانبه في السرير، وتأخذه إلى كنوزها.

لكنّ يونس فوجئ، بعد الزواج. فالمرأة لم تكن امرأة، كانت فتاة صغيرة في الثانية عشرة. والفتاة لم تكن بيضاء، كان لون بشرتها حنطيّاً، تتخلّله خيوط سوداء، وشعرها لم يكن طويلاً، بل كان مثل نتف من القماش الأسود ملتصقة برأسها. ووركاها لم تكونا...

وبعد أكثر من عشر سنوات، حين سيضاجعها في مغارة باب الشمس، سوف يكتشف أنه كان مخطئًا. فالفتاة كانت امرأة، وكانت بيضاء، وكانت عيناها كبيرتين، وكان شعرها طويلاً وأسود، وكانت تفيض أسراراً وكنوزاً.

يومها سيقول إنّها تغيّرت.

ويومها سوف تضحك عليه، لأنّه لم يكن يرى «الآن، وبعد أن خلّفت وسمنت وترهلت، تأتي لتقول إنّي حلوة... الآن بعد أن راح جمالي في التعب والقهر ترى... أنتم الرجال... الرجل أعمى حتى لو كان مبصراً».

لكن يونس سوف يصرّ على كلامه، ويحتضن استدارة وركيها، ويرى السماء بيضاء في جبينها العريض المرتفع، ويأكل راحة الحلقوم من أصابعها الطويلة الرفيعة الناعمة.

كان يقول لها إنّه يشمّ راحة الحلقوم في عنقها. يفتح جعبته بعد أن ينتهي من احتوائها، ويخرج علبة راحة الحلقوم، بينما هي تعد الشاي. ثم يجلس متكوّرًا داخل جسدها المستلقي على البساط الممدود أرضًا، فتطعمه راحة الحلقوم، وغبار السكّر الأبيض المطحون يتساقط على صدره. كان يقول لها إنّه يحبّ راحة الحلقوم من يديها، لأنّها بيضاء مثل هذه الحلوى، التي هي أفضل ما تركه الأتراك قبل رحيلهم عن بلادنا. ولأنّ رائحتها ممسّكة، كرائحة تلك الحبات البيضاء التي تذوب في فمه.

في ذلك الزمان، تقول الحكاية، كانت الدنيا تخبئ الحرب. وحين تكون الحرب، تأخذ الأشياء شكلاً آخر. الهواء يتغيّر، وروائح الأشياء تتغيّر، والناس يتغيرون. كأنّ الحرب تصبح شبحًا يلبس ثياب الناس ويتداخل بهم.

كانت عين الزيتون، في تلك الأيام، قرية صغيرة تنام على وسادة الحرب. كل شيء فيها يموج، الناس تصطدم بالهواء المكهرب، وتشعر بطعم الموت. ولم يسمّ أحد الشيء باسمه. ففي تلك الأيام لم تكن الحرب تشبه اسمها. كان الناس يعتقدون أن الحرب تشبه الحروب التي سمعوا حكاياتها من آبائهم، عن جيوش جرارة تنهزم، وجراد يأكل الحقول، ومجاعات وأوبئة. ولم يعرفوا أنّهم هذه المرة هم الحرب التي لا اسم لها.

الشيخ الأعمى، قال لزوجته إن الكلام فقد معناه، لذلك قرر أن يصمت، وصار يسبح في صمت لا يقطعه إلا حشرجته الصباحيّة، وهو يتلو الآيات القرآنيّة.

قال الشيخ لزوجته إنه يرى، رغم عينيه المغمضتين، ولم يستطع أن يشرح لها لماذا صار يخاف الماء.

قالت المرأة لابنها وهي تبكي، إن الرجل أصيب بالخرف، قالت إنها صارت تخجل من كل الناس، ورجت ابنها أن يعود من رحلاته الطويلة إلى الجبال مع مقاتلي «الجهاد المقدس»، كي يهتم بأبيه.

قال الشيخ الأعمى لزوجته، إنه لم يعد قادرًا على احتمال الحياة، بعد تعيين إمام جديد لمسجد القرية. قال إن إمام الجامع لا يعزل، وإنَّها مؤامرة، وإنَّه لن يتخلى عن رفاقه في الزاوية الصوفية في قرية شعب. وقال إن عين الزيتون سوف تهدم لأنَّها كفرت بنعمة ربها.

شرح الشيخ لزوجته كل شيء، لكنَّه لم يستطع أن يشرح لها لماذا صار يخاف الماء. قال إن الماء وسخ، وإنَّه حين يلمسه يشعر بمادة لزجة، كأن اليد تغوص في أجسام ميتة ومتحللة، وإن التيمُّم ممكن، وإن التراب.

وصار يغتسل بالتراب.

والمرأة تراه فيتمزّق قلبها. كان الشيخ يخرج إلى حديقة منزله حاملاً وعاء، يقرفص كأنَّه يستعدّ للصلاة، ثم يملأه ترابًا، ويدخل غرفة النوم. يخلع ثيابه ويتحمَّم بالتراب، والتراب يلتصق بجسمه وسط حركاته وتأوهاته.

قال الشيخ إنه يخاف لون الماء.

«الماء لا لون له»، قالت الزوجة.

«أنت لا تعرفين، لا أحد يعرف، الماء له لون الماء، كأنَّه دم لزج ينزلق على جسمي ويلتصق به».

في ذلك الزمان كانت عين الزيتون، مشغولة بحكاية شيخها الأعمى الذي يتحمَّم بالتراب، ولم تكن تدري، أن حمام التراب سينتقل بعد فترة قصيرة إلى قرية مجاورة اسمها دير الأسد. وأن الشيخ سيموت في قريته الجديدة.

بنيت عين الزيتون، على كتف تلة، كأنَّها ليست قرية. ساحتها منحدر طويل ومستطيل كأنَّها ليست ساحة. بيوتها المبنية بالطوب ترتفع فوق بعضها بعضًا متكدسة فوق جلال متجاورة. إلى يسار القرية يقع نبع العسل الذي تشرب منه القرية، ويقول أهلها إن ماءه أطيب من العسل.

كانت عين الزيتون معلّقة بين الأرض والسماء. وكان الشيخ الأعمى إبراهيم بن سالم أمام مسجدها منذ كان في التاسعة عشرة من عمره.

الناس يتشابهون في عين الزيتون، وهم جميعًا من آل الأسدي، وآل الأسدي فلاحون فقراء، قدموا في القرن السابع عشر من أهوار دجلة في جنوب العراق. لا أحد يعلم كيف جاؤوا ولماذا. الشيخ الأعمى يقول إنَّهم

ليسوا أسديين ولا من العراق، فكنية الأسدي التصقت بهم، لأنهم كانوا يعملون مرابعين في أملاك إقطاعيّ من آل الأسدي، يقال إنَّه أتى من العراق. ويروى أن أحفاد الإقطاعيّ، باعوا الأرض لعائلة سرسق اللبنانية في أواخر القرن التاسع عشر. وحكاية بيع الأراضي في فلسطين، لا رأس لها ولا ذنب كما يقولون. أما كيف تملك الأسدي أراضي عين الزيتون، فلا أحد يدري، هل اشترى هذه الأراضي الشائعة، أم كان جندياً شجاعًا في جيش أحمد باشا الجزار، والي عكا الذي هزم بونابرت فمنحه الوالي أراضيَ شاسعة في مرج ابن عامر، وألحق بها مجموعة من القرى، بينها عين الزيتون ودير الأسد وشعب؟ أم أنَّه هرب من عكا بعد موت الجزار مع مجموعة من الخيّالة واحتلوا الأرض؟ الشيخ الأعمى لا يعرف، لكنَّه يفضّل حكاية مجموعة الخيالة، كي يقول إنَّ أهالي قرية عين الزيتون كانوا في الأصل جنودًا مع الشيخ الأسدي في عكا، وأتوا معه إلى القرية، واستوطنوها، وتكنّوا بهذا الاسم الذي لا علاقة لهم به، لأنَّهم في الأصل من نواحي عكا. «عدا أنَّنا كلنا من آدم، وآدم من تراب».

أما حكاية آل سرسق، فأكثر تعقيدًا.

هل اشترى آل سرسق الأرض، أم هل أُقطعت لهم لأنَّهم كانوا أصدقاء والي بيروت التركي؟

أهالي عين الزيتون، لم يروا أحدًا من آل سرسق، كان كاظم البيروتي، وهو أفندي يعتمر طربوشًا، يأتي بعد حصاد الموسم، يعدّ شوالات القمح ويأخذ نصفها، وكان الفلاحون يعطون نصف حصادهم من القمح والذرة للوكيل بطيبة خاطر. أما الزيتون فلا. ولم يجرؤ كاظم البيروتي أن يطالب بحصة المالك من الزيتون والزيت. «الزيت لمن يزرعه»، قال الشيخ إبراهيم في وجه أحمد بن محمود، الذي جاء مطالبًا بحصته من الزيت.

وعندما عمت الاضطرابات فلسطين، خلال ثورة ١٩٣٦، رفض أهالي عين الزيتون إعطاء شيء لكاظم البيروتي. طرده أحمد بن محمود، بعد أن هزّأه أمام الناس، أسقط له طربوشه عن رأسه بالعصا، وداس الطربوش بقدميه، وأعلن عودة الأرض لأصحابها. وأعلن أحمد بن محمود الأسدي، بوصفه كبير القوم، نفسه وارثًا شرعيّاً وحيدًا للأسدي الجدّ، واقتطع

لنفسه الأراضي الخصبة في خراج القرية، وترك للفلاحين من أفراد عائلته حرية استغلال الأرض التي كانت بحوزتهم دون دفع حصة المالك، لكنه حاول أخذ حصة من الزيت والزيتون، وهو ما سبّب المشكلة بينه وبين الشيخ إبراهيم.

وأحمد بن محمود، كان واحدًا من قبضايات ثورة الـ ٣٦، وقيل إنَّه التقى عز الدين القسّام، وقيل إنَّه أصيب في الثورة، وإنَّه أعلن كل من يبيع الأراضي لليهود خائنًا، ويجب قتله.

يونس لا يعرف السبب. فهو مقتنع أن أحمد بن محمود لم يبع أرضًا لليهود، وهو على أية حال لا يملك أرضًا يبيعها. فالأرض التي بحوزته، استولى عليها، أما «الطابو»، فبحوزة آل سرسق.

وحين قتل أحمد بن محمود برصاص الثوار عام ١٩٤٦، أصيب يونس الذي كان في السابعة عشرة من عمره بحيرة شديدة. فهو لم يقتل ابن عمه كما أشيع، وهو متأكد من أن أحمد بن محمود الذي أصبح مختار القرية، لم يبع أرضًا لليهود، صحيح أنه كان متسلطًا ومتعجرفًا وقليل الذوق، صحيح أنه كان يكره يونس، ويقول إن الفتى يترك أباه وأمه وزوجته يعيشون كالشحاذين، ويعمل قاطع طريق مدّعيًا التحاقه بالثورة، وصحيح أنَّه كان يضرب زوجتيه بشكل مخيف ويحتقر الناس، ولكن لماذا قُتل؟

كان يونس مقتنعًا أن أحمد بن محمود لم يكن خائنًا، كي يُقتل. كل الناس كانوا يكرهونه حتى أولاده. والغريب أنه في مأتمه، صرخت زوجتاه كأنَّهما كانتا تُضربان. كانت المرأتان تبكيان، وحولهما الأولاد، وكأنَّهما تُضْربان. تصرخان به أن يرفع يده، ترجوانه أن ينهض، تحلفان أنَّهما ما خرجتا من البيت. والناس واجمون. لم يحزن أحد على اللص، وهذا كان اسمه السرّيّ بين أفراد عائلته، بل ذهل الجميع من تصرف الزوجتين، وكيف بدتا غير مقتنعتين بموت الرجل. كأنَّهما خافتا أن يقوم، ويرى أنهما لا تبكيان بشكل كاف، فينهال عليهما ضربًا.

مات أحمد بن محمود ولم يُعرف قاتله، لكنه قتل بطريقة توحي أنَّه كان متعاونًا أو بائعًا للأرض. جاء القاتل إلى منزله ليلاً، قرع الباب، وحين فتح له الرجل، أطلق عليه النار ومضى. ثم تعمَّد، بعد وصوله إلى تلة نبع

العسل، إطلاق رصاصتين في الهواء. إطلاق الرصاصتين، أعطى الانطباع بأنه أعدم، ولم يقتل بسبب شخصي أو عائلي. أما الشبهات التي حامت حول يونس، فسببها الخلاف بين أحمد بن محمود والشيخ إبراهيم، الذي انتهى إلى عزل الشيخ من عمله في الجامع.

أحمد بن محمود هو الذي قام باستبدال الشيخ إبراهيم بشيخ جديد، وقدم أسبابًا أقنعت الجميع، فالشيخ أعمى ولا يستطيع تدريس طلابه القراءة والكتابة، كما أنه صار ينسى الأسماء والآيات، ولا يستطيع الصلاة بشكل محترم. وبعد إقصائه المشين من مهماته كشيخ للجامع، تحوَّل الشيخ إبراهيم شحاذًا، لا يعرف كيف يدبر أمر قوته وقوت عياله.

إلى بيت الشيخ إبراهيم، دخلت نهيلة بنت محمد الشواح، وهي في الثانية عشرة، طلبوها ليونس، لأن عائلتها كانت الأفقر في القرية. فوالدها، الذي مات حين كانت في السادسة لم يخلّف إلا البنات. والأم لم ترث شيئًا من زوجها. صارت تعمل في الحقول، ولم يسمح لها أحمد بن محمود بالاحتفاظ بالأرض التي كان يزرعها زوجها، لأنَّ «النساء لا يؤتمنَّ على الأرض»، كما قال. فصارت المرأة تعمل في أرض أحمد بن محمود، وتشتغل خادمة في بيته، وتُضرَب كما تُضرَب نساؤه. وعندما قررت أم يونس تزويج ابنها، استشارت إحدى زوجتي أحمد بن محمود، فنصحتها بأم نهيلة: «اذهبي واختاري، خمس بنات فقيرات ويتيمات ويتمنين السترة». ذهبت كي تختار، لكن والدة نهيلة لم تسمح لها.

«تريدين عروسًا لابنك، خذي هذه»، وأشارت إلى نهيلة، ولم تسمح بمناقشة الموضوع.

وهذه كانت نهيلة.

لا ينسى يونس العرس وليلة الدخلة.

كيف ينسى؟ وهو الذي كره نفسه حتى الموت، وظل يشمّ رائحة الدم لأيام وأيام.

كيف ينسى وجه تلك الفتاة المرتجف خوفًا؟

كيف ينسى أمه، تغلق خلفهما باب الغرفة، وتقف منتظرة.

كيف ينسى كيف أغفى، والفتاة إلى جانبه في السرير، ولم يخلع ثيابه.

كيف ينسى الزغاريد في الخارج، والأم تلوح بمنديل أبيض عليه بقعة دم، إعلانًا لعذريَّة الفتاة وطهارتها.

كيف ينسى تلك الغرفة المليئة برائحة الدبق؟

الأم أخذت الفتاة ولم تناقش. كانت تريد زوجة لابنها. الزواج سوف يعقّل الفتى، ويجبره على العودة إلى بيته.

والشيخ أخذ الفتاة ولم يناقش. فلقد يئس من ابنه، ويريد الآن حفيدًا. أراد ابنه شيخًا وعالمًا ومتصوفًا، لكنَّ الفتى لم يحفظ من القرآن سوى الفاتحة، أرسله إلى مدرسة شعب الابتدائية، وبدل أن يدرس طفش مع الطافشين إلى الجبال. حمل بندقية، وصار يتنقل بين القرى، ويشارك في الهجمات ضد دوريات الجيش البريطاني.

رأى يونس أباه وأمه يغرقان في الفقر، لكنَّه لم يع معنى ذلك. كأنَّه كان يريد الهرب من صحبة هذا الرجل المسنّ، الذي يشتمَ القدر، ويجلس أمام باب بيته طوال النهار، ويذهب صباح كل يوم جمعة إلى جامع صلاح الدين، في ساحة القرية، حيث تحصل مشكلة، تنتهي به مطرودًا. فيما يؤم الشيخ كامل الأسدي المصلين. وكامل هذا لم يكن لا شيخًا ولا عالمًا، لم يحفظ القرآن، ولم يدرس في مدرسة دينية، ولم يشارك في حلقات الفقراء الذين أنشأوا زاوية لهم في شعب على اسم السيد اليشرطي، وكان الشيخ إبراهيم أحد مريديها الأوائل.

قالوا نزوّجه، وزوّجوه.

ويونس وافق. سمع اسم نهيلة، وقال موافق، وأعطى أمّه عشر ليرات فلسطينيَّة، لا يعلم إلا اللَّه من أين أتى بها، من أجل العرس والمهر والأشياء الأخرى.

وصار العرس.

جلس الفتى وسط حلقة الرجال، وكادت الأمور تنتهي بمشكلة. إذ قام الشيخ إبراهيم بطرد الشيخ كامل من الحفل، وقام هو بمراسيم عقد النكاح، وارتفعت الزغاريد. حملت نهيلة الشموع في أصابعها العشرة ودخلت البيت. كانت الزغاريد ترتفع، والفتى يتلقى التهاني، حين انفتح الباب، ودخلت الفتاة حاملة أصابعها العشرة أمامها، وعلى كل اصبع

شمعة مضاءة. كانت مغطاة من رأسها إلى كعب قدميها بثوب ملوّن، ووجهها يختفي تحت الألوان.

يونس لم يرها.

رأى فتاة تكاد تسقط، تتمايل كأنَّها ترقص، وتتقدَّم من الكرسيّ حيث يجلس رجلها، وتركع. الشموع تضيء وجه يونس، والنار تتغلغل في عينيه، ولا يرى.

لا يذكر يونس، كم من الوقت ركعت، فالوقت يومها كان طويلاً ولا ينتهي، وعيناه كانتا تحترقان بما يشبه الدموع، وظله يتمايل على حيطان البيت، والزغاريد تسحق أذنيه.

لن يروي أنَّه كان خائفاً بل سيقول إنَّه حين تراءت له ظلاله في تلك الليلة، لم يتعرف إليها. كأنَّها ظلال فتى آخر، تتطاول وتتكسر وتتصادم على السقف وبين المدعوّين والجدران. وسوف يقول إنَّه انحنى من أجل إطفاء الشموع، فنهرته أمه، وأعادته إلى الجلوس منتصب الجذع، وطلبت منه أن يبتسم. ثم ركعت الأم إلى جانب الفتاة، أمسكتها من ذراعها اليمنى، أوقفتها، ومشتا معًا بين المدعوّين، وبدأت رشّات الرز تتساقط فوقهما. وقام الشيخ سعيد معلاوي واقفًا، ونقر على دفّه، وهتف بأنّ اللّه حيّ، وخلفه هتف خمسة رجال ملتحين جاؤوا من قرية شعب مبعوثين من اليشرطي الكبير، شيخ الطريق الشاذلية اليشرطية، كي يباركوا للشيخ إبراهيم زواج ابنه، ويقرأوا الأدعية التي سوف تساعد الابن على السير في طريق الصالحين، التي سار عليها أبوه.

اختفت المرأة والفتاة داخل غرفة النوم، ثم بعد وقت بدا طويلاً، عادتا حاملتين زيتوناً وعنباً. الفتاة رشت الزيتون حبة حبة على المدعوين، بينما انحنت المرأة على الأرض، وفرشت عنقود عنب أبيض كبيرًا أمام قدمي الفتاة، وطلبت منها أن تمشي فوقه. خلعت الفتاة نعليها، رفعت قدمها اليمنى بحذر، وداست على العنقود، ثم وقفت بقدميها الاثنتين فوقه ومشت.

قال لي يونس، عندما أخبرني عن عشقه للعنب الأبيض، ونحن نشرب دمعة عرق في بيته، إنَّ النساء الجالسات في القاعة، نهضن من أماكنهن، وبدأن يفرشن العناقيد البيضاء أمام العروس، والعروس تمشي ودموع العنب تملأ الأرض.

قال إنَّه رأى دموع العنب. «الخمر هو دموع العنب، لذلك نقول دمعة عرق، ليس لأنَّنا نريد أن نشرب قليلاً، ولا لأنَّنا نضع العرق في قنينة صغيرة نسميها البطحة، تشبه الدمعة، بل لأنَّ العنب حين يُعصر، يتساقط ماؤه كالدموع، نقطة نقطة».

بعد هذه الحادثة بسنوات، حين كان يونس ونهيلة في مغارة باب الشمس، وانسكب الليل، أشعلت نهيلة شمعة كانت تخبئها خلف الحجر الذي أسمته الخزانة. فهب يونس واقفًا، وحمل بين يديه عشرة عناقيد عنب، كان قد قطفها من الكروم المنتشرة في محيط دير الأسد، وفرشها على الأرض، وطلب منها أن تمشي فوقها.

«اخلعي حذاءك وامشي، اليوم أتزوجك على سنة اللّه ورسوله».

يومها قالت إن الحبّ جنّن الرجل، انحنت على الأرض، خلعت المنديل الذي يغطي رأسها، ووضعت العناقيد فوقه، ولفّته وأزاحته جانبًا. وقالت ليونس إنَّها في العرس لم تمشِ الا على عنقود واحد، وإنَّها تكره المشي على العنب، وإنَّها زحطت وكادت تموت، فعصير العنب علق بكعب قدميها، وإنَّها حين ستزوج بناتها، لن تجعلهن يمشين على العنب، فهذا حرام.

ومشت نهيلة فوق حبات العنب، التي كانت تنفجر تحت قدميها الصغيرتين العاريتين، ودخلت الغرفة، ولم تخرج منها.

«والبقية تعرفها»، قال يونس. «أمي على الباب وأنا في الداخل. ما هذه العادات القبيحة، تنيك من أجلهم، تخلع ثيابك وتستعجل كي لا يسأموا في الخارج».

لكني لا أعرف البقية يا أبي، وأنت تكذب حين تقول إنَّ البقية كالبقية.

فالحكاية ليست كما رويتها لي، وأنا أعرف، لأن أبو معروف أخبرني.

كان أبو معروف رجلاً لطيفًا، التقيت به عام ١٩٦٩ في مخيم نهر البارد في شمال لبنان، بعد أن طردني قائد القاعدة في كفرشوبا، لأنَّني ملحد. ذهبت إلى نهر البارد كي أتسلّم مهمة المفوض السياسي لميليشيا المخيم، حين اندلعت الاشتباكات بيننا وبين الجيش اللبناني. كان برد تشرين الثاني شديدًا وينخر العظام. وضعوني أنا وأبو معروف في الكمين الأمامي، الذي كان من المفترض أن يلعب دور كمين استطلاعي، كنا في

مواجهة تلة يحتلها الجيش، وكان علينا، في حال تعرّض المخيم للهجوم، الاشتباك والانسحاب، أي تأخير تقدمهم ما أمكن، كي تستطيع المجموعات الأخرى سدّ الطرقات المؤدّية إلى المخيم.

كانت خطتكم ساذجة، سوف تقول.

لم تكن خطة، سأجاوبك. أنا لا أريد الآن تقويم تجربتنا العسكرية التي لا أفهم فيها كثيرًا، بل أريد أن أخبرك أن البقيّة ليست كالبقيّة.

كان أبو معروف، رجلاً.

في تلك الأيام، حين لم نكن قد وصلنا إلى العشرين، كنا نعجب كيف يأتي هؤلاء الرجال ويقاتلون معنا، وكنا نعتقدهم شجعانًا فقط لأنَّهم كالرجال. كان أبو معروف في الأربعين، وشارباه الأسودان الكثيفان يغطيان شفته العليا، ويتداخلان في فمه، يمسك رشاش الدكتيريوف، ويلفّ شرشور الرصاص حول عنقه وخصره، ويجلس صامتًا. فهمت منه أنَّه من قرية صفّوري، وأن زوجته وأولاده يسكنون مخيم عين الحلوة، وأنَّه قاتل عام ١٩٤٨ وأنَّه يعتقد أن فلسطين لن تعود.

لم أسأله لماذا يقاتل إذن. يومها كنت مؤمنًا أن حرب الشعب، كما كنا نسمي حربنا، تيمنًا بالتجربة الصينية، سوف تحرِّر فلسطين. أما الآن، فالمسألة أصبحت أكثر تعقيدًا، رغم إيماني بأنَّ فلسطين سوف تعود بشكل ما.

أبو معروف، ذلك الرجل الصامت، الذي كنت أنتزع الكلمات من بين شفتيه بالقوة، روى لي قصة تشبه قصتك.

سوف تعجب من كلامي، فأنت لم تلتقِ أبو معروف العابد، وعين الزيتون ليست قريبة من صفوّري. لكنَّ هذا الرَجل جعلني أفهم حكاياتكم مع نسائكم التي تلخصها القطنة. نعم القطنة. لا تقل إني أخترع حكاية من أجل أن أقهرك، واللّه لم أخترع حرفًا من هذه القصة، لكنِّي فهمت.

كنا في الرابعة فجرًا، وكان لنا أكثر من يومين دون نوم، مرميين في ذلك الخندق، تحت أمطار تشرين الخفيفة، والبرد يتسلَّل إلى عظامنا.

قال إنَّه يتدفأ بالحديث عن النساء. فلا شيء يدفئ عظام الرجل مثل جسد المرأة. وروى عن ليلته الأولى مع زوجته الصفورية. يومها لم أسأله شيئًا، ربما حكى لأنَّني لم أحكِ أو أسأل. قال نتدفأ بالنساء، فماذا أقول،

ثم خفت، قلت ربما كان من إياهم، ويستدرجني كي يدقّ فيّ. وكان الرجل يريد سكوتي كي يحكي، وأنا أستمع إليه ولا أصدّق. الآن أعرف أنّه يجب أن أصدّق، لأنّ حكاية أبو معروف مع زوجته الأولى التي ماتت في صفوري، تصلح أن تكون حكايتك أنت أيضاً.

قال أبو معروف إن زوجته الأولى ماتت، تحت قصف الطيران الإسرائيلي لصفوري، يوم ١٥ تموز ١٩٤٨. قال إن الحق على أبو محمود، قائد الجهاد المقدس في القرية. «فبعد سقوط شفا عمرو ونزوح أكثر من ثلاثة آلاف من سكانها إلى قريتنا، كان يجب أن يعرف أن المعركة انتهت، لكنّه أصرّ على الثبات. جمعنا في ساحة الجامع، وقال إنه يمكن الصمود أسبوعاً، ثم يأتي جيش الإنقاذ المتمركز في الناصرة. لكنّنا لم نصمد، واللّه لا أذكر أنّنا قاتلنا، جاء الطيران، ثلاث طائرات حلقت فوق القرية، ورمت براميل النار والبارود، وبدأت البيوت تتداعى».

قال إنّه رأى كيف يتشلّع البيت من داخله، وتتطاير الأبواب والنوافذ، ثم يرتفع اللهب، قال إنّ زوجته ماتت في البيت مع أولاده الثلاثة.

«كنت في الكمين، في مدخل القرية، وعندما سمعت قصف الطيران ركضت صوب البيت. قالوا إنّي خفت، ولكن لا، لم أخف على نفسي بل خفت عليها وعلى الأولاد. ركضت إلى القرية حاملاً بندقيتي الإنكليزية، وحين وصلت إلى البيت كانت النار في كل مكان. واللّه لم يتسنّ لي دفن زوجتي وأولادي الثلاثة، وانهزمت مع المنهزمين، من صفوري إلى الرامة، ومن الرامة إلى البقيعة، ومن البقيعة إلى سحماتا فدير القاسي فبنت جبيل في لبنان.

بتنا ثلاثة أيام في حقول الرامة، وكنا لا نملك شيئاً، ونكاد نموت جوعاً. طلبت مني أمي العودة إلى بيتها في القرية، كي أجلب قليلاً من الطحين والبرغل. وجدت القرية فارغة، ولم أر يهوداً في داخلها، التقيت بثلاثة رجال كهول وامرأة منحنية، كأن ظهرها طوي إلى نصفين. قالوا إنّهم تعبوا لأنّهم لا يعرفون أين يذهبون. وكان بينهم قريبنا أحمد العابد، وتعجبت لماذا لم يأخذه ابنه معه، وسألته إذا كان يريد أن يأتي معي، فرفع رأسه إلى الأعلى كي يقول لا. ثم فهمت أنّه بقي بسبب مرضه، كان يبصق ويسعل وعيناه تدمعان. ذهبت إلى بيت أمي، كان الباب مفتوحاً والمؤونة في مكانها لم

تمس. جلبت كيس طحين ومضيت. وفي طريق عودتي، أطلقوا عليَّ النار، تركت الكيس في الحقل، وزمطت بحياتي. ثم علمنا أنَّهم قتلوا أحمد العابد والكهلين والمرأة. كنا في حقول الرامة عندما سمعنا الخبر، يبدو أن ابن أحمد عاد بحثًا عن أبيه، فوجد الجثث الأربعة مطروحة في الطريق.

والله لم نحارب الآن نقول إنَّنا حاربنا، وإنَّ فلسطين ضاعت لأنَّ الدول العربية خانتنا. هذا غير صحيح، فلسطين ضاعت لأنَّنا لم نحارب. كنا كالمجاذيب، نحمل بنادقنا وننتظرهم في قرانا، وعندما يأتون بآليّاتهم ورشاشاتهم الثقيلة وطائراتهم، ننهزم دون قتال».

قال إنَّه تزوَّج ثانية في لبنان، وأنجب سبعة أولاد وبنات، وإنَّه سمَّى الثلاثة الأوائل من أولاده الجدد، بأسماء أولاده الذين ماتوا هناك، ولكن طعم أم معروف الأولى، ما يزال في عظامه.

«كانت كالنار، تشعلني حين أقترب منها».

روى أنَّه تزوجها حين كانت في الرابعة عشرة، وكان في الخامسة عشرة.

«مستحيل! في هذا العمر»!

فصار يضحك، والدموع تنفر من عينيه من شدّة البرودة، وأخبرني عن القطنة.

كيف أخبرك الحكاية يا أبي، قال أبو معروف أشياء لا تصدق، ولكنّي صدقتها. ربَّما لأنَّنا كنا وحدنا في الخندق، ربما بسبب الفجر حيث تتلوَّن العتمة ببدايات الضوء. ربما لأنَّ عظامي كانت باردة. ربما، لا أعرف.

قال أبو معروف،

«بعد أن انتهت الحفلة، أنت تعرف، حفلة زواج مش شغلة صغيرة يا زلمي، دخلنا. أنت تعرف، أنا واللّه لم أكن أعرف. لا، ليس يعني، كنت أمارس العادة السريَّة وألعب مع رفاقي، وكل شيء. لكنَّ الزواج مختلف. عندما دخلت الغرفة رأيتها، كانت صغيرة، تجلس على طرف الفراش ملتفة بثيابها، وتبكي. جلست إلى جانبها، وكنت أشعر الجليد في كل أنحائي، ثم حكت. أخبرتني أنَّها تحب الخياطة والتطريز، وأنّها خاطت كل ثياب العرس، ثم بدأت تتثاءب. استلقت على الفراش، ونمت إلى جانبها. لم تخلع ثيابها، ولم أخلع ثيابي. ونمت. لا، قبل أن أغفو تسلقتها، وما إن صرت

فوقها حتى حصل. جئت وبللت بنطلوني، ثم نزلت ونمت إلى جانبها. أعتقد أنّنا غفونا بسرعة، لأنّي استفقت على طرق عنيف على الباب. فتحت لأجد أمي تسأل عن الشرشف، ثم اندفعت إلى الغرفة، سحبت الشرشف من تحت الفتاة وركضت مهرولة. وسمعنا الزغاريد. أمي قالت لي بعد ذلك إنّها لطخت الشرشف بدم دجاجة، وإنّها تمنّت لو انشقّت الأرض وابتلعتها».

قال أبو معروف إنّه بعد يومين دخل مرة إلى غرفته، فرأى زوجته عارية ومشي الحال.

«هل تعرف ماذا فعلت أمي بعد يومين، أخذت الفتاة المسكينة أدخلتها الحمام، عرتها من ثيابها وبدأت تبحلق في جسمها وتلمسه في كل مكان. والفتاة محتارة، هل تضحك من اللمسات، أم تصرخ من الألم الذي تسببه قرْوَصات الأم، ثم ليّفتها بالصابون المعطّر، وسكبت فوقها الماء، ونشفتها. جلبت قطنة، وطلبت منها أن تفتح ما بين فخذيها. ووضعت القطنة في مدخل المكان الصحيح وقالت لها، الليلة، الليلة تتعرين، وتنتظرينه في الفراش. خذي عضوه بين يديك وادخليه هنا في مكان القطنة. ضعي مخدة تحت قفاك، وارفعي رجليك إلى الأعلى.

وعندما دخلت الفراش، ورفعت الغطاء كي أنام، رأيتها عارية. أشارت لي بخلع قمبازي. خلعته والعرق يتساقط من وجهي وعيني، استلقيت إلى جانبها، ولم أفعل شيئًا. مدت يدها وأمسكت به، وأخذتني نحوها، ورأيت نفسي فوقها، وهي تمسكه بيديها كأنّها تشده. تسلقتها وكان العرق، غسلتها بعرقي وخوفي. مدّت يدها إلى ذلك المكان حيث القطنة ووضعته، ورأيت نفسي أكبر وأكبر وأكبر. وصرت في داخلها، كبرت في داخلها، وتعلّمت سرّ الحياة. ثم وضعت يديها على كتفي وصرخت. ليلتها جئت قبل ذلك لا، كل روحي صارت هناك في داخلها.

وعندما انقلبت عنها، كان الدم يبقّع الشرشف، ورأيتها تبحث كالمجنونة، قلبت الفراش، وكانت خائفة من أن تكون القطنة قد دخلت. بحثت معها قليلاً، ثم غفوت. كان الخدر يشلّني عن سماع أسئلتها. وفي الصباح قالت إنّها وجدت القطنة، أعتقد أنها لم تجدها، لكن أمي طمأنتها بأن هذا لا يضرّ».

قال أبو معروف، إنّه لن ينسى طعمها طوال حياته.

«وزوجتك الثانية»؟ سألته.

«كنت في البداية غير راغب في الزواج، فأم معروف كانت جزءًا من لحمي، لكنَّ أمي، الله يرحمها، كانت تعرف أكثر منّي. كانت تعرف أن الرجل يجب أن لا يبقى عازبًا، كي لا يتآخى مع الشيطان، فأقنعتني بأم معروف الثانية، وهي فتاة لاجئة مثلنا من قرية شعب، تزوجتها في عين الحلوة، وأنجبت لي سبعة أولاد».

و«ماذا حصل»؟ سألته.

«عيب يا زلمي، مالك، بتحكي حكي لا يحكى، مع الثانية كنت أعرف، ومشي الحال، من الليلة الأولى».

«هل أخبرتها عن القطنة»؟

«طبعًا لا، أنت لا تفهم في النساء، يجب أن لا تخبر المرأة عن امرأة أخرى. فالمرأة اذا لم تعتقد أنّها سرّ حياتك، تصاب بالنكد، وتنكد عليك عيشتك».

لقد أذهلتني حكاية أبو معروف، اعتقدته يكذب، قلت لا يمكن، ونسيت الحكاية.

لكنّي اليوم، أرى أنّه يمكن، أراك أمامي، وأرى نهيلة، وأرى كل شيء. أراك طفلاً يدخل الغرفة ويلهو مع الفتاة، ثم ينام إلى جانبها. لن أقول إنّك كنت بريئًا، لكنّك لم تكن تعرف كيف. ثم جاءت أمك، وأخذت الفتاة إلى الحمام، فركتها بالصابون، وسكبت فوقها الماء، ثم وضعت لها القطنة. فاكتشفت سرّ الحياة بواسطة قطنة صغيرة بيضاء.

أعرف أنّ الحكاية لن تعجبك، وستعتبرها إساءة إلى رجولتك، فأنت تفضّل أن تروي عن العنب، ودمعة العرق، ورقصة الفتاة بالشموع أمام عريسها، ولا تريد الاعتراف بأنّك كنت لا تعرف.

كأنّك تنفي.

طيّب، سأوافق معك، لن أقول إنّك نمت بثيابك إلى جانبها كما فعل أبو معروف، ربما خلعت ثيابك، وأجبرت الفتاة المسكينة على خلع ثيابها، ولم تعرف كيف، واكتفت أمك بشرشف عليه بقعة دم صغيرة من أصبعها

المجروحة. وانتظرتكما سبع ليالٍ، ثم اضطرت إلى وضع القطنة في الفتاة، كي تهديك إلى المكان.

هذا ليس حقيقياً، سوف تقول.

طيب أين الحقيقة، قل لي، فأنا حتى الآن ضائع في التواريخ. هل مات إبراهيم عام ١٩٥١، وكان في الثالثة من عمره، وهذا يعني أنه ولد عام ١٩٤٨. وماذا جرى بين ١٩٤٣ عام زواجك، وبين عام ١٩٤٨ عام ولادة ابنك الأول.

لم تحبل زوجتك؟

وهل كنتم تقبلون امرأة لا تحبل؟ لماذا لم تطلّقها؟ أمّك كانت تقول إنّها طفلة، وستحبل حين تنضج. ولم تنضج نهيلة إلا عام ١٩٤٨؟

هل كنت تحبُّها؟

لا، لم تكن تحبُّها، أنت قلت إنّك تعلمت أن تحبُّها بعد زواجك بفترة طويلة، عندما صارت زيارتك لها تعادل حياتك.

إذن ماذا؟

ستقول إنّها الحرب، وإنّك لم تكن تبالي. والله أضعتني، لم أعد أعرف شيئًا، حتى قصتك تبدو ملخبطة وملتبسة وغامضة. حتى وجودي في هذا المستشفى، يبدو كمنام لا أحلمه، لأنّني لا أنام.

قل شيئاً يا أبي، لقد تعبت من كلّ شيء. قل شيئًا، كلمة واحدة ثم مت كما تشاء، أو افعل ما تشاء، أو قل إنّك تشاء شيئًا.

طيّب، طيّب، أنا موافق. فأنت لم تتزوج بالقطنة، ولم تفكر للحظة في تطليق زوجتك لأنّها لم تنجب، ولم تخف أمام المستعمرة اليهوديّة، ولم تقتل أحمد بن محمود، ولم تبك من ألم أسنانك، ولم.

هل أنت مبسوط الآن؟

سعيد ونائم؟ والله انّك رجل سعيد، شو على بالك، تنام مسترخيًا فوق الموت، والموت لا يقترب منك.

الموت يخافك، سوف تقول، كما كنت تقول.

لكنّي الآن، لست مستعداً لسماع البطولات. افعل ما تشاء، مت أو لا تمت، احلم أو لا تحلم، فأنت حرّ.

كيف وصلنا إلى هنا؟

الحقيقة لا أفهم كيف يمكن أن يكون الذي كان. الذي جرى، والذي ما جرى. لا كيف بقيت هنا، ولا لماذا لم أذهب معهم، ولا كيف أنت.

من قال إنّه كان يجب أن أبقى؟

أنا لا أتحدّث الآن عن المستشفى، فالمستشفى يعني أنت، وأنا لا أستطيع التخلّي عنك، حتى لو لم أكن خائفًا أو مطاردًا أو واقعًا في مصيدة شمس.

أنا أتحدّث عن بيروت، فبقائي في بيروت لم يكن ضروريًا كما ادّعيت أمام شمس. قلت لها إنّي شعرت بضرورة البقاء، وإنّه لا يمكن أن نترك الناس هنا، وندير لهم ظهورنا ونمشي.

لكنّي كنت أكذب.

لا، لم أكذب، يومها مع شمس شعرت بما قلته، أما الآن، فلم أعد أدري. كنت معها في بيتي هنا في المخيّم، أغلقت النوافذ بشكل محكم، كي لا يرانا أحد، كان البرد شديدًا، لكنّي لم أشعر به، كان جسمي ينتفض حرارة، وكنت أحس برغبة في السجود أمامها. كانت جميلة وعارية، تلتفّ بشرشف أبيض، وشعرها الطويل موشّح بحبات الماء. كنت أريد أن أركع، وأضع رأسي على بطنها. كل شيء في داخلي كان يرتجف، وكان ذلك العطش الذي لا يرتوي.

كنت أريد أن أركع، وأمرغ رأسي بقدميها وأنسكب أمامها. وبدل الركوع خرجت تلك الكلمات السخيفة من شفتي.

سألتني لماذا لم أذهب معهم، فجاوبت جملتي تلك وانتظرت. وسمعتها

تضحك، التفت بالشرشف الأبيض وجلست على السرير وضحكت. لم تقل إن كلماتي سحرتها كما يفترض بالكلمات أن تفعل لحظة العشق.

ضحكت وقالت إنَّها جائعة.

اقترحت عليها أن نعدّ الطعام في البيت، وسألتها إذا كانت تريدني أن أعدّ لها المعكرونة كالعادة.

تثاءبت وقالت كما تريد.

مدت يديها إلى خلف ظهرها، فسقط الشرشف عن نهديها الاسمرين المنتصبين ببقايا ماء الحمام. قفزت نحوها، رفعت يدها إلى الأعلى، وقالت لا، «أنا جائعة»، هرولت إلى المطبخ، وبدأت أقلي القرنبيط وأعدّ الطرطور.

«أنت بطل الطرطور»، قالت وهي تلحس أصابعها ببقايا ذلك السائل الأبيض، المؤلّف من الطحينة والليمون والثوم. وضعت صينيّة الطعام وسط السرير، وبدأنا نأكل.

قالت إنها لا تحب القرنبيط المقلي، لكن الطرطور شيء مدهش.

وأنا لم أقل، بلى أعدت على مسامعها جملتي تلك، قلت إنَّني شعرت بضرورة البقاء، إذ لا يمكن أن نترك الناس هنا، وندير لهم ظهورنا. فضحكت من جديد، وقالت إنَّها شبعت وتريد أن تنام. أزاحت صينية الطعام، وضعت رأسها على الوسادة، ونامت.

يومها، قلت لها إنَّني أردت البقاء، لأنِّي كنت أريدها أن تعجب بي. أما الآن، فلا. أشعر أنَّ لا سبب لي. بقيت هنا هكذا، كي لا أذهب. لا أعلم أين كنت أنت في تلك الأيام، الحقيقة أنَّني لم أسأل عنك، كنتُ كالمنوَّم مغناطيسيّاً. حملت حقيبتي، وأمسكت بندقية الكلاشنيكوف واضعًا فوهتها إلى أسفل، وتوجهت إلى الملعب البلدي في بيروت، كي أرحل مع الراحلين. وهناك، وسط الجموع الحاشدة، والوجوه المستطيلة البيضاء، قررت العودة إلى المخيم.

أنت تذكر كيف خرج الفدائيون من بيروت خلال الحصار.

قلت إنَّك كنت ضد الخروج، «الموت أفضل»، قلت لي، «نخرج بحراسة الأميركان والإسرائيليين، لا وألف لا». لكنَّك كنت أوَّل الخارجين. ذهبت إلى

تلك القرية المسيحيَّة واختبأت هناك، واخترعت حكاية عن الكاهن الذي اعتقد أنّك مسيحيّ فخبَّأك في بيته. ويومها صدقتك، يومها، ادَّعيت أنا أيضًا أنَّني رفضت المغادرة. «عيب يا زلمي، كأنَّنا الجيش التركي، لا! مستحيل أن نترك بيروت». لكنِّي يومها كنت مقتنعًا بضرورة الخروج، انهزمنا، ويجب أن ننسحب كما تنسحب الجيوش المهزومة، وتخيّلت نفسي، وأنا في طريقي إلى الملعب البلدي، أنَّني جزء من ملحمة أغريقية، أذهب في «أوديسة» فلسطينية جديدة. لست متأكدًا، أتخيلت الأوديسة يومها، أم أقول ذلك الآن، لأنَّ الشاعر محمود درويش كتب قصيدة طويلة عن هذه الأوديسة، رغم أنه هو أيضًا، لم يركب السفن اليونانية التي حملت الفلسطينيين إلى تيههم الجديد.

لبست ثيابي العسكرية، حملت جعبة صغيرة، وأخذت بندقيتي ومشيت. نظرت إلى الوراء، فرأيت المخيم كتلة من الحجارة، وأحسست أنني أُخرج هذا المكان من جلدي. فجأة بدا المخيم كتلة من الخراب، ومكانا غير صالح للسكن، فقررت مغادرته إلى الأبد. ماذا أفعل في المخيم بعد انسحاب الفدائيّين؟ هل أنهي حياتي هنا، بلا معنى، كما عشت كل هذه السنوات أطبّب المرضى وأنا لست طبيبًا، وأحبّ امرأة لا أحبّها. يومها كنت على وشك الزواج من نهى، تلك الفتاة الممتلئة البيضاء.. التي كانت تعمل معنا في الهلال الأحمر. كانت نهى لا تريد سوى الزواج، تأخذني إلى منزل أهلها في مدخل المخيم، قرب الساحة التي ستصير بعد ذلك المقبرة الجماعية، حيث نأكل، وأرى في عيني أمها شبحًا اسمه الزواج. لا أعلم كيف وجدت نفسي نصف متزوج دون أن أعي. ثم جاء الاجتياح الإسرائيلي، وتقرر ترحيلنا عن بيروت.

نظرت إلى الوراء، فرأيت كومة الحجارة التي تُسمى مخيم شاتيلا، وبدأت أركض في اتجاه الملعب البلدي. خفت أن تأتي نهى، وتقنعني بضرورة البقاء، وتأخذني إلى منزل أهلها. وصلت إلى الملعب البلدي، وكنت متأكدًا من أنها ستكون هناك. أحنيت رأسي واختلطت بالناس كي لا تراني. لا أريدها ولا أريد البقاء أو الزواج. كنت أرفع رأسي بين لحظة وأخرى مسترقًا النظر، كي أراها قبل أن تراني، فأهرب منها. لكنِّي لم

ألمحها. وبدل أن أرتاح نفسياً وأخلع ارتباكي وأبحث عن أصدقائي، ركبني القلق، كأن عدم مجيئها أرعبني. كنت لا أريدها أن تأتي، ولم تأتِ، فوجدت نفسي أبحث عنها.

أنت تذكر تلك الأيام. نساء ودموع ورزّ وإطلاق نار في الهواء. لم أر في حياتي شيئًا مشابهًا، جيش مهزوم ينسحب منتصرًا! وكانت الدموع ترطّب ذلك الشهر الملتهب في صيف بيروت. آب يحرق الأرض بشمسه الوحشية، والناس والدموع، وأنا أبحث عن نهى. قلت لا يمكن، نهى تخسر الآن رهان حياتها، لا بد أن تأتي، تطلب مني وعد زواج، وسأعدها ثم أنساها. لكن أين هي؟ كنت أمشي وسط تلك الجموع الحاشدة كالغريب، فحين لا تأتي أمك لوداعك لا يكون وداع. الأمهات كن يملأن المكان، والشباب يأكلون ويدمعون. طعام ودموع، هذا هو الوداع. الأمّهات يفتحن صرر الأكل، والشباب يأكلون، وزغاريد ورصاص.

يومها يا سيدّي تذكّرت أمي. يومها أحببتها وغفرت لها وقلت يا ليتها هنا. لكنّها لا أعلم أين؟ يومها لم أكن أعرف أنّها في رام اللّه. في الملعب البلدي، كنت متأكدًا أن أمي ستأتي، ستظهر فجأة إلى جانب نهى، وستفتح صرة الطعام أمامي، وسآكل وأبكي، كما يفعل الجميع.

وقفت وحيدًا، ولم يأتِ أحد.

ثم لا أعلم ماذا جرى لي، رأيتهم وكانوا كأشباح الموتى.

أخبرتك عن الحصار والمستشفى والموت، وكيف عشنا الموت ولم نصدّقه. بقيت شهراً داخل المستشفى أعالج الموتى، وآكل الباذنجان، وأتفرّج على الطائرات الاسرائيليّة تقصف كأنّها في مباريات للألعاب النارية. عشت مع الموت ولم استوعب، وكل الناس ماتوا. يأتون، وحين نضعهم في أسرة المستشفى يموتون. وكانت أيّامًا غريبة. هل تذكر كيف كنا نروي عن الموتى الذين يمشون. هل أخبرتك ماذا جرى لأحمد جاسم. أصيب الرجل على محور المتحف في عنقه، لكنّه مشى. سقط ارضًا، ثم وقف كالديك المذبوح، ومشى في اتّجاه مواقع الجيش الاسرائيلي وسط ذهول رفاقه. وبعد حوالى عشرة أمتار سقط ميتاً بلا حراك حملوه وجلبوه إلى المستشفى، عاينته، وأمرت بإرسال جثته إلى البراد.

«البراد!»، صرخ أحد رفاقه، «لماذا البرّاد»؟

«لأنَّه مات»، قلت.

«مات! لا يمكن»، صرخ الرجل.

أمرت أبو أحمد بحمله إلى البراد.

هنا بدأ الصراخ، هجموا على الجثة، حملوها وخرجوا. حاولت أن أشرح لهم أنَّه مات، وأنَّ المشي بعد الإصابة لا يعني شيئًا، لأنَّه مجرد ردة فعل لا إرادية، لكنَّهم شتموني، ولفّوه بحرام صوفي، وذهبوا به.

عشنا ثلاثة أشهر مع الموت ولم نصدّقه. ولكنّي وسط الملعب البلدي صدقت. كانوا كلّهم كالموتى، يأكلون ويطلقون النار ويبكون.

وكما جئت إلى الملعب البلدي راكضًا، هربت منه راكضًا.

لن أخبرك كيف بحثت عن نهى كالمجنون. يا إلهي، لماذا لم تأتِ؟ وكانت دموعي التي لم تنهمر. وكرهت وداعهم، لماذا يأكلون ويبكون ويقوصون؟ كان يجب أن لا يكون وداع. لحظتها يا سيدي، كنت مستعداً لشراء الوداع بكل مال الدنيا، كنت أريد أن أبكي كما بكوا، وأقوّص كما قوّصوا.

لكنَّها لم تأتِ.

ماذا جرى لنهى؟ هل فهمت أنَّني لم أعد أريدها. هل انتهى الحصار فانتهى الحب؟

لماذا الدموع أسألك، وأنت تغمض عينيك الغارقتين في البياض الأزرق. أمس جلبت قطرة لعينيك، وفتحتهما، وقطّرت فيهما. هل تعلم ما اسم القطرة؟ اسمها «دموع العيون». قطرة لغسل العيون يسمونها دموعًا. يذهبون إلى الصيدلية ويشترون دموعًا لعيونهم، ونحن نكاد لا نستطيع إيقاف عيوننا عن البكاء.

«دواؤنا دموعنا»، قالت أمي.

كانت أمي تبكي تحت نقر المطر الذي يطرطق فوق لوح الزنكو، الذي جعلناه سقفًا لبيتنا المتداعي في المخيم، تبكي وتقول إنَّ الدموع دواء العيون. تبكي وتخاف، ثمّ هربت إلى الأردن، وتركتني مع جدّتي ووسادة الأزهار. أخبرتك عن وسادة جدّتي، فلماذا أعيد الحكاية الآن، أردت أن

أقول لك فقط إنّني اشتريت هذه القطرة المصنوعة في بريطانية العظمى، كي أضع دموعًا في عينيك الناشفتين كالحطب. يا أخي ابك مرة واحدة على الأقل، ابْكِ على حالك وحالي. أرجوك، فأنت لا تعرف أهمّيّة الدموع، أحلى شيء في العينين هو الدموع، كما أنّ الدموع لا يمكن الاستغناء عنها. إنّها الماء لغسل العين، والبروتين لتغذيتها، والدهن كي تنزلق على الرموش.

أبكيتني وأنت لا تبكي.

أقطر لك وأنتظر دموعك، وأشعر بالبكاء في عينيّ. لا أبكي لأجلك، بل لأجل أم حسن، ليس لأنّها ماتت، بل لأنّها أورثتني الفيديوكاسيت.

جاءت سناء، زوجة بائع الكنافة، جاءت ووقفت بباب غرفتك المفتوح وقرعت. كنت أجلس هنا وأقرأ رواية جبرا إبراهيم جبرا «البحث عن وليد مسعود». كنت غارقًا في وليد مسعود، هذا الفلسطيني الذي اختفى، تاركًا شريطًا غامضًا في مسجلة سيارته. ومن أجل فك لغز هذا الشريط، اضطرّ جبرا إلى كتابة رواية كبيرة وجميلة. أنا أحبّ جبرا، لأنّه يكتب بشكل ارستقراطي، جملته نخبويّة وجميلة، صحيح أنّه كان فقيرًا في طفولته، لكنّه كتب، مثل الكتّاب، أي صاغ جملاً أدبيّة بليغة، عليك أن تقرأها كما تقرأ الأدب، وليس كما أحكي معك الآن.

قرعت سناء الباب ولم تدخل. وضعت الكتاب جانبًا، ونهضت طالبًا منها الدخول. لكنّها وقفت بالباب وأعطتني الكاسيت.

«هذه وصية أم حسن»، قالت، «أم حسن أوصتني أن أعطيك هذا الشريط».

أخذت شريط الفيديو وقدّمت لها سيكارة، وضعتها بين شفتيها وبدأت تدخّن في نهم. كنت أعتقد أن المحجّبات لا يدخّنّ، لكنّ سناء كانت تحكي وتتأتئ، وتبتلع الدخان بين حروف كلماتها.

لم أفهم لماذا الكاسيت الآن، فأمّ حسن ذهبت في زيارة إلى الجليل، منذ ثلاث سنوات، وحين عادت، جلبت لي غصن البرتقال، وأخبرتني عن زيارتها للغابسية حيث أضاءت شمعة تحت شجرة السدر، وصلت ركعتين في الجامع.

قالت سناء إن أم حسن، زارت الكويكات مرّة ثانية، منذ ستة أشهر، ورأت بيتها، وقررت أن تموت. كانت تتفرّج كل يوم على هذه الكاسيت، وتروي، والناس يشاركونها الشكوى والحزن والذكريات.

«لم تعد تنام»، قالت سناء «جاءتني وقالت إنّها سمعت هاتف الموت، لأنّها لا تنام. وصار البكاء علامة موتها، وأوصتني أن أعطيك هذا الشريط، لا أعرف ماذا سترى، فالشريط تهرّأ من كثرة الاستعمال، لكنّه وصيّتها».

شكرت سناء، وأنا أشير برأسي علامة الوداع، لكن المرأة لم تتحرك من مكانها كأنّها التصقت بباب الغرفة، ثم حكت، نفخت الدخان في وجهي، وامتلأت عيناها بالدموع.

أخبرتني سناء عن تلك الرحلة. لم أفهم شيئًا في البداية، ثم بدأت الكلمات تتحوّل صورًا. حكت عن فوزي شقيق أم حسن، وعن قرية أبو سنان. كانت تتلعثم وتعيد جملتها، كأنّها عاجزة عن السيطرة على شفتيها، ثم أوصلتني إلى الحكاية.

«لن أوصيك»، قالت سناء، «هذا الكاسيت، يعني أنت تعرف».

«اللّه يرحمها»، قلت.

«اللّه يرحمنا جميعًا»، جاوبت المرأة المحجّبة، ومضت. مشت خطوتين مترددتين، ثم عادت وأوصتني على الشريط من جديد، «دخيل عينك يا دكتور، انتبه على الشريط».

هل هذا صحيح؟

هل يمكن أن تكون المرأة قد ماتت، لأنّها رأت امرأة أخرى؟

حكاية أم حسن هزّتني من الأعماق، لا لأنّها ماتت فقط، بل لأنّها تذكرتني وأوصت لي بهذا الشريط.

ماذا جرى في الكويكات، كي تموت المرأة؟

أنت تعرف أم حسن أكثر منّي، وتعرف شجاعتها. خرجت من الكويكات وهي في الخامسة والعشرين، وكانت تحمل ابنها حسن على ظهرها، وتمسك بابنتيها سليمى وحنان. ومشوا من الكويكات إلى يركا. وفي حقول

الزيتون في يركا، اكتشفت زوجة قاسم أحمد سعيد، أنَّها تحمل بين ذراعيها مخدة، بدل ابنها الرضيع، وبدأت تولول. زوجها يجلس على الأرض كالمعتوه وهي ترجوه، «روح يا رجال جيب الصبي»، والرجل عاجز عن الوقوف على قدميه. المرأة تئن كحيوان جريح، والرجل يجلس دون حراك، لكنّ نبيلة، هل تعرف ماذا فعلت أم حسن. أم حسن عادت وحدها. تركت أولادها في عهدة سميرة زوجة قاسم أحمد سعيد، وعادت إلى القرية، وسحبت الطفل من بين أيدي اليهود. لم تروِ لأحد ماذا رأت، وماذا يفعل رجال البالماخ في الكويكات. عادت منهكة، وتتنفَّس بشكل وحشيّ، كأنَّ كل هواء العالم لا يكفي رئتيها، رمت الطفل بين يدي أمه، أخذت أولادها، وذهبت إلى الزيتونة حيث زوجها وإخوته. ركضت سميرة نحوها كي تقبل يدها، لكنَّ أم حسن نظرت إليها باحتقار ودفشتها.

لا تعتقد أم حسن أنَّها قامت بعمل خارق، ذهبت وجلبت الطفل، وهذا كل شيء. ولم ينظر إليها أحد على اعتبار أنَّها بطلة. ففي تلك الأيام، اختفى الدهش عن الوجوه. وحده الحزن، كان يلفّ الناس كعباءة مثقوبة.

سقطت الكويكات في أيدي اليهود، دون أن ندري. ففي ليل ٩ ـ ١٠ تموز ١٩٤٨ خرج الناس من بيوتهم بثياب النوم. كان القصف عنيفًا، والمدفعيّة تهدر في ليل القرية التي لم تنم. أخذ الناس أولادهم، وهربوا في الحقول إلى القرى المجاورة من يركا إلى دير القاسي، ومن دير القاسي إلى أبو سنان إلى يعثر إلى آخره... وفي الطريق، كان أبو حسن يقود أربعة رؤوس غنم، وثلاثة رؤوس ماعز. لكنَّ الطرش مات في يعثر، وأمّ حسن بكت على الغنمات، كما تبكي أمّ على أولادها.

«واللّه بكيت يا ابني، يا حسرتي على الغنمات، كيف راحت مثل شي انطفا. انطفت فوق الأرض وفطست... وكيف كان بدك يانا نعيش»؟

لكن أم حسن عاشت طويلاً كي تدفن أولادها واحدًا بعد الآخر.

قالت سناء إن أم حسن لم تتوقف عن البكاء. كانت تضع الكاسيت وتبكي، وتروي للجميع حكاية الزيارتين اللتين قامت بهما إلى هناك. «واللّه يا ناس، عشنا وشفنا، يا ريتنا لا عشنا ولا شفنا».

قالت سناء إنَّ المرأة ماتت بحسرة بيتها.

«ولكنَّها كانت تعرف»، قلت.

«لا أعرف» جاوبتني، «يمكن لأنَّها شافت، الشوف مش متل الحكي».

وأنت يا أبي، هل كنت تعرف هذه الأشياء. لماذا لم تخبر أم حسن ماذا جرى للكويكات، ألم تكن تقضي لياليك وأيامك في تلك البلاد المهدّمة؟ لماذا لم تقل للمرأة إنَّ اليهود يحتلون بيتها؟

وما المشكلة؟ سوف تقول. أم حسن لم تمت لأنَّها رأت البيت. ماتت لأنَّ عمرها خلص.

هكذا ستقول لو أخبرتك عن بيت أم حسن.

قالت أم حسن إنَّها ذهبت. كانت تلك زيارتها الثانية لمنزل شقيقها فوزي في أبو سنان.

«أهلي هربوا من الكويكات إلى أبو سنان، وبقوا هناك. يا ليته سمع كلمة أبي، لكن زوجي أراد البقاء مع عائلته، إخوته قرّروا الذهاب إلى لبنان، فذهب معهم. أبي كان مختلفًا، اختبأ مع زوجته وأولاده وأحفاده في حقول الزيتون أكثر من سنة، ثم ظهر في أبو سنان، وبقي فيها. لا أعرف كيف دبّروا حالهم، أبي كان يزرع البطيخ، وبعد إسرائيل، صار البطيخ لإسرائيل. اشتغلوا عمالاً في البناء وعاشوا. ثم اشترى أبي قطعة أرض وعمّر بيتًا. ذهبت إلى بيت أبي في أبو سنان، لأجد أخي مريضًا. كان مصابًا بنزلة صدريّة، وخفنا عليه كثيرًا، لذلك لم نذهب إلى الكويكات. هل أذهب وحدي؟ ذهبت إلى دير الأسد وشعب، وزرت أقاربنا هناك. لكنّ الكويكات كانت مهدّمة، وأخي مريض. بلى، مرة واحدة، وكنت عائدة من شعب، وابن أخي يقودني بسيارته الصغيرة، فرجوته أن يمر بالكويكات. قال لا، يا خالتي كلّها يهود، وأكمل سيره، رجوته فلم يوافق، لكنَّنا مررنا في الطريق المحاذي للقرية ولم أر شيئًا».

«المرة الثانية كانت مختلفة»، قالت أم حسن.

«كان أخي بصحة جيّدة، وأخذني إلى الكويكات. طلبتها منه، فقال في البداية ما قاله ابنه، ثم وافق. ذهبنا، وجاء معه ابنه رامي الذي كان يحمل كاميرا فيديو. هو الذي صوّر الشريط، اللّه يحميه، دخلنا الكويكات، فلم أعرفها حتى وصلنا إلى البيت».

كيف أخبرك عن أم حسن؟

هل أقول الدموع، أم الذكريات، أم أسكت.

جلست المرأة في المقعد الخلفي من سيارة «الفولسفاغن» الصغيرة الزرقاء، تنظر عبر الزجاج الخلفي، فلا ترى شيئًا.

«وصلنا»، قال فوزي.

نزل الأخ من السيارة، مدّ يده لمساعدتها على النزول من الباب الأمامي. مدت أم حسن يدها، ثم جسمها الممتلئ، ولم تستطع رفع رأسها. كأنها لم تستطع، أو كأن ثدييها كانا يشدانها إلى الأرض، انطوت نصفين، وجمدت في مكانها.

«يلله يا أختي».

شدّها فوزي من يدها الممدودة، وساعدها على النزول. نزلت من السيارة، وبقيت مطوية إلى نصفين، ثم وضعت يدها على خصرها، وارتفعت إلى الأعلى.

أشار إلى البيت، فلم ترَ شيئًا.

كانت دموعها تجري دون بكاء. تمسح دموعها بطرف كمها، وتستمع إلى شروح أخيها، بينما يقفز ابنه بالكاميرا حولها وحول السيارة.

«كل البيوت هدموها يا أختي، وبنوا مستعمرة بيت هاآمك، إلاّ البيوت الجديدة على التلّة».

وبيت أم حسن كان جديدًا وعلى التلّة.

«كل البيوت انهدمت»، قال الأخ،

«وبيتي»؟ سألت أم حسن متمتمة.

«هذاك البيت»، قال.

كانا يبعدان عن البيت حوالى عشرين مترًا، وكانت أغصان شجرة الكينا تتمايل. لكن أم حسن لم ترَ شيئًا. أمسكها من ذراعها ومشيا، وفجأة رأت كل شيء، «كأن الزمن ما مرّ»، يا ابني.

أين الزمن الذي تتحدث عنه هذه المرأة يا أبي؟ هل نجده في كاسيتات الفيديو التي صارت تسليتنا الوحيدة. مخيم شاتيلا صار مخيم الفيديو.

الكاسيتات تنتقل بين البيوت، والناس يجلسون حول الأجهزة ويتذكرون ويروون. يحكون ما لا يرونه، ويبنون بلادًا من صور البلاد. ألا يسأمون من تكرار الحكايات نفسها؟ أم حسن لم تنم، ظلّت تروي حتى ماتت في دموع عينيها.

قالت إنّها تذكرت كل شيء فجأة. وصلت إلى الباب فلم تقرع. تراجعت قليلاً إلى الوراء، دارت حول البيت، ثم جلست متربعة على الأرض، مديرة ظهرها لشجرة الكينا، كما كانت تفعل بعد انتقالها إلى هذا البيت. كانت تخاف الشجرة، فتدير لها ظهرها، وزوجها يهزأ بها لأنّها تدير ظهرها إلى الأفق، وتنظر إلى الحجارة والحيطان. أمسكها أخوها من يدها وأنهضها. ومرة ثانية كان نهوضها صعبًا، كأنّها التصقت بالأرض. تقدّم الأخ، وهو يجرّها من يدها إلى الباب وقرعه. لم يفتح أحد، فقرع مرة ثانية، فبدأ الطنين يرتفع في أذني أم حسن. كل شيء فيها صار يقرع داخل أذنيها، والجسد يرتعش بالنبضات المتسارعة، والأخ يقف منتظرًا.

وانفتح الباب.

من شق الباب ظهرت امرأة في حوالى الخمسين، سمراء، وشعر أسود يتلوّن بالشّيب، وعينان كبيرتان.

تكلّم فوزي بالعبريّة.

«ليش عم تحكوني عبراني، احكوني عربي». قالت المرأة بلهجة لبنانية واضحة.

«العفو يا مدام، الخواجة موجود»، قال الأخ.

«لا، زوجي مش هون، خير تفضّلوا».

وفتحت الباب.

«بتعرف عربي»، همست أم حسن وهي تدخل، «أنت عربيّة يا أخت مش هيك»!.

«لا مش عربيّة»، قالت المرأة.

«تعلمتِ عربي»؟، سألت أم حسن.

«لا! تعلّمت عبراني، وما نسيت العربي، تفضّلوا تفضّلوا».

وتفضلا إلى الداخل، وقالت أم حسن، كما قال جميع الذين زاروا بيوتهم «كل شي في مكانه، كل شي بقي على حاله، حتى إبريق الفخار».

«يا رب العالمين»، تنهّدت أم حسن، «ماذا ستقول أم عيسى لو زارت بيتها في القدس. مسكينة أم عيسى، كانت في أيّامها الأخيرة لا تحكي إلاّ عن موضوع واحد اسمه طنجرة الكوسى. كانت أم عيسى قد غادرت بيتها في حي القطمون في القدس، دون أن تطفئ النار تحت طنجرة الكوسى.

«أشم رائحة الحريق، الطنجرة احترقت، ويجب أن أروح وأطفئ النار». تقول لأم حسن، التي عملت عندها ممرضة في أيامها الأخيرة. وأم حسن التي كانت تشفق على المرأة التي تموت، وقفت في ذلك البيت، أمام إبريق الفخار الذي بقي في مكانه، وشمت رائحة الكوسى في طنجرة أم عيسى، وقالت إنّ كل شيء بقي في مكانه، كأنّ هؤلاء جاؤوا وقعدوا في مطارحنا.

تركتها المرأة الاسرائيليّة أمام إبريق الفخار، ثم عادت بركوة قهوة تركية. صبّت ثلاثة فناجين قهوة، وجلست هادئة تتأمّل هذين الغريبين اللّذين يرتجفان وهما يمسكان بالقهوة. وقبل أن تفتح أم حسن فمها بالسؤال، قالت المرأة الإسرائيليّة، «هيدا بيتك مش هيك».

«كيف عرفتِ»؟ سألت أم حسن.

«أنا ناطرتك من زمان، أهلاً وسهلاً».

شربت أم حسن شفّة من فنجانها، وعبقت رائحة القهوة في عينيها، وغرقت في بكاء مرتفع النشيج.

أشعلت المرأة الاسرائيليّة سيكارة، ونفخت الدخان في الهواء، وهي تنظر إلى لا مكان.

خرج فوزي إلى الحاكورة، حيث كان ابنه رامي يلهو بكاميرا الفيديو ويصوّر كل شيء.

وبقيت المرأتان وحدهما في الصالون. الأولى تبكي والثانية تدخّن، والصمت.

التفتت الإسرائيلية وأرادت أن تقول شيئًا، ثم صمتت. مسحت أم حسن دموعها بيديها وتقدّمت من إبريق الفخار الموضوع على طاولة جانبيّة في الصالون.

«الإبريق»، قالت أم حسن.

«وجدته هنا، وأنا لا أستعمله، تريدينه، خذيه».

«لا»، شكرًا.

قامت أم حسن إلى الإبريق، وحملته بيدها، ثم وضعته على ذراعها، ودنت من المرأة الاسرائيليّة، وأعطتها الإبريق.

«شكرًا»، قالت الفلسطينيّة، «لا أريده، أنا أعطيك إيّاه خذيه».

«شكرًا»، قالت الإسرائيليّة، حملت الإبريق وأعادته إلى مكانه.

انكسر الصمت، وغرقت المرأتان في الضحك. نهضت أم حسن وبدأت تتفقّد بيتها، وقفت أمام غرفة النوم ولم تدخلها، ثم وصلت إلى المطبخ ودخلته. وقفت أمام المجلى، ورأت أكوام الأطباق المتسخة، فتحت أم حسن الحنفيّة، فتدفّق الماء. ركضت المرأة الاسرائيليّة وهي تصرخ «يا عيب الشوم، يا عيب الشوم». أقفلت أم حسن الحنفيّة وقالت ضاحكة، «أنا ما تركت الجلي، هيدي أنتِ».

وخرجت المرأتان إلى الحاكورة.

أسندت المرأة الإسرائيليّة أم حسن، وشرحت لها عن المكان. أخبرتها عن بستان البرتقال الذي يعمل فيه يهود عراقيون، وعن مشاريع الري الجديدة التي بدأتها الحكومة، وعن صعوبات العيش، والخوف من صواريخ الكاتيوشا. وأم حسن تسمع وترى، وتقول كلمة واحدة «جنة، جنة، فلسطين جنة». ولما سألتها الإسرائيليّة ماذا تقول أجابت «ولا شي، كنت عم بقول احنا منسميها بيّارة، مش بستان، هذي بيارة برتقال، ما شاء اللّه، ما شاء اللّه».

«نعم بيّارة»، قالت الإسرائيلية.

هنا انقلبت الأدوار وبدأت أم حسن تشرح للإسرائيليّة عن المكان.

«فين الفوّارة»؟ سألت أم حسن.

«شو الفوّارة»؟ أجابت المرأة.

روت أم حسن عن فوّارتها، وكيف اكتشفت الماء في الحقل المجاور للبيت. فعندما بنى زوجها هذا البيت، بالقرب من شجرة الكينا، لم يكن هناك نبع؛ أمّ حسن اكتشفته. رأت ماءً ينبع من الأرض، فقالت نحفر هنا،

وحفروا، وتدفّق الماء، حوّطوا النبع بالحجارة وسيّجوه، وصار اسم الفوّارة نبع أم حسن.

«فين الفوّارة»؟ سألت.

لم تعرف الإسرائيليّة ماذا تجاوب. «كان هناك نبع»، قالت، «لكنّهم حفروا حوله بئرًا ارتوازيّة، ومدّوا الأنابيب، هل هذه هي الفوّارة»؟

«لا، الفوّارة نبع طبيعي»، قالت أم حسن، وروت أنّهم قرّروا زراعة التفاح بعد اكتشاف الماء، لكنّ الحرب.

وقادت أم حسن المرأة إلى حيث فوّارتها.

صحيح أنّها لم تجد الفوّارة، وجدت بئرًا مسيّجةً بالأنابيب والحديد، وعلى طرفيها حنفية صغيرة. انحنت أم حسن، فتحت الحنفيّة، فتدفق الماء، غسلت وجهها وعنقها، ورشت الماء على شعرها وثيابها، وشربت.

«اشربي»، قالت، «ماء أطيب من العسل».

انحنت الإسرائيليّة، وغسلت يديها، ثمّ أقفلت الحنفيّة دون أن تشرب.

«هذي أطيب مي في العالم».

فتحت الإسرائيليّة الحنفيّة، وشربت قليلاً، وابتسمت.

سوف تقول أم حسن إن الإسرائيليّين لا يشربون الماء، بل يشربون الكازوز فقط، «لا يشربون إلا من القناني، مع أنّ مياه فلسطين أطيب مياه في العالم».

وعبثًا حاولنا أن نشرح لها أنّهم لا يشربون الكازوز، بل المياه المعدنية، وأنّ سكان بيروت صاروا يشربون المياه المعبّأة في قناني بلاستيكيّة، لكنّها أصرّت على رأيها، وقالت. «لا يشربون الماء، أنا شفتهم بعيوني، بدّك ياني أكذّب عيوني؟».

بعد أن شربتا، مشت المرأتان حول البيت. أم حسن أخبرت المرأة عن شجرة الكينا وحقل الزيتون، ودلّتها على الحجر الذي يشبه رأس ثور، وقادتها إلى خلف البيت، حيث أرتها المغارة التي تقع وراء التلّة.

أم حسن تحكي، والمرأة تكتشف، وتبدي تعجبها لأنّها لم تلاحظ رأس الثور، ولا دخلت المغارة. ثم أخبرتها كيف تعلمت مهنتها كقابلة قانونية من

جدتها لأبيها، الحاجة مريم، وأنُّها تحمل شهادة رسميَّة من الحكومة البريطانية. وروت كيف تزوَّجت وهي في الخامسة عشرة من أجل أن تكشّ الدجاجات من أمام البيت، كما قالت حماتها حين طلبت يدها.

أم حسن تروي وتمشي من مكان إلى آخر، والمرأة اليهوديَّة تلحق بها وتستمع إليها، وتهزّ رأسها ولا تقول شيئًا.

قالت أم حسن لزوّارها إنَّها رأت عمرها يذوب أمامها، «شو العمر فصّ ملح ويذوب»، وإنَّها هناك عادت كما كانت. كأن الزمن لم يمرّ، ورأت تلك الفتاة التي أقامت في بيتها الجديد، حين كانت في العشرين من عمرها. قالت لزوجها إنَّها تريد بيتًا، «لم أعد أصلح لكش الدجاجات، ولم أعد طفلة». أخذوا الأرض، وعمّروا البيت بأيديهم. واكتشفت النبع والمغارة ورأس الثور، وصارت القابلة القانونية لقضاء عكا بأسره.

عادت المرأتان إلى داخل البيت، وجلستا صامتتين.

نهضت أم حسن ودخلت غرفة النوم. نظرت إلى السرير الذي يتوسط الغرفة. كان هذا أول سرير تنام عليه في حياتها. فهي في دار أهلها، ثم في دار أهل زوجها، كانت تنام على فرشة تضعها في أرض الغرفة، وتقوم كل صباح بطيها ووضعها في طرف الغرفة. أما في هذا البيت، فالسرير لا يطوى.

«غرفة من أجل النوم فقط»، قال زوجها.

المرأة الأخرى تنام هنا كل ليلة مع زوجها، على السرير نفسه، في الغرفة نفسها، في البيت نفسه، في القرية... لا، القرية لم تعد موجودة. لم يعد باستطاعة أم حسن أن ترى بيوت القرية المتلاصقة، البيوت اختفت. لم يبق شيء من الكويكات.

بكت أم حسن بعد أن أنهت جولتها في البيت، جلست في الصالون وبكت. دخل الأخ يستعجلها الخروج من أجل العودة إلى بيته في أبو سنان، فرآها تبكي، بكى هو أيضًا، وبكى ابنه الذي يحمل الكاميرا.

«هل تعلمون ماذا قالت لي».

كانت أم حسن تروي الحوار نفسه كل يوم، تزيد كلمة هنا، وتشطب كلمة هناك، كأنُّها تبتلع دموعها إلى الداخل.

سألتني، «من أين أنتِ يا أختي».

«من الكويكات، هذا بيتي وهذا إبريقي وهذا تختي، والزيتونات والصبر والأرض والفوّارة وكل شيء».

«لا، لا، الآن أنتِ وين عايشة»؟

«في شاتيلا».

«وين شاتيلا»؟

«في المخيم».

«وين المخيم»؟

«في لبنان».

«وين في لبنان»؟

«في بيروت، حد المدينة الرياضية».

حين سمعت اليهوديّة اسم بيروت، انتفضت وتغيّر كل شيء.

«من بيروت»؟!، صرخت. وصارت كلماتها تتطاير من بين شفتيها. ودمعت عيناها.

«اسمعي يا أختي»، قالت اليهوديّة، «أنا كمان من بيروت، من وادي أبو جميل، بتعرفي وادي أبو جميل، حي اليهود يللي بيصير في وسط البلد. جابوني لهون وأنا عمري ١٢ سنة. تركت بيروت وجيت على هالأرض الحفرا النفرا، بتعرفي مدرسة الأليانس، على يمين المدرسة في بناية من ثلاث طبقات، كان يملكها واحد يهودي أصله بولوني، اسمه ايلي برون. أنا من هناك».

«أنت من بيروت؟»، سألت أم حسن بتعجب.

«أيوه، من بيروت».

«وكيف»؟

«شو كيف، أنا يلّلي مش عم بفهم، أنتِ ساكنة ببيروت وجايي تبكي هون، أنا يلّلي بدي ابكي، قومي روحي، قومي يا اختي روحي، ردّي لي بيروت، وخدي كل هالأرض المقطوعة».

قالت أم حسن إنّها تكلّمت كثيرًا مع المرأة اليهوديّة.

المرأة اسمها ايللاّ دويك، وهي نبيلة بنت الخطيب من دار الهابط، وزوجة محمود القاسمي. «والهابط مش هابط، كان جدي يقعد كل الوقت، فلقّبوه بالهابط، نحن من دار اسكندر، وقبل اسكندر الخطيب».

روت ايللاّ دويك عن بيروت.

وحكت نبيلة الهابط عن الكويكات.

قالت ايللا إنّها تزوجت مهندسًا زراعيّاً يعمل هنا، وأعطوهم البيت، ولم تنجب أولادًا. زوجها عراقيّ من نواحي بغداد، وتتمنّى زيارة العراق. ولها شقيق واحد يعمل في تل أبيب، لكنّها لا تراه.

أخبرتها أم حسن عن بيروت، عن البحر وكورنيش المنارة، ومحلات الحمرا، والبذخ والجَمال والسيّارات. وقالت إنّ الحرب لم تستطع تدمير بيروت، دمّرت الكثير، لكنّ بيروت ما تزال كما كانت.

قالت أم حسن، إنّها هناك، في الكويكات، رأت بيروت التي لا تعرفها جيدًا. «لا أعرف إلاّ منزل أم عيسى في شارع أميركا قرب سينما كليمنصو».

«في الكويكات شفت بيروت»، قالت «بس أنا لا أعيش في بيروت، أعيش في المخيم، والمخيم مجموعة قرى مكدسة فوق بعضها بعضًا».

وقفت المرأة اليهودية.

والوقوف يعني أنّ على الضيف أن يرحل. لكنّ أم حسن لم تفهم معنى الإشارة. قال أخوها إنّه يجب أن يذهبوا، فنظرت إليه بتعجُّب ولم ترد.

«والآن ماذا، أستطيع أن أفعل لكِ»، قالت ايللاّ.

«لا شيء، لا شيء، وبدأت أم حسن تحاول نهوضها المتثاقل.

ذهبت المرأة اليهودية إلى الطاولة، أمسكت بإبريق الفخار، وأعطته لأم حسن دون أن تقول شيئًا، أخذته أم حسن دون أن تنظر إليه، وعادت مع شقيقها إلى بيته في أبو سنان.

«الإبريق ما يزال في مكانه»، قالت سناء.

أم حسن أقسمت أن لا يزيحه أحد، وقالت إنّها ندمت لأنّها جلبته معها، وإنّه كان يجب أن يبقى هناك في بيته.

«ثم ماذا»؟ سألتُ سناء.

«ماذا»، قالت، «هي ماتت في المخيم، واليهودية تعيش في بيتها».

هل تصدّق يا أبي أن أم حسن ماتت وهي تبكي من أجل ابريق الفخار الذي جلبته من بيتها؟ ماتت لأنّ امرأة قالت لها تقبري الكويكات خذيها، لماذا لم تأخذها، لماذا لم تقل للمرأة إنّها تعطيها كل المخيم وكل وادي أبو جميل وكل العالم؟

قالت أم حسن إنّها بكت على حالها.

«اشترت اليهودية سكوتي بإبريق الفخّار، وحكايتها عن طفولتها الخرساء، وأنا رجعت على الشحار والتعتير والفقر بهالمخيم. هي أخذت البيت وأنا هون. شو النفع».

وتحولّت الحكاية شريط فيديو صار ملكي. رامي لم يصوّر الحوار بين أم حسن وايللاّ دويك، جعل الكاميرا تدور حول البيت وحول الأرض وحول بيارة البرتقال. لكنّه شريط جميل، مؤلف من مجموعة لقطات مقربة. يا ليته صوّر بشكل بانورامي، ولكن لا بأس، نستطيع أن نتخيّل المشهد ونحن نرى. صرنا شعب الفيديو. أيجب أن أتفرّج على الشريط كل ليلة وأبكي وأموت، أم يجب أن أصوّرك أنت، وأجعلك فيلم فيديو يدور في البيوت؟ ولكن ماذا أصوّر؟ هل أطلب من أحد تمثيل دورك شاباً؟ ما رأيك لو مثّلته أنا؟ المدام سألتني إذا كنت ابنك، أقول إنّني ابنك وأمثّل الدور، لكنّي لست ممثلاً والتمثيل مهنة صعبة، يا ليتني أعرف أن أمثل، لكنت مثّلت جريمة شمس، ولما ضحك المحقّقون عليّ، وبهدلوني بنظراتهم المشفقة.

«أبشع شي هو الشفقة»، كنت تقول. «يجب أن لا نشفق على أنفسنا، عندما يشفق الإنسان على نفسه، ينتهي».

ولكنّي، بكل أسف أقول لك الآن، إنّني اشفق عليك، والله أنت تثير الشفقة أكثر من إبريق أم حسن، ومن المرأة اليهوديّة الخرساء.

المرأة اليهوديّة قالت لأم حسن إنّها لم تنسَ اللغة العربيّة، وقالت إنّها أصيبت بالخرس في إسرائيل.

«كنت وحدي، تلميذة وحيدة من لبنان، وكانوا كلُّهم يتكلّمون العبريّة. بقيت خمسة أشهر صامتة في الصف. لم أكن أجرؤ على الكلام مع أحد،

لا أجيب عن أسئلة الأساتذة، وأرفض أن أقرأ بصوت عال. بقيت هكذا خمسة أشهر، ثم تكلّمت. كأنّي كنت في صمتي، أحاول أن أصبح جزءًا من هؤلاء الذين لا أعرفهم. أنا كما تعلمين، كانت الفرنسية لغتي الأساسية، ففي مدرسة الأليانس في بيروت، كنا ندرس العربية ككل تلاميذ لبنان، لكنّ لغتنا في المدرسة والبيت كانت الفرنسيّة. أما العبريّة فكنت أعرف القليل منها، لأنّنا كنا ندرسها في المدرسة، ولم نكن نحبُّها، وفي «المعبروت» درست العبريّة، لكنّني في الصف، وسط التلاميذ، أصبحت خرساء، قبل أن أتعلّم كيف أتكلّم مثلهم».

أخبرتها كيف عاشت في «المعبروت»، حيث كانوا يرشون اليهود الشرقيين بالمبيدات كأنّهم حيوانات، قبل إدخالهم البراكات الحجرية، وأنّها بكت حين أجبروها على خلع ثيابها، اقتربت منها تلك المرأة الشقراء وهي تحمل آلة الرشّ الأسطوانيّة الطويلة، ورشتها بلا رحمة في كل أنحاء جسمها. وأنّ والدها الخمسيني صار يعوي حين أمروه بخلع طربوشه الأحمر، وقام الرجال باللعب به كأنّه طابة. كان واقفًا مع الواقفين حين امتدّت يد إلى طربوشه، طار الطربوش وتحوّل طابة، والرّجل يركض خلف طربوشه، والجنود يلعبون ويضحكون. ثم حين تأكّد أن طربوشه انتهى، صار يبكي كأنّه يعوي ويردّد «لا إله إلاّ اللّه»، فاعتقدوه مسلمًا، وأخضعوه لتحقيق طويل عريض قبل أن يسمحوا له بأن يخلع ثيابه، ويُرش بالمبيدات، ويعتاد البقاء عاريًا من طربوشه إلى الأبد.

ايللاّ دويك أخبرت أم حسن الهابط حكايتها. وأم حسن أخبرت كل الناس أنّها بكت.

«يقطعني كيف بكيت، قالت لي خدي هالأرض الحفرا النفرا، وردّيلي وادي أبو جميل وبناية إيلي برون».

«وماذا جاوبتِ يا أم حسن؟»

«لم أجاوب، خرست وصرت أبكي».

هل تعلم يا أبي أنّ مهنة الطب ضد الشفقة، لا تستطيع أن تكون طبيبًا وتشفق على المرضى، لهذا أنا طبيب فاشل. لا، لست طبيبًا، جئت هذه

ـهنة بالمصادفـة، ولم تكن قـد خطرت في بالي أبدًا. هـكذا قـررت الطبيـبة صينيّة، عيّنتني طبيبًا، وأمـرت بإيقافي عن التدريب العسكري، وألحقتني درسة الطب. أنا لا أحب الطب، وجدت نفسـي في الصـين، وكان لا بد من وافـقـة. ثم أقنعـتني نظرات الناس بمهنتي الجديدة. يسـمـونك «الحكيم» عتقدونك ساحرًا. أعتقد أن هالة السحر هي سبب حب شمس لي. لا تقل ّ شمس لم تحبّني، أحبّتني على طريقتها، لكنّها أحبتني. وأنا متـأكّد من ّ موتـها يخفي لغزًا يجب حلّه. والألغـاز لا تكتشف إلا بعد زوال الصـدمة ـاطفيّة، وبعـد نـهاية سـجني الاخـتـيـاري في هذا المسـتـشـفى اللعين. وساخة في كل مكان. حائط الغرفة لم يعد أبيض، بياضه مقشّر ومصفرّ، ـيء مثل الكمخة. نظفت الحيطان بالصابون، لكن دون جدوى.

ما رأيك بالدانمارك؟

أنت تعرف الدكتور نعمان الناطور. أنا لا أعرفه، لكنّه كتب مقالاً جعلني كي. لم أبكِ على عكا القديمة التي تكاد تتساقط، بل بكيت على المفتاح.

هل أخبروك ماذا جرى لنعمان؟

وصل إلى عكا، فـهـو يسـتطيع زيارة إسـرائيل لأنّه يحـمل جـوازًا نماركيّاً. ركب الطائرة في مطار كوبنهـاغن وحطّ في مطار اللد. خـرج لمسافرين العاديّين، قدم جوازه لرجل الأمن وانتظر، أخذ الرجل الجواز، ـعّن فيه، وطلب من الدكتـور نعمـان الانتظار. انتظر حـوالى ربع سـاعة، ـاءت فتاة بلباس عسكري، أعـادت له الجواز وهي تعتذر مـبتسمة. أخذ ـوازه وخرج إلى قاعة تسليم الحقائب، أخذ حقيبته، التي اكتشف في ما ـد أنّها فتحت ونبشت بشكل دقيق، وخرج من المطار.

لم تؤثّر فيه هذه الإجراءات، لأنّه كان في وضع نفسـيّ مريع، كل شيء ـه يرتجف. كـان يتـوقـع أن يصـاب بالسكتـة القلبـيـة لحظة خـروجـه من ـائرة، لكنّه فوجئ بنفسه يتصرف كمسافر عادي، كأنّ هذه البلاد ليست ـده.

خرج من المطار وركب تاكسي أوصله إلى القدس، بات ليلتـه في أحد ـدق المدينة العربية، وفي الصبـاح، وبدل أن يتجـوّل في أحـياء القدس ـديمة، كما يفعل جميع السيّاح، ركب التـاكسي إلى عكا. نزل في سـاحة

المدينة قرب جامع الجزّار، ومشى. كتب أنّه مشى ومشى ومشى. كان وحيدًا وتائهًا في مدينته. قال إنّه أراد أن يجد بيته دون مساعدة أحد. فهو مثلي، لم يولد في فلسطين، ولا يتذكر من بلاده سوى كلمات أمّه. مشى نعمان، تاه في الأزقّة، وكان يقف، يتفرّس في البيوت ويمشي. وأخيراً وصل إلى البيت، قال إنّه عرفه حين رآه. قرع الباب، فاستقبلوه كما استقبلوا أم حسن باللغة العربيّة. لكنّهم لم يكونوا يهوداً، كانوا فلسطينيين.

دخل البيت سلّم وجلس.

ذهبت المرأة لتعدّ القهوة، فنهض وبدأ جولته في بيته. رفض مرافقة صاحب البيت، قال إنّه يريد أن يتفرّج وحده. وفي جولته داخل الغرف، اكتشف نعمان كلمات أمه. صارت كلمات أمّه دليله إلى البيت. مشى على الكلمات ووصل إلى المطبخ، وهناك، رأى أمّه تقف أمام طنجرة البرغل الكبيرة. قال نعمان إنّهم في مخيم اليرموك قرب دمشق، حيث ولد، كانوا لا يأكلون سوى البرغل. كانت الأم تقف في مطبخهم الصغير أمام الطنجرة ونعمان يمسك بأسفل فستانها ويبكي.

أما في مطبخ البيت الواسع في عكا، فلم تكن الأم، ولا كانت طنجرة البرغل، كان الطفل وحيدًا، وأمامه وقفت زوجة صاحب البيت تعدّ القهوة. خرجت المرأة على رؤوس أصابعها، حين رأت نعمان يمسح دموعه بباطن كفه.

في الدار، شربوا القهوة، وشرح الرجل الفلسطيني لنعمان، أنّه ينتظر زيارتهم من زمان، وأنّه استأجر البيت من مسؤول أملاك الغائبين، بعد أن طردوه من بيته، وأنّه على استعداد لمغادرة البيت ساعة يريدون.

ونعمان يستمع ولا يحكي، كأنّه نسي الكلام.

حاول الرجل الفلسطيني أن يشرح له ظروف حياتهم وصعوباتها، ويطمئنه أنّه لا يريد البيت، وأنّه أُجبر على استئجاره لأنّ بيته هدم.

نهض نعمان مستأذنًا.

«ابق على الغداء، البيت بيتك»، قال صاحب البيت.

«لا، شكرًا»، قال نعمان، ومضى.

لم يلتفت نعمان إلى الوراء، كتب أنّه ندم لأنّه لم يلتفت، كان يجب أن يحتفظ بصورة البيت في رأسه، لكنّ الصورة تبخرت الآن، ولم يبق من البيت سوى كلمات الأم التي رسمته في ذاكرته.

قال نعمان إنّه مشى ومشى، ثم سمع صراخ صاحب البيت، التفت فرأى الرجل يركض خلفه، ويصرخ باسمه، ملوحاً بشيء صغير في يده.

«المفتاح، نسيت أن أعطيك مفتاح بيتكم، خذه، إنّه لك».

«لا لزوم»، قال نعمان، «المفتاح القديم ما يزال معنا في دمشق».

الدكتور نعمان عاد إلى الدانمارك، والمفتاح ما يزال في دمشق، وأم عيسى ماتت وهي تهجس بطنجرة الكوسى، وعيسى في مكناس يبحث عن المفاتيح.

كانت أم عيسى تتحدّث عن ابنها كأنّه ينتمي إلى عالم آخر. كأنّه ميت، هكذا اعتقدت أم حسن حين سمعتها تتحدّث عن ابنها بطريقة تشبه الندب. ثم اكتشفت أن الدكتور عيسى صافية لم يمت، بل يعيش في مدينة بعيدة في أقصى المغرب اسمها مكناس، حيث يدرّس الأدب العربي في جامعتها.

المكناسية أخذت عقله، قالت أم عيسى، «التقاها في نيويورك حيث كان يدرّس، وعلق بها، أنا رأيتها مرة واحدة، عندما أتت معه وزاراني في بيروت، يخرب بيتها شو حلوة، عيونها كبار وشعرها مالس وطويل وأسود، وفيها شي غريب، أكيد كتبت له، فأنا أعرف النساء، وأعرف أن هذه المرأة جعلته يرى السمكة التي تحكي».

أم حسن وافقت، رغم أنّها لا تعتقد بوجود سمكة سحرية في أسفل المرأة، ثم هي لا يهمّها أمر الدكتور عيسى الذي تدكتر في الأدب، بدل أن يتعلّم الطب ويصبح دكتوراً حقيقيّاً ويساعد الناس. ثمّ «ربما كان أهل القدس من إخواننا المسيحيين عندهم سمكة لا نعرفها».

«المكناسية أخذت عيسى إلى بلدها، وتركوني وحدي في بيروت، لماذا لا تأتي وتعيش معي هنا! عيسى يكتب لي، ولكن المكاتيب لا تصل في الحرب، وفي آخر مكتوب وصلني، قال إنّه يجمع المفاتيح، يا حسرتي علينا، صرنا نجمع مفاتيح أهل الأندلس. قال إنّ أحفاد أهل الأندلس الذين طردوا من بلادهم وهاجروا إلى مكناس، ما يزالون يحتفظون بمفاتيح

بيوتهم الأندلسية، وإنَّه يجمع المفاتيح، وسيقيم لها معرضًا، ويكتب عنها كتابًا. اقرإي يا أم حسن».

وأم حسن لم تعد تستطيع القراءة، شحّ بصرها، وصارت ترى الكلمات حشرات صغيرة تتراكب. تسألها أم عيسى هل قرأت! فتجيب أم حسن بهزة من رأسها، كأنَّها تقرأ.

«عجبك هالحكي، قال بدو يجمع المفاتيح ويكتب كتاب، قال إنَّه لازم نجمع مفاتيح بيوتنا في القدس، عجبك، قال نجمع المفاتيح والبواب تكسرت».

روت أم حسن حكاية مفاتيح الدكتور عيسى صافية، حين سألتها أين أستطيع أن أجد الدكتور نعمان، فهي تعرف كل الناس، قلت لها إنَّني لا أريد جمع المفاتيح، أريد سؤاله عن إمكانية الهجرة إلى الدانمارك. لكنَّها لم تصدقني. اعتقدت أنَّني أصبت أيضًا بلوثة المفاتيح، وأخبرتني أن بيتنا في الغابسية لا باب له، وأنَّه لم يعد بيتًا، لأنَّ الأعشاب أكلته.

أنا لست مهتمًا بالمفاتيح، هذه العواطف لا تهمّني، فكرت في الهجرة فقط، وقلت الدانمارك، لأنَّ الكثير من شباب المخيم هاجروا إليها، ففكرت في الدكتور نعمان، لأنَّه طبيب مثلي، قلت يستطيع أن يدبّر لي عملاً في أحد المستشفيات هناك. لكنّي صرفت النظر عن الموضوع وبقيت هنا.

قالت أم حسن ابق في بيتك هنا، وبلاش قصة المفاتيح.

هل نستطيع تسمية هذه الأكواخ الحقيرة في المخيم بيوتًا؟

كل شيء هنا يتداعى ألا توافق معي يا سيد أبو سالم؟

هل تعلم يا سيدي أين أنت الآن؟

أنت تعتقد نفسك في المستشفى، لكنَّك غلطان. هذا ليس مستشفى، إنَّه يشبه المستشفى، كل شيء هنا ليس هو بل يشبه نفسه. نقول بيت، لكنَّنا لا نعيش في بيت بل في دكّان يشبهه، نقول بيروت، لكنَّنا لسنا في بيروت، بل في مكان يشبهها، وأقول دكتور، لكنَّني لست دكتورًا بل أشبهه، حتى المخيّم، نقول إنَّنا في مخيم شاتيلا، لكن بعد حرب المخيمات، وتدمير ٨٠٪

من بيوت شاتيلا، لم يعد هذا مخيّمًا، بل صار يشبه المخيَّم، إلى آخر هذه التشابيه المملة.

لا يعجبك كلامي؟

انظر حولك فتكتشف حقيقة ما أقول وتقتنع.

امشِ معي في الكلام.

هذا مستشفى، أنت في مستشفى الجليل، لكنّه كيف أقول، الأفضل أن لا أقول، تعال نبدأ من غرفتك.

غرفة صغيرة، أربعة أمتار بثلاثة، فيها سرير حديدي، إلى جانبه كومودينة فوقها علبة كلينكس وشفاطة البلغم، وهي آلة زجاجية مدوّرة موصولة بنبريش. إلى اليسار في مواجهة السرير، خزانة حديدية بيضاء. أنت تعتقد أنّ كل شيء أبيض في هذه الغرفة. لكن لا، لا شيء أبيض، الأشياء كانت بيضاء، واتّخذت الآن ألوانًا أخرى بياض مصفرّ، وحيطان مقشّرة وخزانة ملوّثة بلون الحديد، وسقف مليء بالبقع نتيجة انتفاخ الدهان وانفجاره بسبب الرطوبة والإهمال والقذائف.

بياض مرقّع بالأصفر والرماديّ، صفار مرقّع بالرمادي، رمادي مرقّع بالأبيض، أو إلى آخره...

أنت لا تهتمّ، لكنّي أتقزّز من هذا المنظر. سوف تقول إنّني عملت هنا سنوات طويلة ولم يظهر عليّ الانزعاج، فماذا عدا ممّا بدا؟ ماذا تغيّر؟

لم يتغيّر شيء يا سيدي سوى أنّني أصبحت كالمريض، والمريض لا يحتمل. كما ترى حين يشعر الطبيب كالمريض ينتهي الطب. والطب انتهى يا سيد يونس أو عز الدين أو أبو سالم، أو لا أعرف بأي اسم أدعوك. كنت في الماضي موافقًا على كل الأسماء التي يطلقها عليك الناس، كأنّك لا تبالي. وحين سألتك عن اسمك الحقيقي، رفعت يدك، «اترك هذه الحكاية»، قلت، «وادْعُنِي كما تشاء»، وحين أصررت عليك جاوبت أن اسمك آدم، «كلنا أبناء آدم، فلماذا نتسمى بأسماء أخرى»؟

عرفت الحقيقة منك دون أن تخبرني إيّاها. عرفتها عن طريق المصادفة، كنت تروي الحكاية في بيتك، عندما جئت لزيارتك، وكان أقرباؤك القادمون

من مخيم عين الحلوة. رأيتهم فقررت الانسحاب، لكنّك أمرتني بالجلوس، وقلت لهم إنّ الدكتور خليل من أهل البيت، وأكملت الحكاية.

قلتَ إن والدك أراد في البداية تسميتك أسد، فتصير أسد الأسدي، وتصبح مرهوباً من الجميع. أسماك أسد، لكنّه غيّر رايه بعد يومين خوفاً من ابن عمه أسد الأسدي الذي كان أحد وجهاء القرية، وأبدى امتعاضه من إطلاق اسمه على ابن أفقر فقراء العائلة، فأسماك يونس، قال يونس كي يحميك من الموت في بطن الحوت، لكنّ أمك لم تحب اسم يونس، فقالت عز الدين، ووافق أبوك، أو هكذا اعتقدت المرأة، فصارت تناديك عز الدين، بينما يناديك والدك يونس. ثم قرر الشيخ وضع حد للمسألة، وقال إن اسم عبد الواحد أفضل، وصار يدعوك عبد الواحد، واختلطت الأمور عليك وعلى الجميع. حتى أستاذ المدرسة الابتدائية احتار في أمره، وذهب إلى الشيخ الأعمى مستوضحاً، يومها نطق الشيخ نظريته حول الأسماء، وحول سيدنا آدم عليه السلام. قال: «كل الأسماء مستعارة، فالاسم الحقيقي الوحيد هو آدم. اللّه عزّ وجلّ أطلق هذا الاسم على الإنسان، لأنّ الاسم والمسمى كانا واحداً. سُمِّيَ آدم لأنّه أُخِذَ من أديم الأرض، والأرض واحدة كما الإنسان واحد. وحتى بعد هبوطه من الجنّة، لم يفكر سيدنا آدم عليه السلام، في مسألة الأسماء، أسمى ابنه الأول آدم، والثاني آدم، وهلمّ جراً. إلى أن وقعت الواقعة. فحين حصلت الجريمة الأولى، وقتل قايين أخاه هابيل، اضطرّ آدم إلى استخدام الأسماء المستعارة من أجل التمييز بين القاتل والقتيل، فأوحى له جبريل بالأسماء، التي صار يطلقها على كل آدم أنجبه، كي لا تختلط الأمور وتضيع الأسماء».

«أسماؤنا كلها مستعارة»، قال الشيخ للمعلم، «لا قيمة لها، لذلك تستطيع تسمية ابني ما تشاء، لكن اسمه واسمك وأسماء كل الناس واحدة. سمّه آدم إذا شئت، أو يونس أو عز الدين أو عبد الواحد أو ذئب، لماذا لا نسميه ذئباً، واللّه هذا اسم لم يخطر في بالي».

قلتَ لأقربائك إنك لم تكتشف حكمة والدك إلاّ في الثورة. فأنت هو المجاهد الوحيد، ثم الفدائي الوحيد الذي لم يضطرّ إلى اتخاذ اسم مستعار، كما فعل الجميع. استخدمت كل أسمائك، وكانت كلها حقيقيّة ومستعارة في آن واحد.

يومها اقتربتُ من سرّك يا سيدي، وفهمت أنّ الحقيقة ليست حقيقيّة، بل مجرّد اصطلاح. الاسم اصطلاح، والحقيقة اصطلاح، وكل شيء.

وعندما غادر الرجال بيتك، سألتك عن الحقيقة، فقلت إنّك أخبرت الحقيقة. كنت أعتقد وأنا أستمع إليك، انك الّفت الحكاية حين رويتها، ربما كي تزيد على غموضك غموضاً، لكنّك أكّدت لي انك أخبرتهم الحقيقة، وأنّك إلى الآن، لا تعرف اسمك النهائي. ثم أخبرتني أن الرِّجال هم أقرباؤك من عين الزيتون، ويعيشون في مخيم عين الحلوة، وأنّهم جاؤوا لدعوتك إلى ترؤس جمعية لآل الأسدي قرروا تشكيلها، وأن حكاية الأسماء كانت الطريقة الوحيدة كي تجعلهم يصرفون النظر عن الموضوع. «فالأسماء والعائلات والطوائف لا معنى لها. عودوا إلى آدم»، قلت لهم وهم ينصرفون. فانصرفوا بوجوه واجمة، كانوا يريدونك رئيساً لجمعيتهم، لأنّك البطل الوحيد في العائلة، وكنت تسكب لهم الشاي، وتحرك السكّر بالملعقة وانت تقول: «أعوذ بالله، أعوذ بالله، لا يوجد أبطال، كلنا من ادم، وادم من تراب».

تعال يا سيد آدم معي إلى غرفتك في المستشفى، لا يوجد في الغرفة سوى نافذة صغيرة واحدة مشبكة بالحديد، كأنّها نافذة زنزانة. أما باب الغرفة الأصفر، أو الذي كان أصفر، فيفتح على الممر الذي تفوح منه رائحة الأمونياك. ما هذه الرائحة؟ زينب تقول إنّه من أجل قتل الميكروبات، لكنّي متأكد أن الميكروبات تعشش في كل زاوية هنا. لذلك اشتريت أدوات تنظيف خاصة بنا، وأقوم بتنظيف غرفتك كل يوم، أشطفها بالماء والصابون، وأحرص على زرع رائحة الصابون في كل الزوايا. لكن مهما فعلنا، فرائحة الأمونياك تتسرب إلى الداخل وتكاد تخنقنا. فكرت بشطف الممر خلال الليل، لكنّي غيرت رأيي، فأنا عاجز عن تنظيف المستشفى وحدي، وهم هنا لا تفرق معهم، كأنّهم تعودوا الرائحة.

نخرج من غرفتك إلى الممر، فنرى غرفاً على الجانبين، وهي تشبه غرفتك تماماً، ولكنّك المريض الوحيد هنا، الذي ينام في غرفة مستقلّة. أما لماذا هذا الوضع الخاص؟ فتلك مسألة لم أرو لك حيثيّاتها. أنت تعتقد أنّك في هذه الغرفة، لأنّهم احترموا تاريخك، وأنا أقول ذلك أيضاً بيني وبين روحي كي أحتمل هذا الواقع. لكنّ الحقيقة مختلفة.

عندما جلبوك إلى هنا، ورفع الدكتور أمجد يديه إلى الأعلى قائلاً: «لا

حول ولا قوّة إلاّ باللّه»، عاملك الجميع بوصفك ميتًا. لذلك لم يخصّصوا لك غرفة. فهمت زينب أنّه يجب تركك في غرفة الطوارئ في انتظار الموت. تركوك دون علاج، مرميّاً وذهبوا، وحين جئت، ورأيتك على هذه الحال، والذباب يحوم حولك كأنّك ميت، هرولت إلى غرفة الأطباء، لبست برنسًا أبيض، وأمرت زينب أن تلحق بي، لكنّها لم تأتِ. زينب التي كانت طوال أيام الحرب ترتجف خوفًا من أوامري، نظرت إليّ باحتقار حين أمرتها بإعداد غرفة لك.

«لا يا خليل، الدكتور أمجد قال نتركه هنا».

«أنا الدكتور، وأنا أقول...».

ابنة الكلب، تركت جملتي معلقة في الهواء وأدارت ظهرها وذهبت. وبقيتُ معك وحدي.

كنتَ ملائمًا للموت، تنام أرضًا على اسفنجة صفراء، وترتجف. وكان الذباب. صرت أكش الذباب وأصرخ، تركتك وذهبت بحثًا عن زينب، وأمرتها باللحاق بي، وعدت إليك. حتى أمين، الشاب المسؤول عن قسم الطوارئ اختفى. ركبت في رأسي فكرة واحدة هي البحث عن أمين. أين أمين؟ وبدأت أصرخ بحثًا عن أمين، ثم جاءت يد من الخلف، وأغلقت فمي.

«هس، هس، روق يا خليل».

أغلق الدكتور أمجد فمي بيده، وجرني إلى عيادته في الطابق الأول، وشرح لي أن أمين اختفى، وبدأ يروي حكاية غريبة، عن مقتل كايد، مسؤول فتح في بيروت، والمرأة الكردية والسيارة. ودخل في تحليل مستفيض حول الاغتيالات التي جرت أخيرًا في بيروت.

أنت تذكر كايد.

كان هادئًا ودمثًا وشجاعًا، أنت لا تدري أنه مات. بلى تدري، كايد مات قبل جلطتك بأسبوعين، وكان خاتمة الموتى. هل صحيح أنّه تزوج امرأة كرديّة قبل موته؟ وإذا كان قد تزوّجها فلماذا أعطته موعدًا في تلة الخياط، قرب مبنى التلفزيون. هل يعطي أحد موعدًا لزوجته في الطريق؟ ثم أين اختفت سيارته اليابانية الجديدة؟

«يشترون سيارات فخمة، بدل صرف المال من أجل تجهيز

المستشفيات»، قال الدكتور أمجد «الكرديّة سرقت السيارة وكانت جاسوسة، استدرجته إلى الموعد كي يغتالوه. ثم أمين، يبدو أنّ أمين كان على علاقة بالمسألة».

أمجد يحكي وأنا ارتجف.

أمجد يروي، وأنت مرمي تحت.

أمجد يحلّل مقتل كايد، وأنا أحاول الكلام، فتأتي يده وتغلق فمي.

دائماً حين لا نعرف نقول «فتّش عن المرأة»، ونحلّ المشكلة. أنا متأكّد أن المرأة الكرديّة لا وجود لها، وأنّها اختراع ذلك الشاب العراقي الذي يسمي نفسه كاظم.

هل تعرف كاظم؟ كاظم كان المرافق الشخصي لكايد، جاء لزيارتك هنا مرتين، مدعيًا أنّه يريد الاطمئنان على صحتك. لكنّه لا يعرفك. جاء كي يبرئ ذمته، فأنا متأكّد من تورطه في عملية الاغتيال. ثم لماذا جاء لزيارتي؟ أنا لا علاقة لي بالموضوع، كل ما في الأمر أن كايد كان صديقي، لكني لم أكن صديقه الوحيد، إذن لماذا اختارني أنا بالذات كي يروي لي عن الفتاة الكرديّة. هل أراد توريطي؟ أو ربما كان جزءًا من المؤامرة على حياتي. هل يعرف أهل شمس؟ هل جاء يستطلع المكان؟ لا أريد لخيالي أن يشطح إلى ما لا نهاية له، فأنا لا علاقة لي، وكاظم هاجر إلى أسوج، قال إنّه ينتظر اللجوء إلى أسوج، لكنّي لم أتعاطف معه، وأفهمته ذلك، فانقطع عن زيارتي وزيارتك وارتحنا منه.

أنا أعرف، لكن لم أقل ذلك لأحد. فالفتاة التي أحبّها كايد لم تكن كرديّة، بل كانت أردنيّة من الكرك، وطالبة في الجامعة الأميركية في بيروت، وتدرس في كلية الهندسة. وكان كايد يحبُّها. التقيتها معه عدة مرات. كانت طويلة وبيضاء وذات عينين ساحرتين. لم تكن عيناها كبيرتين كالعيون التي نصفها عادة بالجمال، لكنّهما كانتا ساحرتين. وكان اسمها عفيفة.

ابتسمت حين عرفتني بنفسها، «اسم قديم ولم يعد دارجًا»، قالت إنّ أباها الذي يعيش في بيروت منذ عشرين سنة، أسماها عفيفة على اسم أمه التي تعيش وحيدة في مأدبا وأنّها اكتشفت أن خالها شقيق امها، كان

كاهنًا اسمه نصري، عاش في دير صيدنايا قرب دمشق، ورسم الكثير من الإيقونات الجميلة. ودمعت عيناها، لا لم تدمع عيناها، بل كان فيهما شيء من ذلك الماء المائل إلى الأزرق. وكان كايد يحبُّها ويقول إنَّها تتسلَّط عليه. «كل أهالي الكرك يتسلّطون».

لم يكن هناك امرأة كردية ولا شيء. كايد كان يحبّ فتاة كركيّة، وكان الأمر واضحًا لجميع أصدقائه، لكنَّ هذا ليس سببًا كافيًا لموته. صحيح أنَّه منذ وقوعه في غرام عفيفة تخلّى عن كثير من الاحتياطات الأمنية الذي يجب أن يتّخذها مسؤول فتح في بيروت، وسط قرار تصفية الوجود السياسي الفلسطيني بشكل كامل في المدينة، لكنَّ موته لا علاقة له بحبّه. مات في سياق آخر، ولا أعتقد أن للاسرائيليِّين علاقة بالأمر.

ولكن أين السيارة؟

شخشبني الدكتور أمجد. من أين أتى بهذه المعلومات؟ هل صحيح أن الكرديّة المزعومة سرقت السيارة، أعطته موعدًا أمام مبنى التلفزيون، وعندما وصل طلبت منه النزول من السيارة كي تقول له شيئًا، وحين نزل قتلوه. أطلق عليه رجل خمس رصاصات من مسدس كاتم للصوت. واختفت الكردية ومعها اختفت السيارة.

هل كانت العملية مجرَّد سرقة سيارة؟

ولكن لماذا نزل؟

ألم يكن يعلم أن حياته مهدَّدة؟

كان من المفترض، في حال صدقنا رواية الدكتور أمجد، أن يمر كايد أمام مبنى التلفزيون، فتصعد الكرديّة إلى جانبه.

كيف يعني؟ يوقف سيارته وينزل منها ويموت؟ أين كان حارسه العراقي كاظم، وما علاقة أمين بالموضوع؟

كاظم قال إنَّه لم يذهب إلى الموعد، «أنت تعرف، هذا النوع من المواعيد يحتاج إلى حميمية». وغمزني.

حميميّة! أية حميميَّة في الشارع، وفي الحادية عشرة قبل الظهر! كلهم يكذبون وكاظم اختفى. جاء لوداعي لأنَّه مسافر، وللاطمئنان على صحة العم يونس!

لم أسمع صفة «العم» هذه على لسان أحد. فأنت الأخ أبو سالم أو يونس أو عز الدين، أنت لا تصبح عمًا إلا لمن لا يعرفك. فالطريقة الأسهل للتقرُّب من رجل لا نعرفه هو أن نسميه عمّاً. العم أو الحاج صفات نطلقها على رجال تجاوزوا الخمسين حين لا نعرف ماذا يجب أن نسميهم. إنه الكسل، لغتنا يا سيدي كسلانة كثيراً، لا نبحث عن أسماء الأشياء، نسمّيها كيفما اتفق، وعلى المستمع أن يفهم. يجب أن يكون الآخر عارفًا بما تريد قوله كي يفهم عليك، وإلا دخلنا في سوء التفاهم.

هذه هي الكلمة التي كنت أبحث عنها. ما حصل بيني وبين الدكتور أمجد هو سوء تفاهم.

هو يحكي عن اختفاء أمين بعد مقتل كايد، ويقدم تحليلاً مستفيضًا كي يثبت أن أمين كان على علاقة بامرأة كرديَّة، وأنا لا أبالي.

«كانت تأتي إلى هنا لزيارته، وأعتقد... أعتقد أنَّها جاءت في المرة الأخيرة بالسيارة اليابانيَّة، إذن أمين قتله وليس كاظم، قتله من أجل المرأة والسيارة. إنَّها سيارة غالية كما تعلم. «مازدا» جديدة وفول أوتوماتيك، أنا أجزم أنَّها السيارة، ولكنّي لا أدري».

الدكتور أمجد لا يدري ويريدني أن أدري. لم أقل شيئًا، ولم أدحض افتراضاته، ولم أخبره عن الفتاة الكركية التي تدرس في الجامعة الأميركية، يا ليتني أستطيع الاتصال بها، فهي واللّٰه جميلة بشكل خارق، ليست جميلة ولكنَّها مهيوبة. لاحظ معي دقة هذه الكلمة، مهيوبة، أي أكثر من حلوة، أي لها حضور وهيبة وسلطان.

اللّٰه يرحمك يا كايد، لكنّي وخلال لقاءاتي بها معه، لم ألحظ أنَّها متسلطة، كان فيها شيء من تلك الرّقة التي لا توصف. كان عنقها طويلاً وناعمًا، وتضع حوله قلادة فضيّة عليها «آية الكرسي»، هكذا اعتقدت، لكن كايد أوضح لي أنَّها صورة العذراء مريم، وأن الكركيّة تحب العذراء، تقول له أن يطمئن، فلا داعي للخوف لأنَّها نذرته لأم النور، لم أسأل من أم النور هذه، فلقد خمّنت أنَّه أحد أسماء السيدة العذراء التي لا تحصى.

قلت إنَّني أتمنى اللقاء بها، ولكن ليس من أجل توضيح المسألة، فالمسألة لا يمكن توضيحها الآن، بل كي أنظر إلى جمالها. اللّٰه يخزيك يا

شيطان، بدلاً من أن أحزن على صديقي كايد، وأرثي لحاله على تلك الميتة الشنيعة، أشتهي صديقته. تركوه على رصيف تلة الخياط أكثر من خمس ساعات، قبل نقله إلى المستشفى، رجل وبقعة دم، والناس تنظر ولا تريد أن ترى. خمس ساعات تحت شمس بيروت، وكايد يحترق بجراحه. يا اللّه، ولكني لا أعرف لماذا أشتهي صديقته، لا! شهوتي ليست جنسيّة، أشتهي أن أراها. فالإنسان خائن منذ البداية، منذ أن عرف اسمه. أن تعرف اسمك يعني أن تخون. أليست هذه نظرية والدك الأعمى في الأسماء.

أين كنا... يبدو أنّني صرت مثل الدكتور أمجد، كل الدكاترة هكذا، أتركك مرميًا وأتلهى بحكاية كايد.

واللّه يومها كنت قادرًا على القتل. لكن الخدر شلّني. كنت نصف مشلول ونصف أخرس. أسأل عن أمين واليد تغلق فمي، ثم غرق الدكتور في تحليل حادثة اغتيال كايد، وتقليب الاحتمالات، وتأكيد ضلوع المخابرات الاسرائيلية في الموضوع. لكنّه لم يتوقف عند هذا الحد، لو توقف لما خرج ذلك الصوت من أعماقي دون أن أعي. زينب أخبرتني أنني كنت أجعر، وأن الدكتور أمجد هرب من المستشفى لأنّه خاف مني. صرخت عندما بدأ ذلك الكلام الكريه عن النساء. أنت تعرف كيف نحن الرجال، كان أمجد يتحدث عن كايد والمرأة الكردية، حين انتقل فجأة إلى الحديث عن خبراته الجنسية مع النساء الكرديّات. هل تصدق هذا الكلام البذيء، قال أن امرأة كرديّة، كانت تتلفن له كل يوم، وتتنهّد على التلفون وتتحدّث عن ألوان سراويلها الداخلية.

هنا انفجرت.

لم أنفجر من أجلك، بل من أجل تلك المرأة التي أخترعها.

قال إنّها كانت تتنهّد على التلفون، ولم يقل ماذا كان يفعل هو، وكيف كان يتنهّد ويمارس العادة السرية، ويقفز كالسعدان من جملة إلى جملة.

ثم كيف يجرؤ على القول إن الكرديّات هكذا. لنفترض أن كرديّته فعلت ذلك، فهل يعقل أن تكون جميع الكرديّات مثلها. أنا أكره هذه الذكوريّة الحمقاء، وأعتقد أنّها تغطي عجزًا مستحكمًا عند الكثير من الرجال.

انفجرت وصرخت وصرت أخور كثور جريح. هرب الدكتور أمجد، وجاءت زينت راكضة. زينت حمقاء، لم أكن بحاجة إلى هذا البرهان الجديد، كي أعرف أنّها حمقاء. ليست ممرضة ولا شيء، لا تعرف أكثر من قياس الضغط وضرب الإبر، ومع ذلك فهي ممرضة. الحمقاء بدل أن تفهم أنّني أصرخ من أجلك أنتَ، اعتقدت أنّني في حاجة إلى عناية، ركضت وجلبت، لي كوب ماء، وبدأت تهدئني. رميت الكوب إرضًا وأمسكتها من يدها، وركضت معها نحوك، صرخت طالبًا غطاء، جلبت حرامًا صوفيًا غطيتك به.

«ماذا نفعل به»، سألت، ونظرت إليّ كالبلهاء.

«يلله يلله، نحمله إلى الغرفة».

هنا نطقت زينب لتقول إن الدكتور أمر بتركك هنا، لأنّه لا أمل.

أمرتها أن تخرس وتساعدني.

حاولنا حملك، لكن ذلك كان مستحيلاً، فالفرشة الاسفنجية الصفراء التي ألقوك عليها، كانت رخوة، أمرتها أن تجلب حمّالة، فبدأت تركض.

كانت زينب، منذ اللحظة التي صرخت فيها، قد تغيّرت بشكل كامل. وصارت تركض كالعمياء كلما سمعت أمري. أنا آمر وهي تركض، ولكنّها لا تنفّذ شيئًا من أوامري. تركض كأنّها تبحث عن الأوامر، تركض كالخوتاء. كنت أسمع جلبتها في كل مكان، على الدرج، في الغرفة، في الممرات، أسمع ولا أرى شيئًا. لم تجلب سوى ذلك الحرام الصوفي ذي الرائحة النتنة. فحملتك، لم أستطع الانتظار أكثر، حملتك مرتكبًا خطأً طبيًا لا يُغتفر. طويتك إلى نصفين وحملتك على كتفي، رأسك من ناحية، وقدماك من ناحية ثانية، وبطنك على كتفي، وكنت ثقيل الوزن مرتجفًا. يا لطيف كيف يثقل الإنسان حين يموت أو يقترب من الموت، كأنّ الروح وسيلة لمقاومة جاذبية الأرض، وروحك كان قد خرج نصفها من جسدك، كما شرحت لي أم حسن. خرجت بك من غرفة الطوارئ، وصعدنا إلى الطابق الأول، رأيت زينب تقف أمامي وتشير إلى عدم وجود غرف خالية هنا. صعدت بك إلى الطابق الثاني والأخير، وأدخلتك هذه الغرفة رقم ٢٠٨ حيث تقيم الآن. وضعتك على السرير وأمرت زينب بإخراج السريرالثاني من الغرفة.

وأنت الآن في غرفة «بريمو»، وغرفتك نظيفة وجميلة ومرتبة. انْسَ مسألة الألوان، فمن المستحيل المحافظة على الألوان الأصلية للحيطان والأبواب في مكان تأكله الرطوبة. والرطوبة لا حلّ لها في بيروت، حيث تصل نسبتها إلى ما بين ٨٥ و ٩٠٪ في أغلب الأحيان. لكنَّ المسألة ليست الرطوبة الخارجية كما تعلم، بل مواسير الماء وقساطل المجارير. فلقد تعرض المستشفى للقصف عشرات المرات، وفي كل مرة كانوا يرممونه من الخارج، أي يسدون فجوات الحيطان، ويقفلون الماء المتدفق من المواسير عبر وصلها، لكن يبدو أن الأمر صار في حاجة إلى نفضة جذرية، وهذا غير ممكن الآن. المواسير ترشح، والماء يبقع الحيطان، والرائحة التي هي مزيج من أمونياك الممرضة زينب والمياه الآسنة، تنتشر في كل مكان.

لا بأس.

أقول لا بأس لأنَّني أعرف. فأنت في مأمن نسبي من كل هذه الروائح، لأنَّ الصابون والمبيدات والكولونيا والبودرة، تملأ غرفتك برائحة الجنّة.

طبعًا، كل شيء نسبيّ، إنَّها رائحة نسبيّة، في جنة نسبيّة، في مستشفى نسبي، في مخيم نسبي، في مدينة نسبية، وكفى.

كل شيء نسبي، حتى لوحة الخط العربي التي وضعتها على الحائط فوق رأسك، نسبيّة، لأنَّها ليست لوحة بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنَّها جميلة. جلبتها لك من بيتي لأنَّ شمس رفضت أن تأخذها. لوحة جميلة كتب عليها اسم الجلالة بالخط الكوفي. أنا أحب هذا الخط، أرى زواياه كأنَّها تعيد رسم حدود العالم، وأراه يتدوّر ويدوّر كل شيء. صحيح أنَّه ليس مدوّرًا، لكن كل شيء مدوّر في النهاية، اللّه بالحرف الكوفي فوق رأسك لأنَّ شمس لم تفهم القيمة الفنية لهذه اللوحة، عندما قدمتها لها في بيتي. نظرت إلى اللوحة بما يشبه الاشمئزاز وقالت «تريد أن تحجّبني»! وضحكت بالخيانة.

كانت شمس تضحك بالخيانة حين تضحك. وكنت أشمّ رائحة رجل آخر في أنفاسها وأغض النظر، كما يقولون، أشعر أنَّني معها ولست معها، أراهم كلهم يحومون حولي وحولها، أحاول ازاحتهم كي أراها، ثم أنساهم وأنسَ الخيانة حين أتغلغل في جسدها المتماوج.

ضحكت شمس بالخيانة.

كنا في بيتي، قلت لها إنّني اشتريت لها هدية، ذهبت إلى غرفة النوم وجلبت اللوحة التي كانت ملفوفة بورق أبيض. مزقت الورق وهي تنظر إليّ بفضول، ثم أشرقت اللوحة بالحرف الكوفي.

«جميلة، لوحة جميلة»، قلت. «ألا تحبّين الخط العربي»؟

اقتربت من اللوحة، قرأت بتمعن، ثم تراجعت إلى الوراء.

«تريد أن تحجّبني»؟!

اعتقدت شمس أنّني أدعوها إلى الإيمان بالله، وألقت عليّ محاضرة عن نظرتها الخاصة لله والوجود. سأعفيك الآن من نظرياتها حول وحدة الوجود، وكيف أنّ الله موجود في كل شيء، وإلى آخره...

لم تأخذ اللوحة، لأنّها افترضت أنّني أريد تحجيبها تمهيدًا للزواج، وتحدثت عن إيمانها بتحرر المرأة.

أنا لم أكن في هذا الوارد، اشتريت اللوحة لأنّني أحبّ الخط العربي فقط لا غير، وأردت أن أقدم لها هدية جميلة.

هذه اللوحة يا سيد أبو سالم، ثمنها أكثر من خمسين دولارًا، وهي أجمل قطعة في بيتي. شمس لم تأخذها، وأنا لم أعلّقها، لأنّها ليست لي. قلت في نفسي إنّني سأعلقها في الصالون، حين تأتي شمس وتسكن معي. لكنّها ماتت، فقرّرت أنّني أستحق الهدية ويجب أن أضعها على الحائط فوق سريري، ثم اختلطت الأمور، وقيل عن وجود لائحة قتل، وان أقرباء شمس سينتقمون، وان اسمي على رأس اللائحة، فنسيت اللوحة ونسيت كل شيء.

ولكن، بعد أن وضعتك في السرير، ونظفت كل شيء، ذهبت إلى بيتي لأجلب أغراضي الشخصيّة، فتذكرت اللوحة، وقلت إن مكانها هنا. الله بالحرف الكوفي يظلّلك ويحميك.

لم أجلب خارطة فلسطين، ولا ملصقات الشهداء ولا شيء، إذ لم يعد لهذه الأشياء أي معنى الآن. هل تذكر كيف كنا نرتجف أمام ملصقات الشهداء، ونشعر أن الشهيد سوف يمزّق الورقة الملوّنة ويقفز منها إلينا. كان الملصق جزءًا أساسيًا من حياتنا، نملأ به حيطان المخيّم والمدينة، ونحلم أن تعلّق صورنا عليه. كلّنا حلمنا برؤية صورتنا محوطة باللون

الأحمر الفاقع، وبهالة الشهداء. وكان في الأمر مفارقة لم نعرها انتباهًا. نريد أن نعلق صورنا في الملصق ونريد أن نراها. أي نريد أن نستشهد دون أن نموت!

قل لي، كيف استطعنا الفصل بين صورة الميت وموته؟ كيف ذهبنا إلى هذا الإيمان المطلق بالحياة؟

أعرف شيئًا واحدًا، هو أنّني كرهت ملصقات الشهداء بعد المذبحة. لن أخبرك ماذا جرى، وعن أسراب الذباب التي كادت تلتهمني، فالوقت ليس مناسبًا الآن لهذه الذكريات. الذكريات تحتاج وقتًا مناسبًا. لا نستطيع أن نرمي بذكرياتنا هكذا، لا يحق لنا أن نتذكر كيفما اتفق.

جلبت لك اللوحة، وقلت إن اسم اللّه بالحرف الكوفي يبقى مهما تغيّرت الظروف والأحوال. الصور والملصقات كانت مؤقتة، لكن اسم الجلالة لن يتزحزح من مكانه، وسيبقى عالقًا في عيوننا إلى الأبد.

أنت لا تحبّ كلمة أبد. كنت تقول، «ما أصغر عقل اليهود، ما هذا الشعار السخيف الذي يرفعونه، القدس عاصمة أبدية لدولة إسرائيل. كل واحد يتكلّم عن الأبد يخرج من التاريخ، فالأبد ضد التاريخ، لا وجود لشيء أبدي، حتى الآلهة أكلناها. نحن العرب، صنعنا في جاهليتنا آلهة من تمر وأكلناها، لأنّ الجوع أهمّ من الأبد، والآن يأتون ويقولون إن القدس عاصمة أبديّة، شو هالحكي الخرا، كلام تافه. وهذا يعني أنّهم بدأوا يصيرون مثلنا، أي قابلين للهزائم».

قلت إنّنا لن نهزمهم، بل علينا مساعدتهم على هزيمة أنفسهم، لا أحد ينهزم من الخارج، كل هزيمة داخلية، وهم منذ أن بدأوا برفع شعارات الأبد، وقعوا في دوامة الهزيمة، وعلينا مساعدتهم.

لم تقل لي كيف نساعدهم. فنحن حتى الآن لم نساعد إلا أنفسنا على الهزيمة، وفرشنا للاسرائيليين أرضنا بدمنا، كي يمشوا عليها منتصرين.

تغيّرت الأشياء يا سيدي.

لو مرضت منذ عشر سنوات، لا سمح اللّه، لما جلبت لك هذه اللوحة. بل كنت سأعلّق فوق رأسك خريطة الجليل، كي أفتخر بك. أنت فخرنا جميعًا، أحييت فينا بلادنا التي لم نزرها، ورسمت حلمنا في خطواتك.

الآن لا أعلّق الحلم، بل الحقيقة.

فاللّه بالحرف الكوفي هو الحقيقة المطلقة الوحيدة التي يمكن الركون إليها.

لا، لن أسمح لك بالكلام.

أنت الآن في مكان غامض، وتقترب من لحظة لا ينفع فيها سوى الإيمان. أرجوك لا تجدّف، فأنت مؤمن، ووالدك كان شيخًا متصوّفًا.

سوف تقول، ولن أسمح لك، سوف تقول إن من عاش حياتك لا يستطيع الاستكانة إلى شيء، حتى الآلهة تغيّرت، أجدادنا كانوا يعبدون آلهة أخرى.

أرجوك اسكت، اللّه يخلّيك، لا أريد الاستماع إلى نظريتك عن المؤقت. آن للمؤقت أن يصبح دائمًا، آن لك أن ترتاح، فَلقتَني بنظرياتك كأنّك لا تبالي، ولكنّك تكذب، فأنت أيضًا تعبت من المؤقت ولم يعد في استطاعتك احتماله. هل تريد برهانًا، هل تريد أن أذكّرك بعدنان أبو عودة؟

أعلم أنّك لا تحب هذه السيرة لأنّك تخاف. هل نسيت يوم عدت من زيارته مترنحًا بالرعب، وجئتني تطلب حبوبًا منومة؟

جئتني، وكنت منحنيًا على روحك كأنّك تبحث عن الموت. لماذا لا تواجه الحقيقة؟ لماذا لا تقول إنّك خفت على نفسك، وليس على عدنان، ولماذا عدت، بعد أن شفيتك بحبوبي المنومة، إلى السخرية من كل شيء؟

ما هكذا يكون الأبطال.

البطل يجب أن يبقى بطلاً، واللّه حرام، تركتم عدنان، ونسيتموه، ولم تعودوا تتذكرون سوى حكايته، أما الرجل فذهب إلى مصيره دون أن يرفّ لكم جفن.

أنت تتمرجل الآن لأنّك تنسى. هل نسيت عدنان؟

عاد عدنان أبو عودة إلى مخيم برج البراجنة بعد أن أمضى عشرين سنة في السجون الاسرائيليّة. عاد كالأبطال، وذهبت لاستقباله، فهو رفيقك وصديقك وعشير عمرك. كنت تذكره دائمًا باسم البطل، مع ال التعريف.

ماذا جرى للبطل؟

كان ذلك عام ١٩٦٠، كنتم خمسة مقاتلين تقومون بإحدى عمليّاتكم الأولى داخل الجليل، سقط عدنان في الأسر، مات ثلاثة، وأنت نجوت. ماذا كانت أسماء الشهداء الثلاثة، حتى أنت نسيت أسماءهم، أخبرتني عن العملية الفدائية وترددت وقلت، خالد الشطّي، لا: خلدون، لا: جمال... حتى أنت لم تعد تذكر. أنت نجوت وهم ماتوا. الموت ليس سببًا كافيًا للنسيان، لكنّك نسيت!

نجوت، قلت لي، لأنّك انسحبت إلى الأمام بعد سقوطكم في الكمين الإسرائيلي، بينما انسحب رفاقك إلى الخلف، كما ينسحب الجنود عادة. سقطوا بين نارين وماتوا، بينما تابعت أنت رحلتك إلى باب الشمس. عدنان لم يمت، رغم أنّه أصيب بجروح بليغة في بطنه. أسره الإسرائيليون وعالجوه في المستشفى قبل تقديمه للمحاكمة.

لا تقل لي إنّك نسيت الحكاية؟

كنت ترويها بلا كلل أو ملل، كأنّها حكايتك، ثم فجأة، انقطعت عن زيارته بعد عودته، ولم تعد تحكي عنه.

وقف عدنان في المحكمة وقال ما يجب قوله.

قال إنّه لا يعترف بالمحكمة، فهو فدائيّ وليس مخرّبًا.

«هذه أرضي وأرض آبائي وأجدادي»، قال، ورفض أن يجاوب عن أي سؤال. سألوه عنك، فلم يتكلّم.

في التحقيق تكلّم عن الثلاثة، لأنّه رآهم يموتون أمامه، أما عنك فلم يقل كلمة واحدة. لم يصدّق موتك الذي أبلغه إيّاه المحقق الإسرائيلي. أراه المحقّق الخبر كما نشرته الصحف اللبنانية، إذ أصدرت قيادة فتح بلاغًا يَنْعى أربعة شهداء، لكنّه لم يصدّق لأنّه رآك تمضي إلى الأمام وتختفي. غير أنّ هذا البلاغ كان خطأ فادحًا كلّفك الكثير، لأنّه كشفك من جهة، وأدّى إلى اعتقال نهيلة من جهة ثانية.

فهمت أن نهيلة اعتقلت، حين توقّفت المرأة عن زيارتك في مغارتك. وبقيت في مخبإك أكثر من شهر، لا تخرج إلاّ ليلاً كي تقطف أعشابًا بريّة تأكلها، وتعبئ مطرتك من مياه الساقية غير الصالحة للشرب.

عشت خمسة أسابيع في باب الشمس التي تحولّت سجنًا، وكدت

تصاب بالجنون. تجلس طوال النهار بلا حركة، ولا تجرؤ على النوم أو الخروج. وصرت كالنبتة. هل نسيت كيف يصير الإنسان نباتًا؟ كيف يمّحي التفكير وتزول الكلمات، ويصبح الرأس طنجرة فارغة تنقل الطنين والأصوات، لكنّها لا تفقه معانيها؟

عندما أبلغني الدكتور أمجد أنّك دخلت المرحلة النباتية، ولا أمل، لم أفهم يأسه، فلقد مررتَ في المرحلة النباتية وخرجت منها.

استفاقت نهيلة على طَرَقاتهم العنيفة، وحين لم يجدوك أخذوها إلى تحقيق طويل دام أسبوعًا. وبعد خروجها من السجن، وجدت أنّ القرية مطوّقة، ففهمت أنّهم أخرجوها كي تكون طعمًا لاصطيادك، فمثلت مسرحيتها الشهيرة ودفنتك. أقامت صلاة الغائب عن روحك، وتلقّت التعازي. بكت وولولت وتشحّرت. يومها، جُنَّت أمك من تصرفاتها الرعناء، لم تستوعب العجوز لماذا تفعل نهيلة هكذا، اعتقدت أنّه يجب القيام بالتمثيليّة من أجل إنقاذك، لكنّ نهيلة حوّلت التمثيلية جدًا. بكت كما لم تبكِ امرأة، ندبت وولولت وأغمي عليها. حلشت شعرها ومزقت ثيابها أمام الناس.

«ما هكذا نبكي الشهداء»، قال لها الجميع، «عيب يا أم سالم عيب، يونس شهيد».

لكنّها لم تراعِ حرمة الشهداء، بكت عليك حتى آخر البكاء، وكان حزنها عظيمًا حتىَ الموت. وجاء الموت، أمك تعتقد أن نهيلة تسببت في موت والدك. فلقد دخل الرجل بعد موت ابنه الوحيد، أي موتك، في سبات طويل دام ثلاث سنوات، ثم نام في فراشه لأكثر من شهر، ثم حين قام من السرير رجع يتحمّم بالتراب، ويمضغ كلمات الأدعية والصلوات، ثم مات.

«قتلته نهيلة»، قالت أمك أمام الناس.

حاولت أمّك أن تشرح له أن ما تقوم به نهيلة هو مجرّد تمثيلية، لكنّه لم يفهم. تحكيه فلا يردّ. تنظر إلى وجهه فلا ترى سوى عينيه المغمضتين، تقول له إنّك حيّ، فيهزّ رأسه ويئنّ.

في الماضي، كانت زوجته تفهم عليه من حركة حاجبيه، أما الآن، أي بعد موتك، فلم يعد الحاجبان يتحركّان، وصارت المرأة كأنّها تكلّم نفسها، وهو أمامها كالهباء.

لماذا فعلت نهيلة ذلك؟

هل خافت عليك؟ أم كرهتك؟ أم ماذا؟

هل ذهبت إلى أعماقها حيث الدموع، كما كان الشيخ المتصوِّف يقول لحلقة مريديه، «لا يوجد في أعماقنا غير الماء، نعود إلى الماء ونبكي، نولد من الماء، ونذهب إلى الماء، وحين يجف ماؤنا نموت». وكان يردد كلامًا منسوبًا لأحد أئمة الصوفيّة، «البحر سرير الأرض، والدموع سرير الإنسان». وكان الفقراء حوله، بعد أن ينتهوا من اذكارهم ودورانهم حول رؤوسهم، يسقطون أرضًا ويبكون. هذا ما صارت إليه طقوس زاوية شعب بعد النكبة. وكان الشيخ إبراهيم بن سليمان الأسدي، يذهب مساء كل خميس من دير الأسد إلى شعب ليقود «الحضرة»، ويعود محمولاً على عينيه. عيناه المغمضتان حمراوان كنقطتين من النار.

لكن نهيلة؟

لماذا فعلت نهيلة ذلك، رغم علمها أنَّك ما تزال حيّاً؟

أنا أعرف، وسأقول، فنهيلة بكت على روحها وقهرها.

«بكت من الحب»، سوف تقول، لو كان باستطاعتك الكلام.

لا يا سيدي، نهيلة ذهبت إلى بركة دموعها كي تجد نفسها. عاشت المرأة وحيدة بين العميان واللاجئين والموتى. ثم تأتي أنت إلى مغارة باب الشمس، تضع العنب تحت رجليها، وتغادر، تاركًا زوجتك وحيدة وحزينة ومهجورة وحبلى.

ماذا تريدها أن تفعل؟

أن تشتاق إليك؟

أن تنتظرك؟

أنت تريد أن تعتقد أنَّها لم تفعل شيئًا سوى انتظارك. امرأة تملأ أيّامها بإنجاب الأطفال، وانتظار زوجها الذي لا يأتي، حين يأتي، إلا خطفًا وسراً، ومرة كل شهر أو كل ثلاثة أشهر، أو متى استطاع.

نهيلة تعبت من حياتها بين كهل أعمى، وزوجته الموسوسة بالنظافة، وأطفال يدبّون على الأرض ولا يشبعون.

وفوق ذلك، تريدها أن تفرح بك، وتفرش جسدها على أرض شمسك المختبئة داخل مغارة؟!

خرجت نهيلة من السجن حافية، وحين وصلت إلى حديقة بيتها، سقطت أرضًا وبدأت تولول وتبكي. اعتقد الناس أن الشيخ الأعمى مات، فتراكضوا ليجدوها تبكيك. كل أهالي دير الأسد عرفوا بموتك، لأنَّ دار الإذاعة الإسرائيليّة، بثت البلاغ العسكريّ الذي نعاك، أكثر من مرة. لكنَّ أهل القرية لم يجرؤوا على التفكير بإمكانية إقامة مأتم كبير لك. حزنوا عليك في صمت، وقالوا بينهم وبين أنفسهم، إن نهيلة ارتاحت من العذاب والخلفة والقهر والسجن والتحقيق.

ركض الناس، فوجدوا نهيلة جاثية أمام باب دارها، تندب وتمرغ رأسها في التراب. وحين اجتمع الناس حولها، نهضت وقالت «المأتم غدا، غدًا نصلّي على روحه في الجامع»، ودخلت البيت.

وأقامت نهيلة عزاء لا مثيل له، فرضت ببكائها البكاء على الجميع. «كأنّه الحسين»، قال الناس. «كأنّنا في مجالس عاشوراء». مدّ الطعام، ودارت القهوة، وجاء الشيوخ المعمّمون، وأقيمت حلقات الذكر. ونهيلة تدخل مجالس الرجال سافرة وتروي خبر موتك، «قتلوه وتركوه عطشان، أصابوه بثلاث رصاصات في صدره، سقط أرضًا، هجموا عليه، قال أريد ماء، فدعس الضابط على وجهه»، وتبكي، ودموع الرجال تتساقط والشيخ الأعمى يجلس في صدر الدار، وخطوط حمراء تشبه الدموع، تحفر خديه المتغضّنين بالعمر.

تحوّلت القرية مندبة، وأمك تقول كفى.

ونهيلة لا تسكت. ثلاثة أيام من الدموع والندب. حتى الضابط الإسرائيلي الذي جاء لمراقبة العزاء، وقف كالمعتوه. هل صدّق بكاء نهيلة وكذّب نفسه والحقائق التي يعرفها؟ هل يستطيع البكاء تكذيب العيون؟

أنت تعتقد أنّها فعلت كل ذلك من أجل حمايتك منهم، كأن اليهود لم يكونوا يعرفون أنّك هربت، وأنّك مختبئ على الأرجح في مكان ما من الجليل.

لا، المسألة مختلفة. إنّها مسألة بكاء.

بكت المرأة لأنَّها كانت في حاجة إلى البكاء. كانت نهيلة في حاجة إلى موت كاذب كي تبكي. فالموت الحقيقي لا يبكينا بل يسحقنا. هل نسيت كيف دمّرها موت إبراهيم ابنها؟ هل نسيت كيف عجزت عن البكاء وغرقت في الأنين؟

كنت يا سيدي مبرّر ذلك البكاء الذي أخرج من أعماقها كل الماء المنحبس منذ ألف سنة.

لا، لم تبكِ عليك.

وكنت، أثناء المأتم الكاذب وبعده، محاصرًا في مغارتك السحيقة. أنت والليل. ليل طويل وكثيف ودبق. ليل بلا لون ولا عيون.

وحين جاءت نهيلة أخيرًا إلى مغارة باب الشمس خافت منك، لأنَّها وجدتك كالجثة. دخلت تحمل طعامًا وماءً وثيابًا نظيفة، فرأتك نائمًا على بطنك، وشمّت الرائحة. كانت رائحتك العفنة، التي تشبه رائحة الحيوانات الميتة تملأ المغارة. اقتربت منك، وحاولت إيقاظك. انحنت فوقك وسمعت تنفسك المتحشرج. أيقظتك من جديد، أمسكتك من كتفيك وحاولت رفعك إلى الأعلى، فتساقطت إلى الوراء. أخذت رأسك بين كتفيها، وكلّمتك، وكان رأسك يتساقط إلى الأمام، وهي تشدّه إلى الخلف. وعندما فتحت عينيك لم ترها. قالت إنَّها جلبت لك الطعام، فكان جوابك أنينًا متقطعًا، ثم برمت قليلاً، وبدأت محاولات الجلوس. ارتفعت على يديك وركبتيك مدبدبًا، ثم جلست ونظرت حولك كالخائف.

«أنا»، قالت، «أنا نهيلة».

وصرت تتلفّت مذعورًا، وهي تدور حولك، محاولة إقناعك بضرورة أن تتحمّم وتغيّر ثيابك.

أخبرتك نهيلة، أنَّك بقيت أكثر من ساعتين على هذا الحال، قبل أن تستعيد وعيك لنفسك. وأنَّها بعد أن نجحت في نزع ثيابك، حممتك بالماء البارد، وكنت في شبه غيبوبة، وكان هذا هو الحمام العُذري الوحيد في مغارة باب الشمس.

غطّتك بالصابون، وامتلأ فستانها الأسود الطويل بمائك، وبدأ جسدها يتبقّع على الفستان، ويعطيه أشكاله المدوّرة. وبدل أن تقفز من الماء كالسمكة، استسلمت تحت عباءة الصابون، كأنَّك تبكي.

لم تقل نهيلة إنّك بكيت، لكنّها شعرت بك على حافة البكاء. وقالت إنّك لست أنت، كأنّك رجل آخر، كأنّ الخوف جمّدك وجعلك تستسلم الخوف.

لكنّك، عندما ستستعيد نفسك، سوف تنفي كل ذلك، وتدّعي أنّك لم تنم منذ ثلاثة أسابيع، وحين سمعت صوت دعساتها على الأرض، شعرت بالأمان، واستسلمت للنوم.

لا أعرف من أصدّق؟

أصدّق النوم، أم الخوف؟

أصدّق نهيلة التي رأت رجلها يتلاشى؟ أم أصدّق الرجل الذي أدّعى النوم آمنًا على إيقاع دعسات امرأته؟

فكرت في حكاية المغارة كثيرًا، وفي مصيرك ومصير عدنان، منذ دخولك الغيبوبة. فكرت في تلك الأسابيع الطويلة في المغارة، ونومك أمام المرأة التي حاولت إيقاظك. يا ليتني أستطيع سؤال نهيلة عن الموضوع. نهيلة تعرف السر، أما أنت فمغلق ككل الرجال. حوّلت حياتك حكاية مغلقة كدائرة.

كيف أستطيع احتمال موت شمس وخوفي من شبحها لولا الحكاية؟

ولكن أنت ممن كنت تخاف؟

لماذا لم ترو حياتك إلا بوصفها رحلة إلى هناك؟

سوف تقول إنّني أحكي عن باب الشمس لأنّني عاشق. «أنت العاشق، وتريد استخدام حكايتي كي تسد ثقوب حكايتك وخيبتك من المرأة التي خانتك».

أرجوك، لا تتكلّم على الخيانة، أنا لا أؤمن بوجود الخيانة، ولولا أنهم حوّلوني ممسحة، وهم ينظرون إليّ باحثين داخل شعر رأسي عن قرون الخيانة، لما اهتممت.

لا يا سيدي، أنا لا أستخدم حكايتك من أجل حكايتي، فأنا خسرت حياتي منذ البداية، حين تركتني أمي وهربت إلى الأردن. أما أنت فربحت كل شيء.

حالتك الآن تشبه حالتك في المغارة. لكن الفرق أن المرأة لن تأتي وتنقذك من موتك. يجب أن أبحث لك عن المرأة، ما رأيك بمدام فياض؟

«مدام فياض، لا توجد الا في خيالك»، سوف تقول.

ولكنّي رأيتها بعيني رأسي، جاءت إلى المستشفى، وقبّلتني. أعرف أنّك لا تريدني أن أتابع هذا الكلام، ولكن قبل أن أسكت، أريد أن أسألك لماذا لم تروِ لي ماذا جرى في المغارة خلال تلك الأسابيع.

عندما سألتك، أجبتني أنّك قعدت تنتظر، ولم يحدث شيء.

هل الانتظار لا شيء؟ أنت تهزأ بي، الانتظار هو كل شيء؛ نقضي حياتنا كلها انتظارًا، ثم تقول لا شيء، كأنّك تريد إضاعة معنى حياتنا.

قم الآن وارو بقية الحكاية.

الحكاية ليست أنت بل عدنان. قم وأخبرني حكاية صاحبك عدنان، أنت ترويها أفضل مني.

سمع عدنان الحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة، فانفجر ضاحكًا. فأضاف القاضي عشر سنوات سجن بتهمة تحقير المحكمة.

قبل الحكم وقف عدنان في القفص، ووضع يديه على القضبان الحديدية، كأنّه حيوان معتقل. ضرب القضبان وصرخ وشتم، فأمر القاضي بربط يديه خلف ظهره. فقرر الصمت. القاضي يسأل وعدنان لا يجاوب. ثم شرحت المحامية الإسرائيليّة الشقراء، وكانت المحامي الإسرائيلي الوحيد الذي تجرأ على الدفاع عن عدنان، للقاضي سبب صمتِ عدنان، ففكّوا وثاق يديه. فقال جملة واحدة قبل صدور الحكم.

«هذه أرض آبائي وأجدادي، أنا لست مخرّبًا ولا متسللاً، أنا عدت إلى أرضي».

وحين نطق القاضي حكمه، انفجر عدنان ضاحكًا، وصار يضرب كفًا بكف، كأنّه سمع نكتة. سأله القاضي ما به.

«لا شيء، بس انشاللّه فكرك أن دولتكم رح تعيش كمان ثلاثين سنة».

استمع القاضي إلى ترجمة كلام المتهم، وهمَّ بالمغادرة، حين بدأ عدنان يصرخ «قال ثلاثين سنة قال، دولتكم لن تعيش، وسأحاكمكم جميعًا بوصفكم مجرمي حرب».

عاد القاضي إلى قوس المحكمة، وأضاف عشر سنوات إلى الحكم بتهمة تحقير المحكمة، بينما تابع عدنان تصفيقه وعبثه، كأنَّه كان يرقص داخل القفص الإسرائيلي.

هكذا رويت لي الحكاية. أنت لم تحضر المحاكمة بالطبع، كما أن وقائعها لم تنشر في الصحف العربية، لكنَّك عرفت كل ذلك من مصادرك الخاصة، التي لا يعرف أحد مصدرها!

قل لي، الآن، لماذا عدت من زيارتك لعدنان، حين خرج من السجن، بعد عملية تبادل الأسرى الشهيرة التي تمت عام ١٩٨٣، وأنت على ذلك الحال؟

هل خفت؟ وممَّ تخاف؟

هل خفت من مرض عدنان؟

قلت لك إنَّه مصاب بمرض عصبي، والأمراض العصبيَّة يمكن معالجتها، لكنَّك فضلت إغماض عينيك وتجاهل المسألة.

عدنان مضطرب عصبيًا، وهذا لا يعني أنَّه أصيب بالجنون. عاد شبه أبله، هذه هي الكلمة الدقيقة لوصف حالته. يتكلَّم بهدوء ورزانة، عرف الجميع، وسمّى جميع أفراد عائلته بأسمائهم، حتى أحفاده الذين ولدوا خلال غيابه الطويل، عرفهم واحتضنهم، كما يفعل الأجداد مع أحفادهم.

تحدّث ببطء وهدوء وهذا كل شيء.

لكنَّه، بعد أيام قليلة، بدأ يفقد أعصابه بشكل فجائي، ويتكلَّم مع الناس كأنَّه يكلِّم السجّان الإسرائيلي، ويرطن بالعبرية. ثم مع الأيام فقد قدرته على النطق، وصار يصرخ ويخرج من البيت عاريًا.

عدتَ من زيارتك الأخيرة له، في مخيّم برج البراجنة، يائسًا ومهزومًا، وطلبت منّي منوّمًا، وقررت التوقف عن زيارته. كان ابنه جميل يريد إرساله إلى مستشفى الأمراض العقلية، وقفت واعترضت وبكيت. كل الناس رأوك تبكي. بكيت وقلت مستحيل، عدنان بطل، والأبطال لا يدخلون مستشفى المجانين، وقيل إنَّك سحبت مسدسك وحاولت قتله. أحاط بك الناس وقالوا حرام. قلت إنَّ الحرام هو أن لا يموت، الحرام هو أن يعيش هكذا، يا أولاد الحرام.

لم ترو لي لماذا سحبت المسدس؟ ولماذا لم تقتله؟ ولماذا تركتهم يأخذونه إلى «دار العجَزة». هل تعتقد أن «دار العجزة» هو مستشفى. والله لا يصلح أن يكون زريبة بقر، هناك يتكدّس المرضى العقليّون كالحيوانات ويعيشون الموت.

هذه المرة سوف أغيّر الحكاية.

اسمح لي، من بعد أمرك، فلن أترك عدنان ينتهي هناك، وسأروي الأحداث بطريقة مختلفة.

ذهب يونس، أبو سالم الأسدي، لزيارة صديقه عدنان أبو عودة في مخيم برج البراجنة. لم تكن تلك زيارته الأولى لعدنان بعد خروجه من السجن الإسرائيلي الذي قضى فيه ثمانية عشر عامًا. فحين أفرج عن عدنان، كان يونس على رأس المستقبلين، أطلق النار في الهواء، وذبح الذبائح، ورقص مع الراقصين. فتح ذراعيه وضم عدنان إلى صدره وقال للناس «اعبطوه وشموا رائحة فلسطين».

جلس الجميع في مضافة آل أبو عودة، أكلوا المناسف وشربوا القهوة، وعدنان لم يحكِ. قال كلمات قليلة لم يسمعها أحد وسط زغاريد النساء والرجال. يومها زغرد الرجال كالنساء، وغرق الجميع في بحر الألوان. لبست النساء ثيابهن الفلاحيّة الملوّنة، وخرجن إلى شوارع المخيم الترابية، كأنّهنّ في شوارع القرى.

انتهى الحفل، وانفضّ الجمع، عاد عدنان مع جميع أفراد عائلته إلى بيته، وجلس بين أبنائه وبناته وأحفاده وحفيداته. ضمّ الجميع إلى صدره، وقال الحمد لله. وضحك الجميع حين روى يونس وقائع المحاكمة.

«قوم يا عدنان، وخبِّرنا»، قال يونس.

عدنان لم يقم، ولم يُخبِّر، ولم يضحك، أو يضرب كفًا بكف، وهو يقول للقاضي «انشالله فكرك انو دولتكم رح تعيش كمان ثلاثين سنة!».

روى يونس الحكاية، وضحك الجميع، وكان عدنان غارقًا في صمته العميق.

«شفت يا عدنان، مرّوا عشرين سنة، وبعد بعد كتير».

في تلك اللحظة، بدأت تظهر عليه أعراض غريبة. صرخ صوتًا ثم سكت، تكلّم جملة ناقصة، وقال كلمات عبريّة.

اعتقد يونس أنَّه التعب، «اتركوا الزلمة يرتاح، لأنَّه تعبان».

ودَّع عدنان ووعده بزيارته خلال أيام قليلة.

وبعـد أسـبـوع بدأت تصل أخـبـار جنون عـدنان، التي رفض يونس تصديقها. فذهب بنفسه إلى بيت صديقه، ورأى وبكى وعاد منهارًا.

غير أنَّ الأمور لم تتوقف عند هذا الحد.

ففي أحد الصباحات، جاء جميل ابن عدنان إلى يونس، وأبلغه قرار العائلة بنقل عدنان إلى مستشفى المجانين، وطلب منه الحصول على تقرير من أحد أطباء الهلال الأحمر الفلسطيني.

هنا دخل الدكتور خليل، أي أنا، على الخط. ذهب إلى برج البراجنة، وفحص عدنان، وقال إنَّه مصاب باكتئاب، وإنَّه في حاجة إلى علاج نفسي طويل، ولا ضرورة لإدخاله إلى المستشفى. لكنَّ حالة عدنان تفاقمت، ووصلت الأمور إلى حد خروجه عاريًا من البيت. وبدأ الكلام عن ضرورة إدخاله إلى المستشفى، وجاءني جميل طالبًا مساعدتي. شرحت للرجل تشخيصي، فصار يزعق في وجهي قائلاً إنَّه لم يعد يحتمل، وإنَّه اتّخذ قراره النهائي سواء كتبت التقرير أم لم أكتبه.

وقرَّر يونس التدخُّل.

ذهب إلى مخيّم برج البراجنة، قرع الباب، ففتح له جميل مرحّبًا، وبدأ يشكو ويخبره، فأمره بالسكوت.

دخل يونس الصالون، حيث كان عدنان جالسًا بالبيجاما إلى جانب الراديو، يستمع إلى أغنية أم كلثوم «أنا في انتظارك»، ويتمايل طربًا. اقترب يونس من صديقه القديم وألقى عليه التحيَّة. لكنَّ عدنان بقي غارقًا في طربه وتمايله على صوت أم كلثوم، كأنَّه لم يشعر بصديقه.

سحب يونس مسدسه وأطلق طلقة واحدة على رأس عدنان وصرخ: «أعلنتك شهيدًا».

ثم انحنى فوق صديقه المغطى بالدم، احتضنه باكيًا وهو يقول: «أنا لم أقتلك، بل قتلتك إسرائيل».

مات عدنان شهيدًا، طبعوا صوره على ملصقات كبيرة حمراء، وخرجت له جنازة ضخمة لا مثيل لها.

ألا توافق معي أنّ هذه النهاية أفضل من تلك؟

كان يجب أن تقتله كما يقتل الفارس حصانه الجريح، بدلاً من تركه يؤخذ إلى هناك.

كان يجب، بدلاً من.

هل سمعت تركيب هذه الجملة الناقصة: كان وبدلاً.

لكنّك جئت إليّ طالبًا حبوبًا منوِّمة، وتركت صديقك يذهب إلى موته الوحشي في ذلك المستشفى.

أنا رأيته في المستشفى، وأعلم كيف قضى أيّامه الأخيرة بين الصراخ والسبات والصدمات الكهربائيّة، لكني لم أخبرك لأنّك مشغول ولا تريد أن تسمع إلا ما يحلو لك.

عدنان انتهى بالنسبة إليك في المحكمة، «هذه أرض أبائي وأجدادي»، تضرب كفًا بكف وتضحك، «قال ثلاثين سنة قال، اللّه يسهّل عليك يا عدنان، بعد في كتير يا عدنان، مرت السنوات ونحن ما نزال في المخيم».

«عدنان جنّنه الزمن»، قلت لي، «الواحد يجب أن لا يعد السنوات، يجب أن ننسى، السنوات تمرّ ولا أهمية لذلك، عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو مئة سنة، ما الفرق».

تركت عدنان يموت كالكلب في المستشفى، ولم يجرؤ ابنه على نعيه. عائلة أبو عودة لم تشارك في مأتمه، دفنوه سرّاً كالعار. حتى أنت، صديق عمره، لم تشارك في مأتمه.

هل فهمت الآن سبب حيرتي؟

المؤقت يحيرني لأنّني أخافه.

«كل شيء مؤقت»، قلت لي، حين التقينا بعد كارثة ١٩٨٢. وخلال الحصار الطويل الذي تعرض له مخيم شاتيلا عام ١٩٨٥، قلت إنّ الحصار مؤقت، ولا خيار لنا. «اسمع، لا خيار لنا، علينا أن نعيش مهما كانت الأمور سيّئة، وإلاّ انقرضنا».

أعرف آراءك وفصاحاتك وقدرتك على تزويج الذكر للذكر، كما يقال.

ولكن ماذا لو بقينا في هذا المؤقت، إلى ما لا نهاية له.

هل تعتقد مثلاً أن وضعك الحالي مؤقت؟

هل تعتقد أنّني سأبقي هنا في مؤقتك، أحاول إيقاظك ولا تستيقظ، أخبرك حكايات لا أعرفها، وأزور معك بلادًا لم أزرها؟

ما هذه اللعبة؟ تموت أمامي فآخذك إلى بلاد وهمية.

«لا تقل وهميّة»، أسمعك تنتفض وتقول «إنّها أكثر حقيقيّة من الحقيقة».

طيِّب يا سيدي، آخذك إلى بلاد حقيقيّة، ثم ماذا؟ أنا لم أعد أطيق الأوهام، وأريد شيئًا آخر غير هذه القصص الذي تزدحم فيها البطولات. لا أستطيع أن أعيش بين جدران الحكاية إلى الأبد.

تريدني أن أحدثّك عن نفسي؟

لا شيء يا سيدي، لا أملك ما أقوله غير أنّني سجين. أنا سجين هذا المستشفى، أعيش في الذكريات، ككل السجناء، السجن مدرسة الحكاية. فيه نذهب إلى حيث نشاء، ونلعب ذاكرتنا بالطريقة التي نريد. وأنا الآن ألعب ذاكرتي وذاكرتك، أنسى الخطر على حياتي، وأتلّهى بحياتك، وأحاول إيقاظك. الحقيقة أنّني لم أعد معنيّاً بإيقاظك، لم تعد عودتك إلى الحياة تعني شيئًا. لكنّي لا أريدك أن تموت. فلو متَّ، فماذا سيحلّ بي؟ أعود ممرضًا، أم أنتظر الموت في بيتي؟

كما ترى، الحق معك.

دائمًا كان الحق معك، المؤقت أفضل من الدائم، أو المؤقت هو الدائم. حين ينتهي المؤقت ينتهي كل شيء. وأنا الآن في مؤقتك، أزور بلادك، وأعيش حياتك، وأسافر في الوهم. أنا طبيبك المؤقت الذي ليس طبيبًا. هل صدّقت أنّني صرت طبيبًا؟ هل صدّقت أن دراسة ثلاثة أشهر في الصين، تجعل الإنسان طبيبًا؟

هل تريد أن أخبرك عن الصين؟

سوف أحمّمك أولاً، ثم أطلب صحن فول من مطعم أبو جابر، آكله، وبعدها أخبرك فأنا جائع، وطعام المستشفى لا يؤكل. صدقني، طعامك أفضل من طعامي. إنّك لا تتذوّق الآن لأنّك تأكل من أنفك، لكن طعم الموز

بالحليب يفتح القلب. أما طعامنا نحن، فمقرف، وأنا مضطرّ إلى أكله، ماذا آكل إذن. هل تعتقد أنّني أستطيع أن أدفع ثمن صحن فول كل يوم؟ لقد خضت صراعًا كبيرًا كي يعيدني الدكتور أمجد إلى كادر المستشفى كممرّض تافه، وبنصف مرتب. قال إنّني لا أعمل، فأنت لا تحتاج ممرّضًا متفرغًا، وأنا لا أفعل شيئًا سوى الاهتمام بك.

وافق الدكتور العكروت على دفع نصف مرتبي بعد وساطة زينب التي قالت له إن تصرُّفه معيب، «فالدكتور خليل كان أحد مؤسسي هذا المستشفى، ويحقّ له العودة إليه». قالت كلمة الدكتور، بعد تردُّد، ونظرت إليّ كالبلهاء، كأنّها قدمت لي خدمة جليلة.

هل تعلم كم أقبض؟

أقبض يا سيدي مئتي ألف ليرة لبنانية شهريًا، أي ما يعادل مئة وعشرين دولارًا أميركيًا فقط. طبيب بمئة دولار، يا بلاش. مئة دولار لا تكفي ثمنًا للدخان والشاي والعرق. حتى العرق لم أعد أشربه إلا نادرًا، لأنّه صار مرتفع الثمن.

ما هذا الزمن؟

رضينا بالخرا والخرا لا يرضى بنا. ولكن بيني وبينك، الحق معه. اكتشف أنّني لست طبيبًا، فعرض عليّ العمل ممرّضًا، لكني رفضت. وحين وافقت جعلني نصف ممرّض!

هل تعتقد أنّني طبيب؟

أنت شجعتني بعد عودتي من الصين على العمل كطبيب، وقلت لي إنّ الطب الثوري أفضل من الطب.

بس يا ضيعان الثورات كيف تنتهي! أبشع شيء هو نهاية الثورات. الثورة مثل الإنسان تهرم وتخرف وتشخّ تحتها.

المهم يا سيدي أنّ الطب الثوري اختفى. الثورة انتهت، ورجع الطب إلى الطب، وأنا لم أكن سوى طبيب مؤقت.

وها أنا أعود إلى حقيقتي.

ولكن ما حقيقتي؟

والله لا أعرف. أعرف أنّني أصبحت طبيبًا بالمصادفة، وبسبب الكسر في عمودي الفقري. أنا لا أذكر كيف حدث ذلك، كنا في حي البرجاوي، وهو شارع ينحدر كاللسان من الأشرفية في شرقي بيروت، إلى رأس النبع في غربها. لسان نموذجي، استطعنا تسلقه واحتلاله كي نعلن منه قرارنا تحرير بيروت.

وكانت الحرب الأهلية في لبنان.

عندما بدأت الحرب، تذكرت عمّان، وكيف طردنا منها دون أن ننهزم. انهزمنا دون حرب في ايلول ١٩٧٠، وخرجنا إلى أحراش جرش وعجلون، حيث كانت النهاية. عمّان، تبدو لي اليوم مثل حلم أبيض. كان أيلول الأسود منامًا أبيض بالنسبة إليّ. أطلقنا على شهر أيلول صفة الأسود كي نقول المعنى، لكنّ عمّان كانت بيضاء، وفيها اكتشفت بياض الموت. فالموت أبيض يا سيدي، أبيض مثل هذه الشراشف التي تلتف بها في سريرك الحديدي.

كنت شابًا صغيرًا يومها، قاتلت في حي اللويبدة قرب مكتب فتح. في الحقيقة تحمست للذهاب إلى عمان، بحثًا عن أمي، وتلك حكاية طويلة أرويها لك في ما بعد.

الحرب في بيروت كانت مختلفة، وطالت كثيرًا. عندما بدأت الحرب، اعتقدت أن عمّان ستتكرر، ولن يستمر القتال أكثر من أسابيع قليلة، ثم ننسحب إلى مكان ما. لكنّي كنت مخطئًا، لأنّ لبنان انفجر بين أيدينا. بلاد كاملة صارت إلى شظايا، وصرنا نركض بين شظايا الأحياء والمدن والقرى والطوائف المختلفة.

لن أقدم لك الآن تحليلاً لحرب لبنان، لكنّها أرعبتني. أرعبني أن ينفجر بطن مدينة، وتخرج مصارينها، وتتحول الشوارع علامات للأشلاء الاجتماعية المفككة. كل شيء تفكك خلال سنوات الحرب الأهلية، حتى أنا، أنا نفسي انقسمت إلى عدد لا يحصى من الأشخاص. كنا نغيّر خطابنا السياسي وتحالفاتنا كل يوم، من اليسار إلى دعم المسلمين، ومن المسلمين إلى المسيحيين، ومن مذبحة شاتيلا عام ٨٢ التي قام بها الاسرائيليون والكتائبيُّون، إلى الحصار/المذبحة عام ٨٥، الذي قامت به حركة أمل، بدعم من سوريا.

كيف نصدّق تلك الحرب؟

أراها أمامي كحلم غامض، كغيمة تلفني من رأسي إلى قدميّ، كنتُ قادرًا على ابتلاع كمية من الشعارات المتناقضة بشكل مدهش، الكلمات كانت سهلة يومها، والدم أيضًا. لذلك لم نتنبه إلى الهاوية التي انزلقنا إليها، كلنا لم نتنبه، حتى أنت. أعرف أنّك كنت تكره تلك الحرب، وتقول إنّها ليست حربًا، وأنا مع احترامي لك لا أوافق، فأنا لا أعتقد أنه يمكن إطلاق صفة العيب على التاريخ. التاريخ محايد أقول لك، وأستمع إلى صراخك، «لا، يجب أن نقول للعيب إنه عيب، وإلاّ أصبحنا مجرد ضحايا». لا أريد العودة إلى هذا النقاش، فأنا كما ترى، بدأت أميل إلى الموافقة معك، ولكن يجب أن تشرح لي. غدًا، عندما تستيقظ من نومك الطويل، سوف تفسّر لي كيف تحتلُّ الغيوم رأس الإنسان، ويذهب إلى موته دون أن يعي.

في الحرب، كان خليل الجالس أمامك الآن، بطل البرجاوي. لا، الآن بدأت أكذب، لم أكن بطلاً، كنت مع الشباب، وقمنا باحتلال ذلك اللسان المنحدر الذي يصعد إلى الأشرفية، وهناك سقطت. انقلب العالم بي، ولم أسمع صوتًا، فهمت أنَّ الموت لا معنى له، وأنَّنا يمكن أن نموت دون أن نعرف أننا متنا.

كنت، مثل كل الفدائيين، أتوقَّع الموت ولا أبالي، كنت أعتقد أنَّني حين سأموت، سأموت كالأبطال، أي سأنظر في وجه الموت قبل أن أغمض عينيّ. أما حين انقلب العالم بي في البرجاوي، وسقطت، فلم أنظر في الموت. احتلني الموت دون أن أدري. ولم أعرف أن أربعة من رفاقي قتلوا، إلاّ في المستشفى. وحين عرفت أصابني خوف مجنون من أن أموت دون أن أعرف أنَّني ميت.

لو كنت يا سيد يونس حيًا، لضحكت عليَّ، وقلت إن لا أحد يعرف أنَّه يموت حين يموت. ولكن لا، أنا رأيتهم يموتون ويعرفون. فالطبيب يرى كثيرًا، رأيتهم كانوا خائفين ويرتجفون هلعًا من الموت، وماتوا.

ليس صحيحًا أن الموتى لا يعرفون، فلو انتفت هذه المعرفة، لفقد الموت معناه، وصار مثل المنام، وحين يفقد الموت معناه، تفقد الحياة معناها، وندخل متاهة لا مخرج منها.

قل لي أنت، حين خرست، ثم سقطت، هل كنت تعرف أنك تموت؟

طبعًا لا، أنا متأكد أنك لم تعرف. يقول الطب إنك لحظة فقدت النطق، أصبت بحيرة شديدة لأنّ آمنة لم تفهم كلامك، اعتقدتَ أنّها أصيبت بالطرش، فرفعت صوتك، وأعدت كلامك، وشرحت أفكارك بيديك ولسانك. ثم في الضربة الثانية، فقدت كل إدراك. أنت إذن ملقًى هنا، ولا تعرف شيئًا.

وأنا أيضًا، حين انقلب العالم بي، لم أستعد وعيي إلا بعد ثلاثة أيام، وخفت. قال الطبيب في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، إنّني يجب أن أبقى جامدًا دون حركة لمدة أسبوع. الفقرة، L6 من العمود الفقري مطحونة طحنًا، ولا علاج لي إلاّ الاستلقاء دون حركة، انتظارًا لنجاتي من الشلل النصفي.

لو قلت لك إن الألم لم يكن يطاق، لكذبت عليك، الألم كان فظيعًا مثل الألم، لكنّه يطاق. كان كَيَدٍ متوحشة تقبض على صدري وعنقي، كنت مشلولاً، صدري ينقبض، وتنفسي يضيق، والألم في كل مكان من جسمي. لكنّي كنت متأكدًا من أنّني لن أموت. فلو كنت سأموت، لمتّ مع رفاقي الذين قتلتهم الحرارة التي تحدثها قذيفة الـ ب.٧. الـ ب.٧. كانت سلاحنا السحريّ، قذيفة صاروخية صغيرة، تحمل على الكتف، وتستطيع اختراق حديد الدبابة، لأنّها تصدر حرارة قوتها ٢٠٠٠ درجة مئوية.

كنا في مكمننا، في بيت قديم في البرجاوي، حين سقطت علينا القذيفة، واشتعلنا. أخبروني بعد ذلك، أن جثثنا كانت متفحمة، وأنّني كنت أسود كالفحم، وأنّهم اعتقدوني ميتًا، وأخذوني إلى براد المستشفى، لكن أحد الممرضين انتبه إلى أنّني أتنفس، فنقلوني إلى غرفة الطوارئ، حيث عملوا ساعات طويلة على إزالة الأسود الذي علق بجلدي، والذي ما زالت آثاره ظاهرة على بقعة في أعلى ظهري.

قال الطبيب إنّه لا خطر على حياتي، الخطر الوحيد هو الشلل، لكن من المرجح أنّني زمطت. قال الطبيب زمط، صنع بيديه اشارة، كأنّه يخرج لوزة من قشرتها. لم أخف الشلل، كنت متأكدًا من أنّني لن أصاب به، لكنّي خفت من فكرة أن أموت دون أن أعرف. حرام. الناس تعرف وأنا لا. الناس تبكي والميت لا. مسخرة، هذه اسمها مسخرة الموت.

طبعًا شفيت. بعد أسبوع نهضت من فراشي، وعدت كما كنت. حتى الألم نسيته. فالشيء الوحيد الذي ننساه هو الألم. نستطيع أن نتذكر أشياء كثيرة وننفعل بها، إلا الألم. الألم لا. نتألم أو لا نتألم، لا حلول وسطى مع الألم. الوجع حين يكون، أما حين لا يكون فإنّ الشعور الوحيد الذي يتركه هو الخفة والقدرة على الطيران.

لماذا أخبرك عن ظهري؟

هل لأنّ الألم عاودني منذ موت شمس؟

شمس لا علاقة لها، واللّه معها لم أكن أشعر بظهري. كنت كالإله. معها كنت أصير في الحب، كما وصفته لي. قلتَ إن اللّه أخطأ مع الرجل. خلق له كل الأعضاء اللازمة، لكنّه لم يخلق له عضوًا لا غنى عنه، ولا نكتشف ضرورته إلا حين نحتاجه فلا نجده.

لماذا أحكي عن العضو الغائب الآن، مع أنّه من المفترض بي إخبارك عن الصين؟

هل لأنّني شعرت هناك بثقل جسدي، واكتشفت أنّني لا أَصلح للحرب. هل تعلم معنى أن لا تكون صالحًا للحرب، في الحرب؟

لن أطيل عليك، يبدو أنّك سئمت حكاياتي، وتفضل أن أعود بك إلى باب الشمس، إلى ذلك اليوم الذي بكيت فيه من الحب، وقلت لنهيلة إنّك تشعر بالعجز.

«المرأة تملكه»، قلت لي. «هناك اكتشفت أن المرأة تملكه، لأنّه كل جسدها، وإنّني ناقص وعاجز».

نظرت نهيلة إليك بتعجُّب لأنّك لا تشبع. لم تصدّق شعورك بالعجز حين قلت لها إنّك تشعر به. اعتقدت أنّك تتكلّم عن العجز الجنسي، وانفجرت ضاحكة. فبعد تلك الرحلة الجسدية في عوالم اللذة، تقف وتقول لها إنّك عاجز! بينما تشعر هي أنّها انجلت وتجلّت ولمعت وصارت عيناها مرآتين تعكسان العالم.

حاولت يومها أن تشرح لها، لكنّها لم تفهم. شرحت لها أنّك تحتاج عضوًا آخر، فالعضو الجنسي ليس أداة الحب، إنّه بابه، ولكن حين تنفتح الهوة، تشعر بحاجة إلى عضو آخر، تبحث عنه فلا تجده.

اعتقدت نهيلة أنك تتكلّم تمهيدًا للعودة إلى ممارسة الحب، وهي لم يكن لديها مانع، كانت مستعدة دائمًا، وحارة دائمًا، وتنتظرك دائمًا. فقالت تعال. وأنت لم تكن تريد، كنت تحاول فقط إخبارها عن اكتشافك المذهل. طبعًا ذهبت إليها، وهناك، وسط أمواج جسدها، اكتشفت أن المرأة تتفوق على الرجل، لأنّ جسدها هو هذا العضو الذي لا يملكه الرجل، ولأنّها تتموج إلى ما لا نهاية له.

لن أحدثك الآن، عن تفاصيل تلك الليلة في باب الشمس. فأنا أريد الصين، تعال معي في رحلة قصيرة إلى الصين، ثم نعود إلى المغارة.

في الصين اكتشفت أنّني غير صالح للحرب، وتحوّلت من ضابط إلى طبيب. درست الطب غصبًا عني، لأنّني لم أكن أملك خيارًا آخر.

قالت المرأة بعربية فصحى ممزوجة بعامية مصرية، إنّني لا أصلح للحرب، وأن عليّ إما العودة إلى بلادي، أو الالتحاق بالدورة الطبيّة. فقبلت، رغم أن دراسة الطب لم تكن قد خطرت في بالي على الإطلاق. فأنا، ككل أبناء جيلي، لم أذهب إلى المدرسة بشكل جدي. وصلنا إلى الصف الابتدائي الرابع، ثم ألحقونا بمعسكرات الأشبال، التابعة للقوات العسكرية. ذهبنا كي نغيّر العالم، فوجدنا أنفسنا جنودًا. كنا كالجنود في أي جيش عادي، مع فارق وحيد هو أنّنا كنا نتكلّم في السياسة، وخاصة أنا. فلقد بدأت حياتي العسكرية الفعلية كضابط، مفوضًا سياسيًا في قوات العاصفة، لأنّني كنت أحب الأدب. اقرأ الروايات وأحفظ مقاطع كبيرة منها غيبًا. قرأت جرجي زيدان ونجيب محفوظ، لكن اختصاصي كان غسان كنفاني، فلقد حفظت روايته «رجال في الشمس» غيبًا، كأنّها قصيدة. ثم توسّعت أفاقي، وحفظت مقاطع من الروايات الروسية، وخاصة لدوستويفسكي وكتابه «الأبله». يا عيني على الأمير ميشكين، يا عين ما أحلاه بين حبيبتيه، يا عين على سذاجته كأنّهُ المسيح. أقرأ «الأبله»، ولا أشبع، يا ليتني أستطيع أن أصير مثله، يا ليت.

لا، عندما وقفت أمام لجنة التحقيق لم أشعر بالبلاهة، بل بالذل. البلاهة ليست ذلاً، إنّها موقف. أما هناك، فوقفت ذليلاً، وفقدت قدرتي على الدفاع عن نفسي.

حفظت الأدب لأنَّه كان ملجإي. في أيام كفرشوبا، حين كنا مكشوفين تحت قصف الطيران، ولا تغطينا سوى أغصان شجر الزيتون، كانت تلك الكتب ملاذي. كنت أقلِّد أبطالها وأحكي بلغتهم كي لا أموت.

أصبحت مفوضًا سياسيّاً لأنِّي أحب الأدب، وأصبحت مقاتلاً لأنني كنت مثل كل الناس، وأصبحت طبيبًا لأنِّي لم أكن أملك خيارًا آخر.

جاء الطب بسبب ظهري فبعد إصابتي بكسر في عمودي الفقري، اعتقد الناس أنِّي سأصاب بالشلل لا محالة. ولكن بعد أسبوع، شفيت تمامًا وعدت كما كنت، والتحقت بكتيبتي العسكرية، التي تم نقلها للقتال في محاور جبل صنين. وهناك، وسط ثلوج لبنان كرهت الحرب، وعشقت ذلك الجبل الأبيض، وعشت في وحل الثلوج وبقع الدماء.

كانت الدماء تبقِّع الثلوج على جانبي الجبهة التي تمتد في الأفق اللامتناهي. وهناك فهمت لماذا هربت أمي من المخيم. ففي المخيم لا نرى بل نتذكر. نتذكر أشياء لم نعشها، لأنَّنا نتبنى ذاكرة الآخرين. نتكدَّس فوق بعضنا بعضًا ونشم روائح حقول الزيتون وبيَّارات البرتقال.

في صنين فهمت أن المدى هو امتداد الإنسان، وأنَّنا من دون هذه الانحناءات التي صنعها اللّه، نموت، وتتحوَّل أجسادنا توابيت.

كنت في صنين، حين جاء العقيد يحيى من مكتب التعبئة والتنظيم، وأبلغني أنَّه تم اختياري للالتحاق بدورة قادة كتائب في الصين.

وذهبت.

من صنين إلى الصين دفعة واحدة. «اطلبوا العلم ولو في الصين»، كما جاء في الحديث النبوي الشريف. نزلت من أعلى جبل في لبنان إلى أبعد نقطة في العالم، وهناك تحدد مصيري النهائي. «لا تدري نفس بأي أرض تموت».

لم يخطر في بالي أنِّي سأقفز من الكلِّيَّة العسكريَّة إلى كلِّيَّة الطب، هذا هو القضاء والقدر، قدري أن لا أكون جنديًا، فالقدر يأخذنا إلى حيث يشاء. يومها فهمت أن ذلك السقوط على درج البرجاوي قد رسم مصيري. وحين اقتنعت بمصيري كطبيب في القوات العسكرية، بدأت الأمور تتغيَّر. والآن، لم أعد طبيبًا، وعليَّ أن أقرر أأبقى ممرضًا أم ماذا؟ أنا أفضل

ماذا، لكني لا أعرف ماذا تعني. سوف تقول إن الحق عليَّ، كان يجب أن أغادر مع المغادرين عام ١٩٨٢، وسوف تلومني لأنِّي رجعت من الملعب البلدي إلى بيتي.

حين أتذكَّر لحظات الملعب البلدي، حيث تجمع الفدائيون تحت الرز والزغاريد، لا أعرف ماذا جرى لي. فأنا لم أكن أملك أي مبرِّر للبقاء في بيروت، أنا مقطوع من شجرة، لا أهل ولا عائلة، فقط نهى التي لم أكن أريدها.

«كان يجب عليك أن تذهب معهم»، قالت زينب، حين علمت أنَّهم قرروا أنَّني لست طبيبًا، وأنَّ عليَّ العمل كممرض متدرب.

هل تفهم معنى الإهانة يا أبي؟ ممرض متدرب! بعد كل هذه السنوات، أصبح مجرد خادم حقير في المستشفى الذي كنت طبيبه الأساسي، ولكن لنفترض أنَّني ذهبت مع الفدائيِّين، أين كنت سأجد نفسي اليوم؟

كنت سأكون في غزة على الأرجح، وكان وضعي غامضًا. هل تعتقد أنَّهم كانوا سيعاملونني كطبيب هناك؟ فالجماعة كما فهمنا يؤسسون سلطة، والسلطة تحتاج متعلِّمين ونصَّابين وتجّارًا ومقاولين ورجال أعمال وأجهزة أمنية. دورنا انتهى، لم يعودوا في حاجة إلى فدائيِّين. لو ذهبت معهم لكان عليّ أن أختار بين العمل كممرض، أو الالتحاق بأحد أجهزة المخابرات الكثيرة، ولشعرت أن مصيري معلق في الهواء.

انتهينا في الهواء، يا سيدي، صارت حياتنا عبئًا علينا.

قرار الرجوع من الملعب البلدي إلى مخيم شاتيلا، لم يكن خاطئًا كما تظن. صحيح أنَّه لم يكن قرارًا واعيًا، لكنّه مثل جميع القرارات المصيرية التي نجد أنفسنا فيها، فنأخذها أو تأخذنا، وانتهى الموضوع.

في الصين، لم يكن أمامي سوى الدورة الطبّيّة، التي قنعت بها مرغمًا. فبعد أسبوعين من التدريب العسكري المكثف والمتواصل، اكتشفت الطبيبة أنَّني لا أصلح للحرب. لم تدخلني غرفة الأشعة، أو تخضعني لفحوص طبِّيَّة متعدِّدة، نظرت إليَّ وعرفت كل شيء.

دخلت عليها عاري الصدر، كما فعل كل رفاقي. نظرت إليّ مليًا، برمت حولي وطلبت مني الانحناء، ووضعت اصبعها على نقطة الوجع وشدَّت. فصرخت ألمًا.

«متى انكسر عمودك الفقري»؟ سألت.

«نعم؟ منذ شهرين».

طلبت مني الانحناء مجددًا، اقترب وجهها من نقطة الوجع، لا أعلم ماذا فعلت، لكنّي أحسست بأنفاسها الحارة تخرق عظامي. ثم عادت إلى وراء مكتبها، وطلبت مني أن ألبس ثيابي، وأنتظر.

لبست ثيابي في الغرفة الخارجية، وانتظرت. وبعد أن غادر الجميع، جاءت وجلست إلى جانبي. كانت ترتدي بنطلونًا كاكيّاً وقميصًا كاكيّاً، وقبعة كاكيّة. لم أرَ منها سوى وجه صغير وعينين منغوليتين، ولم أستطع تحديد عمرها، اعتقدت أنّها في الثلاثين، وقيل لي إنّها في الخمسين، ولا أدري. كأن سرّ أعمار الصينيين لا ينكشف للغرباء.

جلست إلى جانبي وقالت إن الطريقة العشوائية التي التحمت فيها عظام الفقرة المكسورة، لا تسمح لي بمتابعة التدريب، أو عملي العسكري لأنّها قد تسبب لي آلامًا مفاجئة في أية لحظة، وقالت إن هذا يعني أنّني يجب أن أستعد للعودة إلى بلادي.

حاولت أن أشرح لها أنها بذلك تقضي على حياتي ومستقبلي، وأنّه يجب أن أتابع الدورة العسكرية بأي ثمن.

ربتت على يدي لتطمئنني، وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي مست فيها يدي يد امرأة صينيّة، وقالت لا، ونصحتني بالعودة إلى فلسطين للعمل مع الفلاحين، وقالت إن أجمل ذكرياتها تعود إلى فترات عملها في الريف.

«ولكني لا أستطيع العودة»، قلت.

«بلى، بلى»، قالت.

«إذا عدت فلن أعمل مع الفلاحين، لأنّنا لا نعيش في بلادنا، ولأنّه لا وجود للفلاحين...»

أبدت تعجبها من عدم وجود فلاحين في بلادنا، ومن أنّنا لا نعيش في فلسطين، فشرحت لها أنّنا شعب من اللاجئين، فازداد تعجُّبها، وقلت إنّنا نصنع ثورتنا من الخارج، نطوّق أرضنا لأنّنا عاجزون عن الدخول إليها.

«تطوقون المدن»، قالت وقد بدا عليها الارتياح، «كما فعلنا في المسيرة الكبرى».

«لا، نطوق الأرياف»، قلت، «فنحن خارج بلادنا».

ارتسمت على وجهها أسئلة كثيرة، لكنَّها لم تقل شيئًا، لم تفهم كيف نطوّق الأرياف، وكيف لا يوجد فلاّحون، طلبت مني الاستعداد للعودة من حيث أتيت، وقفتْ، فخرجت من العيادة، حيث كان الباص في انتظاري من أجل إعادتي إلى المعسكر.

عدت إلى المعسكر كأنَّ شيئًا لم يكن. في صباح اليوم التالي، خرجت إلى طابور التدريب كالعادة، لكن المدرّب الذي كانت ترافقه مرشدة اجتماعيّة تتكلَّم العربيَّة الفصحى، أمرني بالخروج من الطابور. ذهبت إلى غرفتي في انتظار العودة. ولكن بدل بيروت أخذوني إلى معسكر آخر، حيث قضيت فترة التدريب نفسها التي قضاها زملائي، ولكن في مستشفى ميداني تابع للجيش الشعبي الصيني.

يبدو أنَّ كلماتي أثرّت في الطبيبة، فأوصت بابقائي في الصين، وإلحاقي بدورة طبّيَّة. هكذا وجدت نفسي طبيبًا. والتدريب الطبي لا يختلف كثيرًا عن التدريب العسكري. نشرب الماء نفسه، ونأكل الطعام نفسه ونركض في طوابير صباحية، ونتدرَّب على الآلات الطبّيَّة كأنَّها أسلحة. الفرق الوحيد كان اللُّغة.

في المعسكر كنا نتدرَّب بالعربيَّة، أما في المستشفى الميداني فبالإنكليزيَّة. صحيح أنَّني لا أتقن هذه اللُّغة، لكنِّي فهمت كل شيء. والحقيقة أنَّني تعلَّمت الإنكليزيَّة في الصين! تخيّل المفارقة، وتخيّل معي أنَّني تعلمت أهمية شرب الماء فاترًا بالإنكليزية! في الصين لا يشربون الماء إلا فاترًا على شيء من السخونة، لذلك لا كروش. تفتح عينيك في الصباح، تشتاق إلى شربة ماء بارد، فيأتيك الماء فاترًا. تشرب وتشرب ولا ترتوي. في أيامي الأولى هناك كان العطش الدائم. أشرب وأعطش، ثم اعتدت ماءهم واكتشفت سره، فصرت أحبُّه. فالماء الساخن يدخل فيك ممتزجًا بمسامك، تشرب كأنَّك لا تشرب، كأنَّ الماء في داخلك. وما أزال إلى اليوم أحنّ إلى الماء الساخن، لكنِّي لم أعد أشربه، كما في الأيام الأولى من

عودتي إلى بيروت. ربما بسبب المناخ، مناخ بلادنا هو سبب الكروش التي تنبت للرجال.

بعد الأيام الأولى في الصين، اجتاحنا ذلك الشعور بأنّنا آخرون. جاء هذا الشعور حين زرنا أنفاق العاصمة بيجين. مدينة الأنفاق. أنفاق في كل مكان. أنفاق مليئة بمستودعات الرز والقمح. أنفاق مموّهة بشكل مدهش. دخلنا مرّة دكانًا صغيرًا لبيع الثياب، قام البائع وأزاح أكوام الثياب الكاكية، فوجدنا أنفسنا نهبط نفقًا عمقه أكثر من ثلاثين مترًا، ومجهزًا كي يعيش فيه الناس أشهرًا.

النفق هو الموضوع، عالم كامل تحت الأرض، عالم الحرب وعالم التاريخ. في الصين تعلّمنا كيف يعيش الإنسان في التاريخ. كيف أصف لك التاريخ؟

مرة، جاء تلامذة من أحد الصفوف المتوسطة، وشاركونا التدريب العسكري، وتنافسنا وإياهم على التصويب ببارودة «سيمينوف». وهي بندقية تافهة، أو هكذا نعتقد هنا، لكنّهم هناك يحترمون «السيمينوف» ويقدرونها، فهي البندقية التي لعبت دورًا أساسيًا في إسقاط الطائرات الأميركية فوق سماء فيتنام.

المهم أن أولادًا صينيين، لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة، هزموا ضباطًا محترفين في التصويب! كان هذا درسنا الأول، احترام السلاح. طبعًا، سوف تقول، إنّنا نسينا كل شيء فور عودتنا إلى بيروت، لكن هذا ليس صحيحًا، أنا لم أنسَ شيئًا، لكني لم أستطع أن أتابع وحدي. كيف تتابع وحدك، كيف تقنع الناس هنا بشرب الماء ساخنًا؟ كيف تعلمهم احترام بندقيّة عاديّة، بينما بنادق «الكلاشنيكوف» مثل التراب، ومعها البنادق البلجيكية والأميركية وإلى آخره...

ليس هذا ما أردت أن أرويه لك.

أردت أن ألفت نظرك إلى مشهد الناس في الرياضة الصباحية. أعرف أن المشهد صعب التصديق، لكني رأيته. في السابعة صباحًا، تمتلئ شوارع بيجين بالناس من كافة الأعمار. يخرج ملايين النساء والرجال والأطفال في السابعة صباحًا إلى الشوارع، موسيقى رياضة ترتفع من

مكبّرات صوت مبثوثة في كل مكان، والناس يتريّضون. كل الشعب الصيني في الرياضة الصباحيّة!

هل تقدِّر ماذا فعلت هذه المشاهد بنا؟

الماء الساخن في البداية، ثم أطفال السيمينوف، ثم الرياضة الصباحية، ثم حبة الصويا التي تنفش في الماء ويصبح لونها كاللبن ونأكلها، ثم ذلك الكيس الرفيع الطويل المليء بالرز، الذي يلفه كل جندي صيني حول عنقه وخصره.

أخذتنا إلى التاريخ.

هذا هو التاريخ.

اليوم أقول إنَّه كان شعورًا متوحشًا، لكن يومها دارت رؤوسنا بخمرة الثورة. تخيّل معي مليار رجل وامرأة وطفل، يخرجون صباح كل يوم إلى رياضة الشوارع. تخيّل الأنفاق والحبوب وأفكار الرئيس ماوتسي تونغ.

وأنا اقتنعت وسحرت.

لا، لا أستطيع القول إنَّني اقتنعت مئة في المئة، لكنِّي صرت أردد عبارتهم بيني وبين نفسي كأنَّها صلاة: «الرئيس ماو يعيش ألف سنة أخرى». طبعًا مات ماو وشبع موتًا، وماتت الثورة الثقافية، وانكشفت الجرائم، وصارت هذه الأمور لا تثير فينا اليوم أيَّة مشاعر.

لكن يومها،

يومها شعرنا يا سيدي أنَّنا نصنع التاريخ، وأنَّنا مثل الكتب. كنا نتصرَّف ونتكلَّم كأنَّنا أبطال رواية لا مؤلف لها، رواية نعرفها كلنا، ونرويها كل يوم. صرنا كأنَّنا لا نحكي حين نحكي، نردد جملاً حفظناها، نسأل ونعرف الجواب، وتتكلَّم فينا ذاكرتنا. كأنَّنا كنا نقلّد أنفسنا، نعم نقلّد أنفسنا.

هذا هو التاريخ.

يأخذك إلى مكانين متناقضين، فأنت كل شيء ولا شيء. هكذا تصبح وحشًا وملاكًا، تقتل بإحساس من يموت، تبحث عن الشهوات وتخاف منها، وتصبح إله نفسك.

التاريخ هو أن نصبح آلهة ووحوشًا.

أقول ذلك الآن، لأنَّني رأيت. لا: المسألة ليست الصين، المسألة نحن، أنا
٨ لا أريد تشويه الذكريات لكنَّك تعرف علي رابح، الشهيد علي رابح الذي احترقنا حزنًا عليه.

علي رابح كان بطل مارون الراس عام ١٩٧٨، لم يهرب أمام الإسرائيليِّين الذين اكتسحوا مواقعنا في اجتياحهم الأوّل للبنان. وحده علي رابح مع مجموعة صغيرة من المقاتلين صمد وقاتل وصار بطلاً. اعتقدنا أنَّه مات، ففي تلك الأيام، كنا نعتبر من لا ينسحب ميتًا، وكنا نسمي الهرب انسحابًا وإلى آخره... عاد علي رابح حياً وروى وصار بطلاً.

أنا رأيت كيف خرج من قلب علي رابح وحش لا نعرفه. كنا نقاتل في حي البرجاوي، هذا قبل أن أسقط وقبل الصين وقبل الطب. وهناك كان أبو جورج. وأبو جورج هذا، ليس مهمّاً كي تذكره كتب التاريخ. كان مجرد مواطن عادي يسكن في بيته الكائن في الطبقة السفلى من مبنى مؤلف من ثلاث طبقات، ويقع على المفترق الذي يقسم البرجاوي إلى نصفين، نصف آمن، ونصف يتعرض لنيران الكتائبيين الذين كانوا يحتلون بنايات الأشرفية العالية المواجهة للحي.

أبو جورج، الذي لا أعرف اسمه الكامل، كان صديقنا. فهمت من لهجته السورية، أنَّه سوري الأصل من قرية معلولا التي بنيت بيوتها في الصخور، وما يزال أهلها يتكلَّمون اللُّغة الآرامية ويصلُّون باللُّغة نفسها التي كان يصلّي بها عيسى عليه السلام.

كان أبو جورج يعيش وحده في بيته، يطبخ وحده، ويستمع إلى الراديو وحده، وينظر إلينا بعينين ناعستين. كان قصيرًا وسمينًا، له جبين عريض ووجه أبيض مدوّر مليء بالتجاعيد. لم يكن يحكي معنا في السياسة، أخبرنا عن ابنه جورج المهاجر إلى كندا، وابنته ماري التي تعيش في باريس. قال إنَّه لا يستطيع ترك البيت، لأنَّه مرتبط بذكريات زوجته التي ماتت فيه صبيّة، كما أنَّه يكره الهجرة إلى أوروبا، «زوان بلادك ولا قمح الصليبي»، يقول، ثم ينظر إلينا مهرولين إلى السطح بثيابنا الكاكية وأسلحتنا ويقول: «يا عيني ملاً زوان».

لم يعترض أبو جورج على قيامنا باحتلال الطابق الثالث من المبنى الذي يسكنه، حيث قام علي بتركيب مدفع «الدوشكا»، بل كان يكتفي بالتمعّن في أسلحتنا، حين يدعونا إلى قهوته، ويقول «يا عيني ملاّ زوان».

أنا واثق من أن الرجل لم يكن يحبّنا، كلمة حب ليست مناسبة هنا، الرجل لم يكن معجبًا بنا، وهذا حقه، عدا أنّنا لم نكن نثير الإعجاب، والآن أقول إنّنا كنا نستحق الرثاء. نناقش، نقيم الكمائن، نبني الدشم، نقوّص، ونتساقط.

في حي البرجاوي، تساقط جرحانا بالعشرات، لم يكن من المنطقي تحويل الشارع جبهة ثابتة. فالذي يحتل البرجاوي عليه أن يكمل كي يصل إلى الناصرة في قلب الأشرفية، أو ينسحب. أما نحن فبقينا كي نموت. لم يكن القرار قرارنا كما تعلم، كنا مجرَّد جنود، ومشاريع شهداء.

في أحد الأيام، وبعد أن أنهى علي فنجان قهوته الصباحية مع أبو جورج، حيّاه وبدأ يصعد إلى الطابق الثالث، حين سمع جملة أبو جورج، التي سبق له وأن سمعها عشرات المرات.

«يا عيني ملاّ زوان».

«نحن زوان يا أخو الشرموطة»؟ صرخ علي.

ودون مقدمات هجم علي على أبو جورج وبدأ يضربه بوحشية. كان علي متعبًا في ذلك اليوم، أعتقد أنّه كان خائفًا، لكنّي رأيت بخارًا يتصاعد من عينيه. كان يضرب الرجل، والبخار حول رأسه، وأبو جورج ينحني على نفسه، يخبئ رأسه بيديه المضمومتين إلى فوق، ويئن. وعلي يضرب ويلبط ويصرخ طالبًا الجواب عن سؤاله.

«جاسوس، عميل، أين جهاز الاتصال»؟ يلهث عليّ صارخًا، وهو يضرب.

المسألة لم تكن تهمة أبو جورج، فالرجل كان بريئًا، ولم يكن يتجسس علينا. صحيح أنّه لم يكن متحمّسًا لقضيتنا وحربنا، وصحيح أنّه كان يخبئ في عينيه ما يشبه الاحتقار لهذا الزمن الذي سمح لنا بالتسلُّط عليه، لكنّه كان محايدًا.

لكن علي.

كان علي وحشًا. لم يكن سبب غضبه واضحًا، كأن وحشًا سكنه، كأن الحرب تحولت روحًا سكنته. خفنا أن يقتله. كان ضربًا لا يشبه الضرب، كان قتلاً. كان علي يقتل أبو جورج بيديه وقدميه ووجهه الأسمر المحتقن وشعره الأجعد، كأنّه يفترسه.

خفنا على أبو جورج، كلنا قلنا إنّنا خفنا عليه.

وماذا فعلتم؟ سوف تسألني.

لا شيء، أقول لك، جمدنا في أماكننا وتفرّجنا، ولم نقل حرفًا. انتظرنا علي كي ينتهي، ورأينا أبو جورج يخرج حيًا، ثم تكلّمنا!

لم يكن جمودنا بسبب الخوف من علي، لا، وقفنا وتفرجّنا كأنّنا نحن أيضًا صرنا مثل علي، كأنّنا كنا نتفرّج على حفلة مصارعة.

كلهم قالوا إنّهم خافوا على أبو جورج، أما أنا فخفت على علي. رأيته وقد صار رجلاً آخر، صار رجلاً لا أعرفه، صار وحشًا.

التاريخ يا سيد أبو سالم يُخرج من دواخلنا بشرًا لا نعرفهم. ولا نجرؤ على الاعتراف بوجودهم. في الصين وجدت نفسي في التاريخ، وشعرت بقدرتي على القيام بأي شيء، ولم أخف من نفسي أو عليها لأنّني لم أكن أرى. حين تكون محوطًا بالمرايا من كل جانب، تفقد قدرتك على الرؤية، ويفترسك وحش التاريخ.

أبو جورج لم يمت.

هدأ علي فجأة، وخرج من البيت، ورأينا أبو جورج يلملم نفسه عن الأرض، كأنّه يلتقط أعضاءه التي تناثرت، ثم وقف منحنيًا، وجمع أغراضه، أخذ بنطلونًا وقميصًا وثيابًا داخلية، لفّها على زنده وخرج وهو يبربر كلمات لا نفهمها. أعتقد أنه كان يلعننا باللّغة الأرامية التي لا يستخدمها إلا للصلاة.

في الصين يا سيدي، فتحنا كتاب التاريخ، وتعلّمنا فن الحرب، وفن استثمار الفوز. قال مدرّبنا الصيني إنّ الفكرة المركزية في حرب الشعب هي استثمار الفوز. ننسحب حين نكون عاجزين عن النصر، ثم نهاجم بأعداد مرتفعة، نحشد قوانا ونسحق عدونا. يجب أن نكون في المعارك التي نقرر خوضها أكثر عددًا وأفضل تسليحًا من عدوّنا وننتصر.

استثمار الفوز هو في قدرتنا على الإيحاء لعدونا بأنّنا قادرون على الانتصار الدائم.

كان يستخدم كلمة نصر، ونحن نستمع إليه ونشعر بأنّنا انتصرنا. كأنَّ الكلمات تعاويذ سحرية. فالكلمات إما أن تكون سحرًا أو تُرمى في سلة المهملات. هذه هي الثورة. كلمة لها سحر يشبه السحر.

وصرنا نتكلم أشياء حفظناها من قبل، ونقاتل كأنّنا قاتلنا من قبل، ونموت كأنّنا نقلّد موتنا.

يا الهي على تلك الأيام.

أقول تلك الأيام كأنّها مضت، وهي مضت ولم تمض. فنحن «علقانين»، كما كان يقول الرائد ممدوح. كان يستخدم كلمة «علقانين» من أجل وصف حالتنا. نحن «علقانين»، ولا خيار لنا. نخرج من علقة لندخل في علقة، «وكل مين خلق علق». هذا هو التاريخ، أن «تعلق» وتلعب رغمًا عنك، دون أن تملك خيارًا آخر.

أجلس أمامك، وكلمات الرائد ممدوح تنخر أذني. أنا علقان هنا، وأنت أيضًا، والدكتور أمجد، وكل الناس. حتى ممدوح، اعتقد أنّه زمط من العلقة، لأنّه نجح في تدبير فيزا إلى باريس. حتى ممدوح ماذا فعل؟ هل صار مليونيرًا يعيش «طيز نمر» كما يقولون؟ طبعًا لا، ممدوح وصل إلى فرنسا وتزوج من أجل الزواج، كما قال في رسالته الوحيدة إلى والدته، ثم مات بالسكتة القلبية. «ولا تدري نفسٌ بأي أرض تموت».

كنت أحدِّثك عن التاريخ، ولا أريد أن أزعج خاطرك بمأساة الرائد ممدوح. فمأساته ليست مأساة، فالمأساة تستدعي الدموع؛ موت ممدوح جعلني أضحك. تخيّل: رجل قضى وقته يقول إنه يفتّش عن طريقة للخروج من العلقة وحين خرج مات. ممدوح مات عام ١٩٨١، أي قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان بعام واحد، أي مات قبل سنة من موعده مع الموت. فلو بقي ممدوح علقانًا معنا في لبنان، لمات عام ٨٢، كما مات الآلاف. لكنّه استعجل موته.

أعود إلى الصين، كي أقول لك، إنّني انسحرت بالتاريخ. خلال أسبوعين فقط من التدريب العسكري المكثّف، اكتشفت كيف يمكن لي أن

أفتح كتاب التاريخ وأدخل فيه. وأكون القارئ والمقروء في آن واحد. هذا هو الوهم الذي تصنعه لنا الثورات. تجعلنا نعتقد أنّنا الشخص والمرآة، وتقودنا إلى الوحشية.

كنت واقعًا تحت سحر كل شيء، حين جاءت الطبيبة وأعلنتني عاجزًا عن متابعة التدريب العسكري، وطلبت مني إعداد حقائبي استعدادًا للعودة إلى بلادي. لكنَّهم، بدلاً من إعادتي إلى بيروت، أخذوني إلى معسكر آخر، وأعلنوني طبيبًا.

لن أزعجك بحكايات الطب الصيني الذي لم أتعلمه، فأنا لم أعد أذكر شيئًا منه تقريبًا، خاصة أسماء الأعشاب التي كان مدربنا لا يعرفها الا باللغة الصينيَّة. لكنِّي اكتشفت جسد الإنسان. اكتشفت وجود منطق طبيعي مترابط، له نظام دقيق، يضبط أجسادنا. اكتشفت روح الأشياء في الجسد، وترابط الجسد مع الطبيعة ولا محدودية الإنسان.

سوف تقول إنَّ هذه النظريات الفلسفيَّة التي أرددها الآن، هي محاولة لتغطية جهلي الطبي، لكن لا. هذه قناعتي، ولذلك أعالجك على طريقتي. طبعًا، أنت خارج الموضوع. الدكتور أمجد كان على حق حين أعلن أنَّك ميت سريريّاً. ولكني مقتنع أنَّ الروح تملك نظامها الخاص، وأنَّ الجسد وعاء الروح، فأحاول إيقاظك بحكاياتي، وأنا على يقين من أنَّ الروح تستطيع، إذا أرادت، إيقاظ الجسد النائم.

في الصين، رغم كل شيء، ورغم جنون التاريخ الذي عصف برأسي، تعلَّمت أثمن شيء في حياتي. تعلَّمت أن جسد الإنسان الواحد هو تجسيد لتاريخ البشريَّة كلها. جسدك تاريخك. والبرهان أنا. انظر إليّ، ألا ترى الألم يمزقني، الطبيبة الصينيَّة كانت على حق. فالكسر في عمودي الفقري، الذي نام سنوات طويلة، استيقظ فجأة. الألم في كل مكان، وحبوب المهدئات لا تنفع.

الجسد تاريخنا يا سيدي، انظر إلى تاريخك في جسدك المتلاشي، وقل لي أليس من الأفضل أن تنهض وتنفض عنك الموت؟

تعلَّمت الطب في الصين، ورجعت إلى لبنان طبيبًا لا يفهم من الطب سوى نظرياته العامة، لكنَّه يعرف اللُّغة الإنكليزيّة!

بعد نقلي من الدورة العسكرية، أُخذت إلى مستشفى ميداني تابع للجيش الصيني، وهناك سألني رجل طويل، فالصينيُّون ليسوا قصارًا كما نعتقد، إذا كنت أعرف اللغة الإنكليزيّة. سألني بالإنكليزية فأجبته Yes، قلت نعم لأنَّني كنت أعتقد أنَّني أعرف الإنكليزية التي درسناها في مدارس وكالة الأونروا. فألحقوني بمجموعة من المتدرّبين، كانوا أفارقة في غالبيَّتهم. وكان الطبيب المدرّب، يلقي علينا دروسه باللُّغة الإنكليزيّة، وكنت لا أفهم شيئًا، بلى، يعني، كنت أفهم ما تيّسر، فقررت ادِّعاء الفهم، وصرت أحفظ كالببغاء كل ما يقال أمامي، وانتهى الأمر بي إلى الفهم. واكتشفت أنَّني لست أسوأ من غيري، فالإنكليزية لغة لا تحتاج إلى معرفتها كي تتكلّمها. هنا منبع قوتها. صرت أحفظ ما يقوله المدرّب بسرعة عجيبة، ورجعت من الصين وأنا أرطن بالإنكليزية، وأدخل كلماتها الطبية في لغتي، مما أقنع الناس بأنَّني طبيب حقيقي، ومشي الحال.

لكن ما لا أنساه، هو أنَّني كنت حين أتكلَّم الإنكليزيّة في الصين، أشعر أنَّني لست أنا. ألبس استاذي الصيني مرة، وألبس زميلي الأفريقي، أو أقلّد الباكستاني. نسيت أن أخبرك أن مجموعتنا كانت مؤلفة من عشرة طلاب، ثمانية من نيجيريا، وأنا، وباكستاني. الباكستاني كان أكثر فهمًا، وقال إنَّه كان طالبًا في كلّيّة الطب في كراتشي، وطُرد من الجامعة بسبب نشاطه السياسي، فجاء إلى الصين كي يدرس علم الثورة، وإنَّه لا يريد دراسة الطب، لكنَّهم أجبروه على الالتحاق بهذه الدورة، قبل إلحاقه بدورة عسكريّة للتدريب على حرب العصابات.

كنت أقلّدهم، وأشعر أنَّني أصير إنسانًا آخر داخل اللُّغة الإنكليزية. أنفعل على طريقتهم، وخاصة طريقة ذلك الباكستاني، الذي كان يتغيّر كليًا حين ينفعل، يمطّ فمه، ويصبح مثل أبطال الأفلام الأميركية ويصرخ Fuck.

أقول لك إنَّني فهمت أهم مسألة في حياتي. فهمت أنَّني حين أحكي أقلّد الآخرين. كان على كل كلمة إنكليزيّة قلتها أن تمرّ عبر صورة شخص آخر، كأن من يحكي، لم يكن أنا. وحين عدت إلى بيروت، وعدت إلى الكلام بلغتي العربية عدت إلى نفسي، كأنَّني عدت إلى خليل الذي تركته خلفي في بيروت.

في الصين اكتشفت أنني حين أتكلّم لغة الآخرين، أصبح كالآخرين، وهذا رأي خاطئ طبعًا، ولكن لا، ماذا لو؟ ماذا لو كنت حتى في اللغة العربية اقلّد الآخرين أيضًا؟ ماذا لو كان الفرق هو أنّني هنا، نسيت من أقلّد؟ فنحن نتعلّم لغتنا الأم من أمهاتنا، ونقلّدهن، ولكننا ننسى، وحين ننسى نصبح أنفسنا، لذلك نعتقد أننا من يحكي حين نحكي.

الآن بدأت أفهم شعورك حول صوت والدك، قلت لي إنّك كنت تشعر في بعض المرات، أن صوت الشيخ الأعمى يخرج من حنجرتك، «سبحان الله، صرت أشبهه، وصرت حين أحكي أشعر أنه هو من يحكي بلساني».

لا، لا أوافق على هذه النظرية، صحيح أنّنا نقلّد، ولكنّنا نصنع لغتنا الخاصة، حين نصنع حياتنا. أنا لا أعرف أبي، أذكره طيفًا، ولا أستطيع القول، الآن، ولا بعد عشرين سنة، إن صوت ذلك الطيف يخرج من حنجرتي.

طبعًا نحن نقلّد، ولكننا ننسى، والنسيان نعمة، لولا النسيان لمتنا خوفًا وقهرًا. الذاكرة يا سيدي، هي عملية تنظيم للنسيان، وما نفعله الآن، أنا وأنت، هو تنظيم نسياناتنا، نتحدّث عن أشياء، وننسى أشياء أخرى، نتذكر كي ننسى، هذا هو جوهر اللعبة. ولكن إيّاك والموت الآن. يجب الانتهاء من تنظيم نسيانك أوّلاً، كي أستطيع أن أتذكّر في ما بعد.

وحتى الآن، حين أقول تلك الـ Fuck، أرى الباكستاني، بفمه المطوط وأسنانه البيضاء وحنكه المستطيل الدقيق الذي يشبه منقار عصفور، وأشعر بصوته في حنجرتي، وأشمّ رائحة الصين.

درست الطب ثلاثة أشهر، وعدت إلى بيروت، حاملاً معي معارفي الجديدة باللغة الإنكليزية، وشرب الماء الساخن وإجراء عمليات ميدانية بسيطة كنزع رصاصة من اللحم، وتضميد الجروح، ومعالجة الكسور، وضرب الإبر، وإلى آخره...

لم أصبح طبيبًا، ولكنّهم صدقوني. عملت في مستشفى ميداني في صور، ومططت فمي، وأنا أردد كلمات حفظتها من الباكستاني، وصرت طبيبًا. ودار دولاب الزمن كما يقولون، وها أنا اليوم طبيب مؤقت في مستشفى مؤقت في بلاد مؤقتة. كل شيء فيّ ينتظر شيئًا، والانتظارات تتوالد وتمحّي وتتراكب وتتداخل.

أنظر إلى حياتي فأرى صورًا. أرى رجلاً يشبهني، أرى رجالاً لا يشبهونني، لكنّي لا أرى نفسي. غريب أمرنا مع هذه الحياة، نذهب إلى مكان فنجد أنفسنا في مكان آخر، نبحث عن شيء فنجد شيئًا آخر، البدائل تتراكم فوقنا. بدل نهى جاءت شمس، وبدل شمس جاءت سهام، وبدل سهام لا أدري. لكن صار يجب أن أضع عقلي في رأسي وأتزوّج. فلقد وصلت إلى الأربعين، وفي الأربعين لا بدّ من الزواج، وإلا البهدلة. حين يقول رجل إنّه يجب أن يتزوّج، فهذا يعني أنّه وصل إلى الحضيض. الزواج يأتي دون هذه الـ «يجب».

لا، مع شمس، لا، لم يخطر الزواج في بالي، لأنّني كنت أعيش كالمسحور. والآن حين أتذكّر ذلك السحر أرى رجلاً آخر. خليل الذي يجلس أمامك ليس خليل شمس، خليل شمس كان مختلفًا، لا يأكل لأنّ الحب يزيح القابليّة. ولا يحكي، لأنّ الحب لا لغة له، ولا يسأم ولا يملّ من الانتظار. حين تحضر يمتلئ حضوره، وحين تغيب يمتلئ انتظاره.

ثم راح الحب.

لا شيء يزيل الحب سوى الموت. الموت هو علاج الحب الوحيد. أنا الذي كان يجب. كان يجب أن أقتلها، أنا الذي، لكنّني لم.

وأنا الآن أبحث عن بديل، لا أبحث عن امرأة تشبه شمس، بل عن أية امرأة، آه ما أجمل أن تجد امرأة في سريرك، آخ. لكن سريري فارغ، ومن المستحيل أن أطلب مساعدة أحد كي يجد لي امرأة، المرأة يجب أن أجدها بنفسي.

مخدوع وأبو قرون ويبحث عن امرأة؟

وماذا أيضًا، كلهم تخونهم زوجاتهم، وكلهم مخدوعون، وأنا أعرف، وهناك في منزل الشيخ الأخضر في المخيّم، اكتشفت وحزنت، وبكيت على شمس.

كنت أمرّ في لحظة ضعفي الكبرى، شمس ماتت، وشائعات لائحة القتل تملأ الدنيا، فقلت أذهب اليهم، جاء عبد اللطيف وقادني بعينه المغمضة العوراء إلى منزل الشيخ هاشم الذي كانوا يلقبونه في المخيم، الشيخ الأخضر. وهناك، خلعت حذائي، ووقفت في حلقتهم، وترنحت ودرت مع

الذكـر، وأنا أهتف باسم اللّه، وأوقّع تنفسّي على يد الشيـخ التي تصـفق وتقودنا إلى الجذبة الأخيرة، حيث نلمس الحضـور الكلي. درت مـعـهم وانتشيت ودموعي تتساقط دون إرادتي. وبعد أن أنفضّ الجمع، استبقاني الشيـخ، وقـال إنّه فرح بي، وإنّه آن لنا أن نتوب، وقَـبِلَني مريدًا في الزاوية اليشرطيّة الشاذليّة، التي حملها أهل شعب معهم من قريتهم إلى المخيم، وأعطاني كتابًا لليشرطي الكبير، وطلب مني أن أزوره ساعة أشاء.

في زيارتي الثانية له، حيث جئت لأسأله عن حكاية ريم في شعب، التي سـمعتـها من كل الناس، رأيت زوجته تقرع باب بيتها، وهي تلعن الشيخ، والشيخ لا يفتح. «إنّها مجنونة»، قال الشيخ.

ثم عرفت الحقيقة.

كانت في الخامسة والستين، تجلس على مصطبة منزل شقيقتها، وتروي للجميع، كيف دخلت، فرأت الشيخ مع زوجة أحد مريديه. المرأة بين أحضانه، وهو يلهث.

«رأيته»، تقول المرأة، «وزوجها الحمار أبو قرون، صدّقه ولم يصدّقني، صدّق الذي ينتهك عرضه، ولم يصدّقني، وقال إنّني مجنونة، وساق زوجته إلى البيت».

قـالت المرأة إنّها حين رأتهـما بدأت تصـرخ، فتراكض الناس، ومن ضمنهم زوج المرأة، وبدأ الهرج والمرج. رفع الشيخ الأخضر يده، فسكت الجميع، وقال «أنت طالق». وأمرني بالخروج من البيت. حاولت إخبارهم الحقيقة فلم يصدّقني أحد، رجل في السبعين، العجوز العكروت، رأيته يحتضن بكرشه المرأة، والمرأة بين يديه، وهو يلهث كالكلب، فقالوا مجنونة. وأخذ الرجل زوجته وبصق عليّ، كان يجب أن يبصق على نفسه وعلى زوجته، لكنّه بصق عليّ.

في منزل الشيخ الأخضر، فهمت أنّ شمس لم تخنّي؛ كانت مسحورة بسطوة الرجل، أو لا أدري... وخرجت من الحلقة الصوفية، ولم أعد إليها.

فهمت شمس، لكنّي زعلان منها كثيرًا. كان يجب أن أعرف، لو أخبرتني عن علاقتها بذلك الرجل الآخر، لكنت نصحتها بعدم قتله. ولكن معها حق، الحب لا ينتهي إلا بالموت، وهي كانت الأكثر جرأة لأنّها قتلت

حبّها، أما أنا فلا. انتظرت حبّي كي يموت. وجاء الموت مع الموت. فالحب مع الموت يتبخّر في الهواء ويتلاشى.

أنا لا يهمني الناس، يشفقون عليّ لأنّهم لا يفهمون شيئًا، يشفقون عليّ لأنّي أحببتها ولأنّها خانتني، ولأنّني أخاف شبحها ولأنّ... لا أعرف. أما أنا، فلا يهمني، أنا في الصين. أعادني المستشفى إلى الصين حيث استعدت لغتي الإنكليزية. لا أستطيع أن أكون طبيبًا باللغة العربية فقط، ودون مياه فاترة. هناك يا سيدي ولدت من جديد. هناك، في لحظة نهايتي، حين قالوا إنّني لا أستطيع متابعة العمل العسكري، بدأ كل شيء. انزاح خليل الضابط وجاء خليل الطبيب. وبدل الذهاب إلى الحرب، ذهبت إلى المستشفى واليوم ينزاح خليل الطبيب ويأتي خليل المرض.

هل تعلم ماذا قال الدكتور أمجد؟

استدعاني إلى مكتبه، وبدأ يلوك كلماته. جلس خلف مكتبه وتكلّم كأنّه مدير مستشفى. طبعًا هو مدير المستشفى، أنا لم أقل عكس ذلك، ولكن أي مستشفى وأي تعتير؟ مستشفى لا تتوافر فيه شروط الحد الأدنى، لا نظافة ولا أدوية ولا شيء، كأنّه حبس. ويأتي هذا التافه يعلك كلماته أمامي، يقول إنّه يجب أن أشتغل بدوام كامل. يمطّ الكلمة، يتردّد، يترك نصفها معلقًا في الهواء، قبل أن يلتقطها ويتابع. يتوقّف عند حرف الراء ويقول، «أنت ممر/ض، ويجب أن تشتغل كممر/ض، ما بيصير هيك، مش ممكن يستمر الوضع». حاولت أن أشرح له ظروف عملي، وكيف أنّك تستهلك كل وقتي.

«كل وقتك!» قال مستهزئًا. «الحقيقة بدأنا نخاف أن تفقد عقلك يا دكتور، تحكي كل الوقت مع نفسك، هل تعتقد أنّنا لا نعرف ماذا تفعل في الغرفة، هل تعتقد أن الحكي علاج، لو كان الكلام علاجًا لحررنا فلسطين من زمان، لا، هذا لا يجوز».

قلت له إنّني أقبض نصف معاش، وأنا راض بذلك. فأفهمني أن ما أحسبه نصف معاش هو معاش كامل، بعد انقطاع الموارد الماليّة عن الهلال الأحمر.

«المال تبخّر مع نفط الكويت يا دكتور خليل، لا يوجد مال، حرب وأميركا والنفط راح والعرب راحوا وأفلسوا والثورة أفلست، ومعاشك

ليس نصف معاش، وعليك أن تختار بين العمل معنا كرئيس للممرضين وبدوام كامل، أو مغادرة المستشفى».

وقال إنّ المستشفى ليس ملجأ، وإنّه لا يريد لي إلا الخير، ويحترمني ويحترم تاريخي، «ولكن عليك أن تشتغل، ولا تخف، فأنت في حمايتنا».

لم أرد عليه، يمنّنني بخوفي، ويفهمني أنّه يعرف ملابسات قضية شمس. لكن لا، كنت على وشك رفض عرضه، حين هددني بك.

«نحن نهتم بيونس»، قال، «وعلى كل، فهو لم يعد في حاجة إلى اهتمام، ومسألة بقائه في المستشفى لم تعد واردة، وأنا بصدد إعداد أوراقه من أجل نقله إلى بيت العجزة، أمثاله يوضعون هناك وليس في المستشفى، حالته ميؤوس منها، وهو ميت كلينيكياً».

هل فهمت ماذا يريد هذا الطبيب الكلب، يريد رميك في المأوى. يونس، أبو سالم، عز الدين، آدم، ينتهي في بيت العجزة؟! يا ويلاه! هل تعلم ماذا يعني ذلك؟ أرجوك اسمعني، فأنا لم أَعِدْ أمجد بدراسة اقتراحه بشكل جدّي خوفًا على نفسي، وفي النهاية ماذا سيفعلون بي، الأعمار بيد اللّه، قلت أدرس الاقتراح لأنّ فكرة بيت العجزة أصابتني بالرعب. هل تعرف معنى نقلك إلى هناك؟ تتعفّن حيًا، نعم تتعفّن ويأكلك الدود والقروح. أنا لم أخبرك عن عدنان لأنّني أشفقت عليك، أنا الوحيد الذي زاره، لأنّهم بعثوا في طلبي، وهناك أراني الدكتور كريم جابر الهول.

«أنا لا تربطني بالمريض أية قرابة»، قلت.

«بالضبط»، أجاب، «راجعنا ملفه الطبي ووجدنا التقرير الذي كتبته، ونحن نريد مناقشة حالته معك».

وحين قلت إنّني لا أفهم في الأمراض النفسيّة، نظر إليّ باشمئزاز، وصحّح لي قائلاً إنّ عليّ استخدام الكلمات بدقة، فمرض السيد عدنان ليس نفسيًا بل هو عصبيّ، فهومصاب بانفصام الشخصية، ويعالج الآن بالصدمات الكهربائيّة.

سأعفيك من تشخيص الدكتور لمرض عدنان. لأنّي متأكد أنّه لا يفهم شيئًا. دعاني إلى مقابلة عدنان، ومشينا داخل ذلك المكان، الذي أستطيع أن أسمّيه أي شيء لكنّه ليس مستشفى.

اكوام المجانين، روائح المجانين، وأصوات المجانين.

أنين في كل مكان.

أنين يتصاعد كالبخار.

على مدخل أكوام بيوت الصفيح المتلاصقة، وداخل ما كان يسمى في الماضي مخيّم صبرا، يقع بناء أصفر كالح، محوط بالأسوار من كل الجهات، ويسمى بيت العجزة.

في هذا البيت الذي ليس جزءًا من عالمنا، مشيت ومشيت، حتى وصلت إلى غرفة لا تشبه الغرف، ورأيت رجلاً كهلاً مربوطًا بالحديد، قالوا إنَّه عدنان.

مشينا في الطابق الأول، حيث العنابر الضخمة، «هنا» قال الدكتور كريم، «نضع المرضى العقليين غير الخطرين».

مشينا بينهم، وكانوا يتعمشقون بنا، ويلتصقون بثيابنا، كأنَّهم يريدون شيئًا لا يستطيعون الإفصاح عنه. وكانت رائحة الطبيخ، ومشهد المرضين بثيابهم البيضاء المتسخة. كأن تلك الغرف لم تفتح منذ سنوات.

قلت للدكتور كريم إنَّني أحسّ بالاختناق، لأنَّ نظام التهوئة غير صحّيّ. ربت على كتفي وهو يقودني ويقول إن مواصفات المستشفى صحية، وتوازي أفضل المستشفيات الأوروبية.

«والرائحة»؟ سألته.

«الرائحة لا شيء»، قال. «ليست أكثر من رائحة تجمع بشري. كل تجمع بشري أو حيواني يملك رائحة قوية ونفاذة، ولا شيء آخر».

تابعنا السير وسط العنابر المفتوحة على غرف المرضى، ولاحظت أن المرضى لا يلبسون ثيابًا، بل بيجامات، أردت أن أسأله لماذا لا يلبسون ثيابًا، لكنِّي لم أسأل.

صعدنا إلى الطابق الثاني، وهناك رأيت!

في الطابق الأول كان الوضع إنسانيًا بمعنى ما. غرف المرضى مفتوحة على قاعات كبيرة نسبيًا، والمريض يستطيع الاختيار بين البقاء مع زملائه في القاعة، أو الجلوس في غرفته حيث وضعت أربعة أسرة.

أما فوق فمستحيل.

وصلنا أولاً إلى عنبر كبير مليء بالأسرّة المسيّجة، «هنا العجزة»، قال، ثم انعطف بي إلى اليمين، وأدخلني قاعة الرعب، رأيت ثلاثين طفلاً مربوطين في أسرّتهم لا يتحركون، «هنا التخلّف العقلي»، قال، وهو يبتسم.

«لكنّهم يتعذّبون»، قلت.

«هذا أفضل لهم ولنا»، أجاب.

قادني في ممر ضيق، وقال إنّنا سنصل الآن إلى قسم الخطرين.

ورأيت عدنان.

لم يكن قسمًا، ولا قاعةً ولا غُرَفًا، كان مجموعة من الزنازين الصغيرة المعتمة، وكان عدنان مربوطًا بسلسلة حديديّة إلى سريره المسيّج بقضبان حديديّة، وشخيره يتصاعد.

اقترب منه وحاول إيقاظه، «عدنان عدنان»، قال الدكتور.

وكان الجواب شخيرًا متقطعًا وتململاً.

وضع الدكتور يده على حافة السياج الحديدي الأسود المحيط بسرير عدنان واستفاض في الشرح. قال إنّهم أخطأوا مع عدنان. «يبدو أنّ الطبيب المناوب لم يقرأ إضبارته الطبيّة بشكل دقيق فربطه بقيد، وأنت تعلم. قضى هذا الرجل عشرين سنة في زنزانة انفرادية مقيّدًا، وحين رأى القيد هنا، أصيب بتشنج عصبي، مما دفع بالطبيب إلى أخذه إلى غرفة الصدمات الكهربائيّة، ثم قيّده إلى سريره، وبدأت حالته في التدهور. كان لا يتوقف عن الصراخ، ومحاولة الاعتداء على المرضين، ولولا حظه الكبير لقتلوه. هذه أخطاء يمكن أن تحصل، ولكني فور عودتي تولّيت المسألة، وكما ترى، الأمل ضعيف، ووضعه يتدهور».

«ولكنّه ما يزال مقيّدًا»! قلت.

«طبعًا، طبعًا، أجاب الدكتور، «كنت مسافرًا، وكما أخبرتك، لم أستطع سوى تقييده خوفًا عليه وعلى المرضين».

«أنت أمرت»!

«نعم يا سيدي، أنا، كما ترى، الطبيب مجبر على اتخاذ إجراءات

صعبة، ماذا تريدني أن أفعل، ففككت قيوده فقام بضرب أحد المرضين وكسر يده، فأمرت بإعادته إلى الصدمات الكهربائيّة وتقييده».

«ولكنّه نصف ميت الآن».

«بالضبط، ولهذا دعوتك»، قال الدكتور كريم. «أعتقد أنّه لن يقوم بعد الصدمة الكهربائيّة الأخيرة، وأريد منك الاتصال بأهله وشرح الموضوع لهم، كي يأتوا لزيارته قبل موته، ربما، لو رأى أحد أولاده، لتحسنت حالته قليلاً، هل تستطيع الاتصال بهم»؟

إلى هناك، يريد الدكتور أمجد إرسالك. هناك حيث ربطوا عدنان وعذبوه وقتلوه. هناك حيث احتضر عدنان ستة أشهر بين غرفة الصدمات الكهربائية وزنزانة السرير، قبل أن يموت.

مستحيل، قلت لأمجد.

قلت أدرس الموضوع، وأوحيت له أنّني سأوافق، ورجوته أن يتركك هنا. قلت إنّها فضيحة وقلت دخيل عرضكم، وقلت لا يجوز.

قلت، وقلت وقلت، لا أعلم ماذا. رجوته أن لا ينقلك إلى بيت العجزة، ووعدني بدراسة الموضوع، وفرحت. خرجت من عنده سعيدًا ولكنني حزين الآن.

أقف أمامك مرتبكًا وخائفًا ويائسًا.

لكن في مكتب الدكتور أمجد، فرحت لأنّه سيدرس الموضوع، وهذا يعني أنّني سأبقى هنا، وبقائي يعني بقاءك، أو العكس.

وحين سيدرس الموضوع، سيكتشف أنّه لا يستطيع إخراجك من المستشفى، لأنّه عيب. صحيح أن هذا المستشفى يشبه السجن، وصحيح أنّنا سجينان هنا، ولكن هذا أفضل من الموت.

لكن لا.

كان يجب أن لا أحني رأسي أمامه، ولا أوافق على شروطه، كان يجب أن أهدده. أليس كذلك؟

في غرفتك رأيت المشهد بعيون جديدة، وتخيّلت ما كان يجب أن أقوله، وقلته، أو كأنّني قلته.

كانت التاسعة والنصف صباحًا، وكنت قد أنهيت حمامك الصباحي،

ووقفت أمام النافذة أشرب الشاي وأدخِّن سيجارة أميركية، حين رأيت زينب في الغرفة.

قالت إن الدكتور أمجد في انتظاري.

رميت سيجارتي من النافذة، وضعت كوب الشاي على الطاولة وتبعتها. قرعت باب مكتب أمجد ودخلت. كان الدكتور يقرأ الجريدة، أزاحها قليلاً وقال «تفضل»، وتابع القراءة. تفضّلت وانتظرت، لكنه لم يتوقّف عن القراءة. كان يتأفّف ويقرأ، ثم ألقى الجريدة على الطاولة، وقال «أهلاً»، وسكت.

«أهلا فيك»، قلت.

«أمر»، قال.

«سلامتك، زينب قالت لي إنّك بعثت في طلبي».

«أيوه، أيوه»، قال، «كيف الختيار»؟

«أفضل»، قلت.

أخبرته عن القطرة، وعن ردة فعلك حين أنكزك بالدبوس في يدك، وعن علامات التحسُّن الواضحة التي بدأت تظهر.

خلع نظارتيه السوداوين، نسيت أن أخبرك، أنّه كان يضع نظارتين سوداوين وهو يقرأ، عجيب، أنا متأكّد أن هذا الدكتور لا يفهم شيئًا، لا في الطب ولا في السياسة. لكن ماذا نستطيع أن نفعل، حاكمك ربّك، كما يقولون. خلع نظارتيه ونفخ دخان غليونه في وجهي، وأبلغني بضرورة انتقالي للعمل بدوام كامل كرئيس للممرضين.

لم أوافق.

شرحت له أهمية عملي معك، وهممت بالخروج، حين أبلغني قرار نقلك إلى بيت العجزة.

حاولت أن أحكي فلم أستطع، أصبح لساني ثقيلاً كقطعة من الخشب في فمي، ثم انفجر الكلام. قلت إن نقلك يعني رميك في مكبّ النفايات وتركك تموت، وإنّني أعرف أن ذلك المكان ليس بيتًا ولا مستشفى، بل هو خليط عجيب من الموتى والأحياء.

لكن أمجد أصرّ على رأيه.

«هل تعرف ماذا تفعل»؟ قلت.

«طبعًا أعرف، وأنا أقوم بواجبي، المستشفى لا يستطيع استقبال حالة كحالة يونس، أمثاله يذهبون للموت في بيوتهم».

«لا أحد في بيته»، قلت.

«أعرف، لذلك سننقله إلى بيت العجزة».

«لا يمكن»، صرخت، «أنت لا تعرف ماذا تقول».

«بلى أعرف أكثر منك».

«لا تعرف شيئًا».

«أقوم بواجبي، لا مكان للشفقة في مهنتنا».

«الشفقة! أنت معتوه، أنت لا تعرف شو يعني يونس».

«يونس! وشو يعني يونس»!

«إنَّه رمز».

«وكيف نطبب الرموز»، قال، «لا مكان للرموز في المستشفى، الرموز مكانها في الكتب».

«ولكنَّه بطل، لا يمكن، لن ينتهي البطل في مقبرة الأحياء».

«ولكنَّه انتهى».

حين سمعت كلمة انتهى تغيّر كل شيء، حكيت لا أعرف ماذا، قلت إنَّك الأول، وإنَّك آدم، وإن لا أحد سيمسك، وإنَّني سأقتلهم.

حاول الدكتور تهدئتي، فازدت اشتعالاً.

قال إنَّه صاحب القرار هنا.

قلت، لا، لا أحد يقرر.

ومددت يدي إلى طاولته، أخذت الجريدة وبدأت أمزق منها نتفًا وأمضغها، أمضغ وأبصق، وأصرخ، ونتف الجريدة تتساقط على الطاولة والأرض. أمزّق والدكتور يتضاءل خلف مكتبه، أنا أبصق وهو يختفي. لم يبق منه سوى رأس فوق الطاولة، ثم اختفى الرأس، وبدأ جسمه يصغر على الكرسي، ثم اختفى الجسم، كأنَّ الطاولة ابتلعته.

تركته تحت الطاولة، وخرجت من مكتبه كالعاصفة. هكذا أحب أن أسمّي خروجي من هناك، كأنّي عاصفة.

وأتيت إليك.

أنا متأكّد الآن من بقائك هنا، رغم أني لم أقل ما أردت قوله في مكتب أمجد.

قل لي، كيف يمكن، كيف يجرؤ أمجد على الكلام عنك بهذه الطريقة. ألا يعلم، كل الناس تعرف قصتك، ألا تعني له القصّة شيئًا؟ أم ماذا؟ هل فقد ذاكرته؟ هل نحن شعب بلا ذاكرة؟ قال ما قاله كأنّه لا يعرف، أنا متأكد من أنّه يعرف. ماذا جرى له؟ ماذا يجري لنا؟ أفي النهاية لا يبقى سوى النهاية. أنتَ وأنا في هذا العالم الذي يقذف بنا إلى النسيان.

أنت محظوظ يا سيد يونس.

هل تستطيع تخيُّل نفسك من دوني؟

لو كنت مكاني، فقط لو كنت مكاني لفهمت أن الأصعب لم يأتِ بعد. أعرف أنك تريدني أن أخبرك عن الوضع السياسي الآن، وأنا أكره السياسة، لأنّي لم أعد أفهم ماذا يجري. فقط أريد أن أعيش. أهرب من موتي إلى موتك، ومن نفسي إلى جثتك، ماذا تستطيع جثة أن تفعل؟

أنت لا تستطيع إنقاذي، وأنا لا أستطيع شفاءك، اذن ماذا نفعل هنا؟ أنا في المستشفى وأنت في السجن، لا، أنا في السجن وأنت في المستشفى، وتأتي الذكريات. هل تريدني أن أصنع حياتي من الذكريات؟

أعرف أنّك سوف تنتفض وتقول إنّك لا تحب الذكريات، فأنت لا تتذكّر لأنّك تعيش، رقصت كل حياتك على حبال الموت، لم تقتنع أن النهاية جاءت، كي تجلس على رصيفها وتتذكّر. «نحن لا نتذكّر سوى الموتى»، قلت لي، لكن لا، أنا هنا على خلاف عميق معك، فأنا أتذكّر عبرك كي أعيش، أريد أن أعرف، على الأقل أعرف.

سمعت الحكايات التي سمعها جميع أطفال المخيم، لكنّي لم أفهم. هل تعتقد أنّه يكفي أن تقولوا لنا إنّنا لم ننهزم عام ١٩٤٨، لأنّنا لم نحارب، كي نقتنع بحياة الكلاب التي نعيشها منذ ولادتنا. هل تعتقد أنّني صدقت

جدتي؟ لماذا هربت أمي إلى الأردن؟ لماذا قالت جدتي إن أمي سافرت إلى أهلها وستعود؟ وهي لم تعد. ذهبت إلى الأردن بحثًا عنها، ولم أعثر لها على أثر، كأنّها ذابت أو اختفت. هكذا نحن، لا يبدأ شيء إلا ويختفي، كأنّنا في منام.

والآن، وفي هذا المنام الطويل في المستشفى، أريدك أن تروي لي. أنا أروي وأنت تشرح وتعلّق، أروي لك وتخبرني، ولكن قبل ذلك أريد أن أعترف لك بسرّ خطير، شرط أن لا تزعل. تفرجت على الفيديو الذي جلبته أم حسن، ورأيت الغابسية، رأيت الجامع والسدرة والطرقات التي أكلتها الأعشاب ولم أشعر بشيء، لم أشعر بأكثر مما شعرت به حين ذهبت إلى وسط بيروت الذي هدمته الحرب الأهلية، حيث رأيت النباتات الوحشية تلتف حول البنايات المتصدعة والحيطان المهدمة، لا، غير صحيح، في وسط بيروت كدت أبكي، وبكيت، أما مع فيلم أم حسن فقد أحسست بلفحة هواء ساخنة تضربني. لماذا تريدني أن أبكي على خرائب التاريخ؟ قل لي، كيف تركتهم هناك وأتيت؟ كيف استطعت؟ كيف عشتَ في مكانين وداخل تاريخين وحبّين. لن أصدّق إخلاصك، ولا كلامك الغامض على النساء، أريد فقط أن أفهم، لماذا لم تأتِ نهيلة معك إلى لبنان؟ كيف تركتها؟ وكيف عشت حكايتك وتركتها تنمو وتنمو حتى قتلتك؟

سؤالي يا سيدي هو لماذا؟

لماذا نحن هنا؟ لماذا هذا السجن؟ لماذا لم يبق لي غيرك، ولم يبق لك غيري؟ لماذا أنا وحيد بهذا الشكل؟

أعرف أنّك لا تستطيع جوابًا، ليس لأنّك مريض، ولا لأنّك ملقى بين الموت والحياة، بل لأنّك لا تعرف الجواب.

قل لي، بربّك قل لي، لماذا لم تجبر زوجتك على المجيء معك إلى لبنان؟ ولماذا رفضت نهيلة أن تأتي؟

قالت إنّها ستبقى مع الشيخ الأعمى، ولم تصدّقها، لكنّك تركتها ومشيت. تركتها وتركت ابنك الأول الذي مات. تركتها لأنّ الأعمى قال لك، «اذهب واتركها يا ابني، نحن لا قدرة لنا على الهجرة».

الأعمى الذي هاجر من قرية إلى قرية، ومن حقل زيتون إلى حقل

زيتون، حتى أوصله الزمن إلى الموت في دير الأسد، قال إنّه لا يستطيع الهجرة وصدّقته!

لماذا صدّقته؟

لماذا لم تقل لهم؟

لماذا أدرت ظهرك ومشيت؟

أعرف أنّك كنت تائهًا في القرى مع التائهين، كنتم كتلاً بشرية ضائعة. ولكن ماذا فعلت بعد سقوط ترشيحا؟ لماذا لم تذهب إلى لبنان مع المقاتلين؟ ذهبت إلى تلال الكابري وقاتلت مع اليمنيين، ثم عدت إلى شعب، وكانت القرية فارغة، بحثت عنهم في كل مكان، ولم تجدهم إلا بعد حوالى شهر. ذهبت إلى دير الأسد، حيث وجدتهم يعيشون في نصف بيت، وبدل أن تهتم بهم تركتهم ومشيت.

قل لي، ماذا حلّ بك؟

أخبرني.

كلما سألتكم ماذا جرى تبدأون في مزج الأحداث بطريقة عشوائية، تقفزون من شهر إلى شهر، ومن قرية إلى قرية، كأنّ الزمن انحلّ بين حجارة القرى المهدّمة. جدتي كانت تروي كأنّها تمزّق الحكايات. بدل أن تجمعها تمزقها، ولم أفهم شيئًا. لم أفهم لماذا سقطت قريتنا ولا كيف؟

أستطيع أن أفهم جدتي، وأسامح وسادتها المليئة برائحة العفونة. لكن أنت، المقاتل في ثورة الـ ٣٦، المشارك في كل الحروب، لماذا لا تعرف؟

هل تريدني أن أصدّق جدتي، وأضع رأسي على وسادة الأزهار اليابسة، وأقول هذه هي الغابسية، هل تريدني مثلها، أنام ولا أرى. عاد ابنها الوحيد ولم تره. كانت تقف تحت شجرة الزيتون، تحلش شعرها وتتراقص بالحزن، حين عاد ابنها أي أبي، حاملاً كيس الخضر، فلم تره. الفتى العائد من تحت أزيز الرصاص، أمسك أمه من ثوبها الطويل، وصارا يبكيان معًا. هي تبكي لأنّها أضاعته، وهو يبكي لأنّها تبكي.

لن أخبرك عن أبي الذي مات متكوّمًا أمام عتبة بيته. قتلوه ورموه على العتبة. أنا لم أره. أمي وأمه كانتا هناك، وحين أراه الآن، أراه بعيون جدتي

وأمي. أراه يموت وسط بركة دمه، كأنّه خروف مذبوح، وأرى اللون الأبيض.

لكن لا،

الحكاية أنّ السماء سقطت على الأرض. قالت جدتي، وهي تصف التشرُّد الرهيب في حقول القرى، السماء سقطت على الأرض، والنجوم صارت كالحصى، وكل شيء كان أسود.

أخبرني عن ذلك الأسود. لا أريد الخبرية نفسها، عن خيانة الجيوش العربية في حرب الـ ٤٨، فلقد سئمت الجيوش. أريد أن أعرف ماذا فعلت أنت؟ ولماذا أنت هنا وهم هناك؟ ولماذا قادني القدر إليك في نهاية الزمن؟

لن أعود إلى عين الزيتون، فحكايتنا تبدأ حين انتهت عين الزيتون.

كان ذلك ليلة الأول من أيار ١٩٤٨. أنت لا تنسى هذا التاريخ، لأنك حفرته بقطعة جديدة مُحْماة على زندك الأيسر. ففي ذلك اليوم امّحت عين الزيتون من الوجود. دخل الإسرائيليُّون القرية، وهدموها بيتًا بيتًا، وصارت كأنّها لم تكن، وبدل القرية زرعوا غابة صنوبر.

أين كنت في الأول من أيار؟

أعرف أنك كنت في شعب من أجل تنظيم حاميتها. استدعاك أبو إسعاف، فذهبت، لأنكم لم تكونوا تتوقّعون هجومًا على القرية. كانت كتائب الجهاد المقدّس تعيد تنظيم نفسها، بعد قرار دخول جيش الإنقاذ المؤلف من متطوّعين عرب، والذي كان يقوده اللبناني فوزي القاوقجي، إلى الجليل.

وفجأة، اجتيحت القرية ودمِّرت، ولم تكن هناك.

وحين عدت إلى قريتك، ودخلتها حاملاً بندقيّتك الإنكليزيّة، رأيت رجال «البالماخ» ينتشرون فيها، فلم تفعل شيئًا، لم تطلق رصاصة واحدة دفاعًا عن قريتك. اكتفيت بأن التقطت قطعة حديد وأحميتها على النار، وحفرت ذلك التاريخ على زندك الأيسر، وهرولت إلى حقول الزيتون في خراج القرية، وسمعت تفاصيل سقوط القرية، وأقسمت على الثأر.

في عين الزيتون، حصل الانعطاف الكبير في حرب الجليل. فليل الأول من أيار ١٩٤٨ قامت وحدة من «البالماخ»، ترافقها بغال محملة بالذخائر،

بالتقدُّم إلى عين الزيتون، عن طريق تل الدويرات التي تشرف على القرية من الشمال، ومن التلة، قام رجال «البالماخ»، بدحرجة براميل من المتفجرات على القرية.

قالت أم سليمان، وهي تبكي، إنَّهم قتلوا أباك.

وصلت إلى حقل الزيتون، ورأيت أشباحهم الهائمة، كانوا يسيرون على غير هدى، فرأيت أم سليمان، أمسكتها من كتفها، لكنَّها لم تتوقَّف. ظلت تمشي، وأنت تحاول اللحاق بها.

«أم سليمان، أنا يونس»، صرخت.

التفتت فرأتك، لكنَّها لم تتوقف، مشت وقالت، «قتلوا أبوك، روح فتش على أمك ومرتك قدام».

تركتها وركضت، ورأيت أمك ونهيلة بين الجموع. اختلط العرق المالح بدموع عينيك وأنت تبحث عن ابنك الصغير. اقتربت منهما، فرأيت أمك تقود الشيخ الأعمى، وإلى جانبها تمشي نهيلة حاملة طفلها.

مشيت إلى جانبهم ولم تتكلَّم. لم تسأل عن موت أبيك لأنَّك رأيته حيّاً. وستقول لي إنَّكم كنتم ضائعين، ترون الأحياء أمواتًا، وتعتقدون الأموات أحياءً. اختلطت الأمور عليكم، وقضيتم سنوات نكبتكم الأولى، وأنتم تحاولون رسم الخط الفاصل بين الموتى والأحياء.

لم يمت أبوك، وأم سليمان كانت على خطأ، وأنت لم تسأل. وحين وصلتم إلى قرية شعب، وأقمت في دار آل الخطيب، بدأت تبحث وتسأل. رأيت أم سليمان جالسة على عتبة الجامع، تشبك يديها، وكأنَّها طفلة صغيرة في المدرسة. أخبرتها أنَّ الشيخ لم يمت، فنظرت إليك كأنَّها لا تعرفك. وبدأ الناس يتجمَّعون في باحة الجامع، ووصل حامد علي حسن.

كان حامد علي حسن ينزف من كل ثيابه، حين وصل إلى باحة جامع شعب. وحامد، كان شابًا في مطالع العشرين، عيناه خضراوان كعيني أمه البدوية السمراء، ولم ينسحب من القرية إلا بعد أن صار وحيدًا وسط القنابل التي تنفجر حوله.

وقف حامد علي في باحة الجامع، وقال إن رشيد خليل حسن قُتل.

«رجعنا»، قال حامد، «كنا ستة شباب، من آل حسن، أردنا جلب المال المدفون في ساحة بيتنا، وكان رشيد خليل أول من دخل القرية، فأصيب بطلقة في عنقه وسقط، وانهمر الرصاص علينا من كل الجهات، فانهزمنا. يجب أن نعود من أجل أن نجد لرشيد قبرًا».

قال كلماته وجلس، ركضت أمك وسقته ماء، شرب وتنهد، لكن لم يتحرك أحد، لم ينهض أحد قائلاً تعالوا نجلب الجثة.

كانوا في باحة جامع شعب، ذهولهم يغطيهم، كأنّهم أشباح تلبس عباءات طويلة سوداء.

وهناك عرفت ماذا جرى.

صباح الثاني من أيار، انسحب المسلحون من القرية، وبقي الناس داخل بيوتهم المحاصرة بالنار. وحين دخل جنود «البالماخ»، أمروا الناس بالتجمع في باحة بيت محمود حامد.

أم سليمان اختبأت في الإسطبل القريب من بيتها، ثم قررت الخروج. حملت علمًا أبيض والتحقت بالناس في الساحة.

«شو بدي اخبرك يا ابني، نحن واقفين وهم يطلقون النار فوق رؤوسنا. ثم بدأنا ننحني، بعضنا ركع، وبعضنا قرفص، وبعضنا انبطح أرضًا. هنا، وقف يوسف إبراهيم الحجار، امرأته كانت إلى جانبه، وحاولت شدّه إلى الأسفل كي يبقى منحنيًا، لكنّه وقف، رفع يديه إلى الأعلى كأنّه يستسلم. لكن إطلاق النار لم يتوقّف، صرخ بهم خلص، خلص، استسلمنا وخلص. توقف إطلاق النار. تقدّم يوسف أحمد الحجار من الجنود، بقامته التي تحمل على كتفيها أعباء خمسة وسبعين عامًا من العمر.

أريد أن أقول شيئًا اسمعوني.

نحن نستسلم، قريتنا سقطت ورجالنا انهزموا، ونحن نستسلم، ونتوقّع أن نعامل بطريقة إنسانية، انتبهوا جيّدًا، نحن أسرى، وعليكم معاملتنا كما يعامل الأسرى المدنيون في الحرب. نحن لا نشحذ عطفكم، نطلبه وسنردّه. إذا عاملتمونا بشكل جيد، فسنرد الحسنة بأفضل منها، غدًا، كما تعلمون، سوف تدخل الجيوش العربية فلسطين، وسنهزمكم، وعندها سنعاملكم كما تعاملوننا اليوم. الأفضل لكم أن يتمّ التفاهم اليوم. اللّهم إنّي بلّغت.

تقدّم ضابط شاب من يوسف وصفعه على وجهه، ثم سحب مسدسه، وأطلق النار على رأسه، فانفجر دماغه وتناثر على الأرض، ولم يتحرّك أحد منّا، حتى زوجته بقيت راكعة ولم تتحرّك. ثم اختار الجنود حوالى أربعين شاباً وساقوهم أمامهم، وحين اختفوا عن الأنظار سمعنا إطلاق نار. قتلوا الشباب، ثم ساقونا كالغنم إلى الجهة الغربية من القرية، وأمرونا بمغادرتها، وبدأوا بإطلاق النار فوق رؤوسنا. ركضنا في اتجاه وادي الكرار، حيث تجمعنا في أسفله، قبل أن نسير في اتّجاه قرية شعب».

كانوا يحكون، وكنت تبحث عن حنا كميل موسى. فحنا، كان قائد ميليشيا القرية، وكان أكثر من أخ بالنسبة إليك. معه التقيت عبد القادر الحسيني في قرية صفّوري، وكنتما معًا كتوأمين لا ينفصلان.

«أين حنا»؟ صرخت بهم.

اقترب منك أحمد حامد، وقال إنّه رآه.

«شفته يا ابني، أنا كنت مختبئًا في بيتي، ثم قررت الاستسلام، خرجت ومشيت في الشارع أمام بيوت آل حامد، في طريقي إلى الساحة. وقبل أن أصل إلى بيت أبو سلطان اعتقلوني وجروني. رأيتهم فرفعت يدي مستسلمًا، لكنّهم جرّوني كأنّهم عثروا عليّ. وخلف الساحة رأيته، وكان على شجرة البلوط، لا أعرف ما إذا كان حيًا، لم أستطع الاقتراب منه، كانوا يجرونني كأنّهم ربطوا حبلاً في عنقي، كانت يد أحدهم تمسك بي من رقبتي، ولم أكن قادرًا على المقاومة. لم أكن أريد المقاومة، حاولت التوقف أمام شجرة البلوط، لكنّهم لم يسمحوا لي، ثم أخذوني إلى الساحة حيث قتلوا يوسف أحمد حجار، وجرُّوا والدك الشيخ، ألم تخبرك أمك؟ أين الأعمى؟ هل أخذوه؟

حنا كميل موسى ما يزال مصلوبًا على الشجرة، اذهب يا ابني وخلصه، يا ليتني أستطيع الذهاب معك، لا أعرف أين أهله. الظاهر أنّهم لم يأتوا إلى شعب، ربما راحوا إلى عمقا، كثيرون راحوا في اتجاه عمقا. اذهب إلى عمقا، ربما عثرت على أبيه وأمه، قل لهم إن أحمد حامد رآه مصلوبًا، وإنّه يجب أن ننزله عن شجرة البلوط».

تركتَه وذهبتَ إلى دار الخطيب، وتأكدت للمرة الألف من أنَّ أباك ما

يزال حيًا. رأيت الشيخ جالسًا في صحن الدار، يشرب القهوة، ويحكي عن ويلات الحرب العالمية الأولى!

غبت ثلاثة أسابيع. كل الناس اعتقدوا أنك ذهبت إلى عين الزيتون كي تنزل حنا عن صليبه فوق الشجرة. وحين عدت لم تخبر أحدًا شيئًا عن مشاهداتك.

قل لي، هل صحيح أنهم صلبوه، وكيف يعني صلبوه؟ أدقوا المسامير في يديه؟ أم ربطوه إلى الشجرة بحبل، ثم قتلوه؟ أم ربطوه وتركوه يموت وحيدًا؛ كما كان يفعل الرومان بعبيدهم؟

أنتَ لا تعرف الجواب، لأنك حين تسللت إلى القرية، وذهبت إلى شجرة البلوط لم تجد أحدًا.

أكان أحمد حامد يهلوس؟

أم لم تعد تستطيع أن ترى؟

فأنت يا سيدي لم ترَ أباك حين كان يمشي في رحلة الهجرة إلى جانب زوجته وزوجتك.

«كأنني كنت لا أرى سوى العتم»، قلت لي.

أصحيح أن ساحة النبع امتلأت بجثث أربعين شابًا، تم إعدامهم هناك بدمٍ بارد؟

وهل صحيح أيضًا أنهم لم يدفنوا القتلى، بل جلبوا جرافة، قامت برميهم في حفرة جماعية، لم يتم طمرها بشكل جيد، فظهرت بقايا الناس مخلوطة بالتراب؟

هل صحيح أنهم هدموا القرى انتقامًا لخربة جدّين؟

صالح أحمد الجشي، ادّعى أنك لم تشارك في معركة خربة جدّين. أعرف أنه يكذب، وعلى كل حال، لم يعد أحد في المخيم يصدقه، منذ مشهده الغريب عام ١٩٧٢، بعد عملية ميونيخ. يومها رأى الناس شيئًا لا سابق له، رأوا أبًا يغار من ابنه الميت!

تدفّق المعزّون إلى بيته، بعد مقتل ابنه حسام في مطار ميونيخ، وبدل أن يتحدّث عن ابنه، لم يتوقف عن مدح نفسه وبطولاته، وكيف قتل سبعين إسرائيلياً في معركة خربة جدّين.

طبعًا أنت تذكر عملية منظمة أيلول الأسود، واختطاف اللاعبين الأولمبيين الإسرائيليّين، في ميونيخ. أعرف رأيك في هذا النوع من العمليات، وأعرف أنّك كنت واحدًا من القلائل الذين تجرأوا على اتّخاذ موقف واضح ضد خطف الطائرات، والعمليات الخارجية، وقتل المدنيين. قال الناس إن موقفك نابع من خوفك على زوجتك وأولادك الذين يعيشون في الجليل. وقلت لا، وكان الحق معك، أنا أصبحت الآن على اقتناع تامّ بموقفك، رغم أنّي يومها، قلت ما قاله الجميع عن خوفك على أفراد أسرتك. «فالذي يريد أن يربح الحرب، لا يقوم بأعمال بهلوانية، والذي لا يحترم حياة الآخرين، لا يحق له الدفاع عن حياته»، كما كنت تقول.

صالح أحمد الجشيّ ادّعى أنّك لم تشارك في معركة خربة جدّين. لكننا لم نصدقه. فهذا الكهل ذو الأنف الكبير والقامة المنحنية، جلس في بيته، يستقبل المعزّين أو المهنئين باستشهاد ابنه حسام، واستغلّ المناسبة كي يروي عن بطولاته، وعن المجموعات القادمة من الكويكات وشعب وعين الزيتون، لدعم مقاتلي الكابري. وحين سأله أحدهم عنك، رفع إصبعه إلى الأعلى وقال لا، ثم قال إنه لا يذكرك معهم، ونفخ صدره وروى عن الكمين، «لا ينسى أهل الكابري طعم النصر الذي ذاقوه في خربة جدّين، لو حاربنا في فلسطين كلها، كما حاربت الكابري، لما ضاعت البلاد».

«لكنّنا نحارب الآن»، قال أحدهم، وكان شاباً من رفاق الشهيد حسام.

«حنشوف يا ابني، حنشوف شو رح يطلع بإيدكم».

وبدأ يخبرنا عن القافلة الإسرائيليّة التي سقطت في الكمين.

أريد أن أسألك، هل كان سقوط عين الزيتون، والكابري والبروة، هو الانتقام الأوّل لمعركة جدّين؟

أم حسن قالت إنّها مرت من هناك في طريقها إلى الكويكات، فرأت بين خرائب القرى، باصًا محترقًا وسيارة مصفحة مدمرة، لأنّ الإسرائيليّين أقاموا في المكان نصبًا لقتلاهم.

«ونحن، ماذا سنقيم هناك»؟ سألتها.

«ماذا سنقيم»؟ سألت بتعجُّب.

«يعني، بعد التحرير»، قلت.

نظرت إليَّ بعينين نصف مغمضتين كأنَّها لم تفهم قصدي، ثم ضحكت.

أم حسن معها حق، فنحن لن نقيم شيئًا، حتى مقبرة محترمة، ولا أقول نصبًا، لألفٍ وخمسمئة إنسان سقطوا في شاتيلا وصبرا، لم نبنِ، المقبرة الجماعية صارت ساحة يلعب فيها الأولاد كرة القدم، وهناك من يقول، والله أعلم، إن مخيم شاتيلا بأسره سوف يجرف قريبًا.

الأنصاب ليست مهمة، المهم الأحياء. ولكن لماذا يدعّي أبو حسام أنَّك لم تشارك في المعركة، ولماذا، بدلاً من البكاء على ابنه، يجلس كديك منفوش وسط الناس، ويفاخر ببطولاته.

أخبرني أنت ماذا جرى؟

أنا لا أريد الاستماع إلى هذا الأعرج الفخور بأنَّ قنبلة يدوية انفجرت في جيبه ولم تقتله. أنا لم أصدّق الحكاية، ولكنَّك أكدّتها لي وأنت تضحك، «المسكين كان خائفًا على عضوه التناسلي، الدم ينفر منه، وهو يمدّ يديه إلى ما بين فخذيه، وحين تأكد من أنَّ الاصابة ليست هناك، صار ينطّ من الفرح قبل أن يُغمى عليه من الألم. كنّا مجموعة مقاتلين في طريقنا إلى البروة، وكان صالح أحمد الجشي متدلّيًا من نافذة الباص، حين انفجرت القنبلة في جيبه وسقط. أعدناه إلى الكابري، وتابعنا سيرنا إلى البروة، ثم عاد والتحق بنا في حامية شعب، بعد أن شفي وصار أعرج».

كان ذلك في ٢٨ آذار ١٩٤٨.

الكابري مشتعلة منذ شهرين. ففي أوائل شباط، هاجمت مجموعة من الإسرائيليّين القرية، وحاولت نسف منزل فارس سرحان، أحد زعماء الهيئة العربية العليا. الهجوم فشل، والمجموعة التي وصلت إلى منزل سرحان، كادت تباد عن آخرها، لو لم تفرّ منسحبة تحت وابل من الرصاص.

في ذلك اليوم، شاهد قائد ميليشيا الكابري، إبراهيم يعقوب، سيارة يهوديّة مصفحة، على رأس قافلة من السيارات والشاحنات، تترك جدّين، متجهة صوب الطريق الرئيسي الذي يصل صفد بنهاريا. فهرع إلى علّوش قائد جيش الإنقاذ في المنطقة، طالبًا منه المساعدة، لكن علّوش رفض، لأنَّه لا توجد أوامر.

جمع إبراهيم المقاتلين، وقسمهم إلى قسمين، مجموعة أولى في منطقة الريّس، على بعد كيلومترين إلى جنوبي غربي الكابري، ومجموعة في المقابر.

قامت المجموعة الأولى بقطع الطريق بالصخور والحجارة، بينما كمنت المجموعة الثانية بقيادة صالح الجشيّ في المقابر.

توقفت القافلة الإسرائيليّة أمام الطريق المقطوع، لكنَّها لم تتراجع. انسحبت السيارة المصفّحة، وتقدمت الجرافة، تتبعها ثلاث سيارات مصفَّحة وشاحنتان وباص.

ثم اشتعلت.

بدأت المعركة ظهرًا، بعد أن نجحت الجرافة في فتح الطريق، رمى صالح قنبلة يدويّة، لكنَّها لم تنفجر، رمى قنبلة ثانية أحدثت دويًا هائلاً وغبارًا، لكن القافلة تابعت تقدمها. وفجأة استدارت إحدى السيارات المصفحة واشتعلت. كيف اشتعلت؟ لا أحد يدري. هل أصابتها قنبلة ثالثة، أم اصطدمت بالجرف الصخري على المفترق، فاشتعلت؟

صالح لا يعرف.

لكنَّه يعرف أنَّه بعد اشتعال السيّارة الإسرائيليَّة، جمدت القافلة في مكانها، وبدأ إطلاق النار. وكانت ملحمة، واستمرّ إطلاق النار حتى الفجر.

يجلس صالح وسط المعزّين في بيته ويروي:

«بدأوا ينزلون من السيارات المصفَّحة العالقة في الكمين، ويحاولون الانتشار بين أشجار الزيتون، ونحن نطلق النار من بنادقنا. كان معنا رشاش ستن واحد، وبنادق إنكليزية وقنابل يدويه، ولم ينج أحد منهم. لم يكن باستطاعتهم القتال، ولم يرفعوا علمًا أبيض. كنا نقوّص ونتلقّى رصاصًا طائشًا يأتي من نوافذ الباص، أو من محيط الكمين. ولم يتوقّف ضرب النار حتى قتلوا عن بكرة أبيهم.

وفي الصباح، جاء الإنكليز، أنا بقيت كل الليل في المقبرة، ومعي مجموعة من شباب البروة وشعب الذين فزعوا لنجدتنا، أما الباقون، فقد استولوا على أسلحة الإسرائيليّين، وذهبوا إلى بيوتهم ليناموا. الإنكليز سحبوا الجثث، والجنرال إسماعيل صفوت، رئيس هيئة أركان جيش الإنقاذ، جاء وتصوّر أمام الآليّات الإسرائيليّة المدمّرة، ثم قام بمصادرة

جميع الأسلحة التي غنمناها، وأهدى إلينا منها ١١ بندقية و ٧ صناديق ذخيرة.

شو هالجيش، وشو هالإنقاذ!»

لم يسأله أحد ماذا فعلوا بعد المعركة؟

ألم يتوقعوا هجومًا معاكسًا؟ وهل استعدّوا له؟

ولكن يا سيد أبو سالم، قل لي، ماذا فعل خليل كلاّس، قائد مجموعة جيش الإنقاذ المؤلفة من ثلاثين رجلاً، والتي تمركزت في محيط منزل فارس سرحان داخل الكابري؟

انسحب، سوف تجاوب.

«متى»؟ أسألك.

«قبل سقوط القرية بثلاثة أيام».

«لماذا»؟

«لأنَّه كان يعرف».

«وأنتم! ألم تكونوا تعرفون».

قال أبو حسام إنَّهم فوجئوا بالهجوم على الكابري.

لكنَّ فوزية، أرملة محمد أحمد حسن، وزوجة علي كامل، كانت تعرف، فغادرت القرية يوم غادرها رجال جيش الإنقاذ.

وفوزيَّة التي مات زوجها في معركة جدّين، لم تتزوَّج إلا بعد عشرين سنة، واكتشف علي كامل، زوجها الثاني، أنَّها كانت بكرًا!

مات زوجها الأول في معركة جدّين دون أن يشارك فيها. كان جمّالاً ينقل البضائع بين القرى. وفي ذلك اليوم من آذار ١٩٤٨، كان عائدًا من كفرياسيف إلى الكابري، حين مر بالكمين الإسرائيلي العالق تحت نيران ميليشيا القرية، فأصيب ومات. سقط الرجل، لكن الجمل تابع رحلته إلى القرية وحيدًا يخبّ بدمه. وصل الجمل إلى أمام بيت صاحبه، حيث خرّ على الأرض.

قالت فوزية إن الجمل كان مصابًا في سنامه وبطنه، وأن أفراد الميليشيا أكلوه احتفالاً بالنصر. «لم يلتفت أحد إلى مأساتي، كنت في

السابعة عشرة من عمري، ولم يمض على زواجي أكثر من شهر، مات زوجي، فذبحوا الجمل وأكلوه، وطلبوا مني أن آكل. لا أخفي عليكم أنّني أكلت، لكنني شعرت بطعم الموت، ومن يومها لم أذق اللحم، لا في الأعياد ولا في المواسم. حين أرى اللحم، أرى جثة محمد أحمد حسن، وأشعر بالغثيان. ولم آكل اللحم إلا مع زوجي الثاني علي كامل، المسكين لم يصدّق عينيه حين اكتشف أنّني بكر. تزوجته بعد عشرين سنة، وكان أرملاً مثلي، وعندما دخل بي وخرج الدم، صار كالمخبول. صار يقبّلني ويضحك ويرقص. وأنا خفت، واللّه خفت، كيف يعني، كأنّني لم أتزوج، وكأن الدم لم يبقّع الشرشف هناك مع الجمّال في الكابري. أراد أن يحكي عن محمد أحمد حسن، لا واللّه، محمد كان من أجدع الرجال، لكنّي عدت بكرًا. رجعت بكارتي حين رأيتهم يأكلون لحم الجمل، ويمسحون أيديهم من الدهن.

علي كامل، اللّه يسهل عليه لم يحمله رأسه، ذهب إلى الطبيب وعاد مطمئناً، أخبره الطبيب أن هذا يعني أنّني لم أمارس الجنس منذ موت زوجي الأول. ومن أين لي؟ يا حسرتي، عشت في الكوخ مع أبي في مخيم شاتيلا، وكان يحصي عليّ أنفاسي وحركاتي. منعني من العمل في معمل الخياطة، وقال إنّه يفضل الموت جوعًا على أن يرى ابنته تعمل. ثم أتى هذا الزوج الأرمل الذي لا أسنان في فمه، وملأ الدنيا كلامًا أنّه فتحني، وأنا لا. محمد حسن هو الذي. زوج كالدبق، يعلق على جسمي ويلحوسني كأنّني حبة شوكولاته. وأم حسن ضحكت عليه. قال لها إنّه يريد ولدًا، شرحت له أنّني لست بكرًا فلم يفهم، ثم شرحت له أن بزرته ضعيفة، رجل تجاوز الستين، وامرأة في الأربعين، ويريد أولادًا!».

فوزية تجلس في العزاء وحيدة، والكابري تنتصب أمام الجميع. أبو حسام يروي بطولاته، والقرية تذوب أمام عيوننا، كأنّها صورة قديمة.

«لكننا تركنا الموتى، هذا هو العار». قال رجل كهل، ثم وقف ومضى.

وأم سعد راضي لم تكن في العزاء كي تروي حكايتها.

ماتت أمينة محمد موسى قبل استشهاد حسام بشهر. لو كانت هناك لأخبرتكم، ولتوقّف سيل الحنين والذكريات الذي يفترسكم.

لو كانت أم سعد راضي هناك لقالت:

«أنا وزوجي تركنا الكابري قبل يوم واحد من سقوطها. مشينا في طريق الكابري ـ ترشيحا وذبحونا، ولم أستطع أن أحفر لزوجي قبرًا. أراه في منامي، ممدّدًا في القبر، يجلس ويحاول أن يتكلّم، فلا يخرج صوته، لا أدري.

كنا في الطريق، عندما هبط الظلام، قرر زوجي قضاء الليل في الحقل، نمنا تحت شجرة زيتون، وعند الفجر، وكان زوجي يستعد لأداء صلاته، مرّ صديقنا رجا وألحَّ علينا بالهرب. قال إنّ اليهود يقتربون، وأكمل طريقه مسرعًا. انتهى زوجي من صلاته، وتابعنا السير إلى ترشيحا، والتقينا بهم. كانوا قادمين من الشمال والجنوب نحو الكابري. أوقفونا وفتشونا، واقتادونا في سيارة مصفحة إلى قريتنا.

أنزلونا في ساحة القرية، وهناك، رأيت الجنود يرقصون ويغنّون ويأكلون. تقدم ضابط يهودي منا، وكان يمضغ خبزًا ملفوفًا بورق أسمر، وبدأ يطرح علينا الأسئلة. صوَّب بندقيته إلى عنق زوجي، وسأله بلغة عربية سليمة.

«أنت من الكابري»؟

«لا»، أجبته، «نحن من قرية الشيخ داود».

«أنا لا أسألك أنتِ، أسأله هو».

«نحن من الشيخ داود»، قال زوجي بصوت مرتجف.

وفي تلك اللحظة، جاء أبو كيس وعرفته. كان علي عبد العزيز يضع على رأسه كيس خيش، له ثلاثة ثقوب. ثقبان في الأعلى للعينين، وثقب في الأسفل للشفتين. هزّ أبو كيس رأسه إلى الأسفل. كان يتنفّس من شفتيه، والكيس يلتصق بأنفه وينتفخ كأنّه يكاد يختنق. عرفته من أنفه، ومن الكيس الذي التصق بوجهه.

أحنى ابن الكلب رأسه، فعرفته.

«أنتم من الكابري»، قال الضابط، بعد أن أكد له رأس الكيس ذلك.

أخذوا زوجي وإبراهيم دباجة وحسين الخبيزة وعثمان أسعد وخليل

التملاوي، وتركوا النساء في ساحة القرية. وقفنا دون أن نتحرّك، وكانوا يرقصون حولنا ويغنّون ويأكلون. ثم جاء الضابط ووقف جنبي وقال إنّه كان يتمنّى أن يجلب لي زوجي لولا أنّه قُتل. وطلب مني أن لا أبكي، وأراني صورة فارس سرحان وسألني إذا كنت أعرفه.

«قولي لفارس إنّنا سنحتل كل فلسطين، ونلحق به إلى لبنان».

بدأت أبكي، لا لم يكن ذلك البكاء بكاءً، البكاء الحقيقي عرفته في اليوم الثاني، حين رأيت جثة زوجي، وحاولت حمله إلى المقبرة، فلم أستطع. ساعتها بكيت، وصارت الدموع تخرج من فمي.

رفع الضابط بندقيته وأمرنا بمغادرة الساحة. نمنا في الحقول، وفي الصباح عدت أنا وأم حسين إلى الكابري، ورأينا الدجاج في الطرقات. لا أعلم ماذا حلّ بالدجاج. كان الدجاج منفوشًا وتائهًا، ويصدر أصواتًا غريبة. حاولت أم حسين كشّ الدجاج. لا أعلم ماذا خطر لنا، وبدأنا نكش الدجاج. ثم خفت. خفت من الدجاج، كان الدجاج متوحشًا ويصدر أصواتًا غريبة. هربت نحو نبع الماء. كنت عطشانة، تركت أم حسين تكش الدجاجات وهربت. وفي طريقي، رأيت أم مصطفى، ركضت صوبي وحضنتني وصارت تبكي، «روحي لمّي زوجك الميت». أمسكتني من يدي، وركضنا نحو الساحة.

وهناك وجدته.

كان ملقى على بطنه، مصابًا بطلق في مؤخّر رأسه، والشمس. الشمس تحرق كل شيء. ماذا أفعل يا اللّه؟ حملته إلى الظلّ، لا! جررته إلى الظلّ، لم أجرؤ على قلبه على ظهره. تركته، أمسكته من قدميه، وسحبته إلى الظلّ والتفتّ حولي. أم مصطفى اختفت، وأم حسين ما تزال هناك مع الدجاجات. ذهبت أبحث عنها، فوجدتها في الشارع تنزف دمًا، والدجاج يتقافز حولها. دفعتها أمامي، ووصلنا إلى حيث زوجي. عندما رأت أم حسين جثة زوجي، هدأت قليلاً، ذهبت لتعود بلوح خشبي، قلبنا الرجل على ظهره وحملناه إلى المقبرة. لم نستطع أن نحفر له قبرًا، أزحنا التراب قليلاً ودفنّاه فوق أمه. وحتى الآن أصلّي وأخاف أن لا أكون قد دفنته بالطريقة الملائمة. لم نغسله، فهو شهيد، ودم الشهيد يغسله، ثم يا حسرتي كيف نغسله في تلك الظروف الصعبة؟

لكن الدجاجات!

لا أدري ماذا جرى للدجاجات؟

عدت إلى بيتي وحيدة، بقيت في الكابري خمسة أيام، لا أجرؤ على الخروج من البيت، كنا نستمع إلى الطلقات المتفرقة. وفي اليوم السادس، حين خرجت من البيت، رأيت الدم في كل مكان، ولم أرَ الدجاج، لا بد أنّهم قوّصوا الدجاجات كلها وأكلوها. لم أرَ دجاجة واحدة. ذهبت إلى منزل أم حسين، أين زوجها؟ زوجها كان مع زوجي، ولا بدّ من دفنه أيضًا. كان باب بيتها مخلوعًا، ولم أجد أحدًا في الداخل. بحثت عنها، والتقيت أبو سليم، كان أبو سليم يبحث عن ابنه، رجل في الخامسة والسبعين يقول إنّه أضاع ابنه، وطلب مني مساعدته. وعاد عقلي إلى رأسي.

فجأة، جلس رأسي في مكانه، كنت في تلك الأيام الخمسة، التي قضيتها في بيتي، بعد دفن زوجي، كأنّي لست أنا. لا أذكر من تلك الأيام شيئًا، بلى، أذكر أنّي كنت أقلي العجين وآكله. كنت كالضائعة، كأنّ روح امرأة أخرى دخلت بدني. خمسة أيام كأنّها يوم واحد، أو ساعة واحدة. سبحان اللّه.

حين التقيت أبو سليم، ومشيت معه في طرقات القرية المهجورة، بحثًا عن ابنه الضائع، عدت إلى نفسي.

أمسكت الشيخ من يده، وأخذته معي إلى ترشيحا، وقلت له إنّه هو الضائع، وليس ابنه. مشى معي ولم يقل شيئًا، أحنى رأسه ومشى كطفل صغير. وعلى مدخل ترشيحا، رأيت أختي. تركته وهرعت إليها، ثم لم أجده بعد ذلك. قال ابنه إنه بحث عنه كثيرًا ولم يجده. واللّه لا أعرف، ربما رجع إلى الكابري، ومات هناك».

أم سعد راضي، ماتت قبل أن يلتمّ شمل أهالي قرى قضاء عكا في منزل أبو حسام، لتهنئته بموت ابنه.

لو كانت هنا، لأخبرت الجميع حكايتها، وأجبرت أبو حسام على التوقّف عن التشبيح علينا، والتفاخر ببطولاته الوهميّة.

زرتها قبل وفاتها بأيام. لم تكن مريضة، كانت كأنّها انتهت، وروحها تنوص. وصفت لها بعض الفيتامينات، مع أنّها لا تفيد. لكنّي قمت

بواجبي، على الطبيب القيام بواجبه حتى النهاية، عليه تقع مهمة حراسة الأرواح. أنا حارس الأرواح يا سيد أبو سالم. لذلك لا أتركك، واجبي هو الدفاع عن روحك مهما كانت الصعوبات.

ومع أم راضي قمت بواجبي، راضي كان هناك. رجل في الستين من عمره، وحوله أولاده وأحفاده، يحوم حول سرير أمه خائفًا من الموت.

كانت أم راضي تتكلَّم بصوت خافت لا يُسمع، وتقول القبر. كأنَّها كانت تراه، ينفض التراب عن عظامه، يرتفع رأسه قليلاً، ثم يجلس بوجهه الشاحب المتشقق، وينظر إليها كأنَّه يعاتبها، والمرأة تقول «القبر، روحوا على القبر».

ماتت أم راضي خائفة. عاشت عمرها كله في الخوف، تذهب إلى الفدائيِّين وترجوهم. تنتظر على مدخل المخيم المقاتلين القادمين من الجنوب اللبناني، أو الذاهبين إليه، وترجوهم فردًا فردًا.

«الله يخليك أمرق على مقبرة الكابري».

والشاب يهز رأسه، ويركض مستعجلاً كالهارب من كلماتها.

«القبر هو الرابع إلى اليمين، قرب شجرة البلوط، سوف تعرفه يا ابني، فقط أحفر قليلاً، أنا لم أستطع أن أحفر، أحفر قليلاً فسوف تجده، تأكد أن رأسه إلى القبلة، وإذا لم يكن، أرجوك أصلح وضعه، ولك أجر عند اللّه».

كلّهم وعدوها، ولم يذهب أحد، من سيقلِّل عقله ويذهب إلى مقبرة الكابري. ولنفترض أنَّه ذهب، فمن سينبش القبر؟

حتى أنت يا أبي، كنت تعدها وتكذب عليها، وتقول لها إنَّك لم تستطع الوصول. حتى أنت لم تجرؤ على قول الحقيقة، فالكابري لم تعد موجودة، والمقبرة محيت، وشجرة البلوط قطعت، وبستان الزيتون اقتلع، وزرعوا في مكانه النخيل والصنوبر.

أبو سالم لم يقل لها إنه لم يبحث عن القبر، ولم يخبرها حكاية مجنونة الكابري، وكيس العظام الذي ألقي في ساحة دير الأسد. استمع إليها كالآخرين، وكالآخرين هزّ رأسه، مستعجلاً ومضى.

قالت أم سعد راضي إنّها لا تريد شيئًا: أخذوا فلسطين؛ فليأخذوها، أنا أريد زيارة القبر للتأكد من أنّني دفنته بشكل صحيح، أنا لا يهمني لا الكابري ولا غير الكابري، بلاد محكومة بالموت والزوال، أخذوها فليأخذوها، ولكن ليعطونا القبر على الأقل.

وأبو سالم يوافق ولا يقول.

ونحن لا نقول.

كلنا خفنا، ولم نجرؤ على زيارتها وإعطائها جوابًا.

صحيح لماذا؟

لماذا لم نكذب على المرأة ونتركها لتموت مرتاحة البال؟

لماذا لم يجرؤ أحد على تخليصها من شبح الرجل الجالس في قبره، الناظر إليها بحفرتي عينيه، محرّكًا رأسه كأنّه يريد أن يقول شيئًا، ولا يقول؟

لماذا لم نكذب عليها؟

حتى الكذب نحن عاجزون عنه. عاجزون عن الحرب، وعاجزون عن الكذب، وعاجزون عن الحقيقة.

أم سعد راضي لم تكن هناك، ولم ترو.

أما أنت يا أبي، فكنت تجلس بينهم هادئًا وصامتًا، كل الناس كانوا يعلمون أنّك صرت تنتقد كل شيء، ولم يعد أحد يقبض كلامك. رجل مُحبط، قالوا. وأنا أيضًا كنت من رأيهم. ففي تلك الأيّام، أصبحت متبرّمًا بكل شيء، ورافضًا كل شيء، وكنا نعتقد أنّك أصبت بالإحباط، لأنّ الطريق إلى هناك انقطعت. فبعد طرد الفدائيين من الأردن عام ١٩٧٠، لم يتبق لنا سوى جبهة الجنوب اللبناني التي احتشدت بالمقاتلين. قالوا إن علينا تسلّق جبل حرمون كي نحمي فلسطين من الزوال. وتسلقناه، وأحرقنا الثلج بمعاركنا وموتنا. وصارت طريقك إلى باب الشمس صعبة، كي لا أقول مستحيلة. فأنا أعلم أنّك وجدت طريقك، وتسلّلت إلى قريتك مرّات عدة، وهذه حكاية أخرى أرويها لك غدًا.

أما اليوم.

أما في ذلك اليوم، فوقفت وشرحت لنا. كان منزل أبو حسام **الجشيّ** محمولاً على الذكريات، وكانت الحكايات تتطاير من أفواه الناس. كل شخص روى وصدّق حكايته التي أراد تذكّرها.

وانصبت اللعنات على كلاّس وعلّوش، وكيف انسحب جيش الإنقاذ، وكيف باعونا، وكيف.

وجاء صوتك المنخفض من زاوية الدار، مخترقًا كل الأصوات. كنت تحمل في يدك قضيبًا رفيعًا يشبه قلمًا طويلاً، ورسمت على البساط الأحمر الغامق الذي يغطي أرض الدار، خطوطًا ودوائر وهميّة، وقلت إن الجليل تدحرج.

«تدحرج الجليل كله بين خطتي ديكل وحيرام، ونحن لم نكن ندري».

بدأت خطة ديكل باحتلال كسوان يوم ٩ تموز ١٩٤٨، ثم جرى احتلال المغر والجديدة وأبو سنان وكفرياسيف والكويكات. وفي ١٣ تموز احتلوا الناصرة، وبعدها معلول، ووصلوا مستعمرة كفار هاموريش ببقية المستعمرات جنوبي الناصرة. وفي ١٥ تموز تحركت وحدة إسرائيليّة من شفا عمرو واحتلت صفوري، وبدأت عملية تمشيط واسعة قادت إلى احتلال البروة.

«نحن شو عملنا بعد سقوط البروة؟ انحصرنا في شعب، شعب لم تسقط، كل قرى الجليل ومدنه سقطت في الحرب، ما عدا شعب. وبقينا حتى نهاية عمليّة حيرام ليلة ٢٨ تشرين الأول، والتي انتهت خلال ستين ساعة، بسقوط الجليل بأكمله».

«نحن لم». قال الرجل.

وقف يونس كرجل لا أعرفه، قال نصف جملة، وجلس دون أن يكملها. وضع رأسه بين راحتيه، وأغمض عينيه.

كان كرجل، أي كإنسان لا أعرفه، فحين نسمّي من نعرفه رجلاً، فهذا يعني أنّنا لم نعد نعرفه، أو فوجئنا به. لهذا تسمّي المرأة زوجها يا رجل، لأنّها لا تعرفه.

ونهيلة، ماذا كانت تسميك؟

لم تخبرني أسماءك على شفتي زوجتك، لكنّي اعتقد أنّها لم تكن تدعوك يا رجل، رغم أنّها كانت أكثر امرأة في العالم جهلاً بزوجها.

وقف الرجل بهامته المكلّلة بالبياض، وأراد الإجابة عن سؤال المرأة. والمرأة لم تقل إلاّ ما نقوله كل يوم، وسنبقى نقوله، لأنّه الأسهل.

«يعني باعوها»، قالت المرأة.

لكنّك بدل أن تترك كلمات المرأة تنزلق، كما تنزلق الكلمات عادة في مناسبات كهذه، وقفت وقلت، «نحن لم». وسكتّ. وسكت الجميع.

يومها تكلّم يونس باللغة الفصحى، كأنّه شعر بنفسه خطيبًا، أو أراد قول الكلمة الفصل، فقال «نحن لم» بالفصحى، وجلس.

أريد أن أسألك، لماذا سكتّ؟ انتظرت الدمعة المعلّقة في عيني نهى كي تحكي. وقفت مرة ثانية، وبدأت تروي حكايتك في شعب، حيث كانت حربك الأخيرة. وقلت إن كل القرى سقطت ما عدا شعب، «شعب لم تسقط، أخليناها لأنّ الدفاع عنها أصبح مستحيلاً بعد سقوط الجليل، شعب ليست وطنًا، إنّها مجرد قرية».

قلت إنّك بعد سقوط شعب فهمت معنى كلمة وطن. فالوطن ليس البرتقال ولا الزيتون. ولا جامع الجزار في عكّا. الوطن هو أن تسقط في الهاوية، تشعر أنّك جزء من كل، وتموت لأنّه مات. ففي تلك القرى المنحدرة إلى البحر، من شمالي الجليل إلى غربه، لم يتصوّر أحد معنى سقوط كل شيء. كانت القرى تتساقط، وكنا نركض من قرية إلى قرية كأنّنا في البحر. نقفز من زورق إلى زورق، والزوارق تغرق ونحن نغرق.

لم يكن أحد قادرًا على تصوّر معنى السقوط، وسقط الناس، لأنّ كل شيء سقط. قلت وقلت، كنت تغلي وتكاد تنفجر، ولم نفهم قصدك، ولماذا قلت إن فلسطين لم تكن موجودة.

«فلسطين كانت المدن، حيفا ويافا والقدس وعكا. هناك كنا نشعر بوجود شيء اسمه فلسطين، أما القرى فكانت كالقرى. لكن المدن انهارت بسرعة، واكتشفنا أنّنا لا نعرف أين نحن؟ الحقيقة أن الذين احتلوا فلسطين جعلونا نكتشف الوطن حين فقدناه لا، الذنب ليس ذنب الجيوش العربية وجيش الإنقاذ فقط. كلنا مذنبون، لأنّنا لم نكن نعرف. وحين عرفنا، كان كل شيء قد انتهى. عرفنا من النهاية.

اسمعوا: كلهم باعوها، ونحن نريد أن نشتري. حاولنا شراءها، لكنَّنا انهزمنا، وانهزمنا حتى النهاية.

اسمعوا: كلهم كانوا أكثر بؤسًا من خونة، لأنَّهم كانوا جَهَلة لا يعرفون حقيقة ما يجري. هل تصدقونني لو قلت إنَّنا، لا أنا ولا أبو اسعاف كنا نعرف خططهم، أو كنا نفهم منطق حربهم. لم نكن نعرف الفرق بين البالماخ وشتيرن.

لماذا الحرب، حين لا نحارب؟

كنا نعتقد أنَّنا نحارب دفاعًا عن بيوتنا، أما هم فلا. لم يكن لديهم قرى يدافعون عنها، كانوا جيشًا، يتقدم ويتراجع بحرّيّة كما تحارب الجيوش.

نحن لم ندافع، اكتشفنا في شعب أننا لم نستطع الدفاع عن بيوتنا. بيتي في عين الزيتون طار في الهواء، كل بيوت القرية نسفت لحظة دخلوها. وحاربت في شعب، لكنَّها لم تكن قريتي.

حاربنا وحاربنا. لا تصدقوا كل هذا التاريخ الكاذب، علينا أن نذهب إلى هناك كي نحارب، وأنا هناك، وكفى».

هل تذكر، كيف وقف أبو حسام يتمرجل ويقول ردّاً عليك، إنَّه ينرفز عندما يسمع مثل هذا الكلام، فالجيش الذي أسموه جيش الإنقاذ لم يحارب، أما الجيوش العربية فدخلت فلسطين كي تحمي الحدود التي رسموها لها، وتركونا وحدنا.

حاولت أن تشرح لهم، أنَّنا حاربنا، ولم نكن ندري. وحين نحارب ولا ندري، نكون كمن لم يحارب. لكن لا أحد كان يريد الاستماع إليك. وحدها نهى. هل تذكر نهى؟ نهى كانت هناك. جاءت وجلست قربك وبحلقت في الخريطة الوهميّة التي رسمتها على البساط الأحمر القاتم، ثم أخذت القضيب من يدك، وأعادت رسم الجليل، وسألتك عن البروة.

يومها أحببتُ نهى، وبدأت حكاية حب من طرف واحد، لم تتحوّل حبًا إلا بعد ست سنوات، حين جاءت إلى المستشفى تطلب مني معاينة جدّتها المحتضرة.

بعد أن انتهت نهى من رسم خريطتها، التفتت إليك، وقالت لماذا؟

أعتقد أنّني رأيت دمعة عالقة في طرف عينها، وكانت تلك الدمعة بداية الحب. بدأ الحب بنقطة دمع لم تسقط، وانتهى في ساحة الملعب البلدي، وسط مطر الدموع الذي غطى الوجوه والعيون.

لكن نهى، حين أحبّتني بعد ذلك بسنوات، نفت حكاية الدمعة. قالت إنّها لم تبكِ، لكنّها أشفقت عليكم، لأنّكم تعيشون في الذكريات، ولا تجدون غير الماضي متكأً لحياتكم.

سألتكَ، وكان صوتها متلعثمًا، تخترقه مساحات بيضاء، كأن الانفعال بقّع كلامها بالصمت.

«لماذا صدّقتم مهدي»؟ قالت نهى، وهي تنظر إلى أرض الخريطة.

هنا انفجرت القاعة صمتًا.

هل صحيح يا أبي أن البروة سقطت ودمّرت لأنّكم صدقتكم مهدي وجاسم ومجموعة جيش الإنقاذ التي كانت متمركزة في تل الليات؟

أجبني عن سؤالي، لا أريد قصصًا، بل جوابًا واضحًا قاطعًا.

أعرف أنّك لا تعرف الأجوبة. أستطيع أن أراك بعيون تلك الأيام. كنت فتى لا يرى أمامه، هكذا وصفك كل من عرفك، ومع ذلك، أو بسبب ذلك، نجحت أنت والمجموعة القادمة من شعب، في اقتحام البروة واستردادها.

لا، قبل الاقتحام والاسترداد، كانت البروة قد سقطت دون قتال.

كان غبار الشمس يلفح الحقول، والقمح يشعّ بذلك الغبار الأصفر الذي يسبق الحصاد، والقرية خائفة. فبعد سقوط عكا، استسلمت قرى المغر والجديدة وجوليس وكفرياسيف وأبو سنان، وصارت البروة معلقة في الفراغ.

«وهجموا.

لم يكن أحد مستعداً، كانت كمائننا مضحكة، الآن اكتشفنا ونحن نرى ما شاء الله، هذه الأعداد الهائلة من الفدائيين. يومها، كنا أربعين رجلاً، ومعنا الأبونا جبران. كاهن البروة لم يفاوض اليهود من أجل الاستسلام، هذا كذب، فاوضهم من أجل عودتنا، وتلك مسألة أخذت جدلاً كبيرًا».

جدة نهى، التي صار اسمها أم الحجر، تخبرها وتقول يا ليتنا.

«يا ليتنا صدّقنا الأبونا جبران، كنا لا شيء يا بنتي، مجرّد أربعين رجلاً، وفوق في تل الليّات أكثر من مئة جندي من جيش الإنقاذ، وقائدهم مهدي، يأتي كالقرد ويطلب دجاجًا. أسميناه الملازم مهدي الدجاج، وكنا نعطيه. لشو الدجاج، فليأكلوا، صحتين على قلوبهم، المهم أن تبقى القرية، قرية بلا دجاج، أفضل من دجاج بلا قرية. لكن الدجاج لم ينفع يا بنتي، فحين هجم اليهود لم يحارب ملازم الدجاج».

كانوا أربعين رجلاً، أرسلوا نساءهم وأولادهم إلى الحقول المجاورة، وجلسوا في كمائنهم ينتظرون. اختار اليهود الهجوم من الغرب عند الغروب، بحيث كانت الشمس في عيون الفلاحين. تقدمت ثلاث آليات تحت قصف مدفعي كثيف، وتمَّ صدها. تراجع اليهود وكمنوا، وفجرًا تجدد الهجوم.

«هربنا، قال والد نهى، نعم هربنا، فنحن لم نكن نملك وسائل الدفاع، والجيش فوق لم يطلق رصاصة واحدة، قلت لمهدي، ولو، ألا تدافع عن دجاجاتك، فأجاب: لا أوامر. سقطت القرية وتركنا كل شيء وراءنا، حتى الدجاجات لم يفعل جيش الإنقاذ شيئًا لإنقاذها».

قالت نهى إن والدها عاش والحسرة في قلبه، قال إنَّ أمنيته ليس قتل اليهود، بل قتل مهدي الدجاج.

وقتل مهدي حلال، اليس كذلك يا أبي، قتله حلال، ليس لأنَّه لم يقاتل معكم، بل لأنَّه بعد أن قمتم باسترداد القرية، طلب منكم الانسحاب والالتحاق بنسائكم وأولادكم، لأنَّ الجيش سيحميها وصدقتموه.

لماذا صدقتم مهدي؟

قال يونس إنَّه لم يصدّق مهدي، «ولكن ماذا كان بوسعنا أن نفعل».

«اسمعي يا بنتي، احتلوا القرية، فانسحب المقاتلون، والتحقوا بنسائهم في الحقول المجاورة. ناموا وقاموا تحت شجر الزيتون وهم ينتظرون الفرج. ثم ضربهم الجوع، فقرروا استرداد قريتهم. اليهود احتلوا القرية يوم ١٠ حزيران ١٩٤٨، ونحن انتظرنا في الحقول أسبوعين، ثم بدأنا بالتجمُّع، من البروة وشعب والبعنة ودير الأسد، وقررنا تحرير القرية. القمح والذرة في الأرض، والناس لا يجدون رغيفًا يابسًا يأكلونه.

تجمع المقاتلون في تل الليّات، وهناك وقف فيهم الضابط العراقي جاسم خطيبًا، وقال إنّ جيش الإنقاذ لا يملك أوامر بمساعدتهم، لكنّه معهم، ويدعو لهم بالتوفيق.

وبدأنا الهجوم، هاجمنا القرية من ثلاثة محاور، جبل الطويل في الشمال، وشعب في الجنوب الشرقي، وتل الليّات شرقًا، وانتصرنا.

انتصرنا لأنّهم فوجئوا، فلم يحاربوا. وكما فعلنا نحن فعلوا، بدل أن يقاوموا هربوا إلى ابو لبن فدخلنا القرية. طبعًا أطلقوا النار قبل هربهم، لكن يبدو أن أعدادهم كانت قليلة جدًا، فقرّروا الانسحاب.

وفي البروة، وجدنا كل شيء في مكانه، وكان الأبونا جبران في استقبالنا.

قال، لا، كان يجب أن توافقوني، وتعطوني وقتًا كي أنهي مفاوضاتي معهم حول عودتنا، ولكن هكذا أفضل، اللّه نصرنا.

اقترح الكاهن أن نحصد القمح قبل عودتهم، ووافقناه. وبدأنا في تفقّد القرية والمنازل، ثم سمعنا الزغاريد في منزل احمد اسماعيل سعد، ذهبنا إلى هناك، لنجد ثياب الناس محشوة في أكياس موضوعة وسط الدار. وبدأ الناس عملية فرز لثيابهم. كانت الثياب مختلطة ببعضها بعضًا بشكل مضحك. واللّه لا أحد يعرف ماذا أخذ وماذا ترك. اختلطت الثياب، ولم يعد الواحد منا يميز ثيابه من ثياب جيرانه. والكاهن يطلب منا ترك الثياب والذهاب إلى الحقول. سنيّة زوجة احمد إسماعيل سعد تزغرد ونحن نضحك. وكان عرس الشراطيط. اكتشفنا أن ثيابنا مجرد شراطيط. لماذا يأخذ اليهود الشراطيط؟ ونحن يعني، لماذا ثيابنا شراطيط؟ واحتفلنا، كيف أقول يا بنتي، كانت الثياب تطير، والناس يلبسون ويشلحون، لبسنا ثياب بعضنا بعضًا، واختلطنا ببعضنا بعضًا، وأقمنا عرسًا. هذا كان احتفالنا بالنصر، لكن حتى الاحتفال لم نستطع التمتّع به، لأنّنا سمعنا إطلاق نار من ناحية البيادر، فاعتقدنا أن الهجوم المضاد بدأ. تركنا شراطيطنا، وركضنا إلى بنادقنا كي ننتشر في الكمائن. ورأينا ابن درويش، وكان اسمه محمود، وهو غير الشاعر محمود درويش الذي كان يومها في السادسة من عمره وبالكاد يعرف أن يحكي. ذلك المحمود، هو ابن عمه

كما اعتقد، كان يقف وسط الحقل، يطلق النار في الهواء، ويشير إلى البيدر. ركضنا، لنكتشف الأكياس. كان جزء كبير من محصول القمح موضوعًا في أكياس وسط البيدر. بدأنا نأخذ الأكياس، بينما وقف سليم أسعد بلباس الشرطة الإنكليزية الذي لم يكن يفارقه، بين سبع حاصدات ميكانيكيَّة تركها اليهود وهربوا.

تسلّقنا الحاصدات، وبدأ إطلاق النار، وبدأ الموت.

تركنا الحاصدات، حملنا أكياس القمح وهرولنا إلى القرية. وبدأ انسحاب النساء.

رصاص، ونساء يحملن أكياس القمح على رؤوسهن ويغادرن، والرجال ينتشرون في الكمائن. قرر الرجال البقاء في القرية، بعد أن انضمّ اليهم ١١ مقاتلاً من قرية عقربة، اعلنوا انسحابهم من جيش الإنقاذ».

«كنّا كالسكارى»، قال والد نهى.

قال إنّه سكر برائحة القمح وغبار الشمس.

«هل يُسكر الغبار»؟ سألت يونس.

قال يونس إنّ مهدي انتحر في ترشيحا. «لم تكن غلطته يا ابني، مهدي كان العبد المأمور، في لبنان عرفنا أن مهدي مات في ترشيحا. حين سمع الأمر الأخير بالانسحاب، قال «تفو على العرب»، سحب مسدسه، وأطلق النار على رأسه، ومات.

«في تلك الأيام جاء مهدي وقال خلص روحوا انتم ارتاحوا مع نسوانكم». ومهدي كان على حق، الفزعة انتهت، كلنا فزعنا إلى البروة وحررناها، ثم عدنا إلى قرانا، ولم يبق هناك سوى ٣٥ رجلاً أنهكهم التعب.

أنتم تعتقدون أنّنا حين نتكلّم على الحرب، كنّا جنودًا منظمين، لا أبدًا.

اسمعوا.

بعد تحرير البروة جاءنا ثلاثة ضباط من الأمم المتحدة، رافعين الأعلام البيضاء، وطلبوا التفاوض مع قائد القوّة المسلّحة.

«ولكن لا يوجد قائد»، قال سليم أسعد.

«نحن مجرد فلاحين»، قال نبيل حوراني»، نحن لا قائد لنا، مجرَّد فلاحين نريد حصد محصولنا والعودة إلى بيوتنا، هل تريدون لنا الموت جوعًا»؟

«لكنكم خرقتم قرار الهدنة»، قال الضابط الأسوجي.

«أي هدنة يا باشا، نحن لا علاقة لنا بالحرب الدائرة، أردنا العودة إلى قريتنا وعدنا».

طلب الضابط الأسوجي السماح له بتفتيش القرية، ثم الذهاب إلى تل الليّات من أجل الاجتماع بقائد جيش الإنقاذ هناك، لكنَّنا رفضنا، خفنا أن يكونوا جواسيس، يشتغلون سرًا مع اليهود، وأمرناهم بمغادرة القرية.

نحن لم نكن جيشًا، كنا مجرد ناس عاديين، واللّه أكثر من نصف المقاتلين، لم يكونوا يعرفون شيئًا عن القتال. الحرب بالنسبة إليهم أن نقوّص على الأعداء. نقف في صف ونطلق النار، ولم نكن نعرف شيئًا من فنون الحرب. لذلك حين جاء مهدي وطلب من المقاتلين الانسحاب، وترك القرية في عهدة جيش الإنقاذ، وافقنا بطيبة خاطر. حقق الفلاحون أهدافهم، وأخذوا جزءًا من محصولهم، وسلّموا القرية لجيش نظاميّ.

ولم يبق في البروة، سوى أربعين كهلاً وكهلة، رفضوا مغادرة بيوتهم وشاب اسمه طانيوس الخوري، وهو ابن شقيقة الكاهن، قال إنَّه يفضل البقاء مع خاله، وقتل بعد ذلك، حين عاد اليهود إلى احتلال البروة.

بدأ القصف، ولم يدر الناس ماذا جرى، لأنَّهم رأوا الجنود الاسرائيليين في ساحة القرية، ولم يكن هناك أي أثر لجيش الإنقاذ. بدأ اليهود بنسف البيوت قبل أن يطلبوا من الجميع التجمُّع في ساحة القرية. وحين تجمع الناس، اكتشف الإسرائيليّون أنَّه لم يبق في القرية غير الكهول، والكاهن وقريبه. كان طانيوس مساعدًا لخاله في الكنيسة، ويستعد لدخول سلك الكهنوت، وحين سقطت القرية، قام الكاهن بإلباسه جبّة سوداء كالتي يلبسها، وذهبا معًا إلى ساحة القرية، ووقفا مع الواقفين.

تقدم ضابط إسرائيلي، وأمسك بالشابّ من يده، وجرَّه إلى خارج

التجمُّع، وأمره بخلع جبّته. تردَّد طانيوس قليلاً، ثم خلع الجبّة تحت نظرات الضابط الحديديَّة، ووقف مرتجفًا بثيابه الداخلية. كانت شمس حزيران تلفح الوجوه، والغبار ينتشر فوق القرية، وطانيوس يرتجف برداً، والخوري يحاول أن يقول شيئًا والطلقات تلعلع فوق الرؤوس.

أمر الضابط طانيوس بالمشي أمامه. مشى الفتى، حتى وصلا إلى شجرة الجمّيز في طرف الساحة، وهناك أطلق الضابط رصاصة واحدة من مسدسه، وعاد إلى الحشد الصغير ليأمره بركوب الشاحنة. وبدأ الناس يتدافعون إلى الشاحنة، حتى أبونا جبران، تدافع مع المتدافعين، ولم يذهب لتفقّد ابن اخته الميت. وقبل أن يصل الكاهن إلى الشاحنة، سقط أرضًا، وارتطم رأسه بحجر، وبدأ الدم ينزف منه. كأن الدم جعل الكاهن يستفيق من غيبوبته. وقف، حاول أن يقف، ترنّح، كأنَّه سيسقط، ثم وجد توازنه، وبدلاً من متابعة هرولته نحو الشاحنة، برم ومشى إلى الجمّيزة حيث الفتى، ركع وبدأ يصلي.

وأقلعت الشاحنة، لا أحد يعرف ماذا جرى للخوري جبران. فهو لم يظهر بعد ذلك. لم يلتحق بالناس في الجديدة، ولم يره أحد في كفرياسيف؛ ربما سقط فوق ابن أخته. ربما قتلوه، ربما لا ندري. هناك من قال إنّه ذهب إلى معليا، عند دار الشوفاني الذين يمتّ إليهم بصلة قرابة بعيدة، وإنَّه غيّر اسمه هناك، وخلع ثوبه الكهنوتي.

الشاحنة ذهبت بالشيوخ ورمتهم أمام قرية كفرياسيف، والكاهن اختفى.

حين دخل الإسرائيليُّون البروة، نسفوها بيتًا بيتًا، لم يأخذوا ثيابنا وشراطيطنا، كانوا كالمجانين، ينسفون البيوت ويقومون بجرفها، ويدعسون القمح، ويقطعون أشجار الزيتون بالديناميت، لا أعرف لماذا يكرهون الزيتون.

صحيح، لماذا يكرهون الزيتون؟

أنت أخبرتني عن عين حوض، وعن الفلاحين الذين طردوا من قريتهم التي صار اسمها عين هود، فتاهوا في تلال جبل الكرمل، وبنوا قرية جديدة، أعطوها اسم قريتهم القديمة.

أخبرتني عنهم، لأنَّك كنت تشرح نظريتك عن الشعب السرّيّ الذي بقي هناك.

«لم أكن وحدي» قلت، «كنا شعبًا كاملاً يعيش في قرى سرّيّة».

أخبرتني كيف حوّل الإسرائيليُّون القرية الأصلية إلى قرية للفنانين، وكيف يعيش الفلاحون في قريتهم الجديدة غير المعترف بها، لا طرقات ولا ماء ولا كهرباء ولا شيء. قلت إنَّ هناك أكثر من خمسين قرية سرّيّة.

وتساءلت، لماذا يكره الإسرائيليُّون الزيتون؟ ورويت كيف غرسوا أشجار السرو وسط حقل الزيتون في عين حوض، وكيف ضمرت أشجار الزيتون وماتت أمام السرو الذي ابتلعها.

كيف يأكلون بلا زيت؟ نحن نعيش من الزيت، نحن شعب الزيت، أما هم فيقطعون الزيتون ويزرعون النخيل. لماذا يحبّون النخيل إلى هذا الحد؟

مسكين طانيوس الصغير، قتلوه أمام أعيننا، وكان منظره يا لطيف! وصل الفتى إلى الساحة منفوخًا بجبّة خاله، كأن الهواء دخل الجبة ونفخها. الخال كان سمينًا وقصيرًا، أمّا طانيوس فكان طويلاً ورفيعًا. لبس طانيوس الجبة وخرج مع الكاهن، وكانت الجبة قصيرة ومنفوخة. كان منفوخًا كشبح. ورأينا أسفل ساقيه المليئتين بالشعر الأسود الكثيف المبروم. خلع الجبة ومشى مرتجفًا، ثم سمعنا الطلقة القاتلة، وصار كل شيء غامضًا. فالعرق كان يغطي عيوننا، وكنا نكاد لا نرى، فالإنسان حين يخاف يتعرّق جسمه بشكل غريب. كان العرق يتساقط على عيوننا، والأبونا جبران يمسح الدم عن جبينه ويركع تحت الشجرة أمام جثة ابن أخيه، يرسم إشارة الصليب فوق الفتى النحيل، ويمد يديه تحت الشجرة، كأنَّه صار شجرة، أو كأنَّه يصلب نفسه على الهواء، والقرية تتهاوى.

يا يونس، كيف، لماذا صدّقتم مهدي، هل كان يجب تصديقه؟

كان يجب أن لا نصدقه، سوف تقول، ولكنَّنا صدقناه، «صدقناه لأنَّنا لم نكن نستطيع يومها سوى تصديقه. وحده الكاهن اقترح المصالحة مع اليهود، ولكن من يضمن لنا أن لا يحصل معنا، كما حصل في الكابري؟ الكاهن قال إنَّه يضمن، لكنَّه لم يستطع إنقاذ حياة ابن شقيقته».

ونهى، التي روت لي حكاية البروة، لم تكن تقبل. نهى مختلفة عن شمس

كثيرًا. كانت تسمح لي بقبلة صغيرة على طرف شفتيها، وكنت أسرق طعم الشفتين من أطرافهما، واستمع إلى قصّة البروة التي لا تنتهي.

مرة تقول إنّها رأت في منامها الشراطيط.

ومرة تقول إنّ الخوري جبران، ألبس الجبة لأحمد ياسين الكيال الذي لم ينسحب مع المنسحبين لأنّه أراد إن يسرق إحدى الحاصدات الميكانيكيّة التي تركها اليهود على البيادر، وإنّ الضابط عرف أحمد، فأمره بخلع ثوبه الكهنوتي وقتله. وإنّ الكاهن لم يذهب إلى الجثة تحت الجميزة، لكن جندياً إسرائيلياً دفشه، فسقط أرضًا وانفدغ رأسه، فجرّوه وقتلوه فوق أحمد. وإن جدتها، التي رأت المشهد، تقسم أن الخوري جبران، لم يكن له ابن شقيقة يدعى طانيوس، بل ان الفتى المتنكر بزي الكاهن، كان ابن الكيال.

«البروة، اختفت»، قالت نهى. «لم أر سوى ظلال البيوت المرسومة في عيني جدتي اللتين لا تغمضان». والجدة هي سبب البلاء. «حولّت أبي حجرًا، حوّلته من رجل إلى حجر وقتلته، قتلت في داخله كل شيء، مثل كل الأمهات، يقتلن أبناءهن وهن يدّعين الحب. أنا عشت معه، كان مرمياً في بيتنا مثل حجر».

قالت نهى إن جدّتها مشت ومشت حتى تورّمت قدماها. فبعد أن رمتها الشاحنة أمام قرية الجدَيْدة، رفضت دخول القرية، وبدأت رحلة البحث عن أولادها. نزلت من الشاحنة ومشت. وصلت إلى الدامون، ومنها إلى سخنين، ومن سخنين إلى الرامة، ومن الرامة إلى يعثر. في يعثر وجدت ابنها وعائلته، ومضوا إلى لبنان، حيث التقت أولادها الأربعة الآخرين.

مشت الجدة وحيدة، دخلت القرى، ونامت في العراء. دخلت القرى غريبة، وخرجت منها غريبة، ولم تأكل إلا خبزًا ناشفًا مغمّسًا بالماء. أكلت كي تمشي. ومشت كي تبحث، وبحثت ولم تجد.

قالت نهى إنّها تخاف من الألم المرسوم على وجه جدتها. امرأة مرسومة بالأوجاع والحكايات. «لم تكن تحبّنا، كانت تحب أبي وحده، كأنّها لم تصدّق أنّه لم يمت، فكانت كل يوم، واللّه كل يوم، تلمسه وتدسدسه كي تتأكّد من أنّه حي يرزق. وكانت لا تريده أن يشتغل، عندما استقروا في المخيم قرب بيروت، ووجد الرجل عملاً في معمل الشوكولاته،

رفضت. أنت تبقى في البيت ونحن نشتغل، أنت عمود البيت، والبيت يسقط من دونك، ومنعته من العمل. وكانت أمي لا تفهم على حماتها، امرأة تمنع ابنها من العمل، ولا تريده أن يغادر بيت الزنكو، كي لا يصيبه أي مكروه! ونحن نموت من الذل والجوع. يجلس إلى جانب أمه، يستمعان إلى الراديو، يحلِّلان الأخبار، ويتوشوشان. هي ترسم الخطط، وهو يوافقها. ثم قررا العودة إلى البروة، وعدنا.

الحكاية كما روتها لي نهى، مشوّشة مثل ذاكرة جدتها. نهى كانت طفلة، والجدّة كانت كهلة. لا الطفلة تذكر، ولا الكهلة قادرة على الكلام. الجدّة ترفع يدها إلى الأعلى كأنّها تستنجد بقوًى غامضة، ونهى لا ترى سوى الغبار.

«كنت في الثانية من عمري»، قالت، «لذلك لا أتذكّر شيئًا. أذكر صورًا غامضة، لعجوز صامتة في البيت، وأبي الذي كان ينظر إليها بكراهية. وصار أبي كالحجر، يدخل البيت صامتًا، ويخرج منه صامتًا، فأسميناه أنا واخوتي الحجر، وكان كالحجر. نطق أبي بعد موت ابنه في غور الصافي في الأردن، خلال معركة الكرامة عام ١٩٦٨، لكن كلامه بقي مغلَّفًا بالصمت. يحكي كمن لا يحكي، ولا يرفع صوته كأنّه خائف من أمرٍ ما. حاول أبي أن يشتغل كثيرًا، اشتغل في معمل الكازوز، ثم أصبح سائق سيارة عمومية، فاعتقلوه لأنّه لا يحمل إجازة عمل. حاول الحصول على تلك الإجازة المستحيلة دون جدوى. فأنت تعرف، الفلسطيني في لبنان لا يستطيع أن يعمل إلا سرّاً، وأبي أراد أن يشتغل سائقًا، والسائق لا يستطيع أن يعمل في السرّ. كان يحب قيادة السيارات. منذ طفولته وهو يعشق السيارات، ولم يكن متيسّرًا له شراء سيارة، فقرَّر أن يعمل سائقًا، وأضاع حياته ركضًا وراء إجازة عمل لم تأتِ، وعشنا من قلة الموت. ×

أمي اشتغلت خياطة، لم تكن خيّاطة جيدة، ولكنّها كانت تدبّر حالها مع نساء المخيم. تخيط ما تيسَّر وتقبض ما تيسّر، وعشنا. أما الرجل الحجر، فكان يغادر البيت صباحًا ولا يعود إلا مساء. ولم يكن يحكي معنا، حتى إنّه كان يرفض أن يأكل من طعامنا. أمي كانت تحمل كرت الإعاشة، وتذهب في رأس كل شهر كي تجلب الطحين والحليب والسمن من الوكالة.

أمـا هو فلم يكن يتـعـاطى. لا أعلم كـيف دبّر حـاله، لم يكن يطلب المال من أمي، ولم يكن يسرقـهـا، كما كـان يفعل أغلب رجال المخيّم. ينهض فـجرًا، يشرب قـهوته قبل أن نستيقظ، ويمضـي، ولا يعود قبل المسـاء. وأمي ترجوه تذوُّق لقمة من طعامـها، وهو يرفض. يشيح بوجهه عنها وعن طعـامها، يفتح جريدته ويقرأ. لم يكن أبي أمياً، كان نصف أمّيّ يستطيع فك الحرف، لكنَّه تعلّم القراءة من الجرائد. يجلس ويقرأ صـامتًا. نرى شفتيه تتحـركان، ولم نكن نسمع لـهمـا صـوتًا. كان يقرأ بلا صـوت، ويحكي بلا صـوت، ويذهب ويأتي بلا صوت».

«لم أعرف الحكاية إلاّ من جدتي»، قـالت نهى. «كنت أعتقد وأنا أستمع إليها أنَّها تخرّف كجميع العجائز لكنَّها أخبرتني الحقيقة».

«عدنا يا بنتي وما فيش أمل». قـالت إنَّهم هدموا البروة، وإنَّها لم ترضَ بالبقاء في قرية أخرى، فقررت النزوح من جديد إلى لبنان. ابنها تركهم في حقول القرية وذهب إلى كفرياسيف، وعاد ليقول إنَّه دبّر حاله هناك وإن عليهم أن يذهبوا.

«وأنا يا بنتي لم أوافق على العيش في كفرياسيف، أردت البروة، قلت نعود ونسكن مـع من بقي من أهلها، نرجع ونزرع أرضنا، مـاذا سنشتغل في كفرياسيف. قال أبوك إنَّه التقى ابن سعد الذي يعمل في قطاع البناء، وإنَّه وعده بأن يدبّر له شغلاً معه. ضربت رجلي بالأرض وقلت لا، حملتك ومشيت، فلحقت بي أمك ومعها عامر أخوك، وبقي والدك واقفًا. صرخ بنا، كان يريدنا أن نبقى معه، لكنَّنا تركناه وعدنا لنجده هنا في المخيم. أنا يا بنتي اعتقدت أنَّه بقي، قلت ليبق، اللّه لا يردّه، أما أنا فمستحيل، وأمّك لحقتني، وهو كان يصرخ ولم نسمع صوته، كأنَّ صوته لم يخرج من فمه. تركناه ومشينا. أعتقد أنَّه لحق بنا، وحين وصلنا إلى المخيم، دخل إلى الحمام، ثم خرج من البيت وصار كالحجر. كانت أقدامنا مكسّرة، ولا نريد سوى النوم، أما هو فخرج. أنا كنت على حق، يعني كيف نعود إلى البروة، فلا نجد البروة. مـاذا نفعل؟ نذهب إلى قرية ثانية ونصبح لاجئين في بلادنا، لا يا بنتي».

قالت نهى إنها جمعت حكاية عودتهم من نتف الحكايات. ترى المشهد

أمامها كأنَّها تتذكَّره. فالعودة، كما قالت لها أمها، صعبة، لكن الناس كانوا يعودون. فجأة يختفي جميع أفراد إحدى العائلات، فنعلم أنَّهم عادوا. وأبوك صار كالمجنون يذهب ويتسقَّط الأخبار ويوشوش أمه. وفي صباح أحد أيام نيسان عام ١٩٥١، قال لنا يلّله، سوف نعود. لم نأخذ معنا شيئًا، عدنا كما خرجنا، لا شيء سوى ثيابنا، ومطرتي ماء، وربطة خبز، وكيلوين بطاطا مسلوقة، وعشر بيضات. ركبنا سيّارة أجرة إلى صور، ومنها أخذنا سيارة ثانية إلى رميش. ومن رميش بدأت مسيرتنا إلى البروة. كانت العودة ميسَّرة وبسيطة، تحاشينا القرى، ومشينا في الوعر، وكان الحجر يمشي كأنَّه يمشي على كفّه، يمد يده ويقرأ في كفه، ويقول إنَّ كل شيء مرسوم على راحة يده. ونحن نمشي خلفه صامتين، جدتك تحملك، وأنا أحمل عامر، والحجر أمامنا. وأخيرًا وصلنا. مشينا الليل بطوله، ووصلنا عند الفجر. وعلى مشارف القرية أمرنا بانتظاره تحت شجرة زيتون.

هنا، بدأ الحجر يمشي بطريقة مختلفة، انحنى كأنَّه يستعدّ للقتال، وصار يقفز، قبل أن يغيب عن أنظارنا.

جدتك صارت كالغائبة عن الوعي. أرادت اللحاق به، لكنَّه نهرها بيده، ثم وضع إصبعه على شفتيه طالبًا منا السكوت. واختفى.

ونحن، كيف يعني؟ ماذا نفعل؟ كيف أنتظر ومعي هذه العجوز شبه المشلولة. فجأة أصيبت جدتك بما يشبه الشلل، كل الطريق كانت كالحصان، ولكن عند مشارف القرية انحلّت ركبتاها، وجلست تتصبّب عرقًا. كانت تحملك بين ذراعيها، وقطرات عرقها تتساقط عليك. ثم بدأتِ تبكين، أخذتك منها وأعطيتك ثديي. لا، لم تكوني ترضعين، كنت في الثانية من عمرك، وكنت قد فطمتك منذ أكثر من سنة، لكن لا أعرف لماذا، أخذتك من ذراعيها، ونشفتك من ماء عرق المرأة العجوز، وأعطيتك ثديي، فسكتِّ ودخلتِ في نوم عميق.

وعاد الحجر.

كانت الشمس قد بدأت تميل إلى المغيب، وكانت جدّتك تجلس وحيدة تحت زيتونة منعزلة. رأت ابنها، فحاولت النهوض كي تأتي إلى شجرتنا،

فلم تستطع، فصارت تدبدب. ساعدناها على الجلوس، وكانت عيناها معلّقتين في شفتي ابنها.

جلسنا حوله، شرب ماء وأكل بيضة مسلوقة دون خبز، وقال انتظروني. دخل غابة الزيتون واختفى.

عاد في صباح اليوم التالي وقال إنّه ذاهب إلى كفرياسيف.

وفهمنا كل شيء.

أحنت العجوز رأسها وبدأت تتنهنه بالبكاء. وأنا حاولت أن أسأله. سألته عن بيت أبي، قلت لا بأس، إذا كان بيتنا مهدّمًا نذهب ونسكن في بيت أبي. اسمعي يا امرأة، قال، أنا ذاهب، إلى كفرياسيف. وفهمت. قلت له إنّهم هدموا كل البيوت أليس كذلك؟ فقال نعم.

حين سمعت كلمة نعم سقطت أرضًا. لم أعد أرى شيئًا، صار كل شيء أسود، والحجر يحاول إيقاظي.

وأفهمني كل شيء.

«البروة ماتت»، قال. «أنتم ابقوا هنا، وأنا سأذهب».

لم ينتظر هبوط الظلام، قال إنه سيذهب، وذهب. يبدو أن رأسه كان يؤلمه، لأنّه كان يضع يديه على صدغيه ويشدّ، وهو يأمرنا بأن لا نتحرك من مكاننا.

انتظرناه ثلاثة أيام بلياليها. كان برد نيسان، ولم نكن نحمل سوى حرامين صوفيين، كنا ننام أربعتنا تحته، وكانت العجوز ترتجف، وتحكي في نومها. لا، لم نجع. كنت أحمل خبزًا، وكانت جدتك تقطف الزعتر والبقول من الأرض، وكنا نأكل.

وفي الليلة الثالثة اختفت العجوز.

استيقظت من النوم، فلم أجدها معنا تحت الحرامين، بحثت عنها، لكنّها كانت قد اختفت.

وعندما عاد الحجر، قلت له إن أمّه اختفت. جاء الرجل ليبلغنا أنّه دبر كل شيء، وأنّه يجب أن نمضي ليلاً إلى كفرياسيف، فالبروة دمِّرت، وبنوا فوقها مستوطنة أخيهود، وكفرياسيف هي الحل.

سأل عن أمه، فقلت له إنَّني بحثت عنها في الحقل، حيث تقطف الزعتر، فلم أجدها.

«إنَّها هناك»، قال، «أنا أعرفها، سأذهب وأجلبها، أنت لا تتحركي من مكانك».

كنت أريد أن أقول له أن لا يذهب، لكنِّي لم أجرؤ. هل يمكن أن نقول لإنسان أن يترك أمه! رجوته، فقط رجوته أن ينتظر الليل، لكنَّه لم يردّ. ذهب ولم يعد إلا مع بداية الغروب. قال إنَّه رآها، وإنَّها رفضت أن تعود معه، كانت تجلس وحدها فوق الحطام.

قرية محطّمة، وامرأة تجلس فوق دمار بيتها، ورجل يحاول إقناعها بالذهاب معه، وهي لا ترد. يقول لها وهي صامتة، يطلب منها وهي لا مبالية.

قال إنَّه أخبرها عن كفرياسيف، وإنَّه دبّر بيتًا، وإن الأمور ستسوّى، لكنَّها رفضت.

نام الليل معنا، ثم نهض فجرًا، وأتى بها. وكانت كالسجينة. قالت لا. جلبها كأنَّها مغلولة اليدين، وقال نمضي الآن إلى كفرياسيف. بدأت أستعد؛ طويت الحرامين، وتفقّدت شجرة الزيتون الضخمة، التي كنا ننام بين جذوعها، حين سمعت العجوز تقول لا، وتحملك وتمشي في اتجاه لبنان».

قالت نهى إن جدّتها أخبرتهم عن ثلاثة شبان اقتربوا منها، وكيف رشقوها بالحجارة. قالت لهم أنا فلانة بنت فلانة، وهذا بيتي، فرشقوها بالحجارة.

«قلت لهم إنَّني سأبقى».

«قلت هذا بيتي، لماذا دمرتم بيتي»؟

«قلت لهم إنَّهم حمقى لأنَّهم قطعوا الكثير من شجر الزيتون».

«قلت لهم هذا زيتون روماني، هل يجرؤ أحد على قطع زيتون المسيح، هذا زيتون الأبونا جبران».

«قلت وقلت وقلت».

قالت إن لا مانع لديها، «أخذتم الأرض خذوها، أخذتم الحقول والزيتون وكل شيء، لكنّي أريد أن أسكن هنا، أنصب خيمة وأسكن، هنا أفضل من المخيّم، الهواء هنا نقيّ، خذوا كل شيء، واتركوا لي الهواء».

ابتعد الشبان الثلاثة عنها، وبدأوا يرشقونها بالحجارة.

«خافوا»، قالت.

وبدأت الحجارة تنهال عليها، فتكومت حول نفسها، وصارت كتلة من الجروح.

قالت إنّهم تكلّموا معها باللُّغة العربية، كانوا يتكلّمون مثل المختار اليمني الذي التقت به عام ١٩٤٧، عندما دخلت خطأً كوبانية اليهود قرب مدينة طبريا.

«اقتربوا مني في البداية، وكانوا لطفاء، ولم يكن لديهم أية نوايا عدوانية. وعندما قلت لهم إنّني فلانة ابنة فلانة، تراجعوا إلى الخلف. ومع كل كلمة قلتها تراجعوا خطوة، ثم فجأة انحنوا دفعة واحدة، انحنوا كأنّهم تلقّوا اشارة بذلك، وبدأت الحجارة تنهال».

جلست العجوز تحت شجرة الزيتون، وذهبت أمي إلى حيث وضعت أشياءها، لتعود بخرقة ومطرة ماء، تنظف بها جروح المرأة العجوز. بينما الحجر يروي لهم عن كفرياسيف، والبيت الذي دبّره ابن سعد، والعمل في ورشة البناء، قال وصلنا الآن، ولم نعد نستطيع الرجوع إلى لبنان، قال نعيش في كفرياسيف ثم نرى، قال إن العودة إلى لبنان أخطر من الذهاب إلى كفرياسيف. قال وقال وقال. وكانت المرأة تجلس على الأرض وتنظر إلى البعيد، يومها لم تخبرهم ماذا جرى لها. لم تقل إنها حاولت أن تحكي مع اليمنيين، لم تقل إنّها تحدثت عن خيمة تنصبها فوق خرائب البروة. كانت كشجرة مكسورة الأغصان. نهضت فجأة، وحملت نهى، التي كانت في الثانية من عمرها، ومشت في اتّجاه لبنان.

قالت الأم إنّها لحقت بحماتها، «امسكت بيد شقيقك، وبدأنا نركض خلفها، والحجر واقف كالحجر، ثم وجدنا أنفسنا في المخيم».

ما رأيك يا سيدي بحكاية نهى؟

طبعًا، نهى لم تصف جدتها بأنّها كانت تشبه شجرة مكسورة

الأغصان، هذه أضفتها أنا الآن كي أحاول أن أصف لك شكل العجوز ووضعها النفسي وجراحها النازفة. نهى لم تكن مشغولة بهذه الحكاية، روتها لي عرضًا، وهي تشرح موقفها. فهي لا تؤمن بامكانية عودتنا إلى فلسطين، «وإذا عدنا فلن نجد فلسطين، بل سنجد بلدًا آخر. لماذا نقاتل ونموت؟ نقاتل من أجل شيء فنجد أنفسنا في شيء آخر؟ الأفضل أن نتزوَّج ونهاجر».

بكت نهى كثيرًا حين ماتت جدتها، ثم روت لي كيف نطق والدها بعد استشهاد ابنه في معركة الكرامة. قالت نهى إنَّه لم يكن يحكي معهم، لكنَّه لم يتوقف عن إنجاب الأطفال.

«ألا تعتقد معي أن الرجل كان غريب الأطوار، لا يحكي مع زوجته، ومع ذلك ينام معها كل ليلة». حاولت أن أسأل نهى عن حكاية جدتها، فقالت إنَّها لا تعرف ولا يهمها أن تعرف أكثر. كانت تحب المسلسلات المصرية، وتقول إنَّها يجب أن تخرج من البالوعة. كانت تسمّي المخيم بالوعة. أما والدها، الذي التقيته عددًا لا يحصى من المرات في بيتهم، فكان لطيفًا جدًّا معي، رجل غريب، عيناه معلقّتان في وجهه، يطقطق سبحته، ويتحدَّث عن كل شيء. يعرف في الزراعة والطب والسياسة وتاريخ فلسطين. حدثني كثيرًا عن أبي، وقال إنَّها كانت الفجيعة الأولى في المخيّم.

أنا في الحقيقة، كنت أريد الزواج من نهى، ثم لا أعرف ماذا جرى. بدأت أشعر معها بالاختناق، لم نعد نجد موضوعًا للحديث، تخبرني عن مسلسلاتها وأسماء أبطالها، وأنا أشعر بسأم شديد، حتى الرغبة في تلك القبلة الجانبيّة التي تمس طرف الشفة السفلى، بدأت تتلاشى.

لم أخبرك قصة نهى وجدّتها قبل الآن، لأنِّي كنت أعتقد أن هذه القصة لا تهمك. فأنت لم تكن تتحدَّث عن الماضي إلا عرضًا، الماضي كان يمرّ في كلامك كأمثلة، وليس كحقائق معيشة. ثم تحوَّلتَ إلى الرمز الوحيد في حكايات أهل المخيم، عن الذين استمروا في التسلل إلى هناك. أنت تعرف أنَّك لم تكن الرجل الوحيد الذي كان يذهب ويعود. الآلاف ذهبوا، وربما بعضهم ما يزال يذهب حتى الآن، فأنا أعرف ثلاث حالات على الأقل عن رجال متزوِّجين، قصصهم تشبه قصتك. يذهبون ويتركون نساءهم حبالى،

ويعودون إلى المخيم. والقصة التي سحرتني هي قصة حمد، لن أخبرك إيَّاها الآن، فأنا تعبت، وامرأة البروة عصرت قلبي.

عندما سمعت الحكاية أول مرة من نهى، لم أتأثر كنت غارقًا في حكاية الحجر، ولم أنتبه إلى الجدة. والآن، اكتشفت يا سيدي، أن تلك المرأة التي كانت تدعى خديجة، كانت مدهشة. يا ليتني تعرفت إليها أكثر، أنا لم أرها إلا مرة واحدة، حين كانت مريضة. واللّه، أنا أفضّل جدة نهى على نهى. هل هذا معقول؟ امرأة لم أرها إلا لدقائق، لكنّي أعتقد أنّها أكثر جمالاً من حفيدتها التي حاولت إغرائي بالزواج.

نسيت أن أقول لك، إن نهى كانت بيضاء، أكثر بياضًا من كل النساء اللواتي رأيتهن في حياتي. كان بياضها فاتحًا يكاد يتشقّق من داخله. وكانت تعتقد أنّها جميلة لمجرّد كونها بيضاء. كانت قصيرة قليلاً، وممتلئة، وبياضها يغطّي كل شيء.

كنت مقتنعًا بجمالها، لا أنفي، لكنّي لم أكتشف الجمال إلا حين التقيت شمس. هناك فهمت سرّ القمح. فالأسمر المائل إلى الاصفرار هو اللون، لأنَّه يتموّج إلى ما لا نهاية. أما بياض نهى، فكان سداً في روحي. لا، أنا الآن أطهوج وأقول أيّ شيء. أرجوك لا تصدّق حكاية البياض هذه، فأنا لست ضد البياض، لكنّي توقفت فجأة عن حبّها. كل المشاعر تبخّرت وصرت لا أراها حين أراها. ولم أشعر بالشوق إليها إلا في الملعب البلدي، حين وقفت مع مئات الفدائيين في انتظار السفن اليونانية التي حملتهم من بيروت إلى منافيهم الجديدة. هناك بحثت عنها ولم أجدها. هل تعرف معنى هذا الشعور، أن تسافر ولا تجد أحدًا في وداعك؟ بحثت عنها ولم أسافر. عدت إلى بيتي، لا لأنّها لم تأتِ، ولا لأنّني أريدها، عدت لأنّي شعرت باللامعنى. كل شيء فقد معناه، فلم أستطع الرحيل مع الراحلين. فالسفر يحتاج إلى معنويّات، وأنا لحظتها، بعد الحصار والخسارة، لم أعد قادرًا على المعنويات، فعدت إلى منزلي، ولم ألتقِ نهى بعد ذلك، ونسيتها. نسيت شكل تلك الفتاة التي أحببتها. والآن، حين أحاول استعادتها، أراها كشكل هلاميّ، كامرأة لا شكل لها، أرى وجهها الأبيض، وأرى شفتيها تقتربان من حافة البكاء، وأرى جدّتها خديجة.

اعتقد يا سيدي أنّني أحببت نهى، على صورة جدّتها.

تخيّل معي امرأة البروة.

امرأة تمشي وحدها بين ركام قريتها، تبحث بين الحجارة عن بيتها. امرأة وحيدة تغطي رأسها بمنديل أسود، وتتكوّم حول نفسها، في ذلك الخلاء الذي يمتد حتى الله، وسط تلال الجليل ومنحدراته، داخل دائرة شمس حمراء، تزحف على الأرض، وتمضي ببطء، حاملة معها ظلال الأشياء كلها.

لم ترَ المرأة سوى الظلال. جلست وحدها، وأتوا، وحكت معهم. ربما لم تقل لهم الكلمات نفسها التي روتها لي حفيدتها. ربما قالت شيئًا آخر، وربما لم يفهموا لغتها.

نهى قالت إنّهم يمنيُّون، واليمني يفهم اللهجة الفلسطينيّة، أو يفهم الكثير من كلماتها. لكنَّ من المرجح أنّهم لم يفهموا شيئًا. حين تكلّمت أصيبوا بالرعب، لأنّهم اعتقدوا أنفسهم أمام جنية خرجت من الشجر، وبدأوا برشقها بالحجارة. كانوا مجرَّد مراهقين، لذلك اكتفوا بالحجارة ولم يقوموا باستدعاء حرس الحدود من الكيبوتس الذي بُني فوق البروة.

ربّما، لا أعرف.

كل الربّمات ممكنة.

ولكن لماذا لم ترضَ بالذهاب إلى كفرياسيف؟

هل لأنها؟

الأرجح أنّها ندمت بعد ذلك، لذلك لم ترو قصتها لأحد، عكس أم حسن، التي لم تتوقف عن أخبار الناس حكاية امرأة وادي أبو جميل.

امرأة البروة سكتت.

وأنا الآن، أخبرك حكايتها كي أبرهن لك أنّك لم تكن البطل الوحيد، ولا الشهيد ـ الحي الوحيد.

اطمئنّ، سوف تموت في سلام، ولكن قبل أن تموت أريد أن أقول لك، إن موتك البطيء هذا خلخل حياتنا. هل كان يجب أن تسقط في هذا الموت كي تنفجر ذاكرتك وذاكرتي وذاكرة كل الناس؟ أنت مصاب بانفجار الدماغ، وأنا مصاب بانفجار الذاكرة.

أنت تموت، وأنا أموت.

لا واللّه، المسألة ليست شمس، ولا الدكتور أمجد، ولا هذه البيروت التي لم تعد تشبه بيروت. المسألة أني بقيت هنا، وغدًا سوف يبدأ عملي في المستشفى. لا تخف، لن أتركك، سأبقى هنا، وأتابع عملي معك كالمعتاد، وأروي لك الأخبار والحكايات.

فكّر فيَّ قليلاً، وسوف تكتشف أنّني لم أعد أحتمل.

صحيح أن الناس لم تعد تبالي. لم يعد أحدٌ يصدّق أحدًا، فالذين اعتادوني كدكتور سيعتادون المرض. ولكن أنا. كيف سأقبل هذه الأنا الجديدة التي تُفرض عليّ؟

غدًا سوف نرى.

ولكن قبل الغد، وقبل المستشفى، أريدك أن تخبرني من هي امرأة شعب؟

أريد الحكاية منك، فلقد سمعتها عشرات المرات من أناس مختلفين، لكنّي لم أقتنع. في مخيم عين الحلوة، تعرفت إلى محمد الخطيب، الذي ادّعى أنّ أمه فاطمة هي امرأة شعب. ثم التقيت رجلاً من آل الفاعور، قال إن أمّه، وتدعى سلمى، هي امرأة شعب. وهناك طبعًا أسطورة تلك المرأة التي تدعى ريم، والتي التصقت بها الحكاية.

نعود إلى البداية.

رجعت إلى عين الزيتون، لتجد القرية مهدمة. كنت في تلك الأثناء مع أبو إسعاف، في مهمة لنقل السلاح إلى الجليل من سوريا. لا أريد أن أستمع الآن إلى حكايات الذلّ التي عشتموها بحثًا عن سلاح، وكيف كان العقيد صفوت يتخرين عليكم، ويقول إنّكم لستم جيشاً نظامياً، وإنّه ليس على استعداد لرمي السلاح القليل الذي يملكه، بين أيدي الفلاحين المعروفين بجبنهم ومكرهم.

هكذا كان يحكي جنرال الهزيمة، كما سيصبح اسمه على ألسنة المقاتلين المنسحبين إلى لبنان، على إيقاع طبول الحرب الكاذبة التي أطلقها زعماء العرب.

عدت أنت وأبو إسعافٌ، دون أن تجلبا شيئًا، تركت أبو إسعاف في شعب، وتابعت طريقك إلى عين الزيتون. واكتشفت أن قريتك سقطت دون أن تطلق رصاصة واحدة دفاعًا عنها، واكتشفت أنّ صديقك وتوأمك حنا كميل موسى مات مصلوبًا على شجرة بلّوط.

وانتهى بكم الأمر في شعب، ولم تغادروها الا بعد سقوط الجليل بأكمله.

أخبرني الآن عن المرأة. أعرف أن حكاية فلسطينكم صعبة، ويمكن أن نجد ألف طريقة لإخبارها. أما شعب، وتلك المرأة، ورجال زبوبا، فأريدها منك.

غادرت عين الزيتون، وذهبت راكضًا إلى شعب، أنت أخبرتني أنَّك ركضت إلى هناك مع أنَّك ذهبت في سيارة. المهم أنَّك حصلت على بيت مستقل في شعب، لأنَّ المختار محمد علي الخطيب، أعطاكم البيت، وقال إنَّه بناه من أجل ابنه علي، ويونس وعلي واحد.

وصارت شعب قريتك الجديدة، وهناك شهدت المعجزة.

لا أريد تاريخ القرية، فأنا لا تهمني الطوشة التي جرت بين آل الفاعور وآل الخطيب، عام ١٩٣٥ وكيف تطورت خلال ثورة الـ ٣٦، حين انتقم آل الخطيب لمقتل شاكر الخطيب، بقتل مختار الحارة الشرقية رشيد الفاعور. وكيف قمتم أنتم، أنت كنت فتى، ولكنَّك جئت مع مقاتلي الثورة، وفرضتم المصالحة التي تمت على البيدر، حيث ذبحوا أكثر من أربعين رأس غنم، وجاء الناس من كل القرى المجاورة، يأكلون ويباركون.

لا أريد الدخول في متاهات العائلات والحامولات، التي لا أفهم فيها، أعرف أنَّك كنت تضرب دائمًا مثل صلحة شعب، حين كنت تقود دورات تدريب المقاتلين. فبدل التنظير عن حرب الشعب، كما كنا نفعل نحن، كنت تخبر الحكايات وتضرب الأمثلة. وبدل الدعوة إلى تجاوز العائلية والعشائريّة، كنت تشرح للمقاتلين كيف نجحتم خلال ثورة الـ ٣٦ في صهر العائلات المختلفة، وتضرب على ذلك مثل شعب.

وكنت تحدِّثهم عن القمر.

قمرك كان غير قمر أمي المكتمل. قمرك لم يكتمل أبدًا، اعتقد أنَّني قرأت أمثولة القمر في كتاب صيني مترجم إلى العربية. لكنَّ الأمثولة تخرج

من فمك أكثر جمالاً من كل الكتب. «فالقمر لا يكتمل إلا يومًا واحدًا في الشهر. أما في باقي الأيام، فهو إما يكبر أو يصغر. هكذا الحياة. الاستقرار هو الاستثناء، والتغير هو القاعدة». وكنت تطلب من الشباب متابعة حركة القمر في ليالي التدريب، كي يحصلوا على ثقافة سياسية عملية، وليس على ثقافة الكتب، التي تدخل العين لتخرج من الأذن.

والآن أخبرني عن شعب.

هل قام أبو إسعاف بالترتيبات اللازمة مع المختار، كي يصبح لك بيت في القرية، وبهذا ضمن قائد حامية شعب بقاءك إلى جانبه.

لقد وجدت نفسك في حامية شعب العسكريّة، بعد أن فشلتم، نعم فشلتم، في تشكيل وحدة عسكرية متحرّكة كما كنتم تحلمون. فالتطورات العسكريّة تسارعت، والجيوش العربية التي دخلت فلسطين عام ١٩٤٨ كانت تنهزم بسرعة قياسيّة أمام الجيش الإسرائيلي الأكثر عددًا والأفضل تسليحًا! واللّه لا أحد يصدق! ستمئة ألف إسرائيلي، حشدوا جيشًا يفوق عدده عدد سبعة جيوش عربية مجتمعة!

بدأتم دورات عسكريّة، شحدتم السلاح، وشاركتم في معارك البروة والكساير والزيب، لكن التساقط المتسارع لقرى الجليل ودساكره، جعل حركتكم مستحيلة، وحوّلكم حاميةً صغيرةً لا تتجاوز المئتي مقاتل، تتمركز في قرية صغيرة تدعى شعب. ثم انتهى مصير عناصر الحامية إلى السجن في سوريا، وتلاشت بطولاتها، وسط سيل النازحين الذي اجتاح الحقول والغابات.

كل حكايات النزوح تتجمّع الآن في عينيك المغمضتين على نقاط الدموع التي أقطرها فيهما، وبدل البطولة أرى الأحزان، وأسمع صوت جدتي يروي عن المرأة التي خاطت الرغيف. أستمع إلى حكاية المرأة في حقول قرية بيت جن، وأرى جدتي كممثلة إيمائية، تقوم بتصغيرعينيها كي تستطيع إدخال الخيط الوهمي في ثقب الإبرة الوهميّة، ثم تمسك رغيفًا وهمياً في يدها، تقسمه إلى قسمين، وتبدأ بخياطته.

«خاطت المرأة الرغيف، والولد يبكي. أعطته الرغيف كاملاً، وطلبت منه السكوت، فمزقه إلى نصفين، وعاد إلى البكاء. عندها قتلت الأمّ ابنها»!

أرى الهجرات في عينيك، وأستمع إلى صوت جدتي الذي يتحوّل همهمة خافتة، مليئة بالأشباح.

«وصلنا إلى بيت جن، ولم ندخل القرية الدرزية، لأنّنا كنّا خائفين».

تحكي عن الخوف والدروز، وأنا أبتلع رغيف الخبز المحشو بالبطاطا المقلية، وأشعر بالبطاطا تلتصق في سقف حلقي، كأنّني سأختنق.

لا، أنا لا أشكو البطاطا، فتلك كانت أكلتي المفضلة. كنت أحب البطاطا المقليّة، وما أزال أحبُّها، إنّها أفضل بما لا يقاس من السليق الذي كانت تطبخه جدتي. كانت تخرج من المخيم لا أعرف إلى أين، وتعود محملة بكل أنواع الحشائش الخضراء، تغسلها بالماء، وتطبخها، ونأكل. المذاق كيف أقول، كان المذاق أخضر، وكان الطبخ يتلبّد في فمي. وجدّتي تقول إنّ هذا هو الأكل الصحي، «نحن فلاحون، وهذا هو أكل الفلاحين»، وأنا أرجوها أن تقلي لي البطاطا. رائحة البطاطا تفتح الشهيّة، أما مع تلك الأعشاب المطبوخة، فلا رائحة ولا شهية، تشعر أنّك تمضغ أكلاً ممضوغًا.

أنت لا تحب البطاطا المقلية، أعرف، تفضلها مشوية ومتبلة بزيت الزيتون. الآن صرت أحب زيت الزيتون. أما في أيام جدتي التي كانت تطبخ كل شيء بالزيت، فكنت أشعر به لزجًا، ولا أحبُّه، ولم أكن أجرؤ على التعبير أمامها. كيف تقول لامرأة رأيك في الأشياء، وهي لا ترى. كانت تعيش هنا كأنّها هناك. هل تصدِّق أنّها كانت ترفض استخدام الكهرباء، لأنّها لم تعرف الكهرباء في قريتها، ولا تريد أن تتعوَّد أشياء غير موجودة هناك، لأنّها سوف تعود! لو تعرف، كيف صار الجليل! لكنّها ماتت، قبل أن تعرف شيئًا.

أنت لن تصدِّق حكاية الرغيف، ولم تصدق حكاية أم حسن مع ناجي الذي التقطته ووضعته في اللكن. فأنت تعتقد، كما أحب أن أعتقد أنا أيضًا، إنّنا لم نقتل أولادنا ونَرْمِهِمْ تحت الشجر. تريد الأشياء واضحة وبسيطة. القاتل محدد، والقتيل كذلك، وعلينا نحن صناعة العدالة. لكن لا يا سيدي، فالأشياء بكل أسف، لم تكن ببساطة هم ونحن، بل كانت شيئًا مختلفًا يصعب تحديده.

أنا لست هنا كي أحدِّد الأشياء، أنا في مهمة، وسأفشل كالعادة،

وكالعادة لن أقتنع بفشلي، وسأدّعي النجاح، أو أضع اللوم على الآخرين. يا عيني على هذه العادة، لو نقتل العادة. لو أستطيع التخلّص من هذا الماضي الذي يخيّم كشبح أزرق في غرفتك. صحيح، لماذا أرى الأشياء زرقاء، وأرى شمس تنظر اليّ بوجه أزرق، كأنّها ستقتلني.

لو أستطيع، لذهبت إلى أهل شمس، وقلت لهم الحقيقة، وليفعلوا ما يشاؤون. أنا بريء من دمها، ومن حبِّها، ومن كل شيء لأنّني أهبل. لو لم أكن مخدوعًا... لتغير كل شيء.

قل لي، من في حكاية شمس ليس مخدوعًا؟

قتلته القحبة، قالت له زوّجتك نفسي وقتلته.

كانت تحبه، وكان يحبها، لكنّه مثلي، كان يشعر أن المرأة تزحط من بين يديه. هل يمكن لرجل أن يتزوّج امرأة تزحط إلى جانبه من السرير؟

لماذا قتلته؟

هل يكفي أن يكون قد كذب عليها، كي يُقتل؟

كلنا نكذب، يعني غير معقول، تخيّل لو كان الموت عقاب الكذب، لما بقي أحد حياً على وجه الكرة الأرضية.

بدأت الآن أشك في كل شيء، لم أعد أصدّق أن المسألة قضية شرف مثلوم. شمس هي المرأة الأولى في الأمة العربيّة التي قتلت رجلاً، لأنّه خانها وخدعها.

ولكن مهلاً...

هل قتلته؟

قالوا إنّها قتلته علنًا وأمام الناس. كل الناس رآوها، ولكن هل يعني هذا شيئًا، وماذا لو كان كل الناس يكذبون؟ ماذا لو صدق الناس ما نقله الناس عن ناس آخرين؟

لا، هذا مستحيل. لو كان هذا معقولاً لتحولت حياتي كلُّها كذبة لا تطاق. لكنّها كذبة على أية حال. شمس كذبت عليّ، وكل الناس يكذبون عليّ الآن، وينقلون إليّ تهديدات بالقتل. وأنا أخاف كذبة. متى تَخَفْ كذبة، فهذا يعني أن حياتك كذبة، أليس كذلك؟

أخاف وأختبئ في المستشفى، فتنهال عليّ الذكريات، ولا أعرف ماذا يجب أن أفعل بها. ما رأيك في مشروع كتابة رواية؟ أعرف أنّك ستقول لي إنّني لا أعرف كتابة الروايات. أوافقك وأضيف أن لا أحد يعرف أن يكتب، لأن أي كلام سوف ينحلّ في الكتابة، ويتحوّل رموزًا وإشارات باردة، وفاقدة لكل حياة. الكتابة يا سيدي هي الالتباس، قل لي من يعرف أن يكتب التباسات الحياة؟ إنّها حالة بين الموت والحياة، لا يجرؤ أحد على دخولها. وأنا أيضًا، لن أجرؤ على دخول هذه الحالة، فقط كي أقول إنّني ككل الأطباء الفاشلين تحوّلت كاتبًا! هل تعرف لماذا كتب تشيخوف؟ لأنّه طبيب فاشل، اعتقد أنّه يستطيع عبر تحوّله مريضًا إيجاد حل لأزمته. أنا لست مثله، أنا طبيب ناجح، وسوف يشهد الجميع، كيف استطعت انتشالك من وادي الموت.

أنا متأكّد من أنّها قتلته، فأنا أعرفها، وأعرف كيف يتلألأ الموت في عينيها، كنت أعتقد أن الحب يحوّل عينيها من رماديّتين إلى خضراوين، ثم يعيدهما إلى الرمادي. لكنّه الموت. الأخضر ـ الرمادي هو علامة الموت. وشمس كانت تحكي عن الموت، لأنّها تعرفه. أما جدّتي فلا.

لم تجرؤ شاهينة على أن تقول إنّ الطفل مات. قالت إنّهم مروا ببيت جن وخافوا. كانت الطائرات تحلّق فوق رؤوسهم، وجاء الليل، وبدأت مسيرتهم إلى لبنان.

قالت جدّتي إنّها وجدت نفسها ضمن مجموعة من حوالى ثلاثين إنسانًا، هائمة في التلال بحثًا عن الحدود اللبنانيّة. لا تعلم جدتي كيف وجدت نفسها وسط نساء وكهول وأطفال من قرية الصفصاف. «مشينا أنا وبناتي وابني مع الناس، ولا أعرف كيف صرنا مع تلك المجموعة المرعوبة. كنا خائفين ولكن ليس مثلهم. كانوا يوشوشون حين يتكلّمون. وحين وصلنا إلى بيت جن رفضوا دخولها، قال كبيرهم سوف يسرقوننا، وأمر بمتابعة المسيرة. قلت له أن لا يخاف، فأسكتني، ومشينا. وحين وصلنا إلى لبنان، كنا قد فقدنا أصواتنا، من كثرة ما أجبرنا الكهل على الكلام بصوت منخفض».

ويبدو أن جدّتي أصيبت في تلك الرحلة ببحة لازمتها إلى الأبد. نسيت أن أخبرك بأن جدّتي كانت مبحوحة، كأن صوتها كان يخرج من بئر عميقة في داخلها، فيبدو عريضًا ومليئًا بالحفر.

«وابتـدأ ذلك الطفل يبكي من الجـوع، طفل في الثـالثـة أو الـرابعـة من عمره، يبكي بصوت مرتفع قائلاً إنَّه جوعان، والناس ينظرون إلى أمه شزرًا، ويطلبون منها إسكاته، والمرأة محتارة في أمرها. حملته وصارت تهدهده لكن بكاءه لم يتوقَّف. وكان الكهل، لا أستطيع أن أنسى ذلك الكهل».

كانت جدتي تخيفني دائمًا بكهل الصفصاف، وتقول حين أرفض أن آكل من سليقها، إنَّها ستطلب من كهل الصفصاف أن يأتي ليلاً ويخنقني، فأخاف وأمضغ طعامي الممضوغ.

قالت إنَّها فهمت ذعرهم حين وصلوا إلى ترشيحا. هناك زال خوفهم وأكلوا وبكوا، وروى الكهل عن الشراشف البيضاء.

«استقبلناهم بالشراشف البيضاء، خرجنا حاملين الشراشف علامة الاستسلام، لكنَّهم بدأوا بإطلاق النار فوق رؤوسنا، ثم أمرونا بالتجمُّع في ساحة القرية. اختاروا ستين رجلاً، ربطوا أيديهم بالحبال، وأوقفوهم صفاً واحدًا. ستون رجلاً من مختلف الأعمار صاروا كحائط طويل يخترقه حبل واحد يمر بين الأيدي المربوطة إلى الخلف. ثم أطلقوا النار. كانت أصوات الرشاشات تصمّ الآذان، الرجال يتساقطون، والناس المتجمّعون في الساحة يفرّون إلى الحقول. وكان موت».

«بعد وصولنا إلى ترشيحا، صار رجلاً آخر»، قالت جدتي. «لكنَّه في الطريق، في تلك الليالي الصامتة كان وحشًا. رجل طويل رفيع، محدودب الظهر، له شاربان كأنَّهما خُطّا بقلم، رأسه أشيب، وشارباه أسودان، ويأمرنا بعصبيَّة، وكنا نلاحظ أعصاب يديه الصغيرتين المليئتين بالعروق، وهو يأمرنا بالسكوت».

قالت جدّتي إنَّها أعطت الأم الرغيف الوحيد الذي كانت تخبئه في عبّها، قالت إنَّها خافت من الكهل لأنَّه كان مصمّمًا على قتل الولد إذا استمرّ في البكاء. وكانت المرأة تحاول إسكات ابنها، تمسك به من يده، ترفعه إلى الأعلى، تحمله، تعيده إلى الأرض، وتتركه يمشي بين قدميها. والولد يبكي. أخذت المرأة الرغيف المدوّر من جدتي وقسمته إلى نصفين، أعطت ابنها نصفه، وردّت النصف الثاني لجدّتي. لكن الولد رفض، كان يريد رغيفًا كاملاً، وعاد إلى البكاء. اقترب الكهل منه، وأمسكه من صدره

وبدأ يهزّه. هرعت جدّتي وأعطت نصف رغيفها إلى الأم، التي أعطته لابنها. لكن الولد كان يريد رغيفًا كاملاً، وليس نصفي رغيف. جمعت المرأة النصفين، واستلّت إبرة وخيطًا من عبّها، أدخلت الخيط في ثقب الإبرة، وبدأت تخيط الرغيف.

قالت جدتي، إنّها رأت الأشياء وكأنّها ملفوفة بالظلال. فالهلال النحيل الذي كان يتسلّل من بين أغصان الشجر، حوّل الناس ظلالاً يرتطم بعضها ببعض. وأنا أستمع إلى الحكاية وأخاف من صوت جدتي المبحوح الذي يبتلع المشهد، ويجعله شبيهًا بحكايات الجن والعفاريت.

خاطت المرأة الرغيف، وأعطته للولد، فسكت. أمسك برغيفه فرحًا، قبل أن يكتشف أنّه ليس رغيفًا. فالمرأة خاطت الرغيف بسرعة في الظلام، ولم تنتبه إلى ضرورة شدّ الخيطان. أمسك الولد رغيفه، فبدأت الخيطان تستطيل، والفجوة تتسع بين نصفيه. ورجع إلى البكاء. رفع الرغيف كي يردّه إلى أمّه وبكى.

هنا، تقدّم الكهل، خطف الرغيف، ووضعه في فمه، وبدأ يلتهمه. ابتلع أكثر من نصف الرغيف مع الخيطان، وتقدم من المرأة.

«اقتليه»، همس صارخًا.

«ارميه في البئر»، قالت امرأة من داخل الحشد المظلّل بالظلام.

«هاتيه، أنا أدبّره»، قال الكهل.

تقدّم من الطفل، وازداد الصراخ. أخذت الأم حرامًا صوفيّاً لفت به ابنها وحملته. وضعت رأسه على كتفها اليمنى وصارت تشدّه إلى كتفها وهي تمشي، وصوت الطفل يختنق تحت الحرام. ومشى الكهل خلفهما، قالت جدتي إنّ الكهل مشى خلف المرأة، وإنّه كان يشدّ رأس الطفل إلى كتف أمه.

«وفي ترشيحا، وضعت الأم ابنها على الأرض، وكشفت الحرام، وصارت تبكي. كان الطفل أزرق أزرق. أما الكهل، فلقد تغيّر عند وصولنا إلى القرية الفلسطينية الأخيرة، وبدأ يبحث عن ابنته، وبدأ يسأل الناس بلهفة عن امرأة سمينة قصيرة، ومعها خمسة أولاد».

قالت جدتي إن أهل ترشيحا جلبوا لهم طعامًا، لكنّ الرجل رفض أن

يأكل. صار رجلاً آخر. اختفت الشرايين من وجهه ويديه، وتهدّل جسمه، وصار يبكي طالبًا الموت لنفسه.

«والطفل»؟ سألتها.

«أيّ طفل»؟

«طفل الرغيف».

«لا أعرف».

قالت لا تعرف مع أنّها تعرف أنّ الولد مات.

أمُّه قتلته، هل تسمع يا أبي، قتلته خوفًا من الكهل الذي كان خائفًا من اليهود. لم تحمل الأم طفلها على صدرها، ولم تسند رأسه إلى كتفها كما أخبرتني جدتي، بل لفّته بالحرام وجلست فوقه حتى مات.

هذا ما روته لي قريبتنا أم فوزي. قالت أم فوزي إنّهم مشوا خمسة أيام بلا صوت، كي لا يسمعهم اليهود، وعندما بكى الولد، قتلته أمه، لأنّ الكهل هددها بقتلها وقتله.

«أم فوزي تخرِّف»، قالت جدتي.

وأنت أيضًا سوف تقول إنّني أُخرِّف، فأنت لا تريد سماع حكاية الولد، ولا حكاية أهل الصالحيّة الذين أعدموا ملفوفين بشراشفهم. لفّ اليهود أكثر من سبعين رجلاً بالشراشف البيضاء التي حملوها علامة استسلامهم، وأطلقوا عليهم النار، فصارت الشراشف تنوفر دمًا.

أنت لا تريد سماع أي شيء غير البطولة. وتعتقد نفسك «أبطل» الأبطال. اسمع إذن، حكاية بطل آخر، هو مزيج منك ومن أبيك، بطل لم يحارب. رجل من قرية اسمها ميعار، وهي قريبة من قريتك الجديدة، وكان اسمه ركان عبود.

بعد سقوط ميعار، رفض الرجل مغادرة قريته، وبقي مع زوجته بعد أن خرج جميع أفراد عائلته. هذا ما أخبرتني به ناديا، هل تعرف ناديا، ألم تلتقِ بها، كانت مسؤولة اللجنة الشعبية في المخيم. قالت ناديا إنّ اليهود أخرجوا جدها مع اثنين من رجال القرية بعد ثلاثة أشهر على احتلالها. مات الرجلان في الطريق، قرب جنين، ولكن الرجل البالغ من العمر ثمانين

عامًا، ذهب إلى حلب وأقام عند معارف له، ثم انضمّ إلى أبي في مخيم بعلبك، «كان رجلاً لا يطاق»، قالت ناديا، كره بعلبك، وكره ثلجها وطقسها البارد، وكان يصرخ أنَّه لا يريد أن يموت هنا. فقرر أبي الانتقال إلى مخيم البرج الشمالي قرب صور. وهناك عشنا في براكيّة، مثل جميع الناس. هناك، ساءت حالته بشكل مخيف، صار يخرج ليلاً، ولا يعود إلى البيت إلا مع الفجر. ثم أبلغ أبي قراره، قال إنَّه قرر العودة إلى ميعار للبحث عن زوجته. كان ذلك عام ١٩٥٠، وكنا ننتظر. فأبي لم يكن يفعل شيئًا سوى الاستماع إلى الراديو وضرب مواعيد العودة. في كل شهر، يقول إن موعدنا الشهر القادم. حاول أبي منعه، ورجاه الانتظار شهرًا إضافيّاً، لكن الرجل كان مصممًا، ذهب سرّاً واستأجر دليلاً وحمارًا ومضى.

وصل إلى بيته، تخيّل، قرع باب بيته، ففتحت له امرأة أخرى، فاعتقد المسكين أنَّه جنّ، وبدأ يركض ويتعثّر، وخرج من ميعار ولم يعد إليها. قضى ما تبقّى من حياته في الحقول، وعرفت جدتي التي كانت تعيش في قرية مجد الكروم، وبدأت بحثها الطويل عنه. بحثت عنه أكثر من سنة، قبل أن تجده. وحين وجدته كان المسكين قد فقد بصره كلّيًا، فأخذته إلى مجد الكروم، حيث مات».

استفاضت ناديا في الكلام على ميتة جدها، روت كيف عاش أيّامه الأخيرة كلص. لص أعمى ومقعد! ومع ذلك كان على زوجته أن تخبّئه عن عيون رجال الشرطة، كي لا يطرد كغيره من المتسللين. جاء كي يرى قريته وزوجته، فلم يرَ شيئًا. عاش سرّاً، ولم يعلن وجوده إلاّ لحظة موته.

أعمى ومقعد، عاش بشكل سرّيّ، ولكن حين مات، بكى الناس علنًا. كل الناس الذين صاروا أهل مجد الكروم، بكوا. أنت تعلم أن القرى لم تعد هي القرى، بيوت مهجورة، وبيوت يسكنها لاجئون من قرى أخرى، واختلط الناس. الناس في مجد الكروم لم يكونوا يعرفون هذا الكهل الأعمى، كانوا يعرفون أن فتحية عبّود، تخبئ في بيتها لبنان. أسموه لبنان لأنَّه جاء متسلِّلاً من لبنان. وعندما مات السر، خرجت القرية كلّها وبكت الرجل الأعمى. لم يختم شيخوخته بالذكريات، لم يمت في بيته محوطًا بأولاده وأحفاده، ولم يمت كما يموت كل الناس داخل تفاهة الذكريات.

عاد ومات في سرّ تلك البلاد، التي كانت تعيش في سر الحكم العسكري ومنع التجوُّل ودعسات المتسلِّلين.

«هذا الكهل الأعمى، لا يشبهني»، سوف تقول، «أنا لم أعد كي أنهي حياتي في الذكريات، عدت كي أبدأ، كي لا أنسى الطريق، كي أحب أمرأتي».

كلامك حلو يا سيدي، وكلُّه مضبوط، ولن أدخل معك نقاشًا حول بدايات العمل الفدائي، التي تزامنت مع رحلاتك المتواصلة إلى دير الأسد، وإنجابك المتتابع لأولادك.

أخبرني، كيف سقطت شعب.

طيّب، أخبرني كيف لم تسقط.

أرجوك، بلا بطولات، طرحت عليك السؤال، كي أعرف من هي امرأة شعب.

نهيلة، أم من؟

من هي تلك المرأة التي وقفت بعد ستة أيام من سقوط القرية، وقالت إنَّها ستعود، حاول الرجال منعها، ولكنَّها مشت ولحقتم بها.

هل اختلط الأمر على الناس، ومزجوا بين المرأة التي حملت على رأسها تنكة العرق، وبين المرأة التي قادتهم إلى تحرير قريتهم؟

ولماذا لم تخبرني عن تهريبة العرق؟ ألأنَّه عيب؟ ما العيب في تهريب العرق من لبنان إلى فلسطين؟ ألأنَّك لا تريد أن تعترف أن العرق اللبناني الذي يصنع في مدينة زحلة، هو أفخر عرق في العالم ؟ أم تخجل من كون المهربين استغلُّوا ثورة الـ ٣٦، وصاروا ثوّارًا على طريقتهم.

تنتمي ريم إلى عائلة سعد، التي اشتهرت بالتهريب، ولقد تفتقت عبقرية شيخ المهربين حسن سعد، عن مشروع تهريب العرق على رؤوس النساء. كان يضع تنكات العرق على رؤوس النساء، فيبدون وكأنهنَّ يحملن الماء.

ومشت القافلة، قطعت الحدود اللبنانية، ووصلت إلى مشارف ترشيحا، كانت القافلة تتألّف من ثماني نساء، بلباسهنَّ الفلاحي الطويل، ومعهنَّ ثلاثة رجال مسلحين، للحماية، وعلى رأسهم حسن سعد.

قافلة تضم ثماني نساء يتهادين كأنَّهنّ قادمات من العين، ومسلحان في الخلف، بينما يسبقهن حسن بحوالى ثلاثمئة متر، من أجل، استكشاف الطريق.

فجأة عاد حسن، بعد أن شاهد كمينًا إنكليزيًا على الطريق الترابي الذي يصل ترشيحا بالكابري. عاد وأمر النساء بالانتشار في الحقل، وبدأت النسوة يركضن. كلهن ركضن ما عدا ريم. يبدو أن الخوف شلّها، فمنعها من الحركة. حسن يصرخ وريم جامدة في مكانها. سحب حسن مسدسه وأطلق على التنكة، وبدأت ريم تركض والعرق يتساقط على وجهها وثيابها. ثم سقطت أرضًا. يبدو أنَّها ابتلعت كمية كبيرة من العرق المثلّث، أو ربما الرائحة. ترنحت الفتاة وسقطت أرضًا. حاول حسن إيقافها فلم يستطع، فتركها واختفى في الحقل المجاور. اقتربت الدورية على صوت طلقة المسدس، ورأوا الفتاة غارقة في العرق. حاولوا استجوابها، فتشوا جانبي الطريق فلم يعثروا على أحد. اقترب أحد الجنود منها، انحنى فوقها، مدّ يده كي يساعدها على النهوض... ولعلع الرصاص. رأى حسن الجندي يقترب من ريم فأطلق النار واشتعلت المعركة.

هنا يختلف الرواة.

بعضهم قال إن حسن قتل ثلاثة من أفراد الدورية، وأخذ ريم وفرّ بها إلى شعب. وبعضهم قال إن حسن أطلق في الهواء، فلم يُصَبْ أحد، كل ما في الأمر، أن الجنود الإنكليز تراجعوا كي ينتشروا لاعتقادهم بأنَّهم سقطوا في مكمن مدبّر، نصبه الثوّار، وهو ما سمح لريم بالهرب والوصول إلى حسن، رغم تعثّرها بثوبها الطويل المبلول.

وتحوّل حسن بطلاً. وعومل حين وصل إلى القرية بوصفه أحد الثوار. حتى ريم صدّقت البطولة، وأحبّت حسن. وطال الحب أكثر من خمس سنوات، والد ريم يرفض تزويج ابنته لابن عمها المهرَب، وريم ترفض الزواج من كل العرسان. ووصلت الأمور إلى حد لا يحتمل، حين قامت ريم بكسر كل التقاليد، وقالت أمام الجميع في مضافة مختار الحارة الغربية شاكر الخطيب، إنَّها تحب حسن، ولن تكون لغيره. وكادت حكاية الثارات تتكرَّر، لولا تدخل أبو إسعاف، الذي ادعّى أمام الجميع أن حسن صار واحدًا من المجاهدين، وأنَّه يكفل توبته.

وتزوّجت ريم بطلها حسن.

ريم تنكة العـرق تحـوّلت ريم البطلة. يا سـبحـان اللّه، أغلب الناس ينسبون إليها قرار العودة إلى شعب.

لكن الحقيقة.

أرجوك قل لي، أليست نهيلة امرأة شعب؟

نهيلة وقفت، كانت كمن فقد صبره، امرأة محوطة برجل أعمى وزوجته، وتحمل ابنها الرضيع على زندها. قريتها الأولى هدمت، وقريتها الثانية محتلة.

وقفت نهيلة، ولحقت بها ريم.

ولكن لماذا قال الناس إنّها ريم؟

ألأنّ تلك المرأة التي حملت تنكة العـرق، وترنحت تحت طلقة الرجل الذي أحبته، فقدت كل شيء لحظة دخول القرية؟

حسن زوجها، كان أول من لحق بها، وكان الشهيد الأول.

كانت ريم في المقدمة إلى جانب نهيلة، وحسن خلفهما. كان الأول في الهجوم، والأول في الموت. في ذلك اليوم من شهر تموز ١٩٤٨، انتهت ريم. فبعد تحرير القرية وموت زوجها، ذهبت مع أولادها الثلاثة إلى دير الأسد. ومن هناك نزحت إلى سوريا وانقطعت أخبارها. عاشت في مخيّم اليرموك قرب دمشق، وخرجت من دائرة اهتماماتكم.

السؤال الذي يحيّرني، هو لماذا نسي الناس كل الحكايات، وتذكروا ريم لحظة قرار دخول القرية.

نسوا حسن الشهيد المهرّب، ونسوا نهيلة التي قادت المسيرة، ونسوك أنت أيضًا. في معركة شعب لا يرد ذكرك أبدًا. لم يخبرني أحد عنك، كلهم قالوا إنّك كنت هناك، لكنّك لم تكن الموضوع. الموضوع كان والدك الشيخ الأعمى الذي رفض المغادرة مع المدنيّين، بعد تحريرها. قال إنّه لا يستطيع لأنّه مضطر من أجل الجامع. رجوته كي يخرج فرفض. رجوته ورجوت أمك ورجوت نهيلة. فالقرار الذي اتّخذتموه كان واضحًا. لا يبقى في شعب إلا عناصر الميليشيا، أما السكان فيأخذون أغراضهم ويخرجون، لأنّ

القرية ما عادت صالحة للسكن، فهي تحت الرماية الدائمة من اليهود المتمركزين في ميعار.

لكنَّ والدك رفض، ثم رفض مرة ثانية حين قررتم الانسحاب إلى لبنان.

نعود إلى شعب.

سوف أحاول جمع الشذرات التي سمعتها منك ومن آخرين. وحين أخطئ صلّح لي، ولن أبدأ من الأول، فأنا لست مثلك، ولا أستطيع أن أقول «من الأول».

سأبدأ بعد سقوط البروة، وبحكاية مصطفى الطيار.

فبعد أن حشدتم كل ما تملكونه من رجال وعتاد، حررتم البروة، وغنمتم الأسلحة والعتاد والحاصدات. ثم جاء مهدي قائد وحدة جيش الإنقاذ، طوّقكم وصرخ «كل شيء في الأرض». أراد مصادرة الأسلحة، والادعاء أنَّه بطل التحرير.

وكنتم كالمذهولين. فمعركة البروة كانت أول معركة هجومية تخوضونها، حاولتم تنسيق النيران، وتنظيم الاقتحام، وبذلتم جهدًا كبيرًا في الحشد، وكنتم مرهقين بالنصر. إنَّه النصر الأول الذي تذوّقتموه، ويأتي هذا الضابط الذي لم يطلق جنوده رصاصة واحدة ليصرخ «كل شيء في الأرض».

قفز مصطفى الطيّار، وهو مقاتل من البروة، سوف يموت في المعركة الأخيرة التي حصلت على تلال الكابري بين المتطوّعين اليمنيّين والجيش الإسرائيلي.

قفز الطيّار وصرخ «نحن العرب وأنتم اليهود»، وانبطح أرضًا، حاملاً الميتشيغان الذي كان علي حسن الجمّال قد سحبه من الاستحكام اليهودي، خلال المعركة.

هنا، تدخل الشاويش العراقي دندن، وقال «لا يجوز. العربي لا يقتل العربي». ووقف في الوسط ومنع مجزرة كبيرة، وسوّيت الأمور، وأخذوا نصف الأسلحة.

جاء مهدي بعد ذلك وأقنعكم بمغادرة البروة، وتسليمها لجيش الإنقاذ. واقتنعتم! تركتم البروة لكي يجري تسليمها بعد ٢٤ ساعة لليهود دون

قتال. ويقف دندن ليقول «إن العربي لا يقتل العربي». يا عيني عليكم، قولوا إنكم وافقتم مع مهدي لأنكم كنتم عاجزين عن البقاء، فالتعب هدّكم، والقرية محاصرة من كل الجهات، فتركتموها أنتم، قبل أن يتركها جيش الإنقاذ.

بعد سقوط البروة، لم يبق لكم غير شعب تتجمّعون فيها.

وشعب لم تصمد أيضًا.

فيوم ٢١ تموز ١٩٤٨، بدأ قصف شعب من ناحية البروة، ثم تقدّمت وحدة مشاة من ميعار واكتسحت القرية. كان القصف الأولي متقطعًا، لكنّه كان دقيقًا. فبعد عشر دقائق على سقوط القذيفة الأولى في البيادر، سقطت القذيفة الثانية على منزلي علي موسى ورشيد الحاج حسن فدمرتهما. وبعد تدمير البيتين، بدأ هروب القرويّين في كل اتّجاه، ودبّت الفوضى. ووسط الفوضى، وجد الجميع أنفسهم خارج القرية، ولم يبق داخلها سوى مجموعة صغيرة من المقاتلين تمركزت في العبّاسيّة، شرق القرية.

في ٢١ تموز سقطت شعب للمرة الأولى دون قتال!

جيش الإنقاذ المتمركز في تل الليّات ومجد الكروم ومغر والرامة، لم يتدخل في المعركة. يبدو أنّ الجميع فوجئ بالهجوم الإسرائيلي. الحرب دائرة في كل مكان، وأنتم تفاجأون بها!

انهارت القرية، قبل أن يطلق رجالها رصاصة واحدة وصار اليهود في داخلها.

«عشنا تلك الأيام الستة في الحقول ورأينا شعب عن بعد. كانت كأنّها سقطت في الوادي، فشعب المحوطة بالتلال من كل جانب، تحوّلت واديًا للموت. فبعد احتلال البروة وميعار، صارت شعب تحت النار، ولم يعد من الممكن حمايتها، إلا عبر عمل عسكري منسّق. حاول أبو إسعاف تنظيم المقاتلين، قسمهم إلى أربعة فصائل، وأوكل إلى كلّ فصيل مهمة حماية أحد حدود القرية، لكنّه لم يترك قوة مركزية متحركة تحسبًا لأية مفاجأة.

عمليًاً، لم تحدث معركة.

القصف والصراخ أحدثا بلبلة هائلة بين الفلاحين والمقاتلين، فانتهت المعركة قبل أن تبدأ».

وفي الحقول، اكتشف مقاتلو شعب أنهم عاجزون، محاولات الاستطلاع والتسلل لا تفيد. «وفي النتيجة»، قال ابو إسعاف، «لا نستطيع الهجوم دون قصف مدفعي تمهيدي، ونحن لا نملك المدافع»، وأوكل إلى يونس مهمة الاتصال بجيش الإنقاذ، من أجل تأمين القصف المدفعي.

ذهب يونس إلى تل الليّات، وخاض مفاوضات مستحيلة مع مهدي وجاسم. كان كلما اقترح خطة ترفض، ويقال إنّها ستوقع خسائر جسيمة في صفوف الفلاحين والمقاتلين.

«اقترحت الهجوم من تل الليّات، فقالوا إنّ مدفعيّة ميعار سوف تسحقنا. اقترحت الهجوم من الحقول الشرقية، فقالوا إنّهم سيكشفوننا ويبيدوننا قبل أن نصل، اقترحت أن تتحرّك وحدة جيش الإنقاذ كي توحي بأنّ الهجوم سوف يتم من مواقعها، بينما نهاجم نحن من الجهة الشرقية، فقالوا إنّهم لا يملكون قرارًا بالتحرُّك. كل خططي رفضت بوصفها فاشلة، واقترحوا عليّ التروّي والانتظار. قلت أنتم الجيش، اقترحوا، ونحن جاهزون للتنفيذ. قالوا طبعًا، ولكنّنا ننتظر الأوامر، قلت إنّنا لم نعد نطيق الانتظار، قالوا في الحرب، يجب إطاعة الأوامر.

قلت، وقالوا...

وانتهت مهمتي إلى الفشل، وعدت إلى الحقل حيث كان الجميع في انتظاري. كل الناس كانوا يعتقدون أنّني سأعود حاملاً قرار تحرير شعب في جيبي. وعندما أخبرتهم اسودّت وجوههم، ولم يعلّقوا على الموضوع، كأنّني كنت أخبرهم عن قرية أخرى.

ومُدّت مائدة الإفطار. جائعون وفقراء وصائمون».

وحين أسألك عن إفطارهم، سوف تقول إنّك كنت تعبان ولم تكن جائعًا. وتروي أنّك لم تكن تشعر بالجوع الحقيقي إلا معها، وبعد أن تحتويها في مغارة باب الشمس. أما في إيّامك العادية، فأنت لا تجوع، تأكل حين تؤلمك أحشاؤك. لكن يومها، حاولت أن تأكل من تلك المائدة الفارغة. لا شيء، بُقول وأعشاب. حتى الخبز لم يكن متوافرًا.

ربما هذا هو السبب.

لماذا لم تقل لي إنّ اليهود هاجموا شعب لحظة الغروب في شهر

رمضـان، إذ كـان كل أهالي القـرية حـول مـوائد الإفطار. بدأ القـصـف فـانهـارت دفـاعـاتكم وانهـزمـتم. هربتم جـائعين إلى الحـقـول وسط تلك الفـوضى الهـائلة التي ضـربتكم. ثم شـاهـدتم، وأنتم تغـادرون، اللـهب الذي اشـتـعل في وسط القـرية. اعـتـقـدتم أنَّهم يحـرقـون القـرية مما زاد في اضـطرابكم، ودفعكم إلى الحقول المجاورة.

حين عاد يونس، وجد الناس يأكلون، كان جائعًا، لكنَّه لم يأكل. مدّ يده، وقبل أن تصل اللُّقمة إلى فمه رماها أرضًا، وقـال «نهجم وحـدنا». وبدأ نقـاش صـاخب مـتـداخل، حـول الخطط العسكرية، ولم تكن خطة. وحـده الأعـمى أبو يونس قـال «لا أمل، ضـاع كل شـيء». ورأى الناس دمـوعًـا تتساقط من العينين المغمضتين، وانفضّ الجمع عن لا قرار. ونام الناس في تلك الليلة كالموتى، حتى المولجون بالحراسة ناموا فـأمام اليأس والخـوف والجوع، لا يبقى سوى باب النوم.

وفي الصباح، أصيبت المرأتان بما يشبه الجنون.

كـانت المرأتان تتناقـشـان في سـبل جلب الماء من النبع، وفـجـأة ارتفع الصـراخ، ورأى الناس نهيلة وريم تمشيان.

قالت نهيلة إنَّها لم تعد تستطيع.

قالت ريم الموت أشرف.

ومشت النسـاء خلفهما، ومشى الناس، حاول أبو إسعاف وخليل سليمان عبد المعطي إيقاف النسـاء، لكنهنَّ كنّ كالسيل الذي يجرف كل شـيء أمامه.

«على مشـارف القرية، بدأ إطلاق النار. هجمنا دون خطة، كنا نركض ونطلق النار عشـوائياً. لم تكن مـعركة، كـانت طوشـة عرب، ووجـدنا أنفسنا في القـرية بعد أن أخـلاها اليـهود. سقط لنا عدد من القتلى، أوَّلهم كـان حسن ريم، اذا أردت أن أصف لك المعركة، فلن أستطيع، لم تكن مـعركة، كانت هجمة واحدة. عدنا إلى القرية في أقل من سـاعة، بعد ذلك علمنا أن مجموعة دندن، وهي مجموعة من اليمنيين والعراقيين المتطوعين في جيش الإنقاذ، تمرَّدت على قيادتها، حين بدأ هجومنا، وفتحت النار من مواقعها في تل الليّات، مما أوحى لليهود بوجود هجوم منسّق فانسحبوا، ثم جاء دندن ورجاله، وقالوا إنَّهم طردوا من الجيش، والتحقوا بنا».

قال يونس، إنَّه حين التقى بأبو إسعاف، بعد المعركة بأكثر من عشرين سنة، فوجئ برواية قائد حامية شعب عن الهجوم.

«أبو إسعاف أكثر من أخ، أنت تعرف، هناك شيء لا تمحوه الأيام اسمه رفقة السلاح، يأتي رفيق سلاحك بعد غياب عشرين سنة، فتكتشف أنَّه ما زال يحتفظ بمكانته في قلبك. جاء أبو إسعاف، وجلسنا، وشربنا الشاي، وعاد بنا الكلام إلى أيام الـ ٤٨.

قال أبو إسعاف إن الإسرائيليّين رموا البودرة البيضاء، في ساحة شعب، لحظة انسحابهم، وأشعلوا النار من أجل إخافتنا، وإنَّه حين رأى النار شعر أنه لم يعد يستطيع التراجع وارتمى فيها، واكتشف أنَّها مجرَّد لهب.

لكنَّني أذكر الأمور بطريقة مختلفة، فالنار اشتعلت حين احتلوا القرية، وليس لحظة انسحابهم منها. لكن هذا لا يهمّ.

وأبو إسعاف كان يعرف جيّدًا، أنَّني المسؤول العسكريّ عن كل قطاع الجنوب اللبناني، ومع ذلك، ما يزال يتعامل معي بوصفه قائدي، يرفع يده وينتظر منّي السكوت، كما في الـ ٤٨.

سكتت كي لا أكسر خاطره، فأبو إسعاف مناضل حقيقي، وأنا واللّه أضعه في عيوني، وحين اختلفنا على بودرة اللهب، وبدأ يزعل، كذبت عليه، قلت إن الحق معه، ورويت كيف لحقته أنا أيضًا، ورميت نفسي في اللهب. وتركته يروي ما يشاء أمام شقيقته وأحفادها، كيف اشتعل بالنار، وكيف لحق به جميع المقاتلين، وهذا أخاف اليهود».

«كنا مثل الجن»، قال ابو إسعاف.

«مثل الجناني الذين يطلعون من قلب النار، وكانوا يتراجعون أمامنا ويهربون، تاركين أسلحتهم في أرض المعركة».

سألتك عن امرأة شعب، فأخبرتني عن اللهب، ماشي الحال. والآن أريد تفسيرًا واضحًا، لماذا وقفت وقلت إن شعب لم تسقط؟

ماذا جرى؟

ولماذا أنتم هنا؟

الحقيقة قال يونس، «الحقيقة أنّنا بعد تحرير القرية، دفنّا الشهداء الأربعة، واجتمعنا في البيدر، وقررنا أن على النساء والأطفال والشيوخ مغادرة القرية، ولا يبقى سوى رجال الميليشيا. وافق الجميع، أخذوا مؤونتهم وغادروا في الصباح. كل النساء والشيوخ والأطفال غادروا ما عدا أبي وأمي ونهيلة.

قال أبي إنّه لن يغادر، بل سيبقى كي يرفع الصلاة، وقالت أمي إنّها لا تتركه، وبقيت نهيلة معهم. ثم اكتشفنا أن العديد من الكهول بقوا سرّاً، أو عادوا سرّاً.

هكذا صارت شعب مكانًا للمقاتلين، ومأوى للعجزة. حوالى مئتي مقاتل، وأكثر من مئة رجل وامرأة من المسنّين.

انتظرنا ثلاثة أشهر، النساء يأتين ليلاً إلى القرية من أجل أخذ المؤونة، والأشياء الأخرى، ونحن نحرس. انتظرنا هجومهم، لكنّهم لم يهاجموا بشكل جدّيّ. كانوا يشنّون هجمات محدودة. الهجوم الأول كان في ٢٧ تموز، أي بعد يوم واحد على تحرير القرية، وتوالت الهجمات خلال شهري آب وأيلول، لكنّها لم تكن هجمات اجتياح. كانوا يطلقون النار، دون أيّة محاولة للتقدُّم. كنا نتحرّش بهم في الكثير من الأحيان، رغم نقص ذخائرنا. ثم انسحبنا.

«انسحبتم هكذا بلا سبب»؟!

«لا، انسحبنا لأنّ البقاء لم يعد ممكنًا. ففي ٢٩ تشرين الأول ١٩٤٨، قصف اليهود ترشيحا بالطيران، ثم توسع قصف الطيران، ليشمل الجشّ والمغر والبقيعة. وبدأ جيش الإنقاذ انسحابه إلى لبنان. وجاء جاسم إلى شعب وقال يا جماعة باعوكم وباعونا، حامية شعب تنسحب قبل إقفال الحدود اللبنانية، وفهمنا أن كل شيء قد سقط.

يومها اتّخذ أبو إسعاف القرار، وقال ننسحب، الجميع ينسحب، نبقى وحدنا، هذا لا يجوز، قال ننهزم ثم نعود.

قلت له إنّنا إذا انهزمنا فلن نعود.

قال، ماذا تقترح؟

قلت، لا شيء.

قال، ننسحب ثم نعود.

وانسحبنا. كل المقاتلين انسحبوا بأسلحتهم.

لكنَّ الكهول رفضوا الانسحاب.

قال حسين فاعور، الذي سيموت بعد ذلك في وحل زبّوبا، خذوا سلاحكم واذهبوا، نحن سنبقى في قريتنا، لن يستطيعوا أن يفعلوا بنا شيئاً، نحن اختياريّة، ولن يستفيدوا من قتلنا.

لكنَّهم قتلوهم.

أخبرتني نهيلة عن مذبحة الكهول في القرية، وكيف دخل الضابط الإسرائيلي أبراهام، وأمر الجميع بالتجمُّع قرب البركة، وقف فيهم متفقِّدًا، كأنَّهم طابور عسكري. حتى الحاج موسى درويش، المقعد، أمر بجلبه من بيته، الحق على زوجته. الزوجة قالت للضابط الإسرائيلي إنَّها تركت زوجها في البيت لأنَّه مقعد، أخبرته عن زوجها، لأنَّها خافت أن يقوموا بنسف البيوت، كما فعلوا في البروة. أمرها الضابط بجلبه، قالت إنَّها لا تستطيع حمله وحدها، تطوّع رجل لمساعدتها، لكنَّ الضابط شهر بندقيته في وجهه وقال لا. تذهب وحدها. وعادت وهي تجرجر زوجها على الأرض، كانت تبكي وتجرُّه. المرأة تجرّ رجلها، والضابط يبتسم مزهوّاً بنفسه، رأينا أسنانه البيضاء، كانت أسنانه بيضاء بشكل غريب، وحين أوصلت المرأة زوجها أمام الضابط، شخر الحاج موسى درويش بصوت مرتفع، تدفّق الماء الأسود من فمه، ومات.

الضابط لم يرَ، كأنَّه لم يرَ موت الرجل. فبدأ ينتقي الرجال بإصبعه. من تقع عليه الإصبع، عليه الذهاب إلى الجهة الثانية. انتقى حوالى عشرين شيخًا، ثم رفع إصبعه نحو أبو يونس الأعمى. لم ير الرجل الأصبع، فشهر الضابط مسدّسه. صرخت أم يونس، لا، وتقدمت نحو زوجها وقادته إلى حيث الباقون، وعادت إلى مكانها ثم جاءت شاحنة، أمرهم الضابط بالركوب، ركضت أمي، وأمسكت بيد أبي وقالت إنَّه ضرير.

ارجعي يا امرأة، صرخ الضابط.

ركضت نهيلة حاملة طفلها على زندها، وأمسكت بيد الشيخ الأعمى.

ارجعوا كلكم، صرخ الضابط.

لم يرجعوا، سحبوا أبي وعادوا إلى البركة، حيث التجمُّع الرئيسي. وانطلقت الشاحنة، وبدأ إطلاق النار فوق رؤوس الناس، الذين تفرّقوا في الحقول، بحثًا عن قرى جديدة، أو عن الحدود اللبنانية.

«حكاية زبّوبا يا ابني، هي التجسيد الحقيقي لمأساتنا»، قال يونس.

انقطعت أخبار الرجال العشرين الذين أركبتهم إصبع الضابط الإسرائيلي في الشاحنة، إلى حين ظهور مروان الفاعور في الأردن. ومروان الفاعور هو الرجل الوحيد الذي نجا من مذبحة الوحل، كما سنسميها في ما بعد.

روى مروان الفاعور عن المطر.

«كان مطر كثيف، والشاحنة تسير تحت المطر. وصلنا إلى زبوبا قرب جنين، وعند الحدود الأردنية، أنزلونا من الشاحنة، وأمرونا بالعبور إلى الجانب العربي، وبدأ إطلاق النار فوق رؤوسنا».

كانت مسيرة المطر والموت والوحل.

الوحل يغطي الأرض، والمطر كالحبال. برد وظلام وخوف. عشرون رجلاً يمشون، ينزلقون، يتمسّكون بحبال المطر المدلاّة من السماء، ويقعون. يحاولون النهوض، يلتصقون بالوحل.

عشرون رجلاً يتعلّقون بحبال المطر، نشيج وسعال، ومحاولات مشي وانزلاق والتصاق بالوحل.

صار الوحل مثل الصمغ.

التصقوا بالأرض، سقطوا وابتلعهم صمغ الوحل.

وبدأت خيوط الماء الهابط من السماء، تصبح وحلاً.

وبدأ الموت.

هكذا مات رجال شعب في مذبحة الوحل، التي جرت في أحد أيام تشرين الثاني ١٩٤٨.

تجمعت حامية شعب وانسحبت بانتظام في اتّجاه الحدود اللبنانية.

غير أنَّ الفصيل الذي كان يقوده دندن، تركهم والتحق بالمجموعة اليمنيَّة المتمركزة على تلال الكابري، حيث جرت المعركة الأخيرة، ومات اليمنيُّون والعراقيّون جميعًا. هناك مات دندن وعبد اللّه، والموصللي.

تجمَّعت حامية شعب في بيت ياحون وعين إبل، وبدأت تقوم بعمليات إغارة انطلاقًا من جسر المنصورة.

قامت وحدة من الجيش بتطويقهم وتجريدهم من أسلحتهم، وأمرتهم بالالتحاق بفوج أجنادين، قرب دمشق، وهناك أُدخلوا السجن.

ومن السجن، جاء يونس إلى مخيم عين الحلوة، وقف وصرخ بين الخيام: «نحن لسنا لاجئين». والبقية تعرفها يا سيدي.

هل أخبرك البقية؟ لماذا أخبرك وأنت تعرف كل شيء؟

لكنَّك لا تعرف ماذا جرى لعبد المعطي.

عبد المعطي توفي أمس هنا في المستشفى، وصل على الرمق الأخير، وكان مصابًا بذبحة قلبيَّة. حاولنا معالجته، لكنَّه مات.

ماذا نستطيع أن نفعل لرجل في السبعين قرر أن يموت؟ نتركه يذهب، فهذا أفضل له ولنا. حاولنا إنقاذه، ولكن لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

عندما جلبوه، كان يتنفَّس بصعوبة، يفتح فمه كأنَّ الهواء لا يكفيه، أو كأن روحه تسعى إلى مغادرة جسده ولا تستطيع.

قلت علقة جديدة، فرجال شعب يرفضون الموت. ثم تذكَّرت أنَّك لست من شعب، فالرجل إذن ليس مثلك، ولن يكرِّر فعلتك، كما أنَّه ليس قريبك، كما بدا لي، بسبب الشبه الظاهر بينكما. ثم اكتشفت أنَّه لا يشبهك، فأنتم الكهول تصبحون كالأطفال، تشبهون بعضكم بعضًا للوهلة الأولى، وعلينا أن ننظر إليكم جيّدًا، كي نكتشف أن الشبه ليس موجودًا إلا في رؤوسنا.

مات عبد المعطي، وأخذ قصته معه.

هل تعرف أنَّه أهلكنا بإنجازه الكبير خلال الحصار الطويل لمخيم شاتيلا. وكنت أنت السبب، لأنَّك، لا أعرف لماذا كنت تتلذَّذ بحكاية القنبلة النووية التي صنعها مع الصحافية اللبنانية، كي يفك الحصار عن المخيم.

أنا لم أبق في المخيم كل فترة الحصار، فقد كُلِّفت بمهمة الخروج من أجل المضادّات الحيوية، التي كنا في أمسّ الحاجة إليها، وحين حاولت العودة كانت الطرقات إلى المخيم قد أقفلت نهائياً. يومها التقيت شمس، في مكتبنا في مخيم مار الياس، وتولّت هي المهمة. قالت إنّها تستطيع عبر شبكتها الخاصة إيصال الأغراض، أخذت الأدوية واختفت، ثم علمت أنّها دخلت المخيم، وبقيت فيه حوالى شهرين، ثم غادرته بعد خلاف مع قائده العسكري علي أبو طوق. بعد خروجها بدأ الحب. كانت تأتي إلى مخيم مار الياس، تجلس معنا بثيابها العسكرية، وترسم الخرائط، وتتحدّث عن خططها المستحيلة لفك الحصار عن شاتيلا. يومها بدأ اشتعالي، لم أعترف لها، أو أبادر، كنت فقط أنتظر، وكانت تأتي، فيضربني ذلك الاشتعال الذي ينبثق من أعماق القفص الصدري، ويقطع النفس. يبدو أنّها انتبهت، فتصرّفت كأنّها انتبهت. يومها اعتقدت أنّها تريد الإيحاء لي بعدم اهتمامها. لكنّي اكتشفت في ما بعد، أن هذا النوع الجانبي من اهتمامها، هو طريقتها. كانت تأخذني جانبياً، كأن الرغبة تعشّش في طرف عينيها.

حبي لشمس بدأ مع المضادات الحيوية، في مخيم مار الياس، أنا لم أهرب خلال الحصار، كما أشاعوا، كنت في مهمة. وعلى كل حال، حين عدت، لم ينظر إليّ أحد باعتباري خائنًا. كان المخيّم قد تلاشى، ولم يعد فيه أحد من مقاتلي مرحلة الحصار. حتى شمس رفضت الإقامة في شاتيلا، والتحقت بمقاتلي عين الحلوة، وتمركزت في إحدى قرى شرقي صيدا.

عدت إلى المخيم، لا لأنّني خفت من المشاركة في القتال في مغدوشة، بل لأنّني فقدت الرغبة في الحرب. فالحرب رغبة، كما كنت تقول، قلت إنّ الحرب كانت تشتعل في داخلك، وكنت عاجزًا عن انتظار استكمال الاستعدادات العسكرية، فانضمَمْت إلى حركة فتح، وقاتلت كما يحلو لك.

يومها، لم يعد يحلو لي القتال، ماذا أفعل في شرقي صيدا؟ ثم لماذا الاستمرار في حرب لبنان التي لم تعد حربًا. لن أقول، كما تقول أنتَ، إنّها لم تكن حربًا منذ بدايتها، بل هي فخ نصبناه بأيدينا وسقطنا فيه، أنا لا

أوافقك الرأي، فنحن ذهبنا إلى الحرب الأهلية في لبنان، لأنّ كل شيء كان مسدودًا في وجوهنا، ولأنّه يجب علينا قلب العالم فوق رؤوس أسياده. هكذا كنت أؤمن عام ١٩٧٥. أما بعد سقوط شاتيلا عام ١٩٨٧، وتحوّلنا مجموعات تقاتل حول مدينة صيدا، فلم أعد مقتنعًا.

عبد المعطي كان مختلفًا.

رغبته في الحرب لم تمت.

خلال الحصار، حين كان المخيّم مطوّقًا من كل الجهات من رجال حركة أمل، وكان الناس على وشك التلاشي، كان عبد المعطي يحمل بندقيّته التشيكية ويكمن في المواقع المتقدمة. وكان المقاتلون الشباب يشفقون على شيخوخته، لكنّه كان كالقرد، كأن السنوات لم تمر على جسمه الممتلئ وشاربيه الأبيضين، ورأسه الأصلع. وكانت طلقات بندقيته تطمئننا، فمتى يقوّص عبد المعطي، فهذا يعني أنّنا ما نزال قادرين على المقاومة.

قال عبد المعطي إنّه يقاتل كي لا يشمسوه من جديد.

قبل التشميسة وحكاياتها، هل تذكر ماذا فعل عبد المعطي خلال الحصار؟

كنتم محاصرين وشبه جائعين، وحالتكم المعنوية يرثى لها. فقرر عبد المعطي تفجير قنبلته السرّيّة. أخذ التلفون، واتصل بمكتب وكالة الصحافة الفرنسيّة في بيروت، وتكلّم مع امرأة سألها عن اسمها عدة مرات، قبل أن يعطيها الخبر. قال إنّه يريد التأكد من شخصيتها. فقالت إن اسمها جميلة إبراهيم، وإنّها لبنانية ومن مدينة زحلة.

كنتم تستمعون إليه مذهولين. اخترع حكاية عن اجتماع عقدته فاعليات المخيم، لمناقشة الوضع الخطير الذي وصلت إليه الأمور، قال إنّ فاعليات المخيم قررت الطلب من أحد المراجع الدينية فتوى بأكل لحم البشر. «نحن نموت جوعًا، أكلنا القطط والكلاب، ولم يعد يوجد شيء يؤكل، والميليشيا التي تحاصرنا لا ترحم، فماذا نفعل؟ قررنا أكل لحم القتلى الذين يسقطون في صفوفنا، ونطلب فتوى دينية بذلك».

قال لها إنَّهم لا يستطيعون الاتصال من المخيم، وطلب من الصحافيَّة الاتصال بأحد المراجع الدينيَّة، على أن يعود هو إلى الاتصال بها بعد ساعة.

وبعد ساعة وزع الخبر الذي هزّ العالم. اتّصل بجميلة فأبلغته البشرى، لقد أفتى الشيخ كامل السمّور، بإمكان أكل اللحم البشري للضرورة القصوى. وبثّت وكالة الصحافة الفرنسية الخبر على شبكتها الدولية، وضجّت التلفزيونات والإذاعات والصحف في العالم بأسره.

لم يأكل أهل شاتيلا اللحم البشري، والجيش السوري الذي كان يطوّق المنطقة، أمر ميليشيات أمل بفك الحصار جزئياً.

أنا دخلت المخيّم بعد قنبلة عبد المعطي، دخلت مع الأدوية والتموين. وهناك، التقيت جميلة إبراهيم.

جاءت الصحافيّة إلى المخيّم، تبحث عن عبد المعطي. جاءت تحمل طنجرة طعام هائلة، يا اللّه ما أطيب أكلها. طنجرة برغل. برغل مطبوخ، وفوقه كميات من لحم الخروف والبصل والحمص، مع وعاء كبير مليء باللبن.

قالت جميلة إنَّها طبخت من أجل عبد المعطي، وأكل الجميع. وعندما رأت أعداد المتحلقين حول الطنجرة، قالت إنها خجلانة من نفسها، فلو علمت أن عبد المعطي سيدعو كل المخيم، لطبخت أكثر. عبد المعطي قال لها، وفمه مليء بالبرغل، إنَّه سيكرر أعجوبة السمك، «ألم يوزّع نبيّكم خمس سمكات على آلاف الناس»؟

أكلنا وضحكنا، وكانت السعادة تغمر وجه جميلة المستدير، لم أرَ في حياتي امرأة بمثل هذه السعادة، لم تمدَّ يدها إلى الطعام، وعبد المعطي يجلس إلى جانبها ويحاول إطعامها من يده، كأنَّهما صديقان قديمان، هي تقول له «يا شريكي»، لأنَّه كتب معها الخبر الذي أدّى إلى فكّ الحصار عن المخيم، وهو يقول لها «شريكتي»، لأنَّها طبخت له.

أين جميلة الآن؟

من الواجب أن أتصل بها كي أخبرها عن موت عبد المعطي، ولكن ماذا لو لم تتذكّره؟ ماذا لو تكلّمت معي كأن طنجرة البرغل لم تحصل؟

لن أتصل بها، ولكن يا ليتها تأتي مع طنجرة برغل جديدة. الرجل مات، والموت يستدعي الأكل، لا شيء يثير الجوع مثل الموت.

مات عبد المعطي، وماتت معه حكاية البعنة وساحتها، ورفضه العنيد البقاء داخل بيته في المخيم.

«أقاتل وأموت، لكن لن أسمح بأن يتكرر ذلك أبدًا».

قال عبد المعطي، «بعد شعب هربنا إلى أحراش البعنة وأقمنا فيها. حوّلنا حراماتنا خيمًا. نرمي الحرام على غصن الشجرة، ونربطه بالأرض، فيصبح نصف خيمة. عشنا في أنصاف الخيم أكثر من شهر. ثم سقطت البعنة ودير الأسد. علمنا بسقوطهما حين جاء اليهود وطوقونا وأخذونا إلى ساحة البعنة. والبعنة لا ساحة لها. لا أعرف قرية تشبهها في العالم، ساحة البعنة مشتركة بينها وبين دير الأسد، كأنَّهما قرية واحدة. جمعونا في الساحة وتركونا مصلوبين تحت الشمس. يومها سمعت كلمة تشميسة لأوّل مرّة. قال رجل يقف إلى جانبي، إنَّهم يشمسوننا قبل قتلنا. ثم فهمت معنى الكلمة في معتقل أنصار. التشميسة، في ذلك المعتقل الضخم الذي بناه الإسرائيليُّون بعد احتلالهم لبنان عام ١٩٨٢، كانت وسيلة التعذيب الأساسية. يربطون يديك ورجليك، ويلقون بك تحت الشمس، فتتلوّى وتبرم وتتدحرج باحثًا عن لحظة لتخفيف احتراقك، تبقى هكذا من طلوع الشمس حتى غيابها. ثم يأتي الضابط، ويأمر بفكّ قدميك ويديك، ويطلب منك الوقوف. فتكتشف أنَّك صرت عاجزًا عن أي شيء. الشمس غابت تحت جلدك، والنار تعشّش في داخلك. الغروب هو اللعنة والموت. حين تتلاشى الشمس في الأفق، يبدأ احتراقك الداخلي، كأنَّ الشمس نامت في عظامك، بدل أن تنام في البحر.

كنّا في ساحة البعنة، وكانت الشمس، وقال الرجل إنَّهم يشمّسوننا قبل قتلنا، ولم أفهم قصده إلا حين قتلونا.

كنا خلقًا كبيرًا يتلوّى تحت الشمس في انتظار الموت. ثم اكتشفنا أنَّنا سنقضي كل حياتنا في التشميسة. ماذا تسمي المخيّم؟ أنت ترى بيوتًا الآن، لكن المخيم كان في البداية مؤلّفًا من مجموعة خيام، ثم بعد أن بنينا حيطان الأكواخ، لم يسمحوا لنا بأن نسقفها، قيل إنَّنا إذا سقفنا بيوتنا

ننسى فلسطين! فوضعنا ألواح الزنكو. هل تعلم ماذا تفعل بك ألواح الزنكو تحت شمس بيروت؟ هل تعلم ماذا يعني ليل الزنكو الذي تشرّب شمس النهار.

في ساحة البعنة ـ دير الأسد، شمّسونا كل النهار، بعد أن فصلوا نساءنا عنّا. أمروا النساء بالذهاب إلى لبنان، وتركونا نحترق.

رجلان لا أعرفهما، طلبا إذنًا لجلب الماء، فقال لهما الضابط اتبعاني، خرجا من الساحة ومشيا في اتجاه النبع، وسمعنا صوت رصاصتين. عاد الضابط ولم يعد الرجلان، ولم يعد أحد يملك جرأة إعلان عطشه.

وبعد أكثر من ساعة، وقف كهل وسأل عن الماء. نظر إليه الضابط باحتقار، سحب مسدسه، قرّب فوهته من جبين الرجل، وضع الفوهة بين عينيه، ولم يطلق النار. بدأ الكهل يرتجف. كنت متأكّدًا من أنّه سيقتله، لكنّه لم يقتله، أعاد الضابط مسدسه إلى خصره، واستمر الرجل في ارتجافته إلى ما شاء اللّه.

ثم فتّشونا، وسرقوا كل شيء، المال والساعات والخواتم. وبعد انتهاء التفتيش، ابتعد الجنود، ورأينا يد الضابط ترتفع وتهبط، والجنود يجرّون الرجل الذي تسقط عليه يد الضابط. سقطت اليد على أكثر من مئتي رجل. أركبوا الرجال في شاحنات ذهبت بهم في اتجاه الرامة. وحتى الآن لا نعرف ماذا حلّ بهم. ثم أمرونا بالذهاب إلى لبنان. وبدأ الرصاص. وجدنا أنفسنا في الحقول مع نسائنا وأطفالنا، ومشينا ساعات لا تنتهي. مشينا حتى وصلنا إلى قرية ساجور، نمنا في حقولها، وتابعنا سيرنا في الصباح إلى بيت جن، وهناك أطعمنا الدروز، مشينا أكثر من يومين، قبل أن نصل إلى لبنان.

ابني حامد، كان في العاشرة وأصيبت ركبته اليمنى، ربطت ركبته وحملته، لكنّي كنت مرهقًا، أنزلته ومشى، وحين وصلنا إلى لبنان، كان قد أصبح أعرج.

ساهرة، ابنة إبراهيم الحاج حسن، أنجبت بنتًا في حقول ساجور. ولا نعلم ماذا أصابها، سحبت البنت من تحتها، وصارت ترقص، وهي تقول إنّها ستسمّيها ساحرة. ساحرة ابنة ساهرة.

حاول إبراهيم الحاج حسن تهدئة ابنته، والمرأة لا تبالي. رقصت كأنَّها في حفلة عرس، وقالت إنَّها تسمع الطبول تقرع في أذنيها. قالت إنَّها لن تتوقَّف عن الرقص، حتى يعود زوجها. يا حسرة على الزوج، من أين سيأتي بعد أن أخذوه إلى الرّامة.

تابعت ساهرة رقصها حتى وصلنا إلى لبنان، وهناك قالوا، إنَّها أصيبت بالجنون، والله أعلم.

هل فهمت يا ابني لماذا لا أريد البقاء في البيت. أنا ختيار يحارب، لأنَّي أفضّل الموت على التشميسة، شمّسوني في البعنة عام ٤٨، وشمّسوني في أنصار عام ٨٢، والآن خلص، أموت ولا أتشمَّس».

يا عبد المعطي، أنت تموت الآن.

الجسم المتصلّب يستريح ويرتخي. ملامحك تعود إليك. ووجهك يصفو. والتجاعيد تمّحي عن جبينك العريض. والغمامة تنقشع عن عينيك.

وأنا أقف.

ماذا أقول لهذا الرجل الذي أدعوه أبي، وهو ليس أبي.

أفتح عينيه، أقطّر فيهما دموعًا، ولا يبكي.

عبد المعطي يموت، وأنت لا تبكي. أنتَ تموت ولا تبكي.

أخبرك، وأروي لك، وأنت لا تسمع. قل لي يا عبد المعطي ماذا يجب أن أفعل. خذني معك في رحلتك إلى هناك، فلقد اشتقت إليكم، أعيش معكم واشتاق إليكم، وتغيبون.

ابكِ قليلاً يا أبي، صرخة واحدة، وينتهي كل شيء، صرخة واحدة وتعيش، لكنَّك لا تريد، أو لم تعد، أو فقدت رغبتك. وأنا معك ولست معك. أنا مشغول، عليَّ تفقّد المرضى الآخرين، هكذا قرّر لي الدكتور أمجد. لا تخف، لن أتركك طويلاً، أخطف رجلي، أتفقدهم، وأعود لأبقى إلى جانبك.

وماذا بعد؟

صحيح، ماذا أيضًا؟

منذ ثلاثة أشهر وأنا أروي لك الحكايات التي أعرفها ولا أعرفها، وأنت

عاجز عن تصحيح معلوماتي ولذلك أخطئ. الحرية يا أبي هي أن نكون قادرين على الخطأ. الآن أشعر بحريّتي، لأنني معك أخطئ كما أحب، وأتراجع عن خطإي متى أردت، وأروي، وأروي.

نشف ريقي من كثرة الكلام، نشفت ويبستُ.

أشعر بالماء يخرج مع كلماتي، ويبقّع الأرض من حولي. أشعر أنني أغرق في مائي، هل تريد لي الغرق؟ مدّ يدك، أرجوك مدّ يدك وانتشلني من بركة الحكاية التي أتخبّط في مائها. الحكايات تغرقني، وأنا سجين لا يملك سوى حكايات يؤلّفها عن حريّته. أنا سجين المستشفى، وسجين الحكاية. أغرق في الماء، والماء حولي. أبتلع الماء وابتلع الكلمات وأحكي.

ماذا تريد مني؟

أخبرتك كل حكاياتك، كل الماضي وكل الحاضر، وأنت لا تبالي.

صرت الآن تعرف القصّة كلّها، أمّا أنا فلا. هل تصدّق؟ أخبرتك قصة لا أعرفها. لا أفهم شيئًا. فالأشياء تتداعى في رأسي. حتى أسماؤكم أكاد أنساها وأمزجها ببعضها بعضًا.

أنت تعرف، أما أنا فلا.

لا أعرف، ويجب أن أعرف كي أروي. لكنّي لا أعرف الحكاية، وعليّ البحث عنها من الأوّل. ما رأيك؟

هل تريد الأول، ولكن هذه المرة سأخبر على ذوقي، لن أخضع لذاكرتك المشوّشة، ولا للأطياف التي تحوم حول عينيك المغمضتين. سأخبرك كل شيء، ولكن ليس الآن. عليّ أن أذهب الآن. سأفتح الراديو كي تستمع إلى فيروز. صوت فيروز يهدّئ الأعصاب، ويفرش على العينين لونه الليلكي. أتركك مع الليلكي وأذهب.

الجزء الثاني
موت نميلة

أريد أن أعتذر.

أعـرف أنّ لا شـيء يبـرِّر غـيـابي عنك لأكـثـر من أسـبـوعين. سـامـحني أرجوك، وحاول أن تفـهم. لا أريدك أن تعتقد أنّني مثلهم، لا يا سيدي، أنا أحتقر المناصب، ومنصبي الجديد لا أهمية له. ولكن لا أعلم مـاذا حلّ بي. تركتك تلك الليلة، ذهبت إلى غـرفـتي كي أنام. وفي السـرير بدأت أخـتنق واختفى الأوكسيجين. استلقيت على سريري، ودون وعي مني، بدأت أبحث عن قنينة الأوكسيجين التي وضعتها في غرفتك تحسّبًا لأي طارئ. جهّزت غرفتك بالأوكسيجـين، وذهبت لأنام. وفي النوم اختنق كل شيء. استيقظت، وكان قلبي ينبض بإيقاع متسارع، والعرق يغطيني والهواء... لم يعد الهواء يكفـيني. صـرت أتنفّس بصـوت مـرتفع، أشـهق الهواء ولا هواء. وضـربني التنمُّل فـي كل أنحـائي، رأسـي ويدي اليـسـرى وبطني وظـهـري. حـاولت النهوض من السرير، رفعت رأسي وجلست بتثاقل، حاولت زر الكهرباء، لا كهرباء. حملت رأسـي بيدي، وكان الظـلام. ظلام كثيف يقترب. رفـعت يدي أردّ الظلام، لكن يدي اليمنى كانت مشلولة. كل شيء كان كثيفًا ومظلمًا ولا أوكسيجين. وقلت سأموت. لكنّي بدلاً من أن أنام على ظهري منتظرًا ملاك الموت، قفزت من السرير كالمجنون، وركضت صوب النافذة، وضعت رأسي في الخـارج، وصـرت أتنفّس كمن يأكل. أكلت كل هواء العـالم، لكن هواء العالم لا يكفي. لبست ثيابي بسرعة، وخرجت من غرفتي. مشيت في الممر، نزلت الدرج إلى الطابق الأرضي، وصعدته من جديد. أستطيع القول، إنّها كانت ليلة الدرج. كنت أنزل وأصعد مهرولاً، ألهث وأركض، كأني أردت أن أثبت لنفسي أنّني ما زلت حيّاً. تخيّل معي المشهد: رجل وحيد في الظلام،

يركض ويلهث ويتنفّس، يصعد الدرج وينزله عشرات المرّات كي لا يموت. لحظتها، اتّخذت قراري الأخير، دخلت غرفتي، ونمت على سريري.

وأخيرًا، أصبح خليل أيوب، هذا الواقف أمامك، رئيسًا للممرّضين في مستشفى الجليل. وافقت على اقتراح الدكتور أمجد، وذهبت إليه في الصباح، وأبلغته قراري.

والآن سامحني.

مرَّ الأسبوعان بسرعة غريبة، واللّه لم أجد وقتًا كي أحكّ رأسي، طلبت من زينب الاهتمام بك، لكن لا أدري يا سيّدي، لماذا لم أكن أستطيع. كنت أصل باب غرفتك، وبدل أن أدخل، أتراجع إلى الوراء، كأنَّ سدّاً انتصب في وجهي.

المسألة لا علاقة لها بمنصبي الجديد. أنا لست من هؤلاء، أنت تعرف، لكنّي شعرت، فقط شعرت أنّني أعيش في مكان معلّق في الفضاء، وقلت ربما، ربما ينتهي الخوف، وأعود إلى بيتي. فلقد اشتقت إلى بيتي، ووسادة جدّتي، ورائحة العفونة. قلت أستطيع العودة، لكنّي لم أعد. واللّه لم أجرؤ على الخروج إلى طرقات المخيّم إلا حين جاء الوفد الفرنسي، يومها اكتشفت سليم، الذي سأخبرك عنه كثيرًا، لكن خيبتي وخوفي، دفعاني إلى المستشفى من جديد.

هل غفرت لي؟

عدت إليك، نظّمت كل شيء، واقتنعت أن الخروج من المستشفى لا جدوى منه. نعود كما كنّا، أحمّمك وأعطّرك وأعتني بك، وسأروي لك الحكاية من الأول، كما وعدتك من أسبوعين. يومها تركتك على أمل أن ألقاك في الصباح، وحدثت ليلة الأوكسيجين، وفي الصباح ذهبت إلى مكتب الدكتور أمجد، قرعت الباب وفتحته ووقفت. وكان كالعادة، يمد قدميه فوق طاولة مكتبه، ويقرأ الجريدة، وكالعادة ادّعى أنّه لم يشعر بوجودي.

وقفت كالأبله، سعلت، وكان دخان غليونه يتصاعد من خلف الجريدة التي تغطّي وجهه ونصفه الأعلى.

«أنا موافق يا دكتور»، قلت «دكتور أمجد... دكتور أمجد.. أنا...».

أزاح الجريدة عن وجهه.

«أهلاً، أهلاً، تفضّل، لا مؤاخذة، لم أنتبه».

«أنا موافق على العمل» قلت.

أنزل قدميه، اعتدل في جلسته، أزاح الصحيفة جانبًا، رفع إصبعه وارتفع صوته، «تتسلّم عملك فورًا». وقرع على جرس ملتصق بطاولته، فدخلت زينب إلى مكتبه.

«إنّه المسؤول عن كلّ شيء، من الآن فصاعدًا».

عاد الدكتور أمجد إلى تغطية وجهه بالصحيفة، ووقفت زينب لا تدري ماذا تفعل.

«ولكن يا دكتور»، قلت.

«ما زلتِ هنا؟» قال من خلف صحيفته.

طلبت منه أن يشرح لي قليلاً طبيعة عملي الجديد.

«بعدين بعدين»، قال، «اذهب مع زينب واستلم».

واستلمت.

أنت تعتقد يا سيّدي أنّني تسلمت إدارة مستشفى! صحيح أنّني أصبحت الآن المدير العمليّ للمستشفى، بعد أن وجد الدكتور أمجد في تعييني حجّة للتغيب بشكل دائم عن عمله. عدت طبيبًا كما كنت ولكن! هذه الـ «ولكن» تلخّص كل شيء. أنا طبيب، لكن أمجد هو الطبيب الحقيقي! أنا أفحص وأقرّر وأصف الدواء، وكلّ شيء، لكن المرضى يقولون إنّهم في انتظار رأي الطبيب.

وحين يأتي الطبيب، يكون لا رأي له. يوافق على تشخيصي وأدويتي، ومع ذلك ينتظره المرضى، كأنّهم لا يؤمنون إلا بالشهادة. مع أنّه والله لا يعرف شيئًا بس ما عليش، هكذا أفضل، أقرِّر ولا أتحمّل المسؤولية.

تسلّمت إدارة المستشفى، وصرت رئيسًا لثلاثة ممرّضين. زينب التي تعرفها، لأنّها كانت أول من استقبلك في المستشفى، وكميل الذي سرق الراديو! لكنّه شاب لطيف، صوته جميل، ويحفظ جميع أغنيات عبد الحليم حافظ، وينتظر الفيزا كي يهاجر. وحمدي المصري، وهو ليس ممرّضًا،

لكنّنا نسميه ممرّضًا كي لا يبدو المستشفى فارغًا، هل يمكن أن لا يوجد في مستشفى طويل عريض يتسع لأكثر من أربعين سريرًا سوى ممرِّضَيْن! وصار حمدي يساعدنا على حمل المرضى والعناية بهم، مع أنّه في الأساس بوّاب. وهناك كاميليا الطباخة التي أبلغتني قرارها بترك المستشفى في نهاية الشهر. كاميليا أيضًا، أضفناها إلى قائمة الممرّضين، وبدأتُ تعليمها أوليّات المهنة.

ومشي الحال.

استطعت ضبط الأمور في الحدّ الأدنى، وهذا خطإي. فحين يتم ضبط الأمور نكتشف الغلط. وكل شيء هنا غلط. لا أدوية ولا أمصال ولا شيء كأنّنا لسنا في مستشفى، في الحقيقة نحن لسنا في مستشفى، نحن في مبنى شبه أبيض معلّق في الهواء، وأنا رئيس ممرّضيه ومديره. أحاول تنظيم الأمور وأكتشف الاستحالة، والمؤقت. اعتقدت، حين وافقت على تسلّم عملي الجديد، أنّني سأجد حلاً لمشكلتي، لكنّ مشكلتي صارت جزءًا من مشكلة المستشفى.

حمدي المصري تمّ استبداله بقرار من الدكتور أمجد. طرده دون إنذار، واستعاض عنه بشاب سوري يدعى عمر. حمدي المسكين، ضبّ أغراضه وهو يبكي.

«على ماذا تبكي»؟ سألته، «اذهب وابحث لك عن عمل، هنا تكاد لا تحصل على ثمن طعامك». قال إنّه سيعود إلى مصر، طردوه لأنّه لا يحمل إجازة عمل.

«وأنا أيضًا، لا أحمل إجازة عمل»، قلت.

قال إنّه هنا منذ ثلاث سنوات، جاء إلى بيروت عن طريق أحد المهرّبين في دمشق، فالمصريّ لا يحتاج تأشيرة من أجل دخول سوريا. دفع سبعمئة دولار للمهرّب السوري الذي أوصله إلى بيروت. أراد بيروت محطّة للهجرة إلى ألمانيا. قال إنّه لا يريد مغادرة بيروت، لأنّه في حاجة إلى ألفي دولار، كي يدبّروا له فيزا إلى بلد أوروبي، ومن هناك يتسلّل إلى ألمانيا. والآن سيتمّ ترحيله إلى مصر، ويعود إلى قريته بلا مال، فكيف سيتزوّج؟

أما السوري، الذي يُدعى عمر، فلا يكلِّم أحدًا. من المفترض أن يعمل

حارسًا وخادمًا. لكنّه لا يحرس ولا ينظّف. يملك سيارة صغيرة يتجوّل بها كل النهار، ويعود ليلاً لينام في المستشفى.

الدكتور أمجد، طلب مني عدم اعتراضه.

«اتركه يا أخي، هو حر، وأنت يجب أن تفهم دون أن أقول لك، لم نعد نجرؤ على التفكير في هذه الأشياء بيننا وبين أنفسنا، علينا أن نقبل وكفى، أجبروني على طرد المصري، وجلبوا هذا كي يراقب المستشفى من الداخل، وعليك أن تخرس، وتفهم البقيّة».

والبقيّة يا سيدي، هي أنّنا نعيش في مكان مليء بالأجهزة الأمنية. كل جهاز يراقب جهازًا آخر، وعلينا أن نتعامل معهم وكأنّنا لا ندري. وأنا لا أتعاطى مع عمر، وعملياً كاميليا الطباخة هي التي تحرس في النهار. تقف في المدخل، وتأذن للناس وتسجّل أسماءهم. وكفى.

نحن لا نحتاج جهازًا كبيرًا، صحيح أن هناك ١٥ مريضًا في المستشفى، لكنّ أهلهم يقومون بكل شيء. يغيّرون الشراشف، ويجلبون الطعام وينظفون الغرف. لا أفهم لماذا يضعون مرضاهم في هذا المستشفى، البيت أفضل، لكنّهم هنا يشعرون بالأمان، أو يجدون مبرّرًا للخروج من منازلهم. نحن لا نقدم لهم شيئًا سوى الأدوية المجّانيّة، أما الشافي فهو الله.

لن أدخلك في تفاصيل هذا العالم الغريب، الذي وجدت نفسي فيه، فأنت تعبان، وتحتاج إلى راحة.

عدت إليك الآن، وكل شيء سيرجع كما كان. حالتك ليست جيدة، بسبب القروح. زينب اهتمّت بك خلال غيابي عنك، لكنّها لم تفعل ما كنت أقوم به أنا. حمّمتك مرة كل يومين، ولهذا كبرت قروح ظهرك في هذا الشكل. لا تخف، القروح ستزول خلال أقل من أسبوع، وسترجع طفلي المدلّل، سأحمّمك مرتين في اليوم الواحد، وأدهنك بالمراهم، وكل شيء.

هل غفرت لي؟

والله صحبتك أفضل من صحبة كل هؤلاء. أراهم يمشون ويحكون كأنّهم موتى، أما نحن فلا، نحن لا نموت لأنّنا نبحث عن نكهة الحياة، وننتظر.

أعرف أنَّك تنتظر النهاية، ولكنِّي أؤكِّد لك الآن، كما أكّدت لك في الماضي، أنَّ النهاية لن تكون إلا على شكل رجل يختفي في مغارة باب الشمس.

أنا متفائل: لقد وعدني سليم أسعد بتدبير فرشة ماء لك، وستكتشف عندما تنام على الماء، أن جسمك سيعود إليك.

نسيت أن أخبرك عن سليم أسعد.

لقد جنَّنني هذا الفتى. التقيته مصادفةً، ثم صار يأتي كل يوم إلى مكتبي طالبًا العمل في المستشفى. فتى جميل وغريب ويكاد يطير. حين يقف مودِّعًا أشعر أنَّه لن يمشي، بل سيطير. يقف أمامي مادّاً يده، أمدّ يدي أسلّم بسرعة وأسحبها.

«أي عمل يا دكتور».

«أنا لست دكتورًا، ولا أملك عملاً».

يبتسم، يقف، يسلّم، يكاد يطير، ثم يغادر.

سحرني هذا الفتى، وأنا مستعد أن أفعل أي شيء كي أجد له عملاً. سأعيّنه مسؤولاً عن الأرشيف، ما رأيك؟ نحن في حاجة إلى من يقوم بضبط ملفّات المستشفى. أعرف أن أمجد لن يقتنع، لكنِّي سأقنعه رغمًا عنه.

لماذا أخبرك عن سليم أسعد؟

هل لأنَّه أذهلني وأقنعني أنَّ كل شيء ممكن؟

سليم أسعد علّمني أن الخدعة هي الحياة.

اسمع. كنت في مكتبي (صار عندي مكتب مستقلّ وتلفون) عندما جاءت زينب وقالت إنَّ هناك جماعة من الأجانب يسألون عن الدكتور. أمجد لم يكن هنا كالعادة. قلت لها أن تدخلهم. لِمَ لا؟ أجانب ويريدون الطبيب، وأنا طبيب.

كانوا ثلاثة، رجلان وامرأة. تكلّموا معي بالفرنسيَّة، فجاوبتهم بإنكليزيّتي الصينيَّة، فتكلّموا بإنكليزيَّتهم الفرنسيَّة وتفاهمنا.

الرجل الأصلع الطويل الذي يبدو أنَّه رئيسهم تكلَّم وقال إنَّهم مجموعة من الفنانين الفرنسيِّين، جاؤوا إلى بيروت من أجل زيارة مخيّم شاتيلا.

قالوا إنَّهم التقوا أبو أكرم، مسؤول الجبهة الشعبيَّة في المخيم، الذي نصحهم بزيارة المستشفى. قالوا إنَّهم يريدون التعرُّف إلى أوضاع المخيم.

قدّمَتْ لهم زينب الشاي، أشعلوا السجائر، ولفحتني رائحة الدخان الفرنسي المطبوخ.

قال كبيرهم، إنَّهم أعضاء في فرقة مسرحية، وإنَّهم يستعدُّون لتقديم مسرحيّة لكاتب فرنسي اسمه جان جنيه عنوانها «أربع ساعات في شاتيلا»، وإنَّهم قرَّروا قبل البدء بالتمارين المجيء إلى بيروت، كي يتعرَّفوا أوضاع مخيَّم شاتيلا. وقدّم لي الفتاة الفرنسيَّة، التي ستكون الممثلة الوحيدة في العرض.

«إنَّها مونودراما»، قال لي.

ابتسمت الفتاة، وقالت إن اسمها كاترين. كانت بيضاء، وشعرها الأسود القصير يكاد لا يستقر على رأسها. كل شيء فيها يكاد يتفكك، كأن أعضاءها ملتصقة ببعضها بعضًا بشكل اصطناعي، وتنظر إليّ وإلى المكان، بعينين راقصتين.

«الممثلة»، قال الرجل الطويل الأصلع.

«إنَّها مسرحية من ممثلة واحدة، هي»، وأشار إلى كاترين، «تروي الحكاية وحدها على المسرح».

«مسرحيّة من دون ممثلين»! سألت.

«لا يوجد سوى ممثلة واحدة، أردنا الحفاظ على روح النص، لا نريد الاعتداء على جان جنيه، أكيد تعرفه».

قلت أعرفه، رغم أنَّها كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها هذا الاسم.

«إنَّه الكاتب الفرنسي الذي عاش مع الفدائيين في الأردن، وكتب عنهم كتابًا جميلاً اسمه «الأسير العاشق»، هل التقيت به»؟

«لا، لم ألتقِ به، لكنِّي سمعت عنه كثيرًا».

«هل قرأت كتبه»؟

«لا لم أقرأها، لكن عندي فكرة عن أعماله».

«إنَّه كاتب عظيم»، قال الطويل الأصلع، «لقد كتب أجمل نص عن مذبحة شاتيلا».

«أعرف».

«وهو مؤيّد لكم».

«أعرف».

«لذلك نطلب مساعدتك».

«مساعدتي أنا»!؟

«السيد أبو أكرم اقترح أن نبدأ جولتنا بالمستشفى، قال إنَّ الحديث مع الدكتور...» أخرج ورقة من جيبه وقرأ الاسم، «الدكتور أمجد، أنت الدكتور أمجد».

«لا، أنا الدكتور خليل».

«أنت المسؤول»؟

«تقريبًا».

«والدكتور أمجد، هل سنلتقيه، السيد أبو أكرم قال إنَّه يعرف الكثير».

«غدًا، إذا مررتم في مثل هذا الوقت، يكون هنا».

قلت غدًا، رغم علمي أنَّه لم يأتِ اليوم، ولن يأتي غدًا، لأنَّه دبّر لنفسه عملاً في مستشفى الدكتور عربيد في بيروت، حيث يقبض مرتّبًا جدّيًا، وليس كحالنا هنا، ولكن ماذا أقول؟ هل نفضح أنفسنا أمام الأجانب!

قال الأصلع الطويل إنَّه يريد طرح بعض الأسئلة. لكنَّها وقفت، الممثلة وقفت وقالت شيئًا بلهجة فرنسيَّة آمرة.

اعتذر المخرج، وطلب مني، إذا كان هذا ممكنًا، اصطحابهم في جولة. «كاترين تفضل أن ترى بعينيها قبل أن تسمع»، قال.

«ولكنّي لا أستطيع مغادرة المستشفى».

«أرجوك»، قال.

قال أرجوك، وهو يعلم أنَّني سأوافق. فهؤلاء الأجانب يعتقدون أن مجرد زيارتهم لنا، تضحية كافية من قبلهم كي نوافق على كل طلباتهم،

وأنا لم أكن في هذا الوارد. لولا أنّني قلت بيني وبين نفسي، إنّها قد تكون مناسبة للخروج من هذا المستشفى اللعين. فمنذ ثلاثة أشهر وأنا سجين هنا، وآن لي أن أخرج. فلأجرّب حظّي. شكل من أشكال الحماية أن تكون جزءًا من مجموعة مؤلفة من ثلاثة فرنسيين، لن يجرؤ أحد على قتلي أمامهم. وهبطت الشجاعة عليّ يا سيدي، ووافقت. طلبت منهم الانتظار قليلاً، كي أنهي بعض الأعمال. قرعت الجرس، جاءت زينب، فأمرت لهم بثلاثة فناجين قهوة وغادرتهم. ذهبت إلى غرفتي وتحمّمت. كنت مثل طفل صغير سوف يذهب مشوارًا. تحمّمت ولبست ملابس نظيفة وعدت إليهم. الفتاة ابتسمت لي، يبدو أنّها انتبهت إلى تغيُّر شكلي، وشمّت رائحة الصابون التي خرجت من شعر رأسي المليء بالشيب.

قلت نمشي، ولكن ماذا تريدون أن تشاهدوا؟

«كل شيء» قالت الفتاة.

قال المخرج إنّه يتمنّى لو كان بامكاننا التحدُّث إلى عائلات الضحايا.

فهمت أنّه يقصد ضحايا مذبحة ١٩٨٢، وليس المذابح التي تلتها.

«المقبرة»، قال الرجل الثاني، الذي عرفت أن اسمه دانيال، حين أضعناه في أزقة المخيم، كان مصمّم الديكور، ويتكلّم القليل من العربيّة.

«المقبرة»، قال دانيال.

قلت إنّ المسألة تحتاج إلى شرح. وشرحت لهم أنّ المقبرة الجماعية لضحايا المذبحة، لم تعد موجودة، فلقد أصبحت خارج المخيم بعد أن تمّ تصغيره، عبر التدمير المنظّم الذي تعرّض له خلال حرب المخيمات. كما شرحت لهم أن مقبرة شهداء المخيم الذين قتلوا بعد المذبحة، صارت داخل الجامع. وسألتهم في أية مقبرة نبدأ؟

«أنت تقرر، ونحن نتبعك»، قال كبيرهم.

خرجنا من المستشفى، تعمّدت أن أمشي في وسطهم، وكان دانيال يتقدّمنا، والفتاة القصيرة المبرومة، تغيّر مكانها كل الوقت، وتمشي حولنا، تحمل قلمًا في يدها، ترفعه إلى شفتيها كأنّها تريد أن تحكي ولا تحكي. وحين وصلنا إلى الشارع الرئيسي، أشرت لهم قائلاً: «هذا هو الشارع، الجثث كانت تتكوّم هنا، وفي الأزقّة المحيطة». اقتربت الفتاة مني، رفعت

قلمها إلى مستوى شفتيها ورددت ورائي: «هذا هو الشارع»، ثم استندت إليّ، القت برأسها على جانب كتفي وجمدت في مكانها. حاولت أن أزيح قليلاً، فهذه الحركات غير مستساغة هنا في المخيم، لكنَّها لم تغيّر وقفتها. اعتقدت أنَّها تبكي، لأنَّني أحسست ارتجافتها على كتفي. التفتّ إليها، برمتُ، فسقط رأسها على صدري، أمسكتها من كتفيها وأعدتها إلى الوراء، وقلت نمشي.

سألني دانيال عن معنى الجثث العمودية، قال إنَّ جان جنيه وصف الجثث بالعموديَّة؟

«طبعًا، طبعًا»، أجبته. «كل شيء جرى هنا». ولم أخبرهم عن الذباب. شعرت أنَّني لا أستطيع، لا أدري لماذا سكتّ، رغم أنَّني كنت مصمّمًا على إخبارهم الحكاية. قلت في نفسي، وأنا أتحمَّم، إنَّ حكاية الذباب سوف تكون محور الزيارة. سأخبرهم كيف خرجت من المستشفى، وكيف كانت القنابل الضوئية التي يطلقها الجيش الإسرائيلي تشعل ليل المخيم، وكيف صار الليل نهارًا من الدم والخوف.

قلت للمسلّحين الذين اقتحموا المستشفى، إنَّني تركيّ. تكلَّمت معهم بالإنكليزيّة، وقلت إنَّني طبيب تركي، ولا أسمح لهم بتدنيس حرمة المستشفى. وصدّقوني! أنتَ تعلم ماذا فعلوا بالمرّضين الفلسطينيين، لكنَّهم صدقوني أو نسوني. فخرجت هاربًا من المستشفى، أعلم أنَّه كان يجب عليّ البقاء، لكنِّي خرجت تائهًا في ذلك الليل المضاء بالنار. يا إلهي، لا أذكر من تلك الليلة سوى الظلال، ركضت، وكانت البيوت تخرج من العتمة إلى الضوء، ثم تغوص في العتمة من جديد. ركضت إلى بيت أم حسن، وكنت أرتجف خوفًا. أروي لك الآن، وأخجل من نفسي، كأنَّ الإنسان يستطيع أن يصير في لحظة مفاجأة نفسه، ثم ينسى. وأنا نسيت ذلك البكاء الذي حوّلني قطرات من الماء في بيت أم حسن. وأم حسن بكت أيضًا، لكنَّها لم تذكّرني مرة ببكائي وخوفي. حتى عندما، هل تذكر، عندما نجحنا أخيرًا في بناء سور حول المقبرة الجماعية، وكيف اجتمعت النساء وندبن. يومها وقفت أم حسن ونهرتهنّ، وقالت لا بكاء، «الحمد للّه أنَّنا استطعنا جمعهم في موتهم، كما جمعهم الدهر في حياتهم».

قالت ممنوع، وسكت الجميع.

ثم انفجرت أم أحمد السعدي بزغرودة طويلة، وصرخت، «انتصرنا يا جماعة، انتصرنا وصار عندنا مقبرة». كانت أم أحمد السعدي تزغرد وتقفز. أم أحمد فقدت أولادها السبعة وزوجها وأمها في المذبحة، ولم يبق لها سوى ابنتها دنيا. أم أحمد زغردت وقفزت وبدأت الدموع. ترك الناس المقبرة، وتجمّعوا حول المرأة.

كانت أم أحمد السعدي أكثر حزنًا من مقبرة. قالت إن بطنها مقبرة. قالت إنّها تشمّ الموت في أحشائها، وتشم الدم.

تجمّع الناس حول أم أحمد، وكانت ابنتها تقف بعكازتيها. في ذلك اليوم، رأيت دنيا من جديد، كانت مجرّد عينين معلّقتين على وجه شاحب مستطيل، كأنّهما سقطتا من مكان بعيد، والتصقتا على ذلك الوجه الرملي. كان وجهها رمليّاً، أصفر أو أسمر. وكانت تقف بعينيها المفتوحتين، تضع عكازتيها تحت إبطيها. وتتلفّت، علّ أحدًا يكلّمها. اقتربت منها وسألتها عن أحوالها. قالت إنّها تبحث عن عمل، اقترحتُ عليها المستشفى، قالت إنّها قضت سنتين في المستشفى، وتكره المستشفيات. قالت إنّها تريد السفر إلى تونس، وسألتني إذا كنت أستطيع أن أفعل شيئًا.

يومها، لم أكن أعرف قصتها، قصتها بالنسبة إليّ كانت كناية عن كتلة من اللحم المدمّى، المرميّ على مدخل المستشفى. حاولت معالجتها، ثم اقترحت نقلها إلى مستشفى الجامعة الأميركية، لأنّنا لا نملك الإمكانيات الطبية لعلاجها. كانت محطّمة. كسور في الحوض والصدر. دماء وثقوب في كل مكان. نقلوها إلى مستشفى الجامعة الأميركية، حيث بقيت حوالى سنتين، ولم يخطر لي أن أزورها. فأنا كالآخرين، كنت مذهولاً لمصاب أمها. أم أحمد كانت الحكاية، والغريب أن المرأة لم تكن تأتي على ذكر ابنتها، كأن دنيا ماتت مع الذين ماتوا.

كانت دنيا تقف أمام السور، وأنا إلى جانبها، سألتها عن وضعها، فسألتني عن إمكانية السفر إلى تونس، للعمل في أحد مكاتب منظمة التحرير.

مشيت، ومشت إلى جانبي.

قالت أوصلك إلى المستشفى.

أنا أوصلك إلى البيت، أجبتها.

ابتسمت، وقالت إنَّها الآن قويّة. سألتها عن الإصابة، فقالت إنَّها لا تذكر شيئًا، بلى قالت إنَّها تذكر الركض في الشارع، ولم تستفق إلا في المستشفى.

أخبرتها، كيف اكتشف رجال الصليب الأحمر اللبناني أنَّها لم تمت. كانوا على مدخل الحفرة الجماعيّة، يرشون الكلس على الجثث، حين اكتشفها ذلك الرجل السمين، فحملها وأتى بها راكضًا إلى المستشفى. وقف أمامي ينتحب كطفل.

«يا دكتور يا دكتور، مش ميتة، بعدها طيبة يا دكتور».

رموك في غرفة الطوارئ، ووقف ذلك الشاب اللبناني السمين، ببرنسه الأبيض الذي يكاد يتمزَّق فوق لحمه، ورجاني أن أذهب معه. قال إنَّه يجب نبش المقبرة، قال ربما دفنّا الأحياء، قال دخيلك يا دكتور تعال معي. أمسكني من يدي وذهبت معه وكانت الرائحة والذباب. لا أذكر سوى الذباب. لم أر الجثث، كانوا يرشون الكلس الأبيض على الجثث المكومة المنتفخة. والذباب يطن ويصدر أصواتًا مجنونة، الرجل الأبيض يقودني من يدي، وأنا أنحني خوفًا من الذباب. كان الذباب مثل سحابة أو غطاء صوفي من الطنين الأسود والأصفر. وأنا أنحني، وهو يقودني، يفشخ فوق الجثث، ويقفز. وأنا أقفز. أفلتُّ من يده وسقطتُ أرضًا، وتمرّغت في ذلك الشيء الأبيض، نهضت مستندًا إلى الأرض والكلس، وركضت نحو المستشفى. كنت أركض وأتلفّت إلى الوراء خوفًا من أن يتبعني. أركض والكلس يتساقط مني. مسحت عيني بيدي، كي أرى، وكان الذباب يتسلَّل إلى شعري ويعشّش في داخلي. مسحت وجهي وشعري وركضت. وعندما رأتني زينب أدخل المستشفى هربت. كنا في تلك الأيام يا سيدي، نخاف القتلى. لم نكن نخاف القتلة بل القتلى. كنا نخاف الكلس، كنا نخاف أن ينهضوا، ويتقدَّموا نحونا، بالكلس الذي يغطيهم، وسحابة الذباب التي تظلِّلهم.

هكذا عاش المخيم، هكذا مات الناس. غطّوهم بالكلس الأبيض من أجل

قتل الجراثيم، ومحوا وجوههم، قبل رميهم في تلك الحفرة، التي صارت ملعبًا لكرة القدم.

لم أروِ لكاترين وجماعتها هذه الحكايات، ولم أخبرهم عن دنيا. مشيت معهم في طرقات المخيم، وأوصلتهم إلى المقبرة الجماعية، التي صارت خارج حدود المخيم الآن، وهناك شاهدوا ثلاثة أطفال يلعبون كرة القدم.

اقتربت كاترين من السياج وأسندت رأسها إلى حافته. قلت ستبكي، لكنَّها لم تبك.

«هل صحيح أنَّها المقبرة»؟ سألتني.

أومأت برأسي، لكن عدم التصديق بدا على عينيها المتراقصتين، وشعرها الأسود القصير. سألني الرجل الطويل، الذي نسيت اسمه، عن العدد.

«ألف وخمسمئة»، قلت.

أخبرتهم عن السور، قلت إنَّنا بنينا سورًا حول المقبرة. لكنَّ الحائط دمّر خلال حرب المخيمات، واستعيض عنه بهذا السياج.

قال الرجل الطويل إنَّه يريد التحدُّث مع الناس.

طبعًا، طبعًا، قلت.

عدنا إلى الطريق الرئيسي، ودخلنا المنعطف الأول على اليمين، رأينا أطفالاً يركضون في الأزقة، ونساء يجلسن أمام البيوت، يغسلن الخضر ويتحدَّثن. توقفنا أمام أحد البيوت.

«تفضّلوا»، قالت المرأة.

«شكرًا»، قلت، «معي وفد من الممثلين الفرنسيين ويريدون التحدُّث إليك قليلاً».

«أهلاً وسهلاً بالدكتور خليل، واللّه زمان، كيف الأحوال، انشاء اللّه بالك مرتاح».

قلت، بدأت النكد، وصار ما كنت أخشاه، الآن ستسألني عن شمس، وسأضطر إلى الكذب، لكن، والحمد للّه، مضت المسألة على خير، تجاهلت إشارتها، وقلت إن الفرنسيِّين يريدون منك إخبارهم عن المذبحة.

حين سمعت المرأة كلمة مذبحة، سقط الوجوم على وجهها.

«لا يا ابني، نحن مش سينما، لا».

دخلت المرأة بيتها، وأقفلت الباب في وجوهنا.

شعرت بالخجل، فأنا قلت للفرنسيين إن الناس هنا يحبُّون الضيوف، ويتكلَّمون بتلقائية، علينا فقط أن نقرع الباب وندخل.

الباب الأول أوصد في وجوهنا، ثم أوصدت كل الأبواب ولم يتكلَّم أحد.

المرأة الرابعة والأخيرة، التي قرعنا بابها، كانت لطيفة جداً، لكنَّها قالت إنَّها لن تحكي.

«قصّتي أنا، لا يا دكتور، أنا لا أريد أن أحكي عن أولادي. تعالوا نحكي شيئًا آخر. أولادي لا». ثم اقتربت مني ووشوشتني، «لا تقل لهم ما سأقوله لك الآن، هذا سر، هل تحفظ السر؟ كلما حكيت عنهم أو خاطبتهم جاؤوني في الليل، أسمع أصواتهم كأنَّها ريح تحكي، كلامهم غير مفهوم، لكنِّي أعرفهم من أصواتهم، أعرف أنَّهم لا يريدونني أن أحكي عنهم، ربما، كلما حكيت عنهم تذكَّروا المذبحة، الأموات يتذكَّرون، والذكريات مؤلمة كالسكّين».

«معك حق يا أختي، افعلي ما تريدين»، قلت لها وأنا أشير لهم بالانصراف.

«لا واللّه، تشربون الشاي».

شربنا الشاي في صالون تعلو حيطانه صور على أطرافها شرائط سوداء. نهضت كاترين، انحنت فوق الكنباية كي تتأمَّل إحدى الصور عن قرب. كانت صورة لفتاة صغيرة في حوالى العاشرة، تقف وتنورتها القصيرة ترتفع قليلاً من ناحية فخذها اليسرى، تلبس صندلاً، وتلعب بجديلتها. اقتربت كاترين في انحناءتها، وكاد وجهها أن يلتصق بالصورة، حين شدّتها المرأة من يدها إلى الوراء وقالت «اقعدي». كادت كاترين تسقط، لكنَّها جلست صامتة. وعندما خرجنا، سألني الرجل ماذا قالت المرأة لكاترين، قلت إنَّها طلبت منها الجلوس والابتعاد عن الصورة.

«لماذا»؟ سألني.

«لا أدري»، قلت.

«إنّنا نزعجهم، وأنا أفهمهم». قال.

«كان يجب أن لا نأتي»، قالت كاترين.

واختفى دانيال. خرجنا من البيت ومشينا قليلاً، ولم يعد دانيال معنا.

«أين دانيال»؟ سألت.

قال المخرج الطويل، إن دانيال هكذا، يحبّ اكتشاف الأماكن بنفسه.

«تريدون انتظاره»؟ سألت.

«لا ضرورة لذلك»، قال المخرج الطويل، «سوف يتدبّر أمر عودته إلى المستشفى وحده».

«هذا كل شيء»؟ سألت كاترين.

«هناك الجامع الذي تحوّل مقبرة»، قلت. وشرحت لهم أننا خلال الحصار الطويل الذي تعرّض له المخيم، قمنا بتحويل الجامع مقبرة، لأنّ المقبرة الأساسية جرى احتلالها وهدمها.

«لا أريد الذهاب»، «Nous sommes des voyeurs» قالت كاترين للمخرج الطويل الذي حاول أن يترجم لي كلامها. قال إنّها مأساة المثقفين والفنانين، علينا أن نذهب ونتفرّج وننفعل، ثم ننسى. وقال إنّه حين قرأ نص جان جنيه عن المذبحة، أصيب بصاعقة، قال إنّه لم يقرأ الكلمات، بل رآها. كانت الكلمات تخرج من الصفحات وتمشي في غرفته، لذلك قرّر المجيء إلى هنا، «كان عليّ أن أرى الناس، كي تعود الكلمات إلى الكتاب، وتصبح مجرّد كلمات».

لم أناقشه، فأنا لم أفهم قصده من وراء كل هذه الفذلكة، فهمت معنى كلمة voyeurs، وقلت إنّه لا حاجة للإنسان أن يكون مثقفًا كي يكون بصّاصًا؛كلنا بصّاصون. فالبصبصة هي إحدى أكبر المتع الإنسانية، اكتشاف الخفي عند الآخرين، يبرّر أخطاءنا، ويجعل الحياة أكثر احتمالاً.

قالت كاترين إن الناس على حق. «لماذا يتكلّمون معنا؟ لماذا يخبروننا؟ من نحن بالنسبة إليهم؟ عيب».

لم أخبرهم ماذا قالت لي المرأة الرابعة، شعرت أنّه لا يحق لي فضح

السر. وشعرت بشيء من الفخر، صدقني، فمتى نكتم الألم، فهذا يعني أنَّنا نعرف معناه. لا شيء يساوي الألم سوى كتمانه.

في طريق عودتنا إلى المستشفى، التقانا أبو أكرم، ودعانا إلى مكتب الجبهة الشعبية، وهناك تعرفت إلى سليم أسعد.

أنت توافقني على رأيي بأن صمت الناس كان موقفًا نبيلاً، أليس كذلك؟ كان يجب أن لا يحكوا، يعني كيف؟ لا نروي لبعضنا بعضًا، فلماذا نروي للأجانب؟ ثم ما الفائدة؟ ثم تلك الأصوات؟ هل صحيح أن أصوات الموتى تسري في أزقّة المخيم؟

ودنيا؟

لماذا تأتي صورة دنيا بعينيها الواسعتين، وكأنَّها تقف أمام المُخْرِج الفرنسي الطويل وتروي!

أنا لا أعرف دنيا، التقيت بعينيها المعلّقتين في وجهها أمام سور المقبرة، ووعدتها بأني سأحاول تدبير شيء لها في تونس، ونسيت الموضوع. وبعد ذلك، اكتشفت أن دنيا صارت الموضوع، والسبب هو الدكتورة منى عبد الكريم، أستاذة علم النفس في الجامعة اللبنانية. الدكتورة منى، تعمل في جمعية المعوقين في المخيّم، ودنيا تداوم هناك، واعتقدنا أن دنيا وجدت لنفسها عملاً. لكن لا، دنيا لم تكن تعمل، بل كانت تحكي. يأتي الصحافيّون الأجانب، فتأخذهم الدكتورة منى إلى المكتب، حيث تروي دنيا والدكتورة تترجم. وصارت دنيا حكواتية من نوع جديد؛ لا تحكي إلا للأجانب. صارت حكاية نفسها. أنا لا اعتراض لي، كل واحد يفعل ما يشاء، لكن بعد مؤتمر فندق الكارلتون، بشهر، جاؤوا بها إلى المستشفى هنا، ورفض الدكتور أمجد استقبالها. قال إنَّها حالة دائمة ولا علاج لها، لكنِّي أنا وسليم أسعد، أدخلناها بالقوة. وهي تقيم الآن في غرفة في الطابق الثاني، بالقرب من غرفتك. وضعها الصحي بالغ الصعوبة، فلقد تحطّم حوضها من جديد. أعتقد أن هناك مشكلة في العظم، لأنَّ عظمها يتآكل. دنيا اليوم تشبه جثة لا تتحرّك، وهي في حاجة إلى ممرض مختص، وأمها تزورها كل يوم، ولكن بدل أن تساعدنا تبكي. ودنيا صامتة، عيناها معلقتان في وجهها الشاحب النحيل، تنظر كأنَّها لا ترى، ولا تفتح فمها.

حكت دنيا كثيرًا، الحق على الدكتورة منى. كلنا اعتقدنا أن دنيا تعمل في مؤسسة المعوقين، لكنَّها لم تكن تعمل، كانت تحكي. جعلتها الدكتورة منى إحدى أدوات الـ Fund raising، تأمّل معي هذه العبارة التي دخلت لغتنا من القاموس الأميركي. كي نجمع المال، فنحن في حاجة إلى شفقة، ودنيا كانت قادرة على استدعاء الدموع. تأتي بها الدكتورة منى عبد الكريم وتجعلها تروي، ويمشي هذا الـ Fund raising. لا أعلم ماذا حلَّ بنا منذ الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢، صار كل المثقفين والمناضلين لا يتحدثون إلاّ عن المؤسسات الدوليَّة التي تهب المال. تحوّل المناضلون لصوصًا يا سيدي، يضبّون هذا الـ Fund raising في جيوبهم. وربما كانوا على حق! والله لم أعد أعرف شيئًا.

لكن لا.

المسألة لا علاقة لها بالدكتورة منى، فعالمة النفس كانت تقوم بوظيفتها، وربما اعتقدت أن دنيا، من كثرة ما روت قصتها، صارت تمثّل. والتمثيل ليس اعترافًا كما أنَّه لا يؤثر في حياة الممثل. يبدو أن دنيا لم تكن تمثّل، بل كانت تروي نفسها.

أنا رأيتها، كنت أتابع مؤتمر المرأة على شاشة التلفزيون، حين قالوا شهادة فلسطين، ورأيت دنيا تتقدم، محمولة على اثنتين من العصيّ، تضعهما تحت إبطيها وتمشي. قدماها ترتطمان بالأرض، حوضها يترنَّح، وتمشي ببطء وهدوء. لم تستعجل أو ترتبك، كأنَّها حفظت دورها جيّدًا. وصلت إلى المنصة، استندت إلى الطاولة، وتركت العكازتين تتساقطان أرضًا، وتحدثان دويّاً. لم تلتفت دنيا إلى الدويّ، ولا إلى الرجل الذي هرع كي يلمّ العكازتين، نظرت أمامها وبدأت تحكي. وأذهلتني. كانت هذه المرة تروي قصة مختلفة. أنا لم أكن أعرف أنَّها، كيف خبأت كل هذه الأشياء عنا، وتحكيها الآن أمام هؤلاء الأجانب. كانت تتكلّم بالانكليزيَّة، وتستعين في بعض الأحيان بكلمات عربيَّة، تسارع الدكتورة منى إلى ترجمتها.

«ركضت» قالت «ثم اغتصبوني»، "They raped me"، قالت كلمة raped وصمتت، كي تمتلئ القاعة ببقع الصمت.

«دخلوا البيت، وبدأوا إطلاق النار، كنا نلبس ثياب النوم، ونجلس في

صالون البيت. بيتنا يتألف من غرفتين، غرفة للنوم، وغرفة للتلفزيون. عندما سمعنا الانفجارات، تجمعنا في غرفة التلفزيون، كانت الكهرباء مقطوعة، لكنَّنا وجدنا أنفسنا هناك بشكل عفوي، كي نستمع إلى الأخبار».

قالت إنَّ جميع أفراد العائلة كانوا حول التلفزيون، عندما دخل مسلّحون يحملون بطاريات في أيديهم. «كان ضوء البطاريات مرعبًا، جلسنا حول التلفزيون الأخرس، وأضأنا شمعة واحدة. ثم جاءت حبال النور، وبدأ إطلاق النار. هربت، مشيت في اتجاه الباب الذي خلعه المسلحون قبل دخولهم، خرجت دون أن التفت إلى الوراء. مشيت بهدوء ولم أركض. ورأيت القنابل الضوئيّة مثل شموس صغيرة. مشيت ومشيت، ثم شعرت بشيء ساخن في فخذي الأيمن. وبدأت أركض، كنت أشعر أنَّني أركض، لكنِّي لم أكن. كنت أمشي ببطء شديد، أركض وأسمع الطلقات الرشاشة، وكأنَّها تنفجر في أذني».

قالت دنيا إنَّها ركضت في مكانها، حين هوى بها أرضًا. «اعتقدت أنَّني سقطت، لكنَّه كان، لم أر الوجه، كانت القنابل الضوئيّة كأنَّها لا تضيء، كأنَّها تحيط بالوجوه المعتمة، ولا تضيء ملامحها، هوى فوقي، صاروا كلهم فوقي. كنت قد وصلت إلى زاوية الشارع الرئيسي، بين بيتنا والشارع الرئيسي مسافة عشرة أمتار. كنت أمام دكان أبو سعدو، حين سقطت وسقطت الوجوه فوقي، They raped me، اغتصبوني وكنت لا أشعر، اعتقدت أنَّها سخونة الدم الذي يتفجَّر من فخذي اليمنى. كل شيء كان ساخنًا، كل شيء كان أسود، كل شيء. لا أستطيع تحديد كم من الوقت استمرّ ذلك، كنت كمن أغمي عليه، أرى ولا أرى، أشعر ولا أشعر».

كان وجه دنيا يحتلّ الشاشة الصغيرة، ورأيت ما يشبه الغمامة السوداء حول عينيها. حكت وحكت، بصوت أبيض مسطّح، لا أثر للانفعال فيه. كأنَّها كانت تروي حكاية امرأة أخرى. كأنَّ لا علاقة لها.

بعد ذلك، علمت من الدكتورة منى، أن دنيا لم تكن تعمل شيئًا غير رواية ما جرى لها. وكانت تفاجئ مستمعيها كل مرة، بأحداث جديدة لم تقلها في المرات السابقة. يأتي الصحافيّون أو مسؤولو المنظمات الإنسانية الدوليّة، فتجلس دنيا في مكتب جمعية المعوقين في المخيم، وتحكي، والدكتورة منى تترجم ما تعجز دنيا عن قوله باللُّغة الإنكليزية.

صارت دنيا حكاية تحكي حكايتها.

قالت الدكتورة منى عندما جاءت إلى المستشفى لزيارتها إنَّها فهمت الآن، «فدنيا انهارت لأنَّها سكتت بعد مؤتمر الكارلتون. كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي تكلَّمت فيها عن الاغتصاب الجماعي الذي تعرضت له، وشاعت القصة في المخيم، وغضبت أمّها كثيرًا، والناس... أنت تعرف الناس أكثر مني يا دكتور».

قالت الدكتورة منى إنَّها أصيبت بخيبة أمل، «جاء صحافيّ ألماني، وتحدَّث معي، وقال إنَّه يعدّ ريبورتاجًا عن المخيم، و«تروما» المذبحة، أخبرته عن دنيا، فطلب لقاءها، جاءت، ولكنَّها لم تنطق حرفًا، قالت إنّ الآلام حوضها عادت، وإنَّها لا تستطيع الكلام وسط هذه الآلام الفظيعة» رجوتها. فأنا كنت قد رويت للصحافي الألماني عنها، أبدى اهتمامًا كبيرًا، وأراد الاستماع إلى الحكاية من الضحية، لكنَّ الضحيَّة سكتت. حاولت إقناعها لكنَّها كانت تهز رأسها والدموع تكرج من عينيها، فتركتها وشأنها، اعتذرت من الصحافي الألماني، الذي كان حزينًا جدًا، لأنَّه لن يستطيع استخدام حكاية دنيا في مقاله. ثم جاءتني أمها، وقالت إن دنيا أصبحت عاجزة عن النهوض من سريرها، وطلبت مني إدخالها مستشفى الجامعة الأميركية. ونحن يا دكتور لا نملك budget ، لمثل هذه الحالات، فنصحت بإدخالها مستشفى الجليل، وأنت تعرف البقيَّة».

ودنيا مستلقية على سريرها، وتنام بعينين مفتوحتين، كما أخبرني سليم أسعد قبل أن يختفي. قال إنَّه دخل غرفتها متفقّدًا، لأنَّه سمع ما يشبه الأنين، ورآها تتدثَّر بالحرام الصوفي حتى عنقها، وكانت العينان. عينان مفتوحتان في الظلام، وضوء أبيض يخرج منهما.

قال سليم إنَّه اقترب منها لأنَّه اعتقدها مستيقظة. «اقتربت»، قال «لكنَّها لم تتحرَّك، أحنيت رأسي فوقها وهمست باسمها، فلم تجاوب، وضعت أذني قرب أنفها، فلفحني تنفسها العميق والبطيء، تنام وعيناها مفتوحتان، هل هذا معقول يا دكتور»؟

قال سليم إنَّه خاف منها، وسألني رأيي، ورأيي أنّ هذا مستحيل طبعًا، لا يستطيع الإنسان النوم بعينين مفتوحتين، لكني لم أعد أدري، فكل شيء

ممكن في هذه الأيام. أليس موتك حقيقة اكلينيكيّة يا أبي، ومع ذلك لا تموت، كل شيء صار غريبًا، قل لي هل صحيح أن أصوات الموتى تتجوّل في ليل الطرقات، أنا لا أؤمن بالخرافات، ولكن حتى أسماء موتى المذبحة لم نستطع جمعها في شكل صحيح. اجتمعت اللجنة الشعبيّة، وقررت إحصاء الأسماء، جمعنا الكثير من الأسماء، ولكنّنا لم نصل إلى لائحة نهائية. دبّت الخلافات بين التنظيمات، وطوي الموضوع. نحن لا نملك أسماء موتانا، نملك الأرقام فقط. نضع أرقامًا إلى جانب أرقام، نطرحها ونجمعها ونضربها. هذه حياتنا. حتى ذلك الصحافي اللبناني الذي يدعى جورج بارودي، جاء إلى المخيم وطالبنا بلائحة أسماء الضحايا، وحين قلنا له إنّنا لا نملك لائحة كاملة، قال إنّ هذا سوف يُعقّد الموضوع. اقترح أن يتم بناء نصب تذكاري للشهداء. أنت تعرف كيف يفكّر هؤلاء المثقفون، يعتقدون أنّهم يحلّون مشكلة ضمائرهم بالتماثيل أو القصائد أو الروايات. يومها قلت له إنّ الأنصاب مستحيلة هنا، لأنّنا لا نعرف ماذا سيحلّ بنا غدًا، أسيبقى المخيم في مكانه أم لا. لكنّه أصرّ على فكرته. عاد بعد بضعة أيام مع نحات لبناني يعتمر قبعة قش، ويلبس شورتًا وتجولا في المخيم، ثم مشيا في المقبرة. هرعت النساء، يومها كنا ما نزال قادرين على الدفاع عن موتانا، ركضت النساء وبدأن يصرخن ويشتمن، وحدثت طوشة في المخيم لم تنتهِ إلا بعد تدخلك. يومها أتيت وفرّقت النساء، ودعوت الكاتب والنحات إلى فنجان قهوة، وأفهمتهما أنّه لا يجوز دوس القبور، فاعتذرا كثيرًا، وأخبراك عن تفاصيل مشروعيهما، فطلبت منهما التنسيق معي في الموضوع.

وبعد أكثر من ثلاثة أسابيع، عاد الكاتب وحده، وأخبرني أنّه تمّ تشكيل لجنة من الفنانين والمثقفين اللبنانيين من أجل إعداد مشروع حديقة الشهداء.

«نسميها حديقة الشهداء، ما رأيك»؟ قال.

قلت إنّ الاسم مقنع، وطلبت منه تفاصيل المشروع، فقال إنّ اللجنة لم تنجز مشروعها بعد، ووعد بمناقشته معي، ومع اللجنة الشعبية، قبل البدء بالتنفيذ. ثم أخبرني أنّه يعمل الآن على تأليف كتاب عن مذبحة شاتيلا. قال إنّه لا يوجد عن المذبحة سوى كتابين إسرائيليين، الأول لصحافي

يدعى امنون كابليوك، والثاني هو تقرير لجنة كاهانا الإسرائيلية، «هذا معيب أليس كذلك، عيب أن لا نكتب تاريخنا نحن»، قال. أخبرني جورج بارودي أنَّه ترجم تقرير كاهانا إلى العربية، لكنَّه يشعر بضرورة أن نؤلف كتابًا يجمع الشهادات الداخلية عن المذبحة.

دعاني إلى الغداء في مطعم «الريِّس»، في حي الجميزة، أسفل منطقة الأشرفية، وهناك أخبرني.

دعاني إلى المطعم، فقلت لِمَ لا، لبّيت دعوته، وتغديت معه، وشربنا كأس عرق، وأكلنا طبيخًا لبنانياً طيِّبًا ورخيصًا، ولفت نظري ذلك الأعور الذي كانوا يسمّونه شكري. كان شكري يجلس على طاولة وسط طاولات الزبائن، ويقشِّر كميَّات هائلة من الثوم. قال الكاتب إن «الريّس»، هو أفضل مطعم شعبي في بيروت، وإنَّه يأتي إليه دائمًا، حيث يلتقي مجموعة من الشبان، كانوا في السابق، مقاتلين في ميليشيا القوات اللبنانية، وإنَّه استمع إلى الحكاية من الريِّس جوزف نفسه، الذي كان أحد المشاركين في المذبحة. وقال إنَّه أراد من وراء دعوتي إلى المطعم، ترتيب لقاء بيني وبين الريِّس. الحوار بين الجلاد والضحية، سوف يكون الفصل الأول من الكتاب.

سألني عن رأيي.

قلت إنَّني لا أعرف، فأنا لا أفهم في هذا النوع من الكتب، لكنَّها قد تكون فكرة جيدة.

جلسنا وانتظرنا، لكنَّ الريِّس جوزف لم يظهر، طلب جورج بارودي طعامًا وعرقًا، ثم أخذني في جولة في الأشرفية، واستمعت منه إلى وقائع المذبحة، كما رواها له الريِّس جوزف.

أتريد أن تسمع؟ أم أنَّك في مكان آخر، وتفضل أن أخبرك عن سليم. أعتقد أنَّك أحببت سليم، فهو شاب لطيف وذكي وبندوق.

ماذا كنت أقول؟

جاء أبو أكرم، ودعانا إلى شرب الشاي في مكتب الجبهة الشعبية، تردد المخرج الطويل قليلاً، وقال إنَّه ينتظر دانيال.

«أين دانيال»، سأل أبو أكرم.

«لا أدري، أضعناه في المخيم»، قال المخرج.

«أنا أرسل من يبحث عنه، تفضّلوا وأنا أجده لكم».

وتفضّلْنا.

وفي المكتب، كان عليَّ أن أترجم.

أبو أكرم القى خطابًا سريعًا بإنكليزيّته المخلّعة عن معاناة الشعب الفلسطيني، ثم تلاه رجل لم يسبق لي أن التقيت به، كان كرشه يتدلّى فوق حزامه الجلدي، ودخان سيجارته يتسلّل من بين ثنايا شاربيه الكثيفين، ويخطب. المخرج وكاترين يستمعان شاردي الذهن، وأنا أترجم ما تيسّر. أقفز فوق الشعارات والكلمات الرنانة، لأنّني سئمتها، ولأنّها بدت مضحكة في اللُّغة الإنكليزية. علّمتني الصين شيئًا ثمينًا لا ينسى. فهناك كان عليّ ترجمة كلماتي العربية إلى الإنكليزية بشكل دائم، فاكتشفت أنّه يمكن الاستغناء عن نصف العبارات التي نستخدمها، حتى طريقتي في الكلام تغيّرت، صرت أتجنّب المقدمات الطويلة، التي نفرشها أمام كلامنا عادة، وأدخل موضوعي في شكل مباشر.

خطاب الرجل السمين كان عصيّاً على الترجمة. كيف أترجم كلمات المعاناة والعذاب والقهر والاضطهاد التي قالها الرجل خلف بعضها بعضًا. قال مجموعة من الصفات، دون الإشارة إلى الموصوف، فاختصرت جمله العربية الطويلة، في جمل إنكليزيّة قصيرة.

«أنا قلت كلام أكثر من هيك»، قاطعني قائلاً.

«مش مهم»، قلت، «الإنكليزيّة لغة مختصرة».

«لكنّك حذفت نصف خطابي، كيف تريدهم أن يفهموا معاناتنا، وأنت تقوم بحذفها».

نظر إلى المخرج الطويل وسأله اذا كان قد فهم قصده.

«ترجم يا ابني ترجم، اسأله هل فهم قصدي»؟

«فهمت» قال المخرج، جوابًا عن ترجمتي، وأضاف أن هدف زيارتهم هو المعرفة، لم يقل كلمة واحدة تدل على تضامنه، كما توقّع أبو أكرم، أو الرجل الثاني، قال إنّه جاء كي يعرف أكثر، من أجل نقل صورة الحقيقة إلى المسرح.

كان سليم، يجلس خلف الطاولة الحديديَّة الوحيدة في الغرفة، بينما جلسنا نحن وأبو أكرم والخطيب السمين، على كنبايات منخفضة ملتصقة بالحيطان. لم يتدخل سليم خلال الخطب، كان نظره ينتقل بين الفرنسيَّة وبيني. وحين غرقنا في صمت رشفات الشاي، سألني هكذا ودون مقدمات، لماذا لا أصبغ شعري!

«ولماذا أصبغه»؟

«أحسن، ترجع شابًا»، قال.

«أنا شاب، ولاحاجة بي إلى إثبات شبابي».

أنت تعلم يا سيدي، أنَّني بدأت أشيب في الحادية والعشرين. جدتي، رحمها اللّه، قالت إنَّنا هكذا في العائلة، وإن رأس أبي، صار أبيض، قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين.

قالت جدتي إن أبي كان يحب شيبته، لأنَّها جعلته شيخًا وشابّاً في الوقت نفسه. وإنها، أصرت على غسل شعره أولاً، قبل تسليمه لغسل الدفن. جلبت لگن ماء، وغسلت له شعره الذي اصطبغ بدمه، حتى عاد أبيض كالثلج. وبكت. قالت جدتي إنَّها لم تبك حتى عاد الشعر الأبيض الذي يشع نورًا. لحظتها أيقنت أن ابنها مات، وانخرطت في بكاء طويل لم تشف منه إلا بموتها. أنا لم أكنِ في البيت لحظة موتها، بعثوا لي أنَّها تحتضر، فأتيت من الجنوب، وأعطتني المخدة والساعة والقرآن، لكنَّها لم تمت. طال احتضارها، فعدتُ إلى القاعدة في الجنوب، وماتت في غيابي.

كلهم ماتوا في غيابي.

سألني سليم لماذا لا استخدم شمبوانًا لصبغ الشعر، وقال إن معه شمبوانًا فرنسيّاً ممتازًا، «هل تريد أن تجرِّبه»؟

«لا، شكرًا».

«أنا استخدمه، انظر إلى شعري».

«أنت؟»

«نعم، استخدمه منذ ثماني سنوات».

«أنت»!

قال إن الشمبوان محا أثر الشيب عن رأسه، وروى حكايته.

هذه حكاية قلت، لم يوافق أحـد على رواية حكايتـه في المذبحـة أمـام الفرنسيّين، وطلبت منه أن يسمح لي بترجمة كلامه إلى الإنكليزيّة.

قال سليم إنَّه يستطيع التكلُّم بالإنكليزيّة لو أراد، وهو ليس بحاجة إلى مترجم، ولا يريد أن يروي لهم حكايته.

عندما قال سليم إن شعره أبيض، هزّ أبو أكرم كتفيه كأنَّه يعرف، ونظر اليَّ بتعجُّب، كأنَّه كان من المفترض بي أن أعرف.

سألته بما يشبه الاعتذار عن سبب شيبته، سوّى شعره براحة يده اليمنى، وقال إنَّه شاب خلال المذبحة.

«كم كان عمرك»؟ سألته.

«خمس سنوات». قال إنَّ أمه حملته، قال إن الدم كان ينزف منها ومنه، قال إنَّ أمه كانت تركض في النار.

«لم يكن هناك نار»، قلت.

«بلى»، قال، «النار كانت في كل مكان، وكنا نقفز فوقها».

«إنَّها القنابل الضوئيّة»، قال أبو أكرم.

«لا»، قال سليم.

«بلى»، قال الرجل السمين، «يا عمي وين المشكلة، كل واحد يخبِّر القصة على ذوقه، يا ابني ما كان في نار، كانت قنابل مضيئة، بس انت كنت صغير، انت شو بيعرّفك».

«أنا يللي بيعرف»، وأشار إلى رأسه.

قال إن أمّه ركضت به، حملته وركضت، وكانوا يقوّصون في كل الاتجاهات. وإنَّه تعلَّق برقبتها، ثم صار كل شيء لزجًا ودموياً، واستفاق في المستشفى، ورأسه أبيض مثل الثلج. وإن الممرّضين والممرّضات خافوا منه.

«وفي أميركا حلقت رأسي على الزيرو».

قال إنَّه ذهب مع أمه إلى أميركا بعد أن قتل جميع أفراد العائلة. «هاجرت أمي إلى أختها في ديترويت وأخذتني معها، كان ذلك عام ٨٤،

لكنَّهم رفضوا إعطائي إقامة، بقيت معها سنتين بشكل سرِّي، ثم عدت. قالت لي أنت ارجع إلى لبنان، وأنا أبعث وراءك، حين يعطونني «الغرين كارد».

«وهل بعثت لك»؟

«لا واللّه، انتظرت وانتظرت ولكن دون فائدة، أبو أكرم هو ابن عم أبي، أخذني وأسكنني في هذا المكتب، بانتظار أن تبعث أمي في طلبي، كتبت لها الرسائل، ولم يصلني أي رد منها. يبدو أن الأميركان لا يحبُّون الشعر الأشيب، أو أنَّها نسيتني، اللّه يعلم وين أراضيها. طلبت مقابلة السفير الأميركي في بيروت، تلفنت عدة مرات على السفارة، لكنَّهم لم يعطوني موعدًا، لا أعرف لماذا، مع أنَّني تكلَّمت معهم باللُّغة الإنكليزية الفصيحة».

«لا توجد لغة إنكليزيَّة فصيحة»، قلت.

«شو هالحكي يا زلمي، كل اللُّغات زي بعضها، في عربي دارج وعربي فصيح، وكمان في إنكليزي دارج وإنكليزي فصيح، صح والا لا»؟

«لا، قلت، بس مش مهم».

«هل تريد شمبوانًا»؟

نهض، وجلب حقيبة جلديَّة سوداء، فتحها أمامي، وأخرج منها مجموعة من قناني الشمبوان.

«أبيع الشمبوان كي أتسلَّى».

تقدم من الممثلة الفرنسيَّة، وعرض عليها أن تشتري، حملت كاترين القنينة في يدها، وبدت محرجة لا تدري ماذا يجب عليها أن تفعل.

خطفتُ القنينة من يدها، ورددتها لسليم.

«بلاش، العب غيرها».

«اتركهم يا أخي، ربما أرادوا أن يشتروا».

«بلاها يا ابني خلص»، زجرته بصوت مرتفع.

«أنت يا دكتور، لماذا لا تشتري، وتصبغ شعرك»، قال سليم.

«ماذا يقول»؟ سألني المخرج.

«يبيع شمبوانًا لصبغ الشعر»، جاوبته، وأخبرته بسرعة عن حكاية شعر سليم الأبيض.

«لا تخبره»، قال سليم، «لو أردت لأخبرته أنا، ولكن قل لي، هل صدقت حكايتي، أنا أرويها كي أبيع الشمبوان، لا أكثر».

نظرت إلى أبو أكرم، فرأيت شفتيه تكشران عمّا يشبه الابتسامة، وبرزت أسنانه الصغيرة البيضاء، التي تشبه أسنان طفل.

«ماذا ماذا»؟ سألت كاترين.

«اشتري الشمبوان فأخبرك»، قال سليم.

أخذت الفتاة قنينة الشمبوان، وسألت عن سعرها.

«مش مهم»، قال سليم، «ادفعي ما تشائين».

أخرجت كاترين ورقة مئة فرنك فرنسي من جزدانها الصغير، وأعطتها لسليم. أخذ سليم ورقة المئة فرنك، نظر إليها مليّاً، ثم ردّها إلى كاترين، والتفت إليّ، «لا يا زلمي، أنا كنت عم بمزح».

«أين المزح سألته، في الشمبوان أم في الشيب»؟

«خمّنوا أنتم».

أخذ سليم قنينة الشمبوان من يد كاترين، أعادها إلى الحقيبة الجلديّة، وقال السلام عليكم يا جماعة ومضى.

قال أبو أكرم إن سليم يمزح كل الوقت، يداوي مأساته بالضحك، فهو وحيد، ويحتاج إلى عمل.

«ماذا درس»؟ سألته.

«لا شيء يا أخي، كلنا أبناء الثورة، ايش الواحد بيدرس بالثورة»؟

«قل له أن يأتي لزيارتي في المستشفى، ربما وجدت له عملاً، ولكن، هل حكايته حقيقيّة»؟

«طبعًا، طبعًا»، قال أبو أكرم، إنّه الفرد الوحيد من عائلته الذي سلم من المذبحة.

«وأمّه»؟ سألت.

«أمه ماتت، لكنّه يصر على أن يخبِّر أنّها حملته وهربت به. هي لم تحمله ولا شيء، وجدوه تحت الجثث، أزاحوا الجثث عنه ونقلوه إلى المستشفى، وهناك اكتشفوا أنّ كل شعر رأسه صار أبيض».

«وأميركا»؟

«أي أميركا يا زلمي، خالته تعيش في ديترويت، وهذا كل شيء. هل تعتقد أن واحدًا مثل سليم أو مثلنا يستطيع الحصول على فيزا أميركيّة؟ مستحيل! فقط يحب السينما. يحضر أفلام آل باتشينو عشرات المرّات ويحفظ حوارات الأفلام غيبًا. يضع الفيلم على الفيديو، ويردّد الحوارات مع الممثلين، وهكذا تعلّم اللّغة الإنكليزيّة، إنّه مثل القرد».

«والشامبوان»؟ سألته.

«تلك حكاية أخرى»، قال، «الشامبوان جاء بعد الاكزا. هل تعرف ماذا كان يشتغل في العام الماضي، كان يخرج إلى منطقة الفاكهاني، حاملاً مجموعة من القناني الصغيرة، يقف وسط الطريق ويصرخ، «اكزا للأوجاع، اكزا للروماتيزم، اكزا للعجز الجنسي». اخترع دواء أسماه اكزا، وكان يعبئه في قناني فارغة، ويبيع القنينة بثلاثة آلاف ليرة.

اكزا، يصرخ، يفتح القنينة أمام الناس، ويشرب. اشربوا تشفوا، ادهنوه على أماكن الوجع، فيذهب الوجع، والناس تشتري. ثم اعتقلوه.

أخذوه إلى مخفر الطريق الجديدة، حيث اعترف أن هذا الاكزا مزيج من الماء وزيت الصويا، وأنه دواء لا يضرّ. شرب قنينة كاملة أمام الضابط كي يقنعه أن الدواء لا يضرّ. ابتسم الضابط، وقال لسليم إنّه عفا عنه هذه المرة، شرط أن لا يعيدها. لكنّه بدل أن يمضي أخذ قنينة وقدمها للضابط، قائلاً إنه سيراعيه في السعر، وسيبيعه القنينة بألفي ليرة لأنّه صار صديقه، وإن الاكزا تشفي الأمراض كلّها، خاصة انكتام المعدة.

ثارت ثائرة الضابط، وأمر بضربه وسجنه، ضربوه حتى كاد يموت، ورموه في سجن المخفر أكثر من شهر.

عندما رجع إلى المخيم، قال إنّهم أطلقوا سراحه، لأنّهم خافوا منه. قال إنّهم خافوا من شعر رأسه الذي ابيضّ فجأة.

بعد تجربة السجن، قرّر سليم عدم الخروج من المخيّم، توقّف عن صنع الاكزا وبيعها، وبدأ يبيع الشامبوان في المخيم، وأمس، لو رأيتموه أمس، لفهمتم كيف يعمل».

«وهل هو شامبوان حقيقي»؟ سألت.

«لا أعرف»، قال أبو أكرم، لكنّه يترك شعره يبيضّ، ويقف أمام الجامع، يغسل رأسه، والناس تشتري».

«ماذا يقول»؟ سألني المخرج.

أخبرته حكاية الشامبوان، ونظرت إلى كاترين منتظرًا ردة فعلها، حين سمعنا جلبة أمام الباب. كان المرافق الذي أرسله أبو أكرم للبحث عن دانيال، قد عاد به. دخل دانيال، وحوله ثلاثة أطفال يتضاحكون، وهو يوزّع عليهم العلكة والشوكولاته، وهم يتنافسون في ما بينهم على الحصص.

«أخرجوا الأولاد من هنا»، صرخ أبو أكرم.

«أين كنت»؟ سألته.

«أتفرّج»، قال، «وكما ترى فأنا أحبّ الأطفال».

وقف المخرج، واستعدّت كاترين للذهاب. كانوا، كما بدا لي، قد فقدوا اهتمامهم بالموضوع. لم يطلبوا معرفة المزيد عن سليم.

سألني أبو أكرم، اذا كنت قد أخذتهم إلى الجامع ـ المقبرة.

«لا»، قلت.

«أنا آخذهم»، قال، «شكرًا يا دكتور».

هممت بالانصراف، حين سألتني كاترين ماذا يريد أبو أكرم.

«سيأخذكم إلى المقبرة»، قلت.

«ولكنّنا رأينا المقبرة»، قال المخرج.

«إلى الجامع»، قلت، وشرحت لهم كيف حوّلنا الجامع مقبرة، خلال الحصار.

«إلى مقبرة ثانية»! صرخت كاترين بصوت منخفض، وبدأت شفتها السفلى ترتجف. «لا أريد، لا أريد، أريد العودة إلى الفندق».

قلت لأبو أكرم إن الجماعة تعبوا، ومن الأفضل إعادتهم إلى الفندق، لكنّ أبو أكرم أصرّ، وطلب مني ترجمة كلامه. وبدأ يحكي عن الموت، وكيف نحن شعب يقدس الموتى، وإنّه لولا صمود مخيم شاتيلا خلال الحصار، لما حدثت الانتفاضة في غزة والضفة الغربيّة.

قاطعته وقلت إنّني لن أترجم، «ألا ترى يا أخي، المرأة تبكي، والرجل

يحاول تهدئتها بوجهه المتقع وصلعته التي تلتمع بالعرق، اسكت، ودعهم يذهبون».

وسمعت الفتاة تهمس للمخرج أنّها لن تمثّل.

«أنا خائفة، لن أمثّل هذا الدور، وأريد العودة إلى الفندق».

ترجمت كلامها لأبو أكرم، فقال الرجل السمين إنّه يفهمها، واقترب منها كي يربت على كتفها، وحين مستها يده، ارتجت وتراجعت إلى الوراء، كمن مسّه تيار كهربائي، ورأيتُ في عينيها ما يشبه الخوف الممتزج بالقرف.

تركتهم مع أبو أكرم، والرجل السمين، وانصرفت دون أن أقول وداعًا.

العمى!

أهكذا صارت الأمور؟ يخافون الضحيّة! بدل معالجة المريض يخافونه، وحين يرون يغمضون عيونهم. يقرأون الكتب ويكتبونها. الكتب هي الكذبة.

ولكن لماذا بقيت صورة كاترين معلّقة في عينيّ؟ ربما لأنّها قصيرة وصغيرة ومفكّكة، أو ربما بسبب شعرها القصير المقصوص كالصبيان، يبدو أنّني استحليتها، خاصة عندما بدأت ارتجافة شفتها السفلى. بدأت الارتجافة، حين ترجمت لهم مقاطع من خبرية سليم، وخاصة، كيف يقف ويصبغ شعره أمام الناس كي يبيع الشامبوان. وبدل أن تضحك كاترين، كما ضحكت أنا وأبو أكرم والمخرج، انسدل حجاب أسود على وجهها، كأنّها رأتنا كيف نلعب موتنا. أعتقد أنّها فكرت أنّنا وحوش. كيف نحتمل هذا الذي نحتمله ولا ننفجر؟

صحيح يا أبي، أليس من الأفضل أن لا يرانا أحد. وإلا فكيف؟ لماذا سيسوّرون المخيم. الصحافي اللبناني الذي أخبرتك عنه، حدّثني عن السور. قال إن الحكومة سوف تنتهي قريبًا من إعادة بناء المدينة الرياضيّة، التي هدمها الطيران الإسرائيلي، وستستقبل بيروت الدورة الرياضيّة العربية. ومن الأفضل للرياضيين العرب أن لا يروا.

يحلّون المشكلة بإغماض عيونهم. وربما كانوا على حق! فنحن في هذا المكان أشبه بالفضيحة. فضيحة ثابتة، لا يمكن سترها إلا بنسيانها.

«وأنا أيضًا أريد أن أنسى»، قلت له حين دعاني إلى مطعم «الريِّس». أنا أفضّل النسيان، ولقائي بالريِّس جوزف، كما أسماه، لا يغيّر شيئًا. فأنا لا أريد الانتقام.

هل تتخيَّل! رجل يدعوني إلى لقاء أحد سفاحي شاتيلا، وأنا أقول انَّه لا جدوى، فأنا لا أحقد عليهم!

«هنا الجدوى»، قال الصحافي، «أريدك أن تأتي لأنِّي سأكتب عن المصالحة والغفران».

«لكنِّي لم أغفر له أو لغيره»، جاوبت.

«مش مهم، مش مهم، المهم شعورك».

«وشعوره»؟ سألت.

«شعور من»؟ سألني.

«شعور هذا الجوزف الذي لا أعرفه».

ذهبت بدافع الفضول، فأنا لا أعرف المنطقة الشرقيَّة في بيروت، ولم يسبق لي وأن التقيت أحد هؤلاء الذين حاربناهم وحاربونا. الحرب الأهلية صارت مثل منام طويل، كأنَّها لم تحدث. أشعر بنكهتها تحت جلدي ولكنِّي لا أصدقها. لم يبق منها سوى الصور. حتى مذبحتنا هنا في المخيم، والذباب الذي افترسني، أراه أمامي كأنَّه صورة. كأنَّني لا أتذكَّر بل أشاهد. لا أنفعل بل أصاب بالدهش. غريب، أليس كذلك، غريب أن تمرّ الحرب كالمنام.

وأنت، ما رأيك؟

لو حكيت، لقلت إن العمر كله يبدو كمنام، ربما كنت الآن، في نومك الطويل، تطفو فوق الأشياء، كما تطفو العيون فوق الصور.

ذهبنا إلى مطعم «الريِّس»، وجلسنا ننتظر، لكنَّه لم يأتِ.

جلسنا حول طاولة تتسع لأربعة أشخاص، طلب الصحافي كأسين من العرق، وصحن حمص، وصحن تبولة، وانتظرنا. ثم دخلت مجموعة من الشبان، رؤوسهم مدوَّرة، وشعورهم مقصوصة على طريقة شباب القوات اللبنانيَّة.

«نصـري»! صـرخ جـورج بارودي ونهض عن كـرسـيـه واحـتـضن هذا النصري.

«شو عم تعمل هون»؟ سأل نصري.

«شو عم بعمل، عم بسْكر»، أجاب جورج.

«قوم اسكر معنا»، قال نصري.

«ما بقدر معي ضيف، وبعدين ناطر الريِّس جوزف».

ولم أجد نفسي إلا على طاولتهم. كانوا سـتة شبـان، وفتاة سـمراء، تلبس تنورة قصيرة جداً، وقميصًا مشقوقًا أسفل صـدرها، بدا لي أنَّها صديقة نصري، لأنَّها كانت تضع يدها على يده، كلما سنحت لها الفرصة.

كانوا يضحكون ويسكرون ويأكلون ويخبرون النكات. حاولت الانسجام معهم لكنِّي لم أستطع، كأن فمي كان مغلقًا بحجر، أو كأنَّني تحاشيت لهجتي الفلسطينيَّة.

جورج كسر الحواجز، وأخبرهم عن هويتي الحقيقيُّة، «نسيت أن أقول لكم إن الدكتور خليل يعمل في الهلال الأحمر الفلسطيني، في مخيم شاتيلا.

«أهلاً، أهلاً»، قال نصري.

«أنت فلسطيني»؟ سألني.

«نعم، نعم، أنا فلسطيني».

«من شاتيلا»؟

«نعم، نعم، أقيم في شاتيلا، ولكن الأصل من الجليل».

«أنا أعرف الجليل جيدًا»، قال، وبدأ يروي، وسط استحسان رفاقه، عن دورة مظليين شارك فيها في الجليل.

«هل زرت فلسطين»؟ سألني.

«لا»، أجبته.

«أنا أعرفها، واللّه بلادكم جميلة، تشبه لبنان كثيرًا، لكنَّ اليهود رتَّبوها ونظَّموها. ترتيب مذهل، حدائق وماء وبرك سباحة، كأنَّك في أوروبا».

قال إنَّهم تلقوا تدريبهم في قرية فلسطينيّة مهجورة. القرية ما تزال على حالها، ولكنَّ الأعشاب البريّة نبتت في كل مكان.

«ما اسم القرية»؟ سألته.

«لا أعرف، هم لم يقولوا اسم القرية، ونحن لم نسأل».

«إنَّها قرية صغيرة»، قال شاب آخر اسمه مارو، «وفي وسطها صخرة كبيرة».

قال نصري، إنَّه أطلق النار على شجرة، كي يتسلّى، فنهره المدرب الاسرائيلي، وقال له إنَّ حظه كبير لأنَّه أخطأها، لأنَّهم في اسرائيل يحبُّون الشجر كثيرًا ويمنعون قطعه أو الاعتداء عليه.

«يعتنون بأشجارنا»، قلت.

«لو تراها، المنطقة كلها مزروعة بالصنوبر، يا عيني ما أحلى الصنوبر، كأنَّك في لبنان».

«صنوبر»! «ولكنَّها منطقة زيتون».

«اليهود لا يحبُّون الزيتون، إما صنوبر أو نخيل».

«قتلوا الأشجار»، قلت.

«لا، اقتلعوها، وزرعوا مكانها».

كان نصري يدخل بعض الكلمات العبريّة التي لم أفهمها، كي يثبت لي صحة كلامه، ويقول إنَّه كان أبله لأنَّه صدق الحرب. فالحرب لا معنى لها، وإنَّه سيسافر قريبًا إلى أميركا من أجل إكمال دراسته في هندسة الكومبيوتر.

والغريب يا سيدي، أنَّني استمعت إلى هذا الفتى الذي قفز بمظلته فوق الجليل، دون أي حقد. كنت أعتقد أني حين سألتقي بواحد من هؤلاء، لن أتمالك نفسي. لكنِّي، في ذلك اليوم، كنت أشرب العرق وأضحك لنكاتهم، وأرى تلك الفتاة، وهي تحاول الإمساك بيد نصري، ونصري يسحب يده من يدها، وجورج يراقبني وينظر إلى ساعته، ويتأفف لأنَّ جوزف تأخر.

«هيدا جوزف تبعك «فنّاص»، قال أحدهم. وبدأ يروي عن جبن جوزف، خاصة في معركة «الهوليداي إن»، حين رمى بنفسه من الطابق الرابع هاربًا، وركض على رجله المكسورة.

«حشاش وعكروت»، قال آخر.

«ليك ملاّ آخرة، صار ريّس قال، لمَن ما بقى في ريّاس»، قال نصري.

أحسست رغبة في الدفاع عن الريّس جوزف، فكّرت أنّهم يستغيبونه، فلو كان هنا، لترّيس عليهم، أما جُبنه فلم أصدقه، خاصة بعد أن روى لي صديقي الكاتب، عن وحشيته الخاصة، خلال مذبحة شاتيلا. لكنّي فضلت السكوت. كنت في وضعية غريبة، كيف أصفها لك، لا واللّه، أنا لا أقول إنّه لم تحصل جرائم، نحن أيضًا قتلنا ودمرنا، ولكن في تلك اللحظة شعرت بتفاهة الجريمة، فالجريمة لا معنى لها، ونحن مجرُّد أدواتها. نحن لا شيء، نحارب ونقتل ونموت ولا شيء. مجرَّد وقود آلة ضخمة اسمها الحرب. وقلت لا يمكن، خاصة مع نصري هذا، شعرت أنّني أقف أمام مرآة، كأنّه يشبهني! لو كنت قادرًا على الكلام، لتكلّمت أكثر منه، لكن حجرًا كبيرًا أغلق فمي. ثم بدأ الحجر يتفتّت على إيقاع يد الفتاة التي تمتد إلى يد نصري وتنحسر عنها. كان يشرب العرق بطريقة خاصة، يمصّ الكأس مصًا، يترك قليلاً من سائل العرق الأبيض على شفته التي يلحسها بلسانه. كان فتى أبيض البشرة، ممتلئ الكتفين، اعتقد أنّه يمارس رياضة كمال الأجسام، لأنّ صدره كان يرتجف بالعضلات المختبئة تحت قميصه الأزرق، وكان يعود بشكل دائم إلى حكاية دورة المظليين التي شارك فيها، وكيف شعر أنّه يطير في إسرائيل.

قال إسرائيل ونظر إليّ كمن يعتذر، «عفوًا، عفوًا، فلسطين روح انبسط». قال إنّه طار فوق فلسطين، ونظر إليّ بعينين مليئتين سخرية وتواطؤًا.

بعد أن أنهيت كأسي الثالثة، سألتهم عن الحرب، «ماذا تشعرون الآن؟»

«لا نشعر بشيء»، قال نصري.

«وأنت»، سألني؟

«أشعر بالحزن»، قلت.

قال نصري إنّه ليس نادمًا أو حزينًا على أصدقائه الذين ماتوا في الحرب. «فالحياة هكذا»، قال، وهزّ كتفيه لا مباليًا.

«ولكنّكم انهزمتم»، قلت.

«وأنتم انهزمتم»، قال.

«ليس بالضبط»، قلت.

«أخبرني عن حياتكم في المخيمات، ثم حدّثني عن النصر والهزيمة».

«سأخبرك عن موتي»، قلت، «أنتم قتلتموني».

«نحن قتلناك، وأنت قتلتنا، هذا ما أحاول شرحه لك»، قال نصري، «نحن انهزمنا وأنتم انهزمتم».

«كلنا انهزمنا»، قال مارو ورفع كأسه، «كعبو أبيض يا شباب، كاس الهزيمة».

رفع الشباب كؤوسهم، وشربوها حتى آخر قطرة.

«علينا أن نذهب، تشرفنا بمعرفتك يا دكتور، لا تزعل، للحديث صلة». وطلب نصري الحساب، ودفع، وذهبوا كلهم.

كنت أريد أن أقول، لكنِّي لم أقل، كنت أريد أن أقول عن الانتفاضة، انهزمنا صحيح، لكن القضيَّة مستمرة، ولكن ذلك الحجر أغلق فمي.

نصري دفع ومضى، وأنا خجلت لأنَّ صديقي الكاتب، لم يمد يده إلى جيبه.

شعرت بالدوار بين أكوام الصحون الفارغة، لكنِّي لم أكن سكران، لم أشرب سوى ثلاث كؤوس عرق، لكنَّه الانفعال. نظرت إلى ساعتي، وقلت إنَّ جوزف لن يأتي.

«ما رأيك بفنجان قهوة»، قال جورج.

قلت عظيم، ورفعت يدي كي أطلب فنجاني قهوة، فامتدَّت يد جورج إلى يدي وأنزلتها.

«لا مش هون، نذهب إلى مقهى».

جلست إلى جانبه في سيارته «الرينو» الحمراء وسار بي في طرقات لا أعرفها. هكذا تسنّى لي أخيرًا التعرُّف إلى الأشرفية، الحي المسيحي في بيروت الشرقية، الذي يسمُّونه أيضًا الجبل الصغير، أدار مسجل سيارته على أغنية فيروز «القدس العتيقة».

«نحن أعداء» قلت لجورج.

«حطّ بالخرج، جاوبني، كلّه تِفنيص».

ودخلنا شارعًا جميلاً، هكذا تخيّلت شوارع حيفا. روت لي جدّتي عن مدينة البحر، حيث الشوارع مظللة بالأشجار والياسمين، ورائحة الفتنة.

«نحن في حيّ السراسقة»، قال. «هذا حي الأغنياء، كانوا مجرَّد مترجمين عند القناصل الأجانب خلال العهد العثماني، وانظر إلى قصورهم».

قال إنّه يحلم ببيت هنا.

قال إنّه خلال مرض والده العجوز الذي مات الآن، كان يأتي مع أبيه يوميًا إلى هذا الشارع ويتمشّيان.

قال إن والده كان يحب أن يمشي هنا، «اريد أن أموت وآخذ معي هذه الألوان إلى القبر». ثم أخبرني حكاية غريبة عن المرأة التي أحبَّها والده قبل أن يتزوّج أمه. تحدّث عن امرأة كهلة محدودبة الظهر تسكن قرب المقبرة. «كانت أكبر من أبي بأكثر من عشر سنوات، وتشتغل خيّاطة وتصرف عليه. كانت مقطوعة من شجرة، شقيقها الوحيد مات بالحمى شاباً، وأبي لم يتزوجها. أجبره أهله على الزواج من ابنة خالته التي صارت أمي. والغريب أنّها شجعته على الزواج. بقي يحبها حتى عندما هرمت واحدودب ظهرها، لكنّه صار يرسلني إليها، لأنّه لم يعد يجرؤ على رؤيتها في شيخوختها البائسة. امرأة محدودبة الظهر، تلبس ثيابًا سوداء، وتمشي كأنّها تزحف. كأنّها صارت سلحفاة. كنت أخاف منها، أضع الكيس المليء بالطعام على مدخل بيتها، أقرع الباب وأركض هاربًا. وهي تصرخ لي بالدخول، وأنا أخاف من بيت السلحفاة الذي نبت على ظهرها».

أوقف سيارته في الشارع، والتفت إليّ، «وأنت»؟ سألني.

«أنا ماذا»؟

«ماذا عن أبيك»؟

«أبي مات من زمان، وأنا لا أعرفه».

قبل أن نصل إلى المقهى، أشار إلى مقبرة مار متر. رأيت ما يشبه القصور الرخامية التي تنتصب فوقها الملائكة والتماثيل والحمام الذي يكاد أن يطير.

«هنا مقابرهم»، قال.

«مقابر من»؟ سألت.

«مقابر أصحاب القصور التي رأيناها في الشارع».

«هذه مقابر»!

«نعم يا سيدي، يعيشون في القصور، ويدفنون في القصور، هذه حال الدنيا».

جلسنا في مقهى «واكيمز»، قرب ساحة ساسين في الأشرفية، التي صار اسمها «ميدان شهداء الكتائب»، والتي يتوسطها نصب تذكاري لضحايا انفجار بيت الكتائب، يوم عيد الصليب، في ١٤ أيلول ١٩٨٢، حيث قضى رئيس الجمهورية المنتخب بشير الجميل. في أسفل النصب، صورة كبيرة لبشير مظللة بالخيوط الرمادية. كان اغتيال بشير الجميل قبل أيام قليلة من تسلُّمه منصب رئاسة الجمهورية اللبنانية، المبرِّر المعلن لمذبحة شاتيلا، إذ قيل إن رجاله الذين أعماهم الحزن على زعيمهم، ارتكبوا المذبحة بالتنسيق مع الجيش الاسرائيلي.

قال الكاتب، مشيرًا إلى النصب، إن المذبحة كانت ردة فعل انتقامية، وإنه كان يتمنى لو أتى الريّس جوزف، كي أسمع منه وقائعها.

قلت إنَّني أعرف ماذا جرى، ولا حاجة بي إلى جوزف، لأنَّني كنت هناك.

«أنت لا تعرف شيئًا»، قال. وروى لي ما كان من المفترض بجوزف أن يرويه. استمعت إلى الحكاية، والبرد يتسلَّل إلى عظامي، كأنَّ الكلمات كانت قطعًا من الثلج تتساقط على عمودي الفقري.

ماذا أراد من حكايته؟

فهمت منه أنَّه متعاطف معنا، ويريد بناء نصب تذكاري للضحايا، ثم يأتي بي إلى هذا المقهى، ويتكلَّم كأنَّه جوزف!

حين أتذكره الآن، يا سيدي، لا أراه إلا على صورة جوزف. الرجل اختفى بعد هذا المشوار إلى الأشرفية، أوصلني بسيارته إلى مدخل المخيم، ووعدني بأنَّه سيعود مع مخطط الحديقة التذكارية، ولم يعد. الحرب

اشتعلت من جديد، وبدأ الحصار الطويل الذي دمّر المخيم والمقبرة وذكريات المذبحة. المذابح لا تنسى إلا بمذابح أكبر منها، مثل كل المصائب، ونحن شعب قرّر أن ينسى من كثرة ما تراكمت عليه النكبات، مذابح تمحو مذابح، ولا يبقى في الذاكرة سوى رائحة الدم.

الكاتب اختفى، ولم يتّصل بي من جديد، تلفنت له عدّة مرات إلى الجريدة حيث يعمل، لكنّني لم أجده. عاملة السنترال كانت تقول إنّه غير موجود، مع أنّني كنت متأكدًا أنّه هناك. لم أكن أريد منه شيئًا، كنت أريده أن ينشر أخبارنا فقط. ففي تلك الأيام يا سيدي، عشت الصحراوين: صحرائي الصغرى كانت الحصار، وصحرائي الكبرى كانت شمس.

خرجت من المخيم من أجل المضادات الحيويّة، وعلقت في مار الياس، ولم أعد أستطيع العودة إلى شاتيلا. وفي مار الياس، التقيت شمس، وضربني الغرام، ثم اختفت. دخلت المخيم المحاصر واختفت. يومها يا سيدي، حين أتذكّر ذلك اليوم، أخجل من نفسي، ولكنّي لم أكن مهتمّاً بمصير المخيم، كنت أركض خلف ظل تلك المرأة، شيء ما في داخلي، كان أقوى مني. شيء ما أنساني كل شيء، وسمّرني على صليب عينيها. كنت كالمجنون، أنت تفهمني، لأنّك لا بد أن تكون قد مررت في تجربة مماثلة مع نهيلة، فأنت مثلي، لم تكن متزوّجًا، بلى، يعني، لنقل إن زواجك لم يكن مثل الزواج، فلم تقبض على المرأة التي عشقتها كي يرتوي عطشك، وبقيت معلقًا بين الأمكنة، كما كنت أنا خلال ذلك الحصار، كنت أشعر بوحدة وحشية، لذلك تلفنت لجورج، لكنّه تهرّب مني لأنّه لم يكن يريد التورُّط.

أمّا في ذلك اليوم، وفي مقهى «واكيمز»، فقد نسي جورج نفسه، ولبسته شخصيّة جوزف. اعتقدت في البداية أنّه حكى كما حكى، لأنّه سكران، لكن لا، ربّما كان معهم في المخيّم! لكن كيف؟ فهو مثقّف وكاتب وصحافي، وهؤلاء لا يحاربون ولا يتورّطون، يتفرّجون على الموت، ويكتبون، معتقدين أنّهم ماتوا.

لكنّه في ذلك اليوم الممطر، كان مختلفًا.

نسيت أن أقول إنّها كانت تمطر، وفي بيروت، كما في حيفا، يتساقط المطر كالحبال، ثمّ يتوقّف فجأة. كدت أقول إنّ الرّجل كان يمطر! والآن

أراه أمامي من نافذة المقهى، وحبال المطر حول شفتيه الغليظتين، والدخان يتصاعد من سيجارته المتروكة على المنفضة، وكلماته تؤلم أذني، وشنين المطر، يغرق الطريق المنحدر من ساحة ساسين إلى كنيسة سيدة الدخول.

لماذا روى لي؟

أنا متأكّد من أنّه لم يكن يراقب ردود فعلي. فالسكران لا يراقب السكران. إذن لماذا؟ ألأنّه واحد منهم؟ هل أراد أن يعترف؟ المسيحيّون يعترفون في الكنيسة أمام الكاهن، واعترافاتهم تشبه حلقات النقد الذاتي التي تعلّمتها في الصين، وحاولت تطبيقها هنا، وكنت أتبهدل. أطلب جلسة نقد ذاتي، وأبدأ بنفسي من أجل تشجيع الآخرين، فينتهي الاجتماع بالنكات. لم يكن أحد قادرًا على الاعتراف بمسؤوليته عن أخطائه، ويجد مبرّرات خارجيّة لها. وكنت، كي أنهي المزاح والسماجة، أضطرّ إلى الموافقة معهم على أنّنا لم نرتكب أيّ خطأ. حتّى في قضيّة قرية العيشيّة في جنوبي لبنان، التي دخلناها صيف ١٩٧٥، بعد معركة طاحنة مع ميليشيا الكتائب. يومها، أمر قائدنا المسلّحين الكتائبيين الذين استسلموا، بالوقوف إلى جانب الحائط، وأعدمهم برشّاشه. إعدام الأسرى محرّم كما تعلم في قوانين حركة فتح، لكنّنا يومها وجدنا تبريراتنا لهذا الخطأ – الجريمة، الذي ارتكبناه. قلنا إنّنا ننتقم للمذابح التي ارتكبت ضدّنا، وإنّ الحروب الأهليّة، لا يمكن أن تمرّ دون مذابح وإلى آخره... حتّى إنّ راسم، قائد الميليشيا، اللّه يرحمه، استشهد برواية شولوخوف «الدون الهادئ»، وقال إنّ البلاشفة خلال الحرب الأهليّة الروسيّة، كانوا يطلبون من أسراهم، خلع ثيابهم قبل إعدامهم، كي لا يمزّقها رصاص الإعدام. وكان الأسرى يقفون عراة، فوق الثلج، وهم يرتجفون بردًا. ثمّ يتمّ رميهم بالرّصاص، ليسقطوا في المقابر التي حفروها بأيديهم.

«نحن أكثر رحمة من البلاشفة»، قال راسم، «نحن لم نجبرهم على حفر قبورهم أو خلع ثيابهم».

يومها، اقتنعت بعدم جدوى النقد الذاتي، فكلّ شيء سوف يجد تبريره وأسبابه وظروفه وإلى آخره...

جورج، الجالس في المقهى أمامي، استغلّ إيقاع المطر وحباله الطويلة،

كي يعترف. قال إنّه سجّل للريّس جوزف أكثر من ثلاث ساعات من الاعترافات، وإنّه ينوي نشرها في كتاب عنوانه «تفاهة الإنسان». وقال إنّه يحمل معه آلة تسجيل، كي يسجّل حوارنا ويجعله مقدّمة لكتابه. لكن جوزف لم يأتِ، لذلك سيطلب منّي أن أروي ماذا جرى من وجهة نظري، كي يضع الرّوايتين في الكتاب. «صفحة لك وصفحة له، ما رأيك، القاتل والقتيل يتحاوران».

«ولكنّي لست قتيلاً»، قلت.

«أنت تمثّل القتلى»، قال.

«القتلى لا يتكلّمون، ولا يتمثّلون»، قلت.

«ألست فلسطينيًا مثلهم، انظر إلى إسرائيل، إنّها تمثّل ضحايا الهولوكست»، قال.

«هذا هو الفرق»، قلت، «أنا أعتقد أنّ الضحايا لا ممثّل لهم، أنّهم... أنّهم...».

«أنت لا تفهم شيئًا»، قال.

قلت له إنّ مشروعه بلا معنى، فلا يمكن إجلاس الضحيّة إلى جانب المجرم. «كتابك سوف يكون تافهًا مثل عنوانه». وانفجرت ضاحكًا.

لحظتها، انقلب الرجل الذي أمامي، حتّى بياض وجهه امتزج باللّون الأخضر، وقال على لسان جوزف:

«أوصلونا إلى المطار، وكنت على رأس فصيل يتألّف من عشرين شابًا، كنّا كالضائعين، مات بشير، أعطاني أبو مشعل كميّات من الكوكايين، طلب منّي توزيعها على الشباب. كنّا نستنشق الكوكايين كأنّه مازة، كأنّنا نأكل الفستق. ثمّ انحدرنا إلى المخيّم وبدأنا. كانت القنابل الضوئيّة. لم نعتقل أحدًا، أو نشتبك مع أحد. كنّا ندخل البيوت ونرشّ ونطعن ونقتل. كانت مثل حفلة، كأنّنا في مخيّم كشفي نرقص حول نار المخيّم. النّار تأتي من فوق، من القنابل الضوئيّة التي يطلقها الإسرائيليّون، ونحن تحت، نقيم الاحتفال».

قال حفلة!

قال إنّ الريّس جوزف عثر على ثلاثة أطفال، وطلب من أحد زملائه مساعدته على الإمساك بهم. قال إنّه طلب من زميله ضمّهم إلى جانب بعضهم بعضًا، ووضعهم على الطاولة. «وسحبت مسدّسي، كنت أريد أن أجرّب المدى الذي تستطيعه طلقة مسدّس الماغنوم». انزلق أحد الأطفال أرضًا، كان الضوء يحرق العيون، طلبت من زميلي إبعاد وجهه، لم يفهم قصدي، فترك الطفلين، وخرج من البيت، تقدمتُ منهما، كنت أريد أن أربطهما وأبتعد، لكنّي لم أجد حبلاً. الصقتهما ببعضهما بعضًا، ووضعت فوهة المسدّس قرب رأس الأوّل، وأطلقت النار، اخترقت رصاصتي الرأسين، فماتا فورًا. لم أر الدم، فداخل ذلك الضّوء الإسرائيلي الغريب، لم يكن من الممكن أن أرى الدم، وعندما خرجت من البيت تعثّرت بالطفل الثالث الذي سقط، تراجعت وأطلقت النار على شيء صغير يتحرّك، فجمد في مكانه».

هنا، دخل السيّد جورج في تحليل معقّد لنفسيّة الريّس جوزف، قال إنّ الريّس جوزف لم يكن يعي ماذا يفعل، لذلك لا يمكن اعتباره مسؤولاً عن جريمته، ودخل في أطروحة معقّدة حول الموت. ثمّ سألني إذا كنت قد قتلت أحدًا.

«اسمع يا أستاذ جورج، أنا مقاتل، أمّا صاحبك فسفّاح، ألا تستطيع التمييز بين المجرم والجندي»؟

«معك حقّ، معك حقّ، لكنّي أريد أن أعرف».

«ماذا تريد أن تعرف»؟

«أسألك هل قتلت أحدًا؟ وماذا كان شعورك بعد ذلك».

وسط تلك الدوّيخة، يسألني إذا كنت قد قتلت أحدًا. أين يعيش هذا الرجل؟

«طبعًا»، قلت. قلتها ببساطة، رغم أنّي لم أطرح هذا السؤال على نفسي من قبل. فأنا لم أقتل أحدًا، بمعنى أنّي لم أقترب من أعزل، وأطلق عليه النّار، وأرَهُ يموت. ولكنّي قلت ببساطة أدهشت الأستاذ جورج إنّني قتلت.

سألني عن شعوري.

«أيّ شعور يا زلمي، لا شعور ولا غير شعور».

إنّه لا يفهم شيئًا. تخيّل يا سيّدي، تخيّل أن يأتيك الأستاذ جورج، ويسألك السؤال نفسه. بماذا كنت تجيبه. كنت بالتأكيد ستطرده من بيتك، وتطلب منه أن يحلّ عنك. ما هذه الأسئلة. ألا يعلم هذا العقبري أنّ الموت لا معنى له، كلّ كلامه عن غريزة الدم بلا معنى، مجرّد كلام أدبي. ففي الحرب، نقتل كما نتنفّس، القتل يعني أن لا تفكّر في القتل، فقط تطلق النّار.

هل من المعقول، ونحن داخل دوّامة هذه الحرب، أن يأتي رجل ويسألني عن مشاعري حين أقتل؟

أوّلاً، أنا لم أقتل.

ثانيًا، حتّى ولو قتلت، فلا شعور.

ثالثًا، أنا أحارب. أموت أو أقتل، فماذا أفعل؟

السيّد جورج، ركّز معي حول التجربة الأولى. قال إنّه يتفهّم جوابي، فكلّ شيء قد يصير عادة، والعادة تفقد تأثيرها.

«حدّثني عن المرّة الأولى»، قال.

«لا يوجد مرّة أولى»، قلت.

«بلى، بلى، حاول أن تتذكّر».

«في المرّة الأولى رأيت رجلاً يموت، وكان يصرخ بأنّه لا يريد أن يموت».

هذه هي مرّتي الأولى.

وأنت يا سيّدي، هل تذكر تجربتك الأولى؟

أعتقد أنّ هذا النّوع من الأسئلة يقود إلى لا شيء.

أنا لا أذكر نفسي إلاّ في الأشبال. حين سألني الأستاذ جورج عن تجربتي الأولى، رأيت صورتي راكضًا بين الفتيان الحليقي الرؤوس، والهتاف يعلونا: «نموت ونموت ولا نركع».

وكان المدرّب يركض أمامنا، ويصيح بهذه «النموت»، ونحن نركض خلفه، وفمنا ممتلئ بفاكهة الموت. هذه كانت تجربتي الأولى، أن أضع الموت مثل علكة في فمي وأمضغه وأركض به إلى نهاية العالم، ثمّ أبصقه. لكنّ الأستاذ بارودي كان يريد شعوري حين قتلت إنسانًا، فسألته عن

شعوره هو، قال إنّه لم يقاتل في حياته. أنا لا أفهم كيف يكون الإنسان مثقّفًا وكاتبًا، ويترك الحرب تمرّ إلى جانبه، ولا يختبرها.

قال إنّ تجربته الأولى كانت حين رأى. وأخبرني عن البراميل في مخيّم جسر الباشا.

قال إنّه ذهب معهم من أجل التغطية الصحافيّة، ورأى كيف أجبروا الأسرى عل دخول البراميل. قال إنّ سقوط مخيّمي جسر الباشا وتل الزعتر كان بربريًا.

قلت إنّني لا أريد الاستماع إلى هذه الحكاية، لا البراميل التي ينزّ منها الدم، ولا الأسرى الذين يتدحرجون داخل البراميل، ولا الاغتصاب والقتل وأكل لحم الجثث.

يكفيني الذي فيّ.

قلت له إنّني أكره نفسي الآن. أكره كيف وقفت مسحورًا أمام ذلك الملصق الأصفر الذي صمّمه فنّان إيطالي، نسيت اسمه، تحيّة لشهداء تل الزعتر. أكره تلك الخطوط العموديّة الثلاثة آلاف، التي وضعها الرسّام على سطح لوحته. أكره كيف كنّا نحتفل بالموت. عدد موتانا كان علامتنا، كلّما ازداد موتنا ازددنا عددًا ومعنى.

قلت إنّني لم أعد أحبّ لعبتنا مع الموت.

قال إنّ الموت رقم رمزي، وإنّ الأرقام هي العنصر الوحيد الثابت منذ فجر التّاريخ. «الرّقم هو السّحر»، قال، «لا يُسحر الإنسان إلاّ أمام الأرقام، لذلك حين يتّخذ الموت شكل الأرقام، يصبح طلسمًا».

غادرنا المقهى. أوصلني إلى مدخل المخيّم ومضى. لا أعرف ماذا كتب في جريدته عن ذلك اللقاء الذي لم يحصل مع الريّس جوزف. فأنا فقدت اهتمامي بالمشروع لحظة وصولي إلى المخيّم، حتّى فكرة المصالحة لم تعد ذات معنى. فالمصالحة حصلت دون أن تحصل، والدليل أنّني أخبرك الحادثة دون أيّ انفعال.

المصالحة حصلت، حين صارت دنيا ضحيّة حكايتها. وحين تحوّلت حكايتها فضيحة، سقطت المرأة، ولم يبق منها سوى عينيها المعلّقتين في فراغ وجهها الرملي.

أعتقد أنّها حين قبلت لعبة الدكتورة منى، انفصلت عن حكايتها. أنا رأيتها على شاشة التلفزيون، رأيت كيف انحنت على الميكروفون، بعد الدوي الهائل الذي أحدثه سقوط العكازتين من تحت إبطيها. وكذبت، واللّه كذبت، كيف يمكن اغتصاب فتاة محطّمة الحوض؟ قالت إنّها أصيبت في أعلى فخذها اليمنى، أي في حوضها، سقطت فارتموا فوقها، وهذا مستحيل منطقيًا. لكنّ الجمهور كان ينتظر الحكاية. فالاغتصاب رمز. وأنا هنا لا أتكلّم على العرب فقط، بل أتكلّم على كلّ شعوب الكرة الأرضيّة. فالإنسان يربط الحرب بالاغتصاب، النصر هو أن يقوم المنتصر باغتصاب نساء المهزوم، والهزيمة لا تكتمل إلاّ حين تتعرّض النساء للاغتصاب. وهذا غير حقيقي بالطبع؛ إنّه استيهام. لا! معاذ اللّه، دنيا لم تقل إنّها اغتصبت لأنّها كانت تتمنّى ذلك، أنا لا أوافق الرّأي السطحيّ والتافه، الذي يحمله أغلبيّة الرجال عن رغبة المرأة في أن تغتصب. فالاغتصاب هو أحد أكثر الأمور وحشيّة وألمًا. قالت دنيا إنّها اغتصبت من أجل علماء النفس والاجتماع والصحافيين، الذين كانوا ينتظرون منها هذه الكلمة. قالتها وارتاحوا.

هذه هي مشكلة حرب لبنان. فلقد دخلت هذه الحرب متخيّل العالم بوصفها جنونًا. وحين نقول إنّ جنونها كان عاديًا مثل جنون كلّ الحروب، يصاب المستمعون بالإحباط، ويعتقدون أنّنا نكذب. حتّى حكاية الريّس جوزف، أنا لا أقول إنّها لم تحصل، على الأغلب أنّها حصلت، وربّما حصلت فظائع أبشع منها، لكن المسألة ليست ماذا حدث، بل كيف نرويه أو نتذكّره.

أنا متأكّد من أنّ الريّس جوزف، لو أتى إلى المطعم، وأخبرني، كان سيضطر إلى إحداث تعديلات جوهريّة على حكايته، فهو معتاد روايتها أمام أناس يعتقدون أنّ ما جرى في المخيّم كان بطولة. أمّا معي، فلن يكون بإمكانه الحديث عن البطولة، بل كان عليه وصف عمله بطريقة باردة ومحايدة، ومعتذرة، ربّما. وهذا يغيّر كلّ شيء، حتّى معنى تلك الرصاصة التي اخترقت رأسي طفلين مرميين على طاولة في أحد بيوت المخيّم، سوف تتغيّر.

أنا لا أنسى كيف حام الذباب فوقي وافترسني. لا أنسى سحابة الذباب الزرقاء التي كانت تطنّ فوق تلك الأجساد التي اختزنت كلّ الموت في العالم. لا أنسى كيف فشخنا فوق الجثث العموديّة المنتفخة، ونحن نسدّ أنوفنا.

قلت للأستاذ جورج، إنّ لا وجود للحظة أولى. لا يوجد الأوّل إلاّ في الحكايات.

كنت تقول من الأوّل وتحكي، ونحن نستمع إليك. كانت تكفي خبطة قدمك على الأرض كي يعود الأوّل، وتبدأ الأشياء.

الآن لا.

الآن لا أحد، ولا أوّل.

المسألة اسمها الحرب، والحرب لا أوّل لها.

كنت على استعداد للقاء الريّس جوزف، رغم أنّي لم أكن أملك أيّ فضول نحوه. كنت مستعدًّا للقائه، لأنّي تعلّمت سرّ الحرب. وسرّ الحرب اسمه المرآة. أعرف أنّ لا أحد سيوافقني، وسيقولون إنّني أحكي هكذا لأنّي خائف. لكن لا. الخائف لا يقول إنّ عدوّه مرآته، بل يهرب منه.

قبلت لقاء الريّس جوزف، رغم أنّي لم أكن أتوقّع منه كلامًا لا أعرفه. فالرجل سوف يبدأ، كما بدأ بالكوكايين. سوف يقول إنّه تعاطى كميّات كبيرة من الكوكايين قبل نزوله إلى المخيّم، كي ترتفع عنه مسؤوليّة أعماله. سيقول إنّ الإسرائيليّين أشعلوا المكان، وإنّ رئيسه الذي كان يجلس مع الضبّاط الإسرائيليّين على سطح السفارة الكويتيّة المشرف على المخيّم، كان ينتظر منه عملاً خارقًا. سوف يقول إنّه حين دخل المخيّم المعتم، وتعثّر بالحجارة، جاءت تلك القنابل المضيئة فأعمت عينيه، وجعلته يطلق النار عشوائيًا ودون تفكير، وإنّه حين دخل ذلك البيت، وأطلق النار، ورأى الناس يتساقطون على الكنبايات التي يجلسون عليها، شعر بنشوة غريبة، وإنّه لم يرد قتل الطفلين بل كان يمازح رفيقه حول فعاليّة «الماغنوم» ثمّ قتلهما هكذا، دون تفكير.

هنا، سوف تحتار في أمرنا يا أبي.

فأنتم لم تخوضوا حربكم، كما خضناها نحن. أنتم ذهبتم إلى الحرب، أمّا نحن فلا. نحن في وضع يشبه وضعكم حين كنتم في شعب، سوى أنّنا لا نستطيع الانسحاب. هل تذكر شعب بعد استعادتها من اليهود؟ هل تردّدت مرّة واحدة هناك؟ طبعًا لا. تردّدكم الوحيد جاء حين أبلغكم جيش الإنقاذ بقرار الانسحاب قبل إقفال الحدود اللبنانيّة. يومها تردّدت، ثمّ انسحبت مع المنسحبين. وحين التقيتها، قلت لنهيلة إنّك أخطأت، وأخبرتها عن سجنك في دمشق، وقلت لها إنّك ارتكبت خطيئة حياتك، وطلبت منها البقاء هناك، لأنّك كنت تعتقد أنّ تصحيح ذلك الخطأ، ممكن وبسرعة.

هل تذكر تلك الأشهر الطويلة بعد موت إبراهيم؟

هل تذكر كم قرّرت وأقسمت على البقاء. عشت في الكهوف، آخيت التراب والصخور والأشجار والحيوانات البرّيّة، وقلت إنّك لن تغادر. وحين شفيت من صدمة موت ابنك، عدت إلى لبنان، وبدأت برسم حكايتك بوصفها سفرًا دائمًا بين الجليلين. تذهب من الجليل اللبناني في الجنوب، إلى الجليل الفلسطيني في الشمال، وتخترع نفسك كحكاية.

أمّا نحن يا سيّدي، فلقد انتقلنا من حرب إلى حرب كأنّنا لا نحارب. كنّا يا أبي لا نحارب، بل نعيش الحرب، لم تكن الحرب بالنسبة إلينا سوى أرقام تضاف إلى أرقام.

وحين انتهت الحرب اللبنانيّة، لم أشعر أنّها انتهت. فالحرب انتهت ولم تنته، لذلك لم أهتمّ بفكرة ماذا وكيف ستكون حياتنا بعد الحرب.

رحلتي إلى ذلك المطعم في الأشرفيّة، سمحت لي بأن ألتقي أعدائي، ولكنّي، مع الأسف، لم أشعر بهم كأعداء. في مطعم «الريّس»، كنت كأنّني أمام المرآة. كأنّي أرى صورتي في الجانب الآخر. لا، أنا لا أدافع عنهم، ولو تكرّرت الحرب لقاتلتهم من جديد. ومع ذلك أريد أن أقول إنّ الحرب الحقيقيّة تبدأ حين يصبح عدوّك مرآتك، فتقتله كي تقتل نفسك. هذا هو التاريخ. هل ترى معي لؤم التاريخ ورعونته. التاريخ أرعن لأنّه لا يحبّ المنتصرين، ويهزم الجميع.

أنت مثلاً، حين رويت رحلاتك وحروبك، حين رأيت تلك المرأة الجاثية قرب الزيتونة الروميّة وسط دائرة الشّمس الحمراء، كنت كمن يرسم مرآته.

رأيت صورتك في مراياهم. لا، أنا لا أساوي الجلاّد بالضحيّة، لكنّي أرى مرآة مكسورة إلى نصفين، ولا سبيل إلى ترميمها أو وصل جزءيها. يا إلهي، هذه هي المأساة: أن ترى نصفين لا يلتقيان إلاّ في الحرب والخراب.

أقول لك، وأنت لا تستطيع شيئًا، فوق سرير النعاس الذي صار مركبك في بحر الموت. أسمعك تقول لا، وتروي لي عن نهيلة واقفة أمام المحقّق الإسرائيلي.

«أنا شرموطة، سجّل أنّني شرموطة، وأنت شو بدّك منّي».

أرجوك أخبرني هذه الحكاية من جديد، أنا أحبّها كثيرًا، عندما أخبرتني إيّاها في المرّة الأولى لم تلفظ كلمة شرموطة، قلت إنّها قالت «أنا شر...»، وحين سألتك عن معنى هذه الشر... انفجرت ضاحكًا وقلت شرموطة، «أنت هيئتك رأسك يابس، وما بتفهمش إشي».

سألتك هي شو قالت، هل قالت شر... أم شرموطة؟

«قالت شرموطة، قالت الكلمة مثل ما هي، كلمة بتعبي التمّ، مش هيك»، أجبتني.

كانت نهيلة حبلى بولدها الرابع. إبراهيم مات، سالم في سنته الثانية، ونور في شهرها التاسع، ونهيلة حبلى.

نور أنقذتها. فبعد ولادة ابنتها، شفيت نهيلة من حزنها، وبدأت سيرة حبلها التي لا تنتهي. كان جمالها يستدير، وشعرها الأسود الطويل ينسدل مربوطًا خلف عنقها وظهرها، وتمشي متهادية. كأنّها حين تحبل، تمتلئ نورًا خفيًا يشعّ من وجهها وعينيها.

أنتَ أخبرتني أنّ شهوتك إليها كانت تنفجر حين يستدير بطنها. تصير نهيلة مدوّرة مثل تفّاحة ناضجة، تفوح منها رائحة الزعتر الممزوج بنكهة التفّاح الحامض. وتكتمل. وإنّها حين كانت تأتيك حبلى إلى مغارة باب الشمس، كانت تفيض حبًا ونعاسًا.

حصلت حادثة المحقّق العسكري، بعد ولادة نور بتسعة أشهر. ذهبت أمّك لتسجيل الفتاة والحصول على هويّة إسرائيليّة لها، فرفضوا تسجيلها.

سأل مأمور النفوس الإسرائيلي عن اسم الأب، فقالت المرأة العجوز إنّه مسجّل على ورقة المختار، اسمه يونس إبراهيم الأسدي.

قال المأمور إنّه لن يسجّل الفتاة قبل أن يرى والدها. مع أنّ أمّك كانت قد جلبت ورقة رسميّة من مختار دير الأسد، وكانت واثقة من أنّ تسجيل نور، ليس أكثر من إجراء شكلي. لكن الموظف الإسرائيلي أصرّ على حضور الأب، فأخذت المرأة العجوز الورقة وعادت إلى بيتها.

نهيلة قالت للمختار، ولكلّ رجال القرية إنّها لن تسجّل الفتاة، «انسوا الموضوع» قالت، «أنا وحدي مسؤولة عن أولادي». ومنذ تلك اللّحظة، لم تعد نهيلة في نظر أهل القرية، امرأة ككلّ النساء، صارت تخالط الرجال، وتجلس في مجالسهم.

في تلك الأيّام، جاء الجنود واقتادوها إلى التحقيق. دخلوا البيت، وقلبوا عاليه سافله، ولم يجدوا شيئًا، سوى الشيخ الأعمى وزوجته وطفلين صغيرين. اقتادوا نهيلة، ووضعوها في زنزانة انفراديّة معتمة لمدّة ثلاثة أيّام، قبل أن يبدأ استجوابها.

يومها، لم يكن الإسرائيليّون يستخدمون فن التعذيب بالكراسي، الذي اخترعوه بعد اجتياح لبنان. يربطون المعتقل إلى كرسي، ويتركونه جالسًا لمدّة أسبوع، والكيس الأسود يغطّي رأسه. يبقى المعتقل مربوطًا إلى الكرسي داخل ظلام الكيس. يرفع الجنود الكيس عن الفمّ مرّة في اليوم، ويعطون السجين كسرة خبز وجرعة ماء، كما يقودونه مكيّسًا إلى الحمّام، مرّة واحدة في اليوم. وفي النهاية، ينسى السجين نفسه، تتخشّب مفاصله، وتسحقه الظلمة. يؤخذ إلى التحقيق بعد أن يكون قد فقد إحساسه بجسمه، وصار ظهره مثل كيس من الحجارة. التي يحملها فوق عموده الفقري، يقف أمام المحقّق مترنّحًا بالانهيار.

في تلك الأيّام، لم يكن الإسرائيليّون يملكون طريقة محدّدة للتعامل مع امرأة، تهمتها الأولى أنّها أنجبت طفلين، وتهمتها الثانية أنّها حبلى. أبقوها ثلاثة أيّام في زنزانة انفراديّة مظلمة، ثمّ استدعوها إلى التحقيق.

كانوا ثلاثة محقّقين في الغرفة. جلس الأوّل خلف مكتب حديدي صغير، بينما جلس الاثنان على كرسيين حوله، ونهيلة تقف مكبّلة اليدين.

سألها عن اسمها.

«اسمي نهيلة، زوجة يونس إبراهيم».

ثمّ قالت «خي شو حلو».

«ما هو الحلو»؟ سألها المحقّق.

«الضوء»، قالت، «الضوء يا سيّدنا، سبحان اللّه، ثلاثة أيّام وأنا في الظلام، ثمّ جاء الضوء، الحمد للّه، الحمد للّه».

وبدأ المحقّق يسأل باللّغة العربيّة الفصحى، ونهيلة تنظر من خلال الشبّاك الذي يطلّ على الفضاء، ولا تجاوب.

«ألا تسمعين»؟ صرخ المحقّق.

«بلى أسمع، ولكنّي لا أفهم».

«أنتِ متّهمة، وتهمتك خطيرة».

«وما التهمة»؟

«أنت حبلى، أليس كذلك».

انفجرت نهيلة بالضحك المتواصل، والمحقّقان المساعدان ينظران إليها بعينين غاضبتين، نهض أحدهما وصفعها على وجهها، وبدأ يطرح عليها الأسئلة بلهجته المغربيّة، ونهيلة لم تفهم أيّة كلمة، كانت الكلمات المغربيّة تتطاير من فم المحقّق، وتتساقط على أذنيها، ولا تدخلهما.

عاد الرجل إلى الجلوس في مكانه، وبقيت نهيلة واقفة، والصفعة تطنّ في أذنها اليسرى. بعد لحظة صمت قصيرة، نظر إليها المحقّق الفصيح، الذي يجلس خلف مكتبه، وقال إنّه طوّل باله بما فيه الكفاية.

«أأمر يا سيدنا»، قالت نهيلة.

«أنت حبلى، أليس كذلك»؟

«نعم يا سيدنا».

«وبعدين»، سأل المحقّق.

«بعدين أنا حبلى، هذا صحيح، وهل هناك قانون في دولتكم يمنع الحبل؟ هل نحتاج إلى إذن من الحاكم العسكري كي نحبل؟ المرّة المقبلة نطلب إذنًا، لم أكن أعلم أنّ هناك قانونًا بهذا المعنى».

«لا، لا»، صرخ المحقّق.

«طيّب ماذا تريدون، أنا أعترف أمامكم أنّني حبلى، انبسطتم، هل أستطيع العودة إلى بيتي».

«نحن نسأل عنه، قال المحقّق.

«من»؟

«زوجك يونس، ألست متزوّجة من يونس»؟

«ما به يونس»؟

«نحن نسألك، أين يونس»؟

«لا أعرف شيئًا عنه».

«كيف»؟

«كيف ماذا»؟

«كيف حبلتِ»؟

«حبلت كما تحبل جميع نساء الأرض».

«يعني هو».

«من»؟

«زوجك»؟

...

«إنّه زوجك أليس كذلك»؟

...

«لماذا لا تجاوبين»؟

...

«جاوبي وخلصيني».

«أستحي».

«تستحين؟ اخلعي الحياء الآن وجاوبي».

«طيّب».

«يعني يونس هو والد الطفل».

«لا أعتقد».

«لن تعترفي إلاّ بالقوّة. نحن نملك طرقًا لا تخطر في بال أحد، وسنجبرك على قول كلّ شيء».

نظر إلى مساعديه وقال «خذوها».

«لا، لا»، صرخت، «سأعترف».

«ممتاز»، قال المحقّق، «أنا أستمع تفضّلي».

«أنا حبلى منذ أربعة أشهر».

«جيّد، أكملي».

«هذا كلّ شيء يا سيدنا، اسأل وأنا أجاوب».

«أين زوجك»؟

«لا أعرف».

«هو والد الطفل الذي في بطنك».

«لا... لا أعتقد».

«ليس هو! إذن من»؟

«لا، ليس يونس».

«من»؟

«لا أعرف».

«لا تعرفين»؟

«نعم لا أعرف، يعني لست متأكّدة».

«لست متأكّدة! ما معنى هذا الكلام، هل أنتِ..»؟

«نعم أنا. أنا حرّة يا أخي، أنت شو بدّك فيي، أنا شرموطة، ليش ما فيش شراميط في دولتكم المحترمة، اعتبرني واحدة من إيّاهنّ، وخلّصني».

تكلّم المحقّق مع زميليه باللّغة العبريّة، وقد بدا الانزعاج عليهم.

«أعترف أنّني شرموطة، لكنّي لا أعرف من هو الوالد».

«لا تعرفين والد الطفل»؟

«لا».

«بمن تشكّين»؟

«بالكلّ، بلا أحد، ما هذا السؤال يا حضرة الضابط، هل تسأل واحدة مثلي بمن تشكّ، عيب هذه الأسئلة».

«ليس يونس إذن».

«لا».

«وعمّك الشيخ المحترم، كيف يقبل أن تعيش تحت سقف بيته امرأة عاطلة»؟

«اذهب واسأله».

جلست نهيلة أرضًا، القيود في يديها، والضحك يرفرف فوق وجهها، وسط ذلك التحقيق الغرائبي، الذي دار في ثلاث لغات. جلست وقالت لهم إنّهم حطّموا كلّ شيء، ويأتون الآن ليدافعوا عن الشرف والأخلاق.

«بيت الشيخ يا سيدنا دمّرتموه مرّتين، مرّة في عين الزيتون، ومرّة في شعب. هذا ليس بيته، أنتم استوليتم على بيته، هذا بيتي، وأنا أصرف عليه وعلى زوجته وأنا حرّة».

«قفي يا شرموطة»، صرخ المحقّق.

وقفت نهيلة متثاقلة وخيّم الصمت.

«بعد في أيّ سؤال، أنا تعبانة، والأولاد وحدهم في البيت مع الإختياريّة».

«لن تقولي أين يونس».

«لا أعرف شيئًا عنه».

«وتعترفين أنّك تشتغلين عاهرة».

«أنا حرّة، أفعل ما أشاء ولكنّي لا أشتغل، ولا أبيع جسدي بالمال».

«شيء مخجل».

«مخجل! سرقتم البلاد وطردتم أهلها، وتأتون لتعطوني دروسًا في الأخلاق. يا سيّدي نحن أحرار، ولا يحقّ لأحد أن يسألني عن حياتي الجنسيّة».

لم يقتنع المحقّق، لكنّه لم يتابع التحقيق. ماذا يستطيع أن يفعل بفلاّحة تقف أمامه وتقول إنّها شرموطة. بصق على الأرض وأمرها بالخروج.

حين وصلت نهيلة إلى بيتها، بدأت تزغرد. فاجتمع النّاس حولها. قالت لهم إنّها زفّت إلى يونس اليوم، «قبل الاعتقال لم أكن أستحقّ أن أكون زوجته، أمّا الآن فأنا زوجته وأمّ أولاده». أخبرتهم ماذا قالت للمحقّق، يومها، ضحك أهل القرية حتّى خرجت الدموع من عيونهم. ضحكوا وبكوا، وأمّ يونس تدور عليهم بكاسات ماء الورد المحلّى بالسكّر، وتطلق زغرودتها الشهيرة.

أنت رويت الحكاية، ولكنّك لم تكملها.

فالحكاية يا أبي، لا تنتهي بامرأة تقف وحيدة أمام المحقّق، وتعلن حمايتها لك بتلك الطريقة المبتكرة، امرأة لبست العار، كي تحمي حياتك، وتغطيك بشرف الحب.

كنت تروي مقاطع من الحكاية، وتنظر إليّ كي ترى دهشي وإعجابي. وكنت أُدهش وأعجب، كلّ حكاياتنا هكذا، تجعل الضحك يمتزج بالبكاء، وتُخرج الفرح من الحزن.

لكن تعال معي ننظر إلى المرآة.

أنا لا أريد إعادة النظر في تاريخنا، ولكن قل لي أنت. أنت تقول إنّك لم تكن تفهم، وإنّكم كنتم في ذلك العام الذي اسمه ١٩٤٨، تنزلقون من قراكم إلى العتمة. وأمّ حسن قالت إنّها حملت اللكن على رأسها، ومضت من قرية إلى قرية، ومن حقل زيتون إلى حقل زيتون، دون أن تدري إلى أين تمضي.

يومها، لا، قبل ذلك اليوم، حين كنت فتىً في ثورة الـ٣٦، وما بعدها. قل لي، هل كنت تعرف شيئًا عنهم.

أنتم فلاّحون، ولا تعرفون شيئًا، سوف تجيب.

أين كانت فلسطين؟ أنت توافق معي أنّ الجليل لم يكن الموضوع. الجليل يملك سحره لأنّه «جليل الأمم»، كما أسموه في الكتب. واليوم صرنا نحن «أمم» الجليل، نحن الأغيار أو «الغوييم» كما يسمّينا اليهود.

ولكن قل لي، ماذا فعلت الحركة الوطنيّة المتمركزة في المدن، ماذا غير الاضطرابات والتظاهرات ضدّ الهجرة اليهوديّة.

أنا لا أقول إنّكم لم تكونوا على حقّ، ولكن في تلك الأيّام، حين كان الوحش النازي يقوم بإبادة اليهود في أوروبا، ماذا كنتم تعرفون عن العالم؟

لن أقول، لا، لا تخف، فأنا أؤمن مثلك بأنّ هذه البلاد، يجب أن تكون لأهلها، وأنّه لا وجود لأيّ مبرّر أخلاقي أو سياسي أو إنساني أو ديني يسمح بطرد شعب كامل من بلاده، وتحويل بقاياه إلى مواطنين من الدرجة الثانية، لا، لا تخف، فهذه الفلسطين مهما أطلقوا عليها من أسماء، ستبقى فلسطينيّة، ولكن قل لي، ألم تروا في وجوه هؤلاء الذين سيقوا إلى الذبح شيئًا يشبه وجوهكم؟

لا تقل لي إنّك لم تكن تعلم، ولا تقل ما ذنبي؟

أنت وأنا وكلّ الناس في كلّ الكرة الأرضيّة، كان يجب أن يعلموا ولا يسكتوا ويمنعوا ذلك الوحش من افتراس ضحاياه بتلك الطريقة البربريّة التي لا سابق لها. لا لأنّ الضحايا كانوا يهودًا، بل أيضًا، لأنّ ذلك الموت، كان يعني موت الإنسان فينا.

أنا لا أقول إنّه كان يجب أيّ شيء. ربّما كان يجب أن نفهم، لكنّنا - لكنّكم كنتم خارج التاريخ، فصرتم ضحيّته الثانية.

أنا لا أريد أن أعظ الآن، رغم أنّني أعظ، فالمستوطنون الذين أسّسوا «الكوبّانيات» والمستعمرات، والذين يؤسّسونها اليوم في القدس والضفّة الغربيّة وغزّة، لا يشبهون أولئك الذين ماتوا. المستوطنون كانوا جنودًا قادرين على قتلنا، كما قتلونا بالفعل، وكما سيقتلون أنفسهم أيضًا.

أمّا الذين ماتوا، فيشبهون نهيلة وأمّ حسن.

أرى أمّ حسن وسط عشرات آلاف المشرّدين في الحقول. أراها وأسمع صفّارات القطار. أعلم أنّه لم يكن هناك قطارات في الجليل، القطارات أتت بعد ذلك، في لبنان وسوريا، حيث تمّ حشر اللاّجئين وتوزيعهم على ضواحي المدن التي تحوّلت مخيّمات.

الصفّارات ترنّ في أذني. أراهم يقادون إلى قطارات النهاية، أرى القطارات وأرتجف، ثمّ أرى نفسي محمولاً في لكن، على رأس امرأة.

أعترف لك أنّني خائف.

فأنا أخاف تاريخًا لا يملك سوى رواية واحدة. التاريخ له عشرات الروايات المختلفة، أمّا حين يجمد في رواية واحدة، فإنّه لا يقود إلاّ إلى الموت.

يجب أن لا نرى أنفسنا في مرآتهم فقط، لأنّهم سجناء حكاية واحدة، كأنّ الحكاية تختصرهم وتجمّدهم.

أرجوك يا أبي، يجب أن لا نصير حكاية واحدة. حتّى أنت، حتّى نهيلة، أرجوك اسمح لي بتحريرك من حكاية الحبّ، فأراك إنسانًا يخون ويندم ويعشق ويخاف ويموت. صدّقني فهذا هو الطريق الوحيد كي لا نجمد ونموت.

أنت لست مجمّدًا في حكاية واحدة. أنت تموت ولكنّك حرّ. حرّ من كلّ شيء، وحرّ من حكايتك.

سليم أسعد علّمني معنى الحرّية.

كنت مشغولاً بالفرنسيين، حين أشار إلى رأسه، وروى الطفل الذي كانه، وأوصلني إلى الشامبوان. كان سليم يقف أمام الجامع الذي تحوّل مقبرة، يترك رأسه للبياض، يغسل رأسه أمام الناس، مستدعيًا الأعجوبة.

«الكهل يصير شابًا»، يصرخ.

ويتدافع حوله الناس. لم يكن في الأمر سحر أو غرابة، الجميع يعرفون أنّ الشعر الأبيض سوف يمتلئ سوادًا، وأنّ الكهل الواقف أمامهم، سيعود شابًا. كان ظهره يحدودب، وقدماه ترتجفان، ويختنق صوته، وهو يدعو الناس إلى الحفلة التي يقيمها في الخامسة من بعد ظهر أوّل خميس من كلّ شهر. يقف، ويطلب من أحد المتفرّجين مساعدته في دلق الماء على رأسه، فيدلق الماء، يئنّ الكهل، يضع الشامبوان على رأسه، يفركه جيّدًا، ويدلق الماء من جديد، وفجأة، ينطّ في الماء، ويعود شابًا. تذهب ارتجافة القدمين، يعلو الصوت، ويغطّي السواد شعر الرأس. «رجوع الشيخ إلى

صباه، شامبوان لكلّ الأعضاء، أنا الشيخ الذي رجع إلى صباه، اغسلوا أعضاءكم وتعود، كلّ شيء يعود شابًّا. جرّبوه ولن تندموا. ويبدأ بتوزيع القناني الصغيرة على المتفرجين، ويقبض أثمانها. نساء ورجال وشيوخ وأطفال، يجتمعون في باحة الجامع، للتفرّج على أعجوبة الشيخ الذي يعود إلى صباه.

كما ترى، لا شيء في الحكاية، سوى أنّها مجرّد تمثيليّة تافهة للمذبحة. ثمّ رأيته.

ذهبت إلى الجامع كي أتفرّج على الحفلة بدافع الفضول، ليس إلاّ. تجاوزت خوفي وعزلتي، وذهبت. سحرني الفتى، كان يمثل دوره بشكل مدهش.

يتقدّم، محدودب الظهر، يدور حول نفسه، وحول المتفرّجين ويئنّ. ثمّ يرسم لنفسه دائرة وهميّة يدور في داخلها. يدور ولا يتعب وحين يصبح عدد المتفرّجين كافيًا يبتدئ العرض.

صوت كالحشرجة، وظهر محدودب منكسر، ووجه. وجهه هو الإبداع. يدور ويبتلع وجهه، يضمّ شفتيه ويبتلعهما، فيصير وجهه قناعًا. كأنّه يضع قناع الشيخوخة. عيناه تغوران، فمه يعرض، وشفتاه تصيران بلا أسنان. يدور ويئنّ، ترتجف قدماه، يترنّح، يكاد أن يسقط ولا يسقط، ثمّ يقول بصوت منخفض: «يا أولادي، يا أولادي، والدكم الختيار سوف يموت، تعالوا يا أولادي». يمدّ يده كمن يستعطي، ويطلب المساعدة. يتقدّم منه أحد الفتيان المتفرّجين، فيدله العجوز على سطل الماء. يحمل الفتى السطل، ينحني العجوز حتّى يكاد رأسه أن يلامس الأرض، الفتى يسكب الماء، والشيخ يتداعى تحت الماء المتساقط على رأسه، ثمّ يمدّ يده إلى جيبه، يخرج قنّينة صغيرة، يضع قليلاً من السائل الأخضر على يده ويريها للناس، ثمّ يرفعها إلى رأسه، ويفرك ويئنّ، ويرتجف. يطلب الماء من جديد. يختفي صوته، يفتح فمه ويغلقه كأنّه يريد أن يتكلّم ولا يستطيع، كأنّه يستغيث، تقترب منه امرأة وتسقيه الماء من قنّينة تحملها، يشرب قليلاً، ثمّ يغرق في سعال يشبه النحيب. يرفع يديه الاثنتين إلى الأعلى، فيتقدّم الفتى منه، ويبدأ في سكب الماء من جديد على رأسه، الماء يندلق، والشيخ يغرق.

بركة الماء من حوله تتّسع، يركع على قدميه ويديه ويدبدب في الماء. يدور ويدور، والماء يتساقط على رأسه، ثمّ يقفز فجأة، يعود شابًا ويصيح: «رجوع الشيخ إلى صباه في القدرة على الباه، تعالوا، بألف ليرة تعودون شبابًا، شامبوان لكلّ الأعضاء، وخاصّة، خاصّة» ويمدّ يده إلى تحت. «تعالوا تعالوا إلى الشباب الدائم». ويبدأ في توزيع قنانيه الصغيرة على المتفرّجين، والنّاس يضحكون ويصفّقون ويتدافعون، ويدفعون.

كان يجب أن يأتي الممثّلون الفرنسيّون لمشاهدة مسرحيّة «رجوع الشيخ إلى صباه». هذه هي مسرحيّة المذبحة، كنت سأقول لكاترين لو وقفت إلى جانبي، وتفرّجت على سليم منتقلاً من الشباب إلى الشيخوخة، ومن الشيخوخة إلى الشباب، كأنه يشتري حياته بتمثيلها.

تقدّمت منه، اشتريت وضحكت. ثمّ حين تفرّق الجمهور، ودفع لفتى السّطل وامرأة القنّينة حصّتهما رآني ما أزال واقفًا.

«شفت يا دكتور، نحن منعجبك».

أمسكته من يده، وطلبت منه المجيء غدًا إلى المستشفى، كي يبدأ العمل.

«تشتغل، ولكن بلا هذه الحركات»، قلت له.

«بأمرك يا دكتور»، قال، وباعني قنّينة ثانية.

«يجب أن أبيع كلّ القناني، قبل الانتقال إلى عملي الجديد».

أخذ خمسة آلاف ليرة، وقال إنّه سيأتي غدًا، وأتى. عمل هنا حوالى شهر، وقلب الدنيا. ملأ المستشفى جنونًا. كان يسرق الأدوية ويبيعها، يمازح زينب، يخبر الحكايات، يدخل غرف المرضى ويبيعهم أدوية صنعها من الأعشاب، ويدّعي أنّها أكثر فاعليّة من أدويتنا.

وكنت أعرف كلّ شيء، لكنّي لم أستطع إيقافه عند حدوده. كان يملك منطقًا عجيبًا، ويدّعي أنّ ما يقوم به هو لمصلحة المرضى.

«المرض وهم يا دكتور، نصف المرض نفسي، ونصفه الثاني من التعتير، وأنا أعالجهم نفسيًا، اتركني وسوف ترى النتائج».

وتركته، لأنّي لم أكن أملك حلاً آخر معه.

«المريض شو بدّو، أنا بضحّكهم، فيموتوا عم يضحكوا، ولأيش الغلبة يا زلمي».

حتّى معك حاول أن يمزح، فأفهمته أنّ الأمور تنتهي هنا عند باب غرفتك، وغرفة دنيا. لكنّه لم يفهم، بلى فهم عنك، ولم يقترب من غرفتك، أمّا مع دنيا فقد اختلفت الأمور. كان يدخل غرفتها ويمثّل أمامها، ويبيع أمّها أشياء غريبة عجيبة. والأمّ كانت سعيدة، قالت إنّ دنيا ابتسمت له.

«هذه أوّل مرّة تبتسم يا دكتور، أرجوك لا تمنعه من المجيء إلى غرفتها».

وقالت إنّ دنيا تتجاوب مع الدواء الذي وصفه لها الدكتور سليم.

«الدكتور! من»؟ سألت.

«سليم، واللّه إنّه أحسن من كلّ الدكاترة»، قالت الأمّ.

وحين سألته عن هذا الدواء العجيب الذي صنعه لدنيا، نظر إليّ بقناع الرجل الكهل الذي رأيته أمام الجامع.

«حلّ عني يا رجل، أنت لا تفهم».

وأنا لا أفهم.

لو فهمت لتوقعت اختفاءه، بقي هنا شهرًا ثمّ اختفى، ولم أعثر عليه. لا أعتقد أنّه عاد إلى تمثيل مسرحيّته أمام الجامع.

قالت زينب إنّه أطلعها على أنّه ينوي الذهاب إلى مخيّم عين الحلوة، حيث سيتزوّج ابنة عمّه.

«ماذا سيشتغل هناك»؟ سألتها.

«لا شيء»، قالت.

«أعرف، سوف يمثّل الختيار»، قلت، «هناك سيعثر على جمهور جديد».

«لا»، قالت. «سوف يعيش في دار والد زوجته، أخبرني أنّ والدها يشتغل في السعوديّة، ويرسل لهم الدولارات، وأنّه سيعيش ملكًا هناك».

هل قبلت اعتذاري الآن؟

سليم أسعد فتنني بحكاياته ومسرحيّته وشعره الأبيض. فتنني وجعلني أتلهّى عنك بأمور المستشفى. أنت تقدّر، ولا شكّ، صعوبة المعركة

التي خضتها مع الدكتور أمجد، من أجل إيجاد وظيفة له في المستشفى. أمجد رفض، وقال إنّ الميزانيّة لا تسمح، وإنّ سليم أسعد سيحوّل المستشفى مكانًا للتهريج، لكنّي أصررت ونجحت.

نجحت أي فشلت؛ فهو لا يريد أن يشتغل. اشتغل شهرًا، وغادر دون أن يودّعني. ماذا فعلت له؟ واللّه لم أفعل شيئًا، تركته يفعل على هواه، ومنعته فقط من الاقتراب من غرفتك. هذا كلّ شيء. لكنّه عكروت. نعم عكروت لا يريد أن يشتغل، تعوّد البطالة والتمثيل والتشبيح. ماذا كان في استطاعتي أن أفعل له، أكثر ممّا فعلت؟

«هذا ليس مستشفى». كلّما وجّهت له ملاحظة، كان ينظر إليّ باستغراب، يرفع كتفيه إلى الأعلى، ويقول، «هذا ليس مستشفى».

مرّة دخل مكتبي ووقف.

«ماذا يا سليم»؟ سألته.

«معي قناني يا دكتور، ألم تقتنع بعد بضروة تغيير لون شعرك»؟

«حلّ عنّي، واتركني أشتغل».

«تشتغل»!

«نعم، اللّه يخليّك اتركني».

«تشتغل يا دكتور، أنت تعتقد أنّك تشتغل، ولكنّك أهبل، لا مؤاخذة يا دكتور، أنا قلبي على رأس لساني، أنت أهبل وتضحك على الناس، وتجعلهم يصدّقون أنّهم في مستشفى حقيقي. تبيعهم أشياء لا تملكها، أنا أحسن منك، أبيعهم الحقيقة، الشايب يتخلّص من شيبته، ويشعر أنّه عاد شابًا، أمّا أنت فلا شيء، مجرّد استمرار للكذبة. أوقفوا الكذبة، اللّه يخلّيك أوقف الكذب، واترك الناس تعيش».

هل صحيح يا أبي، أنّني أكذب على الناس!

هل كذبت عليك؟

أنت أيضًا، كنت تفضّل لو انحلّت الأمور على طريقة سليم أسعد، بقنّينة صغيرة، تحتوي سائلاً مصنوعًا من الصابون والأعشاب. لكن من أين أجلب لك سائلاً يردّ الوعي إلى دماغك المشلول؟

لا، لا تصدّق سليم.

سليم مجرّد لعبة، مجرّد مسرحيّة، مجرّد مشهد، أمّا الحقيقة فتكمن في هاتين الغرفتين. أنت هنا، ودنيا هناك. دنيا تموت، وأنت تموت. هي لم تعد تستطيع رواية حكايتها، وأنت لم تعد تستطيع احتمال حكايتك بعد موت نهيلة.

وأنا أمثّل.

أنا هو الممثّل الحقيقي، وليس سليم. أمثّل حكايتك وحكاية دنيا وحكاية سليم، وحكاياتكم كلّكم.

لو فهم سليم ماذا يجري في هذه الغرفة، لما تركني وذهب. أنا متأكّد من أنّ حكاية زواجه من ابنة عمّه ليست صحيحة، وأنّه سيعود مع كلّ خميس، في أوّل كلّ شهر إلى التمثيل أمام الجامع. حيث يشتري بشبابه شيخوخة وهمية، تساعده على مواجهة هذه الأيّام.

مضى سليم، ولن أبحث عنه.

أنا هنا، وعندي عمل كثير يجب إنجازه، عدت إليك كما ترى، آتي ثلاث مرّات في اليوم، وأقضي معظم وقتي في غرفتك. أشرف على توزيع العمل الصباحي، ثمّ أعود إليك، ونعود إلى ما كنّا عليه، أنا أروي حكايتك، وأنت تروي حكايتي، وننتظر.

من الأوّل أقول لك.

ونحن في الأوّل.

وفي الأوّل أرى أبي. أراه ولا أراه. فياسين أيّوب، مات قبل أن ألتقي به. أراه صورة معلّقة على الجدار، صورة كبيرة، إطارها بنّي، يقف داخل الإطار ملتصقًا بالحائط، ينظر إلى البعيد، وربطة عنقه تتدلّى برسومها الغامضة المتشابكة، كلسان طويل. وفوقها، يرتسم وجهه الحادّ، وحنكه المنحوت، وعيناه الذابلتان. أريد أن أسألك عن موته. أمّي ذهبت ولم تخبرني، وجدّتي ماتت وأنا لا أعرف.

لماذا قتلوه عام ١٩٥٩؟ لماذا كوّموه أمام البيت، بعد أن اصطبغ شعر رأسه الأبيض بدمه؟

في ذلك العام، كان كلّ شيء قد انتهى؛ الحرب الأهليّة التي اشتعلت في لبنان عام ١٩٥٨، انطوت، وتمّت المصالحة بين المسيحيين والمسلمين، وانسحب المارينز الأميركيّون من لبنان، وانتخب قائد الجيش اللّبناني اللّواء فؤاد شهاب رئيسًا للجمهوريّة. كلّ شيء عاد كما كان، ما عدانا. النّاس يحتفلون بالسلام والحياة، وجدّتي تحتفل بموت ابنها!

أنت الوحيد الذي يعرف قصّته، فلماذا لا تخبرني؟

قبلك، أي قبل مرضك ونعاسك الأبدي هذا، لم أكن مهتمًا به، ولم أكن أحبّه. كنت أنظر إلى صورته ولا أراه، ولولا عناد جدّتي، لماتت الصورة.

كانت شاهينة، أمّ ياسين، تملك نظريّة خاصّة عن الصّور. فالصّورة تموت إذا لم نسقها ماء. كانت تمسح الغبار عن زجاجة صورة أبي بخرقة مبلولة، وتضع تحتها إناء مليئًا بالزهور والأعشاب الطيّبة الرّائحة. تقول

إنّ الصّورة تعيش بالماء والرّائحة الطيّبة. تقطف الحبق والورد الجوري، وتضعها في المزهريّة تحت الصّورة، تنحني على الصّورة بخرقة مبلولة، وتحكي مع ابنها. كانت جدّتي تحكي مع الرجل المعلّق على الحائط، وتسمع صوته، وكنت أضحك عليها وأخاف منها.

«سوف تفهم عندما تكبر»، كانت تقول.

وكبرت ولم أفهم.

ربّما ماتت الصّورة لأنّي لم أسقها. ربّما ماتت يوم موت جدّتي. ربّما كان يجب دفنها معها. كنت شابًا، ولم أكن مهتمًا. حتّى موتها، مرّ دون أن أشعر به. لم أذرف دمعة واحدة عليها. جئت وكانوا قد دفنوها، فلم أقل شيئًا، وعدت إلى قاعدتي العسكريّة في الجنوب اللّبناني، وهناك ضربني الألم. تصوّر: انتظرت شهرًا كي أصاب بالحزن. يومها، لم نكن نصاب بالحزن، كنّا كالمنوّمين مغناطيسيًا. أذكر نفسي جالسًا، أذكر أنّني أخذت المخدّة والسّاعة. أذكر أنّي وضعت السّاعة في معصمي واكتشفت أنّها معطّلة. حاولت تحريك الزمبرك فلم يتحرّك، فخلعت السّاعة ورميتها في الدّرج ونسيتها.

هل يمكن أن تكون جدّتي، قد حملت في يدها ساعة معطّلة كلّ ذلك العمر. كأنّها قتلت الوقت في يدها. هل كانت تنظر إلى ساعتها؟

لا أعرف، فأنا لم أرها في أيّامها الأخيرة، جئت وحضرت جزءًا من احتضارها، ثمّ جئت بعد موتها، ورميت ساعتها في الجارور، قبل أن أعود إلى قاعدتي العسكريّة.

وهناك، في القاعدة، ضربني حزن وحشيّ، ولم أجرؤ على رواية سبب حزني لأحد. كيف؟ تعيش وسط شبّان يتساقطون في الموت يوميًا، وتحزن على امرأة كهلة، تسقي صورة ابنها ماء، وتهذي بالحكايات، وتنام على وسادة الزّهور؟

ضربني الحزن بشكل وحشيّ. وكان صوتها يأتي ويختفي وسط منامات مليئة بالكوابيس وإطارات الصور الفارغة. ولم أعترف لنفسي يومها أنّني حزين من أجلها.

اليوم، وأمام نومك الأبديّ، فهمت حزني.

هناك يا سيّدي، في القاعدة العسكريّة، التي بنيناها في حقل الزيتون في الخريبة، جاء الموت وكلّمني. كان حزني على المرأة لا يوصف، كأنّني فقدت معنى حياتي، كأنّ حياتي كانت معلّقة بهذه المرأة التي مضت، وبتهويماتها وذكرياتها.

يومها، ركبني هاجس الموت، واعتقدت أنّني سأموت، لأنّ المرأة ماتت. لكن كان عليّ أن أعيش من جديد، هكذا قلت لنفسي يومها، وهكذا قلت أيضًا بعد مذبحة المخيّم عام ١٩٨٢. أنا لم أذهب مع الذاهبين إلى تونس، لأنّي خفت من الموت الذي كان مرتسمًا على وجوه المودّعين. بقيت هنا، وعشت الموت. ثمّ جاء مرضك كي يعيدني إلى الأوّل. معك يا سيّدي، أشعر أنّ كلّ شيء مايزال في أوّله، حكايتي لم تبدأ بعد، وحكايتك أحاول اكتشافها، وأبي يعود إليّ، كأنّه ينزل من الصّورة المعلّقة في الجدار، ويكلّمني.

هل تعلم ماذا فعلت أمس؟

تركتك لتنام، وذهبت إلى البيت، أشعلت شمعة في غرفة الجلوس، وأخذت خرقة مبلّلة بالماء، ومسحت الصّورة، وقلت لها إنّني سأعود غدًا مع الأزهار والحبق. لكنّني لن أعود. كان عملاً جنونيًا أليس كذلك؟ هناك، تحت الصّورة، فهمت لماذا كانت جدّتي تقول إنّني أشبهه. فأنا أشبهه فعلاً. لا أعلم لماذا كنت أكره نفسي، حين كانت جدّتي تقول إنّني أشبهه. ربّما لأنّني كنت أخاف من موته.

أين أمّي الآن؟

حتّى صورها اختفت من البيت. قالت جدّتي إنّها هربت وأخذت صورها معها. ربّما خافت أمّي على صورها من جدّتي. خافت من أن تجد المرأة الكهلة وسيلة تخاطب بها الصّورة، كي تجبر نجوى زوجة ياسين على العودة إلى البيت. لا، ربّما قامت جدّتي بتمزيق الصّور، كي لا يبقى لي سوى صورته التي كانت تحكي مع جدّتي. كانت جدّتي تقول إنّها سمعته، وهو يأمر بكذا، وأنا أصدّقها. كانت تنسب كلّ أوامرها إليه. ثمّ كرهت الصّورة وكرهتها وكرهت أبي.

قلت لك إنّني أشبهه، وإنّني كرهت نفسي من أجل ذلك. أمّا الآن فلا.

لكن في تلك الأيّام، حين بدأ اللّون الأبيض يغزو رأسي، شعرت بكراهيّة فظيعة تجاه ذلك الرجل، وتجاه نفسي، لكنّي لم أصبغ شعري. فأنا لا أملك هذا القدر من السخرية الذي يملكه سليم. ربّما، لو بدأت حياتي كما بدأت حياته بمذبحة شاتيلا عام ١٩٨٢، لصرت ممثّلاً مثله. لكن مهلاً، فأنا أيضًا بدأت حياتي بمذبحة، ماذا تسمّي مقتل أبي؟ صحيح أنّني كنت صغيرًا، ولا أكاد أذكر شيئًا، لكنّ المشهد ماثلٌ أمامي. كأنّ أخبار جدّتي عن موته تحوّلت صورًا تلاحقني.

أجلس أمامك وأحكي لك، وأسمع صوت ذلك الرّجل يخرج من قلبي. ماذا تسمّي هذا؟ بداية الكهولة؟ ربّما. أنا الآن أقف على مفترقات الأربعين، وفي المفترقات تعود صورة ذلك الرجل الذي تركني من أجل أن يموت.

ألم يفكّر في مصير ابنه الذي سيتقرّر بين امرأتين، واحدة سوف تهرب، وأخرى سوف تتداعى داخل ذكرياتها. ألم تكونوا تفكّرون؟

قبل أبي وقبل الأوّل، أريد أن أقول لك إنّ الحرارة التي عاودتك لا تهمّ. لا تخف، ولا تتململ فوق مخدّة الرّيش التي وضعتها تحت رأسك. وأخيرًا حصلت المعجزة. استطعت أن أشتري لك فرشة الماء. اشتريتها من مالي الخاصّ، وسليم أسعد كان الواسطة. وكان هذا هو العمل الأخير الذي قام به في المستشفى، قبل أن يغادر إلى حيث لا أعلم. ذهب واشترى فرشة الماء وجلبها إلى المستشفى، وردّ لي عشرين ألف ليرة.

«متلك يا دكتور لن آخذ كوميسيون»

أخذ منّي مئة دولار، وردّ لي عشرين ألف ليرة، ومشي الحال.

هذه الفرشة سوف تحلّ المشكلة. قروحك سوف تبرأ، لأنّ فرشة الماء لا تلتصق بجسد الإنسان الذي ينام عليها، كما تفعل الفرشة العاديّة. في البداية، استعضت عن فرشة المستشفى المصنوعة من الإسفنج، بفرشة قطن. القطن أرحم، لكنّه رخو، ما إن تنام فوق القطن حتّى تمتلئ الفرشة بالفجوات. وأنا فكّرت في القطن خوفًا من حرارة الصّوف الذي نحشو به فرشاتنا عادة.

وانظر إلى النتيجة.

تركتك ثلاثة أسابيع، لأعود وأجدك مليئًا بالجروح. فجاءتني فكرة

فرشة الماء، وحلّها سليم أسعد. قال إنّه يستطيع تدبيرها، ودبّرها. لا خوف بعد اليوم. سبب حرارتك المرتفعة هو القروح هذه المرّة، وليس الميل كالعادة. ومع ذلك، فقد اتّخذت قرار إراحتك من الميل قليلاً، لا أستطيع أكثر من ذلك، تركتك أربع ساعات دون ميل كي تشعر بحريّتك من جديد. لكن أكثر من ذلك يعني التسمّم، فأعدته رغم اعتراضك. توقّعي أنّ الحرارة سوف تبدأ بالهبوط تدريجيًا مع المراهم والمضادّات الحيويّة التي مزجتها بطعامك. لا تخف. نستطيع العودة إلى الأوّل. سوف أحمّمك مرّتين في اليوم، وأدهنك بالمراهم، وأرشّ قروحك بالبودرة، وأعطّرك. تأكّد يا أبي ولا تخف. أقول أبي وأتذكّر كيف كنت تدعوني «يا ابن أخي». كنت حين تأتي لزيارتنا في البيت، أو حين تمرّ بمعسكر الأشبال، تضمّني إلى صدرك وتقول، «بطل هذا بطل مثل والده». والآن صرت تعرف أنّني لست بطلاً مثل أبي. أنا مجرّد ممرّض شبه عاطل عن العمل، في مستشفى معلّق في الفراغ. ثمّ أنا لا أشبهه إلاّ ببياض شعري المبكر، وانحناءة كتفي، ومسألة قصر قامتي التي انتهت فجأة. أمّي كانت تقول إنّني مسكين، «مسكين هذا الولد سوف يكون قصيرًا، وطوله لن يتعدّى طول الأرجيلة». وجدّتي تنهرها صارخة، «لا، إنّه مثل ياسين، ياسين كان هكذا، ثمّ نشل فجأة، وصار طويلاً كالرّمح». وتروي عن النكبة، «النكبة قصّرت أعمارنا وقصّرتنا، إلاّ ياسين، فجأة صار الولد القصير مثل الرّمح. وصلنا إلى لبنان، بعد كلّ ذلك العذاب، وهنا اكتشفت، يا اللّه كيف لم أنتبه، فتحت عيني فرأيته طويلاً وجميلاً، يا لطيف كيف كبر في غفلة منّي، وهذا الولد مثل أبيه، وأنتِ لا تعرفين شيئًا عن عائلتنا».

أمّي لم تكن تعرف شيئًا، كانت تلعن حظّها الذي جاء بها إلى هنا، وتقول إنّها تكره بيروت، وتكره هذا المخيّم، وتكره الغابسيّة وأهلها، ولا تعلم لماذا تزوّجت ذلك الرجل الذي سوف يموت.

تحبّ أن أخبرك كيف تزوّجها أبي؟

أم هذه الأمور لا تهمّك، لأنّك لا تحبّ إلاّ قصص الأبطال والبطولات، وتفضّل الاستماع إلى حكاية موت الرجل أمام عتبة بيته؟

لكنّي لا أعرف هذه الحكاية.

اسمع، سوف أروي لك حكاية لا أعرفها. أنا لا أملك حكاية جميلة مثل حكايتك، ولكنّي أخبرك كي لا نسأم.

أعرف أنّك سئمت منّي، ولكن من أين تريدني أن أجلب لك الحكايات، وأنا أسير هذا المستشفى، وهذه الغرفة، وهذا الموت؟

أخبرك وتخبرني، هكذا نربح الوقت، نقتله نحن بدل أن يقتلنا. أنا متأكّد من أنّك تسمع، وتضحك في سرّك، وتريد أن تقول أشياء وأشياء. معليش يا أبي، قل ما تشاء أو لا تقل، المهمّ أن تنهض من هذا النعاس. أنا متأكّد من أنّك ستستيقظ يومًا ما، وستكتشف أنّني حمّمتك بالكلمات، وغسلت جراحك بالذكريات.

هذا كلام جميل، سوف تقول، لكنّي لا أحبّه.

أنت تحبّ الكلمات حين تكون مثل حدّ السكّين. كنت تسخر من طريقة الناس في الكلام، وكيف بدلاً من قول آرائهم بشكل مباشر، يلجأون إلى التوريات والمجاز. «الكلمة يجب أن تجرح»، سوف تقول. ولكن من أين تريدني أن أجلب لك الكلمات التي تجرح. كلّ كلماتنا مدوّرة، لغتنا منذ البدء، أي منذ آدم، كانت مدوّرة. ومهما حاولنا كسر دوائرها، فإنّنا نسقط في دوائر جديدة. لذلك أقبل معي هذه اللّعبة، وتعال نَدُرْ مع كلماتنا. ندور حول الشّمس، ندور حول المخيّم، ندور حول الجليل، ندور حول نهيلة وحول شمس وحول كلّ الأسماء. ندور بالأسماء وندور بلا أسماء. ندور ونعود إلى الأوّل. تعال معي إلى الأوّل كي نذهب إلى بداية الحكاية.

أرى البداية يا سيّدي على شكل ثوب طويل، لا أدري أهو ثوب أمّي أم ثوب جدّتي. امرأتان رفيعتان، والثّوب الأسود الفضفاض الطويل، يغطّيهما من الرأس حتّى القدمين. امرأتان تنتظران، تجلسان على عتبة البيت، وأنا بينهما، لا أعلم من هي أمّي ومن هي جدّتي.

عندما كنت صغيرًا، أنت تعلم كيف الطفولة غامضة، كان لي أمّان واسمان، أمّي الأولى تناديني خليل، وأمّي الثانية تناديني ياسين. الأولى تروي موت الرجل، والثانية تروي ضياع الطفل بعد سقوط القرية. وأنا أملك الحكايتين، وأتلاعب بهما، وأصير الطفل والرجل. أنت تفهم ما أقوله، لأنّك تعيش اللّحظة التي يشتهيها كلّ الناس. أنت الآن في الطّفولة الثانية،

عاجز كطفل، وساكت كطفل، ومستسلم كطفل، يا اللّه ما أطيب رائحتك، ألم أقل لك إنّنا سنعود إلى الأوّل. عادت إليك رائحتك، وعادت الطّفولة. حتّى شكلك بدأ يتغيّر، أنا متأكّد من أنّك قصرت، وأنّ وزنك خفّ كثيرًا، وأنّك عدت إلى تلك اللّحظة الغامضة التي تشوّش ذاكرتنا، حين نحاول استرجاع الطفولة.

مدّ يدك كي أبرهن لك.

أفتح لك يدك، وأضع إصبعي داخل راحتك، فتنغلق يدك على إصبعي. هل تعلم ماذا يعني هذا؟

هذا هو الاختبار الأوّل الذي نجريه للطفل لحظة ولادته. إنّه ردّ فعل لاإرادي. وأنت الآن في هذه المرحلة، عدت طفلاً، وبدل أن تكون أبي صرت ابني. أفتح لك يدك من جديد، ونعيد الحركة، وأنا أفرح بك كما يفرح الآباء بأطفالهم. ألعب معك وأضمّك، وأنت تستسلم للعبتي، وتلعب وتتململ. أضمّك وأشمّك، فتفوح رائحتك في أنفي، هذه ليست روائح الصابون والمرهم والبودرة، فهناك شيء يخرج من أعماقك، رائحة جديدة تأخذك إلى بدايات الطفولة، إلى العمر الذي لا عمر له، حيث نجد بدايات الكلام.

هنا، أستطيع أن أسافر أنا أيضًا، وأرى تلك الأيّام الغامضة التي عشتها بين أُمّين. نجوى سافرت إلى أهلها، وتركتني مع شاهينة ابنة رباح العوض، قائد ميليشيا الغابسيّة، وزوجة خليل أيّوب الذي قُتل عام ١٩٣٦، حين كان يرافق والد زوجته في الثّورة التي اندلعت خلال ذلك العام.أرى المرأتين كامرأة واحدة، كانتا متشابهتين كشقيقتين، البشرة السّمراء، والعيون الصغيرة، والجبهة العالية، والشعر الطويل المتماوج بالسّواد. وحين ماتت شاهينة، أحسست أنّ نجوى ماتت أيضًا. لن أخبرك عن نجوى الآن، لأنّني لا أعرف عنها شيئًا، أعرف أنّني بحثت عنها مرّة. ذهبت إلى الأردن، وبحثت في مخيّم الوحدات، عن زوجة أيّوب وابنة فيّاض، لكنّي لم أعثر لها على أثر، ثمّ جاءتني تلك الرسالة الغامضة من زوجة سميح في رام اللّه، وانقطعت أخبارها.

سألتك لماذا مات أبي، فلم تجاوبني.

سألت جدّتي، فقالت إنّهم قتلوه، لأنّه كان سيموت مثل أبيه.

«يا اللّه كيف تكرّر المنام مرّتين، قالت، وفي المرّتين مات الرجل. المرّة الأولى كانت عام ٣٦، حين رأيت في ما يرى النّائم ذلك الضوء الذي ينطفئ، والمرّة الثانية عام ٥٩، حين انطفأ الضوء من جديد. يا ابني كيف بدّي أوصفلك يلّلي شفتو، ضو متل شي ضو، ضو ابيض ويلمع، ضو فوقي وأنا قاعدي على الأرض. دخل الضو من الشبّاك وصار يقرّب منّي، قمت ومشيت لعندو، لمن وصلت شفت وجه جدّك خليل، قلتلّو شو في يا رجّال، وصار وجهه يتشقّق كأنّه قطع بلّور، وصل لعندي وضمّني، وفجأة انطفا. الإنسان متل الضوّ بينطفي. وهذاك الضوّ يلّي طلع من وجه أبوك ووجه جدّك انطفا بين أيديّ. قلت مات الرجال».

في المرّتين، رأت جدّتي ضوءًا ينطفئ. كانت لا تملّ من إخبار منامها، كأنّ المنام هو المسألة.

«الغابسيّة كانت متل ضو وانطفا»، قالت جدّتي، وهي تستمع إلى زوج ابنتها يروي عن زيارته للقرية.

«الغابسيّة انطفت»، قالت شاهينة. «كنت وحيدة في ذلك اليوم، زوجي أعطاكم عمره، وأبي يقود الميليشيا، ومعي ياسين واخواته. وفجأة هجموا، اقتحم اليهود القرية من الشمال والجنوب الشرقي، احتلّوا بيت عثمان أسعد عبد اللّه في جنوب القرية، واعتقلوه مع ابنه، ثمّ بدأ القصف وهربنا».

روت جدّتي عن ذلك الرجل الذي سقط من مئذنة الجامع، قالت إنّها رأته يسقط كالعصفور، قالت إنّ اسمه كان داود إبراهيم، وإنّه وسط القصف والفوضى، صعد إلى أعلى الجامع حاملاً خرقة بيضاء، كي يعلّقها في المئذنة، معلنًا استسلام القرية. قالت إنّها رأته هناك في الأعلى يؤشّر بيديه، ثمّ علّق الخرقة، لكنّها سقطت، حملها وهو ينظر إلى البعيد، إلى مصدر القذائف، كأنّه كان يطلب منهم التمهّل في إطلاق النّار، ثمّ حاول تعليق الخرقة من جديد، حين أصابته رصاصة في صدره، فسقط كما يسقط العصفور. ضمّ يديه إلى صدره وهوى. قالت جدّتي إنّها حين رأته، فهمت كيف تموت العصافير، كان داود مثل عصفور. قالت إنّها ضمّت أولادها إليها وركضت مع الراكضين، وخافت من الأشجار العالية، ركضت وهي تنظر إلى الأعلى، خوفًا من سقوط الناس موتى عن الأشجار.

وظلّت تركض حتّى وصلت إلى حقول عمقا، وهناك عاشت مع أولادها تحت شجر الزيتون.

قالت جدّتي إنّها أضاعت كلّ أقاربها، وإنّ والدها اختفى.

من المؤكّد يا سيّدي أنّك تعرف جدّي، لأنّه التحق بكم بعد سقوط الغابسيّة في ٢١ أيّار ١٩٤٨، ذهب إلى شعب، وبقي مع حاميتها، حتّى تلاشت الحامية واعتُقلتم جميعًا. هو مات في السّجن في سوريا، وأنت خرجتَ من السّجن، وذهبت إلى مخيّم عين الحلوة، وهناك أعلنت جنونك الذي لا ينسى، حين قمت باحتلال مخفر الدّرك، واستوليت على البنادق واختفيت.

الحكاية التي أريد إخبارك إيّاها، هي حكاية أبي في عمقا.

اسمعني، واللّه كأنّي أنا من عاش الحكاية، كأنّها حكايتي، جدّتي روتها لي مئة مرّة، وفي كلّ مرّة كانت تقول لي أنت فعلت كذا وكذا، ثمّ تستدرك قائلة «اللّه يقطعني، صرت أخربط بينك وبين أبوك». وكنت أدخل الحكاية، وأصحّح لها التفاصيل، لأنّها كانت تنسى الأسماء أو تخلطها ببعضها بعضًا. حتّى اسم عزيز أيّوب، عمّ والدي، الذي لا يستطيع أحد من أبناء الغابسيّة نسيانه، كانت تنساه حين تخبرني عن أبي والحمار.

كانوا في عمقا.

وكانت جدّتي مع أولادها الأربعة، ثلاث بنات وياسين، يعيشون مثل بقيّة خلق اللّه تحت شجر الزيتون.

لنقل الآن إنّي ابنها، كما كانت تناديني. أنا ابنها، وسأروي لك الحكاية.

كنت في الثانية عشرة، قصيرًا ومدعبلاً، ولم يكن أحد يصدّق أنّ هذا عمري الحقيقي. كانوا يعتقدونني طفلاً، ولم يصدّقوا عمري إلاّ بعد أن عدت إليهم، حاملاً كيس الخضر.

كنّا في عمقا، وبدأ الجوع. هل تعرف ماذا كنّا نأكل خلال ذلك الشهر الطويل؟ لا شيء، خبز وزعتر وأعشاب، ثمّ انقطع الخبز، هل تتخيّل شعبًا كاملاً يعيش بلا خبز؟ ننام تحت الأشجار، نحوّش البقول والأعشاب، نأكلها ولا نشبع. ننام تحت شوادر مصنوعة من حرامات صوفيّة فرشناها فوق أغصان الزيتون، وننتظر. أمّي لم تكن خائفة. فأشجار الزيتون لم تكن عالية، كي تخاف الموتى الذين قد يتساقطون منها، ووالدها بعث لها بأنّه

التحق بحامية شعب، وطلب منها البقاء هي وأولادها، حيث هم، لأنّه سيأتي ويأخذهم إلى شعب. لكنّه لم يأتِ، والمرأة لم تعد تحتمل. قالت لأولادها إنّ الجوع جعلها تشتاق إلى قريتها، وإنّها قرّرت العودة إليها كي تحوّش خضرًا من حقلها، وتعود بالطّحين والزيت. طلبت من أولادها التنبّه في غيابها، والبقاء معًا.

فتطوّعت أنا.

«ياسين تطوّع»، قالت جدّتي، «وأصرّ على المجيء معي، رفضت وطلبت منه البقاء مع شقيقاته، «ابقي أنت وأنا أذهب»، قال، وبلا طول سيرة جاء ياسين معي».

«مشينا مع النّاس الذين كانوا يمشون في اتّجاه القرية، الكلّ حامل صرر وبدّو يحوّش، وأمّي معها حمار جابته من واحد قريبها في عمقا، ظلّينا ماشيين حتّى وصلنا لقرية الشيخ داود، وهناك بدأ إطلاق النّار من السنسول يللّي بيحكم قرية الشّيخ داود، كان اليهود متخبيين خلف الحزام الصّخري، وبلّش الضرب، النّاس خافت وصارت تنهزم وترجع باتّجاه الكويكات وعمقا. وضيّعت أمّي، وماعدتش أعرف ألتحق فيها، أمّي اتّجهت مع حمارها إلى عمقا، وأنا اتّجهت صوب الكويكات، أركض وأصرخ، وإذ برجل واقف بنصّ الطريق، ومعه حمار راسه متّجه صوب مصدر الضرب، وهو واقف عند ذنب الحمار. وأنا أقول دخلك يا عمّ عزيز، وهو يقول صفّ ورايي، كأنّ الحمار صار متراس. صفّيت وراه، وبعد شويّ توقّف إطلاق النّار، تركت عزيز وحماره، وانحدرت صوب الوادي، هو قال لي إنّه رايح صوب الغابسيّة، ورح يبقى هناك. أنا حارس الجامع قال، ومش رح أسيبو، تعال معي. بدّي أمّي قلت له، تركته ونزلت على الوادي، وسمعت إطلاق نار، قلت مات العمّ عزيز وصرت أبكي، ولّمن شفت أمّي خبّرتها إنّو العمّ عزيز مات خلف حمارو، وكلّهم صدّقوني».

لكن، كما تعلم يا أبي، فالعمّ عزيز لم يمت. بقي ميتًا في ذاكرة أهل الغابسيّة حتّى عام ١٩٧٢، عندما رجع زوج أختي من زيارته للغابسيّة وروى الحكايات المهولة عن العمّ عزيز، اكتشف الناس، أنّ أبي كان يكذب، وأنّه لم ير العمّ عزيز ميتًا. ياسين مات قبل تلك الزيارة التي قام بها صهره إلى القرية، لذلك لن يستطيع روايتها، أنا سأرويها لك، ولكن ليس الآن.

أين كنّا؟

تركنا ياسين في وادي الكويكات، يبكي خوفًا. ثمّ هدأ الرّصاص، «استجمعت نفسي وطلعت متوجّهًا صوب عمقا، وفي طريقي رأيت صُرّة مليئة بالباميا والخضر. يبدو أنّ أحدًا، رمى صرّته وفرّ هاربًا بجلده، بعد أن سمع الرّصاص، حملت الصّرة بصعوبة، الحقيقة أنّني لم أستطع حملها، جررتها وبدأت الخضر تنفرط على الأرض، تحاملت على نفسي، وحملت الصرّة على ظهري، ومشيت».

وصلت شاهينة إلى زيتون عمقا، وقالت إنّها أضاعت ابنها في الشّيخ داود، وإنّها انهزمت مع المنهزمين. قالت إنّها قادت الحمار في الأودية بحثًا عن ابنها. قالت إنّها خافت أن يضيع الحمار منها، فالحمار أمانة. كانت تمسك برسن الحمار وتصرخ باسم ابنها. وعلى مشارف عمقا فهمت أنّها أضاعته. أعادت الحمار إلى أصحابه، ووقفت أمام حراماتها التي تشبه الخيمة تنتظر وتبكي.

قالت إنّها بكت ولم تره.

عاد ياسين حاملاً على ظهره صرّة الخضر التي عثر عليها في وادي الكويكات، كان صغيرًا ومنحنيًا والصرّة تغطّيه.

«كنت تعبان، ضهري منحني، والخضرة فوقي، والعرق وقرون الباميا. وصلت على مدخل حرش الزيتون في عمقا، كانت الباميا تشرشر من فوقي وتحتي، وكنت تعبان، ومش مصدّق حالي إنّي وصلت. بدال ما أرمي الصرّة وأركض صوب أمّي، جمدت في مكاني، جمدت وظهري رح ينكسر وبعدين بلّشت قرّب من أمّي، كانت طويلة ورفيعة، وعم بتلوّح بأيديها وتبكي، والناس عم يتفرّجوا عليها ويبكوا معاها، الكلّ جامد في مكانه، وأنا عم قرّب، وفوقي صرّة الخضرة، حتّى وصلت لعندها. رميت الصرّة على الأرض ووقفت. كلّ الناس قالوا إجا ياسين، إجا ياسين، كلّهم شافوني إلاّ هي، كانت عم تبكي وتلوّح بأيديها، وأنا واقف مش عارف شو لازم أعمل. مسكتها من طرف ثوبها الأسود الطويل، وصرت أشدّ فيه، انحنت وشافتني، ووقعت على الأرض، وصارت كأنّها غايبة عن الوعي وصاروا الناس يجيبوا مي ويرشّوها».

قالت جدّتي إنّها حين رأت ابنها تحتها، انطفأ صوتها، ولم تعد تذكر شيئًا.

كلّ النّاس رأوه، إلاّ هي، وحين أفاقت من إغماءاتها، كان ياسين وشقيقاته الثّلاث حولها، فرد صرّة الخضر أرضًا، وقال لها إنّه حوّش كلّ هذه الأشياء، «أنا رحت وحوّشت الأرض، وما خفت من اليهود». نهضت الأم متثاقلة، وطلبت من بناتها إشعال النار تحت الطنجرة، وبدأ الطبخ والنفخ.

قالت جدتي إنّهم هاجموا القرية فجرًا.

كانت القرية شبه فارغة، فبعد سقوط الكابري وما جرى لأهلها، فهمنا أنّ الأمور انتهت. «لكن أبي، اللّه يرحم ترابه في غربته، لم يغادر، وبقي مع رجال الميليشيا، فبقينا. هل تعلم يا ابني أنّني لا أعلم أين دفنوا أبي. قالوا إنّه قتل في المعسكر، قالوا إنّه كان يحاول الهرب من السّجن».

قالت جدّتي إنّها ذهبت إلى مخيّم النيرب في حلب، وبحثت هناك، وزارت عمّها وأولاده الذين كانوا يعيشيون داخل براكيات غريبة بناها الجيش الفرنسي، كانوا محشورين فوق بعضهم كالذباب، في غرف طويلة مستطيلة. قال لها شقيق زوجها إنّه ليس متأكّدًا، لكنّه يعتقد أنّهم دفنوه في مخيّم اليرموك، واقترح عليها نسيان الموضوع.

«الرّجل مات»، قال عزمي، وهذا كان اسمه، «يعني منحسب إنّو مات بفلسطين».

لكن شاهينة لم تقتنع.

«انسي يا شاهينة، واهتمّي بأولادك».

لكن شاهينة لم تنسَ.

ذهبت إلى مخيّم اليرموك، وزارت أبو إسعاف، قائد حامية شعب، الذي كان يعيش في المخيّم وحيدًا ومعزولاً، في ما يشبه الإقامة الجبريّة.

في منزله الصغير، المؤلّف من غرفة واحدة لا حمّام لها، قال لها أبو إسعاف إنّه سمع إطلاق النّار، لكنّه ليس متأكّدًا من موت الرجل. قال إنّهم كانوا في معسكر يشبه السّجن.

«أخذوا سلاحنا، وقالوا انتهت الحرب، قلنا طيّب، اتركونا نذهب إلى

نسائنا وأولادنا، قالوا لا، تبقون في ضيافتنا. وأنتِ تعرفين معنى الضيافة العربيّة، كنّا سجناء دون سجن، كنّا كالمرميين في الصّحراء، الحقيقة أنّنا كنّا في الصحراء، ثمّ اختفى والدك، وسمعنا إطلاق نار، ولم نعرف يومها أنّه هو. لكنّه اختفى. اللّه يرحمك يا رباح العوض، كنت السبب في إطلاق سراحنا، لأنّه بعد اختفائه أعلنّا العصيان وأضربنا عن الطّعام. يونس، تعرفينه، هو الذي أعلن الإضراب عن الطعام، وصرخ في وجه الضابط «إضراب حتّى الموت». ثمّ أطلقوا سراحنا، كلّ واحد راح عند أهله ما عداي، قالوا إنّه نظرًا لخبرتي العسكريّة، فقد تقرّر وضعي في تصرّف القيادة. تصوّري حالتي، أنا الآن في تصرّف القيادة، ولا أجد مرحاضًا أذهب إليه في شيخوختي، ولا أستطيع زيارة أولادي في عين الحلوة. اذهبي يا بنتي واهتمّي بابنك، رباح شهيد، وهو مدفون في مكان لا يعرفه إلاّ اللّه. انسي حكاية المقبرة واهتمي بالأحياء، اذهبي اللّه يرضى عليك، وإذا مرّيت بعين الحلوة، ابعثي لابني إسعاف، وقولي له والدك يريد أن يراك قبل أن يموت».

قالت جدّتي إنّها اقتنعت.

«اسمعي يا بنتي منيح، الموت قدر، ويلّلي قدره يموت في فلسطين، وما مات هناك، رح يموت في أماكن أخرى».

وقال إنّه كان يتمنّى الموت لنفسه هناك، «ففلسطين أقرب إلى الجنّة».

قالت جدّتي إنّها بقيت في الغابسيّة، ولم تنزح مع النّاس الذين غادروها قبل المعركة بثلاثة أيّام، لأنّ والدها كان يقاتل هناك، لكنّه اختفى، «انتظرته في البيت خلال القصف، لكنّه لم يأتِ، فحملت حالي وأولادي ومشيت. كانوا يقصفون وكنّا نهرب، وكانت البيوت تتدحرج، وماتوا. محمّد عبد الحميد وزوجته فتحيّة، أحمد الداود، فيّاض الداود، رأيتهم مرميين في الشارع، كأنّ أحدًا أتى وألقى بهم خارج بيوتهم». قالت إنّ البيوت لم تتهدّم، «البيوت بقيت واقفة، لكن سقوفها طارت».

لم أصدّق جدّتي، فحكاية ذلك الرجل العصفور الذي سقط من المئذنة ويداه ملتصقتان بصدره، بدت كصورة أفلتت من الذاكرة وحطّت في وعي المرأة.

هذا هو التاريخ، ستقول لي.

لكنّي لم أعد معنيًا بالتاريخ، حكايتي معك يا سيّدي ليست محاولة لاستعادة التاريخ، أريد أن أفهم لماذا نحن هنا كسجينين في هذا المستشفى، أريد أن أفهم لماذا لم أستطع التحرّر منك ومن ذاكرتي. لقد أصبحت رئيسًا للممرّضين، وعدت إلى الوظيفة التي أستحقّها كمدير فعلي للمستشفى.

ألأنَّ المستشفى لم يعد مستشفى، بل تحوّل أقلّ من مستوصف؟

أم لأنّني رأيت فيك صورة موتي، فاندفعت إلى الموت أحاوره؟

أم لأنّني خائف في أعماقي من شمس؟ التي سأروي لك حكايتها في ما بعد، وستفهم خوفي. فأنا لست خائفًا من الموت، بل منها، نعم منها ومن صورتها وصوتها المرتجف بالبحّة والغضب والانتشاء، وجسدها الموشوم بالجنس والرجال والموت.

لم أصدّق جدّتي، ولم أصدّق التاريخ، لكنّني يومها رأيت نفسي لابسًا الاسم الذي كانت تطلقه عليّ جدّتي، كانت تلبسني اسم ابنها الميت، تمسّد لي شعري وتبكي على زوجها الذي مات في ثوره الـ٣٦ في قرية النهر المجاورة لقريتنا، وأعادوه محمولاً في كفن، ولم تستطع أن تراه.

قالت جدّتي إنّها شمّت الرّائحة نفسها، حين مات ياسين.

«شمّيت الرّيحة نفسها، كان يا ولدي يبلعط في دمه، ورائحته تتشقّق منه،.حتّى امتلأ البيت بالرّائحة نفسها، هناك في الغابسيّة، وهنا في المخيّم».

«مثل هذه الرّائحة يا ستّي»! قلت، وأشرت إلى المخدّة، ساخرًا.

«كانت رائحته مثل رائحتنا، هذه رائحة دار العوض، رائحة دم مخلوطة بروائح الأزهار والأعشاب».

وركضت إلى مخدّتها.

«شمّها»، قالت.

ضممت المخدّة إلى صدري، شممتها، وصرت أضحك.

«إنّها رائحة الحنّة يا ستّي، هذه رائحة رأسك، هل كان سيدي يصبغ شعره بالحنّة»؟!

أخذت المخدّة بغضب، «أنت لا تفهم شيئًا»، قالت. «غدًا عندما تكبر سوف تفهم معنى كلامي. المنام نفسه، والرائحة نفسها، جلبوا زوجي، ففاحت رائحته وملأتني، أدخلوه إلى البيت بضع دقائق، ومنعوني من الذهاب إلى المقبرة، طافوا به حول الدار، وطلبوا مني أن أزغرد. لم أزغرد، ليس لأنني لا أؤمن بالله كما قالوا، لكنني لم أستطع، اجتاحتني الرائحة، وأحسست بها تتغلغل في عظامي وتسكنها. يجب أن نزغرد من أجل الشهداء، وأنا زغردت كثيرًا، فحياتنا تقع بين زغرودة وزغرودة، كلّ المخيّم يزغرد، فنحن كلّنا شهداء يا ابني، لكن حين جلبوه إلى البيت لم أستطع، كانت رائحته تملأ كلّ شيء».

وروت موت والدي.

كانت حين تروي موته، تقف وتمثّل الجريمة. والحقيقة أنّ الحكاية اختلفت بعد اختفاء أمّي. حين كانت أمّي هنا، كانت هي من يروي. أمّي تحكي، وجدتي تتنهّد. أمّي تقول إنّ الرجل سقط كالكيس دون حراك، كأنّه مات قبل أن يطلقوا عليه النار.

قالت أمّي إنّها فتحت الباب، وكان ياسين وراءها، ورأت ثلاثة رجال. قال ياسين، «خير تفضّلوا»، سحب أحدهم مسدّسه وأطلق ثلاث رصاصات. قالت إنّها كانت تقف قدّامه، رأت المسدّس، وسمعت الطلقات، قالت إنّ ما جرى كان سريعًا جدًا، أطلقوا عليه الرصاص ومشوا.

«التفت فرأيته على الأرض وبلا حراك، انحنيت فوقه، جاءت أمّه وأبعدتني عنه، ثمّ جاء الناس».

قالت أمّي إنّ أختي ماتت بعد أسبوعين من موت أبي، «أخذ بنتي وراح، وأنا شو قاعدة أسوّي هون».

أنا لا أذكر أختي الصغيرة فاطمة. قالت جدّتي إنّها كانت حمراء شقراء بيضاء مثل قلب النهار، وأنّ اليهودي أصلان درزيّة، حين زارنا، لم يصدّق أنّها ابنة أبي لشدّة جمالها وبياضها. تتثاءب المرأة الكهلة، وترفع يديها إلى رأسها، كأنّها ترمي الأيّام خلفها. «الله يسهّل عليه ابن درزيّة، مدري وين صار».

جدّتي لا تتذكّر أختي جيّدًا. أسألها، فتقول إنّها لا تعرف. «أنا قلت

لنجوى أنت اهتمّي بفاطمة وخليل إلي». فانقسم العمل بين المرأتين منذ ولادة فاطمة. لكن فاطمة ماتت، أصيبت بالتهاب في الأمعاء، ونشّفت. قال الطبيب إنّها نشّفت، ارتفعت حرارتها ثمّ نشّفت.

«نهضنا في الصباح، وكانت مثل قطعة حطب باردة، حملتها أمّك وركضت إلى الطبيب، فقال لها إنّها نشّفت».

وعشت وحيدًا. أمّي تسهر اللّيل منتظرة قمر الغابسيّة الذي لم تره، وجدّتي تبكي وتسمّيني ياسين. وأنا بين المرأتين، أستمع إلي حكايات أظنّها حكاياتي، ثمّ ضعت. أحكي عن أبي كأنّي أحكي عن نفسي، أتخيّله في عيني أمّي، فأراه يسقط كالكيس، ثمّ أراه في كلمات جدّتي، أرى دمه يخضب شعره الأبيض، وهو ينتفض بين الموت والحياة أمام مصطبة بيتنا.

صحيح، لماذا قتلوه؟

بعد موته، كتبت الصحف أنّه قتل لأنّه حاول مقاومة دوريّة الشرطة التي جاءت لاعتقاله. أمّي قالت إنّه مشى وراءها إلى الباب، وإنّه لم يكن يملك سلاحًا. وجدّتي تقول إنّ السلاح كان موجودًا، لكنّهم لم يعثروا عليه، «جاؤوا في اليوم الثاني، وقلبوا البيت، أنا ابنة رباح العوض، وتريدهم أن يعثروا على البندقيّة؟ البندقيّة موجودة يا ابني، وعندما تكبر ستأخذها، لكنّهم كذّابون، هو لم يقاوم، لو قاوم لقتلهم كلّهم، ذهب لاستقبالهم لأنّه لم يكن يعرف أنّهم قادمون لقتله، فقتلوه، أولاد الفاعلة».

جدّتي لا تعرف لماذا قتلوه.

لكن أنت يا أبي تعرف كلّ شيء.

قالت جدّتي إنّك ظهرت في مأتمه، ولم يكن يتوقّعك أحد، ظهرت بين المشيّعين، ورفعت يدك بعلامة النصر، وكنت تغطّي وجهك بالكوفيّة. يومها، لم تكن الكوفيّة شعارنا، لم نكن نملك شعارًا. جئت والكوفيّة تغطّي وجهك ورأسك، وصرخت «اللّه أكبر»، وصرخ الناس وراءك، ثمّ اختفيت.

أخبرني عن تلك الأيّام، قل لي كيف امتلكتم شجاعة البداية، بعد كلّ الذي جرى؟

سوف تقول إنّك في تلك الأيّام، لم تشعر بالبداية، كنت تتابع رحلاتك إلى هناك، كأنّ الأشياء لم تنقطع، كأنّ الذي انحفر في أجسادنا، لم ينحفر

في جسدك. كنت تتنقّل بين أحراش الجليل وتلاله، تتابع حياتك وتعود إلى المخيّم. تظهر لتختفي.

أعرف أنّك تعرف بأنّ الأمور لم تكن بهذه البساطة.

أعرف أنّك كنت ذئبًا، وكالذئاب لم تكن تستقرّ في مكان. كنت في الأعوام الأولى، تشعر بتوحّش غريب ووحشة قاتلة.

ولكن أبي؟

لماذا مات هكذا؟

لماذا لم يذهب معك؟

لماذا تركني؟

الدكتور أمجد على خطأ. هل تعرف ماذا قال لزينب. قال إنّ خليل يمرّ في أزمة نفسيّة، وإنّه محكوم بعقدة البحث عن أبيه، اتركوه مع هذه الجثّة حتّى يسأم.

تحدّث عنك بوصفك جثّة، وعنّي بوصفي أبله، وعن حكايتنا بوصفها خرافة. ابن الكلب، أتمنّى لو أستطيع تقشير هذه الصدفة التي يختفي خلفها، يختفي خلف نظارتيه السميكتين ويعتقد أنّه وجد معنى حياته في الركض وراء المال. أعرف أنّه يسرق. يسرق هنا، ويشتغل في مستشفى آخر، ويلبس جلد الطبيب الذي يعرف ويفهم. لكنّه لا يعرف شيئًا. فمن لم يعبر صحراء تشبه صحراء شمس لا معنى لحياته.

اعذرني يا أبي إذا قلت إنّ الحبّ ليس كما تصفه أنت. الحبّ أن تشعر بنفسك تائهًا وبلا قرار. الحبّ هو أن تموت لأنّك لا تستطيع الإمساك بالمرأة التي تحبّها. شمس كانت تزحط من بين يديّ، وكانت كذّابة. تقول إنّها تريدني، ثمّ تذهب إلى رجل آخر. هذا هو الحبّ يا سيّدي، فراغ يمتلئ فجأة، أو امتلاء يفرغ ويتركك في الهباء. معها تعلّمت أن أرى نفسي وأحبّ جسدي، قبلها لم أكن أعرف شيئًا، كنت أعتقد أنّ الحبّ هو نهى وطبيخ أمّها ونحنحة والدها، والرّغبة التي تستيقظ ثمّ تخبو. أمّا شمس فقد علّمتني كيف أكون رجلاً، أي كيف أموت بين ذراعيها وأتلاشى. أرجوك لا تضحك منّي، معها لا أذكر أنّي تهيّجت كما يتهيّج الرجال، أي كما كنت أتهيّج حين أمسك بعضوي، وأريقه بيدي، معها لم أكن أملك

عضوًا. طبعًا كنت أتهيّج، لكن كيف أقول، أتهيّج كمن يذوب ويخرج من الماء. كنّا نتحمّم بماء الرغبة، ونذوي، والرغبة لا تموت. وكان ماؤها، ماؤها يا سيّدي كان ينفجر كنبع يخرج من باطن الأرض، وكنت أغرق.

هذا هو الشيء الذي لا يعرفه أمجد، إذ لو عرفه لفرطت حياته كما فرطت حياتي.

كيف تريدني أن أرمّم حياتي، بعد موتها؟

هل أخبرك سرًّا؟ السرّ يا أبي أنّني الآن، حين أخاف من شبحها، أشعر بتلك الرغبة التي كانت تأخذني إلى عالمها الشاسع، وأرتجف بالشبق، وأخاف.

ولكن لماذا؟

كنت أعتقد أنّ موت سامح سوف يلفلف كما لفلفنا مئات الميتات السابقة، لماذا حكموا عليها بالإعدام؟

ألأنّها...؟

أم لأنّها...؟

لكنّني كنت أعرف أنّها ستموت، لأنّ الموت كان مختبئًا في عينيها. أنت أخبرتني عن الموت الذي يبزغ من العيون. هل تذكر تلك الفتاة؟ ماذا كان اسمها؟ دلال، أيوه، دلال المغربي. هل تذكر العمليّة الانتحاريّة التي قامت بها في تل أبيب، وانتفض المخيّم كأنّ زلزالاً ضربه. كنّا عاجزين عن تصديق حقيقة أنّ دلال، تلك الفتاة الحزينة والوديعة، التي تعمل في مشغل الخياطة، ولا تجرؤ على النظر في عيون الرجال، قادرة على قيادة زورق ينزل بها في حيفا، وعلى خطف باص إسرائيلي مليء بالركّاب، وعلى الموت هكذا.

يومها قلت لي إنّك رأيت الموت في عينيها، وشرحت لي أنّك تعرف الفدائي الذي سوف يموت من عينيه، فالموت ينسدل على العينين كغشاء رقيق لا يُرى، والفدائي ينسحر بموته قبل أن يموت، فيذهب إليه طائعًا. يومها، تذكّرت ذلك الفتى اللبناني الذي كان يدعى محمّد شبارو، وكنّا نسمّيه طلال. أنت لا تعرفه، لأنّك لم تكن معنا خلال الحرب اللبنانيّة. تلك الحرب كانت حربنا يا سيّدي، أقول ذلك بكلّ أسف، لأنّني كلّما تكلّمت على

ذكريات حرب لبنان أشعر وكأنّ وجهي يسقط أرضًا وينكسر. كنتُ أرى الموت في عيني ذلك الفتى الذي كنّا نسمّيه المهندس، لأنّه كان طالبًا في الجامعة اليسوعيّة في بيروت، كان يغطّي عينيه بنظارتين سميكتين، ويلفّ عنقه بالكوفيّة المرقّطة، ويبحث عن الموت. مات في صنين لأنّه قرّر أن يموت. لم يكن موته ضروريًا، لكنّه كان يركض خلف عينيه. طفا المهندس فوق عيني، وأنت تروي لي عن علاقة موت أبي بعينيه. أعرف أنّك ستقول إنّ أبي كان يحمل موته في عينيه، وإنّ الحقّ ليس عليك، ولا على عدنان، اللّه يرحمه. ففي تلك الأيّام، كنتم مستعجلين على العمل المسلّح، وكانت السلطة الخارجة من حرب لبنان الأهليّة عام ١٩٥٨، تشعر بقوّتها، فقرّرت تلقينكم درسًا. وكان أبي هو الدرس. جاؤوا وقتلوه من أجل ردعكم. لكنّكم لم ترتدعوا. وأبي مات، ودفعت أمّي الثمن.

هل كان أبي يقدّر المخاطر التي وضع نفسه فيها؟ لماذا لم يختبئ؟ لماذا لم يهرب من البيت؟ لماذا لم يسحب سلاحه ويطلق النار قبل أن يموت؟

سقط مثل كيس، كما قالت أمّي، أو تخبّط بدمه مثل ديك مذبوح كما قالت جدتي، أو كان بطلاً كما قلتم.

ولكن، ألم يكن يخاف علينا؟

أنت لم تكن تخاف على أولادك، أعرف، ولكن هو؟

قل لي، ما هذه الحياة التي عشتها؟ تركت أولادك مع امرأة وحيدة هناك، وأنت بين الهنا والهناك، تعيش بطولتك كما يعيش الأبطال.

قل لي، أهكذا تكون البطولة؟ تتركون أولادكم للخوف واليأس، وتموتون؟

قلت لك إنّني كرهت أبي، وعشت وحيدًا مع جدتي. هل تعرف معنى أن يعيش الإنسان في الفراغ؟ هل تعرف لماذا تركتني أمّي، وإلى أين راحت؟

تريد الأوّل!

هذا هو الأوّل، الأوّل يا سيّدي هو الموت. في الأوّل مات أبي، وفي الأوّل اختفت أمّي. جدتي تعرف سبب اختفائها، أنا متأكّد من أنّها شجّعتها على الفرار، بل وربّما دفعتها إليه دفعًا. فبعد موت أختي الصغيرة فاطمة أمضت أمّي خمس سنوات معنا، وهي تبكي. ثمّ اختفت. أنا لا أذكر ذلك

اليوم، لأنّي لم أشعر بغيابها حين غابت. ثمّ صار الأمر وكأنّه كان هكذا منذ البداية. قالت جدّتي إنّ أمّي ذهبت لزيارة أهلها في الأردن، وطالت الزيارة. اختفت المرأة كأنّها لم تكن، وحين أحسست بغيابها كان الأوان قد فات. كنت أشتاق إليها في اللّيل. فقط في اللّيل، كنت أشعر وكأنّ شيئًا يعضّني في صدري. فأنهض من فرشتي وأذهب إلى فرشتها، ولا أجدها، أنام حدّها وهي ليست هناك. ثمّ قرّرت جدّتي تغيير معالم البيت، اشترت سريرين، واحدًا لها وواحدًا لي، ولم يعد لأمّي مكان، ولم يعد في استطاعتي الذهاب إلى فرشتها ليلاً كي أنام حدّها، أو أشمّ رائحة شعرها، لا، لا، لم يحصل ما كان يجب أن يحصل، كأن أعود إلى البيت، مثلاً، ولا أجدها، فأبكي، ويأتي الناس، وتبدأ عمليّات البحث عنها. جدتي تجلس بين النساء وتبكي، والنساء يلتفتن إليّ بشكل خاصّ، إحداهنّ تقول «مسكين صار يتيم الأب والأمّ». لا شيء من هذا، قلت لك إنّي لا أذكر يوم اختفائها، لأنّي لم أشعر به، ثمّ تعوّدت. جدّتي لم تقل لي ماذا جرى، لكنّي فهمت أنّ أمّي لن تعود.

«راحت عند أهلها»، قالت المرأة الكهلة.

«ونحن مش أهلها»؟ سألتها بتعجّب.

لا أذكر أنّها جاوبت، ولا أذكر أنّنا ناقشنا المسألة، كان طيف أمّي يطفو فوقي في اللّيل، ويعضّني الوجع، ثمّ حين يطلع الضوء يختفي.

نعم يا سيّدي، عشت حياة عاديّة. كنت أعتقد أنّ كلّ الناس يشبهون كلّ الناس، وكلّ البيوت تشبه كلّ البيوت. كنت متأكّدًا من أنّ تلك الذكريات البعيدة عن القرية التي امّحت، هي الذكريات، وأنّ جدّتي وعمّاتي هنّ النساء.

صحيح لماذا عمّاتي هكذا؟ لماذا كنّ يطلقن عليّ اسم ابن نجوى، هل لأنّني أسمر البشرة مثلها، أم لأنّهنّ أردن محو صورة أبي من حياتهنّ.

قالت جدتي إنّ لبنان، رغم كلّ شيء، كان بداية خير. قالت إنّ بناتها تزوّجن في لبنان خلال سنتين، «جينا إلى لبنان، وتزوّجت البنات، كلّ واحدة راحت في طريقها، وأنا لِسَّه ناطرة طريقي».

«وشو هيّ طريقك يا ستّي».

«طريقي نرجع».

«لوين نرجع»؟

«نرجع على الغابسيّة».

«وأيمتى رح نرجع»؟

«شو يعرّفني، بس قلبي يقوللي إنّي مش رح أموت هون. رح أرجع وأحطّ راسي حدّ هالرجّال وأغمض عيوني وأرتاح».

«نحن لم نعرف الرّاحة»، قالت. «منذ ذلك اليوم، ونحن ندور من مكان إلى مكان، مثل النور». قالت إنّها حملت أولادها وركضت، قالت إنّها رأت الرجل يسقط من المئذنة كالعصفور، قالت إنّها سمعت صراخ الموتى. لكنّها لم تلتفت إلى الوراء. ووجدت نفسها وسط الجموع في خراج قرية عمقا، وهناك بين شجر الزيتون، نصبت خيمتها المؤلّفة من حرامين صوفيين، وعاشت فيها ثلاثة أشهر، ثمّ وجدت نفسها مع الذاهبين من عمقا إلى يانوح، ومن يانوح إلى ترشيحا، ومن ترشيحا إلى دير القاسي، ومن دير القاسي إلى بيت ليف، ومن بيت ليف إلى المنصورة، ومن المنصورة إلى الرشيديّة، ومن الرشيديّة إلى برج البراجنة، ومن برج البراجنة إلى شاتيلا.

قالت جدّتي إنّ الرحلة كانت طويلة، وإنّها كانت تعتقد أنّ النزوح من قرية إلى قرية، سوف ينتهي بها في الغابسيّة، لكنّها اكتشفت أنّها صارت في لبنان. وفي لبنان هجم النصيب على بناتها الثلاث، فتزوّجن، وبقيت وحيدة مع رجلها - ابنها، قبل تزويجه من نجوى.

لم أكن أرى عمّاتي إلاّ نادرًا. كانت جدّتي تزورهنّ ثلاث مرّات في الأسبوع في مخيّم عين الحلوة، ولا تأخذني معها، ولم يكنّ يأتين. بلى، في تلك الأيّام الأخيرة، حين تمّ استدعائي من الجنوب لحظة احتضارها، دخلت عليها، وكنّ يحطن بها. رفعت ذراعها لتطلب إليهنّ الخروج. خرجن، والوجوم يرتسم على وجوههنّ، وبقيت معها وحدي في الغرفة. يومها أعطتني ميراثها، وحاولت أن تقول شيئًا، لكنّها لم تستطع، خرجت الكلمات متقطّعة من بين شفتيها، كأحرف متناثرة. الكلمات تتفكّك أحرفًا، والأحرف تطنّ في أذني، وأنا أنحني فوقها كي أفهم، فلم أفهم سوى أنّ هذه الأغراض لي، السّاعة المتوقّفة، ومخدّة الأزهار، والمصحف. أحنيت رأسي موافقًا، فوضعت يدها فوق رأسي تباركني، وسمعتها تقول «ياسين»، فجفلت إلى

الوراء. في لحظة الحقيقة الأخيرة، تكشف لي هذه المرأة سر علاقتها بي، فهي لا تعرف أنّني لست ياسين، ولا أحبّ ياسين، ولا أريد أن أكونه. أنا رجل آخر لا يشبه الصورة. أنا لست صورة معلّقة على الحائط. يومها يا سيِّدي كرهت كلّ شيء، وقرّرت ترك القاعدة العسكريّة في الجنوب، والهجرة. فأنا لا أريد أن أموت كما مات أبي، ولا أريد أن أصبح أسير تلك القرية الغامضة التي لا أعرفها، ولا أريد أن أصبح عبدًا لقمر الغابسيّة حين يكتمل في السماء، أو لرجل يشنق نفسه انتحارًا في شجرة السدر.

خرجت من غرفتها، بعد أن وضعت الساعة في جيبي، وتركت عمّتي منيرة تأخذ المصحف من يدي، وجلست في الصالون أستمع إلى زوج عمّتي.

ما هذا؟

بدل أن يسألني عن وصيّة أمّ ياسين جدّتي، أمسكني من يدي، وأجلسني إلى جانبه، وبدأ يروي. رجل في الخامسة والأربعين، تلتمع صلعته البيضاء، كأنّها دهنت بزيت الزيتون، ووجه مليء بالبثور والحفر، ويد ترتجف بالسيكارة المشتعلة.

«تعال اسمع»، قال، «هذه قصّة لازم تسمعها».

وبدأ أحمد علي الجشيّ يروي حكايته. نسيت جدّتي التي تموت في الغرفة الثانية، ونسيت كرهي لياسين، وقرار الهجرة، وسافرت مع كلماته. صار ذلك الرجل الأصلع، مثل طفل صغير، يروي بعينيه ودموعه ما لا تستطيعه كلماته. حكى عن عمّه محمّد، الذي يعيش الآن في كفرياسيف، وكيف زاره الشهر الماضي، وكيف ذهبا معًا إلى الغابسيّة.

أقول لك يا سيّدي، إنّني حين استمعت إلى أمّ حسن، تروي الحكاية نفسها قبل أن تموت، رأيت الأشياء تتمايل أمامي، كأنّني أعرف المكان. يومها لم أفهم مشاعري، كأن سبق لي وأن عشت تلك اللّحظة، كأنّي أعرف الحكاية.

أخبرتني أمّ حسن عن السدرة والشموع والطرش الذي يملأ جامع القرية، وأنا أهزّ رأسي كأنّي أعرف ما قالته وما سوف تقوله. والحقيقة، أنّ هذا الرجل الذي صار أمامي كطفل يتكلّم بعينيه ودموعه، هو الذي أخذني إلى هناك، وأطعمني كوز تين، وسقاني من «الفوّارة».

جدّتي تموت في غرفتها، وأنا أتململ داخل كراهيّتي للمكان والناس والصلوات والأدعية والبخور، وهذا الأصلع يمسك بي من يدي، ويجلسني إلى جانبه، ويجبرني على سماع حكايته. ثمّ تموت جدّتي وأنسى الحكاية. وتأتي أمّ حسن بعد حوالى عشرين سنة، لتروي لي الحكاية نفسها، فأرى كلمات ذلك الرجل مشهدًا حقيقيًا، أرى ساحة القرية، وشوارعها الضيّقة، أتّبع كلمات أمّ حسن في ذاكرتي، أستوقفها وأقول لا، «الفوّارة يا أمّ حسن ليست قرب الجامع، الفوّارة قرب البساتين»، فتقول، «يقطعني خلطت الغابسيّة بالكويكات»، تضع يدها على جبيني، ثمّ تستدير يدها فوق وجهي وعيني، وتتركني وتمضي.

قال الرجل إنّه ذهب لزيارة عمّه في قرية كفرياسيف، وإنّ الإجراءات بسيطة جدًا. العمّ أخذ له تصريحًا، وهو سافر إلى الأردن في السيّارة، قطع الجسر، ليجد نفسه أمام عمّه وأولاد عمّه الذين أخذوه إلى كفرياسيف.

قال الرجل إنّه زار فلسطين كلّها، حيفا ويافا وعكّا والقدس وتل أبيب وكلّ مكان. لكنّه يريد إخباري عن الغابسيّة. قال إنّه بمجرّد وصوله إلى ساحة الغابسيّة ارتمى على الأرض بشكل عفوي. «بدأت أقبّل الأرض ودموعي نازلة، ظلّيْت هيك شي خمس دقايق، بالآخر رفعت راسي وقلتللو لعمّي بدّي أشوف بيتنا، قال لي بيتكم ما فيك تعرفوا. وقفنا بالساحة، بعرف إنّو بيتنا اتجاهه إلى الغرب، وقفت بالساحة ومشيت إلى الغرب، الحشيش كان حولي، وهمّ زارعين صنوبر حتّى يضوعوا معالم المكان. قال لي عمّي ما تروح في أفاعي وعقارب. مشيت وسط العشب، وكانت البيوت كأنّها مزروعة بقلب الحشيش الأخضر، وقفت قدّام بيتنا وما دخلتش، حجارة الحيطان بعدها في مكانها، السقف طاير والحشيش داخل البيت، وفي قلب الحيطان. كأنّ الحشيش عم يوكل الحيطان. سندت رأسي على الحيط، وحسّيت أيد على كتفي، جفلت ورجعت لورا، لقيت عمّي عم بقللي يللا، قلتلو هذا بيتنا، قال بعرف، قلتللو واللّه لازم نسكن فيه، قال ممنوع، حتّى الزيارات ممنوعة، يللا امشي يا ابني، ومشينا، كان القريّس في ثيابي، ما بعرفش ليش نبت القريّس بهذا الشكل وسط البيوت، قلتللو لعمّي إنّه في إلنا حاكورة، وبدّي أروح عليها. أخذت اتجاه الشمال، ومشى هو

بجانبي، قلتللو بشرفك يا عمّي ما تدلّني، قال لي ماشي الحال. وصلت قدّام بوّابة حديد مصدّاية، تطلّعت، حسّيت أنّه هذي، حاكورتنا إلها علامة، فيها تينة موزاوية شتويّة، كوزها على شكل حبّة نجاص. شفت التينة وقلتلو هذي حاكورتنا، قام عمّي، ونقّى كوز تين، وكان موسم التين انتهى، وقال لي إلك نصيب من رزقك، أكلت كوز التين، بعدين نقّينا كم كوز صبر وأكلناهم، وقال لي يللا نرجع، قلتلّو لا، في ثغرة بين حاكورتنا وحاكورة بيت حمّاد، كنت أتسلّل منها وأسرق رمّان من عندهم. فتّشت ولقيت الثغرة، تسلّلت منها، وما وجدت نفسي إلاّ قدّام شجرة الرمّان. وبلّشت أحوّش. كانت الشجرة مليانة كواز. قلتلو تعال وحوش معي. كنت أحوّش وأسمع صوت عمّي وهو يصيّح ويقللي منين فتت، وأنا قللو من الخرق يللي في الحيط، مش شايف خرق يقول. شلحت البالطو، وعبّيت كواز الرمّان فيها، وقلتلو هيّاني جاي. واحزروا شو صار معاي. أنا كمان ما عدتش لقيت الخرق، كأنّه الحيط انسدّ بوجهي. هو من ميل يصيّح، وأنا من الميل التاني، حامل البالطو المليانة كواز رمّان وأقول له يصبر. هو يفتّش عنّي، وأنا أفتّش عنه، ما بعرفش قدّيش مرق وقت، وبطّلت إسمع دعساته وصوته اختفى. وأنا خفت، قلت أنا وحدي، وهلّق إذا إجوا اليهود، شو بدّي أقول. رميت الرمّانات، خلّيت معي رمّانة واحدة، حطّيتها بجيب البالطو، وصرختلّو منلتقي عند الجامع».

روى أحمد علي الجشّي، كيف برم القرية كلّها كي يصل إلى الجامع، وكيف خاف أن تأكله الأعشاب، وكيف سمع لهاثه وخاف منه، وكيف قرّر عدم العودة إلى الغابسيّة من جديد.

«ثمّ وجدت الخرق»، قال.

قال إنّه مشى كثيرًا، لكنّه ظلّ ينظر إلى الوراء، فشجرة الرمّان كانت علامته الوحيدة، وسط تلك المعالم التي اندثرت. عاد إلى الشجرة، مشى ثلاث خطوات إلى الوراء، ليجد نفسه أمام الثغرة، قفز منها فصار في حاكورتهم، ومن هناك عاد إلى الجامع، ليجد عمّه جالسًا في انتظاره.

قال أحمد علي الجشّي إنّ الغابسيّة على حالها.

قال إنّها تنتظرنا.

قال إنّ أغلبية أشجار الزيتون والخرّوب قطعت، لكنّنا سنزرع غيرها.

قال إنّ القضيّة بسيطة، ولا تحتاج مجهودًا كبيرًا، نحمل حالنا ونرجع. ماذا يستطيعون أن يفعلوا بنا، ننصب خيامنا هناك كما نصبناها هنا، وننتظر حتّى نعيد تعمير ما تهدّم من البيوت.

قال إنّ البيوت لم تتهدّم، فقط الأسقف الترابيّة تهاوت على الأرض، ونستطيع ترميمها في أيّام.

قال وقال وقال، وكانت صلعته تلتمع بما يشبه الزيت، وكنت أستمع إليه بنصف أذن، قلت إنّ هؤلاء لا يملّون تكرار الكلام نفسه، وإنّهم يعيشون في الماضي. لماذا لا نلتفت إلى حاضرنا، لماذا نبقى أسرى الماضي الذي يظلّلنا!

ثمّ سألني عن القاعدة العسكريّة في الجنوب اللّبناني، وقال إنّه يستطيع إذا أردت أن يأتي كي نذهب معًا إلى الغابسيّة. «لن نقوم بعمليّة عسكريّة» قال، «الهدف ليس القتال، آخذك كي تتفرّج على بلادك، ألا تحبّ رؤية بلادك»؟

حين قال كلمة «بلادك»، سمعنا العويل في غرفة الجدّة، وفهمنا أنّ المرأة ماتت. لم يتحرّك أحد من الرجال من مكانه، لكن دموعهم انهمرت بغزارة. كأنّ البكاء كان ينتظر إشارة، وجاءت الإشارة من غرفة الجدّة. لم يقل أحد شيئًا، لم يدخل أحد الغرفة، كانوا مقتنعين أنّ النهاية التي ينتظرونها أتت، وبدأ البكاء.

كفكف زوج عمّتي دموعه، وهمس لي سؤاله المريب.

«ماذا ستفعل بالبيت»؟

«أيّ بيت سألته»؟ معتقدًا أنّه يتابع حديثه عن بيوتنا في القرية.

«هذا البيت»، قال.

«لا شيء»، قلت.

«ألا تريد بيعه»؟ سأل.

«وليش بدّي أبيعه»؟

«لأنّك تعيش في القواعد، وابني سيأتي في السنة المقبلة كي يدرس في الجامعة في بيروت، وأنا أشتري».

«لن أبيع»، قلت، «أنا لن أبيع بيتي».

قال إنّه مستعدّ لإعطائي المبلغ الذي أريده الآن.

قلت إنّني لست بحاجة إلى المال، ولن أبيع بيتي.

قام الرجل من جانبي، والتحق بحلقة الرجال، وعاد إلى البكاء. ثمّ خرجت عمّتي من الغرفة وأسكتت الجميع بإشارة من يدها، وأعلنت أنّ المرأة لم تمت. توقّف البكاء فجأة، وعاد الرجال إلى أحاديثهم، وعاد زوج عمّتي إلى حكايته، لكنّني قرّرت العودة إلى القاعدة، فهذه المرأة لن تموت، وأنا يجب أن أعود.

وماتت جدّتي في غيابي، كما مات أبي.

لماذا تعود ذاكرة أبي، وأنا أريد خلعها؟

الحقّ أنّني خلعتها من زمان ونسيتها، ولم ترجع إلاّ بسببك أنتَ، ولأنّك تريد الحكاية من الأوّل. وأنا لا أعرف أوّل الحكاية، فأنا لست هو، وأنا لم أرحل من قرية إلى قرية، ولم أعد إلى حقل عمقا حاملاً صُرّة الخضر على ظهري، ولم أختبئ بين أعواد الذرة، ولا أعرف أصلان درزيّة وابنه سيمون، ولا حكاية جريمة وادي أبو جميل.

لكنّه يعود ويسكنني.

كأنّ تلك المرأة التي ربّتني على رائحة الأزهار المتعفّنة، ألبستني رجلاً آخر، وأعطتني اسمًا آخر. كأنّني صرت الآخر الذي لم أكنه.

قالت جدّتي إنّ الأيّام كانت تتوالى، «كنت مثل الناس، أشتغل في الأرض التي تركها المرحوم زوجي، اشتغلت في الأرض قبل موته وبعد موته، وهو كان اسم اللّه عليه، مجاهد، يعني يتركني ويروح، ولو ما فلحت واهتمّيت بأشجار الزيتون، يعني كنّا متنا من الجوع. اللّه يرحمه كان كثير الغلبة، فلاّح ولا يعرف أن يفلح، راسو محشي بارود وسلاح. نحن الفلاّحين لا نقاتل، قلت لهم إنّنا لا نعرف أن نقاتل، بكرا بتجي الجيوش العربيّة وبتحارب. بس ما سمع كلامي، تركني وراح، وصار يجي طلاّت، وبعدين مات والسلام. الحقّ على أبي، كان أبي قائدهم، وزوّجني خليل من دون استشارتي، جاء وقال إنّهم قرأوا الفاتحة وغدًا العرس. وصار العرس، وتشحّرت، عشت معاه خمس سنين، وخلّفت ثلاث بنات وصبي.

وزوجي راح. البنات اشتغلوا معي في الحقل، والصبي أرسلناه إلى المدرسة في عكّا».

عندما ختم ياسين حفظ القرآن في القرية، أرسلته أمّه إلى عكّا، حيث دخل الصفّ الرابع في مدرستها الابتدائيّة. وفي عكّا، أقام في منزل يوسف أفندي توبل. ويوسف توبل هذا، كان يملك معصرة الزيت في القرية، كما كان يملك دكّانًا في عكّا، ولا يأتي إلى القرية إلاّ في شهر تشرين، ويمكث حوالى الشهرين، يعصر زيتونه وزيتون الفلاّحين، ويعود إلى عكّا.

«والدك اللّه يرحمه، كان يعمل في المعصرة، يساعد في عصر الزيتون، ثمّ يعود إلى عكّا. لم يدرس في عكّا سوى سنتين. كان يأتي إلى القرية كلّ يوم جمعة. يمرّ بالجامع ويصلّي، قبل أن يعود إلى البيت، ويفتح كتبه ويقرأ، ولم أكن أراه. أسأله عن حياته في عكّا، فيقرأ بصوت مرتفع كي يسكتني. حاولت القراءة في كتبه ولم أستطع، نحن كنّا نعرف قراءة القرآن، نفتح القرآن ونقرأ دون صعوبة، أمّا تلك الكتب التي كان يجلبها والدك، فمستحيلة. حاولت أنا وبناتي قراءتها، فلم نستطع، رغم أنّها كانت مكتوبة باللّغة العربيّة. يومها اعتقدت، اللّه يقطعني، أنّ هناك لغة عربيّة للرجال، ولغة عربيّة للنساء. نحن لغتنا الآيات والسّور، أمّا لغتهم فيعلم اللّه من أين يأتون بها. يوسف أفندي، اللّه يسهّل عليه، أقنعني بإرسال ابني إلى المدرسة، قال ابنك شعلة ذكا يا شاهينة، ولازم يروح معي على عكّا. قلت له إنّ الصبي سوف يخاف هناك، فهو لم يرَ البحر في حياته، ضحك يوسف أفندي وقال إنّ البحر أجمل شيء في الدنيا، وإنّه سيعلّمه السباحة في البحر. بحر الحياة أصعب من بحر عكّا قال، وأخذ الولد. وعاش ياسين معهم، كأنّه واحد من أفراد العائلة، يأكل من أكلهم، وينام في بيتهم، يذهب إلى المدرسة صباحًا، ويساعد السيد يوسف في دكّانه بعد الظهر. قلت إنّ الولد سيفلح في حياته كما أفلح في المدرسة، لكن يا حرام، لم يدرس في عكّا سوى سنتين، ثمّ بدأت الكوارث، انتقلت الحرب إلى الجليل، وبدأنا نركض من قرية إلى قرية، حتّى وصلنا إلى لبنان».

أبي يا سيّد يونس لم يكن يفهم ماذا يجري، كان صغيرًا وقصيرًا ومدعبلاً. حمل الخضر على ظهره، ووقف يتفرّج على أمّه الباكية، وتابع

معها رحلة النزوح، حتّى وصلوا إلى ترشيحا. وفي ترشيحا مات. لا لم يمت، لكنّه رأى الموت بعينيه، حين سقط البيت فوق رأسه، بعد أن قام الطيران الإسرائيلي بقصف ترشيحا.

«في ترشيحا سكنّا عند دار علي حمّود الذي كان رفيق نضال لوالدي»، قالت جدّتي، «ياسين توقّف عن الذهاب إلى المدرسة، وأنا اشتغلت مع نسوان علي حمّود في الزيتون، وانتظرنا أخبار جيش الإنقاذ التي ملأت الدنيا، وقلنا خير. أي خير يا ابني، واللّه عشنا زي الكلاب، صحيح أنّ علي حمّود قدّم لنا بيتًا، وصحيح أنّني اشتغلت في الزيتون، ولكن واللّه، كنّا نشتهي اللّقمة، لم أنم ليلة في ترشيحا وأنا شبعانة، بتعرف يا ابني، من يوم ما تركت البلد، ولا ليلة نمت شبعانة. بوكل وما بحسّ بالشبع، متل كأنّه في إشي مفتوح بكعب معدتي، ما إلي نفس على الأكل، ومعدتي بتوجعني من الجوع».

وجدّتي لم تكن تشبع. تقول إنّها ليست جائعة، تضع صحن الطعام أمامي، وتجلس تراقبني، ثمّ تمدّ يدها فجأة إلى صحني، وتلتهم كلّ شيء دفعة واحدة، وتقول إنّها لم تأكل شيئًا. غريب أمر هذه المرأة، لم تكن تأكل إلاّ صحني، تلتهم كلّ شيء، تضع يدها على معدتها وتشكو من الألم، قبل أن تعود إلى الأكل من جديد. كنت أعتقد أنّها صارت تأكل بهذه الطريقة كتعويض نفسي بعد مقتل أبي، ثمّ اكتشفت أنّ جوعها سبق موته، وأنّها كانت تتعامل مع طعامه، كما مع طعامي، أنا لا أذكر طبخة الخيط إلاّ بشكل غامض، لكن عمّاتي خلال زياراتهنّ القليلة لجدّتي، كنّ لا يتحدّثن إلاّ عن الخيط، يبدأ الكلام بالضحك، ثمّ ينتهي إلى ما يشبه الشجار.

«أنت كنت تحبّين ياسين أكثر منّا»، تقول إحدى عمّاتي.

«اللّه يسامحكم»، تقول شاهينة، «لا مش هيك، كنت أعمل طبخة الخيط لأنّ الولد كان قصير، وكنّا فقرا مش زي هلّق».

هل سمعت هذا الحكي، كأنّنا لم نعد فقراء الآن. نقول إنّنا كنّا فقراء كي لا نقول حقيقتنا في الحاضر. المهمّ يا سيّدي أنّها كانت تطبخ بشكل غريب. تعدّ اليخنة كما يعدّها الجميع، تقلي قطع اللّحم مع البصل، قبل أن تسقط فوقها الخضر. لكنّها كانت تأخذ قطع اللّحم النيئة، وتشكّها في

خيط، وتربط طرفيه إلى بعضهما بعضًا قبل أن تقلي اللّحم. وحين يجلس أفراد العائلة إلى المائدة، كانت تسحب خيط اللّحم من الطنجرة، وتقول هذا لياسين. لا أعرف ماذا كان يجري عندها. هل كان أبي يأكل قطع اللّحم الصغيرة وسط عيون شقيقاته المفتوحة على الشهوة، أم كان يوزّع قطع اللّحم عليهنّ، أم يترك الخيط دون أن يمسّه، فتلتهمه أمّه؟

لم تتوقّف جدّتي عن عادة طبخ الخيط إلاّ بعد رحيل أمي. أذكر تلك الأيّام بشكل غامض، أذكر كراهيتي للخيط في صحني، أذكر أنّني لم أكن ألمسه، وكانت جدّتي تجبرني على أكله، وأنا أرفض، ربّما أكلته مرّة أو مرّتين أو عشر مرّات، لا أدري، لكن طعم الخيط العالق في أسناني ولساني لا يغادرني.

توقّفت جدّتي عن خياطة اللّحمة بعد رحيل أمّي، ونسيتُ المسألة ولم أتذكّرها إلاّ حين روى أحد المقاتلين معنا في كفرشوبا عن خيط أمّه الذي يشبه خيط جدّتي. في القواعد الفدائيّة، كنّا نأكل اللّحم كثيرًا، وكان أبو أحمد يستولي على حصّتي من اللّحم، قائلاً إنّني لا أفهم في الطّعام لأنّني لم أجرّب طبخة الخيط، وأنا أقول له إنّني أكره مذاق اللّحم، بسبب طبخة الخيط هذه. كان أبو أحمد يأكل اللّحم بطريقة غريبة، ولكن هل كان اسمه أبو أحمد؟ الاسم ليس مهمّا، ففي تلك الأيّام كانت أسماؤنا كلّها مستعارة. أنا مثلاً، لم يكن اسمي خليل، كان اسمي أبو خالد، رغم أنّي أردت تسمية نفسي جيفارا. فأنا أحبّ جيفارا، وحين أرى صورته، أرى الضوء في عينيه كأنّه قدّيس، أنا أعتقد أنّه هو أيضًا، مثل محمّد أو طلال الذي أخبرتك عنه، كان يختبئ موته في عينيه، لذلك كانت عيناه جميلتين ومشعّتين. كنت أريد تسمية نفسي جيفارا، لكنّي اكتشفت أنّ أحدهم سبقني إلى هذا الاسم، فقال آمر الفصيل نسمّيك أبو خالد. ثمّ كثر الأبوخالدات. جمال عبد الناصر هو أبو خالد الأوّل، وبعد موته عام ١٩٧٠، صار الشباب يريدون التسمّي باسمه، فصرت تجد هذا الاسم في كلّ مكان. أنا أوّل أبو خالد في جنوب لبنان، ولكن بعد مذابح أيلول في الأردن، تدفّق علينا المقاتلون الهاربون من هناك، ولم نعد نعرف التمييز بين الأبوخالدات. فصار اسمي أبو خالد خليل، وتدريجيًا امّحى أبو خالد

لمصلحة خليل. لكنّي لا أزال حتّى الآن، ألتفت حين أسمع اسم أبو خالد، رغم علمي أنّ الناس نسيت أنّني كنت أبو خالد.

لم يكن أبو أحمد يفرح إلاّ باللّحم، يقفز إلى سيّارة التموين، يحمل صينيّة اللّحم، يضعها تحت الشجرة، يجلب السكاكين، ويبدأ بتقطيعها ويغنّي. كان يغنّي للّحم، لأنّ اللّحم هو الطعام، كما كان يقول، وكنت أحتقره، لا ليس احتقارًا بالمعنى الدقيق، لكنّي كنت أشعر بالتقزّز حين يأكل قطع اللّحم النيئة ويدعوني إلى مشاركته في أكلها.

«عيب يا زلمي»، أقول له.

«العيب هو أن لا تأكل، ألا تعرف نظريّة امرؤ القيس عن أجمل ثلاثة أشياء في الدنيا».

«أكل اللّحم وركوب اللّحم ودخول اللّحم في اللّحم»، يقول وهو يمضغ قطعة لحم حمراء تختلط بلسانه الذي يمدّه لاحسًا شفتيه.

«كلّ حياتنا يا أخي لم نأكل من اللّحم سوى الخيط، كنّا نتعارك على الخيط، وقطع اللّحم الصغيرة الذائبة التي تتناثر منه، وكنّا لا نأكل سوى الخيط. الآن صرنا نأكل، عاشت الثورة، أعظم شيء في هذه الثورة هو اللّحم، أنّها ثورة اللّحم».

يمضغ اللّحم النّيء، ويبدأ بإعداد طبخة المقلوبة، كنا نأكل المقلوبة مرّة في الشهر، حين يصل التموين، وكان أبو أحمد يضع كمّيّات هائلة من اللّحم فوق الرزّ المطبوخ بالباذنجان أو بزهر القرنبيط، وكان جميع عناصر القاعدة يغطسون في لحم الثّورة. مصيبتنا أنّ ثورتنا غنيّة وشعبنا فقير. الآن انتهت المصيبة، رحلت الثّورة، ولم تترك وراءها هنا في المخيّم، سوى هذا الفقر الذي يفترسنا. لا أعرف إذا كان الناس رجعوا إلى عادتهم القديمة في طبخ خيط اللّحم، فأنا أعيش وحدي، وأنت تعيش وحدك، وأنا لا أحبّ اللّحم، أحبّ العدس والبرغل والفول، وأنت تحبّ الزيتون.

أعرف الحكاية، ولا لزوم لإخباري ماذا كانت أمّك تفعل بالزيتون الأسود، وكيف كانت تشرّحه فوق خبز الطابون، وتقول إنّه إسفين دجاج، وأنّ حبّة الزيتون أطيب من لحم الدجاج. أعرف الحكاية، ولا أريد تعداد مزايا الزيتون من جديد، أو التحدّث عن الزيتونة الروميّة التي كانت ملجأ

لك في أيّام الشتاء، تقضي نهارك داخل جذعها الكبير المجوّف، قبل أن تتابع رحلتك إلى باب الشمس.

أنا كطبيب، أعترف بمنافع زيت الزيتون النيء، لكنّي لا أستطيع الموافقة على نظريّة أمّك في طب الأسنان. فليس مقنعًا ما تقوله عن أن بزرة الزيتون المطحونة تشكّل مسكّنًا لوجع الأسنان. كبش القرنفل يسكّن، والعرق يسكّن، أمّا بزرة الزيتون، فمستحيل. يبدو أنّ أمّك وجدت حلاً لفقرها عبر تحويل حبّة الزيتون إلى ما يشبه قنّينة سليم أسعد، قبل اكتشافه فوائد الشمبوان، وتحوّله ممثّلاً. لا يا سيّدي، بزرة الزيتون لا تصلح للأسنان وورق الزيتون لا يصلح لتبخير البيوت. هل كنتم، هل كنّا فقراء إلى هذا الحدّ في فلسطين؟ هل كنّا عاجزين عن شراء كمشة بخور. هل كان الفقر هو السبب الذي جعل أباك الأعمى، يحمل أوراق الزيتون اليابسة، ويبخّر بها، في ليالي الحضرة التي كان يقيمها مساء كلّ خميس. كانوا يبخّرون بأوراق الزيتون اليابسة. يجتمع الرّجال حول الشيخ الأعمى، الذي يقف وسط الحلقة ويصفّق بيديه قائلاً، «لا إله إلاّ اللّه»، وتبدأ الحلقة تدور. ثمّ تأتي أنتَ، حاملاً وعاء مليئًا بأوراق الزيتون اليابسة، وفوقها ثلاث جمرات. تعطي أباك الوعاء وتنسحب، بينما يحاول هو الإمساك بك كي تقف مع الواقفين، لكنّك تهرب منه، وتقف في آخر القاعة، قرب الباب حيث تتجمّع النسوة، وتتفرّج قليلاً، قبل أن تنسحب بهدوء. الشيخ ينفخ فوق الجمر، والجمر يشعل أوراق الزيتون، ويتصاعد البخور. وتبدأ الحلقة في الدوران السريع، والرجال يتساقطون، حتّى ضارب الدفّ كان يسقط أرضًا وهو يصرخ «مدد، مدد».

كان الدخان يعميكم يا أبي، بخوركم لم يكن بخورًا، كان دخانًا يعميكم، ويسقطكم أرضًا، لكن فقركم جعلكم تحوّلون الزيتون حياة كاملة. حوّلتموه لحمًا ودجاجًا وبخورًا ودواء. اشرح لي الآن، لماذا الحنين إلى أيّام الفقر تلك؟ لماذا كانت جدّتي تضمّ مخدّتها إلى صدرها، وتحرص على تغيير تويجات الأزهار التي كانت تحشوها بها، وتقول إنّها رائحة الغابسيّة؟ أنسيتم فقركم هناك؟ أم تحنّون إليه؟ أم الذاكرة مرض. مرض غريب أصيب به شعب كامل. مرض جعلكم تتخيّلون الأشياء، وتبنون

حياتكم في خيال الذاكرة. أنا لا أنسى تلك الأغنية التي كنّا ننشدها في قواعدنا في الجنوب اللبناني. اسمع هذا الكلام، وتخيّل معي معنى الخيال.

«عبد القادر، نصب شادر

وفوق الشادر بيّارات

أنا فدائي وأبوي فدائي

وننزل سوا عمليّات».

تخيّل معي كيف تخيّل عبد القادر حياته، صار لاجئًا فنصب بيارته فوق خيمته، وجلس تحتها يغنّي. هكذا نحن، صدّقنا أنّ البيّارة فوق الخيمة، وأنّ الوطن بيّارة! نحنّ إلى فقرنا وقرانا المهدّمة. وننسى أنفسنا، ونموت.

أنا لا.

أعوذ باللّه، أنت تعرف مقدار التزامي وإيماني بحقّنا في بلادنا، ولكنّني أتكلّم هكذا، نحن لسنا في اجتماع ولا في محاضرة، نتبادل الأحاديث، فتأخذنا الحكايات إلى حيث لا نريد.

أين كنّا؟

كنت أحاول أن أجمع لك شتات حكايات أبي. كانوا في ترشيحا، وهناك مات ياسين. لا، لم يمت، سقط تحت الموت ونجا. كان ذلك بعد سقوط قلعة جدّين في أيدي اليهود، «لجأنا إلى ترشيحا في انتظار العودة إلى قريتنا»، قالت جدّتي. «لكن بدل الاقتراب من قريتنا، صاروا هم يقتربون، سقطت جدّين وبدأت ترشيحا تتعرّض لقصف متقطّع بمدافع الهاون».

«وفي يوم ـ قال ياسين إنّه كان يوم موته ـ في ذلك اليوم، قال، بدأ الطيران يقصف ترشيحا، كنت في السوق، ولم أجد نفسي إلاّ راكضًا مع الراكضين، دخلت واختبأت في دكّان أحمد شريح، وفجأة بدأ الدكّان يرتجّ والحيطان تتساقط، والدخان. سقطت قذيفة داخل الدكّان، وتهدّم كلّ شيء ومات الجميع. وكنت أقف في الزاوية الوحيدة التي لم تتهدّم، ووجدت نفسي والركام فوقي وتحتي وحولي، والأموات. فصرت أئنّ، لا أعرف إذا

كنت موجوعًا، لكنّ الأنين كان يخرج من داخلي، ثمّ أحسست يدًا تسحبني، كان كلّ شيء فوق كلّ شيء، حملوني وهم يصرخون بالتكبير، فاكتشفت أنّني لم أمت».

قال ياسين، إنّه حين اكتشف أنّه مازال حيًا، قفز من أيدي الرجال، وبدأ يركض في اتجاه المنزل الذي أقاموا فيه. وكانت الأمّ قد رتّبت كلّ شيء، ووقفت مع بناتها الثلاث، يحملن الحرامات الصوفيّة والأواني على رؤوسهنّ، وينتظرن ياسين. وما إن رأينه، حتّى بدأت مسيرتهنّ الجديدة.

«لم تسألني أمّي أين كنت، ولماذا أنا ملوّث بالغبار، كانت مستعجلة. مشت، ومشت أخواتي خلفها، وأنا خلف الجميع، حتّى وصلنا إلى دير القاسي. وهناك لم نجد بيتًا يؤوينا فنصبت أمّي خيمتها تحت شجرة زيتون، وقرّرت من جديد أنّ هذه الحياة لم تعد تطاق، وأنّها ستذهب إلى قريتها، كي تجلب المؤونة.

أختي منيرة قالت لا، أنا أذهب.

أمّي صرخت، لكنّي حسمت الموضوع، فذهبت أنا وأختي منيرة، وفتاة لا أذكر اسمها، كانت صديقة لأختي، وتسكن حرامًا صوفيًاً قريبًا من حرامنا. ونزلنا إلى سهل عكّا، واختفينا داخل حقل الذرة. كانت أعواد الذرة عالية، طولها أكثر من متر ونصف، وبدأنا نحوّش البامية والخيار والبندورة. وفجأة تقدّم رجل يحمل بندقيّته، أختي وصديقتها كانتا أمامي، رأيت الرجل يقترب منهما ويشلّحهما الأغراض. كان هذا الرجل الذي يحمل بارودة، هو المخضّر، أي الحارس. وكانوا يسمّونه المخضّر لأنّه يحرس الخضر، كان يهودياً يدعى الخواجة مليخا، ونحن نعرفه، وهو يعرف شقيقتي، لماذا إذن سحب سلاحه علينا وهدّدنا وصادر الخضر التي حوّشناها من أرضنا. رأيت أختي تعطيه كلّ شيء، وترفع يديها إلى الأعلى، ثمّ نظرت إلى الخلف كي تحذّرني ومضت. فانتبه الرجل إلى وجودي. أنا كنت جامدًا في مكاني، وكنت على استعداد لرفع يدي إلى الأعلى، كي لا يقتلني الخواجة مليخا. لكنّي وجدت نفسي أرمي الكيس أرضًا، وأركض، وأنا أسمع أصوات الطلقات. ركضت وركضت، وحين وصلت إلى شقيقتي وصديقتها، أحسست شيئًا ساخنًا يسيل على فخذي

اليسرى، لم أدر لحظتها أنّه الدم. لكن أختي مزّقت قميصي وربطت الجرح، وركضتَ أمامي وهي تبكي. لم يكن جرحًا بكلّ معنى الكلمة، كان بارود الجفت الذي أطلقه المخضّر، قد اخترق بنطلوني، واستقرّت بعض حبّات الخردق في أعلى فخذي اليسرى، وكان الدم. ربطت أختي جرحي، وركضنا عائدين إلى خيمتنا، ولم نستطع أن نحوّش شيئًا. لكنّها كانت بطولتي الثانية. في المرّة الأولى كنت الوحيد الذي استطاع جلب الخضر من الغابسيّة، وفي المرّة الثانية عدت جريحًا مثل الشهداء، أمّا أمّي، فلن أستطيع وصف ما فعلته حين رأت دمي يغطّي بنطلوني».

«ماذا أخبرك عنه يا ابني»، قالت جدّتي.

«أبوك كان بطلاً، رأيته ورأيت الدم، فركضت ودموعي تسبقني، ابني الوحيد يموت من أجل كمشة بامية، وبدأت أصرخ قتله اليهود، أنا قتلته. قتلت ابني، تعوا يا ناس وشوفوا، ولمّا اكتشفت أنّ الإصابة طفيفة لم أتوقّف. أقمت له عرسًا مثل الشهداء، زغردت وولولت ولوّحت ببنطلونه الملوّث بالدم، وأقمت الدنيا وأقعدتها، وقلت الحمد للّه فعلت كما تفعل أمّهات الشهداء، حملت البنطلون فوق رأسي، وجاءت جارتنا أمّ كامل وبخّرتني وبخّرت البنطلون وبخّرتك. قلت هذه حصّتي من الشهداء، فعلت مثل أمّهات الشهداء كي أجنّب نفسي هذه الكأس. قلت إنّ ابني مات، لذلك فهو لن يموت بعد اليوم. لكنّه غدرني وغدر زوجته وغدرك، تركنا ومات على عتبة هذا البيت الذي عمّرته بدموع عيوني. اللّه يقطعني، في دير القاسي اعتقدت أنّ الموت انتهى، وأنّني أستطيع الهرب بأولادي منه، لكنّه لحقني إلى هنا، وخطف ابني، وبقيت وحدي مع هذا الفتى الذي يشبه ياسين، كأنّ ياسين بصقه. ابني خاف من المخضّر، لم يستسلم لأنّه خاف أن يقتله، كانوا يقتلون كلّ الشباب، لم يرفع يديه كي لا يموت. وأمام الباب، حاول رفع يديه، رأى المسدّس مصوّبًا نحوه، لكنّه لم يمتلك الوقت الكافي كي يرفع يديه إلى الأعلى، لم يسمحوا له بأن يستسلم، وقتلوه».

لماذا قتلوه؟

جدّتي سألتك، وأنا أسألك.

ألم يكن من الأفضل له أن يموت هناك بين حقول الذرة؟ هل كان يجب

عبور ذلك العذاب الطويل من دير القاسي إلى بيت ليف، ومن بيت ليف إلى المنصورة، ومن المنصورة إلى الرشيديّة، ومن الرشيديّة إلى شاتيلا إلى الموت.

جدّتي تكره الموز.

لا أحد في العالم يكره الموز، لكن شاهينة تكرهه.

أنت لا تعرف حكاية تلك المرأة مع الموز، لأنّك لا تعرف كيف استخدمت ورق الموز كي تغطّي به أرض خيمتها في مخيّم الرشيديّة. لم يجدوا سوى ورق الموز يتّقون به المطر الذي أغرقهم. أنت لم تكن هنا كي ترى كيف غطّاهم الموز، ولم تكن هناك كي ترى كيف سرقت نهيلة طعامها وطعام أولادها من أرضها المصادرة.

أنت كنتَ في اللاّمكان. دخلت عالمك السرّي الذي جعلك تعتقد أنّ الأشياء هي الأشياء، بينما شاهينة جدّتي، تفرش أرض خيمتها بورق الموز، وتأكل التراب، ونهيلة تسرق حبّات الزيتون من حقلها المصادر، قبل أن يعود والدك الشيخ شيخًا، ويعيش من أموال وقف دير الأسد. وأنت تعلم أو لا تعلم، لكن لم يكن هناك وقف ولا من يقفون، كانت إسرائيل قد صادرت كلّ الأراضي، الشيخ اقتنع بحكاية الوقف هذه، كي لا يعترف بحقيقة أنّه أصبح شحّاذًا، شحّاذ يعيش من عطايا النّاس الذين صاروا أفقر منه، لكنّهم خجلوا من عينيه المغمضتين، ومن بطن زوجة ابنه المنتفخ بالأطفال.

جدّتي كرهت الموز، ونهيلة كرهت الوقف وذهبت لتعمل في الكيبوتز الذي بنوه لليهود اليمنيين على تخوم ركام قرية البروة، أنت لا تعرف هذه الأشياء، وسوف تسأل لماذا لم يخبروك؟ وهل من الضروري إخبارك كي تعرف؟ أريد الآن أن أصدّقك وأسامحك، فأنت لم تكن تعرف كيف عشنا وعاشوا، ولكن قل لي، ماذا فعلت من أجلنا ومن أجلهم؟ لماذا تركتنا نتبهدل؟

أسمع رنين ضحكتك تكسر حجاب موتك. تضحك وتشفط سيجارتك إلى كعبها، وترفع يدك إلى الأعلى، علامة اللاّمبالاة، ويعلو صوتك.

«البهدلة! أنت يا خليل تكلّمني على البهدلة، ماذا تعرف عن البهدلة»؟

وأسمع صوت ياسين يأتي داخل ثنايا صوتك، يحمل حكايات الموز، وورق الموز الذي يغطّي أرض الخيمة وسقفها، كي لا يغرق الناس في الماء.

قالت جدّتي إنّها دخلت لبنان على حمارة، «استأجرنا حمارة، وقطعنا

بها حتّى الحدود اللبنانيّة، تركنا كلّ شيء في أرضه، ولم نجلب معنا شيئًا».

لكن لا، جدّتي جلبت مصاغها، الذي سمح لها بأن تعيش سنواتها الأولى في لبنان، بشكل مقبول.

قالت إنّها كانت في دير القاسي، كلّ الشوادر نائمة، وهي لا يأتيها النوم. قالت إنّها أحسّت أنّ كلّ شيء ضاع. كان اللّيل، وكانت النجوم مثل بقع حمراء في السماء، وأصوات عواء بعيدة تختلط بطلقات رشاشات متفرّقة، وصمت. كان الشباب المسلّحون الذين يحرسون خيم دير القاسي ملتصقين بأشجار الزيتون، كأنّ الخوف جمّدهم في أماكنهم.

امرأة وحيدة، تجلس أمام خيمة الزيتون، ولا ترى سوى العتمة. زوج ميت، وأربعة أطفال، وأب لا يعلم إلاّ اللّه أين صار، ومستقبل غامض، وقرية ماتت. قالت جدّتي، إنّها في تلك اللّحظات، حين كان اللّيل يختبئ في عينيها، اكتشفت أنّ الغابسيّة ماتت، وأنّها يجب أن تفعل شيئًا من أجل إنقاذ حياتها وحياة أولادها، وتذكّرت أنّها تركت في أسفل خزانتها، مصاغها، وعشرين ليرة فلسطينيّة كانت كلّ مهرها.

جلست المرأة أمام خيمتها، والعواء حولها، واللّيل يغطّيها، والدموع تنفر من عينيها. ثمّ وجدت نفسها أمام ابنتها الكبرى منيرة، كانت منيرة في السادسة عشرة وتشبه أمّها كثيرًا. اقتربت شاهينة من ابنتها النائمة، وهزّتها بهدوء. استيقظت الفتاة مذعورة.

«قومي، قومي، قالت الأمّ».

أمسكت الأمّ بيد ابنتها، وأخرجتها من الخيمة، وفي الخارج، استمعت الفتاة إلى أمّها، ولم تفهم شيئًا.

«ما فهمتش إشي»، قالت منيرة.

وشرحت الأمّ خطّتها لابنتها، لم تكن شاهينة تمتلك خطّة عندما أيقظت ابنتها، لم تكن تعرف ماذا ستقول لها، كانت تريد كسر وحدتها، والتكلّم مع أحد كي تشكو له ضياع المهر. لكنّها بدل الشكوى، وجدت نفسها تشرح الخطّة لابنتها. قالت إنّها سوف تذهب إلى هناك في ساعات الفجر الأولى، كي تجلب مصريّاتها وصيغتها، وأنّه ربّما حصل شيء لا سمح

اللّه، قالت لمنيرة، إنّه في حال حصول أيّ شيء عليها أن تمضي مع إخوتها إلى حيث يمضي الناس. قالت إنّ الناس ربّما سيذهبون إلى لبنان، اذهبوا معهم، واسألي عن جدك رباح العوض. جدّك مايزال حيًا، هو الآن يقاتل مع المقاتلين، لا أعرف أين، ابحثوا عنه، وسيهتمّ بأمركم. اقترحت منيرة الذهاب بدل أمّها، لكنّ الأمّ رفضت، «لا يا بنتي بروح لوحدي، أنت بعدك صغيرة، وعمرك قدّامك، بس ما تنسي تسألي عن جدّك، اسمه رباح، رباح العوض، وهو الآن مع حامية شعب، والناس كلّها بتعرفه، انتظروني حتّى ليلة غد، أنا سأرجع هذه اللّيلة، ولكن ربّما أخّرني شيء، انتظروني ليلتين، وإذا لم أعد يكون قد حصل شيء، انسوني وامشوا مع الناس، واتّكلوا على اللّه».

قالت منيرة إنّها فهمت، دخلت الخيمة وغرقت في النّوم. ولم تصدّق شاهينة عينيها، كيف استطاعت الفتاة أن تنام، بعدما أخبرتها أمّها عن مغامرتها؟ دخلت شاهينة الخيمة مرّة ثانية، وانحنت فوق منيرة، وكانت منيرة تتنفّس نومها.

وضعت شاهينة كسرة خبز في صدرها، ومضت. وكان ليل. لا تعلم شاهينة كم كانت الساعة، لكن حجاب اللّيل كان يتشقّق عن أضواء خافتة ملوّنة. مشت ومشت، ولم يعترضها أحد. لا حرّاس الخيم الذين التصقوا بأشجار الزيتون، ولا اليهود الذين اجتاحوا القرى، ونشروا عناصرهم فوق التلال. ومشت المرأة وحيدة على طرقات تعرفها، انحنت وتعثّرت وكادت تسقط وتماسكت. مشت حوالى ساعتين، فالمسافات في الجليل ليست كبيرة، فالجليل مثل راحة اليد، كما قلتَ لي، مشت حتّى وصلت إلى الفوّارة. انحنت على الماء، وغسلت يديها ووجهها وشربت، ودخلت القرية.

لا يبعد نبع الفوّارة عن الغابسيّة أكثر من كيلومترين، لكنّها كانت المسافة الأطول في رحلتها. مشت ومشت ولم تصل. كانت شاهينة تعرف الطريق، وتستطيع عبورها مغمضة العينين، فمن الفوّارة كانت تجلب الماء إلى بيتها كلّ يوم. لكن أين اليوم من تلك الأيّام؟ أحسّت رأسها ثقيلاً، كأنّها وضعت فوقه ثلاث جرار، مشت مثقلة برأسها، وكان خوفها يخرج من فمها على شكل لهاث متقطّع.

بعد تلك الرّحلة بسنوات طويلة، سوف تروي لي، أنّ رحلتها علّمتها أن ترى.

«هل تعرف يا ابني، هناك رأيت. في الماضي لم أكن أرى، وبعد أن تركت القرية لم أعد أرى».

«وشو شفتي يا ستّي»؟

«هناك رأيت كلّ شيء، كيف أقول لك يا ابني، في نظرة واحدة رأيت كلّ البيوت وكلّ الأشجار، كأنّ عيوني اخترقت الحيطان، ورأت كلّ شيء».

خلال رحلتها إلى الغابسيّة، مشت شاهينة منحنية. انحنت لأغصان الزيتون، وانحنت لليل، وانحنت للخوف، وانحنت لنبع ماء الفوّارة، وانحنت لشجرة السدر. ولكن عندما مرّت بالجامع، انتصبت فجأة. رفعت رأسها وكتفيها إلى الأعلى، ومشت بهدوء في القرية، كأنّها لم تغادرها قطّ. اختفى لهاث الخوف، ورأت كلّ شيء. رأت البيوت والأشجار والحواكير، وسمعت أصوات الناس، وصراخ الأطفال. مشت المرأة بهدوء نحو بيتها. وكان باب البيت مفتوحًا. ركضت إلى الغرفة، فتحت الخزانة ومدّت يدها، فوجدت ليراتها ومصاغها. خاتمها الذهبي. وأساورها المبرومة وعقد اللولو. وضعت كلّ شيء في صدرها، وقرّرت أن تعود. لا، قبل أن تعود شعرت بجوع شديد. أخذت كسرة الخبز من صدرها، وبدأت تقضمها. ثمّ هرعت إلى المطبخ، وجدت خبز الطابون في مكانه، بحثت عن دبس الخرّوب، ومزجت الدبس بالطحينة، ووقفت تأكل في المطبخ. أكلت ثلاثة أرغفة مع الدّبس، ثمّ أعدّت إبريق الشاي، جلست وشربت، وبدأ النعاس يجتاحها. نهضت متثاقلة ووجدت نفسها ترتمي على السّرير وتغفو. نامت كمن لا يدري أنّه نائم، هكذا ستصف نومها. لم تغلق باب بيتها، ولم تخلع ثيابها، نامت كما هي، يداها دبقتان بدبس الخرّوب، والنعاس يستولي عليها. وعندما استفاقت كانت العتمة قد بدأت تتسلّل إلى البيت. فتحت عينيها وضاعت.

«ضعت يا ابني، وما عرفتش أنا فين».

للحظة لم تجرؤ على التحرّك من مكانها، فتحت عينيها وجمدت في مكانها.

«نمت على السرير الوحيد الذي كنّا نملكه، كان زوجي الله يرحمه، قد اشترى سريرًا نحاسيًا لا مثيل له في القرية كلّها. أنا بعد وفاته لم أنم على هذا السرير، فالسرير للرجل، هو ينام فوق، وأنا على الفرشة تحت، ثمّ صار يجبرني على النوم حدّه في السرير، قال لأنّه يحبّني، في أيّامنا يا ابني لم يكن أحد يلفظ هذه الكلمة، الرجل يحبّ امرأته لكنّه لا يقول لها، أمّا جدّك خليل، فكان يجبرني على النوم فوق».

«في أيّامنا»، قالت جدّتي، «كان السرير للرجل، هو فوق وأنا تحت، ثمّ صار يطلب منّي زيارته في السرير، وصرت أزوره، وهذا كلّ شيء».

في ذلك اليوم نامت شاهينة في السرير النحاسي، «نمت في السرير النحاسي»، منذ وفاته لم أنم على السرير، فهو سريره، كنت أرتّبه كلّ يوم، وأغسل شراشفه مرّة في الأسبوع، لكنّي لم أنم فيه أبدًا. أمّا في ذلك اليوم، فبعد أن ثقلت عيوني بالنعاس، ارتميت عليه ونمت. وتستطيع أن تتخيّل ماذا جرى، حين صحوت، ورأيت العتمة في كلّ مكان. في تلك اللّحظة لم أعرف أين أنا، كأنّ زوجي لم يمت، والقرية لم تسقط، والأولاد ليسوا في حقل دير القاسي ينتظرون. نسيت كلّ شيء، ووجدت نفسي في بيتي. وحين تذكّرت أين أنا ومن أين أتيت، ضربني الخوف، وبدأت أرتجف بردًا. قفزت من السرير، تحسّست صدري بيدي، فوجدت المصاغ في مكانه، وقلت يجب أن أعود».

قالت شاهينة إنّها ندمت على شيء واحد، «ندمت لأنّي لم أرتّب السرير، كنت من خوفي واستعجالي كأنّي لا أهتمّ، أعرف أنّ زوجي زعل منّي، حلمت به يا ابني، كنّا هنا في المخيّم، وجاءني في المنام، وقال لي، ولو يا شاهينة، أهكذا تتركين سريري، أين سأرتاح الآن. ذهبت إلى الشيخ الأخضر، الله يصلحه، ورويت له منامي، فطمأنني، وقال إنّ الموتى لا يعودون إلى بيوتهم، وزوجك شهيد، والشهداء في الجنّة، وطلب منّي أن آتي لزيارته بين وقت وآخر. لكنّي لم أزره، فلقد رأيت في عينيه ذلك الشيء، الحمد للّه أنّني لم أزره أبدًا. كان ينظر إليّ من رأسي إلى قدمي، ويتلمّظ ويلحس شفتيه بطرف لسانه، ويقول إنّ الشهيد في الجنّة، هناك النعيم والحور العين. زوجك يا شاهينة يتمتّع بالحوريات الآن. قال

الحوريات ولحس شفتيه، كأنّه أعوذ باللّه، أهكذا يتعاملون مع أرامل الشهداء، يعني ماذا يعتقد هذا الختيار نفسه، لا واللّه، تفو على لحيته ولحى أمثاله، يمسك بكتاب اللّه، وينظر تلك النظرة الشهوانيّة»!

قالت شاهينة إنّها استعادت وعيها، وبدأت ترتجف.

«نهضت وشربت ماء ومشيت».

قالت إنّ القرية كانت فارغة، ولا أحد. لا صوت ولا شيء. فقط الهواء الذي يوشوش أغصان الأشجار، وصوت دعساتها على الأرض.

وأمام الجامع، سمعت نحنحة خافتة. ارتمت أرضًا، ورأت الرجل قادمًا.

«مين اللّي هناك»؟ همس الرجل.

لم تجد شاهينة صوتها كي تجاوب. تململت كأنّها تجمع شتات أعضائها، ورأت الشيخ الأبيض يتقدّم نحوها، حاملاً بيده ما يشبه البندقيّة.

قالت شاهينة إنّها أغمضت عينيها، وبدأت تتمتم آية الكرسي في قلبها، حين لكزتها العصا، وسمعت اسمها.

«قومي يا شاهينة يا بنتي، شو عم تعملي هون».

فتحت عينيها وصرخت، «أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، دخيلك يا عزيز، أنا لا، ما تاخذني، دخيلك عندي أولاد».

اقترب منها ومدّ لها عصاه، كأنّه يطلب منها أن تمسك بها كي تنهض.

«شو مالك يا بنتي، أنا عمّك عزيز أيّوب».

«أنت ميت يا عمّي، اتركني، عندي أولاد».

«أنا ميت! شو انجنّيت، عمرك سمعت إنّو الميت يحكي، هيّاني قدّامك، قومي».

«ورأيت عمّي الشيخ عزيز أيوب، واكتشفت أنّ ياسين كذب عليّ، فعزيز أيّوب لم يمت، وها هو يأخذني إلى داخل الجامع، يشعل حطبًا، ويسقيني الشاي، ويسألني عن أولادي. ولكن هل تعرف يا ابني، لم يصدّقني أحد، قالوا إنّي رأيت شبحًا، حتّى ابنته صفيّة ضحكت عليّ، وقالت إنّه مات

وشبع موتًا، لكنّي واللّه متأكّدة، فأنا رأيته، وسقاني الشاي، وقال إنّه لا يستطيع مغادرة القرية لأنّه يحرس الجامع والشجرة».

لم يصدّقها أحد يا أبي، حتّى أنا لم أصدّقها، حتّى صارت تشكّ في نفسها. مسكينة جدّتي، ماتت قبل أن تعود أمّ حسن من رحلتها إلى هناك، وتخبرنا أنّ الرجل لم يكن شبحًا، وأنّه مات بطريقة غريبة.

قال عزيز أيّوب لشاهينة إنّهم يحرسون الشجرة منذ خمسة أجيال، ولا يستطيعون تركها. «طلبت من زوجتي البقاء معي هنا، لكنّها رفضت لأنّها خائفة من اليهود، شو بدّهم يعملوا اليهود قلت لها، أكثر من قرد ما مسخه اللّه، فقالت إنّها خائفة من دير ياسين».

قال الشيخ عزيز إنّه لا يخافهم، «أنا الخامس، ولا أترك السدرة، من يحرس الأولياء؟ من يصلّي في الجامع؟ من يغسل القبور».

استمعت شاهينة إلى كلام الرجل، كأنّها في منام، وفي المنامات لا معنى للكلام. «طلب منّي أن أخبر زوجته أنّه مايزال حيًا. لم أسأله شيئًا، غريب أمره، كنت كلّما هممت بطرح سؤال عليه، أسمع الجواب قبل أن أسأل. باسم اللّه الرحمن الرحيم، كان كمن يقرأ قلبي، قال إنّ اليهود يأتون بين وقت وآخر، تأتي دوريّة من ثلاثة جنود مسلّحين، تجول في القرية، ثمّ يدخلون البيوت وينهبون الذهب، أنت وجدت ذهبياتك بإرادة اللّه، لكن الذهب طار يا بنتي. يعتقدونني مجنونًا، حين يرونني يهرولون هاربين، فأصعد المئذنة وأرفع الأذان، الأذان يخيفهم ويحميني، يللاّ يا بنتي، روحي لعند أولادك».

قالت جدّتي إن رحلة العودة إلى حقول دير القاسي، كانت سريعة كلحظة. «ركضت دفعة واحدة، ركضت ولم ألتفت إلى الوراء، كنت أشعر أنّ هناك من يركض ورائي، لم أسمع شيئًا، كأن أذنيّ سُدّتا بالرّيح، أركض والهواء يطير بي، إلى أن وصلت. وصلت إلى خيمتنا، فرأيت أولادي الأربعة يجلسون أمامي منتظرين. وصلت وارتميت بينهم، أدخلتهم الخيمة وقلت لهم أن يناموا. اندسّوا إلى جانب بعضهم بعضًا صامتين، وهناك شممتُ رائحتي. كان العرق الذي بقّع ثيابي، ينشر رائحته داخل الخيمة. خجلت من نفسي، وطلبت من منيرة أن تنهض وتساعدني على الاغتسال. يومها قسمت

الثروة بيني وبينها، وضعت عشر ليرات في عبّي، وعشر ليرات في عبّها. أخذت الخاتم والقلادة، وأعطيتها الأساور المبرومة، وبهذا المال عشنا سنة كاملة في قانا، قبل أن تضطر بناتي إلى العمل في كسّارات الأحجار».

أنت لا تعرف عزيز أيّوب، لم تخبرني شيئًا عنه، أو عن تلك الحياة التي عاشها وحيدًا في قريتنا، ألم تزر الغابسيّة؟ ألم تسمع حكاية الوليّ الذي قُتل؟ لولا أمّ حسن ما عرفت شيئًا. كان يجب أن تستمع إليها تروي لي. يا عيني على أمّ حسن، يا ليتها كانت أمّي، على الأقلّ كنت سأنام مرتاحًا. هل تعلم أنّني أخاف النّوم، قلت لك إنّني أخاف أن أنام ثمّ أستيقظ لأجد نفسي في بلاد غريبة لا أعرف التكلّم بلغتها، أخاف أن لا أصحو، أخاف أن لا أجد بيتي، أو لا أجدك أو لا أجد المستشفى، أو لا أعرف.

مع أمّ حسن كنت سأنام. جدّتي كانت تخيفني في اللّيل، كنت أسمع صوت دعساتها في البيت كأنّها لا تنام، ولا تتركني أنام. تمشي وتمشي، ثم تقترب من سريري وتسألني إذا كنت نائمًا، أنهض مذعورًا لأجدها إلى جانبي، تقول إنّها تذكّرت شيئًا، وتبدأ بإخباري قصّتها المملّة عن ياسين وحياته وموته وإلى آخره...

مع أمّ حسن يأتيك النّوم، معها تشعر بأنّ الدنيا ثابتة لا تتزحزح. أين أنتِ الآن يا أمّ حسن؟ وأين شهادة التمريض التي تحملينها من أيّام الانتداب البريطاني؟

أمّ حسن أخبرتني عن عمّ جدّي عزيز أيّوب، قالت إنّه صار وليًّا، وإنّ الناس يقدّمون له النذور، وإنّه يشفي من الأمراض. قالت إنّها خلال زيارتها لشقيقها في قرية الجديدة، تذكّرت وعدها لجدّتي بزيارة الغابسيّة، وإضاءة شمعة تحت شجرة السدر.

هل رأيت السدرة يا أبي؟

هل ذقت طعم ثمارها؟

أمّ حسن قالت إنّ ثمرتها تسمّى الدوم، وهي مثل الزعرور، بل أطيب من الزعرور.

أمّ حسن قالت للنّاس في الجديدة، إنّها يجب أن تذهب إلى الغابسيّة، كي تفي نذرها أمام السدرة، وذهبت وحدها، لأنّ شقيقها خاف من

اصطحابها، قال لها إنّه منذ حادثة أيّوب، وبناء ضريح له هناك، بدأ الإسرائيليّون يتشدّدون، ويمنعون الناس من زيارة القرية. فالغابسيّة منطقة عسكريّة، وإذا شوهد أحد هناك اقتيد إلى السجن، وفرضت عليه غرامة مالية كبيرة.

أوصلها شقيقها إلى قرية النهر، ودلّها على الطريق. قالت إنّها وصلت إلى الشجرة وركعت. رأت شموعًا ذائبة وأشرطة معلّقة على ورق السدرة الرقيق الصغير الذي ينتشر بكثافة فوق الأغصان، قالت إنّها ركعت هناك، ثمّ دخلت الجامع، انتبذت لنفسها مكانًا وسجدت وصلّت.

وحين عادت أخبرتني عن أيّوب.

قالت إنّ كلّ الناس في الجديدة يتحدّثون عنه. أخبروها عن رجل أبيض بلحية بيضاء وثياب بيضاء، يحرس الشّجرة ويكلّم أغصانها. وكان الناس القادمون من القرى المجاورة، لإيفاء نذورهم للسدرة، يرون الرجل. قالت لهم أمّ حسن إنّه عزيز، هذا عزيز، قالوا لا، اسمه أيّوب.

قالت أم حسن إن أيوب كان ينظّف الجامع كل يوم. المستعمرة الإسرائيليّة التي بنيت على تخوم الغابسيّة، تستخدم الجامع كزريبة بقر. وكان أيوب ينهض كل يوم، ويبدأ بتنظيف الجامع، يحمل روث البقر بيديه ويرميه في الحقول، وبعد ذلك يرش الماء ويصلّي.

قالت أمّ حسن إنّ الناس اعتقدوا أنّه يهوديّ في البداية. فهو يشبه العراقيين الذين انتشروا في الناحية وأقاموا مستوطنة نتف ها شعيرة. قالت إنّهم ظنّوه حارس زريبة البقر، ثمّ اكتشفوا الحقيقة، لأنّه كان، حين تجتمع أكثر من ثلاث نساء حول السدرة، يصعد إلى مئذنة الجامع، ويرفع الأذان. كثيرون وكثيرات حاولوا التكلّم معه، لكنّه لم يكن يحكي. كان وكأنّه من عالم آخر، كأنّه شبح، عيناه تغوران في وجهه المستطيل، وكتفاه تتساقطان، كأنّ جذعه لم يعد قادرًا على حملهما.

«هذا عزيز أيّوب»، قالت أمّ حسن، وأخبرتهم أنّ زوجته وأولاده يعيشون في مخيّم البرج الشمالي قرب صور، وأنّها رأت ابنه، صار رجلاً ما شاء اللّه، ويشتغل وكيلاً على بساتين اللّيمون في صور.

الناس في الجديدة لم تصدّق أنّ هذا الأيّوب هو ذاك العزيز أيّوب.

أيوبهم كان طيفًا، وعزيزنا كان رجلاً.

أيّوبهم كـان وليًـا، وعـزيزنا مــات حين تركـه ياسـين الطفل وهرب إلى الوادي.

عـاش أيّوب، أو عزيز أيّوب، حياته كطيف وحيد، في قرية لا يسكنها غير الأشبـاح. عـاش وحيدًا قرب الشـجرة والجامع، يأكل من أعشـاب الأرض، ومن بقايا المؤونة المتروكة في البيوت المهجورة، وينام في الجامع مع الأبقـار. وكانوا يرونه ماشيًا في الحقول، أو جالسًا تحت السدرة، أو مصلّيًا في الجامع، أو مؤذّنًا، وكانت ثيابه بيضـاء ناصعة، كأنّ كلّ هذه القذارات التي تحيط به، لم تترك أثرًا على ثيابه.

وأسماه الناس أيّوب الأبيض.

كانوا بعد إشعـال شموعهم تحت السدرة، يقتربون منه للتبرّك، فيهرب. ولم يستطع أحد لمسه. لا تعرف أمّ حسن كيف عرفوا اسمه. «لا يحكي ولا يجـاوب، إذن كيف عـرفـوا الاسم، واللّه يا ابني لا أعـرف، قـالـوا إنّه كـان نظيفًا كالملائكة، وكان ينظّف الجامع ويزداد بياضًا».

قالت أمّ حسن إنّها تعتقد أنّ نصف حكايات أيّوب غير صحيحة، وأنّها مجـرّد خيـال. فـالجامع لم يسـتخدم كـزريبة بقـر بشكل دائم. قـالت إنّهـا دخلت الجامع ورأت آثار الأبقار، وفهمت أنّ اليهود كانوا يستخدمونه من أجل زرب أبقارهم خلال أيّام الشتـاء، وإنّها لا تعتقد أنّهم كانوا يتركون أبقارهم مع أيّوب.

«أيّوب صـار مجنونًا»، قالت أمّ حسن، «كيف يمكن أن يعيش الإنسـان وحده في ذلك الخراب، ولا يفقد عقله. لو لم يفقد عقله لغادر الغابسية، وذهب إلى أيّة قرية أخرى، وعاش مع الناس».

«والحكاية ليست هنا يا ابني»، قـالت أمّ حسن، «الحكاية أنّ عزيز أيّوب صار وليًا بعد موته».

في أحـد الأيّام، جـاءت امـرأة إلى السـدرة تفي نذرها، فـرأته. رمت شموعـهـا، وركـضت إلى الجـديدة، وجـاء الناس. كـان أيّوب ميـتًـا تحت الشجرة المقدّسة، عنقه مربوط إلى حبل، والحبل في الأرض، كأنّ الرجل سقط من غصن الشجرة. على الطرف الأوّل من الحبل، عنق أيّوب الذي

صار رفيعًا وأسود، وعلى الطرف الآخر غصن من شجرة السدرة، انسلخ عن أمّه وسقط أرضًا.

«لا أحد يلمسه»، قال أحدهم. «الرجل انتحر، والانتحار نجاسة».

ابتعد الناس عن جثّة أيّوب الأبيض، وهم يوشوشون بأصواتهم المخنوقة. امرأة واحدة خرجت من الجمع، واقتربت من الجثّة، خلعت غطاء رأسها، وغطّت به وجه الرجل الميت، جثت حاسرة الرأس وبدأت تبكي.

«قتلوه»، قالت المرأة الجاثية، «قتلوا حارس السدرة، وهذه إشارة».

اقترب الشيخ عبد الأحد، شيخ جامع الجديدة من الجثّة، وقال إنّ أيوب لم ينتحر، «أيّوب شهيد يا جماعة».

أصدر الشيخ أوامره، فأدخلت الجثّة إلى الجامع، حيث غسلت وكفّنت، وتمّ دفنها إلى جانب شجرة السدرة. وبنوا له ضريحًا.

«والآن يا ابني، حين تذهب إلى الغابسيّة، سوف ترى الصبّير في كلّ مكان. لم يبق منّا سوى الصبر شاهدًا على صبرنا، وهناك إلى جانب الشجرة سوف ترى ضريح أيّوب. الشجرة كثيفة وجميلة وخضراء، يا عيني ما أجمل شجر السدر، هل رأيت شجرة سدر في حياتك؟ طبعًا لم ترَ، أنتم جيل لم ير شيئًا، هناك يا ابني ينام عزيز أيّوب، أو الولي أيّوب، الناس تزور ضريحه، يقدّمون له الهبات والنذور، وهو يستجيب لأدعيتهم. أنا رأيت الضريح. ضريح صغير له نافذة. مددت رأسي وصرخت له يا عزيز، هل تسمعني، واللّه أنت العزيز، كنت أفضل من شعب كامل، أنهيت حياتك على الشجرة التي حرستها، يا عزيز يا ولي اللّه، يا حبيب اللّه. هكذا يا ابني يدعون له، يأتون من كلّ القرى، يمدّون رؤوسهم داخل الشبّاك، ويصرخون يا أيّوب».

قالت أمّ حسن إنّها تعتقد أنّ عزيز أيّوب انتحر، «رجل وحيد، أصيب بالجنون، ماذا يفعل؟ لكنّه تحوّل وليًا، يحلفون باسمه وينتظرون بركاته، يا حيف عليك يا بني آدم».

أمّ حسن لم تصدّق أنّ عزيز أيّوب صار وليًا، لكنّها صارت في أيّامها الأخيرة، تحلف باسمه، وتطلب منّي أن أروي لها كيف وقفت مع أبي خلف الحمار، وكيف أمسك بذيل الحمار وقال له أن يقف وراءه. أروي المشهد

وتضحك، كيف يعني، هل اعتقد أنّ الحمار يشكّل متراسًا ويحمي من رصاصهم؟

كما ترى يا سيّدي، اختلطت الأمور في رأسي، كما اختلطت في رؤوسكم، أنا لا علاقة لي، ياسين أبي وقف وراءه. لكن، كما ترى، أصابتني عدوى أمّ حسن، وصرت أحكي عن هؤلاء النّاس كأنّي اعرفهم وأنا لا أعرفهم. لكن أيّوب صار وليًا. ماذا يفعل الأولياء كي يصيروا أولياء، لا شيء، لأنّ الناس تخترعهم، الناس يخترعون العجائب ويصدّقونها، لأنّهم في حاجة إليها. ولكن، رغم صحّة ما أقول، هذا لا يغيّر في الأمر شيئًا. فأيّوب وليّ شئنا أم أبينا.

عزيز كان حارس الجامع وحارس السدرة وحارس المقبرة، ورث مهنته عن أبيه الذي ورثها عن أبيه، الذي ورثها عن أبيه، الذي... إلى آخر الآباء... كان يملأ جرّته كلّ يوم، يغسل القبور، وينظّف الجامع، ويدور حول السدرة، وينام.

«رجل ينام في مقبرة». هكذا وصفته أمّ حسن.

وصار الرجل الذي ينام في المقبرة يشفي المرضى، ويساعد النساء على الحمل، ويعيد الغائبين، ويجد عرسانًا للبنات.

صار أيّوب اسمًا آخر للشجرة التي أُطلق عليها اسم شجرة أيّوب.

الآن فهمت لماذا اختلطت عليك الأمور يا أبي. سألتك عن السدرة، فجاوبتني أنّه لا وجود لشجرة سدرة في الغابسيّة، وأنّ أهل دير الأسد، كانوا يتحدّثون عن شجرة اسمها الأيوبيّة، وأنّك لا تعرف هذا النّوع من الشجر.

الشجرة يا أبي هي السدرة، وأيّوب حارسها. رجل شنق نفسه على أغصان شجرته، فأعلنته الشجرة وليًا.

«اسمع يا خليل»، قالت أمّ حسن، «ربّما شنق نفسه، ربّما ربط الحبل إلى عنقه، وصعد إلى غصن الشجرة كي يتخلّص من عذابه ووحدته، لكنّ الشجرة رحمته، انكسرت الشجرة كي لا تسمح له بارتكاب نجاسة الانتحار. الشجرة التي يحكمها وليّ أعلنته وليًا، فصار لها وليّان، وليّها الأوّل الذي لا نعرف اسمه، وأيّوب ابن قريتنا الذي اسمه عزيز. شيخ الجديدة له رأي آخر،

فهو يعتقد أنّ الإسرائيليين خنقوه، ثمّ ربطوا عنقه بالحبل كي يوحوا للناس بانتحاره. لماذا ينتحر؟ قال لي الشيخ حين سألته، رجل اختار أن يعيش وحده ويخدم اللّه، فقتلوه. قتلوه لأنّهم يريدون اقتلاع الشجرة، ولن نسمح لهم بذلك. سأعيّن حارسًا جديدًا على الشجرة والضريح».

شيخ الجديدة لم يعيّن حارسًا كما وعد أمّ حسن، وبقي الضريح وحيدًا، ولم تمتدّ يد إلى الشجرة المقدّسة.

هل تريدني أن أنذرك لأيّوب؟

أنا متأكّد أنّك تعرف عزيز أيّوب، ربّما كنت لا تحبّه لأنّه لم يقاتل. أنت قلت لي إنّك كنت تحتقر كلّ من لم يحمل سلاحًا، «البلد كانت عمالي تزحط وهمّ قاعدين». عزيز أيّوب لم يحمل سلاحًا، ولم يقاتل، وانظر أين صار وأين صرنا. هو الآن وليّ تقدّم له النذور، ونحن وحدنا.

أترك عزيز أيّوب في ضريحه، وتعال معي نبحث عن شاهينة. كنّا قد تركناها أمام الخيمة في دير القاسي. دخلت الخيمة ونامت حدّ أولادها، بعد رحلتها الطويلة إلى الغابسيّة، وقبل أن تغفو شمّت رائحة عرقها، خرجت من الخيمة وطلبت من منيرة مساعدتها على الاستحمام. تحمّمت، وقسمت ثروتها إلى نصفين، وعاشت من هذين النصفين أكثر من سنة.

من دير القاسي إلى بيت ليف، ومن بيت ليف إلى المنصورة، ومن المنصورة إلى قانا. روت شاهينة أنّ البشر كانوا كالجراد، «الطائرات الإسرائيليّة تحوم فوقنا، ونحن نتدافع في الخلاء بحثًا عن ملجأ، ولا ملجأ، حتّى وصلنا إلى المنصورة، قطعنا الحدود وامّحت الأصوات وانطفأ الرعب. ووجدنا أنفسنا في قانا، وهناك استأجرنا منزلاً من آل عطيّة. ياسين ذهب إلى المدرسة، وأنا والبنات قعدنا في البيت، وصرفت كلّ ثروتي. كانت قانا جميلة وهادئة مثل قريتنا في فلسطين».

لم تخبرني جدّتي الكثير عن قانا، لأنّها تعتقد أنّ هجرتها بدأت حين تمّ تجميعهم في مخيّمات مدينة صور.

«في قانا لم تكن هجرة ولا لجوءًا، كنّا ننتظر».

هل تعلم يا سيّدي ماذا كان يعني الانتظار وأمل العودة لهؤلاء الناس؟ طبعًا لا تعرف. لكن حكاية جواميس الخالصة أذهلتني. حين أخبرتني

جدتي الحكاية، اعتقدت أنّها تروي حكاية تشبه حكايات الأطفال التي يرويها الكبار للصغار كي لا يصدّقوها. والحكاية عن رجل يدعى أبو عارف، وهو من بدو الخالصة، وهم من عرب الهيب. جاء إلى قانا مع الذين أتوا، وأقام فيها مع زوجته وبناته الخمس. جاء ومعه جواميسه. سبع جاموسات ما شاء الله «كلّنا شربنا من حليبها. فالرجل كان يوزّع الحليب مجّانًا على كلّ الناس، ويرفض أن يبيع، قائلاً إنّ هذه الجواميس منذورة للخالصة، وبعد أن نعود نبيع ونشتري. وكان كريمًا وعنيدًا مثل كلّ البدو. حين أطلّ الربيع، وهو موسم التخصيب عند الجواميس، رأى الناس الرجل يقود قطيعه ويمضي جنوبًا. قالت زوجته إنّه مجنون، فهو يعتقد أنّ الجواميس لا يمكن تخصيبها إلاّ في الخالصة، وأنّه اتّفق مع ابن عمّ له على تسليمه الجواميس على الحدود اللّبنانيّة – الفلسطينيّة، على أن يستعيدها بعد أسبوعين. مضى الرجل إلى الحدود، ووقفت زوجته في ساحة قانا تودّعه، وتندبه وتندب الجواميس، والرجل ينهرها. ثمّ اختفت الجواميس عن الأنظار، ونسي الناس القصّة.

قالت جدّتي إنّ أبو عارف، عاد وحيدًا وذليلاً ومنكسرًا. عاد صامتًا لا يحكي، والدموع تلبسه، لم نجرؤ على سؤاله شيئًا. عاد وحيدًا دون جواميسه.

«خسرنا كلّ شيء»، قالت أمّ عارف.

ساق أبو عارف جواميسه إلى الخالصة، لأنّه كان مقتنعًا بأنّ الجواميس لا يمكن تخصيبها إلاّ في أرضها الطبيعيّة، وعند نقطة الحدود، بدأ إطلاق النّار. الجواميس تخرّ أرضًا، ودمها يلطّخ السماء، وأبو عارف يقف وسط المذبحة.

قال لزوجته إنّه وقف على الحدود يؤشّر لابن عمّه، حين بدأ إطلاق النّار.

قال إنّه ركض من جاموسة إلى جاموسة، قال إنّه الدم، قال إنّه رفع يديه إلى الأعلى صارخًا، لكنّها كانت تموت.

قال إنّ ابن عمّه الكلب لم يظهر، قال إنّه خلع كوفيّته البيضاء ورفعها إلى الأعلى علامة الاستسلام، ثمّ صار يركض بها من جاموسة إلى

جاموسة، محاولاً تضميد جراحاتها، فامتلأت الكوفيّة دمًا. قال إنّه رفع الكوفيّة الملوّثة وصرخ بهم ورجاهم لكنّهم لم يتوقّفوا: «امتلأت الأرض دمًا، وكانت الجواميس تموت، وكنت أبكي، لماذا لم يقتلوني معها. مسحت وجهي بكوفيّة الدم، وجلست بين الجواميس».

عاد الرجل إلى زوجته ذليلاً خائفًا، عاد دون جواميسه، حاملاً الكوفيّة الملوّثة، وعلامات اليأس.

هكذا كانت قانا يا سيّدي.

أبي ذهب إلى المدرسة، وجدّتي أخرجت ليراتها، وصرفتها ليرة وراء ليرة، ثمّ باعت أساورها الذهبيّة وعقدها، لكنّها لم تبع الخاتم الذي بقي في إصبعها حتّى وفاتها. أعتقد أنّ عمّتي منيرة أخذته. لا أدري. باعت كلّ شيء ثمّ بدأت تشتغل هي وبناتها في كسّارات الحجارة في القرية، ولم يعد الانتظار مجديًا. أقفلت الحدود على الناس، ودخل الناس المتاهة. جاء رجال الدرك اللّبناني، وقالوا إنّهم يحملون أمرًا بتجميع الفلسطينيين في مخيّم الرشيديّة، وبدأ العذاب. أبو عارف ساقوه مربوطًا تحت ضربات السياط، وكان يصرخ أنّه لا يستطيع الابتعاد عن جواميسه.

جمعوهم في ساحة القرية، وأركبوهم الشاحنات والقطارات، وأبعدوهم عن حدود بلادهم.

قالت جدّتي إنّ العذاب بدأ في المخيّم. «رمونا على شاطئ البحر، وكانت الدنيا شتاء، الرّيح تعصف من كلّ ناحية، ونحن في الظلام».

قالت إنّها لا تذكر ضوء النّهار. «في تلك الأيّام كان كلّ شيء أسود، حتّى المطر كان أسود يا ابني».

«غرقنا في الوحل، أبوك اللّه يرحمه كان يا حسرتي، طوله شبرين، وأنا كنت أخاف عليه، وأقول للبنات أن ينتبهن على ياسين، لأنّه سوف يغرق في الوحل، كنت أصرخ ولا أسمع؛ صوتي يطير مع الهواء. يا ربّ العالمين على تلك الأيّام».

كيف أروي لك يا أبي تلك الأيّام وأنا لا أعرفها، وأبي لم يخبرني. مات أبي قبل أن نصل أنا وإيّاه إلى العمر الذي يسرد فيه الأب حكايته لأبنائه.

كان اسمها أيّام الموز.

لم يجد الناس ملجأهم سوى في أوراق الموز الكبيرة الناشفة. كانوا يشترون عشر ورقات موز بخمسة قروش لبنانيّة، يسقفون بها خيامهم، ويمدّونها على الأرض.

«كانت أيّام الموز»، قالت شاهينة.

وشاهينة حين كانت تروي تلك الأيّام، كانت كأنّها لا تروي. كأنّ الزمن جمد ولم يمرّ. روت عن الباصات المكتظّة، وقباقيب الخشب التي كانوا يلبسونها اتّقاءً للرّمل الحامي، والخيم التي استوطنتها الريح، والمطر الذي اخترق العظام.

روت عن الانتقال من قانا، وكيف جاء الضابط اللّبناني محوطًا بالجنود، وأمر الفلسطينيين بالتجمّع في ساحة القرية، وضرب أبو عارف بحزامه الجلدي حتّى أغرقه في دمه.

«لم يكن غير ورق الموز»، قالت.

«فرشنا ورق الموز على الأرض، وغطّينا سقف الخيمة وجنباتها به، وعشنا مع العفونة. الأوراق تتعفّن، ونحن نتعفّن فوقها وتحتها».

ويومها اقتنعت شاهينة أن مدرسة ياسين انتهت، وعلى الفتى أن يشتغل.

«لا، ليس صحيحًا»، قالت، «رجوته أن لا يترك المدرسة، نعيش من المواد التموينيّة التي نحصل عليها من كرت الإعاشة». لكنّه رفض، وقرّر النزول إلى العمل، واشتغل في معمل التنك في ميناء الحصن، الذي قاده إلى السجن، وتلك حكاية أخرى.

روت شاهينة عن ثلاثة أشهر في المخيّم، قبل أن ننتقل إلى بيروت، ونقيم في منزل آل حمّود. أقامت هي وأولادها حوالى الشهرين في ذلك المنزل البيروتي العتيق، الذي تملكه عائلة من المجاهدين، قبل أن تنتقل إلى مخيّم شاتيلا.

التقت شاهينة بأحمد حمّود في مخيّم الرشيديّة، كان ضمن مجموعة من الفتيان أتوا من بيروت، لتوزيع الإعانات على اللاّجئين، وعندما عرف

أنّها ابنة المجاهد رباح العوض، انحنى على يدها وقبّلها. ثمّ عاد بعد يومين مع والده، وطلب من شاهينة المجيء إلى بيروت.

«رحنا إلى بيروت»، قالت المرأة، «وعشنا حوالى شهرين في منزلهم الجميل، لكنّ الإنسان ثقيل على الإنسان».

لم تروِ جدّتي عن حياتها في ذلك المنزل، ولا لماذا أحسّت أنّ الإنسان ثقيل على الإنسان، قالت إنّها أخذت أولادها وذهبت إلى مخيّم شاتيلا، وهناك نصبت خيمتها وعاشت. ومن الخيمة إلى غرفة حجر الباطون المسقوفة بالخيمة، إلى سقف الزنكو، إلى سقف الثورة. كان عليها الانتظار عشرين سنة، أي حتّى ١٩٦٨، كي تسقف بيتها بالباطون. فالسقف جاء مع الثورة والفدائيين. يومها فقط استطاعت المرأة أن تنام. قالت إنّها قبل سقف الباطون لم تكن تنام اللّيل، لأنّها كانت تشعر بنفسها في العراء.

أمي لم تخبرني شيئًا.

مضت داخل صمتها الذي لبسته كشرنقة. وحين أذكرها الآن، أراها كطيف يتلاشى.

كانت هنا ولم تكن. كأنّها لم تكن أمّي، كأنّها كانت امرأة غريبة تعيش معنا في البيت. واختفت تاركة الحكاية لجدّتي.

أنا لم أكن مهتمّاً بالحكاية، أنتَ تعتقد أنّني بحثت وسألت كي أجمع حكايات الغابسيّة، وهذا غير صحيح يا سيّدي، الحكايات جاءتني دون أن أسعى إليها، جدّتي كانت تُغرقني بالحكايات، كأنّها لم تكن تفعل شيئًا سوى الكلام. وأنا معها أتثاءب وأنام، والحكايات تطمرني. أشعر الآن، أنّني أزيح الحكايات من حولي كي أرى، فلا أرى سوى البقع، كأنّ حكايات تلك المرأة تشبه البقع الملوّنة التي تطفو حولي. لا أعرف قصّة كاملة، حتّى قصّة جواميس أبو عارف لا أعرفها. لماذا أطلق الإسرائيليّون النّار على الجواميس، ولم يقتلوا الرجل وتركوه وسط مذبحته؟

جدّتي قالت إنّ زوجته لم تصدّق. «اختفى شهرًا ثمّ عاد ليقول إنّهم قتلوا الجواميس! أبو عارف كذب علينا، لأنّه لم يجرؤ على قول حقيقته وحقيقة خُزيه. قال إنّه يريد تخصيب جواميسه في الخالصة، وإنّ ابن عمّه

سوف يلاقيه على الحدود ويأخذها منه ثمّ يعيدها بعد أسبوع. عال، لكنّه لم يعد بعد أسبوع أو بعد المذبحة، غاب شهرًا كاملاً، ثمّ عاد حاملاً كوفيّته، وقال إنّ اليهود قتلوها».

«أنا متأكّدة من أنّ اليهود لم يقتلوها»، قالت زوجته. «ليش يقتلوها، بياخدوها، وبعدين لشو قتلوا الجواميس وحدها وما قتلوه هو كمان، كانوا ريّحوني منه، لا، اليهود ما قتلوا الجواميس، أنا متأكّدة من أنّ ابن عمّه سرقها، أخذها واختفى، وانتظر الرجل شهرًا على الحدود، ثمّ يئس، ولم يعد أمامه سوى أن يخترع لنا قصّة مذبحة الجواميس. كلّ هبلنا مِنْحُطُّه باليهود، لا! اليهود ما قتلوها، بعدين لشو؟ كنّا بعناها وعشنا».

قالت جدّتي إنّ أمّ عارف ندبت جواميسها كأنّها تندب زوجها. تشتمه وتندبه، تبكي وتقوم وتقعد، والرجل مثل الأهبل، يحمل الكوفيّة ويريها للناس في قانا، والناس يصدّقونه، ويلعنون الأيّام، كلّهم صدّقوا إلاّ زوجته، وزوجته تعرفه أكثر من كلّ الناس.

«وأنت شو رأيك يا ابني»؟ سألتني جدّتي.

قلت لا أعرف، لأنّي لم أرَ الجواميس إلاّ في الأفلام المصريّة، ولم أكن أعرف أنّنا في فلسطين نربّي الجواميس.

«وهل كنّا نربّي الجواميس»؟ سألتها.

«نحن لا، نحن كنّا نربّي الغنم والبقر والدجاج. أهل الخالصة بدو، والبدو يربّون الجواميس، أمّا نحن فلا».

وبدأت تروي حكاية أبو عارف من جديد.

«أخبرتيني القصّة يا ستّي».

«وشو عليه، أخبرتك إيّاها، وسأخبرها من جديد، الحكي ماء الحنك، إذا لم نحكِ فماذا نفعل»؟

وبدأت الحكاية من أوّلها.

«رجل مسخّم وأهبل، ألم يكن من الأفضل ذبح الجواميس وأكلها. في تلك الأيّام اشتهينا قطعة اللّحمة، ولم نكن نأكل سوى المدردرة، عدس ورز وبصل مقلي».

«ولكنّي أحبّ المدردرة، يا ستّي».

هناك في قريتهم في فلسطين ماذا كانوا يأكلون. أنا متأكّد من أنّهم لم يكونوا يأكلون سوى المدردرة. لكن جدّتي تحمل جوابها تحت إبطها، كما يقولون، فالأشياء هناك كان لها طعم مختلف، «يكفي الزيت الحقيقي، زيت الزيتون وحدو يغذي ويقيت وله منافع كثيرة».

هل أخبرتك ماذا فعلت شاهينة بأبي ليلة عرسه؟

أجبرته على شرب مقدار فنجان قهوة من زيت الزيتون، قبل أن يدخل على أمّي. «أنا شرّبته الزيت، الزيت يقوّي الباه، بكرا يا ابني، إنشاللّه بكرا بعرسك بسقيك زيت متل ما سقيت أبوك، وتبقى تترحّم عليّ، وتقول شاهينة كانت تعرف».

أنا يا أبي لا أعرف حكاية شاهينة كي أرويها لك، فالحكايات تشبه بقع الزيت التي تطفو فوق ماء ذاكرتي. أحاول ربطها ببعضها بعضًا، لكنّها لا تترابط. فأنا لا أعلم الشيءالكثير عن عمّاتي، أستطيع أن أخبرك فقط عن زوج عمّتي الذي بدت صلعته وكأنّها مدهونة بزيت الزيتون. ولقد أخبرتك عنه ولا لزوم للتكرار، فأنا أكره تكرار الأشياء، لكنّها الأشياء تتكرّر إلى ما لا نهاية له.

تريد قصّة أبي مع اليهودي؟

سوف أخبرك إيّاها، ولكن لا تسأل عن التفاصيل، اسأل جدّتي غدًا، أي بعد عمر طويل، حين ستلتقيان هناك في دنيا الحقّ. اسألها فهي تعرف أكثر منّي وستروي لك حكاية الحاخام بشكل دقيق، كلّ ما أعرفه هو الخطوط العريضة، وسأحاول أن أرويها.

أعتذر.

أعود إليك معتذرًا. سوف أحمّمك الآن وأطعمك، وبعد ذلك أخبرك حكاية الحاخام اليهودي. قل لي إنّك راض، الحرارة هبطت، وعاد كلّ شيء إلى حالته الطبيعيّة، ولم يعد هناك سوى هذا الجرح الصغير في أسفل قدمك اليسرى.

قل لي، ما رأيك في فرشة الماء؟

سليم أسعد، اللّه يوجّه له الخير، إذا لم يفعل شيئًا في حياته سوى تدبير هذه الفرشة لنا، فإنّ أجره سوف يكون عظيمًا.

قلت لك إنّني أعتذر، لأنّني مضطر إلى الاهتمام بأمور أخرى. لقد رأيت مشهدًا محزنًا، ولكنّي بدل أن أبكي، غرقت في الضحك. شيء يشبه الدموع ينهمر في داخلي، وأنا أضحك، ولم أستطع حلّ القضيّة، إلاّ بالطريقة التي أرادها عبد الواحد الخطيب.

هل تعرف عبد الواحد؟

لا أظن، أنا لم أكن أعرفه، قبل أن يدخله ابنه المستشفى، قبل شهر. جاء إلى المستشفى، وكان في حالة صعبة، والآلام تضربه في كلّ مكان. فحصته كما فحصه الدكتور أمجد، واقترحت نقله إلى مستشفى الهمشري في مخيّم عين الحلوة، كي يخضع للتصوير بالأشعّة. فنحن هنا لا نملك شيئًا، حتّى مختبر فحص الدم أقفل. نحن أشبه بفندق؛ يأتي المرضى، وينامون ونهتمّ بهم في الحدود الدنيا. ومع ذلك نسمّي هذا المبنى المعلّق في الفراغ مستشفى.

جاء عبد الواحد وفحصته، وكان تشخيصي أنّه مصاب بسرطان الكبد. فكبده منتفخ ومتحجّر. لكنّ الدكتور أمجد عارضني كالعادة، وقال إنّ الرجل مصاب ببداية تشمّع في الكبد، ووصف له أدوية. نصحت الابن بأخذ والده إلى مستشفى الهمشري كي يتأكّد من وضعه. خرج الأب وابنه من المستشفى ومعهما وصفة أمجد ونصيحتي، ويبدو أنّهما بعد عدّة أيّام من العلاج بأدوية أمجد، قرّرا الذهاب إلى مستشفى الهمشري، وهناك أخضع الرجل للفحوص التي كشفت إصابته بسرطان الكبد. وعادا إليّ حاملين تقرير مستشفى الهمشري. وقف الأب أمامي وابنه إلى جانبه. لاشكّ أنّهما قرأ تقرير المستشفى، وعرفا أنّ الحالة ميؤوس منها، لأنّ التقرير ينتهي بتوصية تقول بأنّه لا لزوم لبقاء المريض في المستشفى، ومن الأفضل أخذه إلى بيته كي يرتاح، مع أدوية هي كناية عن مسكّنات قوية.

قرأت التقرير، وكانا يجلسان في مكتبي، وعيونهم معلّقة على شفتي. غريب أمر الناس، يعتقدون الطبيب ساحرًا، ماذا أستطيع أن أفعل لهما؟

«عليك أخذ الأدوية بانتظام»، قلت للرجل المريض.

نظرت إلى ابنه وقلت له إنّه يستطيع الاتصال بي، في حال حدوث أيّة تطوّرات.

تحرّك الابن كي يذهب، لكن عبد الواحد ظلّ مسمّرًا في مكانه، وسألني بشفتين مرتجفتين، «ألن تدخلني إلى المستشفى يا حكيم»؟

«لا»، قلت، «حالتك لا تستدعي ذلك».

كان يحكي، ويعضّ على شفته السفلى، والألم يعتصره، وعيناه تدمعان. لا أدري ما علاقة الكبد بالعينين، رأيت الموت على شكل عمش يغطّي العينين، وكان الرجل بوجهه الأحمر، وكرشه الصغيرة، وسنواته الستّين، لا يريد مغادرة المستشفى.

«لا أريد، لا، يعني سوف أموت»، قال.

«الأعمار بيد اللّه»، قلت له، ولم أخفِ خطورة حالته، لأنّي أعتقد أنّ من حقّ المريض أن يعرف.

«كم من الوقت بقي لي»؟

«لا أعرف»، قلت، «من المرجّح أن لا يكون كثيرًا».

«ولماذا لا تعالجونني هنا»؟

شرحت له أنّنا لا نملك هنا وسائل للعلاج، وأنّ حالته على أيّة حال، لا تحتاج إلى مستشفى.

قال إنّه لا يريد الذهاب إلى بيته، «أنتم مستشفى، ومن واجبكم معالجتي. ونظر إلى ابنه كالمستغيث، ووقف الابن صامتًا، ينظر إليّ بعينين متواطئتين، كأنّه... لا أريد القول إنّه كان سعيدًا بدنوّ أجل والده، لكنّه كان لا مباليًا.

وقفت معلنًا نهاية المعاينة، وهنا، ودون أيّة مقدّمات، تكلّم الابن وبدأ يشتمني، قال إنّه لن يأخذ والده، لأنّ واجب المستشفى هو معالجة الحالات المستعصية، وهدّدني وقال إنّه يحمّلني المسؤوليّة عن أيّ مكروه يصيب والده.

اضطررت إلى أن أشرح له من جديد حالتنا، وكيف أنّنا منذ الاجتياح

الإسرائيلي عام ٨٢، وما تلاه من مذابح وحصار ودمار، لم نعد نملك التجهيزات اللآزمة.

«ولماذا تسمّونه مستشفى»؟ صرخ الابن.

«معك حقّ»، قلت له، «هل تريد تغيير اسم المكان الآن؟! اذهب واعتنِ بوالدك».

أمسك الابن بأبيه وخرجا. وأنا نسيت الموضوع، حتّى إنّي لم أخبرك الحادثة.

وأمس حصلت المفاجأة. كنت في غرفتك حين سمعت صراخ زينب. خرجت لأجد عبد الواحد أمامي، جاء حافيًا ولابسًا بيجامته إلى المستشفى. رأيت الرّجل واقفًا، وزينب على الأرض، تلمّ تنورتها على فخذيها، وهو يحكي كلمات غير مفهومة.

قالت زينب إنّه دفشها، وحاول الصعود إلى الغرف.

من أين جاءته القوّة، وهو الآن في فم عزرائيل. لا أعرف. أعرف أنّه دخل المستشفى راكضًا، وبدأ يتسلّق الدرج إلى الغرف، حاولت زينب أن تسأله ماذا يريد، ركضت وراءه، فأجابها بكلمات غير مفهومة كأنّه يعوي، وحين حاولت إيقافه دفشها أرضًا.

رآني، فركض نحوي صائحًا، «دخيلك يا حكيم، ردّني إلى المستشفى».

أمسك بيدي يريد تقبيلها، وهو يقول إنّه لا يريد أن يموت.

«لا تعالجوني إذا شئتم»، قال، «لكنّي لا أريد أن أموت، في المستشفى لا يموت الناس، أرجوك يا دكتور، دخيل عرضك، لا ترسلني إلى الموت في البيت».

هنا يا سيّدي انهمر البكاء في داخلي، لكنّي بدأت أضحك. أنا أضحك، وزينب تنهض، والرجل يرتعش. قلت له أن يدخل، وطلبت من زينب أن تعدّ له غرفة، فطار من الفرح. رأيته يصعد الدرج خلف زينب ببيجامته البيضاء المتّسخة، وهو يطير فوق الدرجات، كما لو أنّني أنقذت حياته، أو وعدته بالجنّة.

صدقني يا سيّدي إذا قلت لك إنّني لم أرَ في حياتي فرحًا يعادل هذا. طبعًا لم يتغيّر شيء، ففرحه اختفى بعد أن استلقى على السرير وهاجمته

الأوجاع. جاءت زوجة ابنه لتبقى إلى جانبه. أعتقد أنّه سمعها تسألني متى سيموت. ثمّ بدأت تتأفّف عند سماعها جوابي عن ضرورة العناية به وإعطائه الحبوب المسكّنة بانتظام.

«بانتظام»! قالت بدهشة من لم يتوقّع سماع هذه الكلمة. «يعني يجب أن أبقى هنا بشكل دائم»؟ وبرمت يدها قرب وجهي.

«طبعًا»، قلت، «أنتم تعرفون، العناية بالمرضى هي من واجبات الأهل هنا».

«نأخذه إلى البيت»، قالت، «البيت أفضل».

حين سمع الرجل كلمة البيت بدأ يبكي.

قلت لا، «عبد الواحد يجب أن يبقى في المستشفى».

سمع جوابي، تراخى في استلقائه وفي أوجاعه، كأنّه ارتاح.

سوف يموت عبد الواحد يا أبي، وهو هارب من موته. سوف يموت دون أن يدري. هرب من النظر إلى موته بعينين مفتوحتين، فجاء إلى المستشفى كي يغمض عينيه قبل أن يموت.

لا يا سيّدي، أرجوك.

أرجوك لا تسئ فهمي، فأنا لم أقصد تشبيهه بك، أردت فقط الاعتذار منك لأنّي أهملتك قليلاً، وأنا لا أريد مقارنتك به أو بأبي. لا أعرف، هل رأى أبي موته على فوهة المسدّس، أم هل أغمض عينيه قبل أن يموت. قلت لك إنّي لا أعرف الكثير عن الرجل. أمّي قالت شيئًا، وجدّتي قالت شيئًا آخر، وأنا لست مهتمًا بالمسألة، فقط أريد أن أعرف لماذا هربت أمّي من البيت.

أنت لا تعرف شيئًا عن أمّي. إذن اسمع ما سأقوله، أمّي هربت لأنّها تزوّجت خطأ، والسبب هو اليهودي، هكذا روت جدّتي التي تحسّنت أحوالها بعد هروب أمّي، كأنّها ارتاحت، وكأنّ موت أبي المفجع لم يعد يشكّل عصب حياتها. ارتخت عضلاتها، واستدار وجهها بالحنان، وصارت لا تتوقّف عن شتم اليهودي، الذي كان السبب. كنت صغيرًا وعاجزًا عن ربط الأحداث، فلم أفهم من شتمها لليهودي أنّها تتكلّم عن شخص محدّد، ثمّ اكتشفت أنّ اليهودي كان سبب زواج أبي من نجوى أمّي.

قالت جدّتي إنّ أبي اضطر إلى العمل صغيرًا، شقيقاته تزوّجن، ومساعدات الأنروا لم تكن تكفي، عدا أنّ الولد لم يكن فالحًا في المدرسة، فبدأ العمل في صيدليّة شكري في باب إدريس، ثمّ وجد عملاً في معمل التنك في ميناء الحصن الذي كان يملكه رجلان يهوديّان هما أصلان درزيّة وسعيد لاوي. وهناك حصلت الفضيحة.

قالت جدّتي إنّهم اعتقلوا أبي، وزجّوه في السجن لأكثر من أسبوعين، «كان يا ولدي طفل، صحيح أنّه طول، وصار مثل الشباب، لكنّه كان طفلاً في السادسة عشرة، وكان يحبّ القراءة كثيرًا، لكنّه كان مشاغبًا في المدرسة، فترك الدراسة كي يشتغل. وفي الصيدليّة كان معاشه مضحكًا، سبع ليرات في الأسبوع، ويشتغل من الفجر إلى النجر، وأنا أطلب منه الصبر كي يتعلّم المصلحة».

الفتى الذي كان أبي، سحرته بيروت، وخاصّة مطعم أبو عفيف الذي يقع في ساحة البرج، قرب الصيدليّة التي كان يعمل فيها. يترك المخيّم في السادسة صباحًا، يمشي من شاتيلا إلى ساحة البرج حوالى نصف ساعة، فيصل إلى عمله في السادسة والنصف، ينظّف الصيدليّة قبل أن تبدأ باستقبال الزبائن في السابعة صباحًا.

قبل الصيدليّة، كان يمرّ أمام مطعم أبو عفيف الذي يقع على مفترق الشارع، ويشمّ رائحة الفول والبصل والزيت والنعناع، ويشعر بالجوع. يجلس على حافة الرصيف المقابل، يفرش زوّادته على الأرض، ويلتهم طعامه. كانت الزوّادة التي تعدّها أمّه تنقسم إلى نصفين، نصف للفطور ونصف للغداء. وكانت تتألّف من مناقيش الزعتر أو الدقّة، وثلاث بيضات مسلوقة، ورغيفَيْ خبز، ورأس بندورة. لكنّ الفتى الجالس على الرصيف أمام مطعم الفول، يشمّ روائح الطعام، ويرى الرجال الجالسين إلى طاولات صغيرة داخل المطعم يلتهمون طعامهم ويتنشّقون رائحته، كان يأكل زوّادته كلّها دفعة واحدة. يأكل الفطور والغداء كأنّه لا يشبع. وحين يعود إلى البيت في السابعة مساء، يكون الجوع قد افترسه من جديد، فيأكل عشاءه بسرعة، ويخرج إلى أزقّة المخيّم.

جدتي لم تكن تعرف أنّ ابنها يشتهي صحن الفول، وحين علمت أعدّت

له المفاجأة. أيقظته في الخامسة صباحًا، وكانت قد مدّت مائدة عامرة، وضعت فوقها الفول والنعناع والبصل والبندورة وإبريق الشاي. نهض الفتى ونظر إلى مائدة أمّه دون جوع أو شهيّة. أكل من أجلها، وقال لها إنّ الرّائحة هناك مختلفة، ثمّ حمل زوّادته ومضى. وحين عاد في المساء، اكتشفت جدّتي أنّه لم يمسّ الزوّادة، ولم يكن جائعًا. فاعترف لها أنّه أكل فولاً في المطعم. قال إنّه لم يستطع المقاومة. دخل مطعم أبو عفيف في العاشرة صباحًا، وأكل صحني فول، ودفع ليرة كاملة. قال إنّ معدته تؤلمه، وأنّه يشعر بالذنب. لكنّه قال إنّ فول المطعم أطيب من فول البيت، «وصار يا حبيبي يفطر فولاً عند أبو عفيف صباح كلّ يوم جمعة، وظلّ اللّه يرحمه مواظبًا على صحن الفول حتّى وفاته».

أبي لم يسحره صحن الفول، بل سحرته المدينة، رأى عالمًا جديدًا بلا أسماء، وصار يريد أن يعرف كلّ شيء. لا أعلم يا سيّدي الكثير عن ثقافته، غير أنّي رأيت مكتبته الموضوعة في صندوق في غرفته، ورأيت روايات جرجي زيدان عن تاريخ العرب، وكتب طه حسين، كما وجدت مجموعة من المجلاّت المصريّة المصفرّة الأوراق. جدّتي قالت إنّ أبي لو أكمل تعليمه لكان نابغة. كلّ الأمّهات هكذا، أليس كذلك، أنا الوحيد الذي لم تتوفّر له هذه الثقة بالنفس التي تعطيها الأمّهات.

لن أحدّثك عن أمّي الآن، بلى سأخبرك عن سبب زواج أبي منها. فأبي، بعد أن عمل حوالى سنة في صيدليّة شكري، انتقل إلى العمل في معمل التنك في ميناء الحصن.

كان الفتى يتسكّع في شوارع بيروت، بعد أن طرده الخواجة إميل شكري من الصيدليّة، بتهمة الوقاحة مع الزبائن، جدّتي قالت إنّ والدي نفى التهمة، وقال إنّه لم يكن يفرض البقشيش فرضًا، وصدّقته، لأنّه لم يكن يجلب في نهاية الأسبوع سوى ستّ ليرات ونصف، أي كامل مرتّبه، بعد أن يتمّ حسم ثمن صحن الفول الأسبوعي منه.

«ولكنّه كان يدخّن»، قلت لها، «من أين كان يجلب المال ليشتري الدخان».

«شو بيعرّفني»، قالت.

طرد أبي من عمله بسبب البقشيش، لأنّ الخواجة إميل قال إنّه لا

يجوز، «لا تستطيع أن تفرض شيئًا على الزبون، كيف يعني يعطيك ربع ليرة فتقول هذا لا يكفي، الزبون حرّ أن يعطي ما يشاء». لكن يبدو أنّ أبي أصرّ على حقوقه، وأهان أحد الزبائن، فتمّ طرده من العمل.

مشى الفتى المطرود من عمله متسكّعًا في شوارع المدينة، نزل من ساحة البرج في اتّجاه البحر، ثمّ توغّل نزولاً حتّى وصل إلى مطعم البحري، ومن هناك مشى في اتّجاه الزيتونة وفي محلّة ميناء الحصن، دخل محطّة بنزين كي يسأل إذا كانوا في حاجة إلى عمّال، فرأى يافطة صغيرة، عن حاجة معمل التنك إلى عمّال.

«دخلت المعمل من تحت القنطرة العتيقة التي كانت على مدخله، رأيت رجلاً يلبس طربوشًا وقمبازًا، سألته إذا كانوا في حاجة إلى عمّال، نظر إليّ من فوق إلى تحت، ثمّ سألني من أين أكون، قلت من فلسطين، فقام وأدخلني، وقال ابدأ».

وبسبب المعمل دخل أبي السجن.

كان معمل التنك الذي يملكه اليهوديّان أصلان درزيّة وسعيد لاوي، مشغلاً صغيرًا يعمل فيه حوالى عشرين فتى، معظمهم من المسيحيين اللبنانيين. وكان صاحبا المعمل مختلفين في كلّ شيء. أصلان درزيّة يحبّ العمّال ويعاشرهم، حتّى إنّه دعا أبي إلى بيته في وادي أبو جميل، بعد أن تعرف ياسين إلى ابنه سيمون، وصارا يذهبان سويًا إلى السينما. بينما كان سعيد لاوي الذي يلبس الثياب الإفرنجيّة متشدّدًا مع العمّال، يحسم لهم من أجورهم إذا تأخّر أحدهم عن العمل دقائق معدودة.

لن أخبرك عن ظروف العمل، لأنّي لا أعرفها، ما أعرفه هو أنّ أبي روى لأمّي أنّه كان يزور آل درزيّة في بيتهم في وادي أبو جميل، وأنّهم كانوا يطعمونه سندويشات مقانق. وأنّ سيمون اقترح عليه الانتقال للعمل معه في محل سمانة كان يديره قرب سوق السّمك، لكن كلّ شيء انتهى حين قامت الشرطة اللّبنانيّة بتطويق المعمل، واعتقال جميع الفتيان الذين كانوا يعملون فيه.

ففي ذلك العام، أي عام ١٩٥٣، قُتل في حيّ وادي أبو جميل الحاخام اليهودي يعقوب الفيّة طعنًا بالسكاكين في منزله. ويبدو أنّ رجال المباحث

استشبهوا أنّ العصابة التي ارتكبت الجريمة، تتألّف من عمّال يشتغلون في معمل التنك الذي يملكه درزيّة ولاوي، فتمّت مداهمة المعمل، واقتيد جميع الشبّان العاملين فيه إلى التحقيق.

«خرج أبوك من السجن إلى العرس»، قالت جدّتي.

انتشرت الحكاية في المخيّم، في البداية أوحت الصحف أنّ وجود ثلاثة فلسطينيين بين المعتقلين، ينجم عن كون الجريمة ثأريّة. وأنت تعلم كيف يتمّ إبراز أيّة جريمة يرتكبها فلسطيني في لبنان، فكيف إذا كان القتيل حاخامًا؟

لكنّ التحقيق كشف حقائق مذهلة. زوجة الحاخام فضحت كلّ شيء. اعترفت في التحقيق بأنّ زوجها كان قد ارتبط بعلاقة شاذّة مع سبعة شبّان، وأغرم باليوناني ديمتري الفترياديس ووثق به، وكان يستبقيه اللّيل في فراشه، رغم معارضة زوجته.

هنا، اتّجه التحقيق إلى الفترياديس الذي اعترف أمام مفوّض التحرّي العقيد طانيوس الطويل، بأنّه قام مع سبعة من رفاقه بطعن الحاخام بالسكاكين حتّى الموت. قال ديمتري إنّه أراد التخلّص من الحاخام الذي صار يتحكّم فيه، ويجبره على مضاجعة الفتى سليم حنينة أمامه، ولا يدفع المال الذي وعده به، وإنّه كان يكره الحاخام، لكنّه كان يضاجعه وينصاع لرغباته طمعًا بالمال.

بكى الفترياديس في المحكمة، وحلف أنّه بريء، وقال إنّه قتل الحاخام دون وعي منه. لكنّ القاضي اقتنع بوجهة نظر المدّعي العام، الذي أثبت أنّ الجريمة كانت مدبّرة، واشترك فيها سبعة فتيان بزعامة ديمتري.

طبعًا، أُطلق سراح والدي قبل المحاكمة بوقت طويل. لكن خبر اللّواط انتشر في المخيّم، ولم تجد جدّتي حلاً سوى في تزويج ابنها. ذهبت لزيارة ابنتها في عين الحلوة، قبل خروج أبي من السجن بيوم واحد، وهناك التقت نجوى ووالدها، وفاتحت الوالد بالموضوع. لم تقل له إنّ العريس في السجن بسبب جريمة جنسيّة، وهو لم يسأل عن عمل العريس، تأكّد فقط من أنّه يملك أرضًا في الغابسيّة. ففي تلك الأيّام لم يكن الناس قد صدّقوا أنّ الأرض ضاعت.

وخرج أبي من السجن إلى العرس.

كان بالطّبع قد فقد عمله، فأصلان درزيّة أغلق معمله بعد الفضيحة، وانصرف إلى الصلاة، وبقي أبي يزوره في بيته، ويأكل عندهم المقانق، حتّى إنّه زار أبي في المخيّم بعد ولادة شقيقتي. لكنّه هاجر إلى إسرائيل بعد أحداث ١٩٥٨.

زوجة الحاخام صارت الحكاية.

جاءت إلى قاعة المحكمة، وبصقت في وجه ديمتري، الذي كان يقف مكبّلاً في قفص الاتهام، ولعنت زوجها الذي لوّث سمعة أبناء إسرائيل، وقالت إنّ بيروت ستحترق مثل سدوم. قالت إنّها لا تعلم ماذا سيحلّ بها، «أنا وحيدة ولا أولاد لي، ولم أعد أستطيع الإقامة في بيتي المليء برائحة الخطيئة». قالت إنّها لا تطلب شيئًا لنفسها، لكنّها ضائعة. «أنا ضائعة يا سيّدي القاضي، فأنا لا أملك القدرة على البقاء في بيروت، ولا الشجاعة على الهجرة إلى أرض إسرائيل. ماذا أقول لهم هناك، هل أقول أنا أرملة الحاخام الذي قُتل في سرير الزنى واللّواط».

يومها يا سيّدي أمر القاضي بطردها من قاعة المحكمة. ففي تلك الأيّام لم يكن مسموحًا التلفّظ باسم دولة إسرائيل، وأتت هذه المرأة لتقول إنّ بيروت ستتحوّل إلى سدوم، وإنّها لا تجرؤ على الهجرة إلى أرض آبائها وأجدادها، فمصيرها التحوّل عمودًا من الملح. «أنا عمود الملح يا حضرة القاضي الذي يعلن حريق مدينتكم». قالت المرأة قبل أن يجرّها رجال الشرطة إلى خارج قاعة المحكمة.

والنتيجة أنّ أبي تزوّج الفتاة الطيراويّة.

كانت نجوى هاني فيّاض في الرابعة عشرة، حين تزوّجت ياسين. تركها والدها بين يدي جدّتي. أخذ المهر ومضى، ودخلت الفتاة بيتنا زوجة لياسين الذي تدبّر لنفسه عملاً في مصنع التنك الذي يملكه الفلسطيني بديع بولس، والذي كان اسمه شركة المعادن الخفيفة، في منطقة بير العبد.

لا أعرف شيئًا عن عائلة أمّي. قالت جدّتي إنّها كانت يتيمة الأمّ، وإنّ أباها وافق على زواجها بسرعة، لأنّه كان قد ارتبط بعمل في الكويت، ولا يريد أخذ ابنته إلى هناك، مع زوجته الثانية وأولادها.

«تمّ الزواج كما تتمّ كلّ الزيجات، حفلة وزفّة وزغاريد وكلّ شيء. لكنّ

الفتاة بقيت كالغريبة بيننا، وأبوك صار مختلفًا بعد زواجه. كلّ الحقّ على الطيراويّة، صار يعود مساء من عمله، يغلق باب غرفته، ويقرأ. وهي تجلس معي في الدار لا تفعل شيئًا. واللّه لم تكن تفعل شيئًا، كنت أطبخ وأنفخ وأغسل وأجلي وكلّ شيء. حتّى أنت يا ابني. أنا كنت أهتمّ بك وأبوك لا يبالي. وصار يغيب عن البيت كثيرًا، ولا يعود إلاّ في آخر اللّيل. يبدو أنّه ترك عمله في شركة المعادن، أعتقد أنّ عدنان أبو عودة لعب في عقله. ثمّ أنجبت نجوى ابنتها، ومات ياسين، ولحقته ابنته».

أخبرني أنت عن تلك الأيّام. جدّتي لا تعرف. أخبرني عن البداية، وكيف شكّلتم المجموعات الفدائيّة الأولى، ولماذا مات أبي واختفيت أنت، وغادر عدنان المخيّم.

أخبرني لماذا اختفت نجوى.

لم يكن أحد يعرف عنوانها في الأردن، كأنّها ذابت. جدّتي قالت إنّها ذهبت إلى أهلها في عمّان. لكن لا أهل لها. أبوها في الكويت، إذن أين هي؟ لم يشغل هذا الموضوع بالي كثيرًا، فأنا كنت طفلاً حين اختفت، وحين كبرت حقدت عليها، ولم أحفل بحكايتها. ثمّ التقيت سميح وزوجته سامية. أنت لم تلتقِ سميح بركة، فأنت تكره المثقّفين، خاصة هؤلاء الذين يأتون لزيارة المقاتلين، ينظّرون ويتفلسفون ثمّ يديرون ظهورهم عائدين إلى بيوتهم المريحة.

التقيت به أوّل مرّة في عام ١٩٧٣، حين اشتعلت الاشتباكات بين الجيش والمخيّمات. جاء إلى المخيّم مع مجموعة من العاملين في مركز الأبحاث الفلسطيني، تجوّلوا في المخيّم، ثمّ عاد الجميع إلى بيوتهم ما عداه. سميح بقي هنا أكثر من عشرة أيّام، وشاركنا الكمائن، وصار صديقي. أحببته كثيرًا، كان يخفي في وجهه عذابات كبيرة. كان وجهه الأسمر العريض محفورًا بخطوط الألم. أخبرني أنّه ينتظر سامية التي ستأتي من أميركا كي يتزوّجا في بيروت. قال إنّه أحبّها في رام اللّه، ثمّ دخل السجن، وخلال سجنه اضطرّت إلى الذهاب مع أهلها الذين هاجروا إلى ديترويت، حيث يقيم أكبر تجمّع لأهالي مدينة رام اللّه في العالم.

سألته لماذا لا يسافر إليها ويكمل تعليمه في أميركا ويتزوّجها هناك، فقال إنّه مشغول هنا، لأنّه يريد تحرير فلسطين. أخبرني عن أيّام سجنه الطويلة في الخليل، وعن حلمه بأن يسكن مع سامية في بيته الحجري الذي ورثه عن والده في رام اللّه. جاءت سامية وتزوّجته، وهي تعيش الآن في البيت الحجري في رام اللّه، بينما ينام سميح في قبره.

قال سميح إنّه دخل السجن للمرّة الأولى في تشرين الأول عام ١٩٦٧.

كان يوزّع منشورًا في المدينة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي، عندما اعتقل. «وفي السجن»، قال، «علّمني الضابط الإسرائيلي الدرس الأوّل في حياتي. حقّق معي وهو يحمل المنشور في يده، وطرح عليّ الأسئلة. في البداية نفيت، قلت إنّني كنت أقرأ المنشور ولا علاقة لي بتوزيعه، والحقيقة أنّني كاتب المنشور الذي يدعو إلى إضراب المدارس ضدّ الاحتلال. نظر إليّ في عيني وقال إنّني جبان. قال إنّه لو كان مكاني، ولو كانت بلاده محتلّة، لما قام بتوزيع المناشير، لأنّه عيب، كان عليك أن تزرع القنابل بدل توزيع هذه الأوراق. اعترفت أنّني كاتب المنشور، فزاد احتقاره لي، وقال إنّنا نستحقّ الهزيمة. قضيت الحكم بالسجن لمدّة سنة في رام اللّه، وبعد خروجي بدأنا المقاومة الحقيقيّة. بدأنا بتنظيم شبكة لفتح، لكنّهم اعتقلونا قبل قيامنا بأيّة عمليّة. قبضوا على أحد أعضاء الشبكة الذي ذهب إلى الأردن، وعاد متسلّلاً ومعه عبوات ناسفة، وفي السجن الثاني، فهمت الدّرس جيّدًا».

قال سميح إنّه كان في سجن الخليل.

«كنّا في شهر شباط، وكان البرد والثلج. اقتادوني إلى المحقّق الذي أمرني بخلع ملابسي. كان المحقّق محوطًا بأربعة رجال مفتولي العضلات. «اخلع ملابسك». خلعت القميص وتوقّفت، «أكمل»، قال، خلعت البروتيل، «البنطلون» قال، تردّدت، لكن لكمة على وجهي أنزلت الدم من أنفي جعلتني أقتنع. خلعت بنطلوني وحذائي، ووقفت عاريًا إلاّ من سروالي الداخلي. أمرهم المحقّق باقتيادي عبر إشارة من يده، خرجنا من باب السجن، ومشينا إلى تلّة مرتفعة، وكان الثلج. كنت متأكّدًا من أنّهم سيقتلونني ويرمونني في الثلج طعامًا للطيور الكاسرة. وفي أعلى التلّة بدأ الضرب. ضربوني في كلّ مكان من جسمي، استخدموا أيديهم وأرجلهم وأحزمتهم

الجلديّة. أسقطوني أرضًا ورفسوني ودعسوا على وجهي، وح
بقعًا ثلجيّة حمراء. في البداية صرخت من الألم، وسمعت المح
جبان. تذكّرت المحقّق الأوّل، والاحتقار في عينيه، وهو يرمي
المنشور السياسي، فأصابني البكم. كانوا يضربونني، وكنت
وأنيني. أتدحرج عاريًا على الثلج وجلدي ينسلخ عنّي. توقّف الض
زمن بدا لي طويلاً لا ينتهي، واقتادوني إلى السجن. وأمام ب
المحقّق حيث أمروني بالدخول لأخذ ثيابي، فهمت كلّ شيء».

قال سميح إنّه فهم.

وقف الرجل العاري المدمّى أمام الباب، وسمع أمر الدخول
ملابسه، قبل إعادته إلى القاووش. التفت الرّجل العاري إل
وأمسك بكمّ معطفه السميك، وقال له، «أرجوك يا سيّدي لا تذهب

التفت المحقّق بقرف، حاول سحب ذراعه، لكن سميح شدّ ع
وقال «أرجوك يا سيّدي، أريد أن أقول لك شيئًا».

«بسرعة، بسرعة»، قال المحقّق.

بلع سميح دمه وريقه وفتاتًا عرف في ما بعد أنّه فتات أسن
التي انكسرت وقال، «اسمع يا سيّدي، اسمعني جيّدًا، أنا
ضربتموني ودعستموني، ولم أقل آخ واحدة. غدًا، عندما ستق
أرجوك لا تقل آخ، لأنّني لا أحبّ الشفقة».

لا يعرف سميح ماذا جرى بعد أن قال ما قاله، لأنّه اس
إغماءته في زنزانة انفراديّة، وحين خرج من الانفرادي إلى الق
يروِ للسجناء إلاّ جزءًا من حكايته. روى عن الضرب في التلّة، ل
لهم ماذا جرى بعد ذلك في غرفة المحقّق. قال إنّ كلامه يجب أن
بينه وبين المحقّق.

«ما رأيك»؟ سألني.

«هل تعرف اسم المحقّق»؟ سألته.

«لا»، أجابني.

«إذن كيف»؟، قلت.

«أي واحد منهم»، قال.

«وإذا قال آخ»؟ سألت.

«أقتله».

سميح مات في تونس، وزوجته عادت إلى رام اللّه. علمت أ
بيته الصغير في المنزه السادس. قيل إنّه مات على أثر صدم
الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. لم أصدّق هذا السبب، يع
الذين ماتوا قتلاً وذبحًا، يأتينا من يموت بسبب العواطف! هذا
سامية قالت في رسالتها إنّ مرض القلب مزمن في عائلة س
أخويه ماتا بالذبحة القلبيّة، قبل أن يصلا إلى الخمسين.

قال سميح إنّ لا شيء، لا الثلج ولا الزنزانة الانفراديّة،
بالخوف، كما يوم ضربه السجناء. «في الزنزانة فقدت الزمن
ضربني السجناء، ففقدت روحي».

قال إنّه فتح عينيه ليجد نفسه في الظلام.

كانت الزنزانة صغيرة جدًا، والظلام في كلّ زاوية، حاو
فاصطدم رأسه بالسّقف، جلس وبدأ يشعر بالاختناق.

«الهواء لم يكن يكفي»، قال. وكاد يجنّ خوفًا على الهو
حيطان الزنزانة بقبضتيه، واكتشف أنّه لا يستطيع تحديد م
فالحيطان مصفّحة بما يشبه الحديد، والباب ضائع وسط الحدي

قال إنّه أصيب بالاختناق، وبدأ يفتح فمه من أجل التقاط اله

قال إنّه شعر في داخله عطشًا رهيبًا. هذا هو العطش
العطش هو نقصان الهواء.

قال إنّ المسألة كانت تحتاج إلى وقت كي يتأقلم مع نقصان
وبعد أن قام بعمليّة تقنين دقيقة لتنفّسه، استرخى قليلاً، ورأى ال

«هل تعلم معنى الظلام»؟ قال. «لا أحد يعرف معنى عتمة ال
لا توصف، فراغ ودبق يعربش على جسمك، ويغلق عينيك ومسا

لم يعد يعرف، قال إنّه لم يعد يعرف من هو، ولا أين هو. ض
وضاع الرجل. «ومن أجل استعادة إحساسي بالزمن، ب

اكتشفتها، قلت، فتحت أصابعي العشرة وبدأت أعدّ، ستّين رقمًا فأصل إلى دقيقة، أعدّ ستين دقيقة فأصل إلى ساعة. لكنّي بدأت أضيع، هل وصلت إلى ساعتين أو أكثر؟ أعود إلى البداية وأعد من جديد. أنا أعدّ والأعداد تضيع، ولم أعد قادرًا على الاستمرار، فدخلت في الصمت».

قال إنّه انتظر طلوع النهار، كي يأتوه بالماء والطعام.

قال إنّ الضوء لم يطلع، «ولم أكن أملك ساعة ولا شيء، كنت وحدي في الظلام ومع الظلام».

قال إنّه لطم رأسه بالحيطان. قال إن دمه سال، قال إنّه صرخ حتّى بُحَّ صوته، قال إنّه لم يكن يريد منهم سوى شيء واحد، أن يقولوا له في أيّ يوم هو، وكم الساعة.

كان سميح يروي، والخوف يتسلّل إلى كلماته، يرتجف ويقول، «هذا هو العذاب الأقصى، أن يُحرم الإنسان من الوقت، الأبديّة هي العذاب».

سألته ماذا شعر حين أخرجوه من العتمة، صمت طويلاً قبل أن يقول إنّه شعر بجمال الكهولة. «السجين لا يرى نفسه في المرآة، لا مرآة في السجن، مرآته الوحيدة عيون السجناء». وإنّه ارتاح حين رأى صورته في عيون السجناء المصابين بالذعر من اكتهاله المفاجئ.

«والضّرب»؟ سألته.

«تلك كانت غلطتي»، قال.

هل تعلم يا سيّدي ماذا فعل سميح حين خرج من زنزانته الانفراديّة؟ التحق بحلقة السجناء المتصوّفين. قال إنّه صار يشاركهم صلواتهم وحلقات ذكرهم، بل وصار الأقرب إلى شيخهم حميد الخليلي، إلى أن اكتشفوا أنّه ليس مسلمًا.

«حين اكتشف الشيخ حميد أنّني مسيحي، أحسست بالرّعب»، قال سميح. «في التلّة لم أخف، كنت أعتقد أنّني سأموت فوق الثلج، فاستسلمت للثلج، وسكن الثلج عينيّ وأدخلني بياض الموت. أمّا مع الشيخ، فتلك مسألة أخرى، أعتقد أنّ أحد العملاء أخبر الشيخ بأنّني مسيحي، قال إنّه رأى أمّي مع الزائرين، وكانت تضع صليبًا في عنقها».

«هل صحيح»؟ سأل الشيخ.

لم يدر سميح ماذا يجاوب، لكنّه لم يجد أمامه سوى الاعتراف. وهجموا عليه. لكنّ الشيخ رفع يده إلى الأعلى، فجمدوا في أماكنهم، ودنا منه.

«قلت نعم، لم أجد كلمات تبرّر موقفي، كيف أشرح له، كيف أقول له إنّني بعد ليل الزنزانة الانفراديّة، شعرت بحاجة إلى أن أكون في وسطهم».

سألني إذا كنت أضحك عليهم.

فقلت لا، لا واللّه.

وسرت الهمهمة وسط غضب المريدين الذي كان يتشكّل حولي. وتمنّيت لو أموت.

سألني الشيخ، وحاولت أن أشرح له، وكان كلامي سببًا لموتي.

قلت إنّني مسيحي، ولكنّي لست، فأنا مؤمن باللّه، وأحبّ المسيح، ولكنّي.

«شيوعي يعني»، قال الشيخ.

قلت إنّني عضو في حركة فتح.

«يعني ملحد»، قال الشيخ.

هنا يا سيّدي ارتكب سميح الخطأ الذي كاد أن يكلّفه حياته. قال إنّه ينظر إلى الدين بوصفه تعبيرًا اجتماعيًا، وأدبًا. قال إنّه يحب الأدب العربي، ويحفظ القرآن والشعر الجاهلي، وإنّه أراد القيام بتجربة معهم.

«لكنّك لم تقل لنا ذلك من البداية»، قال الشيخ.

رفع الشيخ يده إلى الأعلى، وسأل «ماذا تحكمون أيّها الأخوة»، لكنّ الأخوة بدل أن يقترحوا حكمًا، هجموا. الشيخ وجد طريقة للانسحاب، وسقط سميح تحت ضرباتهم وصيحاتهم.

«في الثلج، حين رأيت الموت لم أفتح فمي»، قال سميح، «أمّا هنا، فصرخت وبكيت وخفت، وكانت الدوائر تلتفّ حولي، ولم أفتح عينيّ إلاّ في زنزانة انفراديّة، ثمّ اقتادوني إلى قاووش جديد، وهناك التقيت الشيخ حميد، وصرنا أصدقاء».

«شرحت له، وشرح لي، كان يريد هدايتي إلى الإسلام، وكنت أريد

إقناعه بهذا المزيج من العلمانيّة والإنسانويّة والماركسيّة الذي كنت أؤمن به، وافترقنا، لا هو هداني ولا أنا أقنعته، لكنّه فهم أنّني لم أكن أضحك عليهم، وأنّني أحبّ الطقوس الدينيّة».

كان سميح مثقّفًا، نشر كتابين، والعديد من المقالات، وكان صاحب تحليل خاصّ لإسرائيل، جوهره أنّ إسرائيل سوف تنهار من الداخل، وأنّ لحظة التحرير قريبة. وكان يضرب لنا المواعيد. كان مقتنعًا أنّ إسرائيل سوف تنهار في نهاية الثمانينات نتيجة تناقضاتها الداخليّة. وكان من الصعب مناقشته، لأنّه كان يعرف كلّ شيء. يقرأ العبريّة والإنكليزيّة، ويحمل في رأسه كمّيّة مذهلة من الأرقام، ويرميها أمامك، فلا تستطيع سوى الاقتناع. طبعًا لم تتحقق نبوءاته. الشيء الوحيد الذي تحقّق منها هو نقل رفاته إلى رام اللّه، ودفنه في مقبرة العائلة. وسامية هي التي دبّرت كلّ شيء.

أخبرتك عن سميح كي أخبرك عن سامية. كانت سامية امرأة عاديّة، أو هكذا أوحت لنا في بيروت. لا تفعل شيئًا سوى انتظار زوجها. وخلال سنتين أنجبت ولدين وطبخت كثيرًا. كنت حين أزورهم في بيتهم، أراها جالسة على طرف الكنباية كأنّها على استعداد للنهوض في أيّة لحظة. تجلس معنا كأنّها ليست معنا. قيل لي إنّها تغيّرت كثيرًا بعد وفاته. دبّرت أمر عودتها مع أولادها إلى رام اللّه لأنّها تحمل الجنسيّة الأميركيّة، عملت أمينة لمكتبة بيرزيت، وصارت مسؤولة تنظيم رام اللّه خلال الانتفاضة. كأنّ موته حرّرها من الانتظار، ودفعها لصناعة حياتها من جديد.

سامية خلخلت حياتي، عبر رسالتها الغامضة.

كنت في شاتيلا، خلال الحصار الأوّل، حين انضمّ إلينا شاب يدعى نديم الجمل، كان صديقًا لقائد المخيّم علي أبو طوق.

جاء نديم الجمل، وقال إنّه يحمل لي رسالة من امرأة تدعى سامية بركة، قال إنّه التقاها مصادفة في عمّان، وكانت عائدة من مؤتمر نسائي في استوكهولم، وحين عرفت أنّه سيلتقي بي في بيروت، استمهلته حتّى صباح اليوم التالي، وجاءته برسالة لي.

قلت لك إنّني أعتقد أنّ سامية لم تكن تسمعني، لأنّها كانت تجلس معنا في بيتهم كأنّها ليست معنا. زوجها يسأل وأنا أجاوب، وهي لا تحكي. كان

سميح لا يتوقّف عن ترديد حلمه بكتابة كتاب لا أوّل له ولا آخر، ملحمة كان يقول، ملحمة الشعب الفلسطيني، وسيبدأه برواية تفاصيل الطرد الكبير عام ١٩٤٨. قال إنّنا لا نعرف تاريخنا، وإنّه يجب جمع حكايات كلّ قرية، كي تبقى القرى حيّة في ذاكرتنا. كان سميح يحدّثني عن نظريّاته وأحلامه، ولم أكن أملك شيئًا أرويه له. بلى، أخبرته عن قريتنا، وحكايات جدّتي، وموت أبي واختفاء أمّي. معه، أو بسبب أسئلته، تعرّفت إلى حكايات أهلي، وربطت الأحداث، ورسمت صورة الغابسيّة التي لا أعرفها. صرت من كثرة ما أعدت له الحكاية، كأنّني أعرف القرية بيتًا بيتًا، وكانت سامية تجلس صامتة.

فتحت رسالة سامية وقرأتها.

كتبت في البداية عن الشوق إلى بيروت، ثمّ أخبرتني عن موت سميح، وظروف الحياة الصعبة في رام اللّه. لم أعد أملك الرسالة كي أقرأها لك، فلقد قمنا بتمزيق كلّ أوراقنا خوفًا من سقوط المخيّم. يا ليتني لم أمزّقها، فهي البرهان الوحيد على أنّ أمّي لم تكن شبحًا أو حكاية ألّفتها جدّتي. أمّي امرأة حقيقيّة، وليست طيفًا ينتمي إلى عالم الطفولة الغامض. مزّقت الرسالة تنفيذًا للأوامر. ففي الحصار، جمعنا علي أبو طوق وأمرنا بتمزيق كلّ شيء. «لا أريد وثائق تسقط في أيديهم»، قال. وأنا مزّقت الرسالة، لكن قبل تمزيقها نسخت رقم الهاتف الذي كتبته سامية في أسفل الرسالة. واللّه جرّبت هذا الرّقم عشرات المرّات، وفي كلّ مرّة كان يأتيني صوت المسجّل الإلكتروني ليقول إنّ الرّقم الذي أطلبه ليس في الخدمة. هل نسخت الرقم بشكل خاطئ؟ أم أنّ الأرقام امّحت أو تشوّهت في تلك الورقة الصغيرة التي وضعتها في جيب بنطلوني الخلفي؟

كتبت سامية في رسالتها أنّها التقت أمّي نجوى، وأنّ المرأة بكت كثيرًا حين أخبرتها سامية أنّها تعرفني، وأنّها قبّلتها وشمّتها. كتبت سامية أنّها التقت أمّي في مستشفى رام اللّه، وكانت محجّبة وتعمل ممرّضة.

كانت سامية تنتظر ابنها خارج غرفة العمليّات، حيث كانت تُجرى له عمليّة الزائدة الدوديّة، فاقتربت منها الممرّضة السمراء المحجّبة بالبياض، وطمأنتها.

«أمّك جميلة يا دكتور خليل». يا ليت الرسالة معي، لكنّها ضاعت، ولم أعد أستطيع الاتصال بسامية لأنّ رقم الهاتف امّحى أو تشوّه.

أمّي هناك، وممرّضة مثلي! كتبت سامية أنّها عرفتها لأنّها ممرّضة، «الممرّضون يتشابهون وهي تشبهك كثيرًا». وأنا حائر. ماذا لو وجدت أمّي؟ أنا لا أريدها الآن، ولا أحبّها، ولكن لماذا؟ لماذا يأتي شبحها ليسكن هذه الغرفة معي؟ جدّتي لم تصفها لي، وأنا لا أذكر سوى ذراعها السمراء، كنت أضع شفتي على ذراعها وأقبّلها. لم يبق من تلك المرأة سوى صورة وجه يعربش على الذراع، وعينين تلتصقان بها، وفم يداعب السمرة الطريّة الشاسعة.

جاءتني رسالة سامية بهذه الصورة الجديدة، لامرأة محجّبة تعمل ممرّضة في رام الله. خرجت أمّي من الرسالة شبيهة بكلّ النساء، وحين تشبه أمّك النساء، لا تعود أمّك. ما هذه العلاقة الغريبة القائمة على الوهم؟ لكن كلّ شيء هكذا. ألم تكن شمس وهمًا؟ مشكلتي مع شمس هي عدم موت وهمها. فحين قتلوها كما قتلوها، لم يقتلوا صورتها. أنا لم أخبرك بما عرفته بعد ذلك. فحين وقعت شمس في الكمين، وبدأ إطلاق النّار، فتحت باب سيّارتها وهمّت بالخروج، تدلّى نصفها الأعلى من الباب المفتوح، بينما بقي نصفها الأسفل داخل السيّارة. وكانت كميّة الطلقات التي انهمرت عليها هائلة. أكثر من ستّين رشاشًا أطلقت النار دفعة واحدة. فتمزّق جسدها وانتشر. كانت قطعها الصغيرة تطير في الهواء، وترتطم بالأشجار والبيوت. وبعد أن انتهوا من جريمتهم، قاموا بلمّ الأشلاء التي وضعوها في كيسين من النايلون، ودفنوها.

شمس لم تمت بالنسبة إليّ، فحين يتمزّق الجسد يختفي الموت. يا ليتها ماتت، لكنّها لم. وأنا عاجز عن حبّ امرأة أخرى. لا، لن أقول إنّني لا أخونها، لأنّ لا أحد لا يخون، لكنّي لا أستطيع. فالمشكلة يا سيّدي ليست خياناتي، بل شعوري الدائم بالخيانة. يا ليتها ماتت. لا، لا يمكن مقارنة وضعي بوضعك. فأنت متّ حين ماتت امرأتك، أمّا أنا، فامرأتي لم تكن امرأتي، كانت امرأة رجل آخر، وحين ماتت احتلّتني رائحتها. حين تأتي صورتها يسكنني ذلك الشعور بأنّ قفصي الصدري يحترق. أنهض من

سريري وأقف في العتمة وأشربها. أشرب العتمة وأفرك صدري بها، وتستولي عليّ الذكريات.

كنت أحدّثك عن أمّي، ما علاقة شمس بالمسألة!

قلت لك إنّني ضيّعت أمّي، ثمّ وجدتها في رسالة سامية ثمّ ضيّعتها من جديد. ولا أعرف سوى أنّ أبي تزوّج نجوى بعد حادثة اليهودي، ثمّ انتقل إلى العمل في مصنع الفلسطيني بديع بولس، ثمّ مات.

تزوّج أبي نجوى بالصدفة، فلو لم يشتغل في معمل اليهودي في ميناء الحصن، ولو لم يُقتل الحاخام، ولو لم يعتقل أبي، ولو لم يكن والد نجوى في زيارة لعين الحلوة، لما تزوّج أبي في تلك السنّ المبكرة. هل تعرف، أشعر وكأنّه أخي الكبير، فهو يكبرني بثمانية عشر عامًا. هل فهمت الآن، لماذا كرهته، وكرهت شعري الأبيض، ووجهي الناتئ العظام، وحنكي المستطيل. أنا لا أريد أن ينظر إليّ النّاس كأنّهم ينظرون إليه. والحقيقة أنّ هذا النوع من النظرات انتهى بعد مذبحة شاتيلا، كأنّ كلّ الناس ماتوا، كأنّ تلك المذبحة التي ذهب ضحيّتها أكثر من ألف وخمسمئة إنسان، مسحت ذاكرة الوجوه. كأنّ الموت مسح عيوننا ووجوهنا، فأصبحنا بلا ملامح.

إنّها المصادفة، كما قلت لك، مصادفته حكايته.

اشرح لي، كيف استطاع ذلك الفتى العمل عند اليهودي، بعد كلّ الذي جرى؟ أرجوك لا تحدّثني عن التسامح، قل شيئًا آخر.

اسمع! سوف أخبرك هذه الحكاية، ولك أن لا تصدّقها إذا شئت. هل تذكر علياء حمّود مديرة روضة الأطفال في المخيّم. طلبت منّي علياء أن أعطي محاضرة لمعلّمات الرّوضة عن الوقاية الصحيّة. وذهبت. وحين كنّا نشرب الشاي بعد المحاضرة، بدأت إحدى المعلّمات تتحدّث عن مشاكلها مع طفل يدعى خالد شناعة. قالت إنّه لا يطاق، وإنّها لم تعد تحتمل وجوده معها في الصفّ، فهو كثير الحركة والتوتّر، وطلبت من علياء الإذن بطرده من الصفّ. لكن علياء أسكتتها. غير أنّ المعلّمة تابعت الشكوى، هنا قالت لها علياء بصوت آمر وهادئ إنّها لا تستطيع طرده، واقترحت على المعلّمة

أن تجرّب معه أساليب اللّين والحنان. وعندما أبدت المعلّمة تبرّمها من اقتراح المديرة، ارتفع صوت علياء.

«هل تعلمين من يكون خالد، إنّه حفيد ذلك الرجل».

وحكت عن احتلال قريتها عام ١٩٤٨ التي تقع في قضاء صفد، وكيف أخذوا مجموعة من شباب القرية، وجاء البولدوزر وسحقهم. وأنّ خالد شناعة، جدّ الطفل، كان الوحيد الذي نجا من المذبحة. وأنّه بعد أن عبر أهالي القرية الحدود اللّبنانيّة، وأقاموا في قرية يارون، كان خالد هو الوحيد الذي عاد إلى طيطبا. تسلّل وحده، وحين وصل إلى بيته وفتح الباب. انفجر كلّ شيء. فتح الرجل باب بيته ليجد نفسه مرميًا والدماء تنزف منه. حمل حاله وعاد إلى يارون، وعاش كلّ حياته أعمى.

«إنّه بطل»، قالت علياء، «جدّه بطل ولا أستطيع».

المعلّمة لم تفهم أين البطولة في هذه الحكاية، فهي هاربة من مخيّم تل الزعتر، وهناك، خلال الحصار الذي تعرّض له المخيّم وانتهى بمذبحة، رأت كيف يموت الأبطال، وتذهب بطولاتهم.

«ما بدّيش اسمع هالحكايات»، قالت المعلّمة وخرجت.

لكن علياء تابعت. قالت إنّ أمّها لم تنسَ سليم نيسان، بيّاع الأقمشة اليهودي الذي جاء إلى طيطبا قبل سقوطها وصاح «يا مسلم خلّيك، يللّي بيصير عليك بيصير علينا». كان بائع الأقمشة الحلبيّ الأصل، يحمل بضاعته على كتفيه، ويتجوّل في القرى العربيّة، يبيع ولا يقبض. يحمل دفترًا كبيرًا يسجّل عليه الديون، والناس يدفعون ما تيسّر، تنكة زيت، أو دزّينة بيض. وكان ذا شخصيّة محبّبة إلى الجميع. يدخل بيوت الناس، يأكل من طعامهم، يمازح النساء بسنواته الستين التي كانت تجعله أشبه بالعجوز الذي لا يخيف أحدًا. يضحك ويخبر النكات، والنساء حوله يتضاحكن، ويخترن الأقمشة.

قالت علياء إنّها ذهلت حين روت لها أمّها، أنّ مجموعة من نساء طيطبا قطعن الحدود، كي يدفعن له ديونه.

لم أسأل علياء كيف عرفت نساء طيطبا مكان سليم نيسان، بعد أن صارت الحدود بين لبنان وفلسطين حدودًا حقيقيّة. استمعت إلى الحكاية

بوصفها تشبه حكايات الحبّ، ولم أسأل علياء عن تفاصيل اللّقاء بين نساء طيطبا وسليم نيسان.

«رحمنا سليم نيسان، وهذه المعلّمة لا ترحم خالد شناعة، هل هذا معقول»؟ قالت علياء.

.

تعال نَعُدْ إلى حكايتنا، ونسأل ماذا أراد ذلك الفتى، أي أبي، الذي كان من أوائل عناصر المجموعات الفدائيّة التي بدأت القتال ضدّ إسرائيل، من العمل في ميناء الحصن؟ هل كان منجذبًا إلى أعدائه؟ وهل هم أعداؤه؟

آل دررزية يعيشون الآن في إسرائيل ، علمت ذلك من زوج عمّتي، الذي روى، حين روى عن الغابسيّة، أنّه ذهب إليهم في حيفا، وأنّه زار سيمون في مطعم الفلافل والحمّص الذي يملكه، وأنّ سيمون كان لطيفًا معه، وسأله كثيرًا عن ظروف موت أبي.

ما علاقة زوج عمّتي بسيمون دررزيّة! أعمل هو أيضًا في مصنع التنك مع أبي، أم كان يزوره هناك من أجل تفقّد أوضاعه؟ أم ماذا؟ واللّه لم أعد أفهم شيئًا. زوج عمّتي قال إنّ سيمون أخذه في جولة إلى كلّ فلسطين، وإنّه زار تل أبيب ونهاريا وصفد، وإنّه ذُهل من كلّ شيء رآه، كأنّك في بلد أوروبي.

هل صحيح يا أبي أنّهم صنعوا بلدًا أوروبيًا؟

لقد أتعبتك كثيرًا، وأنا أيضًا تعبان.

أخبرتك وأخبرتك، لكن سرّ أمّي بقي سرًا. كلّ ما فهمته من رسالة سامية الغامضة، أنّها تزوّجت، وذهبت لتقيم مع زوجها في رام اللّه، وهناك اكتشفت أنّه متزوّج من امرأة أخرى، وأنّها تعمل ممرّضة.

هذا كلّ شيء.

ومنذ نصف ساعة جاءت كاترين، هل تذكرها؟ الممثّلة الفرنسيّة التي أخبرتك عنها. قالت إنّها ركبت التاكسي، وطلبت منه أن يوصلها إلى مستشفى الجليل، وعندما قال لها إنّه لا يوجد مستشفى بهذا الاسم، أفهمته أنّها تريد الذهاب إلى مخيّم شاتيلا. تردّد السّائق، لكنّها دفعت له عشرة دولارات، فأوصلها إلى باب المستشفى، وهو يتأفّف.

طلبت لها فنجان قهوة تركيّة، فشربته دفعة واحدة، وانكمش وجهها لأنّ القهوة أحرقت لسانها. جلست صامتة، ثمّ سألتني لماذا يكره الناس الفلسطينيين؟ احترت ماذا أقول. أخبرها عن تمزّق الحرب الأهليّة، أم أقول لها ما قالته نهيلة للضابط الإسرائيلي، «نحن يهود اليهود، والآن سوف نرى ماذا سيفعل اليهود بيهودهم»؟. أنا لا أوافق على هذه التعابير التي نستخدمها في حياتنا اليوميّة بسهولة. أستطيع أن أفهم نهيلة، لأنّها هناك، وهناك يجد الفلسطيني نفسه مواجهًا بعنصريّة تشبه العنصريّة التي واجهها اليهود في أوروبا، أمّا هنا فلا: نحن في بلد عربي، ونتكلّم اللّغة نفسها.

قالت كاترين إنّها قرّرت عدم التمثيل في المسرحيّة، قالت إنّها تجد نفسها مضحكة إن فعلت. وسألتني رأيي.

قالت إنّها تخاف، وإنّه لا يحقّ لهم، ثمّ انفجرت في البكاء.

كنت أودّ دعوتها إلى العشاء، والتحدّث معها، لكنّها قالت إنّها لا تستطيع التمثيل، فهذه الكميّة من المآسي غير قابلة للتمثيل.

لماذا جاءت كاترين إلى مكتبي ثمّ مضت؟

هذه أسئلة غير مهمّة يا أبي، لكن حياتنا كلّها مصنوعة هكذا من أشياء غير مهمّة، تتراكم فوق بعضها بعضًا وتخنقنا.

أريد أن أرتاح الآن.

تعبت من الحكي ومن الموت ومن أمّي الممرّضة ومنك. أريد أن أسند رأسي إلى المخدّة، وأسافر إلى حيث أشاء.

لكن أرجوك، اشرح لي حقيقة موت أبي.

جدّتي قالت إنّهم كانوا يلبسون ثيابًا مدنيّة، وأمّي قالت إنّهم كانوا جنودًا. وأنت ماذا تقول؟

هل تعتقد أنّنا نستطيع أن نصنع وطننا من هذه الحكاية الغامضة؟ ولماذا علينا أن نصنعه؟ الإنسان يرث بلاده كما يرث لغته، لماذا نحن فقط من بين كلّ شعوب الأرض علينا أن نخترع وطننا كلّ يوم، وإلاّ ضاع كلّ شيء، ودخلنا في النوم الأبدي؟

إنّها أمّ حسن.

جاءت إلى المستشفى لزيارتك قبل موتها بثلاثة أسابيع، وقالت إنّه يجب إعادتك إلى هناك.

دخلت إلى الغرفة، نظرت إليك بطرف عينيها الصّغيرتين الحادّتين، وكنتُ جالسًا على هذا الكرسي الأبدي الذي أجلس عليه، أشارت إليّ، فقلتُ «ماذا»؟، وضعت إصبعها على شفتيها كي تطلب منّي السّكوت، وأمرتني أن أتبعها.

في الممرّ حكت معي بصوت منخفض كأنّها توشوشني، وعندما سألتها لماذا تحكي بهذه الطريقة، قالت «كي لا يسمع».

«إنّهم يسمعون وأنا أعرفهم»، قالت.

وتحدّثت عن برزخك الذي لا يشبه برزخنا، قالت إنّك تتعذّب، ويجب عدم إزعاجك، «الحكي لم يعد مفيدًا يا ابني، يجب إعادته إلى هناك».

أخذتني أمّ حسن إلى الممرّ، ووشوشتني بأنّه صار من الضّروري إعادتك إلى بلادك.

«يا ويلي»، قالت، «صار مثل عزيز أيّوب، لا يجوز يا ابني ترك الرجل يموت وحيدًا هنا».

قالت إنّك هكذا لأنّك ترفض الموت وحيدًا. «عيب يا ابني عيب، رجل قضى حياته هناك وتريده أن يموت هنا، في هذا السرير، لا واللّه، هذا لا يجوز، اتّصلوا بأولاده».

قلت لها إنّني لا أعرف طريقة اتّصال بأولادك في دير الأسد. سألتني عن قريبتك آمنة، قالت إنّ آمنة تعرف، فلماذا لا أتّصل بها. قلت لها إنّ

آمنة اختفت. قالت إنّها تعرف منزلها في عين الحلوة، وستذهب إليها وتجلب رقم هاتف أولادك كي نتّصل بهم، وننظّم عمليّة نقلك إلى هناك.

«يجب أن يذهب كي يموت هناك، حرام، أنا أعرفه، هو لن يموت هنا».

وضعت يدها على كتفي وقالت إنّك مثل عزيز أيّوب، الذي مات مشنوقًا على أغصان شجرة السدر.

قلت لها إنّ عزيز أيّوب انتحر، ولا مجال للمقارنة.

قالت لا، «الأولياء لا ينتحرون، قتلوه كي يتخلّصوا منه».

«لكنّه لم يكن يزعجهم في شيء، فلماذا قتلوه»؟ قلت.

«أنت لا تعرف شيئًا»، قالت، «قتلوه معلّقًا على الشّجرة، ولولا حكمة اللّه ورأفة الشّجرة، لاعتقد الناس أنّه مات منتحرًا. أنا لم أره يا ابني، لكنّ النّاس أخبروني، كانت عيناه مفتوحتين، والحبل في عنقه، ينام على ظهره مثل قطعة الخشب، إنّه مثل يونس هذا. لا يا ابني، الرجل لا يستطيع الموت بين الرجال، الرجل يحتاج إلى امرأة كي يموت. المرأة مختلفة، لأنّها أقوى، وتستطيع إذا شاءت أن تموت وحدها، أمّا الرجل فيحتاج إلى النساء كي يموت. عزيز أيّوب مات بهذه الطريقة لأنّه كان وحده، امرأته تركته وأخذت أولادها إلى لبنان. أنا لا أفهم لماذا فعل ذلك بنفسه، قال إنّه حارس الشجرة وحارس الجامع وحارس القبور، ولا يستطيع التخلّي عنها. من يحرس الشجرة الآن؟ اللّه هو الحارس، أنا ذهبت إلى هناك، ورأيت كيف تحرس الشجرة كلّ الجليل، الشجرة هي الحارس فلماذا نحرسها؟ هل نضع حارسًا على الحارس؟ وهذا يونس، أبو سالم، انظر إليه، إنّه يصغر ويصير كالطّفل، انظر إلى وجهه وعينيه، صار وجهه بحجم كفّ طفل، وهذا يعني أنّه يريد أمّه، لماذا تحتفظ به هنا؟ ألا ترى كيف يصغر، خذه إلى أمّه يا ابني، واتركه يموت عندها. غدًا سأذهب إلى آمنة، وأجلب لك رقم هاتفهم، ونعيده. أنا أعرفه أكثر منك، كان رجلاً عنيدًا، وكنّا نسمّيه التّيس. رائحته حين كان يعود من هناك، كانت مثل رائحة تيس الماعز. كنّا حين نشمّ الرّائحة، نعرف أنّ يونس عاد. كيف كانت تلك المرأة المسكينة تحتمل رائحة عرقه. واللّه لا أعرف، فالمرأة سرّ عميق».

وضعت أمّ حسن يدها على فمها كي تغطّي ضحكتها، ثمّ غرقت في

الضّحك، حين أقول لك غرقت فأنا أعني ما أقول. كانت تتساقط داخل قهقهتها المختنقة بالصّمت، ومنديلها الأبيض يسقط من شعرها إلى كتفيها. وفجأة، أعادت المنديل إلى مكانه، أنزلت يدها، وأمّحت ضحكتها.

قلت لها إنّ نهيلة كانت تحمّمك لحظة وصولك إلى مغارة باب الشمس.

«وين يا حسرتي»، قالت، وأدارت وجهها كأنّها تريد إقفال الموضوع.

رويت لها عن المغارة، وعن تلك القرية التي بنيتها داخل كهوف دير الأسد، فقالت إنّها تعرف تلك المغاور التي تفتح أفواهها كحيوانات مفترسة، وتعرف أنّ الناس لم يدخلوها أبدًا. «هذه مغاور مسحورة يا ابني».

وروت لي عن العنزة التي ضاعت في إحدى مغاور دير الأسد، ثمّ ظهرت في رام اللّه.

«أي واللّه يا ابني، وجدوها في رام اللّه، وكانت بيضاء، وبرها صار أبيض كأنّها رأت الهول»، قالت إنّ الناس رأوا في عينيها أشياء غريبة، فقتلوها رميًا بالرصاص، ولم يجرؤ أحد على أكل لحمها. «وتأتي أنت في آخر الزمان، لتقول لي إنّ يونس عاش في تلك المغاور، وإنّه كان يتحمّم هناك، لا يا ابني، أنا أعرف أكثر منك، كان يأخذها إلى الحقول، من أخبرك عن المغاور؟ كان يونس يصل إلى بيته، يقرع على زجاج النافذة وينتظرها، تخرج فيمشي وراءها، فتأخذه إلى الحقول، وهناك تحصل تلك الأشياء، أمّا المغارة فمستحيل».

قلت لها إنّك أخبرتني، وحاولت أن أشرح لها كيف قامت نهيلة بترتيب المغارة من الداخل، كيف جلبت الحصر والفراش والخزانة الخشبيّة وبابور الكاز وإلى آخره... لكن يبدو أنّه من المستحيل إقناع أمّ حسن بشيء تعتقد أنّها تعرفه.

ثمّ فهمت.

هذا سرّك يا أبي. سرّك التباسك. سرّك أسماؤك الكثيرة وحيواتك الغامضة. أنت ذئب الجليل، فلماذا يكشف الذئب أسراره؟ أنت اخترت لنفسك اسم الذّئب، قلت لي إنّك أردت أن تكون ذئبًا كي لا يأكلك الذئب. كنت ذئبًا محوطًا بسرّه. لا أحد عرف سرّك، أو دخل باب الشّمس التي صنعتها بيتًا وقرية وبلادًا.

قلت لأمّ حسن إنّ عنزة رام اللّه تشبه أمّي. كأنّ نجوى هربت تحت نفق من هنا إلى هناك، اختفت من بيروت لتظهر في رام اللّه لابسة ثيابها البيضاء في المستشفى حيث تعمل كممرّضة.

«لا يا ابني»، قالت أمّ حسن.

«ماذا كان بوسع أمّك المسكينة أن تفعل أمام جنون جدّتك. واللّه شاهينة أهلكتها، وكلّ أهل المخيّم شهود. فبعد وفاة أختك الصغيرة، تحوّلت حياة أمّك نجوى جحيمًا. ما ذنب نجوى في موت أبيك؟ جدّتك، اللّه يرحمها، كانت امرأة فاضلة، لكنّها السبّب. ما ذنب نجوى، فهي لا تعرف أحدًا هنا، إنّها من طيرة حيفا، جاءت في زيارة إلى لبنان، فاستولت عليها جدّتك، أقنعت والدها بتزويج ابنته لابنها الذي كان يشتغل في ذلك المعمل حيث طلعت رائحة الفضيحة والنجاسة. وكانت لا تسمح لها بأن تمسّ شيئًا في البيت. تجلي، فتأتي المرأة الكهلة، تشمّ الصحون والأواني وتعيد جليها، تمسح الأرض فتمسحها بعدها وتلعن النجاسة. أمّك يا ابني ليست عنزة الجليل؛ أمّك مسكينة، اللّه يساعدها. من المؤكّد أنّ أهلها اضطهدوها كثيرًا كي توافق على الزواج من البدوي والإقامة معه في رام اللّه».

«البدوي! أيّ بدوي»؟ سألت.

«نعم البدوي، أبو القاسم كان في زيارة إلى عمّان، ورآها في مستشفى الأشرفيّة، حيث كانت تعمل، فذهب إلى أهلها وطلبها، وأعطوه إيّاها دون أن يسألوه شيئًا، لأنّ خالتها زوجة أبيها كانت تريد التخلّص منها».

قالت أمّ حسن إنّ نجوى اكتشفت في رام اللّه أنّ البدوي متزوّج من امرأة أخرى، وعاشت في القهر والذلّ. تزوّجها البدوي ثمّ ندم، لأنّ زوجته الأولى، وهي ابنة عمّه، ألهبت ضدّه العشيرة كلّها، فصارت نجوى مثل زوجة سرّيّة، ممّا اضطرّها إلى العمل في المستشفى.

سألت أمّ حسن من أين أتت بكلّ هذه المعلومات؟

فقالت إنّ كلّ الناس يعرفون.

«لكنّني لا أعرف»، قلت.

«الزوج آخر من يعلم»، قالت.

لكنّي لست زوجها، ولا أفهم. لماذا لم يخبرني أحد عن أمّي، كنت حين أسأل جدّتي، أواجه بوجهها المقفل، كانت تقفل وجهها بمفتاح الصمت ولا تجاوب. وكان عليّ انتظار تلك الرسالة الغامضة من رام الله، التي مزّقتها، كي أعرف، ولم أعرف. أضعت رقم هاتف سامية، وأضعت اسم البدوي الذي صار اسمًا لأمّي في رام الله. حتّى أمّ حسن لم تكن تعرف اسم البدوي، رغم أنّها تعرف كلّ شيء. هي أخبرتني عن عمّي عزيز، وعن أيّامه ولياليه في خرائب الغابسيّة. «عاش أكثر من عشرين سنة وحيدًا، من الشجرة إلى الجامع، ومن الجامع إلى المقبرة، يقيم الصلاة، ويحرس القبور، ويقف أمام شجرة السدر يكلّمها ويستمع إليها، وكان يعرف كلّ شيء، لأنّ الشجرة كانت تخبره. وحين يأتي الناس من القرى المجاورة لزيارة السدرة، كان يختفي. لم يكن يتكلّم معهم أو يقترب منهم. كانوا يرونه كشبح بعيد غارق في ظلال عباءته البيضاء، يحيّونه، فيجيبهم بانحناءة من رأسه. ينحنون على جذع الشّجرة، يضيئون شموعهم، قبل أن يعلّقوا شاراتهم وشراطيطهم على أغصانها ويمضون».

قلت لها إنّه انتحر، وإنّه مجنون. «من يستطيع يا خالتي أن يعيش عشرين سنة وحيدًا، ولا يصاب بالجنون».

التمع وجهها بما يشبه الموافقة، ثمّ قالت لا، «لا يا ابني، إنّه ولي، والناس ينذرون له أولادهم».

وأنا يا سيّدي تعبت من الأولياء والأبطال والذئاب. أبي بطل وأنت ذئب، وأنا ضائع بينكما. في موتك أرى موت أبي، وفي طفولتك الجديدة أرى طفولته. غريب هذا الذي أراه، أراكما ولا أرى نفسي، كأنّني ما عدت موجودًا، وكأنّ كلّ شيء من حولي ليس حقيقيًا. كأنّني صرت ظلاً لحياة رجلين لا أعرفهما. والله لا أعرفكما. أنتَ لا أعرفك إلاّ في موتك الطفولي هذا، وهو لا أعرفه إلاّ صورة معلّقة على الحائط. حتّى شمس، شمس التي أحببتها وتمنّيت أن أكون قاتلها، شمس التي أخاف شبحها وطيف ثأرها، حتّى شمس تبدو لي مجرّد ظلّ لتلك المرأة التي اختفت وصارت عنزة بيضاء في أحد مستشفيات رام الله.

أنا لا أستطيع أن أصدّق أمّ حسن ووليّها الصالح عزيز أيّوب، أو

جدّتي والرّصد الذي كان سببًا لمقتل والدي. بدل أن تخبرني شاهينة عن الفدائيين الأوائل الذين مات أبي في صفوفهم، أخبرتني عن المغارة والرّصد.

كانت شاهينة تنظر إلى صورة الرجل الميت وتمسحها بالماء كي تسقيها، وتتحدّث عن مغارة الغابسيّة.

قالت إنّها عرفت بأنّ ياسين سوف يموت، وأنّ امرأة ستقتله.

«الله يقطعني»، قالت، «زوّجته ولم أنتبه، كنت مرعوبة من حكاية الحاخام، فزوّجته تلك الفتاة الطيراويّة، ولم أنتبه إلى عينيها، في عينيها شيء من ذلك الخوف الذي رأيته بعد حادثة المغارة».

قالت جدّتي إنّها كانت تُسمّى مغارة عايشة. ومغارة عايشة، تقع في شمالي البلد، في أرض مرتفعة تفصل الغابسيّة عن الكابري.

قالت إنّ عمّي محمّد عبد الله أيّوب، كان عالمًا متصوّفًا، وكان يحكم الجان. «وفي أحد الأيّام، أرسل ابنه محمود وفتى يدعى سعيد مع ابني ياسين إلى المغارة وقال لهم، عندما تصلون، تقرأون هذه الورقة، فيظهر عليكم كلب أسود، لا تخافوا منه، فالجنّيّ الذي يحكم المغارة يسكنه، ويا ويلكم إذا خفتم».

قالت جدّتي إنّ محمد عبد الله أيّوب كان يريد اختبار الفتيان الثلاثة، تمهيدًا لإدخالهم حلقته الصوفيّة.

«وفي المغارة حدث ذلك الشّيء، فبعد أن انتهى محمود من قراءة الورقة، ظهر الكلب الأسود، محمود خاف وبدأ يركض، فلحقه الكلب ولطشه، ضربه بذيله ثمّ قفز عليه. سعيد وياسين هربا. أمّا محمود، فيا حرام، عندما لطشه الكلب بذيله، سقط الولد أرضًا، فهجم عليه الكلب ووقف على صدره، ثمّ لا نعلم ماذا جرى. أصيب محمود بحمّى لمدّة ثلاثة أيّام، وعندما هبطت حرارته، خرج من بيت أبيه حاملاً عصا، قرع أوّل باب صادفه، وحين فتحوا له، انهال على الناس ضربًا. كان كالمجنون، لا كان مجنونًا، وصار ينتقل من بيت إلى بيت، يضرب ويكسّر، إلى أن تمكّن رجال القرية من تكتيفه. وتمّ إرساله إلى مستشفى المجانين في عكّا. لا أعلم ماذا فعل به اليهود بعد سقوط عكّا، أيّامها نسي الناس أنفسهم

وأولادهم، فكيف يتذكّرون المجانين. أيّامها يا ابني كنّا في يوم الحشر، نتدافع في الحقول كي ننجو بجلودنا، ولم ينجُ أحد، لا واللّه، لا أحد.

رأيت الموت في عيني الصبي، عاد ياسين من المغارة، كأنّه ولد آخر، ورأيت الموت يحوم فوقه، وعرفت أنّه سيموت. وعندما تزوّج نجوى، رأيت الموت في عينيها، لكن اللّه يلعن ابن آدم، كيف لم أنتبه. رأيت الموت، لكنّي كنت أريد تخليصه من ذلك الشيء الذي علق به بعد حادثة الفتى اليوناني مع الحاخام، فقرّرت تزويجه، ولم أنتبه، ومات».

هكذا تترابط الأشياء في عقل امرأة خرفانة. كلّ حادثة المغارة لا معنى لها. تجليط يا أبي، تجليط يا ابني. نخترع حكايات تعاستنا ونصدّقها. نصدّق أيّ شيء كي لا نرى، نغمض عيوننا ونمشي، فنرتطم ببعضنا بعضًا.

أمّ حسن تعتقد أنّ حكاية المغارة لا أساس لها، وأنّ جدّتي كانت مجنونة، اضطهدت أمّي بلا سبب، وأجبرتها على الهرب إلى بلاد اللّه الواسعة.

لكن أمّ حسن تعرف أنّ بلاد اللّه ضيّقة، وأنّ «مصير الحي يتلاقى».

هربت أمّي من بيروت إلى عمّان، ومن عمّان إلى رام اللّه. اختفت كأنّها دخلت مغارتك يا سيّد يونس. صحيح، قل لي عن المغارة الآن. أمّ حسن قالت إنّ مغارة دير الأسد غير صالحة للسكن. إذن أين باب الشمس التي حدّثتني عنها. أين تلك القرية التي تمتدّ في كهوف متداخلة، «واللّه أكبر من عين الزيتون»، قلت لي، «أنا اقترحت عليهم، قلت لهم تعالوا نبحث عن المغاور في الجليل، ونطلب إلى اللاّجئين العودة إليها، المغارة أفضل من الخيمة، أو من بيت الزنكو أو من حيطان أوراق الموز، لكنّهم لم يوافقوا. قالوا في التنظيم إنّ هذا وهم، الشعب لا يعيش في المغاور، وكلّفوني البحث عن مغاور للفدائيين، ورأيت في وجوههم السخرية من مغارتي، لذلك لم أبحث، صنعت مغارتي بنفسي ولنفسي، وعشت فيها».

هل تريد أن أعيدك إلى هناك، كما اقترحت أمّ حسن.

«اذهب إلى بيته يا ابني وفتّش، يمكن تجد رقم هاتفهم، اتّصل بهم، اتّصل بأولاده وهم يرتّبون الأمور مع الصليب الأحمر».

أنا لا أعتقد أنّ اقتراح أمّ حسن عملي. لا لست أنانيًا، والسبب ليس

الخوف. طزّ على هذه الحياة، كلّما فكّرت فيك، أشعر بالعيون تنغرس في ظهري وتقول إنّني خائف. لا، لست خائفًا، هل تعتقد أمّ حسن أنّني لم أحاول الاتصال بأولادك؟ هل تذكر يا أبي ذلك اليوم الأوّل، حين أتت آمنة لتخبرني عن سقوطك، يومها طلبت منها الاتصال بأولادك، واتّصلت. قالت إنّها اتّصلت.

«وماذا قالوا»؟ سألتها.

«لا شيء». قالت لا شيء، ولم أسألها عن معنى كلمة لا شيء. فلا شيء تعني لا شيء.

قالت لا شيء فلم أعلّق. يومها لم يخطر في بالي أنّك ستعيش، كنت متأكّدًا من موتك، لذلك لم أفكّر في إرسالك إلى هناك. نأخذك إلى هناك من أجل ماذا؟ هل هذا معقول؟ أعتقد أنّهم لم يعودوا يريدونك. والمسألة انتهت عند هذه الحدود.

أمّ حسن قالت لي وهي تصف برزخك أنّك ترى اللّه.

«انتبه يا ابني»، قالت. «انتبه على حركاته، ربّما فهمنا منها شيئًا، فهؤلاء يرون اللّه».

«كيف يا أمّ حسن»؟

«لا أعرف، يا ابني، لكنّي متأكّدة».

وأخبرتني عن امرأة كهلة في عكّا، قالت إنّها تعرّفت إليها هناك، قبل أن يحدث كلّ شيء. قالت إنّ المرأة، حين كانت تستفيق من غيبوبتها، كانت تحكي للناس أشياء غريبة، والأشياء تحدث. «كأنّها كانت ترى اللّه يا ابني. أنا كنت هناك، أتدرّب على التمريض، وكانت تلك المرأة التي تعيش بين الموت والحياة، تغيب عدّة أيّام، وعندما تستفيق تقول أشياءها الغريبة. تقول مثلاً إنّ زوج فلانة سوف يموت وتكون تلك الفلانة قربها، تضحك تلك الفلانة من خفّة عقل المرأة الكهلة، وحين تعود إلى بيتها تتحقّق النّبوءة. وصاروا كلّهم يخافونها. يجلس أولادها وأحفادها حول سرير موتها يرتجفون خوفًا. وعندما ماتت ارتاحوا. كأنّ حجرًا انزاح عن صدورهم. هل تريد الحقّ يا خليل، أنا أعتقد أنّهم قتلوها، خافوا من كلماتها القطنية وصوتها الرخو وشعرها الأبيض. أنا أعتقد أنّ أحدهم خنقها بالمخدّة، لأنّ

موتها كان أزرق. لكنّي لم أقل شيئًا، رجعت إلى القرية وأنا ميتة من الخوف. والآن أقول لك، إنّ يونس أبو سالم هذا، هو في ذلك المكان. أعيدوه إلى بلاده وخلّصونا منه، وكفى».

هل تسمعني؟

ماذا يجري لك؟

هل تعلم، واللّه صرت تشبه نعيم، ابن نور. أعرف أنّك تفضّل أن تشبه إبراهيم، ابنك الأوّل وتوأمك، لكن بكلّ أسف، أنت لا تشبهه، بل تشبه أحد أحفادك. رأيت صورة نعيم عندما ذهبت إلى بيتك، وفوجئت، كأنّني أراك الآن. أنا لم أذهب إلى بيتك تنفيذًا لاقتراح أمّ حسن، صحيح أنّني بحثت عن أرقام الهاتف بدافع الفضول، ولم أجدها، لكنّي ذهبت من أجل الصّور. وهناك رأيتك على حقيقتك. ما هذا الترتيب يا سيّد يونس؟ بيت يتألّف من غرفتين ومطبخ وحمّام. الغرفة الأولى للاستقبال، مدّ على أرضها بساط عربي، وهناك ثلاث كنبايات، وطاولة طعام صغيرة، وراديو وتلفزيون وجهاز فيديو، وصورة واحدة معلّقة على الحائط. اقتربت من الصورة، فرأيت مجموعة أطفال متحلّقين حول امرأة كهلة. إنّها هي قلت، اقتربت من الصورة أكثر فلم أتبيّن الملامح، كانت الملامح شبه ممسوحة، كأنّ الزّمن مسحها، لا ليس الزّمن، إنّه المصوّر، فالمصوّر التقط الصورة عن بعد، كي يُدخل في الكادر هذا الحشد المؤلّف من ٢٥ طفلاً حول امرأة. فلم يظهر في صورته إلاّ حشد من الأطفال المتشابهين. ابتسمت لهم، أنت لا تعرفهم، فهم بالنّسبة إليك مجرّد أرقام وأسماء، هؤلاء أحفادك الذين لم تقل لي أسماءهم، بلى قلت عن نهيلة الثانية ابنة نور. قلت إنّك تحبّها بشكل خاص. أين صورتها؟

تركت غرفة الاستقبال، ودخلت غرفة النوم، وهناك رأيتهم كلّهم. إنّها أشبه بستوديو. سبع صوَر مبروزة ومتلاصقة على الحائط الأيسر، فوق السرير، صورة كبيرة لنهيلة. عدد هائل من الصور الصغيرة المعلّقة على الحائط الأيمن لأطفال من مختلف الأعمار. عالم من الصور. عالم غريب، لا أعرف كيف استطعت النوم في داخله كلّ هذا العمر.

قل لي، هل كنت تنام؟

هل كنت في ليالي الحرب الأهليّة اللبنانيّة الطويلة، حيث لا كهرباء، هل كنت تشعل شمعة في غرفتك، وتراهم وقد تحوّلوا خيالات ظلّ تتأرجح على الحيطان؟

ألم تكن تخاف؟

واللّه خفت من الصور، دخلت غرفة نومك في بداية المساء، كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء، ولم يكن الظلام قد حلّ بعد، ولكنّ النور لم يعد كافيًا. حاولت إشعال زرّ الكهرباء، لا كهرباء.. صرت وكأنّني أسبح مع الصور في الظّلام. اقتربت منهم واحدًا واحدًا، واكتشفت عالمك السحري. عالم من الصور المعلّقة على حبال الذاكرة. وكانت الصور وكأنّها تتحرك، وسمعت أصواتًا خافتة تخرج من الحيطان، وخفت.

من أين لك هذه الصور؟

هل كنت تذهب، حين تذهب، من أجل نهيلة أم من أجل الصور؟

أخبرني كيف استطعت أن تعيش مع صورهم؟ كيف كبحت نفسك، ولم تذهب إلى بيوتهم، وتشمّ روائحهم واحدًا واحدًا؟

أسمع ضحكة تخرج من عينيك وتقول لي إنّك رأيتهم، وإنّك في النهاية دخلت البيت، وقبّلتهم واحدًا واحدًا، كان ذلك عند موت والدك الشيخ الأعمى.

في ذلك الشتاء القاسي من عام ١٩٦٨، الذي لم يعرف الجليل شتاء يشبهه منذ مئة عام، وصل يونس وسط حبال المطر إلى مغارته. كان مرهقًا ومبتلاً بالماء. وصل الذئب المغطّى بالطين إلى مغارته، وكان كلّ شيء فيه يصطك، أشعل شمعة، وبحث عن ثياب ناشفة داخل دهاليز المغاور المتداخلة، التي جعلها مسكنه، فلم يعثر إلاّ على قميص وكنزة صوفيّة. خلع ثيابه ولبس ثيابًا ناشفة فوق جلده المبلول، وخرج من المغارة. انعطف يمينًا خلف التلّة التي تحجب مغارته عن القرية، فاصطدم بأكوام التراب التي كانت تنزلق مع الماء، وتشكّل سيلاً من الماء والأتربة. سقط في السّيل، ابتلع الكثير من التراب، قبل أن يتماسك ويتابع سيره. وصل إلى بيته، قرع على النافذة ضرباته الثلاث ومضى. لكنّها ركضت وراءه، أمسكته من

ذراعه، وأدخلته إلى البيت الذي لم يدخله منذ عشرين سنة. وكان الشيخ الأعمى مسجّى على الأرض يموت. رأى أمّه جالسة إلى جانب الرجل النائم فوق فراشه الموضوع على الأرض. حين رأته أمه، خرج من أحشائها صوت يشبه الصراخ. وقفت ومدّت ذراعيها، حاولت التقدُّم، انحنت وجلست على الأرض. اقترب يونس منها وقبّلها على رأسها، أخذته بين ذراعيها واعتصرته، فبدأ الماء يتساقط منه. الأمّ تبكي والماء يتساقط من ثياب الرجل، ونهيلة تقف.

«الآن جئت»؟ قالت الأمّ.

أخذته نهيلة إلى غرفة النوم، عرّته من ثيابه، ونشّفته بمنشفة كبيرة بيضاء، لفّت عريه وجلبت زيتًا ساخنًا، فركت به ظهره وبطنه وكلّ أعضائه.

«سوف تمرض»، قالت، «لماذا جئت»؟

دهنته بالزّيت الساخن، تركته لتجلب ثيابًا ناشفة، وعندما عادت رأت الماء يرشح منه. كان عاريًا، يرتجف بالماء، والماء يخرج من كلّ أعضائه. ماء يسيل أرضًا، ورجل يقف ملفوفًا بالماء، كأنّ الماء سكن عظامه. نشّفته من جديد، وروت له كيف سقط الشيخ الأعمى في الغيبوبة منذ ثلاثة أيّام، وكيف لم يطعموه شيئًا سوى قطرات ماء قليلة قطّروها في فمه، وقالت إنّه منذ مساء أمس وهو يرتجف بالحرارة.

خرج يونس من الغرفة، وكانت بقايا الماء عالقة في قدميه الحافيتين، اقترب من الرجل المسجّى. انحنى يونس فوق إبراهيم وقبّله ومضى، ولم يقل شيئًا لأمّه، التي كانت تتلو الآيات القرآنيّة، وعيناها سابحتان في الفراغ.

عاد يونس إلى مغارته، وشعر بالجوع، ولم يجد شيئًا يأكله. جلس وحيدًا يدخّن. ثمّ جاءت. كانت ملفوفة بحرام صوفي طويل تخرج منه رائحة العفونة والماء. ألقت نهيلة الحرام جانبًا وجلست. قالت إنّها أحضرت له ثلاث بيضات مسلوقة ورأسي بطاطا، ورغيفين وبصلة. أخذ الطعام منها والتهمه دفعة واحدة. كان يمزّق الرغيف، ويحشو لقمته الكبيرة بالبصل والبطاطا والبيض، ويبتلعها دون أن يمضغها. وحين جهّزت له كاسة الشاي، كان قد التهم كلّ شيء. أخبرته أنّ الرجل مات، وأنّها تعبانة، وستعود من أجل مساعدة أمّه على إعداد الجنازة.

وقفت، لبست الحرام الصوفي، وحيّته بإشارة من يدها. أمسكها من خصرها وألقى بها أرضًا وضاجعها. يومها، لم تفهم نهيلة لماذا فعل هكذا؟ جاءت كي تجلب له الطعام وتخبره عن موت أبيه وتعود. استمع إليها وهي تبكي أباه دون أن يذرف دمعة، أكل كلّ شيء، وحين نهضت كي تذهب، ألقى بها فوق الحرام الذي يخبّ ماءً وعفونةً وأخذها. كان مثل حيوان يمتطي أنثاه. عاد كما كان في البداية، حين كان ولدًا لا يعرف ولا يحبّ. في تلك الليلة العاصفة امتطاها. حاولت نهيلة أن ترفض، لكنّه كان فوقها، حاولت الاعتدال في استلقائها كي تدخله، لكنّه أتى. في لحظة، تدفّق السائل الساخن وبلّل ثيابها. حاولت النهوض، لكنّه تعلّق بعنقها، وصار يشهق بالبكاء. جمدت في مكانها، واحتضنت رأسه، فارتفع بكاؤه، «اتركني يا حبيبي، لازم أروح عند أمّك، المسكينة وحدها مع الميت والأولاد».

لكنّه بدل أن يزيح ويتركها تمضي، تشبّث بها. كان فوقها كلّها، صدره فوق صدرها، وبطنه فوق بطنها، وقدماه فوق قدميها. دفشته أكثر من مرّة، قبل أن تنجح في إزاحته. نهضت، سوّت فستانها، ومضت متدثّرة بالحرام المبلول. لم تفهم نهيلة كيف نام معها دون أن تخلع شيئًا من ثيابها. كأنّه لم يدخل، فكّرت وهي عائدة داخل ذلك الليل الأسود المبقّع بحبّات المطر الكبيرة، التي كانت بحجم حبّات الكرز.

في الحادية عشرة من قبل ظهر اليوم التالي، كانت الشمس تلفّ تلال دير الأسد، وتنتشر فوق الجليل. تحرّك الموكب من منزل الشيخ إبراهيم الأسدي إلى الجامع. وبعد الصّلاة، حملوا النعش إلى مقبرة القرية. مشى الرجال خلف النعش المرفوع إلى أعلى اليدين، وكانت رؤوسهم منحنية بكوفيّاتها البيضاء، يحاولون تحاشي الوحل وبرك الماء الصغيرة، ويهدرون بالأدعية.

أمام تلّة مقبرة القرية، وقف يونس وحيدًا، حاملاً بندقيّته، ومختبئًا خلف نخلة طويلة، سوف يسمّيها نخلة الشيخ إبراهيم. هناك صار الرجال دوائر من الماء حول النعش، وبدأوا يدورون بالحداء الصوفي، وسمع يونس أصواتهم، «مدد مدد يا رسول الله، يا حبيب الله، يا أهل البيت، لكم حبّيت»... تحسّس بندقيّته ورفعها إلى الأعلى، وضع إصبعه على الزناد، كي يودّع الشيخ برشقة من بندقيّته، لكنّه أحنى البندقيّة، وجّه فوهتها صوب التراب، وانحنى فوق التلّة، وبدأ ينشد مع المنشدين كما كان يفعل

طفلاً، حين كان والده يأخذه من عين الزيتون إلى شعب، وهناك في الزاوية اليشرطيّة الشاذليّة، كان يونس الطفل، يندغم في إيقاع الرجال، وهم يفتلون حول الشيخ الأعمى، يرتّلون ويصرخون ويرقصون. شعر يونس بحاجة إلى الدوران معهم، والاندغام في أصواتهم، لكنّه بقي جامدًا في مكانه، واستمع إلى صوت الطفل الذي كانه.

انتهى المأتم، أهيل التراب على الشيخ، وتفرّق الناس، وعاد يونس إلى مغارته حيث مكث أسبوعًا، لا يخرج منها. ثمّ جاءت نهيلة وأخذتك إلى البيت. مشيت خلفها كالسائر في منامه، وحين وصلتم خفت قليلاً، وقلت لها إنّه يجب أن لا. فأمسكتك وجرّتك إلى البيت. وصلتم إلى الحوش، فرأيتم الأولاد يلعبون، لكنّك لم تذهب إليهم. دخلت وجلست في الصالون، جاءت أمّك وجلست إلى جانبك، أمسكت يدك ولم تقل شيئًا.

كنت تجلس قرب أمّك، حين سمعت صوت نهيلة، وهي تعيد الأطفال السبعة إلى البيت. تنده لهم بأسمائهم ثمّ تقول لهم كشّ، كأنّها تجمع دجاجاتها وليس أولادها. دخلوا ورأوك، لم يتقدّم أيّ منهم إليك، وأنت لم تفتح ذراعيك، كما كان من المفترض بأبٍ يرى أولاده. دخلوا فبقيت جامدًا في مكانك، دخلوا فرأوك، تراجعوا إلى الوراء، ووقفوا صفًّا واحدًا وظهورهم تستند إلى الحائط، كأنّهم خافوا منك. نهضت وسط الصمت، وتقدّمت منهم، ركعت أرضًا وقبّلتهم واحدًا واحدًا، ثمّ وقفت ومضيت. نور، وكانت في الرابعة عشرة، صرخت «بابا»، حين كنت تغادر.

ذلك كان لقاؤك الوحيد بأولادك، وحين كنت تتذكّره، لم تكن تراه إلاّ كحلم. «كأنه ما حصل»، قلت وأنت تخبرني عن مأتم والدك، وكيف شاركت في دفنه، وكيف لم تمنعك الأسلاك والحدود المكهربة من وداعه.

وأنا الآن، أي أمس، وقفت في غرفتك تحت مطر الصور، ورأيتهم. رأيت الأولاد والأحفاد واقفين إلى جانب الحائط، ينتظرون منك أن تنهض وتتقدّم منهم راكعًا وتقبّلهم. سمعت صوت نور، ورأيت عيني أمّك المسكونتين بالموت. أنت قلت لي إنّ أمّك ماتت بعد شهرين من وفاة والدك، وإنّك لم تذهب إلى مأتمها.

يومها، بعد أن انتهيتَ من تقبيلهم، مضيت عائدًا إلى لبنان. عدت مرّة واحدة في زيارة قصيرة، ثمّ غبت من جديد أكثر من سنة، بسبب مشاغلك، والحدود المشتعلة. وحين عدت كان كلّ شيء قد تغيّر. سالم بدأ العمل مع شقيقه مروان في كاراج الخواجة حاييم في حيفا، ونور على وشك إعلان خطوبتها من عيسى الكاشف، الذي كان يشتغل عامل بناء، قبل أن يصبح متعهّد بناء في القرى العربيّة، ونهيلة كانت مرهقة.

«تعبت من الفقر والبهدلة»، قالت.

يومها، كنتما في حقل الزيتون المحاذي لمغارتك، جالسين تحت قمر الصيف الذي يضيء أوراق الأشجار الخضراء، ويجعلها تتلوّن بالأزرق المتماوج. انتظرتها هناك، لأنّها قالت «تحت الشجرة». قرعت على النافذة ومضيت، فظهرت نهيلة من خلف الزجاج وقالت «تحت الرّوميّة». وفهمت أنّها تقصد شجرة الزيتون الضخمة المجوّفة، التي تعطي حبًّا صغيرًا له نكهة خاصّة.

أنت تحبّ الزيتون.

كلّنا نحبّ الزّيتون، وخصوصاً تلك الحبّات الصغيرة الخضراء، التي كانت تغطّيها نهيلة بالملح الخشن داخل كيس القماش، وتوصيك بوضعها، لحظة وصولك إلى بيتك في مرطبان من الزجاج، تعبّئه ماء، وتذيب فيه الملح حتّى تعوم فوقه بيضة نيئة، وترمي فيها قليلاً من أوراق الغار، وتنتظر شهرًا، ثمّ تأكل.

كنت تترك هذا الزيتون للاحتفالات. تحتفل بزيتونك في مخيّم شاتيلا، تأخذ كمشة من المرطبان، وتنقعها في الثّوم واللّيمون والزيت، وتشرب كأس عرق، وأنت تستمع إلى صالح عبد الحي يغنّي: «حبيبي هو، هو عليي، الآمر الناهي». وتذهب في صلاتك إلى النهاية. كنت تسمّي تلك اللّحظات صلاة النهاية. وكنت... لا، لن أقول الحقيقة كي لا أفسد لك ذكرياتك التي تصنعها كما يروق لك. لكنّي، وأنا أستمع إليك تروي عن ذلك الزيتون الروماني الذي زرع قبل أيّام المسيح، وتقول إنّه يحمل طعم مرارة خفيّة لا تزول، لكنّها مرارة تفتح الشهيّة إلى الحياة، ثمّ تسترسل في وصف تلك الأشجار الكبيرة المجوّفة الجذوع، التي تسمّونها روميّات، لأنّ عمرها من عمر الرّوم، كنت أتخيّلك مع امرأة أخرى. أرجوك لا تزعل

منّي، أنت تعلم أنّني أقول الحقيقة، وإلاّ فما معنى زيارات المرأتين. الأولى حدّثتك عنها، جاءت ثمّ اختفت، والثانية كانت تأتي في الرابعة من بعد ظهر كلّ خميس. بقايا الجمال ترتسم على وجهها، وخاصّة على حنكها الدقيق، وعلى الخطّين اللّذين يخترقان وجنتيها. اسمها كلير، وقدّمت نفسها باسم كلير مدوّر. دخلت غرفتك وجلست، وكنتُ أقوم بتنظيف آلة شفط البلغم. جلست ولم تلتفت إليّ أو تكلّمني، أشعرتني أنّني زائد ولا لزوم لي، فخرجت من الغرفة، وحين عدت بعد حوالى ساعة، كانت قد خرجت.

وصارت تأتي في موعدها، وصرت أخرج من الغرفة وأتركها وحدها معك. لكنّها لم تأتِ أمس. هل تعرف لماذا لم أحكِ عنها قبل اليوم؟ لأنّها صارت جزءًا من حياتنا هنا في المستشفى. مجرّد روتين لا ننتبه لوجوده إلاّ حين يختفي. وأمس انتبهت لها لأنّها لم تأتِ، وقرّرت أن أسألك عنها. يومها، قرّرت انتظارها كي أسألها من تكون. لبست برنسًا أبيض نظيفًا، وتعمّدت وضع نظارتي التي كنت أنساها في جيبي، لأنّي لم أتعوّد فكرة وضع النظّارات على عيني، وحين دخلت، تقدّمت منها مادًّا كفّي اليمنى، وصافحتها.

«أنا الدكتور خليل أيّوب»، قلت.

«تشرّفنا حكيم»، أجابت وجلست.

«لم نتشرّف بمعرفة حضرتك»، قلت.

«صديقة، صديقة قديمة»، قالت.

ودخلت معها في حوار متقطّع حول أحوال المدينة. وكانت كأنّها لا تريد أن تتكلّم، كأنّي أسرق منها الوقت الذي خصّصته لك. لكنّي، رغم برمها بأسئلتي، وإجاباتها الجانبيّة والمختصرة، قرّرت أن أكون وقحًا. جلست على الكرسي الثاني، وأحنيت ظهري قليلاً إلى الأمام، كأنّي أريد متابعة الكلام، عندما رأتني جالسًا، وضعت يدها على خصرها، كأنّها تهمّ بالوقوف. ولكن قبل أن تتحوّل حركة اليدّ على الخصر تقوّسًا في الظهر، يسبق لحظة النهوض، بادرتها بالسؤال. سألتها عن علاقتها بك، دون مقدّمات.

«متى بدأت علاقتك به مدام...».

تركت سؤالي معلّقًا في الهواء، فجرفتها المفاجأة، نظرت إليّ بعينين حائرتين، وقالت «كلير، كلير مدوّر»، وسكتت.

«تعرفينه من زمان»؟

«من زمان كتير»، قالت ونهضت.

«أخبريني عنه»، قلت.

حملت حقيبتها وقالت إنّها ذاهبة. «انتبه عليه والله يشفيه».

لم تأتِ مدام كلير هذا الأسبوع، وربّما لن تأتي بعد الآن. وأنا المسؤول. لكنّي لم أستطع أن لا أسألها، أراها تأتي مرّة في الأسبوع، وأتخيّلها معك، تأكلان الزيتون الرّومي المغمّس باللّيمون والزيت.

تأكل زيتون نهيلة مع امرأة أخرى!

أنا لم أعد أفهم.

أعرف أنّك ستسألني عن الممثّلة الفرنسيّة. لكن لا، والله لا، لم يحصل شيء مع الممثّلة الفرنسيّة، فقط شعرت بحنان غريب.

سوف تسألني عن زيارتي لها في «فندق نابليون» في شارع الحمرا.

لم أكن أنوي زيارتها، كنت أشعر بالاختناق هنا، فذهبت. لن أروي لك شيئًا الآن، سأتصرّف مثل كلير مدوّر، التي ذهبت دون أن تخبرني شيئًا.

قل لي، هل كلير هي المرأة التي لجأت إليها خلال الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢، ادّعيت أنّك هربت إلى منزل كاهن مسيحي! هل هي الكاهن؟ كمشتك، الآن كمشتك وصار عليّ أن أترجم كلامك. كلّ كلام يحتاج إلى ترجمة يا سيّدي، كلّ كلام هو تورية واستعارة، وعلينا ترجمته. الآن سوف أترجمك من الأوّل، وسأكتشف داخل عباراتك المتقطّعة، الكلام الذي لم تقله، وأؤلّفك من جديد، كي أصل إلى حقيقتك.

هل أستطيع الوصول إلى حقيقتك؟

وماذا تعني حقيقتك؟

لا أعرف، لكنّي سوف أكتشف أشياء لم تخطر في بالي.

«وأنت»؟ سوف تسألني.

«أنا»!

«نعم أنت، ماذا عنك أنت»؟

«لا شيء».

«والممثّلة الفرنسيّة»؟

«لا شيء».

«وشمس، أين شمس»؟

أرجوك يا سيّدي لا تقل شيئًا عن شمس. أعدك، سوف أنسى كلير والزيتون المغمّس باللّيمون، وكلّ شيء، ولكن أرجوك، شمس لا.

تعال إذن نقفل هذا الباب، ونعود إلى قمر الصيف، ونهيلة.

في تلك اللّيلة، كان القمر يشتعل في سماء الجليل. قرع يونس زجاج النافذة، ومضى، ولكنّه سمعها توشوش. التفت فرآها تقف خلف النافذة، وضوء القمر ينسكب على شعرها الأسود الطويل. اقترب، فقالت «الرّوميّة، اسبقني إلى الرّوميّة».

مضى إلى الشّجرة وهو يتساءل لماذا لا تريد المجيء إلى المغارة، وخمّن أنّها ربّما كانت مريضة. فهي حين تكون مريضة، تأتيه إلى باب الشمس، وتطلب منه الخروج إلى الحقل، وهو يعاند. ثمّ تنتهي اللّعبة بأن يمتصّ كلّ ثنايا جسدها، وهي تصرخ به «حرام، حرام، هذا حرام»، وكان يتراجع أمام الحرام، ويكتفي بسكب روحه بين ثدييها الصغيرين.

ذهبت إلى الرّوميّة، وبدل أن ينتظرها تحت الشجرة، دخل في جذعها الكبير المجوّف. وكان الجذع يتّسع لأكثر من ثلاثة أشخاص، والتمعت في رأسه فكرة أنّه يستطيع احتواءها هنا. اختبأ في الجذع، وكتم أنفاسه، وسمعها تحوم حول الشجرة بحثًا عنه. دارت حول الشجرة، وفتّشت، وكانت تشبه طفلة صغيرة ضائعة في الحقل. واشتعل فيه الحبّ. انتظر حتّى اقتربت من فتحة الجذع، وجذبها إليه وأدخلها، وهي تستعيذ باللّه من الشّيطان الرجيم. ضمّها إليه وكانت ترتعش بالخوف والتردّد.

«هذا أنا»، قال، «لا تخافي».

استسلمت ليديه وقبلاته وأنفاسه الحارة، التي كانت تلفحها في كلّ مكان.

«لا، لا»، قالت.

شدّها إليه، أسند ظهره إلى طرف الجذع، وحاول رفع فستانها، فتراجعت إلى الوراء، اصطدم رأسها بالجذع، وضعت يدها على رأسها وهي تتأوّه، اقترب منها كي يرى، دفعته بكلتا يديها، وتسلّلت إلى الخارج، تبعها مادًا يديه، كأعمى يبحث عن شيء يرتطم به.

«اسمع»، قالت، وجلست.

«اجلس هنا»، وأشارت بيدها.

سألها عن رأسها.

«لا شيء، لا شيء»، قالت.

فردت زوّادتها على الأرض، «جلبت لك هندباء. ومدردرة».

«لا»، قالت وهي تتفلّت من قبضته، «اليوم لازم تسمع».

استمع إليها وهو يأكل، وأنوثة القمر تتسلّل إليه وتبرّد جسده. كانت تحكي وتولد في كلماتها. يومها ولدت نهيلة السابعة.

نهيلة الأولى، كانت زوجته الصغيرة التي لم يعرفها، لأنّه كان في الجبال مع المجاهدين.

نهيلة الثانية، كانت المرأة الجميلة التي ولدت في مغارة باب الشمس، وهي تدعس على حبّات العنب، وتتزوّج زوجها.

نهيلة الثالثة، كانت أم ابراهيم الذي مات.

نهيلة الرابعة، كانت أم نور، التي التصق بها يونس في المغارة، وصار يدعوها أم النور، كلّما أتته والضوء يشعّ من عينيها.

نهيلة الخامسة، كانت بطلة المأتم، التي خرجت من السّجن لتعلن موت زوجها، وتتشحّر أمام الناس.

نهيلة السادسة، هي أمّ كلّ هؤلاء الأولاد، الذين يملأون ساحة دير الأسد.

في تلك اللّيلة ولدت نهيلة السابعة.

تحت شجرة الزيتون التي يتناثر في أغصانها القمر الجليلي الأخضر، ولدت نهيلة السابعة. كانت على مشارف الأربعين، الخطوط تتسلّل إلى عنقها الطويل، والحزن يمتدّ من العينين إلى الخدّين.

نهيلة السابعة تعبت من التعب. امرأة وحيدة وفقيرة.

«أنت لا تعرف شيئًا»، قالت، «اقعد واسمع».

قالت إنّها تعبت. «أنا تعبت يا يونس وأنت مش داري. أنت لا تعرف شيئًا، صحيح قل لي من أنت»؟

أقالت له من أنت؟ أم اكتفت بحكاية عذاباتها، فرأى نفسه في مرايا كلامها؟

جلس يونس، واكتشف أنّه لم يكن يعرف شيئًا. فهو لم يهتمّ إلاّ بنهيلاته، كأنّه تزوّج سبع نساء مختلفات في كلّ شيء لكنهنّ يتشابهن في مسألة واحدة هي الانتظار.

رأى يونس حياته كشظايا متناثرة. من فلسطين إلى لبنان، ومن لبنان إلى سوريا، ومن سجن إلى سجن آخر.

عاش داخل رحلاته الطويلة إلى الجليل، حيث كان عليه اختراق الأسلاك الشائكة، وتجاوز المخاطر وحرس الحدود، والرشّاشات التي حصدت المتسلّلين.

بنى الخلايا السياسيّة والعسكريّة، التي تشكّلت من فلول الرجال الباحثين عن طريق العودة إلى أرضهم. دخل تنظيمات مختلفة. بدأ قوميًا عربيًا مع «أبطال العودة»، و«شباب الثأر»، وانتقل إلى حركة فتح بعد لقائه بأبو علي إياد، وصار أحد مسؤولي القطاع الغربي.

«عشت في لا مكان»، قال لنهيلة. «كأنّني لم أعش، وأنت هنا وحدك، وأنا لا أفعل شيئًا من أجلك، تعالي معي إلى لبنان».

قالت لا، «الأولاد كبروا وانتهى الموضوع، ماذا تريدني أن أفعل في لبنان، أسكن في المخيّم؟! أصير لاجئة؟ لا، أنت تعال. أعرف أنّك لا تستطيع لأنّهم سيقتلونك أو يسجنونك هنا. لا أنت تستطيع ولا أنا، وأنت زوجي وأنا امرأتك، ما هذه الحياة يا أبو سالم؟»

كان القمر الأخضر ينتشر فوق يونس، والحكاية تتسلّل إلى عينيه وتغرقهما بما يشبه النعاس. لم يكن دمعًا، انغرست الأشياء في عينيه وامتدّت أمامه، وكان كأعمى يبصر، رأى ولم يفهم. هكذا كان يونس أمام

نهيلة السابعة، يسمع ويرى، ويتلاشى في ضوء القمر الذي يخرج من عيني المرأة صافيًا وأخضر.

حكت عن العالم الذي قسمته إلى نصفين، والحياة التي تشبه المربّعات الصغيرة، والأولاد. لم تقل إنّها تعبت من الذلّ والفقر، لم تقل إنّها عاشت في مربّعات الخوف، وإنّ أولادها - أولاده، طحنوها بأسئلتهم وعيونهم الخائفة. لم تقل إنّها انتظرته كي يأتي ويقول تعالي معي، وإنّها اعتقدت أنّه لم يقل ذلك من أجل والديه، فانتظرت، وحين ماتا لم يعد الذهاب ممكنًا. قالت فقط إنّ الأمور لم تعد سهلة، وإنّ سالم ومروان بدآ العمل في كاراج الخواجة حاييم في حيفا، وإنّهما سعيدان في الكاراج. ثمّ تسلّل إلى صوتها إيقاع التردّد، وبدأت تضع مسافات الصمت بين كلماتها.

«أنت لا تعرف»، قالت نهيلة. «أنت لا تعرف شيئًا، تعتقد أنّ الحياة هي هذه المسافات التي تقطعها، ثمّ تأتيني برائحة الغابة. وتقول إنّك ذئب وحيد، لكن لا حبيبي، الحكاية ليست رائحة الذئب ولا رائحة الزعتر البرّي، ولا شجرة الزيتون الروميّة، الحكاية هي حكاية الناس الذين صاروا كالغرباء. هل تعلم من نحن؟ هل تعرف ماذا جرى لنا، حين وجدنا أنفسنا نمشي خلف رجل أعمى يقودنا؟ أمّك أنقذته من الموت، سحبته من وسطهم، وكان الجندي الإسرائيلي ينظر إليها كأنّه لا يرى. قالت إنّها طلبت إلى اللّه أن يعمي عيونهم فلا يروها. ثمّ قتلوهم. أنت تعرف ماذا جرى في شعب. وجدنا أنفسنا والرصاص فوق رؤوسنا، لا، قبل أن نهرب، أخذوا الرجال الذين أمروهم بالوقوف أمام البركة إلى المجهول، وسمعنا صوت الضابط الإسرائيلي يصرخ: إلى لبنان. أمّك أمسكت بيد أبيك، وقادته إلى حيث أشار الضابط، لكنّ الرجل مشى في الاتّجاه المعاكس، فتبعناه. أعمى، يقود امرأتين وطفلاً إلى حيث لا ندري. «روحي مع الناس»، قالت أمّك، لكنّي لم أذهب، خفت أن أتركهما، خفت أن ألتقي بك في لبنان، خفت منك ومن تلك الجموع التي كانت تتراكض وتدوس بعضها بعضًا. قلت لا، أبقى معكما. ومشينا، وبدأت الدنيا تليّل، لكنّ الشيخ لم ينتبه، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يعجز فيها الشيخ عن تمييز الليل من النهار. قالت أمّك إنّ الشيخ انعمى يومها، أنت تعرف أباك أكثر منّي، كان الشيخ يعرف

مواقيت الصلاة من علاقة عينيه المغمضتين بنور الشمس. لكنّه في تلك اللّيلة، فقد القدرة على التمييز، وصار أعمًى كالعميان. امرأتان تمشيان خلف رجل أعمى، في ليل أسود، وبلاد يظلّلها الخراب. مشينا ساعات لا تنتهي، ثمّ وقف الشيخ وقال وصلنا إلى دير الأسد، خذوني إلى الجامع. قرّر الشيخ أنّ دير الأسد هي قريته الجديدة، وفي الصباح، ذهبت أمّك إلى المختار، وهو قريب لأبيك، لأنّه أيضًا من عائلة الأسدي، ويدعى عوّاد. لكنّ المختار ادّعى أنّه لا يعرفكم. ففي تلك الأيّام، لم يعد أحد يعرف أحدًا. صرنا كلّنا غرباء. تدخّل شيخ القرية، جاء إلى الجامع وقال لأمّك إنّ هناك الكثير من البيوت التي هجرها أهلها، اذهبوا إلى أيّ بيت. وذهبنا إلى أوّل بيت وجدناه، وكان جميلاً، يقع قرب المغاور التي صار اسمها باب الشمس، ومحوطًا بحقل زيتون. إنّه بيت أحمد كريم الأسدي الذي هرب إلى لبنان مع أفراد عائلته، لحظة الحادثة الشهيرة في ساحة القرية، حين استلقى الناس على الطريق في الساحة، كي يمنعوا الآليّات الإسرائيليّة من التقدّم. أحمد كريم الأسدي لم يذهب إلى الساحة، بل هرب من القرية مع خلق كثير. ذهبنا إلى البيت وسكنّاه وصار بيتنا، وصارت القرية قريتنا».

«نعم يا سيّد يونس، كنّا غرباء، ووالدك صار شحّاذًا. أقمنا في البيت لا ندري ماذا نفعل، واكتشفنا مع أهالي القرية، أنّ الأرض ضاعت. القرية لم تعد قرية. فلاّحون لم تعد أرضهم لهم، فصاروا لا شيء. مثلكم في لبنان وسوريا ولا أعرف أين. لا أرض ولا بنادق ولا خيل، وتسمّي الرجال رجالاً. لم يعد هناك رجال يا سيّد يونس. وحين قامت امرأة بقطف زيتونها، اعتقلوها وأجبروها على رميه، لأنّ الأرض صارت من أملاك الدولة، ولم يعد أمام الناس من عمل سوى السرقة. نعم سرقنا أرضنا وعشنا كاللّصوص. لا أعرف كم كان عدد الذين بقوا، ولا لماذا بقوا، أنا بقيت لأنّي تبعت الرجل الأعمى، والناس هربت لأنّها ركضت كالعميان».

«كنتم أكثر من مئة ألف»، قال يونس.

«هؤلاء الذين بقوا، صاروا كالغرباء. القرى اختلطت ببعضها بعضًا، شعب سكنها البدو، ونحن في دير الأسد، والبعنة امتلأت بأناس لا نعرف

من أين أتوا. اختلط الناس ولم تعد القرى تشبه القرى، ولم نعد نشعر بأنّنا في بلادنا. أنتم لم تذوقوا سوى طعم الرصاص الذي تطاير فوق رؤوسكم، والدم الذي سال، والشباب الذين حصدهم الموت. أمّا نحن، فلم نعد نستطيع التحرّك من مكان إلى مكان. الذهاب من قرية إلى قرية، كان يحتاج إلى تصريح عسكري. حتّى البعنة القريبة كمرمى حجر، لم يعد بمقدورنا زيارتها. كأنّهم بنوا حيطانًا وهميّة بين القرى. وصار الناس لصوصًا أو كاللّصوص، يسرحون ليلاً في حقولهم، ويسرقون محاصيلهم. غرباء يسرقون غرباء. أنظر حولي فلا أرى سوى الفراغ، كأنّ الإنسان حفر لنفسه قبرًا في الهواء واندفن فيه. وكرهتهم كلّهم. كرهتهم يساقون إلى العمل عند أعدائهم، يبنون المستوطنات للمهاجرين الجدد بأذرعهم. كنّا كالهبل، نكره بعضنا بعضًا دون سبب. نعم شعب أهبل وساذج. دفنّا أرضنا بأيدينا. بدل أن نحفر من أجل إنبات الزرع وإطعام الضرع، حفرنا الأساسات لبيوت بنيت فوق أنقاض بيوتنا. كنّا نشتغل ولا نجرؤ على النظر إلى عيون بعضنا بعضًا، كنّا كأنّنا نستحي.

ماذا كنّا نستطيع؟ لا شيء؛ اشتغلنا من أجل أن لا نموت.

ثمّ جئت أنت.

جئت وسط الكراهية التي حاصرتني، وقرعت نافذتي. هل كنت تعتقد أنّك قيس الباحث عن ليلى وسط الخراب؟ يا عيني عليك. واللّه كرهتك كما كرهت نفسي. خفت أن تأخذني إلى لبنان، وأنا لا أريدك، فأنا لا أعرفك وأخاف منك. ولم يبق لي في الدنيا غير الأعمى الذي كان يذهب كلّ يوم إلى الجامع، محاولاً إقناع الناس أنّه شيخ الطريقة الشاذليّة، فيشفقون عليه، ويلقون له بعض القروش، التي لم تكن تكفي ثمنًا للخبز. وأمّي لم أعثر لها على أثر. كأنّ الأرض انشقّت وابتلعت أخواتي. هل تعرف شيئًا عن أهلي؟ هل هم في لبنان؟ أنا لم أسألك عنهم، وأنت لم تفتح سيرتهم، كأنّنا اتّفقنا على نسيانهم. كنت في البداية أرى أمّي في مناماتي، أراها تغرق في ماء أخضر يبتلعها، وأنهض وعنقي مضغوط كأنّي سأختنق. ثمّ بدأت صورهم تغيب. أعرف أنّهم في مكان ما، لكنّي نسيتهم وكرهت أمّي، كيف زوّجتني رجلاً لم يكن رجلاً، وأنا طفلة. كيف تركوني أتشرّد من

مكان إلى مكان، ولم يسألوا عنّي؟ ولم يعد لي سوى الأعمى الشحّاذ، الذي نجح، والله نجح بأعجوبة، لا أعرف كيف، لكنّه تحوّل شيخًا حقيقيًا، وصار له مريدون.

وجئت أنت.

كنت قد بدأت أتعوّد حياتي الجديدة، حين عدت إلينا حاملاً الوعد. لماذا وعدتني أنكم ستعودون. لماذا جعلتني أصدّقك، رغم أنّك كنت تعرف. لا تقل لي غير ذلك. كنت تعرف أنّه التاريخ، والتاريخ كلب. كنت تجلب لي الكتب وتمضي. وأنا أقرأ. قرأت كلّ الروايات والأشعار، وحفظت القصص غيبًا. هل تعلم ماذا كنت أفعل، كنت أنسخ الكتب. رواية غسّان كنفاني «رجال في الشمس». نسختها مرّات لا تُعدّ.

وماذا أيضًا.

والدك كان حادًا كالسكّين، قال نموت ولا نسمح لنسائنا بالعمل عند اليهود. ولم يسمح لي. وصار بطني ينتفخ، وأنا أنتفخ، وأطفالي يملأون البيت. كنت أنتفخ من أجل أن لا أموت. أحبل فأحسّ الحياة تنبض في بطني وأمتلئ».

حكت نهيلة وحكت.

حكت عن موت إبراهيم وجنونها.

حكت عن سالم، الذي سرقته جدّته كي لا يموت جوعًا إلى ثديي أمّه الناشفين.

حكت عن نور، والأطفال الآخرين الذين كبروا اليوم.

حكت وحكت، ويونس يضع رأسه بين يديه، جالسًا على أرض الزيتونة الروميّة التي تمتدّ في أفق قمر الصيف الأخضر.

حكت عن بلاد لا تشبه نفسها، وبشر كانوا يرفضون النظر في المرايا كي لا يروا وجوههم، وقرى مهجورة... قالت إنّها لم تكن تعتقد أنّ هذا العالم الذي رسا على الخراب سوف يستمرّ. «عشنا في انتظار شيء سيأتي، كأنّنا لسنا في مكان حقيقي».

«لذلك أحببتك»، قالت.

«هل تذكر يوم جئتني وتزوّجتني من جديد، في تلك المغارة الباردة، فرشت ثيابك فوق أرضها، ودعوتني إلى المشي فوق حبّات العنب. هناك أحسست بشيء حقيقي. هناك كانت الأشياء حقيقيّة، أمّا هنا فلا. أحببتك في ذلك المكان الذي أسميته باب الشمس، كنت أجيء إليك وكأنّني قادمة من النوم فوق الشوك. ففي بيت دير الأسد الذي صار بيتنا، وبين الأثاث والأواني التي تركها أصحابها، شعرت بالخوف والغربة وعدم الأمان. أشرب في كباياتهم، وأطبخ في طناجرهم. بماذا يشعر اليهود الذين سكنوا بيوتنا؟ أنا لم أستطع، رغم علمي بأنّني سأعيد كلّ شيء إلى أصحابه، واللّه أعيده لحظة يريدون. عشت كلّ حياتي في دار الأسدي الذي هرب إلى لبنان، وشعرت أنّني لم أعد أنا.

صحيح من أنا ومن أنت؟

إبراهيم وحده أشعرني بالحياة، لكنّه مات. قتلوه أو مات قضاء وقدرًا، واللّه لا أعرف. أنا لا أبكي على إبراهيم، أبكي على حالي.

هل تعلم؟

مرّة قرّرت أن أشتغل. أشتغل أيّ شيء، أشتغل خادمة، لكن أين؟ ذهبت إلى حيفا، أنا لم أزر حيفا في حياتي، ركبت حافلة وذهبت، ومشيت في شوارع المدينة كالتائهة. وفي حيفا ضعت. لا، ليس بسبب اللّغة، أنا أتكلّم لغتهم، تعلّمتها مع أولادي، أتكلّمها كما يتكلّمونها، بل أحسن منهم. ضعت، لأنّي شعرت بالغربة. في الطريق من هنا إلى هناك، رأيت البيوت التي نبتت، كأنّني في بلاد لا أعرفها. وهناك في حيفا رأيت المدينة. واللّه حيفا جميلة، جبل ينسكب في البحر، وبحر يضمّ الجبل كأنّه يصعد إليه. لكن ما نفع الجمال. هل صحيح أنّ بيروت تشبه حيفا؟ أنت لم تخبرني عن بيروت، لكن حيفا جميلة، ياليتنا نستطيع أن نسكن مع الأولاد هناك. ذهبت بحثًا عن عمل، ولم أقل للشيخ أو لزوجته. على كلّ، فالشّيخ وقتها صار لا يستوعب ما يقال له. يتحمّم بالتراب، ويعيش في عالمه البعيد. لا أعرف أين يعيش، ولا مع من يتكلّم، كان يحكي مع كائنات غريبة يراها ولا نراها. ذهبت وحدي كي أجد حلاً لمشكلتنا الماديّة، التي صارت حقيقيّة منذ قعود الشّيخ في البيت، ولم أستطع أن أجد عملاً. وأنت لا تبالي ولا تعرف ولا

تأتي. وحين تأتي وتعطيني المال القليل الذي صرت تجلبه معك، لم أكن أقول لك إنّه لا يكفي، كي لا تزعل. فالقرية لم تعد قرية، صارت جزءا من مدينة كبيرة تمتدّ من أعالي الجليل إلى عكّا. لكنّها مدينة أشباح. ماتت القرية، وماتت المدينة، ونحن نحاول أن... أنت لا تعرف شيئًا، قلت للمحقّق العسكري، واللّه لم أخف، قلت له أنا حرّة وأنت مالك، وأنت شو خصّك، قلت له أنتم أقوى وأغنى، ولكنّكم شيء مستحيل لا يمكن أن يستمرّ إلى الأبد. لا أعرف من أين جاءتني الفصاحة، وكيف استطعت أن أقول ما قلته عن اليهود، قلت له إنّكم تعذّبتم، لكن عذابكم لا يعطيكم الحقّ في تعذيبنا. قلت له إنّنا نتألّم من الأحشاء. سألني عن بطني المنفوخ والحبل والأولاد، فقلت إنّه الألم، الألم يتوالد يا سيّدي. أنت لا تعرف معنى الألم الذي يضرب الأحشاء، وكان يستهزئ بكلامي، قال روحي إلى لبنان عند زوجك، قلت زوجي ليس في لبنان، ولا أعلم أين هو، ولن أذهب إلى أيّ مكان. أنت يا سيّدي، اذهب إلى بولندا من حيث أتيت، أو ابق هنا، ولكن حلّ عنّي. أنت تأتي وتريدني أن أذهب! لماذا؟ أنا لا أعرف كيف أجادلهم، كنت، هو يحقّق معي، أتخيّلك أمامي، وأقول لو كان يونس هنا لأفحمه. أنت تتكلّم وتقنعني بكلّ شيء. هل تذكر الأيّام الأولى في المغارة، كنت تنام معي، ثمّ تشعل سيجارتك، وتبدأ في الحكي. تحكي في السياسة، وأنا لم أكن أفهم في السياسة، كنت أنتظرك كي تأخذني إليك، وتغطيني بجسدك، وتنزع عن روحي الأشواك التي علقت بها. لكنّك لم تكن تحكي إلاّ في السياسة، وعن استعداداتكم لتحرير الأرض، وتخبرني عن جمال عبد الناصر الذي يشبه صلاح الدين. وكنت أصدّقك، قلت للمحقّق العسكري عن صلاح الدين، فضحك، برزت أسنانه الكبيرة البيضاء، وقال أنتم العرب تعيشون في أحلام اليقظة. لم أفهم معنى هذه الكلمة، لكنّي قلت له إنّنا لسنا عربًا. لماذا، قل لي، لماذا لا يسمّون هنا في إسرائيل العرب عربًا، يسمّون المصريّين مصريّين، والسّوريين سوريّين، واللبنانيّين لبنانيّين، ولا يسمّونهم عربًا. هل نحن وحدنا العرب؟ نحن فلسطينيّون يا سيّدي، قلت له، فقال مجرّد أحلام يقظة. أنا موافقة على أنّنا عرب، وإلاّ فماذا نكون؟ لكنّني قلت إنّنا لسنا عربًا كي أغيظه، لأنّني لم أفهم ماذا تعني كلمة أحلام اليقظة.

وبعد ذلك فهمت.

حياتي كلّها أحلام يقظة.

أنت تعتقد أنّني كنت أنتظرك، لأنّ رجولتك سحرتني. لا يا يونس، كنت أنتظرك كي أحكي، كي أخرج من أحلام اليقظة التي تبتلع حياتي. لكنّك لم تكن تستمع. كنت تروي مغامراتك، وسحر اللّيالي التي سحرتك، ولكنّك لم تكن تعرف شيئًا.

أنا لم أخبرك ماذا فعل الشباب هنا في القرية. خفت أن تزعل. كانوا في أوّل كلّ شهر، يقرعون بابي، ويرمون خرقة صغيرة، أفكّها، فأجد المال الذي عشنا به. هل تعتقد أنّ أباك الأعمى أعالنا. عائلة مؤلّفة من عشرة أفواه. هل تعتقد أنّنا كنّا ننتظر زياراتك وقروشك القليلة كي نعيش؟ لا يا أبو سالم، كنّا ننتظر الخرقة الصغيرة، التي لا أعرف من يرميها، ولا كيف جمعوا المال، ولا أريد أن أعرف.

لا تقل إنّهم رفاقك، فأنت تعرف أنّني أعرف أنّه لا علاقة لكم.

انتظرتك من أجل أن أشعر بأنّ حياتي حقيقيّة. هل تصدّق؟ عشت حياتي كلّها وأنا غير مقتنعة بأنّها الحياة. ربّما كان كلّ الناس هكذا، ربّما كانت كلّ الحيوات مثل حياتي، لا أعرف لكنّي تعبت».

قالت نهيلة السابعة إنّها خائفة.

«بدأت أخاف الآن. نور سوف تتزوّج، وسالم ومروان يذهبان للعمل يوميًا في كاراج الخواجة الإسرائيلي، وما هو المستقبل؟

أخاف على أولادك، لا أعلم كيف سيعيشون، لا أفهم عليهم، يعيشون هذه الأشياء كأنّها الأشياء، وهذا الواقع كأنّه الواقع. هل تعرف ماذا قال سالم، قال إنّه سيفتح كاراجًا هنا في دير الأسد، قلت له إنّ دير الأسد ليست قريتنا، فضحك، وقال إنّه يحلم بالسفر إلى أميركا. ونور ما أحلاها، نور سوف تتزوّج، والأولاد في المدارس، وأنا خائفة عليهم. وأنت لا تهتمّ، لا تسألني إلاّ عن صحّتهم، ولا تهتمّ بالمدرسة والمستقبل، هل تعتقد أنّهم سينتظرونك، معلّقين حياتهم في الفراغ، كما علّقتها أنا في انتظار صلاح الدينك الذي سيعيد الأشياء إلى ما كانت عليه. الأشياء لن تعود، لا تفهمني خطأ، أنا لا أقول، أنا طبعًا أحمل الجنسيّة الإسرائيليّة،

وأنتخب القائمة الشيوعيّة العربيّة إلى الكنيست، وأحضر الاجتماعات والتظاهرات، من أجل المحافظة على ما تبقّى من الأرض.

قلت للمحقّق إنّهم مثل قلعة صليبيّة معزولة، مصيرها الذوبان.

قلت له إنّنا دفعنا كلّ الثّمن، وتحطّمنا. أوصلتموننا إلى القاع، وبعد القاع لا شيء، ستنحدرون معنا، وسنأخذكم إلى قاعنا، وستذوقون طعم النار التي تحرقنا...

لا تفهمني خطأ يا يونس، لكنّي أريد تأمين مستقبل أولادي، أريدهم أن يعمّروا بيوتًا، ويجدوا عملاً، ويتزوّجوا، ويعيشوا. أريد أن تنتهي الأوهام، أريدك أن...».

لم يتركها تكمل جملتها.

فهم يونس أنّها لم تعد تريده، فهم أنّها تعبت منه، ومن رحلته في المجهول، فهم واكتشف في تلك اللّحظة، أنّه لم يأتِ كثيرًا، وأنّه تكلّم على رحلاته إلى هناك أكثر ممّا ذهب، وأنّ حياته هو أيضًا، تشبه حلم اليقظة.

قال إنّها حياته.

قال أنت والأولاد حياتي، ولا حياة لي من دونكم.

قال إنّه لا يدري، ولكنّها الثّورة.

دخل يونس في تلك الأيّام من عام ١٩٦٩ مرحلة جديدة من حياته السياسيّة. انضمّ إلى حركة فتح، وصار أحد مسؤولي القطاع الغربي، كما صار عضوًا في مكتب قيادة قطاع الجنوب اللبناني.

قال لنهيلة إنّ الأمل ظهر من جديد، قال إنّه لا يستطيع الآن أن يترك كلّ شيء ويأتي ليعيش معهم.

«لا، لا، أنا لم أطلب منك أن تأتي».

قال إنّه فكّر في الموضوع، لكن ماذا يفعل هنا، وماذا يشتغل؟ قال إنّه لا يعرف أن يشتغل شيئًا، ولا يعرف أن يعيش إلاّ كما عاش، لكنّه يفهم وضعها، وهو من أجلهم.

«أنا من أجلكم»، قال.

ابتسمت نهيلة، ولم تقل شيئًا.

وهبط الصمت.

صار الوقت بطيئًا وسقط بينهما جامدًا لا يتحرك. حاول يونس كسر الصمت، لكن صمت المرأة انتشر فوق المكان. استمع إليها، وكان في قرارته يعرف أنّه هكذا، وأنّ الحياة مرّت إلى جانبه ولم ترتطم به.

«واللّه لم...».

انكسرت جملته، وشعر بحاجة إلى النوم. لو يأتي النوم، ويأخذه من هنا إلى هناك. وكان النوم في كلّ مكان. القرية نائمة، الشّجر نائم، ويونس يجلس صامتًا بين يدي نهيلة.

نهيلة كسرت الصمت، قالت إنّ سالم سوف يصبح رئيس ورشة في كاراج الخواجة حاييم، وإنّ مروان يذهب مع أخيه إلى العمل ويتعلّم منه، وإنّ الابن الثالث أحمد شاطر في المدرسة كثيرًا ويكتب الشعر، وإنّ سلمى تساعدها في البيت وممتازة في اللّغة الإنكليزيّة، وإنّ الصغيرين صالح ونزار ما زالا صغيرين.

«اسمع يا يونس»، قالت نهيلة، «أريد أن أفتح كاراجًا لسالم هنا، هل تستطيع مساعدتنا بحوالى ثلاثة آلاف دولار أميركي».

«ثلاثة آلاف»! قال بصوت أبحّ، «أنا أدبّر ثلاثة آلاف»؟

«لا عليك، نحن ندبّرها، أردت أن أسأل فقط، لا تهتمّ، ندبّرها كما دبّرناها، كان يجب أن لا أطلب منك، أنا أعرف أنّك لست من هؤلاء، لكن ألن تأتي لحضور عرس نور. طبعًا لن تأتي، على كلّ حال، العريس مصرّ على الفرس. قال أهله إنّهم سيأتون على فرس عربي أصيل، ويخطفون نور من أمام بيتنا، كما هي عاداتهم، ونور تحبّه، أنا متأكّدة من أنّها تحبّه، كان معها في المدرسة، وهو يشتغل الآن في عكّا، وينوي الانتقال للإقامة هناك».

قالت نهيلة إنّ أمور الحياة سخيفة. «كما ترى يا يونس، أمور الحياة سخيفة ولا معنى لها، ولكن علينا تدبيرها. مالك لا تحكي، انقطع لسانك، أنا لا واللّه، لا أريد منك شيئًا. فقط أردت أن أفشّ خلقي وأحكي، مع من أحكي. قبل وفاة أمّك اللّه يرحمها، كنت أحكي معها، ولكن هل تعتقد أنّ الكلام ممكن معها؟ عندما قلت لها إنّني سأشتغل جنّ جنونها، وحين كانت

تراني في البيت أدرس اللّغة العبريّة مع الأولاد، كانت ترتجف من القهر. ماتت أمّك وعاشت في عالم لا ينتمي إلى العالم الحقيقي، وكان عليّ أن أذكّرها كلّ الوقت من نحن، وفي أيّ ذلٍّ نعيش.

كيف أخبرك عنها؟

مسكينة، كانت لا تعرف كيف تداري الشيخ الأعمى، أو تسهّل له أمور النهاية. قالت لي إنّه في النهاية، وعلينا أن نساعده على الذهاب إلى النهاية. كان أبوك عنيدًا، يتحمّم بالتّراب، ولا يدري أين هو، ويحكي مع أخته. لم أفهم لماذا أخته. كان يخاطبها فأعتقد أنّه يكلّمني، أجاوبه، فيشيح وجهه ويقول أنت اسكتي. أمّك أخبرتني عن أخته التي ماتت وهي تلد ابنها الأوّل. كأنّ كلّ شيء امّحى من رأسه، ولم يعد هناك سوى أخته. حتّى زوجته، كان يعتقد أنّها أخته، تأمره فيطيعها، وأمّك تقول لي «شوفي على هالآخرة يا بنتي، الزوجة بتصير الأخت، والابن بيصير الأب، وكلّه غلط بغلط».

وأنت، متى ستصير أخي. تعال نَصِرْ أخوة، أنت أخي وأنا أختك، هكذا أستطيع أن أقول لك كلّ شيء، وتستطيع أن تخبرني كلّ شيء. الرجل لا يقول كلّ شيء لزوجته، والمرأة لا تقول لزوجها، أمّا الأخ والأخت فيستطيعان.

تعال وقل لي.

أعرف أنّك زعلان الآن، أعرف أنّه ما كان يجب أن أخبرك هذه الأمور، لكن ما لا تعرفه هو أنّني لست زعلانة منك. لا واللّه، فأنا حين أعلنوا موتك واستشهادك، عدت من السجن إلى البيت، وأقمت لك مأتمًا لا مثيل له. يومها بكيت وتشحّرت وصرت مثلاً. المحقّق العسكري الذي استدعاني بعد شهر، قال إنّي أصلح ممثّلة في السّينما. لكن ما لا يعرفه المحقّق، هو أنّني لم أكن أمثّل، كنت مقتنعة في أعماقي بأنّني أصبحت أرملة، وأنّك لن تكون زوجي أبدًا.

المحقّق العسكري لا يعلم أنّنا لا نمثّل. أكثر من عشرين سنة ونحن نمثّل، حتّى لبسنا الدّور وصرنا نشبه ما نمثّله كلّ يوم. أنت تمثّل هناك، وأنا أمثّل هنا، واللّه شيء مضحك.

اضحك، لماذا لا تضحك؟

أنت تمثّل دورك، وأنا أمثّل دوري، وراحت الحياة.

قل لي عنك، أخبرني كيف تعيش، كيف تدبّر أمور حياتك، كيف تستطيع؟

أنا أخبرتك، دبّرتها بالتّمثيل، مثّلت أنّي أرملة ومشي الحال، ومثّلت أنّي زوجة بطل، فصرت أحسن وأحسن.

وأنت ماذا تمثّل هناك؟

هل أخبرتك عن القضيّة التي رفعتها أمام المحاكم الإسرائيليّة، حين رفضوا تسجيل أولادك باسمك. وحدهما سالم ونور تمّ تسجيلهما أمّا الباقون فلا. رفعت القضيّة، وكلّفت المحامية الإسرائيليّة مدام بيضا، وربحنا الدعوى. قبل مدام بيضا كلّفت محاميًا عربيًا من دار شمّاس في فسوطة، لكنّه فشل، لم يستطع أن يثبت أنّك حي. المحامية الإسرائيليّة قلبت المسألة رأسًا على عقب. طلبت منهم أن يثبتوا أنّك ميت، فعجزوا عن ذلك. لم يكن في حوزتهم سوى البلاغ العسكريّ الذي أعلن فيه «المخرّبون»، استشهادك، وهو مستند لا قيمة له في عرف القضاء الإسرائيلي، لأنّ إسرائيل لا تعترف بشرعيّة وجود منظّمات «المخرّبين»، وأجبرتهم على إصدار حكم بتسجيل الأولاد. هذا هو انتصاري الأكبر هنا. أجبرناهم على تسجيل الأولاد باسم رجل يطاردونه ولا يعترفون بوجوده. يومها فقط، أحسست بأنّك زوجي، لكنّه إحساس انتهى بسرعة. كم فرحت يومها، ولكنّك لا تعلم. كيف تعلم، وأنت لا تأتي إلاّ حين يحلو لك. وحين أتيت كان الخبر قد برد. وحين أخبرتك، هل أخبرتك؟ لا أذكر أنّك قلت شيئًا يوازي تلك الحكاية الكبرى، التي كانت حكايتي.

انتهت الحكاية الآن، أنا في الأربعين، وحياتي تنقلب، وأستعدّ كي أصبح جدّة. وهذا يكفي. ألا يكفي هذا كي أشعر بالحزن. أكون جالسة فأشعر برغبة في البكاء، وتتساقط دموعي دون سبب. وجهي يتنمّل، كتفاي تؤلمانني، وكلّ جسمي يتكسّر تحتي. أشعر بأنّني أنفصل عن جسدي، وأنّني وحيدة».

أكل يونس لقمة أخيرة نزلت كالسكّين في معدته، وضع يديه على ركبتيه المطعوجتين على الأرض قائلاً إنّه سيعود.

«إلى أين»؟ سألته.

«إلى لبنان»، قال.

«لا»، قالت.

أمسكته من يده، تركت الصحون المليئة وإبريق الشّاي، وقادته إلى مغارة باب الشمس. خلعت ثيابها ووقفت أمامه تنتظر. وكان يونس لا يجرؤ على النظر إلى جسدها العاري، الذي انفجرت فيه الشّهوة. اقتربت منه، وبدأت بنزع ثيابه، وهو جامد لا يتحرّك. ثمّ أخذته. هذه المرّة كانت هي من بدأ، وشعر أنّه صار ملك يديها، وأنّ رجولته امّحت. جعلته يستلقي على ظهره، وفرشت فوقه شعرها وثدييها وخصرها، وحين تدفّق منها ماء السماء، بدأت دموعها تنهمر.

نهضت، لبست ثيابها، وكانت خيوط الفجر قد بدأت تتسلّل إلى المغارة، وقالت له أن ينتظرها.

وعادت في منتصف النّهار.

عادت بوليمة كاملة. كبّة نيّة، وحوسة، وجبن بلدي، وبندورة، وقنّينة عرق.

وضعت الطعام جانبًا، سخّنت الماء وحمّمته. وكان بين يديها كطفل صغير يتخبّط في الماء، عاجزًا عن إصدار أوامره الشهيرة أو توجيه الملاحظات حول سخونة الماء أو برودته. أخذته إلى الفناء الداخلي للمغارة، الذي صار حمّامًا، أمرته بخلع ملابسه، وحمّمته بالماء وصابون الغار، نشّفته وألبسته ثيابًا جديدة نظيفة، وجلسا حول المائدة.

صبّ كأسين من العرق. شرب من كأسه، وطلب منها أن تشرب.

قالت لا.

قالت إنّها لا تحبّ العرق. في الماضي كانت تشرب لتسايره، فهي لا تحبّ رائحة العرق، خاصّة عندما ينام معها، ورائحة اليانسون تتطاير من فمه.

«كنت أشرب كي لا أشمّ الرائحة».

قالت إنّها لا تحبّ العرق، ولن تشرب.

فوجئ بكلامها، «ماذا!؟ لا تحبّين العرق»؟

«بل أكرهه».

«وشربت كلّ تلك الأعوام»؟

«كنت لا أريد أن أزعلك».

«كلّ حياتك تشربين شيئًا لا تحبّينه»!

هزّت رأسها إلى الأسفل.

«يعني أنا لا أفهم شيئًا».

هزّت رأسها.

«لا تريدين أن تتكلّمي»؟

«ماذا أقول»؟

صحيح ماذا أرادها أن تقول، بعد أن قالت كلّ شيء تحت الزيتونة. بالأمس قالت له إنّها لم تعد تريده، فماذا يريد أكثر من ذلك. بالأمس ركبته فكرة واحدة، هي كيف عرفت أو حدست، أنّه بعد الآن، ستكون زياراته صعبة ومتقطّعة ومتباعدة. فالجنوب اللّبناني امتلأ بالفدائيّين، والأرض تحترق بالقصف الإسرائيلي، والحدود صارت شبه مستحيلة. صار التسلّل يتطلّب معركة كاملة. وهناك العمر. الحرب سرقت عمره، والعمر مضى. إنّه الآن في منعطف الأربعين، لم يعد جسده آلة خاضعة لرغباته، لم يعد قادرًا على مشي كلّ هذه المسافات الطويلة، فهي لا تعلم ماذا جرى في زيارته هذه. وصل إلى المغارة ليلاً، ولم يذهب إليها فورًا، قارعًا نافذتها كعادته. كان يشعر بالوهن في مفاصله، قرّر أن يرتاح قليلاً قبل أن يذهب. لكنّه أغفى، ولم يستيقظ إلاّ في العاشرة من صباح اليوم التالي، فمكث نهاره في المغارة، منتظرًا الظّلام، كي يذهب إليها.

كيف عرفت؟

النساء يعرفن، فكّر يونس، وهو يستمع إليها. عرفت أنّ زياراته سوف تتقطّع قبل أن تنقطع، فاتّخذت القرار. لن تكون امرأة مهجورة، بل ستختار حياتها الجديدة بملء إرادتها. والآن، تأتي لتقول له إنّها لا تحبّ العرق!

هل نسيت كيف كان يشرب العرق من ثغرها؟ وكيف كانت تغسل يديها

بعد الطعام بالعرق؟ أم كانت تمثّل عليه، كما مثّلت على المحقّق العسكري، وكما مثّلت على القرية وأولادها وكلّ الناس!

قالت إنّها أعدّت هذه الوليمة لتصالحه، وتطلب منه نسيان الكاراج والدولارات وطلباتها السّخيفة. وإنّها تعتذر عن كلام الأمس، فهو رجلها وتاج رأسها، وإنّها تعلم أنّه لم يكن يستطيع أن يعيش إلاّ بهذه الطريقة، وإنّها فخورة به، فالإنسان يعيش حياته كما هي.

«مشيناها خطًى كُتبت علينا   ومن كُتبت عليه خطًى مشاها».

«هل تعلم»، قالت. «والدك، بعد أن نسي كلّ شيء، وصار يعيش مع شبح أخته، لم ينسَ بيتين من الشّعر العربي القديم. وكنت حين أريده أن يستعيد شيئًا من وعيه، أبدأ بالشطر الأوّل من البيت الأوّل، فيعتدل في جلسته، ويقول البيتين دون خطأ، وأرى الكلمات تنضح من بئر ذاكرته التي طمرتها الأيّام. يعود صوته إلى صوته، ويقول معي:

«نقّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى   ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرضِ يألفه الفتى   وحنينه أبدًا لأوّلِ منزلِ».

أنت مشيت خطواتك، وأنا مشيت خطواتي، أنت رجلي وأنا امرأتك، وأرجوك انسَ ما قلته لك بالأمس.

قالت نهيلة إنّها قالت ما قالته خوفًا على نور، لأنّها صغيرة وستتزوّج، «والله يسترها ويحميها».

اعتذرت نهيلة، وقالت إنّ الغمامة السوداء انزاحت عن عينيها الآن، ويونس ماذا يقول. أيخبرها عن حقيقة الوضع الصعب في الجنوب؟ أيعتذر لها عن كلّ تلك السنوات؟ أم يقول إنّه حاول أن يعيش ويصنع لنفسه بلادًا من الركام الذي نسمّيه تاريخنا.

لكنّه بدل أن يحكي، امتصّ قطرات العرق من كأسه، شرب ولم يرتوِ، وترك الشراب يأخذه، وبدل صورة العاشق التي كانت ترتسم في كلماته، جاءت صورة البطل، وقاده الكلام إلى الكلام. روى عن السجون ومعسكرات التدريب. روى لها عن العمليّات في أصبع الجليل، وعن الشبّان الذين تمتلئ بهم القواعد وكيف يندفعون إلى الموت.

روى عن العودة، قال إنّه سيعود مع العائدين، فالوطن ليس سجنًا، لن نعود أذلاّء وسجناء، وقال لها إنّ الثّورة التي انتظرها منذ حلّ حامية شعب، وزجّ جميع عناصرها في السجن، قد جاءت وإنّه لا يستطيع التخلّي عنها.

قال وقال وقال.

وعادت إليه نهيلة. كانت تعود مع كلّ كلمة يقولها، وكان يراها. كان وجهها يشعّ، وعيناها تلتمعان ويدها تمسك بقطع الخبز الصغيرة، تحوّلها لقمًا مليئة بالكبّة النيّة، وتطعمه.

سألها عن اللّغة العبريّة، وهل هي صعبة؟

من كلّ كلامها، لم يلتقط الرجل سوى اللّغة. كان يعرف أنّ الأطفال الفلسطينيين في إسرائيل، يدرسون العبريّة في المدرسة. وكان يعلم أنّ أولاده مثل جميع الأولاد. لكنّه أراد أن يحكي عن أولاده، فسأل عن اللّغة.

ابتسمت نهيلة وقالت: «أخاد، شتايم، شالوش، أربع، خميش، شيش، شيفا، شمونة، تشع، عشر».

«شو عمّ بتقولي»، سأل يونس.

«إحزر»، قالت نهيلة.

«هذا عبري»، قال.

«صح»، قالت. «العبري زي العربي، عربي بالفرنجي بدّك تقول، بس لازم نحط خاء وشين كثير، أنا هيك تعلّمتها. أوّل إشي تعلّمت الأرقام، وبعدين صرت أفهم كلّ الكلمات تقريبًا: بسّ الأولاد غير شكل ما شاء اللّه. بيحكو عبري أحسن من اليهود».

قالت نهيلة إنّ اللّغة سهلة. «أسهل شيء هو تعلّم لغتهم».

قال إنّه يخاف أن ينسى الأولاد لغتهم.

«هذه مشكلتهم وليست مشكلتنا»، قالت نهيلة، كي تعني أنّها مشكلة الإسرائيليين وليس الفلسطينيين، «هم لا يريدوننا أن ننسى لغتنا وديننا، لأنّهم لا يريدوننا أن نصير مثلهم».

لم يفهم يونس قصدها، وبدأ يتكلّم عن علاقة الأولاد بتاريخهم وتراثهم،

وأنّ هذه العلاقة لا تقوم إلاّ عبر اللّغة. قال كلامًا كثيرًا، يختلط فيه الأدب بالدّين بكلّ شيء.

قالت إنّه لم يفهم عليها.

«اسمع يا رجل وحاول أن تفهم. أنت لا تعرف شيئًا، حاول أن تسمع الأشياء كما أقولها لا كما تتخيّلها في رأسك. قلت لك إنّها مشكلتهم، أي مشكلة اليهود، فنحن لا نستطيع التخلّي عن لغتنا لأنّهم لا يريدون ذلك. يريدون لنا أن نبقى عربًا، وأن لا نندمج. لا تخف. إنّهم مجتمع طائفي مغلق، حتّى لو أردنا، فلن يسمحوا لنا بذلك».

حين أخبرتني يا أبي عن نظريّة نهيلة اللّغويّة، تذكّرت كمال الذي أراد جمع مفاتيح البيوت في الأندلس، أردت القول إنّنا لم نفهم الفرق الجذري. القشتاليون لم يضطهدوا العرب المسلمين واليهود من أجل طردهم فقط، فالطرد مهما كان كبيرًا وفعّالاً، لا يستطيع طرد كلّ الناس. القشتاليون فرضوا على الأندلسيّين دينهم ولغتهم، لذلك كان انتصارهم نهائيًا. ولذلك اندمجت الأندلس في إسبانيا، وانتهى الأمر. أمّا هنا، فمفاتيحنا ليست مفاتيح البيوت التي سُرقت، مفاتيحنا هي اللّغة العربيّة. إسرائيل لا تريدنا أن نندمج ونصبح إسرائيليّين، ولا تفرض علينا دينها ولغتها. الطرد حصل عام ١٩٤٨، لكنّه لم يكن كاملاً. مفاتيحنا معهم وليست معنا.

لم أقل، لأنّني خفت أن تضيع منّي حكاية نهيلة بالاستطرادات، كما كانت تضيع دائمًا.

ويونس، حين كنت أسأله عن نهيلة، لم يكن يعترض أو يرفض الجواب، يبدأ بالإجابة، ثمّ يدخل في دهاليز حكايات جانبيّة، فتضيع منّي الحكاية.

يومها، لم أقل نظريّتي عن المفاتيح، خوفًا على الحكاية، ومع ذلك ضاعت الحكاية.

أخبرني عن اللّغة العبريّة، ثمّ سكت.

«وبعدين»، سألته.

«بعدين هيّانا هون».

«هناك، ماذا جرى في المغارة».

«عدت إلى لبنان، وبنينا القواعد في الجنوب».

«وهي»؟

«نور تزوّجت، وسالم فتح الكاراج و...».

«هل زرتها بعد ذلك».

«بلى، كثيرًا، يعني».

هذه الـ «كثيرًا»، والـ «يعني»، كانت كلّ جوابه.

«والمغارة»؟

لم يرْوِ لي عن المغارة، مع أنّه في ذلك اليوم، حكى كثيرًا. ناقش مشاكل الأولاد، وتحدّث عن الثّورة التي بدأت تصير حالة عامّة في الأردن ولبنان. تحدّثا طويلاً وضحكا كثيرًا. هو يشرب وهي تملأ الكأس.

«أنت مثل العروس»، قال لها.

بعد أن انتهى من طعامه، غلبه النعاس. غطّته بالحرام، ونظرت إليه بعينين تغمزان الرغبة.

«الآن»؟ سألها، وأزاح لها مكانًا على فراشه.

«أنا لم أقل شيئًا».

«سأنام نصف ساعة»، قال.

«أنت نام، وأنا سأرتّب المغارة».

«أيقظيني بعد نصف ساعة».

تركته ينام ومضت. قبل أن ينام، كرّرت دعوتها له بعينيها، وكرّر ابتسامته طالبًا أن ينام نصف ساعة فقط. ذهبت إلى ركن المغارة، جلت الأطباق، وحين عادت وجدته يغطّ في نوم عميق، تركته ورحلت إلى بيتها.

حين استيقظ يونس لم يجدها، وكانت ظلال المساء تنتشر فوق التلال. وجد نفسه يعبّئ مطرته ماء، يلمّ حقيبته واضعًا فيها رغيفي الخبز اللذين تركتهما نهيلة، ويمضي إلى لبنان.

هل عاد إلى زيارتها بعد ليلة الزيتونة الرّوميّة؟

قال إنّه عاد، وأنا أشكّ في كلامه. فحياة يونس تغيّرت كثيرًا في تلك المرحلة. فبعد تحوّل الثّورة مؤسّسة تشبه الدولة، صار جزءًا من الدولة. سافر في الوفود الرسميّة، اتّصل بعائلته تلفونيًا من شتّى العواصم، ثمّ أصبح عضوًا في قيادة إقليم فتح في لبنان، وامتلأت أيّامه، خاصّة بعد مذابح أيلول ١٩٧٠ في الأردن، وتحوّل لبنان مكانًا وحيدًا للمقاومة الفلسطينيّة، على أثر هجرة القيادات الفلسطينيّة من عمّان إلى بيروت.

صار يونس جزءًا من تلك الآلة الضّخمة، ولم يعد ذلك الفدائي المشرّد بين مخيّم عين الحلوة في الجنوب، ومخيّمي شاتيلا وبرج البراجنة في بيروت، لكنّه، والحقّ يقال، كان مختلفًا. لم تظهر عليه علامات الثراء التي ظهرت على أغلبيّة القياديّين الفلسطينيّين، وبقي فلاّحًا كما كان وكما يحب أن يكون.

حاول يونس التوفيق بين حياته الجديدة واقتناعاته. ربّما لم ينجح كثيرًا، لكنّه حافظ على صورته، بوصفه أبو سالم، ذئب الجليل، الذي يعرف تلك البلاد، كما لا يعرفها أحد، والذي يملك قصّة لا تشبه أيّة قصّة أخرى.

هل بدأت حكايته في تلك المرحلة؟

لا أعرف، فأنا لا أعرفه قبل تلك المرحلة. بلى أعرفه، لكنّي كنت صغيرًا، ولم أكن أستطيع فهم الأشياء واستيعاب معانيها. عرفته جيّدًا مع بداية السبعنيّات، وكان قد أصبح حكاية. عرفته بوصفه ذلك الرجل الذي يزرع أطفاله في الجليل، ويقاتل من أجل تحريرهم.

ولكنّي أتساءل، واقفًا تحت مطر الصور التي تغطّي جدران غرفة النوم، هل بدأت الحكاية حين انتهت؟ هل صار يروي للناس عن نهيلة، حين انقطع عن زيارتها؟

لا أعرف.

قال إنّه تابع زياراته إلى هناك حتّى عام ١٩٧٨، حين قام الإسرائيليّون في آذار من ذلك العام، باحتلال جزء من الجنوب اللّبناني، أقاموا عليه دويلة تابعة لهم، أطلقوا عليها اسم «دولة لبنان الحرّ». وهي لم تكن أكثر من شريط ضيّق من الأراضي اللبنانيّة، شكّل منطقة عازلة، بين الفدائيين ومستعمرات الجليل، التي كانت تتعرّض لقصف صواريخ الكاتيوشا.

قال إنّه مع الاحتلال، أغلقت أبواب التسلّل في وجهه، وصار يتّصل بأولاده ونهيلته تلفونيًا. حدّثني كثيرًا عن أسفاره، وعن ثلاث نهيلات صغيرات ولدن في دير الأسد. نهيلة ابنة نور، ونهيلة ابنة سالم، ونهيلة ابنة صالح.

قال إنّه صار يتلفن لنهيلاته جميعًا، وإنّه كان يتلقّى صورهم على عنوان أحد أصدقائه في قبرص، وإنّه عاش معهم دون أن يراهم. عاش مع الصور. «فالتلفون لا يسمح يا ابني، ماذا تقول في التلفون؟ في التلفون لا تقول سوى أشياء عامة وصيغ جاهزة. كلام التلفون ليس كلامًا».

أمّ حسن اقترحت إعادتك إلى هناك، وماتت لتتركني وحدي معك.

صحيح ماذا تقترح يا أبي؟ أنا وأنت وهذه الكمّيّة الهائلة من الصور المعلّقة على حيطان بيتك. واللّه سحرتني الصور. الصور شيء عجيب، فتيات صغيرات يضحكن، وفتيان يقفون جامدين أمام عين الكاميرا وامرأة تنظر إلى البعيد، كأنّها تنظر إليك وتنتظرك.

تنتهي حياتك بالصور يا سيّدي. وأنا، ماذا سأفعل بها بعد موتك. بعيد الشرّ عنك، وعن قلبك، أنا لا أريدك أن تموت، ولكن لنفترض أنّ اللّه استردّ وديعته، بعد عمر طويل، ماذا تريدني أن أفعل بالصور. هل أعيدها إلى أولادك؟ هل أدفنها معك في القبر؟ أم هل أتركها هكذا، كي يأتي من سيسكن بيتك، ويرميها مع المهملات.

لا أعلم.

لكنّي لن أعيدك إلى هناك، ثمّ لو افترضنا أنّني أريد إعادتك، فأنا لا أعرف كيف، ولا أعرف إذا كان الإسرائيليّون سيسمحون لك بالعودة.

ثمّ لماذا هذه اللّبكة؟

لماذا لا يسأل أولادك عنك، أأخبرتهم آمنة أنّك متّ، فأقاموا لك مأتمًا هناك، وانتهى الأمر، أم تناسوك، وامّحت من ذاكرتهم صورة الرجل الذي ركع وقبّلهم واحدًا واحدًا؟ أم كلّ شيء انقطع بعد موت نهيلة؟

أنت لم تخبرني عن نهيلة الثامنة.

نهيلة الثامنة هي المرأة، يا أبي، وأنا على استعداد لتغيير ترتيب الأرقام، لأنّني أعرف أنّك تحبّ الأرقام السحريّة، تعال نحذف نهيلة السادسة من تصنيفنا السابق، ونسمّي نهيلة الزيتونة الرّوميّة نهيلة السادسة، وبذلك تكون نهيلة سلّة الزّهور، هي نهيلة السابعة والأخيرة.

أنت لم تخبرني عن هذه النهيلة، قلت فقط إنّ سالم أخبرك أنّها لا تهتمّ إلاّ بالزهور.

«طلعت خرفتها على الزهور»، قال الابن لأبيه الذي لا يعرفه.

«شو حكاية الزهور»؟ سأل الرجل زوجته، من فندقه في براغ، حيث كان ضمن وفد فلسطيني رسمي يزور المدينة.

«ما فيش حكاية ولا إشي، أنا بحبّ الزهور، وابنك بيضحك عليّي وبيقول إنّي خرفانة».

وكان ابنك، ما شاء اللّه، قد فتح كاراجًا في القرية. ترك العمل في حيفا، وفتح كاراجه الخاصّ، وقال الكريم خذ، وعمل معه شقيقاه مروان وصالح. أمّا أحمد فقد تخرّج من الجامعة العبريّة في القدس، بماجستير في الأدب العربي، وهو يعدّ الآن أطروحة دكتوراه عن أدب غسّان كنفاني. نزار يشتغل مع زوج نور في المقاولات. نور جيّدة لولا أنّ زوجها مصاب بالحصى في كليتيه، ويعاني آلامًا حادّة، لكنّ الطبيب قال إنّ لا خوف على حياته. أمّا سلمى، الجميلة، فقد رفضت كلّ العرسان، لأنّهم لم يملأوا عينيها الخضراوين، وتعمل مدرّسة في قرية الرامة.

لماذا لم تخبرني عن نهيلة التي لم ترها؟

تلك المرأة التي اشتعل رأسها بياضًا، والتي صارت تحمل سلّة صغيرة، تضع فيها الزّهور إلى جانب وريقات صغيرة، تكتب عليها أسماء الذين تحبّهم. تمزج الأزهار بالأسماء، وتهدّد أحفادها وحفيداتها، بأنّها ستضع علامة سوداء إلى جانب اسم من يعذّبها.

كانت هذه لعبتها مع أحفادها. يأتي أحفادها لزيارتها، فترمي محتويات سلّتها أرضًا، وتطلب منهم أن يلعبوا معها لعبة السلّة. يفتحون الأوراق، فيقرأون أسماءهم وأسماء أمّهاتهم وآبائهم، كما يقرأون اسمك بتنويعاته المختلفة.

كانت نهيلة تؤمن أنّ السلّة عائلتها. وحين أعادوها من المستشفى إلى البيت، والمرض ينهشها، أعطت السلّة لنهيلة ابنة نور، وطلبت منها أن لا تبقي في السلّة إلاّ ثلاث نهيلات، لأنّ نهيلة الكبيرة سوف تموت. طلبت من ابنة نور، تغيير الأزهار مرّة في الأسبوع، ومع كلّ مرّة، يجب تغيير الأوراق الصغيرة التي كتبت عليها الأسماء.

«احفظي الأسماء يا بنتي، وإيّاك أن لا تكتبيها وتضعيها في السلّة. فهذه السلّة تحفظ الأسماء من الموت».

أخذت الورقة التي تحمل اسمها من السلّة، ومزّقتها. وفي اليوم التالي، ماتت.

لا تخبرني الآن عن موت نهيلة، فأنا لست هنا كي أستمع إلى حكايات حزينة. أنا هنا كي أبلغك أنّني لن أعيدك إلى هناك، وسوف أدفنك في المخيّم، في الجامع الذي تحوّل مقبرة، ودفن فيه الشباب. هنا يا سيّدي ستنتهي حكايتك، ولن أقوم بإبلاغ نهيلة الصغيرة بضرورة تمزيق أسمائك وإخراجها من السلّة. لا أعتقد أنّ نهيلة الصّغيرة حافظت على هذا التقليد، فنحن ننسى وعودنا لموتانا. نحافظ عليها أيّامًا قليلة ثمّ ننساها. أنا متأكّد من أنّ نهيلة الصغيرة نسيت السلّة التي ورثتها عن جدّتها بين ألعابها، وأنّ زهور السلّة، صارت مثل أزهار مخدّة جدّتي، وأنّ العفونة سوف تأكل الأوراق التي كتبت عليها المرأة أسماء الذين تحبّهم.

كانت نهيلتك تحرص على كتابة الأسماء من جديد، حين تقوم بتغيير أزهار سلّتها. ترمي الأزهار القديمة تحت الزيتونة الروميّة، تحرق الأسماء، ثمّ تضع أزهارًا طازجة، وتكتب الأسماء على أوراق صغيرة جديدة.

أين النساء يا سيّدي؟

أين المرأتان اللّتان كانتا تأتيان؟

أين الأصحاب والرفاق؟

أين الناس؟

لا أحد.

أنت تنطفئ الآن، وحولك اللاّأحد. تنطفئ في الصمت والسكوت وأنا

أؤلّفك كما أشاء، أؤلّف نفسي فيك، وأرى الذي رأيته، والذي لم أره. أحكي عن بلاد لم أزرها. دخلتها مرّات قليلة مع الفدائيّين ليلاً، لكنّني لم أرها، أنت قلت لي إنّها تشبه الجنوب اللّبناني، وإنّها منبسطة تعلوها تلال صغيرة، وإنّها مثل أرض دافئة وحنونة، لذلك هي تصلح للمسيح. لا يمكن تخيّل سيّدنا عيسى عليه السّلام، دون الجليل. فهذه الأرض تشبهه، ولا تصلح لغير الغرباء، لذلك أسموها جليل الأمم. اليهود هربوا إلى الجليل بعد خراب مملكتهم، ونحن بقينا فيه بعد خراب تاريخنا.

حدّثتني عن مغاوره وصبّاره وحيواناته البرّيّة وزيتونه الذي يمتدّ في الأفق. قلتَ إنّ الجليل جزيرة وسط بحرين. في الغرب هناك البحر الأبيض، وفي الشرق هناك بحر الزيتون الأزرق. وفي البحرين تعلّم المسيح الصّيد، واختار حوارييه. إنّه بلد الأسماك والزيتون والزيت.

وعدتني أن تأخذني معك، ولم تأخذني. لكنّي رأيت كلّ شيء، من غابة الزيتون في الخريبة، على حدود فلسطين. رأيت زيتونًا لا ينتهي، وشبابًا لا يملّون من الموت، على تلك الأرض التي صارت مقبرتنا ووعدنا.

والآن نحن هنا، ننتهي كلانا في مستشفى اسمه «مستشفى الجليل»، وهو ليس بمستشفى، كما قلت لك ألف مرّة. المستشفى ينتهي، ومرضك لا ينتهي.

«سوف نغلق المستشفى قبل أن يموت الرجل».

قال الدكتور أمجد ضاحكًا. لا أعلم ماذا أتى به إلى هنا، فهو من زمان لم يأتِ لزيارتك. كنت أجلس معك، بعد أن انتهيت من تقديم هذا الطعام الأصفر، الذي أدخله بالنبريش من أنفك إلى معدتك، حين أتى الدكتور أمجد، وتحدّث عن احتمال إقفال المستشفى.

تحدّث كأنّه لا يعرف ماذا يجري. فالمستشفى مقفل عمليًا. الطابق الأوّل صار مجموعة من المستودعات، ولم يعد هناك في الطابق الثاني سوى خمس غرف، غرفة لك بوصفك مريضًا، وغرفة لي بوصفي طبيبًا، وثلاث غرف، يسكنها ثلاثة مرضى جدد، لم يتسنَ لي الوقت كي أجري لهم فحوصًا.

المرضى هنا، لا يشبهون المرضى. امرأتان كهلتان، ورجل في الخامسة

والخمسين، كأنّ المستشفى أو ما تبقّى منه، تحوّل مأوًى للعجزة. زينب ماتزال هنا، وأضيفت إلى مسؤوليّاتها أمانة المستودع، الحارس السوري لا يحرس، الطبّاخة لا تطبخ، وغرفة العمليّات تمّ نقلها إلى «مستشفى حيفا» في مخيّم برج البراجنة. وسمعت أخيرًا أنّهم قد يقفلون مستشفى حيفا أيضًا. فخطّة عصر النفقات، كما شرحت لي زينب، تفترض الإبقاء على مركز استشفائي واحد في لبنان، هو «مستشفى الهمشري»، في مخيّم عين الحلوة.

أنت تعرف: الأمور انقلبت رأسًا على عقب. القيادة الفلسطينيّة التي هاجرت إلى تونس، عاد من بقي منها حيًا إلى غزّة، وهناك سلطة وشرطة وسجون وكلّ ما يلزم، لذلك هم بحاجة إلى كلّ قرش، ولا لزوم لهذا العدد من المستشفيات في لبنان!

لماذا لم تذهب معهم إلى تونس؟

أنا لم أذهب لأنّي لم أستطع. شعرت بالغثيان في الملعب البلدي، وعدت إلى المستشفى. أمّا أنت فلماذا؟ كلّ القياديين ذهبوا، وصار عندهم مكاتب وحرّاس وثورة.

لماذا لم تذهب؟

هل صحيح أنّك رفضت الذهاب، وقلت يجب أن نموت في بيروت؟

هذا خطأ يا سيّدي، قرار الموت ليس قرارًا. نموت حين نموت، أمّا أن نقرّر الموت، فهذا انتحار وجنون.

هل شعرت بالتعب من كلّ شيء؟

قيل إنّك قرّرت العودة إلى هناك، بعد هزيمة الـ٨٢، لكنّي لم أصدّق.

قلت لي إنّه لا يمكن أن نخرج من لبنان مثل العسكر التركي. نترك شعبنا ونخرج، لا يمكن؛ يجب أن نبقى مع الناس.

بقيت، ثمّ ماذا؟

ذبحونا، كما كانوا سيذبحوننا، ولم يتغيّر شيء، قل لي، لماذا اخترت أن تكون ضحيّة مع الضحايا؟

اطمئن، لن أعيدك الآن جثّة، سأتركك معنا. البقاء كان خيارك،

وسأحترم خيارك. ولكن حدّثني عن أولادك وأحفادك، لا أريد قصّة نهيلة من جديد، فأنا لم أعد أعرف ما الحقيقي وما المتخيّل فيها.

هل تذكر يوم غضبت منّي حين رفضت الالتحاق بالمستشفى، ضمن الشروط الجديدة التي فرضوها عليّ، بعد نهاية الحرب الأهليّة في لبنان. رفضت لأنّي دكتور ولست ممرّضًا. يومها شتمتني وشتمت أولادك. «كلّكم خرا»، قلت، «ولا واحد طالع لأبيه. أنت لا تريد أن تشتغل لأنّك متمسّك بلقبك، وسالم ميكانيكي وأحمد بروفسور، وصالح لا أعرف ماذا. أنا لم أخلّف رجالاً، ولا واحد جاءني والتحق بنا. كنت أنتظر واحدًا منهم، واحد يأتي ويكون مثلي ومعي، لكنّهم مثل أمّهم، مجرّد فلاّحين ملتصقين بالأرض، وأنت أيضًا، ما معنى دكتور، المهمّ العمل وليس المناصب».

غضبت لأنّ أولادك لم يصيروا مثلك، ونسيت أنّك لم تصر مثل والدك. هل فهمت الآن كم تعذّب الشيخ الأعمى حين كنت تهزأ من مجالس الحضرة، ومن حلقات الأدعية الدينيّة. وكان أبوك يبتلع غصّته. لم يشتمك مرّة واحدة كما شتمتنا، مع أنّه كان يريدك شيخًا مثله ومثل والده وجدّه. وإذ بك تصير ضابطًا على عسكر مبعثر في حرب لم تقع. وحين وقعت قلت لا، هذه ليست حربي. لم تكن تريد الحرب الأهليّة، لا هنا ولا في الأردن، ماذا كنت تعتقد؟ هل كنت تعتقد أنّ الحرب ستكون على ذوقك، بسيطة وواضحة. هل فوجئت بانفجار هذا العالم العربي الذي فقد روحه منذ ألف سنة، وها هو اليوم يتخبّط في دمه، بحثًا عنها، ولا يجدها.

ماذا كنت تعتقد؟

الشيخ الأعمى، رثى لك، وأشفق عليك.

وحين لم تذهب مع الكوادر إلى تونس، صرنا كلّنا هنا نشفق عليك، لأنّك أصبحت قطعة من الماضي، أثرًا يمشي بين أشباح الذكريات.

أنت لا تعرف أولادك، ولا تلك البلاد التي كنت تراها من ثقوب مغارتك، وليلها الأزرق، والآن، سأكون صوت الحقيقة، التي لم تسمعها قط. كأنّ القدر أرسلني، كي أقول حقيقتك التي خبّأتها داخل سلّة الحكايات.

ما الحقيقة؟ سوف تسأل.

لن أجاوبك بشكل متفلسف، وأقول إنّ حقيقة الإنسان موته. فأنا لا

أحبّ هذه العبارات الثقيلة، التي حين أقرأها في كتب الأدب، أفهم أنّ الكاتب لا يملك شيئًا يقوله.

الحقيقة يا سيّدي، روتها لي الممثّلة الفرنسيّة، كاترين.

لا تبتسم، أرجوك، اسمع قليلاً، أنا لست، أنا لا، أنا لم.

نعم زرتها، ذهبت إلى «فندق نابليون» في شارع الحمرا، لأنّها قالت إنّها تتمنّى أن تراني قبل سفرها. لا، لم يخطر في بالي ترك كلّ شيء، والذهاب للعمل معهم في فرنسا. فأنا أوّلاً، لا أجيد اللّغة الفرنسيّة، وأنا ثانيًا، لا أحبّ المسرح، وأنا ثالثًا، أكره التمثيل.

قلت أزورها كي أخرج من هذا السجن. نعم أشعر هنا أنّني سجين، نعم الأبواب موصدة، والضّوء شاحب، والقضبان تغلق النوافذ، كأنّنا محوطون بالأسلاك الشّائكة، أو بحقول الألغام، أو كأنّ الحيطان تنحني فوقنا وتتلاصق وتخنقنا.

أردت الخروج ولو ساعة من الزمن، وبقيت كلّ اللّيل... لا أعرف، انتظر قليلاً، وسوف تعرف الحكاية.

أرجوك، اصبر قليلاً، فالمسألة ليست كما تعتقد، المسألة جدّيّة، كاترين أخبرتني شيئًا لا يصدّق، وأنا قرأت الكتاب، وتأكّدت أنّ ما قالته، لم يكن وهمًا.

ذهبت إلى «فندق نابليون»، وسألت عنها في الاستقبال. طلبوها على التلفون، وتكلّمت معها، طلبت منّي أن أنتظرها تحت في «اللوبي».

جاءت، جلست على طرف الكرسي، وقالت إنّها تعتذر، فهي على موعد مع كاتب لبناني، سيأتي لاصطحابها لحضور مسرحيّة «حبس الرّمل»، في مسرح بيروت.

قلت إنّني لا أريد شيئًا، جئت فقط لوداعها.

قالت إنّها تحتاج إلى التكلّم معي، «هل تستطيع أن تعود»؟

«متى»؟ سألتها.

«اللّيلة، قالت، المسرحيّة تنتهي في العاشرة ليلاً، لن أتعشّى معه، أعود، وأدعوك إلى العشاء».

قلت إنّني لا أستطيع التأخّر حتّى هذا الوقت، لأنّ العودة إلى المخيّم، وسط الحواجز الأمنيّة التي تحاصره، تصبح شبه مستحيلة ليلاً.

«أرجوك»، قالت.

«لست متأكّدًا»، قلت.

قالت وهي تنهض، إنّها ستكون في انتظاري، في بهو الفندق، في العاشرة ليلاً.

وخرجنا.

هي مشت في اتّجاه رجل بدا في منتصف الأربعين، يضع نظّارتين على عينيه، ويحمل حقيبة جلديّة سوداء، وأنا مضيت، دون أن أدري إلى أين أذهب.

كان في إمكاني العودة إلى المخيّم، وهذا ما قرّرته فعلاً، ثمّ فكّرت في البحر، وقلت لماذا لا أذهب وأتمشّى قليلاً على كورنيش المنارة، قبل العودة إلى المخيّم.

وصلت إلى كورنيش البحر، وانفتحت الدّنيا. رأيت البحر، وامتلأ صدري وقلبي برائحة الملح والهواء. يا اللّه ما أطيب الهواء. فقط نحن، نحن الخارجون من كلّ سجون الأرض، نستطيع التلذّذ بطعم الهواء. مشيت وتنفّست ورأيت. كان البحر يتلوّن باحتمالات الأزرق، وصرت كمن يرغب في رمي نفسه داخل تلاوين الماء. ركضت ومشيت ورقصت. اشتريت الترمس، وجلست على المقعد الحجري، ورأيت الناس يركضون أو يمشون بسرعة أو يكزدرون. ولم ينتبه أحد لِوجودي. كنت وحدي بينهم، أستمع إلى نتف أحاديثهم التي تتلاشى حين يبتعدون عن مقعدي، فأحاول إكمالها بيني وبين نفسي، حين تبدأ حكايات جديدة في التسلّل إلى أذني.

مضى الوقت، ولم أشعر به.

لم أنتظر من أجلها، ربّما انتظرتها دون أن أعي، لكنّي لم أتعمّد الجلوس والانتظار. جلست كي أجلس، ثمّ حين نظرت إلى ساعتي، كانت تشير إلى العاشرة وخمس دقائق، فبدأت أمشي في اتّجاه الفندق. مشيت متمهّلاً، لأنّي كنت متأكّدًا من أنّني لن أجدها. سيدعوها الكاتب إلى المطعم، ثمّ يغازلها وينام معها. هذا عالمهم، وأنا لا علاقة لي. وصلت في

حوالى العاشرة والنصف، لأجدها جالسة على كنباية في البهو، وأمامها كأس فارغة. نهضت وهي تقول متلهّفة، «كنت خائفة أن لا تأتي»، وأجلستني في مواجهتها.

«ماذا تشرب»؟ سألت.

«كما تشربين».

«أنا أشرب المارغريتا، هل تحبّ المارغريتا»؟

لم أكن قد ذقت هذا الكوكتيل المصنوع من التيكيلا في حياتي، لكنّني قلت إنّني أحبّه.

وجلب النادل كأسين، غُطي طرفاهما بالملح.

قالت إنّها تريد طرح بعض الأسئلة عليّ.

قلت إنّني لا أفهم في المسرح، فأنا أشعر داخل صالة المسرح المغلقة بالاختناق. وقلت إنّني في المرّة الوحيدة التي شاهدت فيها مسرحيّة داخل صالة مقفلة، وكانت عن تاريخ فلسطين، أحسست بالاختناق، وأنا أرى الممثّلين، وكأنّهم يمضغون اللّغة الفصحى التي يرطنون بها، قبل أن يبصقوها، داخل جمل مملّة مركّبة.

قالت إنّها قرّرت عدم تمثيل الدّور. فمجزرة شاتيلا وصبرا، لا يمكن تمثيلها. قالت إنّها حين زارت المكان، شعرت بالخوف، وإنّها لو قبلت تمثيل الدور، فإنّ تمثيلها سيورّطها سياسيًا في المسألة.

«هل تعلم، أنا زرت إسرائيل»، قالت.

«نعم»، قلت ببرودة.

«ألم يفاجئك هذا»؟

«لا»، قلت.

«ألم تزعل منّي»؟

«ولماذا أزعل؟ فأنت زرتِ بلادي».

«نعم، نعم»، قالت، «أعرف، ولكنّي زرت إسرائيل عندما كنت في الخامسة عشرة، ذهبت وعشت ثلاثة أشهر في كيبوتز في الشمال».

«في الجليل»، قلت.

«نعم، نعم، في الجليل».
قالت إنّها ذهبت إلى هناك من أجل «الشوا».
«ماذا»؟
«الشوا كلمة عبرية تعني الهولوكست، قالت».
«فهمت»، قلت، وسألتها إذا كانت تملك أصولاً ألمانيّة.
«لا»، قالت، «ولكنّنا كلّنا»، وأشارت إلى نفسها وإليّ، «مسؤولون عن المذبحة التي ذهب ضحيّتها ملايين اليهود، ألا توافق»؟
«على ماذا»؟ سألت.
«غير مهمّ»، قالت. «قرّرت عدم تمثيل الدور، لا أستطيع، لا أستطيع رؤية الضحيّة وقد تحوّلت جلاّدًا، فهذا يعني أنّ التاريخ لا معنى له».
أنهيت كأسي في جرعة واحدة، فطلبت لي كأسًا ثانيةً.
«أنت جائع»؟ سألت.
«لا، ليس كثيرًا».
قالت إنّه من الأفضل أن نأكل شيئًا، «خذني إلى بيروت اختر لي مطعمًا جميلاً».
قلت إنّني لست جائعًا، وبدأت أشرب كأسي الثانية بهدوء، فأنا لا أعرف مطاعم بيروت، ولا أحمل مالاً.
قالت إنّها لا تريد أن تمثّل، لأنّ القراءة ليست كالمشاهدة.
«أنت تعرفه، جان جنيه غريب، لغته مدهشة، ثمّ هناك قدرته على الانتقال من أقسى الكلام الوحشي إلى أقسى الكلام الشعري، لكنّ الواقع مختلف، لا أستطيع».
نظرت إليّ بعينين غامضتين وسألتني أين سنتعشّى.
«لست جائعًا»، قلت، «سأشرب كأسي وأمشي».
رفعت إصبعها، جاء النادل، سألته عن الطّعام، قال إنّ الوقت قد تأخّر، والمطبخ أقفل، لكنّنا نستطيع أن نطلب سندويشات، إذا أردنا.
طلبت كلوب سندويش لها، وسألتني ماذا آكل، فقلت أيّ شيء، فطلبت لي سندويش جبنة وجامبون.

للحظة، تخيّلت نفسي في فيلم بوليسي، كانت أضواء البهو خافتة، وكنّا نجلس أنا وكاترين في البار المحاذي، ولم يكن أحد سوانا. وحول البار، يقف ثلاثة رجال، ببذلاتهم السوداء، وكأنّهم من رجال المخابرات.

التهمت سندويش الجامبون بسرعة، فسألتني إذا كنت أريد سندويشًا ثانيًا.

قلت شكرًا.

ندهت النادل، وطلبت سندويش جبنة وجامبون. كنت أريد أن أطلب كلوب سندويش مثلها، لكنّها طلبت لي ما اعتقدت أنّني أحببته، لأنّني أكلته بسرعة.

أكلت السندويش الثاني، وشعرت بدوار خفيف، ربّما من أثر المارغريتا، أو من حكاية الكيبوتز في الجليل.

سألتها عن اسم الكيبوتز الذي أقامت فيه، فقالت إنّها لا تذكر.

سألتها إذا كانت قد زارت القرى العربيّة المهدّمة في الجليل، فقالت إنّها لم تر قرًى مهدّمة، وإنّها لم تكن تعرف أنّنا طردنا من بلادنا.

شربت من كأسها، وقالت إنّها تعتذر، لأنّها تريد أن تسألني سؤالاً محرجًا.

«تفضّلي»، قلت.

قالت إنّها قرأت في كتاب لصحافي إسرائيلي عن «الدماغ الحديدي».

«ماذا»؟ سألت.

«الدّماغ الحديدي»، قالت. «إنّه اسم عمليّة اقتحام مخيّم شاتيلا عشيّة المذبحة».

«ما علاقتي بالموضوع»؟

«لا شيء»، قالت، وسكتت.

قالت إنّها قرأت في كتاب الصحافي الإسرائيلي، أنّ تسع نساء يهوديّات متزوّجات من فلسطينيين قتلن في عمليّة «الدماغ الحديدي».

«كيف عرفتِ أنّ اسمها الدماغ الحديدي»؟ سألت.

«الاسم منشور في الكتاب، والكاتب اسمه كابليوك، هل قرأت كتاب كابليوك»؟

«كلا»، أجبتها.

«كابليوك كتب كتابًا عن الدماغ الحديدي، روى فيه حادثة موت اليهوديّات التسع في المذبحة».

هنا يا سيّدي شعرت أنّني وقعت في مصيدة. ماذا تقول هذه المرأة وما معنى الدماغ الحديدي، لا واللّه، أنا لست موسوسًا بالمخابرات، ولا أعتقد أنّ كلّ من يسأل مخابرات، وحتّى الآن فهمت كاترين، بل تعاطفت معها. لا تستطيع تمثيل الدور لأنّها مسؤولة عن الهولوكست، هذا مفهوم، أمّا حكاية النساء اليهوديّات، فلها رائحة غريبة.

سألتني إذا كنت أحبّ أن أشرب المزيد.

قلت إنّني لا أريد هذا المشروب الذي يزنّره الملح.

«ما رأيك بالنبيذ الأبيض»؟ سألتني.

«لا بأس»، قلت.

طلبت قنّينة نبيذ أبيض، فجاء النادل حاملاً القنّينة داخل وعاء مليء بالثلج. سكب قليلاً في كأسي ووقف ينتظر. لم أفهم قصده، فأشارت كاترين بيدها أن أشرب. شربت وهززت رأسي، فسكب في كأسي وكأسها ومضى.

«انتظرني لحظة»، قالت، «سأصعد إلى غرفتي وأجلب الكتاب».

شربت جرعة كبيرة من كأسي ووقفت كي أمضي، فأنا لا أريد مناقشة مجازر شاتيلا وصبرا من جديد، ولن أخبرها عن الريّس جوزف الذي لم أقابله، ولكنّي سمعت وجهة نظره على لسان ذلك الصحافي اللّبناني المجنون. واللّه إنّهم مجانين، يخترعون الأخبار من أجل كتابتها. لماذا أراد وضعي في مواجهة جوزف؟ هل لأنّ جوزف من الدامور؟ وهل المذبحة تبرّر المذبحة؟ لا أريد المقارنة. قلت له إنّني أرفض المقارنات، فالمذابح يجب أن لا تحدث، وإذا حدثت يجب أن تدان ويلقى القبض عل مرتكبيها، ويحالوا على المحكمة. ومع ذلك تورّطت، وذهبت معه إلى ذلك المطعم الكائن في

الجمّيزة، في أسفل حيّ الأشرفيّة، في بيروت الشرقيّة. أمّا الآن، فأنا نصف سكران، ولا أريد أن أناقش.

كرعتُ كأسي، وهممت بالذهاب، حين رأيتها آتية، تحمل كتابًا في يدها.

«اسمع»، قالت.

فتحت الكتاب وبدأت تقرأ، «فقد أُحصي بين المفقودين، تسع نساء يهوديّات، تزوّجن من فلسطينيين أثناء الانتداب البريطاني على فلسطين، وتبعن أزواجهنّ إلى لبنان، أثناء نزوح ١٩٤٨، وقد نشرت الصحف الإسرائيليّة، أسماء أربع منهنّ».

أغلقت الكتاب، شربت جرعة من كأسها وسألتني إذا كنت في المخيّم أثناء المذبحة.

«نعم»، قلت.

«هل تعرف هؤلاء النساء»؟

ضحكت بصوت مرتفع، «قطعتِ كلّ هذه المسافات، وسقيتني الخمر من أجل هذا، لا يا سيّدتي، أنا لا أعرف على ماذا تتكلّمين».

«اسمع»، قالت، «أنا جديّة، هل كنت تعلم بوجود نساء يهوديّات في المخيّم»؟

«لا».

«أنا أبحث عن أسمائهنّ، هل تستطيع مساعدتي»؟

«لماذا»؟

«لأنّ هذا الكتاب أنقذني».

«أيّ كتاب».

«كتاب كابليوك، هل فهمت موقفي»؟

«مع الأسف لم أفهم».

«قلت لك إنّني ذهبت للعمل في كيبوتز في الشمال، عندما كنت في الخامسة عشرة. ذهبت لأنّني كنت أشعر بالذنب. وحين جئت إلى هنا من أجل مشروع هذه المسرحيّة، شعرت بذنب جديد، ثمّ جاء الكتاب وأنقذني.

عثرت عليه هنا في بيروت، اشتريته من مكتبة أنطوان في شارع الحمرا، وشعرت براحة نفسيّة كبرى. هل تعلم؟ هذا الكتاب سيساعدني على أن أقول لليهود إنّهم حين يقتلون الفلسطينيين، يقتلون أنفسهم أيضًا».

«وأنا ما علاقتي»؟

«أنت فلسطيني، ويجب أن تساعدني».

«أساعدك في ماذا»؟

«في العثور على أسماء هؤلاء النساء».

«ولكنّها منشورة في الصحف الإسرائيليّة، كما جاء في ذلك الكتاب».

«أريد الحكايات»، قالت.

«لماذا»؟

«كي أبرهن فكرتي».

«تعرفين العبرية»؟

«كتسات».

«ماذا»؟

«شويّة، كتسات تعني قليلاً بالعبريّة. هل تعرف العبريّة»؟

«لا».

«لماذا»؟

«لأنّي طبيب ولست عالمًا لغويًا. اذهبي يا سيّدتي إلى إسرائيل، أو اتّصلي بالكاتب، فيعطيك الأسماء».

«لا، أريد أن يخبرني الفلسطينيّون عن تجربة هؤلاء النساء».

«هل أنت يهوديّة»؟

«لا، لماذا»؟

«لا شيء» قلت، «أفهم أن لا تمثّلي وتتورّطي، ألم يقل المخرج إنّ جان جنيه لم يكن يدافع عن الفلسطينيين، بل كان مجرّد مهووس بالموت والجنس، وإنّ مشروعه الإخراجي هو تقديم عرض يمجّد الموت. رفضت التّمثيل، وربّما كنت على حقّ، فموتنا لا يستحقّ أن تقام له مسرحيّة في

نظرك، ثمّ تأتين وتسألين عن تسع نساء يهوديّات، تقولين، أو يقول كاتبك الإسرائيلي، إنّهنّ ذبحن هنا في المخيّم. هناك أكثر من ألف وخمسمئة قتيل، وتأتين بحثًا عن تسعة قتلى»!

«أنت لم تفهمني، أرجوك أخبرني، هل تعتقد أنت الفلسطيني، أنّ ما أورده الكاتب الإسرائيلي صحيح، أخبرني عن المذبحة».

«ماذا تريدين أن تعرفي».

«هل رأيت المذبحة بعينيك»؟

قلت لك يا سيّدي إنّني كنت أشرب النبيذ الأبيض، وكانت الأضواء خافتة، والمصيدة تطبق على عنقي. انفتح النبيذ في داخلي، وأخذني إلى أماكن نسيتها، وتذكّرت جمال اللّيبي.

هل تعرف جمال اللّيبي؟

جمال الذي تمزّق صدره حين أصابته رصاصة إسرائيليّة قرب مطار بيروت، خلال الحصار. لا أدري لماذا أخبرتها عن جمال، فأنا أعتقد أنّ قصّته تستحقّ أن تصبح كتابًا. يا ليتني أخبرتها لكاتب مثل جبرا إبراهيم جبرا، لحوّلها ملحمة. لكن جبرا مات الآن، وأنا لم ألتقِ به، ولم يكن أمامي سوى هذه المرأة الفرنسيّة التي يختفي نصف وجهها خلف زجاجة النبيذ الأبيض، وأردت أن أشرح لها. لم يكن يعنيني وضعها، أهي ممثّلة أم جاسوسة. أردت إفهامها الحقيقة، فلم أجد أمامي سوى جمال اللّيبي. لا، ربّما أردت غوايتها. كان النبيذ، وكان بياضها، وكان رأسها الذي يبدو كطابة صغيرة فوق عنقها، وكان ليل، وكنت أشعر أنّها المرّة الأولى التي تنكسر فيها وحدتي، منذ أشهر طويلة.

الذي أخبر عن جمال اللّيبي لم يكن أنا، بل كان رجلاً يشبهني.

رأيته وراقبته وأعجبت بطريقته في الكلام، وكيف استطاع تحويل خوفه وشكّه عناصر غواية وإغراء، وكيف رأى دفاعات المرأة تتساقط أمامه، وكيف انخلع قلبه وهو يشعر بالخيانة، حين اقترب من الجسد الأنثوي، بعد غيبته الطويلة عنه، كنت أراه ينفض الإهانات التي سبّبها خوفه.

صحيح. قل لي يا أبي، لماذا يخاف المقاتلون، حين يخافون، أكثر من كلّ الناس؟ إن أردت أن ترى الخوف، فعليك بجندي سابق، أو مقاتل سابق، ضعه في موقف خوف، وتفرّج كيف يكون الخوف الحقيقي.

قلت لك إنّني رأيت خليل، أي أنا، وقد خلع خوفه، جالسًا أمام هذه المرأة الفرنسيّة، التي لا يعرف شيئًا عنها، يروي لها حكاية عجيبة، تصلح لأَنْ تصير رواية أو فيلمًا. والحقيقة أنّ خليل أيّوب فكّر في الموضوع. لا تصدّق أنّ أحدًا يعرف حكاية مثل هذه، ولا يخطر في باله أن يصبح كاتبًا. لكن من أجل تحويل هذه القصّة الحقيقيّة رواية، نحن بحاجة إلى انتصار عسكري واحد على الأقلّ، كي يصدّقنا الناس، ويصدّقوا أنّ مأساتنا تستحقّ أن توضع إلى جانب المآسي التي عرفتها البشريّة في هذا القرن المتوحّش، الذي يرمي بظلال نهاياته الكئيبة فوقنا.

نحن لا نستحقّ قصّتنا. لذلك لم يروِ جمال لأحد. كان يحارب بصمت، ومات بصمت، أمّا حكايته، فتلك حكاية.

صحيح، لماذا أخبرني قصّته؟

أذكر أنّه جاء جريحًا إلى المستشفى، جلبوه مع جريح آخر، وكان الدم يغطّيهما. الجريح الأوّل كان شبه ميت، ودمه متجمّد على جسده اليابس. لا أعلم من كشف عليه وأعلن وفاته. فتمّ نقله إلى برّاد المستشفى، تمهيدًا لدفنه، ثمّ اكتشفوا أنّه حيّ، فنقل على عجل إلى غرفة العناية الفائقة، وهناك اكتشفنا أنّه كان شاعرًا. الصحف التي صدرت في بيروت، خلال الحصار، نشرت عنه المراثي الطويلة. وعندما استيقظ الشاعر من موته، وقرأ المراثي، شعر بسعادة لا توصف. كان وضعه الصحيّ ميؤوسًا منه، فلقد أصيب في عموده الفقري، وتمزّقت رئته اليسرى، لكنّه عاش يومين، كانا كافيين كي يقرأ كلّ ما كتب عنه.

قال إنّه سعيد، ولم يعد يهمّه الموت، فلقد عرف اليوم معنى الحياة، من خلال الحبّ المصنوع من الكلمات. كان علي، وهذا هو اسمه، الميت السعيد الوحيد الذي رأيته في حياتي. كأنّ كلّ آلامه امّحت. عاش في سريره، وسط أكوام المراثي، يومين جميلين. وحين مات، كان كلّ شيء قد سبق ان كُتب عنه. فنُشر نعيه الثاني في أسطر قليلة في الصحف، ولم

ينتبه أحد لموعد تشييع جنازته، فشيّعناه من المستشفى إلى مقبرة المخيّم، ولم يكن عددنا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

جمال اللّيبي أصيب مع الشاعر بكسر في كتفه اليمنى، وجروح متفرّقة في صدره. عانى جمال آلامًا حادّة، لكن ذلك لم يمنعه من زيارة صديقه الميت – الحي، في غرفة العناية الفائقة، والبكاء في موتيه المتتاليين.

في المستشفى أخبرني جمال قصّته، وأخبرت أنا القصّة لكاترين، وها أنا أعيدها على مسامعك، كي أفسّر لك ولنفسي معنى الأشياء. لن أكذب عليك، وأقول إنّ لقائي بتلك الممثّلة الفرنسيّة، كان لا شيء، وإنّه انتهى تحت رذاذ ماء الدوش في غرفتها في الفندق. هناك شيء تسلّل إلى داخلي، وأحدث فيه ما يشبه الفجوة، لا أستطيع إطلاق صفة الغرام عليها، لكنّي أقول مؤقّتًا، إنّها كانت تشبه الغرام.

خرج من المستشفى ليموت، كأنّ قدر هذا الطيّار، كان الموت على الأرض قبل أن يطير. أنت تعرف أنّ اسمه الحقيقي ليس جمال اللّيبي، وأنّ كنية اللّيبي التصقت به، لأنّه درس في كلّيّة الطيران في طرابلس الغرب، استعدادًا لتشكيل أوّل سرب لسلاح الطيران الفلسطيني في المنفى. السرب لم يتشكّل، وبدأ الاجتياح الإسرائيلي للبنان، فتمّ استدعاء الطيارين الفلسطينيين من ليبيا من أجل المشاركة في الدفاع عن بيروت. وفي بيروت مات جمال، وفيها روى قصّته.

أعطني من الآخر، سوف تقول.

وأنا أعطيك من الآخر، رويت لك نهاية القصص قبل بدايتها. لكن هذه المرّة اسمح لي. فأنا لا أخبرك حكاية جمال اللّيبي، بل حكايتي مع كاترين. لم أعطِ كاترين من الآخر، بدأت معها من البداية. لم أخبرها مثلاً، كيف أخبرني جمال حكايته.

أذكر أنّه قال، وهو يتحدّث عن الجيش الإسرائيلي، إنّ أخواله متلبّكون بنا، لأنّهم لن يستطيعوا دخول بيروت.

«أخوالي يخافون كثيرًا على جنودهم من الموت، إنّهم مرضى ويحتاجون إلى علاج نفسي».

لم أعلّق على كلمة أخوالي، يومها لم أنتبه، لأنّني كنت، كعشرات الآلاف

الذين عاشوا في بيروت، تحت القصف الإسرائيلي المتواصل جوًا وبرًا وبحرًا، مصابًا بما يمكن تسميته «تروما القذائف».

قال جملته كي أستوقفه عند تعبير «أخوالي»، ولمّا لم أنتبه، ودخلت معه في جدل سياسي - عسكري، حول انهيارنا المحتمل في الحرب، غيّر الموضوع وقال.

«أنظر جيّدًا يا دكتور، أنت لا تعرفهم، أنا أعرفهم أكثر منك لأنّني يهودي مثلهم».

«يهودي»! وانفجرت ضاحكًا اعتقادًا منّي أنّه يمزح.

جمال لم يكن يمزح، ولم يكن يهوديًا بالمعنى الحقيقي. قال إنّه يهودي، كي يصفعني ويدفعني إلى طرح السؤال، الذي سمح له برواية حكايته.

لم أخبر القصّة لكاترين بهذه الطريقة، بل أخبرتها من البداية. تركت الأشياء غامضة ومعلّقة في الاحتمالات، كي أستحوذ على دهشتها، ونجحت. لم أؤلّف شيئًا من عندي، فالقصّة مدهشة، وأنا جعلتها إطارًا للحظة حميمة مع امرأة جميلة، في فندق بيروتي، يقع في شارع الحمرا.

كنّا نشرب النبيذ الأبيض، وكاترين تجلس إلى جانبي. فهي، عندما عادت بالكتاب من غرفتها، غيّرت مكان جلوسها، فبدل أن تجلس قبالتي، جلست حدّي على كنباية عريضة تتّسع لثلاثة أشخاص. اقتربت منّي، وهي تقرأ النصّ، كي أرى الصفحة التي تقرأ منها، لكنّها عندما انتهت من القراءة، بقيت في مكانها الجديد.

فوجئت.

فعلاً، فاجأني النصّ، وكنت على وشك التشكيك في صحّته، والقول، كما يمكن لأيّ منّا أن يقول، إنّهم استكثروا علينا مذبحة، فأرادوا مقاسمتنا إيّاها، عبر تسع نساء يهوديّات قتلن. لكنّي تذكّرت جمال اللّيبي، فسكتّ، ولم أقل ما كان سيبدو حماقة مع تلك المرأة وفي ذلك المكان، وبديهيًا معك، في هذا المكان. ولقد تعلّمت التمييز بين الحماقة والبديهة في الصين. تحتاج إلى ثقافة أخرى، كي تكتشف أنّ نصف بديهيّاتك مجرّد حماقات.

قلت لها اسمعي، سوف أروي لك حكاية عن عائلة فلسطينيّة، ولك بعد ذلك أن تستنتجي ما تريدين، ولكن اسمعي جيّدًا.

قالت إنّها تريد الجواب عن النساء، قبل الحكاية.

«جوابي هو الحكاية»، قلت.

وروى خليل.

أراه جالسًا في بهو الفندق، والكلمات تتدفّق من شفتيه ويديه وعينيه. أراه كأنّه إنسان آخر، أتمنّى لو كان لي صديق مثله، لأنّني أحبّ الذين يعرفون كيف تُروى الحكايات.

قال خليل،

ولد جمال في مدينة غزّة، وكان والده أحد وجهاء المدينة وميسوريها، ولم يعرف عنه تعاطيه في الأمور السياسيّة، رغم أنّ غزّة أصيبت بنكبة كبرى، بعد حرب ١٩٤٨، إذ تحولّت مدينة لاجئين. امتلأت المدينة بعشرات آلاف النازحين من المناطق التي طردهم منها الجيش الإسرائيلي، ولم يعد هناك غزّاويّون في غزّة. ذابت غزّة في بحر اللاّجئين، وصارت أوّل مكان فلسطيني جامع. فيها اكتشف الفلسطينيّون أنّهم ليسوا مجموعات تنتمي إلى مناطق وقرى مختلفة، بل صاروا شعبًا واحدًا صنعته الكارثة. لذلك تحولّت غزّة أهمّ بؤرة سياسيّة في تاريخ فلسطين المعاصر. فيها، كان الحزب الشيوعي قويًا، ومنها انطلقت حركة الإخوان المسلمين، وفي مخيّماتها وأحيائها، تشكّلت الخلايا الأولى لحركة فتح، وفي بداية السبعينات، كانت الجبهة الشعبيّة بقيادة رجل أسطوري اسمه «غيفارا غزّة»، تحتلّ المدينة ليلاً، وتنتشر فيها الكمائن والمقاتلين. وفيها نشأت حماس والجهاد الإسلامي، وإلى آخره...

عاش أحمد سليم، والد جمال، داخل هذه الدوّامة السياسيّة والعقائديّة التي عصفت بغزّة، ولم يكن يتعاطى السياسة، لكنّه لم يمنع أولاده، عندما أصبحوا فتيانًا، من الانضمام إلى حلقات القوميين العرب، التي اجتاحت تلامذة المدارس.

جمال، الابن الأكبر، أنهى دروسه الثانويّة في غزّة، ثمّ درس الهندسة المدنيّة في جامعة القاهرة، وكان أحد نشطاء حركة القوميين العرب، التي

صار اسمها الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، بعد سقوط غزّة والضفّة الغربيّة تحت الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧.

مروان، الابن الثاني، درس الهندسة الزراعيّة، في جامعة بيروت الأميركيّة.

هشام، الابن الثالث، لم يتمكّن من إكمال دراسته، لأنّه أنهى دراسته الثانويّة غي غزّة عام ٦٧، أي عندما تغيّر كلّ شيء.

أمّا سميرة، الابنة الوحيدة والصغيرة، فكانت واحدة من أوائل الفلسطينيّات اللّواتي اعتقلن بتهمة تشكيل خلايا «المخرّبين»، كما كانوا يسمّونهم في إسرائيل.

شارك الأولاد الأربعة بحماسة في التظاهرات التي اجتاحت شوارع غزّة، تأييدًا للرئيس المصري جمال عبد الناصر، ولقرار إغلاق مضائق تيران، في وجه الملاحة الإسرائيليّة، والذي كان السبب المعلن لحرب الأيّام الستّة.

اندلعت الحرب، وسقطت غزّة تحت الاحتلال، وبدأ منع التجوّل واللّيل والخوف.

في بداية شهر أيلول ١٩٦٧، وحين كان الناس في غزّة، يبحثون عن سبل البدء في المقاومة، انفجرت في منزل أحمد سليم المفاجأة الكبرى.

قال جمال إنّ أمّه تغيّرت، منذ أن بدأت احتمالات الحرب. لم تشارك أولادها حماستهم لعبد الناصر، بل كانت صامتة كلّ الوقت، يحتقن وجهها باحمرار مائل إلى السواد، ولا تقول سوى عبارة واحدة، «اللّه يستر يا أولاد». وبعد الهزيمة، وسقوط غزّة تحت الاحتلال، صار صمتها ثقيلاً ومزعجًا، وتحوّل وجهها قناعًا أسود.

في تلك الأمسيّة، وبينما كان جميع أفراد العائلة حول مائدة العشاء، وصمت الأم يفرض على الجميع سكوتًا مريبًا، لا يسمع من خلاله سوى أصوات الملاعق والسكاكين، كسرت الأمّ الصمت بصوت أبيض خشبي قادم من بعيد. قالت ما قالته بسرعة غريبة، كأنّها كانت مختنقة بكلامها، فأفرغته دفعة واحدة، قبل أن تعود إلى الصمت.

قالت الأمّ، «اسمعوا، أريد أن أخبركم سرًا، كنت قد تعاهدت مع

والدكم على عدم إخباركم إيّاه، لأنّه سيخلق لكم مشاكل لا معنى لها. الظروف تغيّرت، ويجب أن تعرفوا».

قاطعها الأب متبرّمًا، ليقول إنّ لا لزوم لهذا الكلام. أزاح صحنه جانبًا، حمل رأسه بيديه، وانحنى مستمعًا.

«أنا لست عربيّة ولا مسلمة، أنا يهوديّة».

وخيّم الصمت.

قال جمال إنّ اللّقمة علقت في بلعومه، وكاد يختنق، لكنّه لم يجرؤ على السعال أو شرب الماء. كلّ شيء اختنق دفعة واحدة، حتّى هواء أيلول اختنق.

نظر جمال إلى إخوته، فرأى عيونهم غارقة في صحونهم، كأنّهم لا يجرؤون على رفعها.

بعد أن فجّرت الأمّ قنبلتها، شعرت بالراحة، انزاح اللّون الأسود عن وجهها، اعتدلت في جلستها، وعاد صوتها إليها.

«أبوكم ليس من غزّة، بل من القدس، وينتمي إلى عائلة من وجهاء المدينة وأغنيائها. وهناك التقى عام ١٩٣٩، فتاة يهوديّة ألمانيّة، كانت قد هاجرت حديثًا إلى فلسطين مع أهلها، وكانت الفتاة تدعى سارة ريمسكي. عاشت الفتاة في القدس، صعوبات المهاجرين الألمان. كان اليهود الألمان عاجزين عن التأقلم مع اليشوف اليهودي وقيمه ولغته. كانت في الثامنة عشرة من عمرها، طالبة في الجامعة العبريّة في القدس، وتدرس الأدب الألماني. في ذلك العام، التقت هذا الرجل عن طريق المصادفة وأحبّته. دخلت دكّانًا كي تشتري ثيابًا، وكان ذلك الشّابّ يلبس طربوشه الأحمر، ويشتغل في دكّان والده. وبدأت علاقة صعبة ومستحيلة. تحبّه ولا تجرؤ على البوح بحبّها، ويتصرّف وكأنّه لا يبالي. يجلس أمام دكّانه وينتظرها، وحين تمرّ، وهي في طريقها إلى الجامعة، تلقي عليه تحيّة الصباح بالإنكليزيّة، فيجاوبها بالألمانيّة ويضحكان. ثمّ تطوّرت الأمور. دعاها لتناول الحلوى العربيّة عند زلاطيمو، ذهبت معه، وعشقت روائح ماء الزهر وماء الورد، كما قالت. وصارا يتمشّيان في شوارع المدينة القديمة، ويكتشفانها معًا. قال لها إنّها علّمته أن يرى القدس، وإنّه رأى المدينة بعينيها. وكان ذلك أوّل تصريح له بحبّه. وبعد سنة، في علاقة نمت حول روائح ماء

الزّهر، والأزقّة، قرّرا الزّواج. وكان زواجهما مستحيلاً. فلسطيني يتزوّج يهوديّة ألمانيّة مهاجرة! مستحيل، قال الجميع. لكنّهما قرّرا الزواج.

قالت الفتاة لصديقها، إنّها مستعدّة أن تتزوّجه سرًا ويهربا، واقترحت عليه بيروت. لكنّ الفتى استمهلها ودخل في مفاوضات طويلة مع والده، امتدّت سنتين.

انتظرت الفتاة، وشاعت القصّة.

وفي يوم، جاءها الفتى بموافقة والده، شرط أن يغادرا القدس، ويذهبا للإقامة في غزّة، حيث اشترى الأب لابنه أرضًا وبيتًا.

انتهت الأزمة بزواجهما وذهابهما إلى غزّة، حيث أقاما، وعملا في بيّارات البرتقال. اللافت، أنّ الفتاة تأقلمت بسرعة مع وضعها الجديد، صارت تتكلّم العربيّة بلهجة غزّاويّة، واعتنقت الإسلام، وعاشت حياتها في غزّة، بصفتها امرأة عربيّة مسلمة، تحمل اسم سارة، وهو اسم لم يكن شائعًا بين المسلمين في تلك الأيّام، كما هو اليوم، ولكنّه لم يكن مستهجنًا.

قالت الأمّ إنّها روت الحقيقة لأولادها كي يعرفوا، فلديهم خالان، الأوّل يدعى إيلي، وهو ضابط برتبة عقيد، في الجيش الإسرائيلي، والثاني يدعى بنيامين، وهو مهندس، والاثنان يقيمان في تل أبيب.

أزاح الأب يديه اللّتين أخفتا رأسه، وقال إنّ أهل زوجته حاولوا اغتيالها عام ١٩٤٤، وإنّ مجموعة من المسلّحين اليهود، هاجمت البيت، وأطلقت عليه النار بشكل عشوائي. وإنّ نيران بنادقهم انصبّت على المطبخ، لاعتقادهم أنّ سارة ستكون هناك. قال إنه أزال آثار الرصاصات التي ثقبت حيطان المطبخ، لكنّه ترك آثار رصاصة واحدة «كي لا ننسى». وعرض على أولاده النهوض من أجل رؤية آثار الرصاصة في المطبخ، لكن أحدًا، لم يتحرّك من مكانه.

قالت الأمّ إنّها فلسطينيّة، وهذا خيارها، «ولكن يجب أن تعرفوا؛ فاليهود يحتلّون غزّة اليوم، ولن يخرجوا منها».

«بل سنطردهم»، قال جمال.

«يا ليت يا ابني»، قالت الأمّ.

«يا إلهي»، قالت كاترين، «هل هذا ممكن».

«أنا لم أخترع الحكاية». قلت، «ثمّ هذا ممكن، ألم تفتحي الكتاب وتقرإي، هل اخترع الصحافي الإسرائيلي حكاية النساء اليهوديّات»؟

«طبعًا لا»، قالت.

«هناك شيء غامض»، قلت «ولكن الحكاية ليست هنا».

«قتلوها»؟ سألت كاترين.

«لا».

«جاء أخوها العقيد، وسحبها إلى إسرائيل».

«لا».

«اكتشف جمال أنّه يهودي مثلي».

«مثلكِ»؟!

«لا، يعني، أنا لست يهوديّة بل أمّي».

«أمّك يهوديّة»؟

«لا، أمّي كاثوليكيّة، ولكن أمّها، أهل جدّتي كانوا يهودًا، اعتنقوا المسيحيّة خوفًا من الاضطهاد، ثمّ...».

«ثمّ ماذا»؟ سألت.

«اكتشفت الحقيقة من أمّي، فقرّرت البحث عن جذوري، وذهبت إلى إسرائيل».

«وهل وجدتِ جذورك»؟

«لا أدري، لا، ليس بالضّبط، اكتشفت أنّه لا يجوز، لا، لا يحقّ لنا اضطهاد شعب آخر».

«لكم»!

«أي لهم، لا يحقّ لليهود، هذا ما قصدته».

قلت لها إنّ حكاية سارة ريمسكي لم تنته باعترافها في ذلك العشاء العائلي، بل بدأت هناك.

قال جمال اللّيبي إنّ أمّه تغيّرت بعد اعترافها. امّحت بسمة الرضى التي كانت تزيّن شفتيها، وتكاثرت البقع السوداء على وجهها وعنقها، ودخلت العائلة دوّامة السجون.

«لكنّني ذهبت إليهم»، قال جمال.

قال جمال إنّه اكتشف أنّه ليس فلسطينيّاً فقط، بل يستطيع أن يكون إسرائيليّاً وألمانيّاً، إذا شاء. «ذهبت إلى بيتهم في حي هرامات أفيف في ضاحية تل أبيب الشماليّة. قرعت الباب. فتحت لي صبيّة شقراء في السابعة عشرة، وتشبه أمّي كثيرًا. قلت إنّني أدعى جمال سليم، وإنّني ابن سارة شقيقة والدها. تكلّمت معها بالإنكليزيّة، فجاوبتني بالعبريّة. قلت لها إنّني لا أعرف العبريّة، فتكلّمت بإنكليزيّة متلعثمة، لكنّها مفهومة.

قالت تفضّل.

دخلت إلى الصالون، حيث طلبت منّي أن أجلس، وذهبت لتقول لوالدها عنّي.

دخل العقيد إيلي الصالون، لابسًا روبًا بنّيّاً. وقف قبالتي، وقال بالعبريّة شيئًا.

«أنا جمال، ابن سارة»، قلت بالإنكليزيّة، بعد أن وقفت.

«أنت»!

«نعم، أنا».

لم أتوقّع منه أخذي بالأحضان، قال جمال، لكنّني توقّعت منه أن يكون فضوليًا قليلاً، ويسألني عن أحوال شقيقته، لكنّه بدل ذلك، سألني ماذا أريد.

«لا شيء»، قلت، «أريد التعرّف إليكم».

«تشرّفنا»، قال، وبرم ظهره كأنّه يطلب منّي الخروج من بيتهم.

وقفت حائرًا وسط صالون بيتهم المتقشّف. لا يمكن إطلاق صفة أخرى على صالونهم، مقارنة بصالون بيتنا الباذخ، وقلت إنّني أريد التحدّث معه قليلاً.

«أنت عربي، أليس كذلك»؟

«فلسطيني»، قلت.

«ماذا نستطيع أن نتحدّث»؟

«بأمور العائلة»، قلت.

«أيّة عائلة»؟

«عائلتنا».

«نحن لسنا من عائلة واحدة»، قال العقيد.

«لكنّك خالي».

«لسنا من عائلة واحدة، قلت لك، أنت إرهابي، أنا متأكّد من أنّ الإرهابيّين أرسلوك إلى هنا».

انفجرت ضاحكًا، وقلت إنّني أحمل اقتراح عقد لقاء عائلي.

«أمّك أرسلتك»؟

«لا، أمّي لا تعرف».

«إذن من أرسلك»؟

«لا أحد».

«ماذا تشتغل»؟

«أنا مهندس».

«مهندس ماذا»؟

«مهندس مدني».

«أين درست»؟

«في القاهرة».

«وهل يعرفون تعليم الهندسة هناك»؟

«يعني، لا بأس»، قلت، «فالذي بنى الأهرام، يستطيع أن يبني بيتًا».

«اسمك جمال»، قالت الفتاة.

«نعم جمال، وأنت ما اسمك».

«ليا ريمسكي»، قالت.

«اسم جميل»، قلت.

«هل تعرف تل أبيب»؟ سألتني.

«من أين لي أن أعرفها».

«هل تحبّ التعرّف إليها، أنا مستعدّة أن آخذك وأريك».

«أنت اذهبي إلى غرفتك، واتركيني معه»، قال العقيد.

لكن ليا لم تذهب إلى غرفتها، واللّقاء مع خالي العقيد المتقاعد كان قصيرًا وناشفًا. قال إنّه لا يريد رؤية شقيقته، وإنّه غير معنيّ بأيّ اجتماع عائلي، وإنّ علينا نحن الفلسطينيّين الاندماج في الدول العربيّة. «أنتم عرب مثل بقيّة العرب»، وإنّه لا يفهم تمسّكنا بالإقامة في مخيّمات اللاّجئين، التي صارت تشبه غيتوات اليهود، «اذهبوا وصيروا سوريّين ولبنانيّين وأردنيّين ومصريّين، فينتهي هذا الصراع الدموي». شكرته على نصيحته، وقلت له «وأنتم أيضًا»، أنت يا سيّدي العقيد أوروبي ألماني، لماذا لم تندمج في أوروبّا. اذهب واندمج، بدل أن تعطيني دروس الاندماج، فتنتهي المشكلة. نحن نندمج بالعرب، وأنتم تندمجون بالأوروبيّين، فتصبح هذه الأرض خالية من البشر، ونحوّلها منتجعات للسيّاح والمهووسين الدينيّين من كلّ الأمم، ما رأيك».

«أنت لا تفهم شيئًا عن التاريخ اليهودي». قال.

«وأنت؟ هل تفهم شيئًا عن تاريخنا»؟

هنا، تدخّلت ليا، وقالت إنّها على استعداد لأخذي للتفرّج على تل أبيب. وخرجنا. لم يقل العقيد شيئًا، أو يحاول منع ابنته من الذهاب معي.

مع ليا رأيت تل أبيب، واكتشفت ذلك المجتمع الغريب، الذي أقول لك إنّه من الصعب تلخيصه بكلمتين. لا، لم أعد إلى زيارة العقيد، تلفنت عدّة مرّات لليا، وخرجت معها، ومعها تعرّفت إلى أمّي من جديد. شيء غريب يا زلي، كيف يمكن؟ لم تلتقيا أبدًا، لكنّهما متشابهتان في كلّ شيء. في الضحك وحركة اليدين، وتحبّان نفس الطعام تقريبًا. اقترحت على ليا المجيء معي إلى غزّة كي أعرّفها إلى شبيهتها، لكنّها طلبت تأجيل الموضوع.

«وأمّك؟ هل أخبرت أمّك»، سألته.

«أخبرتها أنّني زرتهم، فسألتني عنهم بلهفة في البداية، ثمّ ارتفع القناع، وغطّى وجهها».

«أرجوك، توقّف عن زيارته، إنّه مجرم، وسيقتلك»، قالت أمّي.

أخبرتها عن نقاشنا حول الاندماج، فأشرق وجهها للحظة، ثمّ قطّبت حاجبيها، وقالت إنّ التاريخ حيوان متوحّش.

خرجت مع ليا عدّة مرّات، ثمّ لم تعد تجاوب على التلفون، تغيّر رقم هاتفهم، ولم أكن أملك وسيلة أخرى للاتّصال بها، لأنّها قالت إنّ والدها لا يسمح لها بلقائي. أبوها غيّر الرّقم، وهي لم تتّصل. وبيني وبينك، كان خالي العقيد على حقّ. فبعد عمليّة الباصات، لم يعد اللّقاء ممكنًا. هل تذكر عمليّة الباصات، حين زرعت الجبهة الشعبيّة العبوات الناسفة في مواقف الباصات في تل أبيب.

«هذا أنت»؟

«يا ليت، لا أستطيع ادّعاء هذا الشّرف لنفسي، لكنّي ساهمت في العمليّة عبر الاستطلاع، كان خروجي مع ليا هو شكل الاستطلاع، وكنت أقدّم التقارير عن مشاهداتي إلى خليّة حركة القوميين العرب، التي صار اسمها الجبهة الشعبيّة. انكشفت الخليّة، بعد حملة اعتقالات واسعة في غزّة، وساقوني إلى سجن الدامون، وحكم عليّ بالسجن لمدّة عشرين سنة، بتهمة المساهمة في العمل الإرهابي، والانتماء إلى منظّمة تخريبيّة».

قال جمال إنّ السجن أراحه. «أقول الحقّ، فالسجن أراحني، توقّف ذلك السيل المتلاطم الذي كان يضجّ في رأسي. كنت شابًا في الثالثة والعشرين، وأنا اليوم في التاسعة والثلاثين. ومع ذلك حين أتذكّر تلك الأيّام التي سبقت اعتقالي، والمشاعر التي كانت تعصف بي حين خرجت مع ليا وأخذتها إلى القدس. واللّه أخذتها عند زلاطيمو، وحين رأيتها تأكل وتغنّي وتشمّ روائح ماء الزهر، أخبرتها عن أمّي، وكيف استطاع أبي غوايتها بالحلوى العربيّة وزلاطيمو. حين أتذكّر ذلك الآن، أحسّ بالضياع. جاء السجن وأراحني؛ الأشياء واضحة هناك: هم ونحن. نحن خلف القضبان، وهم يحرسون السجن. هكذا يذهب الالتباس. في السجن قرأت كلّ أنواع الكتب، وتعلّمت اللّغة العبريّة، قلت عندما أخرج، سوف أزور خالي، وأتكلّم معه بلغته الجديدة».

«في السجن، كانت أمّي تأتي لزيارتي بانتظام. أبي كان يرافقها في بعض المرّات، لكنّها كانت تأتي أسبوعيًا، حاملة السجاير والطعام. ومنها علمت أنّ أخي مروان اعتقل أيضًا، وأنّ سميرة اعتقلت عدّة أيّام، وأطلق سراحها، وأنّهم يفكّرون في تسفير هشام وسميرة إلى القاهرة، خوفًا عليهما. سألتها لماذا لا تتّصل بخالي كي يساعدها في الإفراج عنّي،

فطلبت منّي أن لا أفتح هذه السيرة أبدًا. وقضيت في السجن خمس سنوات، قبل أن يصدر قرار ترحيلي إلى الأردن».

«وأمّك، أين أمّك»؟ سألته.

«لم أخبرك الحكاية بعد، والحكاية أنّ أمّي انقطعت عن زيارتي، بعد سنة من دخولي السجن. وصار أبي يأتي وحده. قال إنّ أمّي مريضة، ومصابة بداء المفاصل، وصار يأتيني برسائل منها. وكانت رسائلها قصيرة، ولا تقول سوى إنّه عليّ الانتباه لنفسي بعد الخروج من السجن. أنت لا تعرف أمّي، واللّه لم يكن بإمكان أحد أن يعرف أنّها إسرائيليّة أو يهوديّة. كانت فلسطينيّة أكثر منّا جميعًا، أبي ظلّ يتحدّث بلهجته المقدسيّة، أمّا هي فصارت غزّاويّة، تحب الفلفل، وتأكل السلطة دون زيت الزيتون، وكلّ شيء. ثمّ اختفى أبي أيضًا. هشام وسميرة في القاهرة، مروان سجين مثلي، وأبي لا يزورني.

بعد ذلك وصلتني رسالة صغيرة منه بواسطة الصليب الأحمر، يقول فيها إنّه أخذ أمّي إلى أوروبا من أجل العلاج.

وحين خرجت من السجن، عرفت الحقيقة. هذه المرأة ما أعظمها، أنا لا أقول هذا لأنّها أمّي، كلّنا نحبّ أمّهاتنا ونرى فيهنّ صور القداسة، لكن، لو تعرف».

«لو تعرفين»؟ قال خليل لكاترين.

«لن تستطيعي يا سيّدتي تخيّل ماذا جرى. لم تذهب سارة إلى أوروبا من أجل العلاج. احزري ماذا فعلت»؟

«ذهبت إلى تل أبيب وعادت إلى عائلتها»، قالت كاترين.

«هذا احتمال مرّ في رأس جمال، لكنّه لم يحصل».

«قتلت شقيقها».

«أنت تتخيّلين الآن فيلمًا أميركيًا، نحن لا نستطيع التصرّف كما في الأفلام الأميركيّة، حتّى لو كنّا نحبّ مشاهدتها».

«ماذا إذن»؟ سألت كاترين.

قال خليل إنّ سارة أصيبت بسرطان الكولون، لكنّهم اكتشفوا المرض متأخّرين، وبعد أن كان السرطان قد انتشر في جسمها.

«أنت تعلمين، كيف هي المرأة في بلادنا، تكتم كلّ شيء، لا تشكو ولا تعبّر، وتسيّج نفسها بالصمت والأسرار».

عالجت سارة نفسها بنفسها في البداية، وحين أصبح الألم شديدًا، ذهبت إلى الطبيب، فتمّ إدخالها المستشفى، وأجريت لها ثلاث عمليّات جراحيّة متتالية، وأعيدت إلى البيت، بعد أن بدأ السرطان ينتشر في العظام. عادت إلى البيت، لتدخل آلامها الفظيعة.

وفي إحدى اللّيالي، حين لم تستطع سارة النّوم من شدّة الألم، رغم أنّها أخذت حقنة مورفين، ذهبت إلى سرير زوجها، وأيقظته، وقالت إنّها تريد التحدّث معه في أمر هامّ.

جلس الرجل في سريره، واستمع إلى أغرب طلب.

طلبت سارة من زوجها، أخذها إلى برلين، كما طلبت منه دفنها في المقبرة اليهوديّة في المدينة.

قال الزوج إنّه على استعداد للذهاب معها إلى أيّ مكان في العالم من أجل العلاج. وإنّه سيتّصل في الصّباح بالطبيب، كي يعطيه عناوين المستشفيات في برلين.

«أنا لا أريد العلاج»، قالت، «لا يوجد علاج، أريد أن أدفن هناك».

قال خليل لكاترين، إنّ جمال كان، وهو يروي، مدهوشًا أكثر منه، كأنّه لا يروي، بل يستمع. وقال إنّ والده أخبره بعد ذلك، حين التقيا في عمّان قبل موت الوالد ببضعة أشهر، أنّه سيغادر الدنيا مرتاحًا، لأنّه نجح في إسعاد سارة.

«صارت هناك كطفلة صغيرة»، قال الأب، «كنّا نخرج يوميًا، لا أعلم من أين جاءتها القوّة. أخذتني إلى أماكن طفولتها، التي لم يبق منها الكثير، لكنّها كانت سعيدة. كأنّ الألم زال، أو كأنّ أعجوبة حصلت. وبعد أسبوع، لم تعد قادرة على النهوض من سريرها، حاولت أخذها إلى المستشفى، لكنّها رفضت، ثمّ ماتت بعد ثلاثة أيّام، ودفنتها هناك».

رأى خليل علامات الأسى ترتسم على وجه كاترين. كانت الممثّلة الفرنسيّة التي لن تمثّل في مسرحيّة جان جنيه، قد تراخت على الكرسي، كأنّها شبه غائبة عن الوعي.

«لماذا لا تشربين»؟ سألها خليل.

نظرت إلى كأسها، ولم تقل شيئًا. أخذ خليل كأس كاترين، وشربه دفعة واحدة.

قالت كاترين إنّها مرهقة.

نظر خليل إلى ساعته، «إنّها الثالثة صباحًا»، قال.

قالت كاترين إنّها تريد أن تنام.

«تنامين الآن! الآن بدأت السهرة، أريد المزيد من النبيذ».

«لا، شربت كثيرًا يا جمال»، قالت.

«أنا لم أشرب كثيرًا، ثمّ أنا اسمي خليل، وأمّي اسمها نجوى، وجمال مات خلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت».

وقفت كاترين. وقف خليل.

«كيف ستعود إلى المخيّم»؟ سألت.

«لا أعرف، لكنّي سأدبّر حالي».

«يمكنك أن تقضي ما تبقّى من اللّيل، هنا، في غرفتي».

«في غرفتك... لا...».

«أنا تعبانة وأريد أن أنام، تعال إلى الغرفة».

صعدا إلى الغرفة، خلعت كاترين ثيابها بسرعة، ودخلت السرير شبه عارية. بعد قليل من التردّد، استلقى خليل إلى جانبها، بكامل ثيابه.

«اخلع ثيابك»، قالت، «لا تقل لي إنّك ستنام بثيابك».

خلع ثيابه، أطفأت كاترين الضّوء، وهناك في ظلام الغرفة، الذي سيبقى عالقًا على جلد خليل، ناما معًا.

لا يذكر خليل الأمور بشكل واضح، لكنّه شعر بالغرق، فتمسّك بالمرأة التي هوت عليه، وغرقا معًا.

نهض في الصباح ليجد كاترين تخرج من الحمّام بكامل ثيابها، وتضع الكثير من الأحمر على شفتيها. لبس ثيابه بسرعة، ونزلا إلى المطعم، حيث تناولا طعام الإفطار، كغريبين.

أخبرته أنّها ستسافر بعد ظهر اليوم نفسه، وأنّها ستذهب إلى دكّان الحرفيين القريب من الفندق، كي تشتري بعض الهدايا. أخبرها أنّه تأخّر عن عمله في المستشفى، ويجب أن يعود بسرعة. ولم يتكلّما في مواضيع الأمس. حتّى المسرحيّة لم يرد ذكرها. أنهيا الإفطار، نهضا، طبعت على خدّه قبلة باردة، ومضى.

هذا كلّ ما جرى بيني وبين الممثّلة الفرنسيّة.

أخبرتها حكاية جمال، ونمنا معا. هي اعتقدت أنّها تنام مع جمال اللّيبي، الذي يمكن أن يكون فلسطينيًا أو يهوديًا أو ألمانيًا، وأنا رأيت فيها شيئًا من سارة، التي صارت فلسطينيّة.

لنفترض الآن أنّ كاترين هاجرت إلى إسرائيل، وتزوّجت جمال، وبعد عمر طويل، جاءها ملاك الموت. أين سوف تطلب أن تدفن. عند جدّتها اليهوديّة، أم عند أمّها الكاثوليكيّة، أم عند أولادها المسلمين؟

واللّه حكايتنا لا نهاية لها.

عندما أخبرني جمال حكايته، كنت كالعاجز عن التصديق. أخبرني، لأنّه كان يعرف أنّه سيموت. وها هو الآن ينام في قبره في بيروت، بينما والده في غزّة، وأمّه في ألمانيا.

متى يجتمع شمل الموتى؟

لماذا عادت سارة إلى بلاد جلاّديها؟

إنّها العلاقة التقليديّة بين الجلاّد والضحيّة، سوف تقول.

لكنّي لست متأكّدًا، فأنا لا أملك اقتناعات يقينيّة تسمح لي بتقديم جواب عن ذلك العالم الذي دفع سارة إلى قبرها الألماني.

جمال أخبرني على لسان أبيه، أنّ سارة كانت سعيدة باللّغة. كانت تتكلّم الألمانيّة، وتتغرغر بها كالأطفال.

هل نحن عبيد اللّغة؟

هل اللّغة أرضنا وأمّنا، وكلّ شيء؟

كاترين عادت إلى بلادها، ولم تمثّل دورها المفترض في مسرحيّة

المذبحة. تركت المسرحية لنا، كي نتابع تمثيل دور الضحيّة. والدور مستمرّ، منذ سقوط الرجل – العصفور عن مئذنة الغابسيّة، ومنذ رجال شعب، الذين تسلّقوا حبال المطر في طريقهم إلى الموت...

تركت لنا الممثّلة الفرنسيّة دورنا نمثّله، وعادت إلى بلادها بحكاية سارة وابنها جمال اللّيبي. وبدل أن تكتشف الأسماء أضاعتها. أنا لم أطلب منها شيئًا، وجدت نفسي معها في السرير، وكانت تتكلّم معي الفرنسيّة التي لا أفهمها، وتقول جمال. وحين نهضت من النوم، لبست قناعها، وعادت إلى بلادها.

جاءت من أجل النساء اليهوديّات التسع اللّواتي قتلن في المذبحة، وعادت بحكاية سارة.

الحقّ معها، لكنّي لم أفهم.

في الصباح، وتحت قناع أحمر الشّفاه، صارت امرأة أخرى. لبست قناعها الفرنسي، وطبعت قبلة باردة على خدّي. معها حقّ، لو كنت أمتلك مثلها قناعًا فرنسيًا لما خلعته، وأدخلت نفسي هذه المتاهة التي اسمها فلسطين. أنا مجبر، لأنّني ولدت في المتاهة، وأنت أيضًا، وجمال اللّيبي، وابنة خاله، وسارة، وإلى ما لا يُحصى من الأسماء، من هنا وهناك وهنالك. نحن لا حيلة لنا ولا قناع. قناعنا الحرب، وحتّى الحرب لم تعد قناعًا كافيًا لحجب الدوّامة التي نغرق فيها. هم ونحن، كما ترى، هم صارت مثل نحن، ونحن صارت مثل هم، ولم نعد نملك ذاكرة أخرى.

كلّ حكايات الحرب التي خضناها تتلاشى، ولم يبقَ سوى المذابح. أنقلّد أعداءنا، أم يقلّدون جلاّديهم، ويدفعوننا إلى لبس هذا القناع الذي غطّى وجه دنيا. أنت تذكر دنيا، دنيا ماتت الآن، لا يهمّ سوف تقول، لا يهمّ سوف أقول، كلّنا سنموت. لكن دنيا ماتت لأنّها لم تعد قادرة على تمثيل دور الضحيّة. المرحلة انتهت، الجمعيّات الإنسانيّة الدوليّة لم تعد مهتمّة بنا، انتقل الاهتمام الآن إلى الضفّة الغربيّة وغزّة، وفقدت دنيا الآذان. لذلك ماتت.

وأنت.

أنت أيضًا يا أبي، أعرف لماذا تموت. أنت تموت لأنّ الحكاية انتهت بموت نهيلة.

قل لي، لماذا لا تفتح عينيك، وتقول كما قالت سارة، لماذا لا تعلن رغبتك في الموت هناك؟

أتخاف الموت؟

أم لا تريد لحكايتك أن تنتهي. تتركها بلا نهاية، كي تجبرنا على متابعة لعب دور الضحيّة إلى ما شاء اللّه.

ماذا قلت؟

لا، حكايتي مختلفة، وسأرويها لك من ألفها إلى يائها. موت شمس ليس سببًا لموتي، لا، لن أخرج إلى الشارع وأطلب منهم قتلي. لا، الذي جرى الأسبوع الماضي، كان قمّة المسخرة. سمعت إطلاق النار في الشارع قرب المستشفى، صار مبنى المستشفى يرتجّ بطلقات الكلاشنيكوف. فجئت راكضًا أختبئ في غرفتك، جئت وكنت أرتجف خوفًا، الآن أضحك من نفسي حين أتذكّر كيف خفت، كنت مستعدًا للاختباء تحت سريرك.

وفي الصباح، دخلت زينب غرفتك، وابتسامة الشماتة ترتسم على شفتيها.

«ماذا تفعل هنا»، سألتني.

قلت إنّني خفت عليك، لأنّ تنفّسك كان غير منتظم، فقضيت اللّيل هنا.

«ألم تسمع صوت إطلاق النار».

«لا، ماذا جرى»؟

وهنا كانت غلطتي: حين تكذب، تكتشف أنّك لم تعد تستطيع إصلاح أيّ شيء، كأنّك تعرّيت. وأنا كنت عاريًا أمام ابتسامة زينب.

«كلّ الناس سمعوا، وأتى الدكتور أمجد من بيته ليطمئنّ إلى الوضع، وبحثنا عنك، ولم نجدك في غرفتك، قال الدكتور أمجد إنّك هربت، وطلب منّي الاستعداد لنقل يونس إلى مأوى العجزة هذا الصباح».

«لن ننقله»، قلت.

«كما تريد، اذهب إلى الدكتور أمجد، وناقشه في الأمر، ولكن لماذا لم تخرج أمس من غرفة يونس»؟

«لم أسمع، يبدو أنّني غرقت في النوم».

«ولو يا دكتور، كيف ما سمعت، شو بيعرّفني، يمكن صار معاك كوما، الخوف بيعمل كوما». وخرجت.

ركضت وراءها. «زينب تعالي».

«ماذا تريد»؟

سألتها عن أمس، وكان الخوف يتسلّل إليّ صوتي.

«لا شيء»، قالت، «حادثة سرقة، مجموعة من اللّصوص حاولت سرقة المستشفى، وعندما شعرت بهم كاميليا، أطلقوا النار في الهواء، وهربوا».

«بسّ هيك»؟

«بس، إيش مفكّر يعني محاولة اغتيال! كبّر عقلك يا زلمي، ما حدًا بدّو ياك، المرا ماتت وشبعت موت، ولو كان بدّهم يقتلوك، كانوا قتلوك، ارجع ونام ببيتك، حدًا بيصرلو ينام ببيته، وينام حدّ جثّة».

قالت إنّك جثّة! الحمقاء.

كأنّها لا ترى. لا أحد يراك غيري. قلت لأمجد، وكان هذا نقاشنا الأخير حولك، قلت له إنّني أرفض نقلك إلى مأوى العجزة، وطلبت منه المجيء إلى غرفتك، كي يرى بعينيه.

قال اصطفل، تريده هنا، فليبقَ هنا، اقترحت نقله من أجل مصلحتك، ثمّ قال إنّه يرفض معاينتك، «أنا لست طبيبًا شرعيًا، كي أعاين الجثث».

شرحت له، ولم يفهم، قال إنّ ما أراه من علامات إيجابيّة هي علامات الموت. يا إلهي، ألا يرى كيف أصبحت مثل طفل صغير؟ لقد صغرت وامّحت علامات العمر عن جبينك وعنقك، وصارت رائحتك مثل الأطفال. حتّى ردود فعلك صارت كردود فعل طفل حديث الولادة. المشكلة عيناك المغمضتان، وأنا مازلت أقطّر فيهما قطرة الدموع. عيناك صافيتان، بياضهما يميل إلى الأزرق، وقلبك قويّ ومنتظم كقلب فتى.

قلت لأمجد إنّني أرى شفاءك بعينيّ، قلت له إنّني أسمع صوتك، كأنّك تنتظر شيئًا، قبل أن ينطلق الكلام.

«إنّها تخيّلات»، قال.

«لا يا دكتور، أنا لا أتخيّل، أحكي معه فيفهم، أضع له كاسيتات فيروز، فأراه يسبح في الحلم، أُسمعه أغاني أمّ كلثوم، فأرى الرغبة تتدفّق من حوله، أسمعه عبد الوهاب وعبد الحليم، فأرى غيمة الحياة تتشكّل دوائر فوق رأسه».

قال إنّه متأكّد من أنك دخلت الآن مرحلة النهاية، وإنّه ينتظر هبوطًا في القلب، قد يحصل في أيّة لحظة، ويودي بك، وإنّ كلّ اهتمامي بك، لم يغيّر شيئًا، فأنت لم تمت الآن لأنّ بنيتك قويّة، وقلبك ممتاز، فهو لم يرَ قلبًا بمثل هذا النقاء. استخدم كلمة نقاء كي يقول إنّه منتظم، وأمجد كان محقًّا هذه المرّة. قلبك نقيّ. ولا نقاء يا سيّدي إلاّ نقاء العشق. وأنا أغار منك ومن عشقك. أغار من ذلك اللقاء تحت الزيتونة الرّوميّة، حين أخذتك نهيلة إلى باب الشمس وأمطرت فوقك. حين أتخيّل هذا المشهد، أرى المرأة كغيمة تلفّك ثمّ تمطر فوقك. هذا هو ماء السماء والحياة.

كيف أقنعهم أنك لن تموت؟ كيف أقنع نفسي؟

طفولتك تجنّنني وتسحقني. أنا لم أنجب ولدًا، ولا أعرف معنى الجمال الذي رآه يونس، حين غطّى شعر ابنه إبراهيم الوسادة.

الآن، بدأت أفهم كيف يصير الإنسان، أبًا.

هل توافق؟

لا لزوم لموافقتك يا أبي، فلقد صرت ابني. دعني أناديك يا ابني، أرجوك، اعتبرها لعبة، ألا يلعب الآباء مع أبنائهم هكذا، فينادي الأب ابنه يا أبي، وينادي الابن أباه يا ابني. وأنا أيضًا، أحمل اسم أبيك، والدك كان إبراهيم، وأنا خليل، وابراهيم هو خليل اللّه، لذلك أسمينا مدينة إبراهيم مدينة الخليل، ولذلك أيضًا، سوف تدور أشرس المعارك بين الفلسطينيّين واليهود، في هذه المدينة، ومن أجلها.

لن ندخل في تعقيدات العلاقة بين الأبناء وأبيهم، فأنت تعلم أنّني لا أهتمّ بالحكايات الدينيّة، ولا يعنيني اسم الذبيحة التي لم تذبح، هل كانت إسحق، كما يقول اليهود، أم إسماعيل، كما نقول نحن. لا أحد منهما ذبح، لأنّ ابراهيم عليه السلام، عرف كيف يجلب الخروف. مرّت السكّين فوق عنقيهما ولم تجرحهما، فلماذا الخلاف؟

لا أريد التحدّث الآن حول هذه المسألة، أريدك يا ابني أن ترى الحياة بعينيك الجديدتين. ابدأ من البداية لا من النهاية. ابدأ حيث تشاء؛ أخبرتك هذه الحكايات من أجل أن تعرفها، وتصنع لنفسك حكاية جديدة.

أنا لا أستطيع تخيّل العالم الذي ينتظرك. اصنعه أنت، اصنعه كما تشاء، اصنعه جديدًا وجميلاً. قل للجبل أن ينتقل، فينتقل. ألم يكن عيسى عليه السلام، يقول للجبال انتقلي، ألم يكن هو الابن الذي رسم صورة أبيه حين مات على الصليب.

كن الابن، وليكن سريرك صليبك.

ما رأيك؟

ألا تحبّ صورة الابن؟

أليست أجمل من كلّ الصور التي رسمناها، خلال هذه الأشهر الستّة التي قضيناها معًا هنا. تعال نبدأ من الأوّل.

أنت أردت الأوّل، فاذهب إليه.

اسمع، أنا لا أعرف أغاني الأطفال، زينب تعرفها، زينب فقدت ابنها البكر في غارة الطيران الإسرائيلي على الفاكهاني عام ١٩٨٢ وماتزال تغنّي له. أراها، حين تخلو إلى نفسها، وقد ضمّت يديها، كأنّها تحمل طفلاً، وأسمعها تغنّي.

«يللاّ تنام، يللاّ تنام
لادبحلك طير الحمام
روح يا حمام ما تصدّق
عم بضحك عا ابني
تا ينام...».

غدًا سأذهب إلى شارع الحمرا، وأشتري لك فيروز، وستكون هذه هديّة عيد ميلادك السادس. والآن عليّ أن أذهب لأطبخ لك الغداء، وسأضيف إليه ماء الزّهر. لا شيء مثل ماء الزهر. إنّه أجمل عطر وأجمل رائحة. سوف أضيف ماء الزهر إلى طعامك، وسيكون غداء العيد طيّبًا.

نجحت التجربة، ألم أقل لك؟

بعد أن حمّمتك وعطرتك ومسحتك بالمرهم وألبستك بيجامتك الزرقاء السماويّة. أجلستك على الكرسيّ، وتركتك، فلم تسقط أو تَنْحَن، وهذا يعني أنّ التوازن عاد إليك، والإنسان، لا يستطيع أن يتوازن إذا كان دماغه معطوبًا. تركتك وحدك، ووقفت خلفك دون أن ألمسك، ثمّ جاءتني الفكرة.

جئتك من الأمام، وأمسكتك من تحت إبطيك، وحدثت الأعجوبة.

هذه هي المرّة الأولى التي أجرؤ فيها على القيام بهذه التجربة. فهناك ثلاثة ردود فعل لا إراديّة يقوم بها الطفل الحديث الولادة.

ردّة الفعل الأولى هي الإمساك بالإصبع. نفتح كفّ الطفل، ونضع إصبعنا عليه، فيطبق الطفل كفّه. ولقد جرّبتها ونجحت.

ردّة الفعل الثانية، هي أن نضع إصبعنا على خدّ الطفل قرب فمه، يقوم الطفل بتحريك فمه صوب الإصبع، ويلتقطه بشفتيه ويمصّه. وهذه جرّبتها ونجحت أيضًا.

ردّة الفعل الثالثة لم أجرؤ على تجربتها، خفت أن تسقط أرضًا وتتكسّر عظامك التي صارت دقيقة، وطريّة.

أخبرت زينب عن التجربتين، فنظرت بعينين فارغتين، ولم تقل شيئًا. أمّا الدكتور أمجد، فأنت تعرفه أكثر منّي، لا يهشّ ولا ينشّ، وصار الطبّ آخر همومه. كلّ ما يعنيه من أمر المستشفى، هو كيف يسرق الأدوية التي تأتينا كتبرّعات، ويبيعها.

كلّنا نعلم أنّه يسرق، ولكن ماذا نستطيع؟ هو المدير، فلمن نشتكيه؟

حاميها حراميها، كما يقولون. لن أبدأ في النّق والشكوى، هذا وضعنا ويجب أن نقبله.

لم أعد أذكر إذا كنت قد أخبرت الدكتور أمجد عن هاتين التجربتين، لأنّني متأكّد أنّ ردّة فعله لن تكون سوى السخرية.

المهمّ يا سيّدي أنّني مبسوط، ولن أسمح لأحد بتعكير مزاجي.

اليوم قرّرت القيام بالتجربة الثالثة، وكانت حاسمة. وقفت أمامك، وضعت يدي تحت إبطيك، ورأيتك. قبل أن أبدأ، رفعتك قليلاً إلى الأعلى، كما نفعل بالأطفال، أعدتك إلى الكرسيّ، وضعت سبابة كفّي اليمنى تحت إبطك الأيسر، وسبابة كفّي اليسرى تحت إبطك الأيمن، ورأيتك، والله نهضت وتحرّكت قدماك، كأنّهما تمشيان. رأيتك بعيني رأسي هاتين، تمشي، فخفت. أمسكتك وأعدتك إلى الكرسي، ورأيت الألم يجتاح عينيك المغمضتين. وحملتك كما تحمل أم طفلها، يا اللّه، كم صار وزنك خفيفًا. حملتك وأعدتك إلى السرير، وغمرني الفرح.

لقد نجحت ردّة الفعل الثالثة، وهذا يعني أنّك، على المستوى الطبّي، عدت طفلاً. لم تذهب من المرض إلى الموت، كما تمنّوا لك هنا، بل عدت طفلاً، وبدأت حياتك من جديد.

وهذا يعني أنّ كلّ شيء يجب أن يتغيّر.

عليّ أن أحسب عمرك الجديد، قرّرت أن أحسبه من لحظة سقوطك في الغيبوبة، وهذا يعني أنّك دخلت منذ أربعة أيّام، في شهرك السابع.

أنت في رحم الموت، منذ سبعة أشهر، وعليَّ انتظار ولادتك التي ستأتي بعد شهرين.

ها نحن في الأوّل، كما طلبت، وأمامك كلّ عذابات الطفولة.

تعال نبدأ.

أقضي وقتي معك، أحمّمك وأطعمك وأراك تتغيّر أمامي، وأشعر براحةٍ نفسيّة، أشعر أنّ مفاصلي تتراخى، وأنّني أستطيع أن أحكي ما أشعر به، وأكون حرًا. أنت ابني، والآباء لا يخافون أمام أبنائهم.

صحيح من أين جاءني الخوف؟

كيف ركبني الخوف وسجنني في زنزانته، أخاف من أيّ شيء، ألتفت إلى الوراء فلا أراهم. عشت مع اللاشيء أشهرًا طويلة. ستّة أشهر وأنا معك، وخوفي يشلّني. أمّا الآن، فلقد حرّرتني طفولتك الجديدة من الخوف.

ممنوع على الآباء الخوف أمام أولادهم.

وأنا الآن، لم أعد أخاف.

هل تعتقد أنّني أستطيع إخراجك من هنا؟ لم لا نعود إلى البيت! لا، لن نعود الآن، نصبر قليلاً، نصبر شهرين إضافيين، وتكون الولادة.

أحكي معك ولا أصدّق عينيّ.

أنحني فوقك، فأرى أبو كمال يقف إلى جانبي. من أين دخل أبو كمال؟

«ماذا تفعل هنا يا أبو كمال؟، شو جابك»، قلت له، وطلبت منه الجلوس، لكن بقي واقفًا إلى جانبك، كأنّه لم يسمعني.

«ماذا كنت تقول؟» سألني.

قلت له إنّني أعالجك.

«تعالجه بالكلام!»

«أعالجه، أنت ما علاقتك، تفضّل واجلس».

لكن سمير رشيد سنونو، أبو كمال، لم يتفضّل. اقترب منك، انحنى فوق السرير، تراجع إلى الوراء، ثمّ سمعت ما يشبه النحيب، اعتقدته يبكي، وضعت يدي على كتفه وانحنيت فوقه، فرأيت فمه مفتوحًا بالضحك.

«شو هذا، واللّه مش معقول، هذا يونس أبو سالم، يا حيف عالرجال».

وتابع ضحكه.

حاولت الإمساك به من كتفيه وشدّه إلى خارج الغرفة، ورأيت الدموع. كان يضحك ويبكي، دموعه تتسرّب حول شفتيه المنفرجتين، وضحكته تشبه السعال.

كان الرجل الستّيني الأصلع، الذي يسمونه في المخيّم الباذنجانة، لسواد بشرته وتطاول وجهه، كان وكأنّه قد فقد قدرته على التوازن، وكان رأسه المنحني وكأنّه على وشك السقوط أرضًا. هدّأته، وسقيته ماء.

«يا حيف على الرجال»، قال. «أهكذا ينتهي الإنسان؟ هذا أبو سالم، يا

لطيف صار أصغر من طفل رضيع، شو هو هذا المرض يللّي بيخلّي الرجّال يصير طفل»؟

أمسكته من يده وأخرجته إلى الممرّ.

«شو جابك يا أبو كمال»؟

الباذنجانة لم يزرك قبل الآن، ولا أعتقد أنكما كنتما صديقين، فهو من عالم مختلف، لا همّ له سوى الزواج. تزوّج ثلاث مرّات، وأنجب عشرة أولاد، وها هو الآن ينتهي وحيدًا، بعد وفاة زوجته الثالثة، ورفض مطلّقتيه العودة إليه. أولاده هاجروا جميعًا، وحياته انتهت، كما قالت أم حسن. أمّ حسن كانت تعطف عليه وتزوره، وترسل له الطعام، لأنّه من بلديّاتها. فأبو كمال، هو أحد أفراد عائلة سنونو، التي غادرت الكويكات، حين طرد أهلها منها عام ١٩٤٨.

«شو جابك»، سألته.

«البهدلة»، قال، وجلس في أرض الممرّ.

حين أخرجته من غرفتك إلى الممرّ، وقف مستندًا إلى الحائط، لكنّه حين لفظ كلمة «البهدلة»، تهالك أرضًا، وبدأ يشكو. طلب منّي أن أجد له عملاً في المستشفى. قال إنّ أمّ حسن قريبته، وإنّه يعلم مقدار معزّة أمّ حسن عندي، وإنّه جاء يطلب عملاً في المستشفى.

«أستطيع أن أشتغل أيّ شيء فالوضع لم يعد يطاق».

«ولكن يا أبو كمال، أنت تعرف الوضع أكثر منّي، فالأحوال مش ولابدّ».

«لا أعرف شيئًا» قال، «لا أريد أن أموت من الجوع».

«وشغلك؟ لماذا لا تعود إلى شغلك القديم؟»

«أيّ شغل يا زلمي، ليش بعد في حدّ بالمخيّم بيقرا جرايد».

«انزل على بيروت، واشتغل».

قال إنّه لم يعد يستطيع العمل في بيروت. فمنذ أسبوع كان يبيع الصحف في كورنيش المزرعة عندما أوقفه شرطي، وطلب أوراقه، وعندما اكتشف أنّه فلسطيني، هدّده وقال إنّه ممنوع على الفلسطيني العمل في لبنان دون إجازة عمل.

«صار بيع الجرايد بدّو إجازة عمل، يا ابن عمّي».

«صادر الجرايد منّي وطردني، قال إنّه يحترم شيبتي، ولولا أنّني رجل كبير، لأخذني إلى الحبس».

«في المخيّم، اشتغل في المخيّم»، قلت له.

«أنت تعرف، الناس هنا ما عادت تقرا الصحف، أساسًا لا أحد يملك المال كي يشتريها، وبعدين الناس لاحقة التلفزيون والفيديو، شو هالمصيبة هاي».

وبدأ يحكي عن مشكلته مع أفلام الفيديو، وكيف أنّه لا يرى. الناس يرون وهو لا يرى. «يجلسون حول التلفزيونات ويديرون الشريط، ويرون أشياء لا أراها. هذه ليست فلسطين يا ابن عمّي، هذه الصور لا تشبه قرانا، لكنّ الناس، لا أعلم ماذا جرى للناس، لا تراهم إلاّ مسمّرين حول التلفزيون. يا زلمي ما فيش كهربا، ومع ذلك يدبّرونها، يشتركون في مولّد الحاج اسماعيل من أجل الفيديو، يدفعون ٢٠ دولارًا شهريًا وهم يشتهون الخبز من أجل التفرّج على الشرائط، والجلوس في البيت، والنظر إلى هذه الأفلام التي يقولون إنّها فلسطين. نحن شعب الفيديو، صارت بلادنا بلاد الفيديو».

قال أبو كمال إنّه بعد حادثة الشرطي، حاول العودة إلى العمل في المخيّم، «فتحت بسطة جرايد، وزبوني الوحيد كان الدكتور أمجد، لكنّه لم يكن يدفع، يأخذ الجرايد، يقرأها، ويردّها، وأنا أجلس طول النهار أكشّ الذبان. ألا تستطيع أن تدبّر لي عملاً هنا في المستشفى»؟

قلت مستحيل، «مستحيل يا أبو كمال، شو بدّك تشتغل هون»؟

«يا رجل، يا ابن اللّه، أنا أشتهي عضّة الرغيف، مش معقول هيك، هل تقبل أن يصبح عمّك الباذنجانة شحّاذًا، واللّه عشنا وشفنا، تفو على الزمن كيف بيقلب».

حاولت مساعدته على النهوض عن الأرض، لكنّه رفض.

«انهض يا عمّي، وتعال نجلس في الغرفة».

لكنّه لم ينهض.

«قوم يا رجل، عيب».

قال إنّه لا يريد دخول غرفتك لأنّه يخاف.

قلت له ما فيش فلوس، والوضع صعب.

طلب منّي سيجارة، دخّنها بنهم، كأنّه لم يدخّن منذ فترة طويلة. أعطيته علبتي، لكنّه رفضها، أخذ سيجارة ثانية، دخّنها، وذهب.

لا، قبل أن يذهب، دخل غرفتك وسلّم عليك، ورأيت في نظرته شيئًا من الغيرة، كأنّه حسدك على نومتك هذه، ثمّ قال لي «العوض بسلامتك»، وغادر المستشفى.

واللّه زعلت على أبو كمال سنونو، ماذا أستطيع أن أفعل له. أنت لا تعرفه كي تفهم ما أقول، وتفهم لماذا جرح هذا الرجل قلبي. فلقد تحوّل من بائع جرائد في عكّا، إلى صاحب أكبر دكّان في المخيّم، ثمّ تهدّم دكّانه، وتهدّمت حياته، وماتت زوجته الثالثة، وانتهى وحيدًا وفقيرًا.

لماذا كلّ قصصكم هكذا؟

كيف احتملتم الحياة؟

نحن نحتمل الآن بالفيديو، معه حقّ أبو كمال، صرنا شعب الفيديو. أمّ حسن ذهبت وجلبت لي شريطًا عن الغابسية، وأمّ فلان ذهبت وجلبت شريطًا عن قرية أخرى، والناس لا يفعلون شيئًا سوى تبادل الأشرطة. نحتمل الحياة بصورتها، نجلس أمام الشاشة الصغيرة، ونرى بقعًا صغيرة وصورًا مشوّشة ومشاهد مقرّبة، فنخترع بلادنا على ذوقنا. نخترع حياتنا بالصور.

ولكن أنتم، كيف استطعتم تحمّل ما جرى لكم، كيف قمتم بسدّ ثقوب الأيّام؟

أعرف جوابك، وأعرف أنّك ستقول إنّه المؤقّت. عشتم المؤقّت، وكان المؤقّت وسيلتكم للتفاهم مع الحياة.

أنتم المؤقّت ونحن الفيديو، ما رأيك؟

كان أبو كمال يبيع الصحف في عكّا، ويصنع حياته كيفما اتّفق. كان في الرابعة عشرة، عندما بدأ عمله كبائع للصحف. ينزل يوميًا من

الكويكات راكبًا درّاجته، فيصل إلى عكّا بعد حوالى ٤٥ دقيقة، يأخذ حزمته، ويبيع جريدة «الشعب». وبعد الظّهر، كان يحمل يافطة كبيرة في الشارع ويصرخ، «اللّيلة ليلة بسينما البرج». ينادي الناس لدخول السينما من أجل التفرّج على فيلم «لصّ بغداد»، وينال مقابل صراخه نصف ليرة، يضيفها إلى اللّيرة التي كسبها من بيع الصحف، ويعود إلى قريته.

وكان أبو كمال يدعى الباذنجانة في قريته أيضًا. فنحن يا ابني جئنا وجلبنا معنا أسماءنا الحقيقيّة والمستعارة. لكنّ الباذنجانة أثبت أنّه الأكثر دهاء من جميع أولاد كمال سنونو. الإخوة الثلاثة كانوا يعملون في زراعة البطيخ مع والدهم، أمّا هو فدبّر لنفسه عملاً مستقلاً. ذهب إلى عكّا، فرأى بائع صحف، طلب منه أن يشغّله معه، فأخذه البائع إلى مكتب الحزب الشيوعي في عكّا، وهناك التقى رجلاً قصير القامة، واتّفق معه على العمل في بيع الجريدة.

لم يكن أبو كمال شيوعيًا، كان يريد مغادرة القرية، لأنّه لم يكن يحبّ العمل في الحقل. ويبدو أنّ عمله في بيع جريدة «الشعب»، ترك أثره على طريقته في الكلام، إذ بقي طوال حياته يرطن ببعض العبارات التي حفظها من مانشيتات الجريدة، عن حقوق العمّال، والأخوّة العربيّة اليهوديّة، وما شابه.

وحين بدأت الأمور تتعقّد، توقّف عن النزول إلى عكّا، والتحق بميليشيا الكويكات كمرافق لمحمّد النابلسي، الرجل الوحيد في ميليشا الكويكات الذي كان يملك رشّاش برن. وحين سقطت القرية، ومات محمّد النابلسي، وجد الباذنجانة نفسه جزءًا من موجة الناس التي نزحت عن القرية. لم يذهبوا إلى عمقا، بسبب الخلاف الذي كان مشهورًا بين القريتين، بعد الاغتصاب الذي تعرّضت له فتاة من آل الغضبان، على يد أحد شباب عمقا، وما استتبعه من ثارات لم تنته.

كل الكويكات رحلت إلى أبو سنان، وسكن الناس بين أشجار الزيتون؛ نصبوا خيامهم من الحرامات والخيش، وأقاموا في حقول أبو سنان حوالى شهر. لن أروي لك الآن ما صرنا نعرفه، عن تسلّل الناس ليلاً إلى قريتهم من أجل سرقة مؤونتهم من بيوتهم المخلّعة الأبواب، وكيف ماتت

قطَف، وهي امرأة في الثامنة عشرة من عمرها، برصاص أحد رجال الجيش الإسرائيلي، وهي تغادر بيتها، بعد أن حملت منه الفيّة الزيت، وكيف اختلط دمها بالزيت... وكيف... وكيف...

«لم يبقَ لنا سوى أن نسرق بيوتنا»، قالت أمّ حسن، «حدّ يسرق حالوا يا ابني، بسّ إيش كان بدّك يانا نعمل»؟

لم أسأل أمّ حسن لماذا لم يحاولوا استرداد قريتهم، كما فعلتم في شعب، بدل التسلّل إلى البيوت وسرقة أنفسهم، لأنّني كنت أعرف أنّ جوابها سيكون، «وبعدين، ما هياها شعب وسقطت، بلا هالكلام الفاضي».

المهمّ يا يونس، ماذا كنت أقول لك؟

اختلطت الأشياء في رأسي بشكل غريب. حتّى الأسماء اختلطت. صار الاسم يطير من صاحبه، ويغط على إنسان آخر. حتّى الأسماء لم تعد تعني شيئًا.

كنت أريد أن أقول لك إنّ أبو كمال، حاول أن لا يعيش في المؤقّت. فبعد موت قطَف، والجنون الذي ضرب أهل الكويكات، غادر الناس أبو سنان إلى جثّ، ومن جثّ في فلسطين إلى رميش في لبنان، ومن رميش إلى رشاف، ومن رشاف إلى حدّاثا.

أقام أبو كمال في حدّاثا حوالى السنتين، وعمل في شقّ طريق حدّاثا ـ تبنين. لكنّه ترك حدّاثا بعد خلاف مع زوجة أخيه، ورحل إلى بيروت، حيث اشتغل عامل بناء. قضى في بيروت حوالى الشهر، ثمّ ترك العمل وعاد إلى حدّاثا، بسبب الإرهاق، والتورّم الذي نبت في خاصرته نتيجة حمله تنكة الباطون، والبقاء خلف معلّم التوريق. عاد ليكتشف أنّه تمّ تجميع الفلسطينيّين وإنزالهم إلى مخيّم برج البراجنة في بيروت. ذهب إلى برج البراجنة فلم يجد مخيّمًا، وجد أرضًا خالية، وناسًا نائمين في العراء. يأتي موظّف أجْنبي، وإلى جانبه شخص لبناني، ويبدأون بتوزيع الخيم. يوزّعون خيمتين أو ثلاثًا ثمّ يتوقّف التوزيع لسبب أو آخر.

وكانت أيّام الانتظار.

أبو كمال عاد إلى حدّاثا، لأنّه تعب من شغل الباطون في بيروت، فوجد أنّه تمّ ترحيل جميع الفلسطينيّين إلى ضاحية بيروت. جاءت الشاحنات،

أمروا الفلسطينيّين المقيمين في القرى اللبنانيّة بالتجمّع في ساحاتها، وتمّ نقلهم إلى بيروت والشمال.

هكذا أخرجوا من الجليل اللبناني، بعد طردهم من الجليل الفلسطيني.

لم يفهم أبو كمال حقيقة ما جرى. مثلكم جميعًا، مثل أبي الذي قاده المؤقّت إلى العمل عند اليهودي أصلان درزيّة، ثمّ إلى الموت.

عشتم في المؤقّت، ومتّم في المؤقّت، واحتملتم الحياة التي لا تحتمل، واختبأتم في النسيان الذي لا ينسى.

ماذا أسأل أبو كمال الجالس ملتصقًا بالحائط؟

هل أسأله لماذا تزوّج ثلاث نساء؟ وكيف انقلبت به الدنيا وصار وحيدًا الآن، بعد موت انتصار زوجته الأخيرة؟

هل أستطيع أن أشرح له لماذا رفضت زوجته الأولى فتحيّة، وزوجته الثانية إكرام، عودته إليهما؟

والآن كيف سيعيش أبو كمال؟

الأولاد مهاجرون، يرسلون القليل من المال إلى المرأتين، وهو وحيد، لا يرسل له أحد شيئًا. هل أقول له إنّه يدفع الآن ثمن حياته! ولماذا عليه أن يدفع؟ هل كان دمار المخيّم بسبب زواجه الثالث. زوجته الثالثة انتصار ماتت خلال الحصار الطويل، الذي قلب الدنيا بنا. فالدنيا لم تنقلب بنا خلال المذبحة الكبرى، حين غطّت الجثث وجوهنا. الدنيا انقلبت في تلك الحرب التي سمّيت حرب المخيّمات، بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٨، حين ضربَنا الحصار من كلّ الجهات. يومها دمّر كلّ شيء.

قرأنا بعد ذلك، كلّ ذلك الكلام الذي دبّجوه على عجل، وقالوا فيه إنّ الانتفاضة التي أشعلت غزّة والضفّة الغربيّة ولدت على إيقاع حروب المخيّمات. وهذا قد يكون صحيحًا، أنا لست هنا كي أتنكّر للتاريخ، ولكن قل لي، لماذا لا يأتي التاريخ إلاّ على صورة وحش، لماذا لا نراه إلاّ في مرايا الدم؟

لا تحدّثني الآن عن مرايا جبل الشيخ، انتظر قليلاً، واسمع قليلاً.

أمامي يجلس أبو كمال الذي أتمنّى له الموت.

رجل اشتغل كلّ شيء، وحاول اكتشاف طريقه إلى حيلة الحياة. عمل في الباطون، ثمّ في مصنع جبر لصناعة البسكويت، خرج من الباطون بخصره المتورّم ليعمل في البسكويت، قبل أن يقرّر بيع البوظة. ثمّ فتح مقهى، ثمّ فتح دكّانًا وأسماه «ميني ماركت أبو كمال»، وصار يبيع الدخّان المهرّب، وكلّ شيء. رجل حاول الحياة بكلّ الوسائل، ومع ذلك، لا يثير فيّ اليوم سوى الشّفقة. فأنا عاجز عن اختراع حلّ لمشكلته؛ كيف أجد له عملاً وأنا كما ترى نصف عاطل عن العمل، ويأتيني هذا الرجل قائلاً إنّ زوجتيه رفضتاه، وتحجبان عنه المصاري التي يرسلها أولاده.

«فقط لو أستطيع الاتّصال بصبحي»، قال أبو كمال، «صبحي حنون على والده، ولكنّي لا أعرف عنوانه، ذهبت إلى فتحيّة، وقلت لها، قلت إنّني لا أريد شيئًا. أنت لا تعرف يا ابني معنى أن تبهدلك امرأة، امرأة كانت...».

«عيب يا أبو كمال، لا تحكي هكذا عن أمّ أولادك».

«ولكنّك لا تعرف شيئًا».

قال إنّ فتحيّة أكلت التراب مرّتين. المرّة الأولى عندما تزوّج إكرام، والمرّة الثانية عندما اشترطت عليه انتصار، تطليق زوجتيه، كي تقبل الزواج منه.

«أنا مذنب يا ابني، أنا مذنب، لكنّ الشيطان، لم أستطع مقاومة الشيطان، أغواني وفرض عليّ القبول بشروط تلك المرأة، لكنّها ماتت، وأخذت معها كلّ شيء. وأنا الآن على الحديدة، الدكّان احترق، والبيت نصف مهدّم. هل يمكن لعجوز مثلي أن يعيش وحيدًا. قلت أعود، أعود إلى حياتي السابقة، وإلى امرأتين كانتا تحتاران كيف تقومان على خدمتي. هل تعلم ماذا فعلت فتحيّة عندما ذهبت لزيارتها. وقفت بباب البيت وصارت تصرخ، وجمعت علينا الناس. كأنّني شحّاذ. أنا لم أذهب لأطلب شيئًا، ذهبت لأنّ اللّه هداني، قلت أردّ زوجتي وأنستر، أردّ أولادي، اللّه أخذ انتصار والدكّان كي يعاقبني، ذهبت كي أكفّر خطإي، فأكلتها بهدلة وتشرشحت، وأنا الآن لا أملك ثمن رغيف خبز».

مددت يدي إلى جيبي، فلم أجد غير عشرة آلاف ليرة، أعطيتها له وأنا أقول معتذرًا إنّني لا أملك غيرها.

«لا يا ابني لا، أنا لا أشحذ».

أطفأ سيجارته الثانية، ووقف ومضى.

أنا أعرف فتحيّة، واللّه هذه امرأة، كلّما فكّرت بنهيلة أرى أمامي صورة فتحيّة. امرأة طويلة سمراء، تغطّي رأسها بمنديل أبيض، وتقف منتصبة كالألف. لا انحناءة ولا ارتجافة ولا تعثّر. كأنّ العمر لا يمرّ في داخلها، بل إلى جانبها.

لا أفهم كيف قبلت فتحيّة بزواجه الثاني. الرجل أخفى في البداية زواجه الثاني عنها. اشترى بيتًا في برج البراجنة، حيث أقامت إكرام، وقسّم وقته إلى نصفين. ينام اللّيل في منزل زوجته الأولى في مخيّم شاتيلا، ويقضي شطرًا من النهار مع زوجته الثانية في برج البراجنة. وانتشر الخبر، وعرفت فتحيّة. وحين جاء أبو كمال إلى البيت منهكًا من العمل، كما كان يدّعي، سألته. بدا التردّد على وجه الرجل، وكان يريد أن ينفي الخبر، كان خائفًا من ردّة فعلها. لكنّه بدل أن ينفي، كما كانت خطّته، وجد نفسه يقول الحقيقة.

«نعم تزوّجت»، قال، «وهذا حقّي الشرعي».

وانتظر العاصفة.

وبدل أن تثور المرأة، وتقوم بتكسير صحون البيت، كما كانت تفعل حين تختلف مع زوجها على أقلّ الأشياء، بدل أن تقتله، كما كان يعتقد أنّها ستفعل، انهارت المرأة المنتصبة كالألف، وانكسرت إلى نصفين، انحنت على وجهها الذي وضعته بين راحتيها وبدأت تهتزّ بالبكاء. انكسرت فتحيّة دفعة واحدة، ولم تنتصب من جديد، إلاّ بعد طلاقه منها.

يومها تصالحت مع إكرام، وعاشت المرأتان في بيت واحد مع أولادهما العشرة. ومع نزيف موت الصبيان وهجرتهم، وزواج البنات، وجدت المرأتان نفسيهما وحيدتين، تتنفّسان روائح الرسائل الآتية من بلاد بعيدة، وتلوكان الذكريات.

بعد طلاقها، عادت فتحيّة كما كانت. انحناءة كتفيها التي رسمها زواج زوجها من إكرام، أمّحت، وعادت الكتفان مرفوعتين، والعنق الطويل يحمل فوقه المنديل الأبيض، والمرأة تمشي على طرقات المخيّم المهدّمة، كأنّها تطير

فوق الرّكام. كأنّ الدمار لم يكن أكثر من مشهد جانبي، لا هدف له سوى تركيز الصّورة على جمال إطلالتها، وبهاء عينيها النجلاوين.

لم تصرخ فتحيّة وتولول، كما ادّعى أبو كمال.

وقفت بالباب، ودفعت إكرام إلى الخلف، سدّت الباب بكتفيها العريضتين، ولم تسمح لإكرام بالتدخّل، كانت تعلم أنّ قلب إكرام سوف يتفتّت من أجل الرجل الذي أوحى لها في السابق أنّ دعسته تهدّ الأرض. أبعدت إكرام إلى الخلف، ورفعت يدها اليمنى إلى الأعلى، فيما كانت تسوّي منديلها باليسرى.

«برّا، برّا»، قالت.

حاول أن يحكي، فوضعت يدها على فمها، كي تغلق كراهيّتها وصراخها، ولم تقل سوى هاتين الكلمتين، «برّا، برّا»، فخرج الرجل دون أن يجرؤ على فتح فمه، حتّى إنّه لم يطلب عنوان ابنه صبحي الذي يشتغل في الدانمارك. رأى السدّ ينتصب في وجهه، فانحنى إلى الأمام، قبل أن يتراجع خطوتين إلى الوراء، ويدير ظهره للباب الذي سدّته فتحيّة بجسدها.

والآن يأتي ليقول إنّها ولولت وشرشحته في المخيّم.

لماذا يكذب الناس بهذه الطريقة؟

أنا متأكّد من أنّه صدّق نفسه. أنا متأكّد من أنّه حين روى لي محاولته استعادة مطلّقتيه، سمع في أذنيه صراخ فتحيّة الذي لم يخرج من فمها المغلق بيدها اليمنى.

قل لي، أنت تعرف أكثر منّي، هل نكذب كلّنا هكذا، هل كذبت عليّ أنت أيضًا؟

رويتُ لك حكايتك مع نهيلة بوصفها حكاية جميلة، ولم أناقشك في أحداث ذلك اللّقاء الأخير الذي جرى تحت الزيتونة الرّوميّة. سوف تقول إنّه لم يكن الأخير، وستروي عن زياراتك التي تواصلت حتّى عام ١٩٧٤، لكنّ ذلك اللّقاء، بالنسبة إليّ وإلى الحكاية، كان الأخير. فبعد أن قالت نهيلة ما قالته، انتهى الكلام، وحين ينتهي الكلام، ينتهي كلّ شيء.

حين لا يعود الكلام جديدًا وطازجًا، حين تتعفّن الكلمات في الفم، وتخرج هامدة وقديمة وميتة، يموت كلّ شيء.

ألم تقل لي ذلك بعد سقوط بيروت عام ١٩٨٢، قلت إنّ الكلام القديم مات، ونحن في حاجة الآن إلى ثورة جديدة. اللّغة القديمة ماتت، ونحن مهدّدون بالموت معها، لا نحارب ليس لأنّنا لا نملك السّلاح، بل لأنّنا لا نملك الكلام.

يومها مات الكلام يا يونس، ودخلنا سباتًا لم نفق منه سوى مع انتفاضة أهل الداخل. يومها نشرت الصحف صور الطفل حاملاً مقلاعه، ويومها قلت لي «يبدو أنّها بدأت من جديد». هي فعلاً بدأت، ولكن إلى أين؟

أنتَ لا تحبّ هذه الأسئلة، حتّى عندما تمّ توقيع اتفاق الحكم الذاتي في البيت الأبيض الأميركي، ورأينا مصافحة رابين وعرفات، وقلنا إنّ كلّ شيء انتهى.

أنت كنت حزينًا، أمّا أنا فلا. وجدت نفسي كمن يتفرّج على موت شخص آخر، والآن أقول لك إنّني كنت سعيدًا في أعماقي. الموت ليس رحمة فقط، بل سعادة. يجب أن تموت تلك اللّغة، يجب أن يندثر ذلك العالم المصنوع من الكلمات الميتة. كنت سعيدًا وأنا أرى النهاية، وأرسم على وجهي علامات الحزن الكاذبة.

هل تذكر؟

كنت في بيتي، وكنّا أمام التلفزيون، وكنت تبتلع دخان سيجارتك إلى أقصاه، وتستمع إلى الكلام الأميركي. ثمّ التفتّ إليّ وقلت لا، هذه ليست النهاية، كان هناك نهاية واحدة وتجاوزناها، فبعد الذي جرى عام ٤٨ لن تكون نهاية.

«يومها كانت النهاية يا ابني ولم ننته، ما يجري الآن ليس سوى مراحل، وكلّ شيء يمكن أن يتغيّر ويتشقلب».

كانت كلماتك تتقاطع أمامي وتتناثر، ثمّ خرجت؛ تركتني وحدي أمام شاشة التلفزيون المفتوحة على الكلام الأميركي، انتظرتك حتّى انتهى كلام التلفزيون، فأطفأته ونمت وأنا أشعر بذلك الالتباس النفسي الذي فرض عليّ تغطية فرحي بحزن مزيّف.

والآن قل لي، حتّى متى الانتظار؟

أنا هنا أنتظر نهايتك، عفوًا بدايتك، لكن رغم كلّ شيء، رغم رائحة البودرة التي تفوح من غرفتك، ورغم وجهك الذي يسيل فوق المخدّة، كوجه طفل لم يتدوّر بعد، فأنا هنا في انتظار النهاية. لا، لست مستعجلاً على شيء، وليس عندي أدنى فكرة عن مشاريعي بعد إقفال المستشفى.

يقال إنّهم سيهدمون المخيّم، على أيّة حال، فالمخيّم لم يعد المخيّم، حدوده ضاقت، ومساحاته الداخليّة صارت مشاعًا. لا أعلم من يقيم هنا، سوريّون ومصريّون وسريلانكيّون وهنود... لا أعلم كيف يأتون وأين يجدون بيوتًا. وغدًا ستأتي الجرّافات. ويقال إن الخطّة تقوم على هدم المخيّم، وتحويل أرضه جزءًا من الطريق السريع الذي سيربط المطار بوسط بيروت.

كلّ شيء ممكن هنا، ربّما كان علينا تأسيس المنفى من جديد. لا أدري.

قلت لك إنّني لا أنتظر شيئًا سوى النهاية، وبعدها لا أعرف، على كلّ حال، هذا ليس مهمًا، سألتك عن الصدق، كي أفهم لماذا كذب السيد سنونو وادّعى أشياء لم تحصل، ثمّ صدّق كذبته؟

لا، شمس لا.

أنا لم أخبرك شيئًا عنها، لا لأنّني لا أريد، بل لأنّني لا أعرف. فالرجل لا يعرف المرأة التي أحبّها إلاّ حين ينتهي الكلام، عندها يكتشفها من جديد، ويعيد ترتيبها في ذاكرته. أمّا حين تموت قبل ذلك، فإنّها تبقى معلّقة في سديم الذاكرة.

شمس بقيت معلّقة لأنّها اختفت وسط الكلام، وتركتني أكتشف وحدي أنّ معاني الأشياء لا نهاية لها، اختفت شمس في غابة كلامها، وتركتني وحيدًا. أنا لا أعتقد أنّ كلّ شيء كان وهمًا، وأنّني كنت مجرّد جملة اعتراضيّة في حياتها. لكنّي لم أفهم، كيف يستطيع الإنسان أن يكون حربائيًا هكذا.

مشكلتي مع هذه المرأة أنّني لم أكن أعرف، كانت حين ينتهي الحبّ، تتحوّل امرأة أخرى، وكان عليّ دائمًا أن أبحث عن المرأة التي كانت في سريري.

مهلاً، سأوضح لك المسألة. كانت شمس تختفي، تكون معي ويكون حبّها، ثمّ تختفي، لا أعلم أين. أنتظرها ولا تأتي، ثمّ حين أكاد أيأس لأنّي لا أملك وسيلة للاتّصال بها، أراها في بيتي، وتكون امرأة أخرى، يجب أن أبدأ معها من الصفر.

أتوه باحثًا عنها، أمشي في الطرقات، ينتفض قلبي حين أرى امرأة تشبهها. وفجأة، تقرع بابي وتدخل، وتكون امرأة أخرى. شعرها الطويل مقصوص كشعر فتى، وعيناها تنظران بتعجّب كأنّها تكتشف بيتًا لم تدخله من قبل، والحياء يغطّيها. كانت تأتيني ملفوفة بالخفر، كأنّها لا تعرفني، وتبدأ في الكلام السياسي العام، وتقول إنّها... وإنّها... سأعفيك الآن من خطاباتها حول ضرورة إعادة ترتيب وضعنا التنظيمي في لبنان، وإلى آخره...

وحين أحاول أن أبدأ، كانت تتراجع إلى الخلف ويلفها الحياء. أحاول الإمساك بيدها، فتنسحب كأنّها ليست تلك الشمس التي كانت تصهل منذ أيّام قليلة في سريري. آخذها ببطء، وأراها كيف تقترب ببطء، ثمّ حين أضمّها، أشعر بحاجة للتأكّد من أنّها عادت إليّ فعلاً، فأهمس في أذنها أن تقول تلك الآخ»، التي تبري روحي، فتتراجع إلى الخلف.

«ما بديش أقول».

تتركني وتجلس على الكنباية، وتشعل سيجارة. أنتظر قليلاً، ثمّ أعود من جديد. أعود إليها، أمسك بيدها، وأبدأ رحلتي فيها، وأسمع «الآخ»، تتسلّل من شفتيها وعينيها. كانت عندما أضمّها كما يضمّ رجل امرأة، تتمايل قليلاً، تخبّئ وجهها في عنقي، وتقول «آخها»، وتأخذني إليها.

وكنت أنسى، وأنا بين يديها، أنّها سوف تختفي في الصباح، وأنّ عليّ أن أبدأ رحلة بحث جديدة عنها.

هذا هو السؤال يا يونس، أين الصدق في هذه العلاقة؟

هل شمس هي شمس؟

هل تلك المرأة هي هذه المرأة؟ هل أعرفها؟ لماذا علقت رائحة جسدها في جسدي ورنّة صوتها في رأسي؟

صحيح يا يونس، لماذا لا يشعر العاشق أنّه رجل كالرجال؟ لماذا

نضطر كي نؤكّد رجولتنا إلى الكذب والادّعاء، وحشو أيّامنا بالكلام الفارغ، والتحدّث عن مغامراتنا الكاذبة، وحين نأتي إلى المرأة التي نحبّها، نصبح كامرأة.

لماذا يستيقظ في داخلنا ما يشبه الأنوثة.

نعم يصبح العاشق كالأنثى.

أنا واللّه اعترفت. نعم اعترفت وحاولت أن أقول لها، لكنّها لم تفهم. وحتّى لو فهمت... ماذا يعني؟ حتّى لو أحبّتني، وقد أحبّتني، أو خانتني، وقد خانتني، ثمّ ماذا؟

صحيح لماذا أرادت الزواج من سامح؟ لماذا لم تقل إنّها تريد الزواج؟ أنا كنت على استعداد للزواج منها، كنت لا أعرف. صحيح، لماذا لم أطلبها للزواج. الآن أقول إنّني لم أجرؤ، وإنّ الحكاية التي روتها عن زوجها السابق شلّت قدرتي على التفكير، وإنّ معاناتها بسبب ابنتها دلال، كانت السبب الأساسي الذي منعني من التفكير في الزواج.

كيف تقترح الزواج على امرأة، لا همّ لها سوى التخطيط للقيام بعمليّة خطف لابنتها. كانت تقول إنّها لن ترتاح في حياتها، قبل أن تخطف دلال من عمّان، وتأتي بها إلى بيروت. وإنّها في حاجة إلى رجل يساعدها، وحين أقول لها أنا تحت أمرك، كنت أرى ابتسامة الشفقة.

«أنت يا خوي، أنت دكتور ولا تنفع، أريد رجلاً حقيقيًا، أريد فدائيًا».

هل كان سامح هو ذلك الرجل الذي تبحث عنه؟

ألم تقل لي في إحدى لحظات الامتلاء، «أنت رجلي»، كيف أكون رجلها، ولا أكون رجلاً حقيقيًا؟ ثمّ كيف تطلب امرأة للزواج، وهي تقول إنّها تبحث عن رجل آخر؟ ثمّ لا، أنا لست متأكّدًا، أنا أعتقد أنّها لم تكن تتحدّث عن دلال إلاّ معي. كانت تنسى دلال كلّ الوقت، ولا تستيقظ ابنتها فيها، إلاّ بعد أن نمارس الحبّ. ننتهي من الحبّ، أشعل سيجارتي، وأرشف جرعتي الأولى من كأس الكونياك، فتأتي دلال وتقيم الحاجز الذي لا يمكن اختراقه. يموت الكلام، وتتحوّل شمس كتلةً من الدموع. امرأة تروي عن ابنتها، وتلعن الحياة والزمن، ثمّ تقفز فجأة وتقول إنّها جائعة. لا أعرف كيف لم تسمن. كانت تلتهم كمّيات كبيرة من الطعام، وأنا إلى جانبها.

«لماذا لا تأكل يا قيس»؟

كانت تسميني قيسًا، «والله لأسوّي فيك مثل ما سوّت ليلى بقيس، وأجنّنك».

وقيس، أي أنا، لم يكن يأكل إلاّ قليلاً. هل أقول لها إنّني لا آكل لأنّني عاشق؟ مرّة قلت ذلك، فماذا كانت ردّة فعلها؟

«اسم اللّه عليك وعلى هالأفكار، الغوى بدّو قوى، كل، كل، الحبّ يحتاج إلى طعام».

وكنت عاجزًا عن الأكل، رغم جوعي، كنت كمن لا يملك القوّة على مضغ الطعام، أكتفي بمراقبتها والنظر في عينيها الشيطانيّتين اللّتين كانتا تسترقان النظر إليّ، وتعتذران عن تلك الشهيّة المفتوحة.

لكن ربّما لا، لم أطلب منها الزواج، لأنّني لا أريدها. لم أكن أريدها لأنّي كنت أخاف منها. غريب، أليس غريبًا، قل لي، أنت لا، المقارنة معك مستحيلة، فنهيلة كانت امرأتك، وهذا يفسّر الأشياء، أنا لا أريد الاعتداء على حياتك.

ولكن لماذا لم تفعل مثل حمد؟

حمد كان مثلك مقاتلاً في حامية شعب، لا تقل لي إنّك لا تعرف. أمّ حسن روت لي حكايته. قالت إنّ شقيقته رفضت إقامة عزاء له بعد وفاته في بيتها في عين الحلوة، فأقيم العزاء في بيت أمّ حسن هنا في مخيّم شاتيلا.

قالت أمّ حسن إنّهم حمقى «يقولون إنّه إسرائيلي، وايش يعني إسرائيلي، هل حين نتبهدل وندخل السجون من أجل أولادنا وأرضنا، نكون خونة».

لن أخبرك قصة عودة حمد إلى قريته في الجليل، لأنّي متأكّد من أنّك تعرفها. أردت أن أقول، إنّه ربّما أنت أيضًا خفت من الحبّ.

انظر يا سيّدي إلى كلّ قصص الحبّ، ما هي قصّة الحبّ؟ القصّة التي نسمّيها قصّة حبّ، تكون عادة، قصّة استحالة الحبّ. لم يكتب أحد عن الحبّ، إلاّ بوصفه مستحيلاً. أليست هذه قصّة قيس وليلى، وروميو

وجولييت، أليست هذه قصّة خليل وشمس، كلّ العشّاق هكذا، يصيرون حكاية للحب الذي لم يكتمل. كأنّ الحبّ لا يكتمل، أو كأنّنا نخاف منه، أو لا نعرف كيف نخبر عنه، أو، وهذا هو الأدهى، لا نعرف أن نعيشه.

ماذا فعل قيس بن الملوّح، لا شيء، منعوا عنه حبيبته ليلى، فرضخ للأمر وأصيب بالجنون.

«أليس وَعَدْتَني يا قلب أنّي اذا ما تبتُ عن ليلى تتوبُ
فها أنا تائبٌ عن حبّ ليلى فما لك كلّما ذُكرت تذوبُ.

كلام جميل، وشعر رائع، لكنّ الرجل أصيب بالجنون، وتزوّجت حبيبته رجلاً آخر.

روميو، ماذا فعل؟ انتحر.

وماذا فعل كلّ العشّاق، كلّهم عشقوا عن بعد، وأحبّوا في الفراق، فصاروا حكاية مستحيلة.

ألا توافق معي؟

هل لأنّ الحبّ مستحيل؟ واللّه كلّ مرّة غادرتني فيها شمس، أحسست بطعم الخشب في فمي.

الأنّي لم أكن أريد الانفصال عنها؟

أنت تعرف هذه الآية الجميلة في القرآن، هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ..

كيف نصير لباسًا؟ أي كيف نصير واحدًا؟

هذا هو الحبّ، لذلك لا نعرف أن نخبر عنه، فلا نخبر إلاّ عن استحالته أو مأساته أو ضحاياه ومصارعه.

أمّا حين يكون العشّاق معًا، فنعجز عن وصفه، بل ربّما لا أحد يعيشه، ونبدأ باختراع الأسباب التي تبعدنا عنه.

كأنّ الحبّ لا لغة له؛ إنّه مثل الرائحة، كيف نصف الرائحة؟ نصفها بما ليس فيها، ولا نسمّيها. هكذا الحبّ. لا اسم له إلاّ حين لا يكون.

لا أريد التقليل من أهمّيّة حبّك لنهيلة، أعرف أنّك أحببتها، وكان شغفك بها عظيمًا. أعرف أنّها سكنت عظامك، أعرف أنّك تموت اليوم من أجلها.

ولكن لماذا لم تعد، كما عاد حمد؟

لماذا ذهب حمد إلى السجن، ونجح في العودة إلى بيته وزوجته، بينما لم يخطر ببالك احتمال كهذا؟

لا تقل إنّك ضحّيت بنفسك من أجل الثّورة، فأنا لا أصدّق.

أرجوك لا تسئ فهمي؛ أنا لا أريد الإساءة إلى تاريخكم، فتاريخكم هو تاريخي، وأنا أحترمكم وأجلّكم وأضعكم على رأسي.

ولكن قل لي، ألم يكن في قرارك شيء من الخوف من المرأة؟ ألم تكن تفضّل، دون وعي منك ربّما، أن تكون نهيلة حيث هي، وأنت حيث أنت، فتستمرّ حكايتكما، وتخترقان المسافات والأزمنة. في كلّ مرّة ذهبت إليها كنت تعرّض حياتك للخطر. كلّ مرّة، كنت تشتري حبّك باحتمال موتك. أليس هذا رائعًا؟ أليست حكاية لا مثيل لها؟

قل لي، هل كنت وأنت تمشي على طرقـــات الجليلين اللّبناني والفلسطيني، تشعر بأنّك تحمل في قدميك المجرّحتين بالأشواك، حكاية حبّ لا مثيل لها؟

أمّا أنا، فيا حسرتي!

أنا أعرف أنّ قصّتي لا تستحقّ أن توضع إلى جانب قصّتك. أنا مجرّد عاشق مخدوع، هكذا يعتقد كلّ الناس. لكن لا، شمس ليست بهذه البساطة كي يجري تلخيصها بأنّها خانتني. ثمّ كلمة خيانة ليست دقيقة. فأنا لم أكن زوجها، إذن لماذا كانت تأتي إليّ؟ لولا الحبّ ما أتت، ولولا الحبّ، ما سحرني حضورها، ولولا الحبّ ما اختبأت كالكلب في هذا المستشفى خوفًا من الانتقام. أعترف أنّي خفت، وصدّقت ما أشيع عن قرار أهل قرية العمّور بالانتقام من قتلة ابنتهم. لكنّ الوقت مضى.

لو أرادوا قتلي، لقتلوني. أقيم في المستشفى لأنّي تعوّدت، ليس إلاّ، فأنا أستطيع العودة إلى بيتي لو أردت، ولكن بيتي قرب الجامع، وأنا لا أحبّ المقابر.

لم يظهر أحد من عائلة شمس، سوى خديجة، والدة شمس. جاءت إلى مخيّم عين الحلوة، أخذت أغراض ابنتها وعادت، دون أن تتّصل بأحد هنا. وعلمت أنّ لا أحد زارها من أجل تعزيتها. لم تمكث في المخيّم أكثر من ٢٤ ساعة. دخلت منزل ابنتها، أغلقت النوافذ، وبقيت في داخله ليلة، وخرجت

في الصباح حاملة حقيبة كبيرة. لم تتكلّم مع أحد، وأمام حاجز الجيش اللبناني على مدخل المخيّم، والذي مانزال نطلق عليه اسم حاجز الكفاح المسلّح، التفتت إلى الوراء، وبصقت، ثمّ مضت.

لم يعد هناك من مبرّر للخوف، جاءت المرأة وذهبت. وأنا هنا لا بسبب الخوف، بل بسبب العادة.

ثمّ أريد إعادة النظر في حياتي بهدوء.

تريد الحقيقة أليس كذلك.

سأحاول إخبارك الحقيقة، ولكن لا تقل لي لماذا قبلت، أنا لم أقبل، لا أنا لم أقبل، ولم يستشرني أحد. وجدت نفسي في الدوّامة، وكدت أموت، ولولا أبو علي حسن، لأعدموني.

نعم يا سيّدي، لا ليس أهل شمس، بل قيادة الميليشيا في مخيّم عين الحلوة. فلقد افترضوا، عن خطأ طبعًا، أنّني المحرِّض على القتل، فأكون بهذا قد أزحت سامح، واستفردت بالمرأة. لم يصدّقوا ما رواه الجميع عن الكيفية التي قتلت بها شمس عشيقها، بل افترضوا وجود محرّض، وقاموا باعتقالي.

استحييت أن أخبرك عن حادثة اعتقالي، إذ لم يعلق في ذاكرتي منها سوى إهانات «القرون»، وكيف نظروا إليّ باستخفاف. هذا الاستخفاف كان خشبة خلاصي، وهو لم يحصل إلاّ بعد تدخّل أبو علي. هل تصدّق؟ توسّط لي كي أتبهدل، لم يكن هناك حلّ آخر، البهدلة أو الإعدام. أبو علي أنقذني عبر بهدلتي، ولولاه لقتلوني كما قتلوا شمس.

لن أخبرك عن التحقيق؛ لم يكن هناك تحقيق: جاء رجل وسلّمني رسالة من قيادة ميليشيا عين الحلوة، تدعوني إلى زيارتهم، وذهبت. حين وصلت كانوا في انتظاري، واقتادوني فورًا إلى سجن عين الحلوة، ورموني في قبو مظلم تحت الأرض، مليء بالرطوبة، ورائحة العفونة، وتركوني.

تعفّنت في القبو عشرة أيّام، كأنّها عشر سنوات. فلقد اختلط الزمن في رأسي، وعشت تحت الأرض كأنّني أطفو فوق ليل حياتي كلّه.

أخرجوني إلى جلسة التحقيق، وجاء رجل يحمل مخرزًا نستخدمه عادة لتكسير ألواح الثلج، وبدأ يغرسه في صدري، ويطلب منّي أن أعترف.

كـان يضـربني بالمخـرز ويسـألني، «مـاذا فـعلت بسـامح يا كلب»، وأنا أسـأله من يكون سـامح هذا؟ وهو يعـيـد جملتـه كـأنّه لم يكن ينتظر منّي جوابًا.

محقّق أحمق، سوف تقول.

لكن لا يا سيّدي، ليس محقّقًا ولا أحمق، إنّه مجرم. لقد ترعرعت الجريمة في صفوفنا، سقيناها دمًا وحماقات، غرقنا في الخطأ، فأكَلَنا الخطأ.

هل هذا معقول؟

يعتقلونك ويرمونك في الظلام، ولا يوجّهون إليك سؤالاً واحدًا. يرمونك في قبو تحت الأرض، حيث تعيش مع فضلاتك، ثمّ لا ترى غير المخرز في صدرك، ويسألونك عن شخص لا تعرفه، ولا ينتظرون جوابك.

عشرة أيّام في اللاّمكان، ولولا أبو علي حسن، لبقيت هناك إلى ما شاء اللّه. أبو علي حسن كان رفيقي من أيّام قاعدة الخريبة عام ١٩٦٨، قال لي إنّه أنقذني لأنّه كان متأكّدًا من براءتي، لأنّه يعتقد أنّ «القحبة» ضحكت عليّ.

اقتادوني إلى التحقيق، وهناك سقطت عليّ نظرات الإهانة وابتسامات السخرية، وفهمت. ولكن بدل أن أشعر بالغيظ، وأنتفض لكرامتي، شعرت بالخوف عليها، وركبتني فكرة واحدة، هي كيف أنقذها من أيديهم. رأيت قرار قتلها في عيونهم، وكنت لا أريدها أن تموت. يومها لم أكن أعرف ما علّمتني إيّاه الحياة، وهو أنّ الموت راحة العاشقين.

لا شيء ينقذك من العشق سوى الموت.

لو كنت أعلم ذلك، لقتلتها بيدي.

لكن في التحقيق ركبني القلق عليها، وبدل أن أعود، بعد إطلاق سراحي، إلى بيتي وعملي، قرّرت البحث عنها، ومحاولة إنقاذها. ذهبت إلى خراج بلدة مغدوشة، في شرقي صيدا، حيث أقام المقاتلون قواعد لهم. كنت أعلم أنّها تقود هناك فصيلاً عسكريًا، أطلقوا عليه اسم فصيل شمس، وأنّها ترفض تلقّي الأوامر من القيادة العسكريّة في الجنوب، لأنّها تتبع القيادة في تونس، في شكل مباشر. هكذا قالت لي، ولم أصدّقها،

ولكنّي عندما ذهبت إلى مغدوشة، اكتشفت أنّها لم تكذب هذه المرّة. كان هناك فعلاً فصيل مسلّح يعرفه الناس باسم جماعة شمس، لكنّ الفصيل لم يكن في مغدوشة. قيل لي إنّ مجموعة شمس انسحبت نحو قرية مجدليون.

ذهبت إلى مجدليون، ولم أعثر عليها.

كنت كالأعمى، أمشي في طرقات الجنوب، أبحث عنها ولا أجدها. وفي كلّ مكان، واجهتني تلك النظرات الغريبة، كأنّ كلّ الناس كانوا يعرفون القصّة.

بحث ولم أجد. قطعت مجدليون وذهبت إلى البيت الذي قيل لي إنّه مقرّ مجموعة شمس. وكان البيت فارغًا. بيت يتألّف من خمس غرف، تحيط به حديقة من الأشجار المثمرة. دخلته فرأيت بطانيّات على الأرض، وأكياس نايلون، وطناجر، ورائحة طعام متعفّن. كأنّهم أخلوا المكان بسرعة، ولم يتسنَّ لهم الوقت الكافي لترتيب رحيلهم. دخلت واستلقيت على حرام مرميّ على الأرض، وشعرت بالبكاء. كنت كالمحاصر بالدموع، أبكي دون بكاء، لا عواطف ولا مشاعر، لا شيء. كنت في اللاّشيء وفي الدموع، وعرفت أنّها ضاعت.

ضاعت شمس، ولا أعرف كيف سأنظّم فراغات حياتي من دونها.

أغمضت عيني، وشددتهما إلى الأقصى، فجاء الظلام المليء بالثقوب الرماديّة، واحتلّني اليأس.

هل تعلم يا ابني يا يونس، ماذا يعني الشعور بالعجز عن احتمال الحياة.

مرّة قلت لها إنّني لا أستطيع تخيّل الحياة من دونها، فربتت على كتفي، وأمسكت ديوان محمود درويش، وبدأت تقرأ:

«خذني إلى أرضٍ بعيدة

خذني إلى الأرضِ البعيدةِ، أجهشت ريتا: طويلٌ

هذا الشتاءُ،

وكسَّرت خزف النهارِ على حديدِ النافذة

وضعت مسدّسها الصغير على مسوّدة القصيدة
ورمت جواربها على الكرسيّ، فانكسر الهديلُ
ومضت إلى المجهولِ حافيةً، وأدركني الرحيلُ».

عارية على سريري، وتقرأ، وكانت الصفحات تتلألأ بين يديها، وصوتها ينحني وينعطف ويتلوّن، وأنا أنظر إليها ولا أفهم. أسمع إيقاع صوتها مختلطًا بإيقاع القوافي، وأرى جسدها يتلوّن.

أغلقت الكتاب، وقالت «مالك، ألا تحبّ الشعر»؟

«أحبّه أحبّه»، قلت، «ولكنّك أجمل من الشعر»

«كذّاب»، قالت، «أنا طموحي أن أصير مثل ريتا كما كتبها محمود درويش. هل سمعت أغنية مارسيل خليفة، «بين ريتا وعيوني بندقيّة»، أنا أريد أن أصير مثل ريتا، ويأتي شاعر ليضع بندقيّة بيني وبينه».

وقفتْ فجأة وقالت إنّها جائعة، وستعدّ لي المعكرونة.

لم أقل لها إنّني لست هكذا دائمًا، فأنا أحبّ الشعر كثيرًا، وأحفظه غيبًا. لكن حين نكون في حضرة الانبثاق الوحشي للجمال، لا تعود الكلمات ممكنة.

لكنّني في تلك اللحظات، حين كنت وحدي في بيت مجدليون، وسط ما تبقّى من أثرها، شممت رائحة المعكرونة، داخل الثقوب الرماديّة التي كانت تتراقص في عيني المغمضتين، وشعرت بموتي. صدّقني، من دونها أنا لا شيء. وحدي مع اللاشيء، وحدي مع ما تبقّى من أشيائها، وحدي مع طيفها.

وغرقت في النوم داخل روائح العفونة التي كانت تتسلّل من بطّانيّات ذلك البيت المهجور.

غفوت، وطفت فوق أحلام غامضة، كأنّني لم أعد أنا. ورأيتها. كانت شاهينة تلبس بنطلونًا كاكيًا وقميصًا كاكيًا، كأنّها شمس. رأيتها تقف تحت المطر، كانت حبال المطر تربط الأرض بالسماء، وهي تقف تحت شجرة لوز مزهرة.

«كيف يزهر اللّوز في الشّتاء»، سألتها.

هزّت أغصان الشجرة، فبدأت الأزهار تتساقط، ركضت كي ألمّها، فصوّبت نحوي بندقيّتها. «إرجع»، صرخت، «اليهود هنا».

كنت طفلاً، لا، صرت طفلاً، لا، رأيت نفسي طفلاً. وبدأت أنطّ كي يستعيد جسمي طوله، فأنا لست طفلاً، وهذه ليست شاهينة، هذه شمس.

«لماذا تفعلين بي هكذا يا شمس»، صرختُ.

فقالت شاهينة إنّها ذاهبة.

اقتربت منها، وبدأت الأرض ترحل وأنا أغرق. كنت طفلاً يغرق تحت المطر. كانت حبّات المطر الكبيرة تضربني، وأنا أتوجّع.

«يا أمّي»، صرخت.

ورأيت شاهينة التي تشبه شمس، تدير ظهرها وتختفي تحت الماء.

المنام مشوّش في رأسي الآن، لكنّي حين استيقظت هناك على دعساتهم، لم أخف. أحسست بأقدام تلبطني وببنادق مصوّبة إلى رأسي، فتكوّمت على نفسي كي أتفادى ما يمكن تفاديه من اللّبطات.

أوقفوني إلى الحائط، وطلبوا منّي رفع يديّ إلى الأعلى، ثمّ أداروا وجهي نحو الحائط، وبدأوا في تفتيش جسمي بحثًا عن السلاح، وأنا كالنّائم. لم أقاومهم، لأنّي لم أعد أقاوم.

فأنا منذ الملعب البلدي، حين قرّرت أن لا أمضي مع الذين ركبوا السفن اليونانيّة، قلت خلص.

لكن أين نجد الخَلَص؟

تقول خلص، فيأتي هذا التاريخ الأعمى، ويجرّك من شعر رأسك إلى الحرب.

قلت خلص، وغرقت في المذبحة.قلت خلص، وحاصرتني حرب المخيّمات.

قلت خلص، ووجدت نفسي مصلوبًا على حائط بيت مهجور، في قرية أشباح هُجّر منها سكّانها، تدعى مجدليون.

والآن أقول خلص، لأجد نفسي مع هذا الطفل الصغير الذي يترنّح فيه الموت. كأنّنا نولد في الموت، ونموت فيه.

كنت أقف أمام الحائط، والنعاس يتمدّد في داخلي، وصورة شاهينة

لابسة شمس تتركني تحت المطر. لماذا تركتني أغرق؟ هل يمكن ترك طفل يستغيث؟ حتى في المنام، هذا غير مسموح ومعيب. كنت أقف، والرجل يفتّش كلّ شيء فيّ، كأنّه كان يفكّ عظامي قطعة قطعة. ثمّ طلب منّي أن أدير وجهي، فرأيت أربعة شبّان، كبيرهم لا يتجاوز العشرين من العمر. كانوا كالأطفال الذين يلعبون. هكذا الحرب، لا تكون إلاّ كلعبة، وحين نبطّل اللّعب نخاف، وحين نخاف نموت.

وقفت أمام الحائط منتظرًا موتي، لكنّهم لم يقتلوني. أمطرني رئيسهم بالأسئلة، ولم أجاوب. ماذا أقول؟ هل أقول الحقيقة، وأبدو مضحكًا وسخيفًا؟

بعد أن يئس القائد من وجهي الممسوح بالنعاس والنوم، أمرهم باقتيادي. تقدّم أحدهم، فكّ أزرار قميصي، ورفعه إلى الأعلى، مغطّيًا به وجهي. أركبوني سيّارة لاندروفر، وأخذوني. كنت في تلك اللحظات، داخل ترجرج الطرق المحفرّة، وكأنّ النوم عاد يهدهدني. أريد تلك المرأة، أريد أن أعطيها أزهار اللّوز التي لمتها من أجلها.

لكنّ النوم لم يأتِ، ووجدت نفسي في زنزانة معتمة، تشبه زنزانة اعتقالي الأولى. أخمّن أنّهم تناسوني، وتركوني أعيش أيّام السجن الثلاثة، وكأنّني في بطن الموت. أنا يونس لا أنت. عشت في الظلام ثلاثة أيّام، دون طعام أو ماء. كنت على يقين أنّهم نسوني، وأنّني سأموت داخل هذا القبو المعتم، دون أن يدري أحد بي.

لكنّهم في اليوم الثالث أخرجوني من الزنزانة إلى التحقيق، وهناك قهقه المحقّق في أذني.

«إيش أبو قرون»، قال، «إيش كنت عم تعمل هناك».

قلت إنّني ذهبت بحثًا عنها.

«ولإيش تفتّش عليها».

«كي أفهم».

حين قلت كي أفهم، انفجر الرجل في ضحكة هستيريّة طويلة، وبدأ يسعل وهو يحاول أن يقول شيئًا، ثمّ بدأ وسط نوبة السعال والضحك يؤشّر بيديه الاثنتين كي يطردوني خارجًا.

هكذا اعتقلت من أجلها مرّتين، وأطلق سراحي مرّتين.

عدت إلى بيتي تاركًا شمس لمصيرها. لا تقل إنّني لم أحاول إنقاذها. عدت إلى بيتي وانتظرت موتها، وماتت.

ماذا تريد أن تعرف أكثر؟

أنا واللّه لا أعرف، والآن لا أرى أمامي سوى علامة استفهام. لماذا جاءت من الأردن؟ وكيف صارت ضابطًا في فتح؟ وكيف كوّنت مجموعتها العسكريّة؟

أسئلة لا أعرف أجوبتها. كلّ ما أعرفه هو أنّني لا أعرف شيئًا.

هل تريد أن تسمع الحكاية؟

أخبرك إيّاها شرط أن لا تقول إنّها لا تصدّق. صدّق سلفًا فأحكي. أنا لم أعد مستعدًا للبحث في صدق الحكايات أو عدمه. يا عمّي كلّ حكاياتنا لا تصدّق، فهل ننساها؟

حكاية حمد مثلاً، هل صدّقتها؟

أنا صدّقتها لأنّها تشبه حكايتك، ولكن حكايتك وحكاية ريم أو نهيلة في شعب، وحكاية عدنان في السجن أو في مستشفى المجانين، كلّها حكايات لا تصدّق، ومع ذلك هي حقيقيّة. أنت تعرفها وأنا أعرفها، وكلّ الناس يعرفونها.

وسؤالي هو.

لا، لا يوجد سؤال.

ولكن لنفترض أنّ هناك سؤالاً. السؤال هو لماذا لا نصدّق أنفسنا؟ لماذا أشعر بأنّ الأمور التي حدثت لي أو لغيري، صارت ظلالاً. أنت مثلاً، ألست ظلّ الرجل الذي كان؟ وهو، أكان بطلاً أم أكذوبة أم وهمًا؟

أعرف أنّني أزعجك حين أطرح عليك هذا النوع من الأسئلة، وأعرف أنّك تفضّل أن تكون وحدك الآن. فأنت الآن... يا عيني ما أجملك. فقط لو تستطيع فتح عينيك مرّة واحدة، لترى وجهك في المرآة. رجل كهل يفتح عينيه فيرى نفسه طفلاً، يرى جسده وقد تحرّر من كيس العمر. أنت صاحب هذه النظريّة. ألا تذكر؟

كنت تقول إنّ العمر كيس يحمله الإنسان على ظهره، لكنّنا لا نراه، لأنّ لا أحد يرى عمره. فالعمر كالمنام، تكرج حياتنا، ويكرج الزمن بنا، ونحن لا نعي. ثمّ فجأة، وبعد الأربعين نشعر به، كأنّ الزمن يتجمع داخل كيس يكبر فوق ظهورنا، ويجعلنا ننحني.

هل تذكر ما قالته نهيلة حين جئتها مرهقًا وجريحًا، بعد الكمين الإسرائيلي الذي سقطت فيه، ولا تدري حتّى اليوم، كيف نجوت ولم تمت؟

وجدت نفسك مرميًا في الوادي، والدم ينزف منك، تحاملت على نفسك وذهبت إليها. وهناك، في مغارة باب الشمس، مسحت المرأة جروحك بالزيت، وأعادتك إلى الحياة. كنت وأنت تمشي متثاقلاً إلى مغارتك، على يقين من أنّك ستموت هذه المرة. ولم تشعر بالحزن. قلت لي إنّك حين قرعت على النافذة، ومشيت، كنت متأكّدًا من أنك ذاهب إلى الموت. تجمّدت كلّ الصّور والذكريات في عينيك، ورأيت نفسك كظلٍّ يمشي إلى ظلّه.

استفقت لتجد نهيلة أمامك، تغطّي رأسك بمنديلها الأبيض، وتمسح جروحك بالزيت، وتهدهدك كأمّ تهدهد طفلها. حاولت نهيلة إزالة الرصاصة العالقة في فخذك اليسرى، فلم تستطع، وشفيت، وبقيت الرصاصة. والآن أحسها بين أصابعي حين أحمّمك. الرصاصة تكبر وأنت تصغر، ولا ضرورة لإزالتها. نتركها تذهب معك إلى حيث ستذهب.

يومها قلت لنهيلة إنّ الكيس يثقل ظهرك، وسألتها عن كيسها، فابتسمت ولم تقل شيئًا.

كانت نهيلة تبتسم ولا تقول، تخبّئ سرّها في ابتسامتها العريضة، التي تحيل عينيها غابة زيتون وليل.

يومها قلت لها إنّ العمر صليب الإنسان، وحدّثتها عن المسيح. استمعت إليك، وأحبّت كلامك، وقالت إنّك تحكي مثل أمّك التي كانت تخبّئ أيقونة العذراء مريم تحت وسادتها.

أخبرت نهيلة أنّ المسيح صلب على خشبة عمره الذي لم يعشه، فالعمر كالصليب، سوف نجد أنفسنا معلّقين عليه في النهاية.

قالت نهيلة إنّك صرت تحكي مثل الفلاسفة، وابتسمت.

أمّا أنت، فشعرت بثقل كبير على ظهرك، صار ظهرك ثقيلاً، وبدأ ينحني بك. لا، لم ينحنِ ظهرك، لأنك بقيت رياضيًا حتّى النهاية. لكن ذلك الكيس اللعين، أحنى عنقك قليلاً، فصرت تمشي ناظرًا إلى الأرض.

أنظر الآن كم أنت جميل وجديد. لقد رميته عن ظهرك، وبدأت طفولتك. عدت طفلاً لا عمرَ له. العمر الذي كان وراءك صار قدّامك.

لا أحد يصدّقني.

أقول للدكتور أمجد أو لكاميليا أو لزينب، فيعتقدون أنّني مجنونٌ. كأنّهم لا يرون. أقول لهم انظروا، فلا يرون. يقف أمجد فوق رأسك، ويقول إنّ الخطر الآن صار في القلب، ففي أيّة لحظة، يمكن أن يحدث هبوط في القلب، ويموت الرجل.

أنا أفهم في الطب أكثر منه، وأعرف احتمالات هبوط القلب. لكن لا أحد يريد أن يرى أو يصدّق. حتّى أنت صرت مثلهم. أرجوك افتح عينيك مرّة واحدة، وانظر في المرآة، وسترى المفاجأة. سترى كيف أمكن لإنسان أن يرمي كيس العمر عن ظهره، ويعود إلى طفولته، ويصير في أوّل الأشياء.

قلت لك إنّ لا شيء يُصدق في حكايتنا، وشمس أيضًا لا تُصدق. لكن عليك تصديقي. أعرف أنّني حين سأروي حكايتها سوف أقتلها. الآن سوف تموت شمس مقتولة بالكلمات. كلّ الذين تجمّعوا في تلال الميّة وميّة فشلوا في قتلها، لأنّها ماتزال حيّة معي، والخيانة تفوح من جسدها الساخن، وأصابع كفّيها. كأنّي مازلت أمسك بيدها، وأتأمّل أصابعها الرفيعة الطّويلة، وأقبّلها إصبعًا إصبعًا، وأتركها تشتعل من أصابعها.

شمس ماتزال مشتعلة يا يونس، لكن يبدو أنّ الوقت قد حان. أشعر أنّ عليّ تكفينها بكيس العمر الصغير الذي كانت تحمله على ظهرها، أشعر بأنّ وقت موتها قد جاء. لذلك سوف أخبرك الحكاية كلّها، ومن الأوّل، وسأدفن شمس في الكلمات، كما فعلنا أنت وأنا بنهيلة.

الآن جاء دوري.

لم أعد أستطيع الاحتفاظ بامرأتي. عليّ دفنها كما يدفن الناس موتاهم وحكاياتهم.

بدأت حكاية شمس سنة ١٩٦٠، حين ولدت في مخيّم الوحدات في عمّان. والدها يدعى أحمد صالح حسين، وأمّها خديجة محمود علي. تزوّج أحمد خديجة في قريتهم العمّور، وهي من نواحي القدس، سنة ١٩٤٧. وبعد عام أنجبا ابنهما الأوّل صالح الذي مات عام ١٩٧٠ في معارك أيلول في الأردن.

وجد أحمد وخديجة، نفسيهما مع طفلهما صالح، الذي لم يكن قد بلغ السنة من عمره، وسط جموع أهالي عمّور الذين طردوا من قريتهم سنة ١٩٤٨، عند إنشاء دولة إسرائيل. سكنت العائلة في المغاور قرب بيت لحم، كما فعل جميع أبناء القرية، وكانوا يتسلّلون إلى قريتهم بحثًا عن مؤونتهم. ثمّ توقّف كلّ شيء لأنّ التسلّل الجماعي أصبح مع الوقت أكثر صعوبة، ولأنّ المؤن نفدت وكلّ بيوت القرية نُسفت.

عام ١٩٥٠، انتقلت العائلة، بعد أن انضمّ إليها طفل جديد أسماه أهله عموري، تيمّنًا بالقرية التي هدمت، إلى مخيّم عايدة، في بلدة دير جاسر. وهناك وجد أحمد لنفسه عملاً في معمل معكرونة، كان يملكه أبو سعيد الحسيني. وكان مرتّبه شلنًا واحدًا يوميًا، وكان الشلن كافيًا، لأنّ الرجل كان يجلب معه من المعمل مؤونة العائلة من المعكرونة.

وصارت العائلة لا تأكل سوى المعكرونة، وحتّى بعد إقفال المعمل، وانتقالهم للإقامة في مخيّم الوحدات، في عمّان، بقي أحمد يصنع المعكرونة في بيته، وبقيت العائلة تأكل المعكرونة كلّ يوم تقريبًا، حتّى أطلق عليها الناس لقب عائلة الطلياني، لأنّ أحمد كان لا يحكي في المخيّم إلاّ عن فضائل المعكرونة ومنافعها، وعظمة الشعب الإيطالي الذي اخترعها. لم يكن أحمد يعلم أنّ المعكرونة ليست طليانيّة بل صينيّة، ولكن من أين له أن يعرف؟

كان اسمها ابنة الطلياني في الأردن، ونسي الناس هذا الاسم في بيروت، وشمس التي كرهت المعكرونة في طفولتها، عادت إلى اكتشافها، عندما أحبّتني. قالت إنّ الحبّ أعادها إلى جذورها الطليانيّة، وصرنا لا نأكل إلاّ المعكرونة، ما عدا بعض المناسبات القليلة، حين كنت أقوم بإعداد الطعام، فأقلي لها القرنبيط وأعدّ الطرطور.

حكاية شمس كما ترى، ليس فيها أيّ شيء خاص حتّى الآن، سوى المعكرونة. كلّنا طردنا من سرانا، وكلّنا تسلّلنا إليها بحثًا عن الطعام، وكلّنا توقّفنا عن التسلّل بعد تدمير البيوت والقرى، وكلّنا اشتغلنا في الأعمال التي توفّرت لنا.

عام ١٩٦٠، أي عام ولادة شمس، أقفل معمل أبو سعيد الحسيني، قيل إنّه أفلس لأنّ المعكرونة الإيطاليّة المستوردة سيطرت على السّوق، وانهارت صناعة المعكرونة الوطنيّة، بسبب عدم توفير الحماية الجمركيّة لها.

أقفل أبو سعيد الحسيني معمله في بيت لحم، ووجد أحمد نفسه مع زوجته وأولاده الخمسة، إذ ولد له صبي وابنتان إضافيتان قبل ولادة شمس، دون عمل. فقرّر الرّحيل من بيت لحم إلى عمّان، إلى منطقة رأس العين حيث اشتغل في الكسّارات، ثمّ انتقل بعد سنتين إلى مخيّم الوحدات، وأقام في منطقة التطوير على حدود المخيّم، وبنى برّاكيّة تنك، حيث أقام مع عائلته. وكان بيتهم يشبه مركز إعلانات من كلّ صنف ولون. جلب أحمد صالح صفائح التنك من العلب المرميّة في المزابل والطرقات. ولم يكن في ذلك حالة فريدة، فأغلبيّة براكيّات منطقة التطوير بنيت من التنك. وكان الناس يغيّرون صفائح التنك مع تغيّر الفصول. فبعض الصفائح كانت تتهرّأ قبل غيرها بسبب تعرّضها للشمس والأمطار والرطوبة.

كان بيت شمس أشبه بلوحة إعلانيّة مستطيلة.

قالت شمس إنّها عاشت قسمًا كبيرًا من حياتها في بيت التنك الملوّن. بيت يصير فرنًا في الصيف، وبرّادًا في الشتاء، وأب لا يناقش مع زوجته إلاّ في ضرورة تغيير هذا الحائط أو ذاك، لأنّه بدأ يتهرّأ، «عشت حياتي كلّها في التهرُّؤ، البيت يتهرّأ، وأبي يتهرّأ، وكلّ شيء يغرق في الماء والشمس. أبي يذهب إلى عمله في الكسّارات ويعود منهكًا، روحه تكاد تخرج من أنفه، فلا يجد ما يتسلّى به سوى لفّ المعكرونة، والصراخ على أمّي لأنّها لم تعدّ العجين بشكل جيّد».

قالت شمس إنّها حين تتذكّر تلك الأيّام، تتذكّرها بحنين غريب، وإنّها شعرت بالغربة للمرّة الأولى، حين تغيّر بيتهم في المخيّم. جاء الباطون، ولم

تعد الحيطان قابلة للاستبدال. كلّ شيء جاء مع الثّورة، وتوقّف أحمد صالح الذي ألحقه ابن عمّه بأحد مكاتب الجبهة الشعبيّة عن العمل في الكسّارات، وأضاف غرفتين جديدتين إلى بيته. يومها قالت شمس إنّها أحسّت بالغربة. كانت في التاسعة، عندما تغيّر كلّ شيء في البيت، لم يعد السقف يدلف، ولم تعد الحيطان تحمل ألوان الإعلانات، وشعرت شمس أنّ شيئًا منها قد مات.

انتهت طفولتها مع البيت الذي تهاوى، وجاءها الدم. قالت لها أمّها إنّها مثل كلّ بنات العمّورة، «نحن هكذا، بناتنا يبلغن في التاسعة». وشرحت الأمّ لابنتها كلّ شيء، وقالت لها إنّ عليها إعداد نفسها للزواج. وانتظرت شمس الزوج.

انتظرته تلميذة في مدرسة الأنروا.

وانتظرته وهي تتلقّى تدريبها في معسكر الأشبال.

وانتظرته وهي ترى أخاها يموت، بعد إصابته برصاص رجال البادية عام ١٩٧٠.

وانتظرته وهي ترى كيف اعتقل والدها بعد إقفال مكتب الجبهة الشعبيّة، ثمّ وجد لنفسه عملاً في معمل المعكرونة الذي كان يملكه رجل من آل علوان في عمّان.

وانتظرته وهي ترى حيطان البيت المبنيّة من حجارة الباطون، تتآكل وتصبح مثل حيطان التنك، التي سيّجت طفولتها.

وأتى الزواج والكوابيس.

كيف تريدني أن أخبرك عن فوّاز محمّد نصّار، وأنا لا أعرفه إلاّ ممزّقًا في كلمات شمس. كانت حين تروي عنه تمزّقه. تأخذ قطعة صغيرة من كيس ورقي اسمر أو من جريدة أو من ورقة كلينكس أو من كتاب، تبدأ في مضغها وبصقها. فأنا لم أرَ ذلك الرجل إلاّ مرسومًا على ورقة ممزّقة. تروي وتمزّقه، وتنهمر دموعها.

هل سبق لك أن رأيت امرأة لا تبكي من عينيها، بل يبكي كلّ شيء فيها. كان كلّ شيء في شمس يبكي، وهي تمزّق فوّاز محمد نصّار، وتبصق نتف الأوراق التي تمضغها. وفجأة تمسح دموعها كأنّ لا شيء.

كأنّ المرأة التي بكت كانت امرأة أخرى، وتبدأ في التهام صحن المعكرونة المسلوقة، التي صنعت لها مرقًا خاصًا مؤلّفًا من الكريم وأوراق الحبق. تأكل وتتنشّق رائحة الحبق، وتقول إنّ هذه الرائحة تسكرها. تأكل كأنّ الشهيّة تتفجّر في داخلها. وتقول إنّها لا تريد شيئًا من فوّان، فقط سوف تذهب إلى عمّان وتخطف دلال، وتعود بها إلى بيروت.

«لن أبدأ حياتي دون دلال، انظر».

تخرج صورة من جيب قميصها الكاكي.

«أنظر كم هي جميلة، واللّه إنّها أجمل فتاة في العالم».

أنظر، فلا أرى أجمل فتاة في العالم، أرى طفلة حلوة، بشعرها الأجعد، ووجهها الصغير الأسمر الذي تأكله عينان كبيرتان، تنتهيان برموش طويلة.

«انظر إلى رموشها، هل يمكن تركها مع الوحش».

كانت شمس حين تمسك بصورة دلال في يدها، تتحوّل امرأة أخرى. أرى الحنان والحزن والضعف، وقد انعقدت فوق جبينها، فأحاول ضمّها إلى صدري، فتدفعني عنها، كأنّها ترفض مشاركتي لها في دلال، ثمّ تلتفت إليّ، قائلة إنّها في حاجة إلى رجل يساعدها على خطف دلال. وحين أقول لها إنّ الرجل جالس أمامها كانت تنظر إليّ بشفقة.

«بدّي فدائي يا حبيبي، مش واحد دكتور زيّك».

فأقول لها إنّني فدائي، وأروي عن قواعدنا الأولى في الخربية وكفرشوبا.

«أنت! مش معقول!».

الحقيقة أنّني أخطأت، ما كان يجب أن أحكي لها كيف أجبرني الضابط على الزحف أمام السرية، وكيف قادني ذلك إلى أن أفقد كلّ احترامي لنفسي كمفوّض سياسي أو جندي.

هذا هو خطإي الذي لا يغتفر، اعترفت أمامها بأنّي لم أكن شجاعًا بما فيه الكفاية، كي أمنع الضابط من إهانتي.

أردت أن أكون صفحة بيضاء معها، قلت لها إنّني صفحة بيضاء، وإنّها تستطيع أن تكتب عليها ما تشاء. لكنّها لم تكن تبحث عن صفحة

بيضاء. إذن لماذا استمرّت في علاقتها معي؟ لماذا كانت هنا، وهناك عند سامح؟ واللّه لا أدري، فأنا لا أفهم منطق الشياطين التي تسكن أجسادنا.

نعم يا يونس، انتظرتها حتّى موتها، عدت من السجن، ولم أخرج من بيتي إلاّ بعد أن جاءني نبأ مقتلها. فلقد تسرّب إلى وهمي، أنّها ربّما أتت من أجل أن تختبئ في بيتي. كم كنت ساذجًا، أنا لم أمكث في بيتي احتجاجًا على اعتقالي، كما أُشيع في المخيّم، بقيت في البيت، في انتظارها. وكنت مستعدًا، آخ لو أتت. كان كلّ شيء فيَّ يؤلمني، فالفراق يحدث وجعًا في المفاصل والصدر والركبتين.

انتظرتها لا لكي أفهم ماذا فعلت، بل لأنّي أحبّها. لم تعد تفرق معي، أخانتني أم لا، لم أكن أنا الموضوع، هي كانت الموضوع. لكنّها لم تأتِ. من المؤكّد أنّها لم تشعر بانتظاري لها، كانت الجريمة تغطّيها وكان الدم. أستطيع وصفها لك يا ابني، رغم أنّي لم أرها. أستطيع أن أرى الهالة الحمراء حول رأسها وبقع الدم. فنحن، منذ أن غرقنا في دمنا، والدم يلاحقنا، ويربطنا إليه بخيط طويل ملفوف حول أعناقنا.

بعد أن ماتت، خرجت من بيتي ومشيت في شوارع المخيّم، كأنّني انتقمت لشرفي، مشيت كالمنتقم التافه، مع أنّي كنت أختزن في داخلي كلّ حزن العالم، ولم أبك شمس، ولن أبكيها، فكلّ الدموع لا تكفي. مشيت مرفوع الرأس، أبله، كأنّني انتقمت.

بدأت الشائعات، والتجأت إلى المستشفى خوفًا من الانتقام. خفت لأنّي أعرفها، فهي امرأة قادرة على قتل كلّ رجالها. قتلتنا كلّنا. أنا وسامح ولا أعرف من أيضًا. قتلتنا كبديل لجريمة لم نرتكبها. الجريمة مثل الحبّ، نقتل إنسانًا آخر، ونحبّ رجلاً أو امرأة، لأنّه بديل رجل أو امرأة أخرى.

أنا كنت بديلاً لرجلين لا أعرفهما، سامح لم أسمع به، وفوّاز لم ألتقِ به، ولكنّي كنت بديلهما. سامح مات، وفوّاز أخذ دلال، وأنا هنا.

أين كنّا؟

أخبرتك أنّ شمس نضجت للزواج في التاسعة، وزوّجوها في الخامسة عشرة. جاء فوّاز، وكان في الرابعة والعشرين، وتزوّجها ومضى بها إلى لبنان. لكن فوّاز لم يأتِ، جاء أبو أحمد نصّار وطلبها لابنه فوّاز الذي أنهى

دراسة الهندسة في جامعة بيروت العربيّة، ويعمل في المقاومة. ثمّ أخذها إلى بيروت. وصلت فتاة مخيّم الوحدات، وتعرّفت إلى زوجها في بيت صغير في مخيّم تلّ الزعتر، الذي كان يقع في ضاحية بيروت الشرقيّة. وعاشت سنة ونصف السنة تحت دويّ المدافع وأصوات الرشّاشات.

قالت إنّ زوجها كان يخيفها أكثر من الحرب.

«لم يكن يضاجعني إلاّ تحت دويّ القصف، كان مثل الشيطان، لا أراه إلاّ داخل البيت، يأتي من لا مكان والغبار يغطّيه، يترك الكمين ويدخل عليّ برائحة التراب والعرق، ويأخذني دون أن يخلع ثيابه. فأنا لم أره عاريًا أبدًا».

«كان مسؤولاً في ميليشيا المخيّم، ولكنّي لا أعرف شيئًا عن مهمّاته، فهو لم يخبرني».

«أوصلني والده إلى بيروت، ذهبنا في رحلة مضنية بالسيّارة من عمّان إلى بيروت. وحين وصلنا إلى البيت في تلّ الزعتر، وقف والده بالباب ولم يدخل. قبّل ابنه وقال «جبتلك العروس»، وذهب. خلال ستّ ساعات قضيناها معًا في سيّارة الأجرة من عمّان إلى بيروت لم يكلّمني. جلس حدّي ولم يكلّمني. كان ينظر إليّ بين الحين والآخر، ويقول ما شاء اللّه».

«قال أبي إنّي سأتزوّج، هزّت أمّي رأسها موافقة. وتزوّجت. كنت كالعمياء. وكالعمياء قطعت المسافة بين عمّان وبيروت، وكالعمياء دخلت بيت زوجي الذي لا أعرفه، أوصلني والد زوجي إلى بيتي الجديد وذهب، ووجدت نفسي أقف في البيت، حاملة حقيبتي، كأنّني في محطّة قطارات».

«أهلاً شمس»، قال فوّاز، «أدخلي وتحمّمي».

«دخلت المطبخ، سخّنت الماء في لكن حملته إلى الحمّام، وغسلت جسمي بصابون الغار الذي وضعته أمّي في حقيبتي وأوصتني أن أتحمّم به قبل الدخول على زوجي. تحمّمت وخرجت ودخلت عالم فوّاز، لأكتشف أنّه ليس مهندسًا ولا شيء. جاء إلى بيروت لدراسة الهندسة، ثمّ اشتغل في معمل البلاط قرب مخيّم مار الياس، ونسي الهندسة. ومع بدايات الحرب الأهليّة التحق بالمقاومة، وانضمّ إلى ميليشيا تلّ الزعتر».

«أنا لست جميلة»، قالت، «لكنّي في تلّ الزعتر اكتشفت أنّني امرأة في عيون الرجال النّهمة إلى الحياة، كان قصف وحرب وموت، وكان كلّ شيء يتخلخل».

«كان فوّاز يجنّ من الغيرة، لن أصف لك ماذا كان يفعل، كان في البداية ينطح رأسه في الحائط حتّى يسيل دمه، ينام معي، ثمّ يبدأ مشهد الحائط، ولم أكن أفهم. أنت قحبة وبنت قحبة، كان يقول».

«كنت خائفة، أعيش حربًا لا نهاية لها، وكان فوّاز كأنّه لا يريد للحرب أن تنتهي. أسأله متى سيعود إلى عمله، فينظر إليّ باستغراب، ويقول إنّه ليس مهندسًا، ولا يريد العودة إلى عمله في معمل البلاط».

«شو عليه، قلت له، هذا لا يهمّ، فأبي لم يكن أكثر من لفّيف معكرونة، ومع ذلك عشنا بكرامة، المهمّ الأخلاق».

«كان يكشّر، الأخلاق يا قحبة، أنا علقت بقحبة».

«لا أفهم، ربّما أرادني أن أكون قحبة، ربّما كان خائفًا منّي، لكنّي لم أفعل شيئًا، واللّه لم ألتفت إلى رجل، بلى، ولكن كان ذلك بعد فترة طويلة، وخلال انسحابنا من المخيّم بعد سقوطه».

«هل تعلم ماذا فعل؟

ترك كمينه، وجاء إلى البيت مهرولاً. اسمعيني، قال، أنا سأنسحب مع المقاتلين، وأنتِ استسلمي مع النساء، ونلتقي في بيروت، وأعطاني عنوان شخص يُدعى كريم عبد الفتّاح، أبو رامي، في منطقة الفاكهاني في بيروت».

«أذهب معك»، قلت له

«لا، هذا آمن» قال.

«ولكنّهم يغتصبون النساء» قلت.

نظر إليّ بعينين وحشيّتين: «تخافين الاغتصاب! ومضى».

«كيف أقول لك، واللّه خفت، ولم أفهم لماذا لم يأخذني معه، هل كان يريد لي الموت. ماذا فعلت له؟ عشت معه أصعب الأيّام. أنت تعرف ظروف الحياة في الحصار، صرنا لا نجد غير العدس نأكله، عشت وحدي كالغريبة. أذهب إلى حاووز الماء وأقف في طابور الموت. كان الماء تحت مرمى نيرانهم. أسميناه حاووز الدم. عشت وحدي لا عمل لي سوى انتظاره. ويأتي مبلّلاً بالتّراب والحصى، ينام معي ويخرج. لم يكن يأكل العدس الذي أطبخه، لأنّه كان يأكل مع الشباب في الموقع».

«لم أكن أريد سوى شيء واحد، العودة إلى بيت أهلي في عمّان. ولكن كيف أغادر، والمخيّم مغلق بالحصار. كنت أريده أن يهتمّ بي قليلاً، لكنّي لم أجرؤ على طلب أيّ شيء. فهو مقاتل، ونحن في حرب. حتّى زياراته ومضاجعاته كانت قصيرة. وكان في كلّ مرّة ينام فيها معي، ينطح رأسه في الحائط، ويتّهمني بالخيانة، ويقول إنّني عاهرة، وأنّ جسمي مركز للشرّ».

«جاء وقال إنّه سينسحب، وطلب منّي الاستسلام مع النساء».

«كنت أعرف ماذا ينتظرني، فقرّرت الانسحاب مع المقاتلين، ذهبت في اتّجاه الحدود الشرقيّة للمخيّم، لبست بنطلون جينز وقميصًا أخضر، وذهبت بحثًا عن فوّاز، ولم أجده. يبدو أنّه كان مع المجموعات الأولى التي انسحبت».

«هناك، التقيت أحمد كيّالي، أعطاني بندقيّة كلاشنيكوف، وقال تعالي معنا».

«قطعنا مساحات المونتيفردي، المليئة بأشجار الصنوبر. مشينا ليلاً وكمنّا نهارًا. وهناك وسط الطلقات المتفرّقة، وليل الموت، قرّرت أن أترك فوّاز. إذا عشت فلن أعود إليه. أحمد كان حبّي الأوّل، معه اكتشفت أنّ لي جسدًا، وأنّ جسدي يستحقّ متعة الحياة. فوّاز كان حين يضاجعني يقول متّعيني، وكنت لا أعرف كيف أمتّعه. كنت لا أشعر إلاّ بلهاثه فوقي، وبذلك الشّيء الذي يخترقني من الأسفل، كأنّه يجرحني. معه كنت أصل إلى طرف اللّذّة دون أن أصل. أحمد غير شكل. نمت معه، وقلت له أن يقترب. كنّا تائهين في الغابة، خرجنا من المخيّم مع حوالى عشرين مقاتلاً، مشينا ليلتنا الأولى، ثمّ طلع الضّوء، فقرّرنا أن ننتشر في انتظار الظلام. وبدأوا ينتشرون، ولم أكن أعرف أن أنتشر. أحمد أخذني معه، واختبأنا في منحدر صخري، وكنّا لا نجرؤ على التنفّس. سألني أحمد، وكان فتى في مثل عمري تقريبًا، لكنه كان مثل الرجال، تكلّم بعاميّة ممتزجة بالفصحى كي يوحي لي بالجدّيّة، وسألني إلى أين سأذهب في بيروت. قلت إلى بيت أبو رامي، كريم عبد الفتّاح.

«هل تعرفينه»، سألني.

«لا، أعطوني اسمه»، قلت.

«وأهلك، أين أهلك»؟

«في عمّان»، قلت.

«أنا أهلي في نابلس»، قال.

«لماذا جئت إلى بيروت»؟ سألت.

«كي أصير فدائيًا». قال. «وأنتِ»؟

أحسست بالدموع تنهمر من عيني، وضع أحمد يده على رأسي واقترب منّي، فقلت له خذني، فأخذني. معه اكتشفت معنى أن تنام المرأة مع رجل. أحمد اختفى بعد ذلك، اختفى في حمّانا، حين وصلنا إلى نقطة التجمّع. لا أعلم أين ذهب، ولا أعرف شيئًا عنه. وصلنا إلى حمّانا فاختفى، ونزلت مع مجموعات المقاتلين إلى بيروت، وقرّرت أن لا أذهب إلى بيت أبو رامي؛ لكن إلى أين أذهب؟ فكّرت في الذهاب إلى أحد المكاتب التابعة لحركة فتح، لكنّني لم أكن عضوة في فتح، ولا أحمل بطاقة. كنت غبيّة، من كان سيسأل عن البطاقات في تلك الأيّام. فذهبت إلى بيت أبو رامي، ولم أجد فوّاز. قالت أمّ رامي إنّه يقف مع الشبّاب في منطقة المتحف في انتظاري.

«اذهبي إليه الآن»، قالت أمّ رامي.

«لكنّي لا أعرف بيروت، ولا أعرف المتحف، ولا أعرف شيئًا».

طلبت من ابنها رامي مرافقتي، ركبت إلى جانبه في سيّارة «الرينو ١٢» البرتقاليّة، مضينا، وفجأة أوقف السيّارة، وفتح نوافذها الخلفيّة. يبدو أنّ رائحتي كانت لا تطاق. ركن سيّارته في أحد المنعطفات وأشار بيده إلى ساحة يتجمّع فيها الناس، وقال هناك.

نزلت من السيّارة، وبندقيّتي في يدي، ومشيت وسط الجموع وكنت مرهقة، وكانت رائحة أحمد ترافقني. بحثت طويلاً عن فوّاز، قبل أن أجده واقفًا بين النساء الباكيات. كانت النساء اللواتي يصلن في سيّارات تابعة للصليب الأحمر اللّبناني، ما إن ينزلن من الشاحنات، حتّى يبدأن في الندب والعويل. نساء وأطفال وعويل وتدفيش أمام مراكز تسجيل أسماء المفقودين. نساء يحكين عن الاغتصاب والرشّ على الحيطان، والسحل.

كان فوّاز يقف في وسطهنّ. اقتربت منه حتّى صرت في مواجهته، لكنّه لم يرني، ربّما لأنّني كنت ألبس بنطلونًا وأحمل بندقيّة. نسيت أن أخبرك أنّه كان يمنعني من لبس البنطلون.

«هذا أنا يا فوّاز».

عندما رآني، قفز عليّ كالمجنون. «الحقّ عليّ»، قال، «أنا مجنون، كان لازم أجيبك معاي».

أمسكني من ذراعي، أخذ منّي البندقيّة، كأنّه أراد رميها جانبًا.

«هذه بندقيّتي، اتركها».

انتزعت البندقيّة من يده ومشينا. أوقف سيّارة تاكسي وقال للسائق إلى الحمراء. وهناك في نزلة سينما سارولا، دخلنا فندقًا رخيصًا، استأجر غرفة في الطابق الثاني، وصعدنا إليها. ما إن دخلنا الغرفة، حتّى هجم عليّ وبدأ في تمزيق ثيابي.

«على مهلك يا زلمي، بدي أتحمّم».

«نام معي، وأنا سابحة في رائحة أحمد. لا أعلم هل شمّ رائحة الرجل الآخر. لكنّه ضربني، في الفندق ضربني، قبل ذلك لا، كان ينطح رأسه في الحائط ويشتمني، أمّا في فندق شارع الحمراء، فضربني بعد أن ضاجعني مرّتين متتاليتين، وقال إنّه دبّر بيتًا في مخيّم برج البراجنة، وإنّنا سنمضي إلى هناك».

عاشت شمس في مخيّم برج البراجنة حتّى عام ١٩٨٢، أي حتّى خروج الفدائيين من بيروت. عاشت مع فوّاز تلك الحياة العجيبة التي لا تصدّق. صحيح أنّني طبيبٌ أو أشبه الأطبّاء، وصحيح أنّ الأطبّاء من خلال معايشتهم الطويلة لمرضاهم، يصبحون قادرين على فهم نفسيّات الناس، لأنّ نصف الأمراض على الأقلّ، سببها نفسي. لكنّي لم أفهم، سألت شمس عن طفولة فوّاز، لكن كلّ الذي تعرفه عنه، لم يقدّم لي أيّ تفسير.

«كنت تخونينه»؟ قلت، «وكان يعرف».

قالت إنّها لم تخنه إلاّ مع أحمد، لكن فوّاز أنساها طعم الحبّ الذي ذاقته في المونتفردي.

قالت إنّ فوّاز كان يخاف منها كلّ الوقت، ويتّهمها كلّ الوقت، ويقول إنّه علق مع شرموطة، ويشتمها لأنّها لم تحبل.

«لا أعرف لماذا لم أحبل في لبنان، ولماذا حبلت في الأردن، لكنّي تمنّيت بعد ليلة المونتفردي أن أكون حبلى، كي أنجب ولدًا يشبه أحمد. لكنّي لم أحبل، ونسيت أحمد، لا أذكر منه شيئًا سوى طعم شفتيه على صدري، يا اللّه ما أحلاه، كانت تلك هي المرّة الأولى التي يضع فيها رجل حلمتي بين شفتيه ويمصّها. فوّاز كان يدعك صدري ثمّ يعضّه، أمّا أحمد فحين وضع حلمتي بين شفتيه، عصفت بي الأمواج، ورأيت أعماقي تقترب منه وتأخذه. فوّاز لا، الوحش، كان يصلبني نصف عارية، ويقول إنّه لا يتهيّج إلاّ على صوت الرصاص، وأنا تحت المسدّس والخوف».

«هل الحياة هكذا»؟ سألتني شمس.

قالت إنّها اعتقدت أنّ الحياة هكذا، ثمّ جاء الاجتياح الإسرائيلي وأنقذها منه. فوّاز غادر مع الفدائيين، وشمس ذهبت إلى دار أهلها في عمّان، ودبّرت لنفسها عملاً في معمل الخياطة الذي تملكه السيّدة هند خضر، ونسيت أنّها متزوّجة.

وبعد أسبوعين جاء، وقال إنّه قرّر الاستقرار في عمّان، فالثّورة انتهت، وهو لا يريد الذهاب إلى المعسكر في اليمن، وسيعود إلى عمله الأصلي.

«يعني بدّك ترجع مهندس!» قالت شمس ساخرة.

«اخرسي»، صرخت بها أمّها، «المرأة لا يحقّ لها أن تتمسخر على زوجها».

«وفي الوحدات، لم يعد يطلق النار كي يتهيّج، توقّف عن ضربي، وصار لطيفًا، يذهب إلى العمل في دكان والده، ولا يعود إلاّ في المساء، يتعشّى وينام. ويقول لي إنّه يحلم أن أنجب ولدًا. المسكين لم يكن يعلم أنّي وضعت لولبًا، وأنّني لن أحبل حتّى لو رمى في أحشائي كلّ مني العالم. وحصلت تلك الغلطة، أصبت بالتهاب، فقامت الطّبيبة بنزع اللّولب، وجاءت دلال».

الدنيا ليّلت، وأريد أن أنام. جفوني مثقلة بالحكايات. الآن فهمت لماذا

ينام الأطفال حين نروي لهم الحكايات. فالحكايات تتسلّل من الأهداب إلى العيون، وتتحوّل صورًا لا تستطيع العين تحمّلها. الحكايات للنوم وليس للموت. آن لنا أن نتوقّف عن الحكي قليلاً، فالكلام يجرّ الكلام، والليل يغطي الكلام.

ولكن قل لي ما حكاية الجنّية، والرجل الذي غرق في دوائر الشمس الحمراء!

هذه الحكاية حصلت في الأوّل، ومع ذلك تأتي في آخر الكلام.

نهيلة شرحت لك الموضوع، فالمسألة كانت مجرّد سوء تفاهم. أنت اعتقدتها جنيّة، وهي اعتقدتك نبيًا، أنت هربت وهي ركعت، ونهيلة ضحكت.

قلت لي إنّك أسميت الشجرة ليلى، وإنّك كنت تنام في النهار داخل جذوع الزيتونة الروميّة، وكنت حين تصل إلى نهيلة، تخبرها عن ليلى، وترى الغيرة في عينيها.

كان ذلك في أوائل الخمسينات، وكان يونس يقوم برحلته العاديّة إلى باب الشمس. في ذلك اليوم اختبأ يونس نهاره في الشجرة الروميّة على مداخل ترشيحا. وحين بدأت الشمس تميل إلى المغيب، خرج من شجرته، ورأى ذلك المشهد الذي لن ينساه.

قال إنّه لن ينسى تلك المرأة أبدًا.

«كانت»، قال يونس، «تلبس ثوبًا طويلاً أسود، وتغطّي رأسها بمنديل أسود. رأتني، تقدّمت منّي، التصقتُ بالشجرة، كنت ألبس معطفي الزيتوني الطويل، وأحمل بندقيّتي كعصا، تقدّمت المرأة في اتّجاهي، كانت بعيدة، والشمس في عينيّ، ولم أرَ في شكل واضح. رأيت شبحًا يخرج من بين خطوط الشمس الحمراء وينسلّ الأسود كخيط ويمشي. استندت إلى الشجرة، ورأيتها تتقدّم نحوي، ثمّ حين وصلت إلى مسافة مئتي متر، جمدت في مكانها كأنّها التصقت بالأرض، جثت، عفّرت جبينها بالتّراب، ثمّ رفعت وجهها صوبي. ضمّت كفّيها وقالت شيئًا بلغة عربيّة لست معتادًا لها. ثمّ وقفت، تعثّرت بثوبها الطويل، فاغتنمت الفرصة كي أختبئ داخل جذع الزيتونة. تسلّلتُ إلى الزيتونة، وقلبي يدقّ كالطبل، وبقيت داخل

الجذع حتّى لفّ اللّيل كلّ شيء. كان في عينيها شيء غريب. اعتقدت أنّها جنّيّة، رغم أنّي لا أؤمن بالجناني، لكن خفت، واللّه خفت».

قال يونس إنّه حين أخبر نهيلة، كيف وقف قرب شجرته، ملفوفًا بخيوط الشمس الحمراء، وكيف تراءت له تلك المرأة عن بعد، وكيف التقى بجنّيّته، وكيف سوف تسلب له الجنّيّة عقله، كما في القصص، ضحكت نهيلة طويلاً.

«لا جنّيّة ولا إشي يا زلمي، اليمنيّون ملأوا الدنيا، هذه يهوديّة يمنيّة».

وروت نهيلة ليونس عن البكاء الذي يسمعه الناس في الكيبوتز الذي بناه اليمنيّون فوق البروة، وحكت عن إشاعات غامضة عن أطفال يموتون أو يختفون. قالت إنّ اليهوديّات اليمنيّات يخرجن في الحقول ويندبن كأنّهنّ عربيّات، وإنّها صارت تخاف على أولادها، «فإذا كان أطفال اليهود يختفون، فماذا سيجري لأولادنا»؟

«هذه الجنيّة ليست جنّيّة»، قالت نهيلة، «إنّها امرأة فقيرة مثلنا، يبدو أنّها فقدت أحد أطفالها. فاعتقدت حين رأتك أنّ إيليّا النبيّ ظهر عليها».

وصارت نهيلة تضحك عليك، وتسمّيك إيليّا، وتقول إنّك بلحيتك صرت تشبه أنبياء اليهود.

أنت لا تستطيع نسيان المشهد، خيط أسود يخرج من بين خيوط الشمس الحمراء، وامرأة تجثو أرضًا، وتصرخ بصوت يجرح السماء. أسميتها بينك وبين نفسك راحيل الجنيّة. وكنت في طريقك إلى نهيلة، تدخل الروميّة وتستحضر اليمنيّة، ثمّ تقول لنهيلة إنّك يمنيّ أيضًا. «نحن أصلنا من اليمن، قبيلتنا هاجرت من هناك عند انهيار سدّ مأرب. انهار السدّ وغرقت اليمن وهربنا. أنا يمني وحبيبتي يمنيّة، ويجب أن أعثر عليها.

كانت نهيلة تغار قليلاً، ثمّ تدخلك منعطفًا داخل المغارة أسمته الحمّام. تجبرك على خلع ثيابك، تحمّمك بالماء والصابون. أنت تقف عاريًا، وهي بفستانها الطويل الذي يبلّله الماء، فيلتصق بجسمها، وتشتعل فيك الرغبة، فتأخذها والصابون يغطّيك، وهي تتهرّب منك وتقول «اذهب إلى يمنيتك أنا مالي».

أخبرتك عن اليمنيّة كي أتمنّى لك أحلامًا سعيدة.

وأنا أيضًا يجب أن أنام، كي أستطيع غدًا أن أحاول إقناع زينب بعدم ترك المستشفى. لم أكن أعرف شيئًا عن زينب، أعيش معها هنا منذ أكثر من ستّة أشهر ولا أعرف. فهي هنا منذ البداية. خلال هذه الأشهر تغيّر الجميع كما تعلم، الدكتور أمجد لم يعد يأتي إلاّ نادرًا، أنا أصبحت رئيسًا للممرّضين ومديرًا فعليًا للمستشفى، الممرّضون اختفوا واحدًا بعد الآخر، المستشفى تحوّل مخزنًا للأدوية، وزينب مازالت، كأنّها لا تتغيّر. تعرج قليلاً لجهة قدمها اليسرى، كتفاها منكسرتان إلى الأسفل، عنقها قصير، وعيناها صغيرتان. تمشي كالشبح، وتهتمّ بكلّ شيء. الطبّاخة غادرت فصارت زينب طبّاخة، نبيل سافر، فصارت زينب مسؤولة غرفة العمليّات، الحارس السوري اختفى، فصارت زينب بوّابًا. زينب يا سيّدي هي المستشفى، أنا لم أعد أبالي، أقضي معظم أوقاتي معك، مقتنعًا بلا جدوى الصراع من أجل بقاء المستشفى. ناقشت أمجد كثيرًا، وحاولت مع السيّدة وداد النجّار، مسؤولة الهلال الأحمر الفلسطيني في لبنان، ولكن بلا جدوى.

لم يعد أحد يريد هذا المستشفى، كأنّنا وافقنا جميعًا على إعلان وفاة مخيّم شاتيلا.

المخيّم محاصر من الخارج ومدمّر من الداخل، ولا يسمحون بإعادة بنائه. كلّ لبنان يعاد بناؤه بعد الحرب، إلاّ هنا، فهذا الشاهد على المجزرة يجب إزالته، كي تمحى ذاكرتنا، كما أمّحت قرانا، وثقبت أرواحنا.

أنا يئست؛ قلت لا يريدونه معليش، وبنيت سورًا وهميًا حول غرفتك، ولم أسمح لأحد بالاقتراب منك. أمجد حاول في البداية أن يوحي بأنّ قرار نقلك إلى المأوى لا رجوع عنه، ثمّ أجبرته على التراجع. اعتقدت أنّني حقّقت انتصارًا، ثمّ اكتشفت أنّه لا يبالي. لا أحد يبالي. قالوا نتركه يسأم، وإذا لم يسأم فإنّ الختيار سيموت، ولم يتوقّع أحد نجاح طريقتي العلاجيّة بهذا الشكل. أمجد كان يعتقد أنّ موتك هو مسألة أيّام، وزينب قالت إنّك لن تصل إلى نهاية شهرك الأوّل. وها نحن قد تجاوزنا السادس، ودخلنا في السابع. يجب أن نصمد حتّى نهاية الشهر السابع، إذا تجاوزنا السابع سنصل حتمًا إلى التاسع. وفي التاسع يكمن الخلاص. لكنّهم لا يعرفون. يحاصروننا هنا ويتركوننا نتعفّن، فقط لو يعرفون. أنا متأكّد من

أنّه لا يمكن أن يخطر ببال أحد ماذا يجري هنا في الغرفة، هنا العالم والنساء والكلام.

قلت لك إنّ زينب صارت كلّ شيء، أي لا شيء. حين يصير الإنسان، كلّ شيء فهذا يعني أنّه فقد خصوصيّته، وزينب هكذا. لم أشعر بوجودها إلاّ بوصفها موجودة. ولم أسألها شيئًا. إلى أن جاءتني منذ يومين، وقالت إنّها قرّرت التوقّف عن العمل. لم يخطر ببالي أنّ زينب تستطيع التوقّف عن العمل، فهي موجودة لأنّها تعمل.

جاءت إلى غرفتك، وقالت إنّها تريد التحدّث معي.

«ماذا يا زينب»؟

«لا، ليس أمامه»، قالت.

«احكي يا زينب، ما حدًا غريب هنا».

«أرجوك يا دكتور خليل، أخاف أن أحكي أمامه، أرجوك تعال معي إلى المكتب».

تبعتها إلى مكتب الدكتور أمجد، الذي كان من المفترض أن يصبح مكتبي، لو كانت الأمور أكثر جدّيّة هنا. خرجت زينب، لتعود بعد دقائق قليلة بركوة قهوة. صبّت لي فنجانًا ولنفسها فنجانًا آخر، وقالت إنّ أولادها يريدون منها التوقّف عن العمل.

«متزوّجة وعندك أولاد يا زينب»؟

«طبعًا يا دكتور».

«عفوًا، كنت أعتقد أنّك غير متزوّجة».

«العرجاء لا تتزوّج»، قالت وابتسمت.

«عفوًا، عفوًا، لم أقصد».

«لكنّني لست عرجاء، لم أكن عرجاء حين تزوّجت، هذا من تلّ الزّعتر».

«أنتِ من تلّ الزّعتر»؟

«كنت هناك، وخرجت مع النساء، زوجي اختفى في المونتفردي، خرجت مع النساء، مشينا في اتّجاه المسلّحين ونحن نرفع أيدينا بالاستسلام، وأطلقوا علينا النار. كنت مع أولادي. أولادي بين قدمي، وأنا أحاول أن

أفرش تنّورتي الطويلة فوقهم. ثمّ جاء ذلك الرجل. توقّف إطلاق النار، فتابعنا سيرنا، وصلنا إلى المسلّحين، وأمامنا تقف شاحنات الصليب الأحمر التي ستقلّنا إلى بيروت الغربيّة. جاء ذلك الرجل، لا أعلم لماذا اختارني من بين كلّ خلق الله، وصرخ بي، «على جنب». تظاهرت بأنّي لم أسمع كلامه، فتابعت سيري، وغطّى السائل الساخن الأحمر فخذي وقدمي، وغسل رأس ابنتي سميّة التي كانت بين قدمي. تابعت سيري حتّى وصلت إلى الشاحنة. لا أعلم لماذا أطلق رصاصة واحدة فقط، لماذا لم يقتلني. هذه أمور لا أفهمها الآن، لكن وقتها، كان كلّ شيء منطقيًا ومقبولاً. كان موتنا منطقيًا إلى درجة أنّنا لم نكن قادرين على الاحتجاج. أخذوني إلى مستشفى المقاصد، ولك أن تتخيّل ماذا جرى لأولادي. وصلنا إلى معبر المتحف، فقرّروا نقلي إلى المستشفى، وضعوني في سيّارة إسعاف، وبدأ أولادي يبكون. كنت قد نزفت نصف دمي أو أكثر، ومع ذلك قفزت من سيّارة الإسعاف، ووقفت بين أولادي. ففهم الممرّض، وسمح لهم بالمجيء معي. وفي مستشفى المقاصد، وضعوني في غرفة فيها أكثر من عشرة أسرّة، وأولادي معي. سميّة كانت في الثانية عشرة. ولم تكن تفهم شيئًا، وصغيرهم كان في الثالثة. خمسة أولاد وثلاث بنات ما شاء الله. وبقيت في المستشفى، لم أذهب مع الذاهبين إلى الدامور. باطل، قلت، حين قرّروا إسكان أهل تلّ الزّعتر في بلدة الدامور، التي تمّ تهجير أهلها المسيحيّين. قلت هيك عملوا فينا اليهود، ونحن رح نعمل هيك بأولاد الدامور، لا مش ممكن، هذه جريمة. وبقيت في المستشفى، كان هناك طبيب من آل لطفي من صيدا، هل تعرفه، اسمه الدكتور حسيب لطفي، هو الله يكرمه، قال لي إنّني أستطيع العمل في المستشفى، ودبّر لي شقّة صغيرة بالقرب منه. عشنا هناك أنا والأولاد حتّى ١٩٨٢. بعد الاجتياح والمذابح، جئنا إلى مخيّم شاتيلا، واشتغلت في هذا المستشفى. أنا لست ممرّضة، لكنّي تعلّمت التمريض من خلال عملي كخادمة في مستشفى المقاصد. جئت إلى هذا المستشفى، أنت تعرف الوضع أكثر منّي، لم يكن أحد هنا، فاشتغلت كلّ شيء. لكنّي تعبت يا دكتور خليل. ثمّ ماذا نفعل هنا، أنت تحرس جثّة، وأنا أحرس مستودع أدوية، وبعدين شادي، الله يسهّل عليه، بعث أنّه سيرسل لي الفيزا وبطاقة السفر إلى ألمانيا».

«تذهبين إلى ألمانيا! ماذا ستفعلين هناك»؟

«لا شيء»، أجابت. «هناك لا شيء وهنا لا شيء. لكنّي تعبت، وزوجة شادي، أنا لم أقل لك، شادي تزوّج فتاة عراقيّة تعيش في ألمانيا، عراقيّة كرديّة ولاجئة سياسيّة، هي دبّرت له اللجوء والإقامة، لاجئة زيّنا، يعني كما يقولون، اللاّجئات للاّجئين، وهي الآن تنتظر مولودًا سأذهب من أجل الولد».

قلت إنّني سأشعر بالوحدة من دونها.

قالت إنّها تعرف شمس، وتعرف زوجها فوّاز، وتعرف أنّ الفتاة كانت مظلومة. «والله يا دكتور كلّ أهل تلّ الزعتر يعرفون كيف عاملها. كان مجنونًا وبلا قلب، كأنّ جنّيًا ركبه. هل يمكن لأحد، أن يكون مغرمًا بحرمته بهذا الشكل، كان مغرمًا بزوجته كأنّها زوجة رجل آخر. هو أخبر حياة زوجي منير، أنّه كان يطلق النار فوقها وتحتها كي يخرج الجناني منها. كان مجنونًا وجنّنها، ولم يكن يسمح لها بالخروج من البيت أو باستقبال أحد في بيتها. كانت لا تجرؤ على فتح الباب، نقرع فتصرخ من الداخل أنّ لا أحد هنا، ولم يكن فوّاز ينام في بيته، كان ينام في الكمين، يترك الكمين نهارًا ويأتي إليها، ونسمع أصوات الرصاص، ونتخيّل الدموع. والله أجادها كيف احتملت. ثمّ قيل إنّها هربت مع المقاتلين، لماذا رجعت إليه، أنا لم أرها منذ أيّام تلّ الزعتر، ولم أسأل عنها. فبعد الذي جرى هناك، لم يعد أحد يسأل عن أحد، كأنّ الناس لم يعودوا يبحثون إلاّ عن الصور. بدل البحث عن الرجال الذين اختفوا، تلهينا بالبحث عن الصور. والله نحن شعب مجنون يا دكتور، الدرس الوحيد الذي تعلّمناه من أهلنا، هو أن لا نهاجر بلا صور. هل تصدّق، كنّا في شاحنة الصليب الأحمر، وأنا أكاد أموت ودمي ينزف، والناس فوق بعضها بعضًا مثل السردين، وكنت ترى المرأة تخرج الصورة من عبّها، وتقارنها بصور تخرج من عبّ امرأة أخرى. كأنّنا إذا حملنا صور الموتى، ننقذهم من الموت. يا عيني على الصور، صور أبو شادي، اللّه يرحمه، باخت ألوانها. صحيح أنّني بروزتها، ولكن حتّى مع البراويز والزجاج، تبوخ الصور. والرجل اختفى، لا نعرف شيئًا عنه، أنا لم أبحث عنه في البداية، كنت في المستشفى بين

الحياة والموت، ومعي أولادي، ولولا رحمة اللّه ونخوة الدكتور لطفي، لضاع أولادي، كما ضاع آلاف الأولاد. الزوج قد يموت أو يختفي. نزعل، أكيد، لكن الولد، أعوذ باللّه.

بعد أن شفيت ذهبت إلى الدامور، وقابلت رياض عصمت، الذي استشهد في طرابلس عام ١٩٨٤. قال رياض إنّه لا يعرف. برمت على كلّ المكاتب في الدامور، فلم يفدني أحد في شيء. لكنّ الجميع أكّد لي أنّه مات.

«إذا لم يعد فهذا يعني أنّه مات. في المونتفردي لم يأخذوا أسرى»، قال رياض.

وفي العام الماضي ذهبت إلى المونتفردي. الحرب انتهت، وصار الذهاب إلى هناك ممكنًا، أخذني سمير بسيّارته، سمير ابني الثاني يعمل الآن سائقًا على سيّارة تاكسي. لكن اللّه يساعده إذا أوقفه شرطي وعرف أنّه فلسطيني، سمير لا يحلم الآن إلاّ باللّحاق بأخيه في ألمانيا.

أخذني سمير، وقلت له إنّني أريد التفرّج على تلّ الزّعتر. يا حرام يا تلّ الزّعتر، كأنّه ما كان. سألت الناس فلم يعرفوا أن يدلّوني، أرض خلاء ولا شيء. والناس نسيت الحرب ونسيت المخيّم ولا أحد يريد التلفّظ باسمه. حاولت الدخول، أردت البحث عن مكان بيتي، لكنّهم لم يسمحوا لي، كان هناك ما يشبه الحارس الذي قال ممنوع. على كلّ، حتّى لو دخلت فلن أجد سوى الإسفلت، فرشوا الأرض بالإسفلت الأسود، وصار كلّ شيء مثل الزفت.

في المونتفردي، مشت السيارة وسط المنعرجات الضيّقة، كنت أعرف أنّني لن أجد شيئًا، ولكن إكرامًا لذكرى أبو شادي. لم نجد سوى جنود سوريين ودبّابات. سألني سمير أين يبحث عن قبر أبيه، فلم أجاوبه، لأنّي لم أكن مقتنعة بجدوى البحث. كنت فقط أريد إراحة ضميري. سألت رياض عن القبور، سألته إذا كانوا قد دفنوا الشباب، فقال إنّه لا يعرف، قال لم يكن من مجال، قال إنّ الرصاص كان يلعلع فوق رؤوسهم، وإنّهم لم يكونوا يريدون غير الوصول إلى حمّانا.

لم أطلب من سمير إيقاف سيّارته، ولم أشعر بشيء، كأنّ الذين ماتوا

اندثروا. وحدها الحرب لا تحتاج إلى قبور. فالحرب قبر، إنّها القبر، وأبو شادي لا قبر له، قبره الحرب. الحرب لا تحتاج إلى أضرحة وشواهد، فالحرب ضريح نفسها، ونحن نعيش في ضريحها، حتّى المخيّم، ما هو المخيّم؟ إنّه ضريح فلسطين.

هل تفهم، طبعًا تفهم، فأنت مثلي يا دكتور، ولدت في المخيّم، أي في القبر، والقبر سيلاحقك إلى الأبد».

قالت زينب إنّها ستسافر وتتركنا.

«ومتى السفر»؟ سألتها.

قالت إنّها تنتظر الفيزا، لكنّها أتت كي تنصحني بترك المستشفى. قالت إنّها تنصحني بمغادرة المستشفى والتوقّف عن رؤيته.

«من»؟ سألتها.

«يونس، أبو سالم»، قالت.

«ما به»؟

«إنّه يموت، ألا ترى، اتركه في حاله، اتركه يموت، حرام عليك، أنت تجبره على البقاء حيًا».

«ولكنّي لا أفعل شيئًا»، قلت.

«أنت مسؤول عن وضعه الحالي، حرام عليك».

«لا، زينب، أرجوك».

«اتركه يموت حرام، توقّف عن هذه العناية التي لا معنى لها، هل تستطيع تغيير إرادة اللّه، اتركه مع ربّه يا أخي، واترك المستشفى».

وعادت إلى شمس.

«خوفك من شمس لا معنى له، لا أحد سينتقم منك، أنت إيش خصّك، قتلت عشيقها وقتلوها. بشّر القاتل بالقتل ولو بعد حين، هذا كلام اللّه كما جاء في كتابه العزيز. سامح قتلها لأنّه كذب عليها، وهي قتلته لأنّها أرادت الانتقام، وهم قتلوها من أجل العدل. وانتهى الموضوع، أنت لا ذنب لك كي تقبر نفسك مع هذا الرجل الذي لم يعد رجلاً، انظر إليه كأنّه رجع طفلاً، باسم اللّه الرّحمن الرّحيم، اتركه يموت وخلصنا».

وردّدت زينب كلام أمّ حسن. «وين أهله يأخذوه على بلاده».

صحيح يا يونس لماذا لم تذهب إلى بلادك، وتفعل كما فعل حمد؟

ألا تعرف حكاية حمد؟

منصور شقيقه، بيّاع السّمك في المخيّم، أخبرني الحكاية. أنت تحبّ السمك، «يا عيني على سمك عكّا»، كنت تقول، وترفض أن تشتري سمك منصور لأنّ سمك عكّا أفضل. ما هذا التعصّب الأعمى، منصور قال لك إنّ هذه السمكات هربت من عكّا وصارت لاجئة مثلنا. وكنت ترفض أن تشتري.

«سمك عكّا غير شكل، نقليه ونأكل معه فطائر الزّعتر والطرطور، إنّه سمك المسيح. هناك كان عليه السّلام يصطاد السمك».

وتقول إنّ المسيح عليه السلام لم يحرّم الخمر، لأنّه اشتغل مع صيّادين وبحّارة. «كيف يمكن إقناع بحّار بأن لا يسكر، البحر والصيد مستحيلان دون العرق والنبيذ، والسمك أيضًا، لا يمكن أكل السمك دون عرق وطرطور وزعتر. وسمك طبريّا لا يخلص، سمك ومسيح وصيّادون، هذا هو الجليل، هم لا يعرفون الجليل، يحاولون تصنيع صيد السمك، هل يمكن تصنيع الماء الذي مشى فوقه المسيح؟

إلى هناك سوف نعود، تخيّلوا شعبًا بأسره يمشي على الماء».

تقول نمشي على الماء، وتكرع كأسك، وتطلب منّي أن أسكب لك.

«على مهلك يا أبو سالم».

«أيّ مهل يا ابني، اسكب العرق واتبعني إلى بحيرة طبريّا».

منصور بيّاع السمك روى لي حكاية شقيقه. ذهبت إليه صباح عيد الفطر، لأنّي أردت أن أعيّد مع السمك، فوجدت رفشه فارغًا، قال إنّه لم يذهب إلى صيدا للتبضّع لأنّ الدنيا عيد، ولأنّه ذهب فجرًا إلى المقبرة، وزار ابنه، وجاء إلى الدكّان لأنّه لم يجرؤ على العودة إلى البيت والمكوث مع صور ابنه الشهيد.

«نحن نموت هنا، وهم يخلّفون هناك».

قال إنّه حمار، وقال إنّ شقيقه حمد زمط بحياته وحياة أولاده.

أنت تعرف حمد، كان معكم من عناصر حامية شعب، التي كانت آخر

من غادر الجليل، وسجن معكم، ثمّ سكن في مخيّم برج البراجنة. تعرفه، ابن ترشيحا الذي كان لا يحلف إلاّ بالكبّة النّيّة التي تصنعها زوجته سالمة. «كبّة نيّة وفوقها الحوسة. لحم بلحم يا خوي، كبّة من تحت ولحم مقلي مع البصل والصنوبر من فوق، وكل يا حمد».

قال إنّها سالمة أمّ جميل.

قال إنّه تركها هناك في ترشيحا.

قال إنّه لم يجد للكبّة طعمًا منذ افتراقه عن سالمة.

لماذا لم تفعل مثله؟

أخفتَ من اليهود؟

أم خفت من نهيلة؟

أم خفت من نفسك؟

واللّه يا يونس يا ابني، الإنسان لا يخاف إلاّ من نفسه. أنت قلت لي إنّك حين كنت تقطع الحدود، لم تكن تخاف إلاّ من ظلك الذي يستطيل على الأرض، ويتبعك.

هل تريد أن تسمع منصور؟

تعال يا منصور، وأخبر عمّك يونس.

منصور ليس هنا بالطبع، لكنّي سأروي لك الحكاية كما سمعتها من منصور أحمد قبلاوي، بيّاع السمك، الذي فتح دكّانه هنا في مخيّم شاتيلا، بعد أن أقفلوا له دكّانه في مخيّم برج البراجنة، على مدخل جورة التراشحة، بسبب خلافات بين التنظيمات أيّام الثّورة.

قال منصور.

«بعد سقوط ترشيحا انهزمنا إلى لبنان، ونسينا سالمة وابنتها. الحقّ عليّ، لم تخطر سالمة ببالي وقت الهرب. كان قصف وطيران وبلاوي، وأنا لم أكن مقاتلاً، رغم أنّي كنت أحد عناصر الميليشيا، بيني وبينك كنت زيادة عدد فقط، ولما دبّ الرحيل، ودخل اليهود، هربت مع مرتي وأولادي، ولم افكّر بسالمة وابنتها سوسن. جاء أخي، كان قد قضى سنة في السجن في سوريا، استهدى على خيمتي ودخل. وقبل أن يسأل، اعترفت له بالحقيقة

لم أقل إنّها ماتت لا سمح لها. قلت إنّنا نسيناها ولا نعلم شيئًا عنها، وأغلب الظنّ أنّها بقيت في ترشيحا. شتمني وكسر عمود الخيمة وخرج. عرفت في ما بعد أنّه ذهب إلى هناك. ذهب إلى ترشيحا وأقام عند زوجته بضعة أيّام، وعاد وأخبرني. ورجعنا مثل الأخوة، أنا ليس لي غيره، وهو ليس له غيري، وصار كلّ مرّة يذهب، كانت مغامرة. كانوا يعتقلونه ويطردونه. لم يكن يقيم في ترشيحا سرًا، كان يقرع باب بيته ويدخل على عيون الناس. وكانوا يعتقلونه ويجرجرونه إلى الحدود.

حين اعتقلوه للمرّة الأولى، قال له الضابط الإسرائيلي، الذي أبلغه قرار طرده، إنّه كان غائبًا عندما أُحصي الناس بعد إنشاء الدولة، فاعتبر غائبًا.

«هيّاني حضرت يا حضرة الضابط، كنت غائبًا وحضرت».

«لا»، قال الضابط، «الغائب لا يحقّ له الحضور».

«ولكن امرأتي وأولادي هنا».

«خذهم معك إذا شئت».

«ولكنّها قريتي».

أوثقوه وكبّوه على الحدود اللّبنانيّة، وعاد إلى المخيّم. أقام حوالى سنة، ثمّ اختفى من جديد، واكتشفنا أنّهم رموه على حدود غزّة، وتلبّكنا في أمر بطاقة الطائرة من القاهرة إلى بيروت. خمس مرّات دخل وأقام، وخمس مرّات طرد. السادسة كانت ثابتة.

كان ذلك عام ١٩٥٧، وكنّا صباح عيد الأضحى، زوجتي تطبخ وتنفخ، ورائحة الكبّة النيّة تملأ البيت. نظر إلى أولادي، وصار وجهه أشكالاً ألوانًا. قال ننزل إلى صور. تركت زوجتي وأولادي يوم العيد ونزلت معه، لأنّي أعرفه، وأعرف أنّ لا شيء يستطيع إيقافه. ذهبنا إلى صور، ومنها إلى مخيّم الرشيديّة، وهناك ذهبنا إلى بيت علي شحادة، من البعنة. علي شحادة الذي كان يعمل مهرّبًا طلب ألف ليرة لبنانيّة من أجل إيصاله إلى ترشيحا. وألف ليرة في تلك الأيّام لم تكن مزحة، كانت خمسة أضعاف المدخول الشهري لصاحب دكّان سمك مثلي. أخي وافق، وقال إنّه سيدفع هناك. لكن علي طلب رؤية المبلغ قبل التحرّك، أخرج أخي من جيب بنطلونه

الخلفيّ مبلغًا كبيرًا من المال، وأرانا إيّاه، وأعطاني مئة ليرة، وقال هذه عيديّة للأولاد.

«يللا بنا، قال أخي، نتغدّى أولاً، ونرتاح»

«ثم نمضي مع أوّل الغروب»، قال علي.

ذبح لنا ديكًا، وأكلناه مع الرز، وشربنا القهوة العربيّة، وسولفنا، ومع بداية الغروب، مضى أخي حمد مع علي المهرّب، وعدت إلى بيروت.

هل تعلم ماذا جرى له؟

وصل أخي إلى بيته وعاش هناك. بعد هذا التاريخ بثلاثين سنة، استحصل لي علي تصريح بزيارة ترشيحا. وهناك التقيت حمد من جديد. وكان يعيش بين أولاده وأولاد أولاده. قلت له هذه ليست ترشيحا، أرضنا لم تعد أرضنا، وبيتنا لم يعد بيتنا. كان حمد يسكن في دار محمود قبلاوي، الذي تسكن عائلته اليوم في مخيّم برج البراجنة. أخبرني أنّ بيتنا هدم، وأنّ بيوت الساحة التحتانيّة دمّرت كلّها، ولم يكن أمام سالمة سوى الإقامة في هذا البيت. جئت وأقمت هنا، أنا مستعدّ، قل لجابر ابن محمود القبلاوي إنّني لم أغيّر شيئًا في بيتهم، عندما يرجعون يأخذونه، صحتّين على قلوبهم.

«ولكنّها لم تعد ترشيحا يا حمد»، قلت له، «اليهود في كلّ مكان».

وصل حمد إلى بيته، وأقام أسبوعًا مع زوجته، قبل أن يُلقى عليه القبض، ويتمّ ترحيله إلى الحدود اللبنانيّة. قبل وصوله إلى نقطة الحدود، رشى الجندي الإسرائيلي، خلع ساعته السويسريّة وأعطاها له، فتردّد الجندي قليلاً، قبل أن يأخذ الرّشوة ويترك حمد.

عاد أخي، فاعتقل من جديد، وحوكم بوصفه مخرّبًا، وحكم عليه بالسجن ١٨ سنة. قضى منها تسع سنوات في السجن، بعد سلسلة من التخفيفات بسبب حسن سلوكه، خرج من السجن، ولم يعرفوا ماذا يفعلون به. رفض الذهاب إلى لبنان، وأصرّ على البقاء في السجن، فأعادوه إلى بيته في ترشيحا.

قل لي يا يونس، لماذا لم تعد؟

لماذا لم تحاول العودة مرّة واحدة!

هل كنت خائفًا من الموت، قل إنّك خفت من أن يقوموا بتصفيتك فأفهم، ولكن لا تقل لي عن النضال والثورة وإلى آخره..

والآن قل لي، ماذا ستفعل حين سترتبط معنا، وتولد من جديد. هل ستعيش حياة جديدة، أم ستكرّر حياة الرحلة التي عشتها.

أسمع صوتك يخرج من خلف أنينك الخافت. لماذا الأنين؟ حرارة جسمك طبيعيّة، وكلّ شيء عال، ونبضات قلبك أكثر انتظامًا من نبضات قلب شابّ. يجب أن أدقّ على الخشب. ولكن قل لي، لو عادت بنا الحياة إلى الوراء، من كنت تفضّل أن تكون، حمد أَمْ يونس؟ أم كنت تفضّل خيارًا ثالثًا، كأن، مثلاً، كأن تهاجر إلى كندا. ما رأيك، تهاجر وتترك الحكاية في أرضها.

أعرف أنّك عاجز عن الإجابة، ولذلك أسألك. أنا حرّ ولست مضطرًا إلى مراعاتك في شيء. أعرف ماذا ستقول، ولكنّك لا تقول، وهذا أفضل.

قل لي، بماذا أنصح زينب؟

أنصحها بالبقاء هنا، أم أشجّعها على السفر إلى ابنها في ألمانيا؟ هل أعدها بأنّ أمور المستشفى سوف تتحسّن، أم أعدها بصفّوري التي لم تعد موجودة؟

سوف أقول لها أن تفعل ما تشاء.

زينب أمامي، أراها الآن للمرّة الأولى، كأنّني طوال هذه الأشهر لم أرها. والآن، وبعد أن روت لي كيف أصيبت بطلق ناري في تلّ الزعتر، لم يعد اسمها الممرّضة العرجاء، كما كنت أسمّيها بيني وبينك، الآن صار اسمها زينب، الممرّضة زينب، يا لطيف كم نحن في حاجة إلى زمن كي نلبس أسماءنا، وكي يصير اسمنا لنا. زينب صارت زينب، لأنّها روت قصّتها. صحيح أنّها سترحل قريبًا، وصحيح أنّها أخبرتني عندما انتهى عملها هنا، وصحيح أنّني لو عرفت قبل الآن لتغيّرت الأشياء، ولكن الدنيا هيك، لا يكتشف الإنسان اسمه إلاّ لحظة الغياب، أي عندما يصير الاسم كفنًا. نكفّنه باسمه وندفنه. الآن فهمت حكمة الصور التي تملأ حياتنا. فضحايا المذابح لا أسماء لهم ولا أكفان. تغطّى الجثث بالكلس الأبيض والمبيدات قبل أن ترمى في حفرة جماعيّة. يغيب الناس لأنّ لا أسماء لهم،

ويصبحون مجرّد أرقام، هذا هو الرعب يا ابني، الرعب هو الرقم، لذلك حمل الناس صور الموتى والمفقودين، وجعلوها بديلاً عن الأسماء.

زينب ليست مقتنعة.

قالت إنّ كلّ ما قمت به من أجلك كان عبثًا. يا ليتها تعلم، لكنّها ليست مستعدّة لسماع الحكاية، من أوّلها، عدا أنّني لم أعد أملك الطاقة لإعادة روايتها. لو جاءت زينب واستمعت إلى حكايتك، لفهمت أنّني لم أكن أضيّع وقتك ووقتي، بل كنت أشتري لي ولك، وقتًا وتاريخًا.

نعم يا ابني وسيّدي.

أنا هنا، لأنّني كنت تحت تأثير شمس. قلت أهرب من شبحها وانتقامها. خوفي لم يكن من الانتقام الحقيقي، أي من أن يأتي أحد أفراد عائلتها ويطلق عليّ النار. لا، كنت خائفًا من كلّ شيء فيها.

وجاء موتك لينقذني، أعدتني طبيبًا، وأسكنتني معك في المستشفى، وسمحت لي باستعادة رغبتي في الحياة. نعم، كنت عاجزًا عن الحياة، أشعر حين يدخل الهواء رئتي بالسكاكين تجرحني، أحسّ بالنمل ينغرس في وجهي، وأدوخ. وهذا يُسمّى في اللّغة الطبّيّة بداية انهيار عصبي.

حين ماتت شمس، مات كلّ شيء في داخلي، صرت جثّة، وفقدت الأشياء معانيها وطعمها. وصارت الحياة ثقيلة ثقيلة. كأنّني أحمل جثّتي على ظهري. من يقدر على حمل كيس عمره المليء بأربعين سنة من الوحشة؟ من يجرؤ؟

جاءت آمنة، وأخبرتني عنك. صحيح أين آمنة، انقطعت أخبارها، كما انقطعت أخبار كلّ نسائك. لقد دخلنا مرحلة الخطر، فمتى تنقطع أخبار النساء، فهذا يعني اقتراب النهاية. فالمرأة لا تهرب إلاّ حين تنطفئ الحياة.

آمنة مضت، وكلّ نسائك لحقن بها، ولم يبق أحد غيري في هذا المكان الذي يتداعى. أرى الشقوق في كلّ مكان، شقوق الحيطان، وشقوق السقف، كأنّ كلّ شيء معرّض للسقوط.

لكنّي لست خائفًا. الأشياء تتداعى وأنا أقف دون خوف.

عجيب أمرنا أليس كذلك؟

لا نخاف، ربّما، خلال هذه الأشهر الطويلة التي قضيناها معًا، صنعنا بيتًا من كلمات، ووطنًا من كلمات، ونساء من كلمات.

أنا لست خائفًا عليك، ولم أعلّق على كلام زينب، لا تزعل منها أرجوك، فهي لا تفهم، قالت في البداية إنّك صرت صغيرًا كطفل، ثمّ قالت إنّ شكلك المنكمش لم يعد يشبه الإنسان، وإنّني صنعت منك وحشًا صغيرًا.

كأنّها لا ترى.

لا بأس، فأنا مقتنع بأنّك أجمل طفل، وهذا يكفي، أليس كذلك؟ وأنا أشعر معك بالحرّية. تستطيع أن تموت إذا شئت. أقول تستطيع ولا أدعوك إلى ذلك، فأنت حرّ. اختر موتك أو حياتك كما تشاء. افعل ما تشاء، شأ ما تشاء. فحقيقتك صارت في داخلي.

أخبرني قليلاً عن ابنتك نور. ما أجمل هذا الاسم، أنا لا أعرفها، لكنّني أشعر كأنّي أعرفها، وأشتاق إليها. عندما وصفتها لي للمرّة الأولى، اعتقدت أنّك تحكي عن شمس. وصفت جمالها وسمارها الذي يتشكّل كحقول متداخلة من الجاذبيّة، وأخبرتني عن ابنها يونس.

قلت إنّك تلقّيت رسالة منها، تخبرك عن ولادة ابنها يونس، وأنّها قالت إنّ أولادك سيسمّون صبيانهم يونس. هكذا تعيش بينهم، وتعود إليهم بدل الواحد مئة.

يومها كنت تحمل الرسالة وتضحك، قرأت لي المقطع وأنت تضحك، ثمّ انهمرت الدموع من عينيك. كنت تبكي وتضحك، كأنّ عواطفك اختلطت، ولم تعد تعرف كيف تعبّر عن نفسها. يومها وعدتك بأنّي سأهدي إليك أغنية فيروز المأخوذة عن قصيدة الشاعر اللّبناني بشارة الخوري، الأخطل الصغير. وأنشدت لك البيت الشعري الذي تبدأ به الأغنية، فأخذت قلمًا، وكتبته على قفا الرسالة.

«يبكي ويضحك لا حزنًا ولا فرحا   كعاشقٍ خطّ سطرًا في الهوى ومحا».

كتبت البيت، وطلعت غيمة بيضاء غطّت وجهك وعينيك، ولم أعد أستطيع أن أراك. وكنت خلف الغيمة تقرأ الشعر وتعيد القصيدة، وكان الشعر يسيل حولك كالماء. يومها فهمت معنى الشعر، وفهمت ما قاله امرؤ القيس، جدي وجدك وجدّ كلّ العرب. فامرؤ القيس لم ير صورته في مرآة

صدر حبيبته، بل رأى العالم، ورأى الغيمة التي غطّته، واكتشف أنّه يعيش في داخلها، فاخترع كلماتٍ يداوي بها خجله وحيرته. الشعر يا ابني، كلمات نداوي بها خجلنا وحزننا وشوقنا. إنّه غطاء. الشاعر يغطّينا بكلماته كي لا تتلف أرواحنا. الشعر ضدّ الموت. داء ودواء، غطاء الروح وبرد الروح. وأنا بردان الآن، وألجأ إلى الشعر، أخبّئ فيه رأسي، وأطلب منه أن يغطّيني.

حملتَ الرسالة، ووصفتَ نور قبل أن تباشر القراءة، وحين قرأت صرت مثل الشعراء، حين قرأت عن مئة يونس يولدون هناك، لم تفتخر وتظهر سلطتك وانتصارك. حملت انتصارك وصرت تبكي ضاحكًا، لأنّ الانتصار يشبه الهزيمة، إنّه لحظة انكشاف الروح من الداخل. كنتَ مكشوفًا وجريحًا. وحين داويتك بقصيدة الأخطل الصغير، وسكبت على جروحك صوت فيروز، غطّتك غيمة الشعر وأخذتك إلى البعيد.

أنتَ الآن في بعيد الشعر، وبعيد مئة يونس لا يعرفون أنّك تموت، ولا يرون آثار خطواتك التي انطبعت على طرقات الجليل. لا أحد يتذكّرك الآن سوى غابة النسيان.

وعدتك أن أخبرك عن شمس، ولم أخبرك. وصلنا إلى حيث صارت ضابطًا فدائيًا. أمّا كيف كان ذلك، فلا أعرف. أعلم أنّها ذهبتْ إلى الأردن بعد اجتياح بيروت عام ٨٢، وأنّ زوجها فوّاز لحق بها إلى هناك، وأنّ فوّاز اشتغل مع والده الذي كان يملك محلاً صغيرًا لبيع الأقمشة في جبل اللّويبدة.

في عمّان، أصبح فوّاز هادئًا، اختفى عنفه الذي كان ينفجر في لبنان على شكل طلقات رصاص يوجّهها حول جسد زوجته.

«لم يعد فوّاز يخيفني»، قالت شمس. «ستّ سنوات في بيروت، لا أذكر نفسي فيها إلاّ عارية. أقف مصلوبة والرصاص يلعلع حولي، ثمّ يأتيني الرجل واقفًا، يحفر جسدي بصراخ وحشي يخرج من بين فخذيه. ست سنوات، وكنت أعرف أنّني لن أحبل، لأنّ هذا لا يحبّل، وكان يسألني قبل أن يبدأ حفلة تعذيبي إذا كنت حبلى، فأقول لا، وأرى تكشيرته، وأسمع صوت غضبه».

قالت شمس إنّ كلّ شيء تغيّر في عمّان.

«يبدو أنّ الشيطان حلّ عنه، فصار رجلاً آخر، يتلعثم أمام والده، يحكي مع أمّه باحترام، ويأتيني هادئًا. كنّا نعيش مع أمّه وأبيه وأخته العانس في بيت واحد. وصار فوّاز غير فوّاز. وحبلت وجاءت دلال.

بعد ولادة دلال بثلاثة أشهر، مات الأب. مات وفي قلبه حسرة لأنّني أنجبت فتاة، ولم أنجب له الصبي الذي سيرث اسمه. أنا لم أهتمّ بنظراته القاسية، ورفضه التكلّم معي بعد ولادة دلال. صار يقول لزوجته أو لابنه ما يريد قوله لي، وأنا جالسة معهم. قولوا لها، كان يقول، ولم يكن يتلفّظ باسمي، وأنا لا أهتمّ. المهمّ أنّ دلال تشبهني ولا تشبههم. البنت ابنتي وليست ابنتهم. يا عيني ما أحلاها. غدًا عندما أخطفها وآتي بها إلى هنا، سوف ترى أجمل فتاة في العالم. أردت تسميتها آمال، فمعها بدأ الأمل، لكن فوّاز أصرّ على اسم دلال، ثمّ فهمت أنّ دلال هو اسم ابنة عمّه التي رفضت أن تتزوّجه. وفهمت أنّ والده نصح شقيقه بعدم تزويج دلال لفوّاز إذا كانت لا تحبّه. ثمّ عثروا عليّ أنا من أجل الابن غير النّافع، الذي لم يكن مهندسًا ولا شيء. فوّاز أصرّ على دلال، ووالده لم يتدخّل، ورضخت للأمر الواقع، وبكيت لأنّي شعرت أنّ آمال ماتت. أسميتها آمال وهي في بطني. كنت أحكي معها، وأستمع إلى صوتها، عرفت منذ البداية أنّها ستكون فتاة، من اللّحظة التي شعرت فيها بالدّوار والغثيان والعطش. قضيت الأشهر الثلاثة الأولى من حبلي نائمة، أشرب وأنام، وأتحدّث مع آمال. ثمّ سرقوا اسمها. قال فوّاز دلال، قلت آمال. لكنّ الأسماء لا تهمّ. اسم دلال يليق بها وتعوّدته».

روت شمس عن التحوّل الكبير الذي حصل بعد موت والد فوّاز، وكيف انقلب العالم وانقلب زوجها. قالت إنّها كانت عاجزة عن تصديق عينيها.

«الأب مات على أثر نوبة قلبيّة، فورث الابن كلّ شيء. وتغيّر فوّاز، عاد إليه فوّاز الذي تركه في بيروت. بدل أن يرتجف أمام أبيه، صارت أمّه ترتجف أمامه، وبدل أن يتعثّر حين يمشي، صارت أخته تقع، وبدل أن يتأتئ، صرنا كلّنا نتأتئ. كان حين ينام معي، على أيّام والده، يأتيني موشوشًا ويغطّيني بجسده باحثًا في الظلام. في عمّان، فقط في عمّان

الوشوشة شعرت معه بالجنس، شعرت بشيء يتحرّك ويتروّس في داخلي، ثمّ مات الأب وانطوت الصفحة».

قالت شمس إنّه في البداية لم يعد يبالي، عادت إليه بعض تلك الأصوات التي كان يصدرها في بيروت، ثمّ صار يضربني على قفاي، ويقول إنّه لا يتهيّج إذا لم يضرب. بدأ الضرب خفيفًا، ثمّ تطوّرت الأمور، وصار يضرب بكلّ قوّته، وأنا أكتم صراخي ووجعي خجلاً من أمّه وأخته اللّتين تقيمان معنا في البيت. ثمّ لم أعد أستطيع، صار يضرب وصرت أصرخ. وتوالت حفلات الضرب، وصرت وكأنّي أستمع إلى دعسات المرأتين وأتخيّلهما منحنيتين أمام قفل باب غرفتنا، يستمعان، ويهزّان رأسيهما، فيسقط منديل الأخت أرضًا، فتلمّه، وهي تنظر إلى وجه أمّها.

وفي الصباح يغادر البيت، وأبقى وحدي مع المرأتين، ولا أجرؤ على النظر إليهما. كانتا تتصرّفان كأنّهما لا تدريان بما يجري في الغرفة.

مرّة قلت لأمّه، فنظرت إليّ بعينين مستغربتين. لم أقل شيئًا، قلت فقط إنّ فوّاز يتعبني في اللّيل، وإنّي لم أعد أستطيع الاحتمال. نظرت إليّ كأنّها لا تفهم ما أقول، وتمتمت بأنّ الحياة هكذا، واشكري ربّك لأنه ساترك.

قالت أمّ فوّاز إنّ عليّ أن أشكر ربّي! تخيّل، أشكره على الذلّ والضرب!

أقالت له أمّه شيئًا، أم الأمور تطوّرت معه بشكل طبيعي، لأنّه بعد تلك الغلطة التي ارتكبتها، صار أكثر وحشيّة. وعاد إلى تمثيل مشاهد بيروت. في عمّان، لم يكن باستطاعته إطلاق النار، هنا توجد دولة، ولسنا في حرب أهليّة، لكنّه حوّل غرفة النّوم ساحة حرب أهليّة. صار يصلبني، ويمدّ إصبعه كأنّه مسدّس، ويطلق النار من فمه. يقترب منّي، ويبدأ في حفر جسدي بفوهة مسدّسه الوهمي حاولت أن أجد حلاً، ذهبت إلى أمّي، فلم تجد ما تقوله لي سوى إيّاك والطلاق، الطلاق فضيحة المرأة. فقرّرت وحدي. قرّرت الهرب ولم أجرؤ على التنفيذ. كنت في كلّ ليلة، وبعد أن يغفو، أبدأ برسم مخطّطات الهرب، وفي الصباح تتبخّر الخطط، وأجد نفسي واحدة من نسائه الثّلاث.

إلى أين أهرب؟

خطرت الضفّة الغربيّة ببالي، واللّه فكّرت في الذهاب إلى اليهود. لكنّي خفت. فأنا لا أعرف أحدًا هناك، وسأدخل السجن. ثمّ فكّرت في بيروت. أنا التي لم تكن تطيق سماع اسم بيروت، قرّرت بيروت.

لا أدري كيف خرجت الكلمات من فمي.

كان فوّاز يتناول فطوره الصباحي، يجلس وحده إلى المائدة، ويأكل البيض المقلي واللّبنة، ونحن واقفات. ثلاث نساء يقفن بين يديه، وهو يأكل ويتلمّظ ويشرب الشاي، ونحن رهن إشارته. وفجأة سمعت صوتي يقول:

اسمع، أنا لم أعد أستطيع الاحتمال، طلّقني.

لكن فوّاز تابع تناول طعامه كأنّه لم يسمع. فصرخت، فوّاز، اسمعني، واللّه ما بقى أقدر، طلّقني.

ابتلع لقمته وقال بصوت خشبيّ، أنت طالق.

أنا متأكّدة من أنّه لم يقبضني جدًّا، لكنّه قالها. ركضت إلى غرفتي، وضعت ثيابي في كيس نايلون، وحملت دلال ومشيت.

«اتركي البنت يا ساقطة»، قالت أمّه.

ارتخت مفاصلي، توقّعت كلّ شيء إلاّ دلال. اقتربت أمّه منّي، وخطفت البنت من بين يدي.

«روحي عند أهلك وقوليلهم فوّاز طلّقني لأنّي قحبة». قال فوّاز.

أنا متأكّدة من أنّه كان يعتقد أنّني سأنهار وأبكي وأرجوه أن يسامحني، لكنّي أدرت لهم ظهري وخرجت من البيت. لم أذهب إلى أهلي، بل مشيت في اتجاه كاراج سيّارات بيروت. ركبت سيّارة وغفوت، ولم أستفق إلاّ عند نقطة الحدود السوريّة – الأردنيّة، ثمّ غفوت من جديد، لأجد نفسي عالقة أمام الحدود السّوريّة – اللّبنانيّة. فأنا لم أكن أحمل تأشيرة للدخول إلى لبنان. وقفت وحدي، بعد أن تركتني سيّارة الأجرة، وأكملت طريقها. تقدّم منّي رجل، وتكلّم معي بلهجة فلسطينيّة، وقال إنّه يستطيع إيصالي إلى مدينة طرابلس، عن طريق حمص. يومها كانت طرابلس مشتعلة، الفدائيّون الفلسطينيّون أو من تبقّى منهم في لبنان، تجمّعوا في المدينة، والمدينة محاصرة. وافقت. دفعت كلّ ما أملك. كنت أحمل أربعين دينارًا أردنيًّا، سرقتها دينارًا دينارًا من جيب فوّاز من أجل لحظة الهرب هذه».

قالت شمس إنّها تعلّمت الحرب في طرابلس. وصلت إلى مكتب الزاهريّة التابع لحركة فتح، وقالت إنّها قادمة من الأردن من أجل الالتحاق بالثّورة. مسؤول المكتب، وكان يدعى منذر، لم يسألها شيئًا، ألحقها بمجموعات باب التبّانة، حيث التقت خليل عكاوي، القائد الأسطوري الذي حوّل فقراء طرابلس وشبابها ثوّارًا صغارًا، والذي سيموت بعد ذلك في عمليّة اغتيال وحشيّة تشبه كثيرًا مقتل شمس في الميّة وميّة.

وفي طرابلس، سوف تلتقي أبو فارس، أحد مساعدي أبو جهاد، خليل الوزير، الذي سيعينها قبل رحيل الفدائيين من المدينة، ضابط اتصال مع قيادة القطاع الغربي، وهو القطاع المسؤول عن العمل داخل فلسطين المحتلّة، في تونس.

شمس لم تركب السفن مع الفدائيّين الذين غادروا طرابلس عام ١٩٨٤. قالت إنّ تونس بعيدة، وإنّها فضّلت البقاء قريبة من دلال. أعطاها أبو فارس مبلغًا من المال، وجاءت إلى بيروت، والتحقت بمركز القيادة الفلسطينيّة في مخيّم مار الياس، ومن هناك تسلّلت إلى مخيّم شاتيلا خلال الحصار الطويل.

رُوي الكثير عنها في تلك المرحلة.

قيل إنّ قائد مخيّم شاتيلا، علي أبو طوق، صفعها أمام المقاتلين، وقال لها إنّه القائد الوحيد هنا.

وقيل إنّها نجحت في تنظيم شبكة لتهريب السلاح والتموين، إلى داخل المخيّم المحاصر.

عن هذه المرحلة لم تروِ لي شيئًا، كنت أعرفها، وكنّا نلتقي في مخيّم مار الياس، وكنت مسحورًا بها. هنا لا أعرف، لأنّ كلّ ما أعرفه تلاشى حين انكشفت لي حقيقة عشقها لسامح بعد أن قامت بقتله.

أستطيع أن أقول إنّها كانت امرأة خارقة. كانت تتجوّل في مخيّم مار الياس، محوطة بالشباب المسلّحين، وتقول إنّهم عناصر كتيبة شمس.

أنا عدت إلى المخيّم بعد انهياره على أثر مقتل قائده علي أبو طوق، بينما انتقلت شمس إلى منطقة صيدا. عدت فوجدته مخيّمًا آخر. عدت واشتغلت على إعادة بناء هذا المستشفى. وتأقلمت مع الوضع الجديد

الذي تعرفه أنت أفضل منّي، ولا لزوم للدخول في التفاصيل. فالفدائيّون لم يعودوا يشبهون الفدائيّين، أنا لا أتكلّم هنا على الفساد والرشوات والمشاحنات التي عشناها قبل اجتياح ١٩٨٢. أعرف أنّ الفساد كان موجودًا، وكنّا نخجل من أنفسنا. لكن كان هناك شيء يجعلنا قادرين على تحمّل الوضع. لنقل كان هناك قضيّة أكبر من الفاسدين والزعران. أمّا بعد سقوط المخيّم، فلقد تغيّر كلّ شيء.

في الماضي، كان الموت في كلّ مكان، وكان جميلاً. أعرف أنّه لا يحقّ لنا إطلاق صفة الجمال على الموت، لكن كان هناك جمال ما يلفّنا تحت معطفه. أمّا في الأيّام التي أعقبت سقوط المخيّم فلقد صار الموت عاريًا.

صدّقني، لا أعرف كيف استطاعت شمس دخول المخيّم بعد سقوطه. كان المنشقّون على قيادة فتح قد استولوا على مكاتبها في بيروت والمخيّمات، ولم يبق سوى مخيّمات الجنوب. والجميع كان يعرف أنّ شمس ضدّ الانشقاق، وتعمل مع أبو جهاد الوزير، وأنّها موالية لخط القيادة، وتتّهم المنشقّين بشتّى الاتّهامات. لكنّها كانت تدخل مخيّم شاتيلا دون أن يعترضها أحد، تأتي إليّ في بيتي، ونقضي اللّيالي المتواصلة. لم أكن أراها كثيرًا، كانت مشغولة كلّ الوقت، ولم أكن أملك وسيلة للاتّصال بها. كانت تأتي حين تشاء، وتجدني في انتظارها.

لا يا سيّدي.

لا يا ابني وحبيبي، أنا لم أكن خائفًا منها، ولا من الانتقام. كنت خائفًا من نفسي. فجأة مات شيء في داخلي. فحين يموت من نحبّه يموت شيء فينا. هذه هي الحياة، سلسلة طويلة من الموت. يموت الآخرون، فتموت أشياء في دواخلنا، يموت من نحبّهم، فتموت أعضاء في أجسادنا. الإنسان لا ينتظر موته، بل يعيشه، يعيش موت الآخرين داخله، وحين يصل إلى موته، يكون قد بتر الكثير من أجزائه، ولم يبقَ إلاّ القليل.

قبل شمس، لم أكن أعرف. وحين ماتت، شعرت بأعضائي المبتورة، وأجزائي المدفونة تحت التراب، شعرت بأبي وجدّتي، حتّى أمّي التي نسيتها، رأيتها وكأنّها جزء انتزع من جسدي بالقوّة.

هذا هو خوفي ولذلك التجأت إليك.

لم أكن خائفًا من الانتقام. بلى، ربّما، لكن ليس هذا مهمًا، كنت خائفًا من موتي. ماتت شمس فشعرت بكلّ أجزائي التي ماتت، ورأيت الموت يزحف على ما تبقّى منّي، وجئت أنت، كنت لا أريدك أن تموت، كي لا يموت جزئي الأخير الذي يفصلني عن موتي. والآن أضحك على حالي، جزئي الأخير صار طفلاً. صرتَ طفلاً يا أبي ورائحتك كرائحة دلال، أو كرائحة إبراهيم ابنك الأوّل الذي مات. وكان القرار لنهيلة، نهيلة حكمت أن لا يبقى اسمك أبو إبراهيم. قالت أنت أبو سالم، وأنا أمّ سالم. يجب أن لا نعيش مع الموت. فالحيّ أفضل من الميت.

الآن أعيش مع رائحتك الجديدة، رائحة طازجة وتدعو إلى القُبل. رائحة الأطفال تدعو إلى القبل، وأنت تدعوني، أضمك وأشمك وأقبّلك وأغطّيك بصوتي.

أنت لا تصدّق؟

حرام عليك، حرام عليكم، والله أحبّتني، ولا يحق لك التشكيك في الأمر. أنا صدّقت كلّ حكاياتك، ما يصدّق، وما لا يصدّق. حتّى إنّي صدّقت حكاية دودة الثلج.

في ذلك الزمان، كان يونس ذاهبًا إلى باب الشمس. وصل في الصباح إلى مخبإه الأوّل قرب ترشيحا، استلقى تحت زيتونته الكبيرة التي كان يسمّيها ليلى. كان يحمل بندقيّة إنكليزيّة وحقيبة، ويلبس معطفًا طويلاً أخضر.

كان يونس تحت شجرة الزيتون، حين بدأت الشمس تميل إلى المغيب، وانتشر الضوء الأحمر الذي غطّى روابي الجليل.

«أخونك مع ليلى الرّوميّة»، قال لنهيلة.

«أريد أن أراها»، قالت نهيلة.

وعدها أن يأخذها، ولم يأخذها.

«ليلى لي وحدي، ليلى زوجتي الثانية، نحن مسلمون يا امرأة».

وكانت نهيلة تضحك من صغر عقل الرجال، وتدّعي الغيرة، وتقول إنّها سوف تقطع الشجرة.

مع ليلى كان يونس.

مع الشّجرة التي كان يختبئ داخل جذعها المتجوّف الضخم، وينام في

ظلالها. شجرة وحيدة، تبعد قليلاً عن حقل الزيتون في خراج ترشيحا. هناك كان يرتاح وينام، واقفًا أو مستلقيًا داخل الجذع، وهناك كان يرتّب كلماته وخططه وعشقه وجسده.

في ذلك الزمان، ماتت الشجرة.

قال عن الشجرة كأنّه يحكي عن امرأة.

قال إنّها ماتت، ولم يقل قطعوها.

صحيح لماذا يقطعون أشجار الزيتون، ويزرعون الصنوبر والنخيل؟ لماذا يكره الإسرائيليّون شجرة النور المقدّسة.

في ذلك اليوم من عام ١٩٦٥، وبعد أن عبر حقل الزيتون في ترشيحا، شعر بالضياع. ولم يجد شجرته. كان الطريق الإسفلتي الذي يصل معالوت بكرمئيل قد شقّ فوق ليلى.

قال يونس إنّه شعر برغبة وحشيّة في الانتقام. وإنّه لم يكمل طريقه إلى نهيلة. عاد يونس إلى مخيّم شاتيلا، وأغلق باب بيته، ولم يقابل أحدًا لأكثر من أسبوع. اكتسى وجهه مسحة طبشوريّة بيضاء، وصارت الدموع حجارة في عينيه، وأعلن الحداد على الشجرة.

وقرّر تغيير طريقه إلى دير الأسد.

واكتشف يومها طريق العرقوب، التي ستصبح بعد ذلك بثلاثة أعوام، أي بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، الطريق الرئيسي للفدائيّين إلى فلسطين. اكتشف الفدائيّون العرقوب، الذي يسمّى «فتح لاند»، الواقع على سفح جبل الشيخ، وتعلّموا المشي على الطرقات المثلجة.

قال يونس إنّ جبل الشيخ سحره.

إنّه مرايا الثلج.

جبل يجلس كالتاج على رأس ثلاث دول، فلسطين ولبنان وسوريا. إنّه تاج الله، قال لي.

قال يونس إنّه اكتشف طريق جبل الشيخ أو جبل حرمون، لأنّ ليلى قتلت. كانت ليلى علامته ومخبأه. يقضي نهاره داخل جذعها، وحين يأتي اللّيل يتسلّل في اتّجاه دير الأسد.

«هل تعلم»، قال لي، «هل تعلم أن الثلج يدوّد».

«اكتشفتها وحدي»، قال، «حملت لنهيلة حوالى عشر دودات ملفوفة بقطعة من القماش. إنّها دودة صغيرة بيضاء تشبه دودة الحرير، ولكنّها بيضاء. حين تنتزعها من الثلج تجمد كقطعة من الحصى. قلت لنهيلة هذه دودة الثلج، ووضعت دودة في الجرّة وطلبت منها أن تنتظر، وبعد أقل من عشر دقائق، صار الماء باردًا كالثلج. نهيلة رفضت أن تشرب في البداية. قالت إنّها لا تشرب الدود، ثمّ صارت تطلب الدّود وتوزّعه».

قال يونس إنّها كانت صيفًا، «ثلج حرمون يصبح في الصيف مثل المرايا الموشّحة بالأنفاس. نمت هناك، في ذلك البيت العتيق المهجور. لا أعلم ماذا أصابني تلك اللّيلة. لا مشكلة في البيت، فهو بيت عتيق، يروي فلّاحو العرقوب أنّ مهاجرًا لبنانيًا إلى المكسيك، عاد في أيّامه الأخيرة وبناه. وأنّ الرجل، وهو من قرية الكفير التي تقع على سفح الجبل، جمع ثروة كبيرة في أميركا الجنوبية، وقرّر بعد موت زوجته العودة إلى بلاده، فاختار جبل الشّيخ كي يكون مكانًا لصومعته. كان كهلاً في حوالى الخامسة والسبعين من عمره، ويبدو أنّ خرفه تركّز على الأمور الروحانيّة. قال إنّه في الجبل، سيكون في أقرب نقطة إلى اللّه. بنى البيت على شكل البيوت العربيّة. فناء داخلي محوط بخمس غرف، وأعلن عن نيّته في تأسيس دير للرهبان هناك.

كيف جرؤ على التفكير في الإقامة هناك؟

أنت لا تستطيع أن تتخيّل شتاء جبل الشيخ. أقول لك إنّ الشتاء هو بياض مطلق. غبار من الثلج المتناثر الذي يدور ويدور ويغطّي العيون. فتصبح عظامك قطعًا من الثلج. تصبح جزءًا من الثلج. أنا لم أقطعه شتاء إلاّ مرّتين، وفي المرّتين، كنت حين أصل إلى باب الشمس أشعل نارًا. وتأتي نهيلة فتعيد ترتيب عظامي. هذه هي المرأة يا ابني، المرأة هي من يستطيع إعادة ترتيب العظام. تعيد كلّ عظمة إلى مكانها، وتدفئها، فتعود أنت أنت.

الرجل الذي كان يدعى الخوري، مات قبل اكتمال البناء، وصار بيت الثلج، يدعى بيت الخوري. لا أعلم، هل نسب البيت إلى الخوري، لأنّ الرجل ينتمي إلى آل الخوري، وهي عائلة من الكفير، خرجت منها شخصيّات تاريخيّة كبيرة، كفارس بك الخوري، أحد زعماء الكتلة الوطنيّة،

والذي أصبح رئيسًا لوزراء سوريا، أم لأنّ الرجل قرّر أن يصير راهبًا، فدعي بيت الخوري، نسبة إلى المشروع الرهباني الذي لم يكتمل».

كان يونس في ذلك اليوم الصيفي، قد وصل إلى البيت مرهقًا، وقرّر المبيت فيه، قبل أن يتابع رحلته إلى باب الشمس.

«كنت في غرفتي، وهي الغرفة الوحيدة التي كان الخوري قد أنهى بناءها قبل وفاته. حاولت أن أنام، فلم يأتني النوم. كانت شمس آب تحرق الثلج، والثلج يحرق وجهي. كنت بردان وأحترق. نهضت، تلفلفت بحرام صوفي، وجلست على العتبة فوق الثلج اليابس، وشعرت بالدود يسرح فوقي. يبدو أنّي غفوت، استيقظت لأجد دود الثلج، دود صغير أبيض يخرج من تحت قشرة الثلج اليابسة، وينتشر فوق قدمي. نهضت مذعورًا، وبدأت أدوسه. يومها لم أنتظر اللّيل كي أتابع سيري إلى نهيلة، مشيت في النهار، واللّه سترني، ولا أعلم كيف وصلت. نهيلة لم تصدّق أنّ الثلج يدوّد.

أخبرني أحد فلاّحي قرية كفرشوبا، أنّ الثلج يدوّد حين يعتق، وأنّ دودة الثّلج مفيدة جدًا، لأنّها تبرّد الماء.

وضعت الدّودة في الجرّة، وشربت، لكن نهيلة رفضت في البداية، ثمّ صارت توصيني على دود جبل الشيخ، وصارت توزّع الدّود على الناس في القرية. ففي تلك الأيّام، كان الناس فقراء، ولم يكن أحد يمتلك ثلاّجة كهربائيّة، وكانوا يسحّرون الماء في الجرار كي يبرد.

صارت نهيلة تطلب منّي دودًا وتوزّعه، وصار الناس يسمّون دود الثلج، دودة الفدائيين، كلّ القرية كانت تعلم أنّني أزور زوجتي سرًا، كانوا يعرفون، لكن نهيلة، حفظ اللّه سرّها، حتّى أولادها لم تخبرهم عن المغارة إلاّ في أيّامها الأخيرة.

سالم تكلّم معي بالتلفون، أنت تعرف، من هناك يستطيعون التكلّم معنا، أمّا نحن فلا نستطيع الاتّصال بإسرائيل.

قال سالم إنّ صحة أمّه تتحسّن، وإنّها أخبرته السرّ، وطلبت منه أن يذهب إلى باب الشمس. قالت له أن لا يتوقّف عن الذهاب إلى المغارة من أجل ترتيبها وتنظيفها. «لا تترك الشراشف والمناشف والحرامات تتعفّن، هذه قرية أبيك، اسأله ماذا يريدكم أن تفعلوا بها. يجب أن يبقى بيته مرتّبًا. وبعد

موتي، اسحبوا كلّ شيء منها، وأغلقوا بابها بالحجارة. يجب أن لا نسمح للإسرائيليّين بدخولها أبدًا، إنّها القطعة الوحيدة المحرّرة من أرض فلسطين».

«وبعد موتها، سألني سالم ماذا يفعل بالأغراض.

قال إنّه دخل باب الشمس، أسماها باب الشمس على التلفون! لا أحد كان يعرف اسم قريتي سوى أنا وهي، هناك كنّا وحدنا، مثل آدم وحوّاء، والآن يأتي سالم ويسأل.

أخبرني عن موت نهيلة، وسألني، وكنت عاجزًا عن التنفّس.

قال العوض بسلامتك يا بوي، وسألني ماذا يفعل بأغراضي في باب الشمس.

قلت لا أعرف.

قال إنّه سينفّذ وصيّة نهيلة.

لم أسأله ماذا كانت وصيّتها، عرفت ذلك بعد أربعين يومًا على موتها. اتّصل سالم وقال إنّه أقفل البلاد بالحجارة. قال إنّه ذهب ليلاً مع يونس ابنه، ويونس ابن نور، ويونس ابن صالح، ويونس ابن مروان... ذهبوا وأقفلوا البلاد. سحبوا الأغراض، وتوزّعوها في ما بينهم.

ذهب سالم مع الفتيان وأقفلوا البلاد كما أسموها، سحبوا الأغراض وتوزّعوها في ما بينهم.

أخبرني سالم، وكنت عاجزًا عن الكلام.

لحظتها شعرت أنّ حياتي قد انتهت. أربعة فتيان توزّعوا ثيابي وحراماتي وطناجري وكتبي في ما بينهم، وأقفلوا البلاد التي صنعتها من أجل امرأتي.

قال سالم إنّه أوصى الأولاد بأن يحفظوا سرّ المغارة».

«إنّه سرّ يونس، احفظوا يونس في بطن الحوت، قال لهم، وبعد ثلاثة أيّام أو ثلاثة أعوام أو ثلاثة عشرات الأعوام، سيخرج يونس جدكم من بطن الحوت، كما خرج يونس الأوّل، وستعود فلسطين، وسنسمّي قريتنا التي سوف نعيد بناءها باب الشمس».

«لا لم تمت»، قال يونس للّذين أتوا لتعزيته. لكنّه كان يعلم في أعماقه أنّ الحكاية انتهت.

في تلك المرحلة الأخيرة، روى شظايا حكاياته عن ليلى الرّوميّة، والمرأة اليمنيّة.

قال إنّ اليمنيّة كانت مغطّاة بتلاوين الشمس الحمراء.

قال إنّه يرى نفسه، بلحيته وبندقيّته التي تشبه عصا الأنبياء، وكأنّه في داخل دائرة الشمس التي تغطّي حقول الزيتون الممتدّة من ترشيحا إلى البحر.

قال إنّه خاف حين رآها جاثية.

قال إنّه اختبأ في الجذع، ولم يسمع سوى كلمة إيليّا.

قال إنّه خرج من بطن شجرة الزيتون وبحث عنها.

أنت إيليّا يا يونس. إيليّا هو اسم جديد يجب أن يضاف إلى أسمائك.

أخبرتك الحكاية يا ابني كي لا تنسى أنّ إيليّا هو أحد أسمائك. وإيليّا، نبي النار الذي لم يمت. إنّه الإنسان الوحيد الذي صعد إلى السماء، دون أن يعبر الموت.

الموت كما ترى، ليس شرطًا.

اسمعني جيّدًا.

أعرف أنّك تعبت.

أعرف أنّك تريد الموت.

ولكن لا.

انظر إلى نفسك كي ترى أنّ موتك سيكون مفجعًا كموت الأطفال. لا يوجد ما هو أكثر وحشيّة من موت الأطفال.

هل تريد أن تموت كما مات إبراهيم؟

يا ليتها هنا، يا ليت نهيلة هنا، لألبستك ثياب إبراهيم، ومنعتك من الموت على صورة ابنك الذي مات طفلاً.

لكن نهيلة ليست هنا، وأنا لا أعرف. ولكن أرجوك، حاول معي تجاوز هذا الشهر السابع، وبعد ذلك يبدأ كلّ شيء.

لكنّك لا تسمع.

أعرف أنّك ما أطعتَ أحدًا إلاّ تلك المرأة التي اسمها نهيلة.

من أين أجلب نهيلة؟

أخبرك سالم أنّها في أيّامها الأخيرة صارت عاجزة عن الاستلقاء كي لا تغرق رئتاها في الماء. تجلس وإلى جانبها سلّة الأزهار والماء، تطلب من يونس ابن نور أن يذهب كلّ يوم، ويقطف لها زهورًا جديدة. تجلسه إلى جانبها، وتطلب منه كتابة الأسماء. تضع أسماءكم جميعها في سلّتها، وتتلو سورة النور.

«اللّه نور السّماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة كأنّها كوكب درّيّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي اللّه لنوره من يشاء».

«لا تنسوا يا أولادي، رتّلوا في مأتمي سورة النور، فأنا لا أراه إلاّ محوطًا بالنّور. تعال يا يونس إلى جانبي، فإبراهيم في انتظاري. كلّنا من إبراهيم يا أولاد. تعال يا يونس، تعال يا إبراهيم».

كانت نهيلة ترى إبراهيم ابنها على هيئة رجل يدعى يونس، وترى يونس زوجها كطفل يشبه إبراهيم.

«ماتت هكذا يا أبي»، قال سالم إنّها ماتت، وهي تحكي عن رجل اسمه إبراهيم، وابنه الذي يدعى يونس.

أنت ابنه ولست ابني، فلماذا تعذّبني؟

أرجوك، سوف أذهب إلى بيتك الآن، وأجلب الصور. أعلّقها على حيطان هذه الغرفة. نترك لوحة اسم الجلالة بالخطّ الكوفي في الوسط، ونوزّع صوركم حولها. صوركم حول الاسم، وأنتم حول يونس.

أجلب الصور، ونُخبر الحكاية كلّها.

وسوف تكون الحكاية مختلفة.

سوف نغيّر كلّ شيء.

أعلّق كلّ الصور هنا، ونعيش بين الصور.

أنزل صورة عن الحائط، وأعطيك إيّاها. فتروي حكاية. ثمّ أنزل صورة أخرى، وتأتي حكاية جديدة، وتتوالى الحكايات.

هكذا نؤلّف حكايتنا من الأوّل ولا نترك أيّ منفذ يدخل منه الموت.

أقف الآن.

وحدي، وهذا اللّيل.

أقف وأحكي معك كلماتي الأخيرة. لم يعد الكلام ممكنًا يا سيّدي. الآن خلص الحكي ونفد الكلام وانطوت الحكاية.

أقف لا أبكي ولا أحكي.

كأنّ موتك كان، كأنّك متّ من زمان، كأنّك لم تمت.

أقف، لا حزن ولا دموع.

أقف أمام هذا القبر. أقف أمام الجامع الذي حوّله الحصار قبرًا، وأشهد أنّك وضعت رأسك في التراب، وأغمضت عينيك على الغبار، وذهبت إلى البعيد.

ولكن ماذا؟

قل لي؟

ألم أقل لك، ألم نتّفق أنّ علينا تجاوز هذا الشهر السابع. قلت لك إنّنا لو نجحنا في تجاوز الشهر السابع، نكون قد تجاوزنا الموت.

ألم نتّفق على شراء الحياة بتلك الأيّام واللّيالي الطويلة التي قضيناها في غرفة المستشفى، ونحن نروي ونتذكّر ونتخيّل.

قلتُ لك إنّ ثمنها سبعة أشهر، ودخلنا شهرك السابع، وبدأت ملامح طفولتك تتشكّل. قلت لك إنّها البداية، وصلنا إلى البداية يا أبي، والآن ستصير ابنًا لي.

لماذا فعلت بي هكذا؟

لم يكن قصدي.

كنت قد قرّرت أن أتركك ساعة من الزمن. أجلب الصور ونبدأ برواية الحكاية من جديد. لكنّني لم أعد إلاّ في الصباح. رأيت زينب تنتظرني على باب المستشفى، ركضت صوبي، أسندت رأسها إلى كتفي، وبكت.

سألتها ماذا، فهزّت رأسها، وقالت هبوط في القلب.

زينب بكت، وأنا لم.

أمجد مسح دموعه وهو يعطي الأوامر بإجراءات الدفن، وأنا وقفت كالحجر.

كأنّني لست أنا.

لا تلمني أرجوك، فأنت تعرف ماذا جرى لي.

مشيت في مأتمك كالغريب، كواحد من العشرات الذين مشوا. وضعوك في الحفرة، وغطّوك بالتراب، ولم يتقدّم أحد كي يقول كلمة. نظروا إليّ، فخفضت بصري. كنت عاجزًا عن النظر، وعاجزًا عن الكلام، وعاجزًا عن البكاء، كأنّ حجابًا غطّى عينيّ، كأنّني أرى ولا أرى.

وكان عليّ الانتظار ثلاثة أيّام، كي أمتلك جرأة الوقوف أمام قبرك، تحت هذا المطر، حيث يغطيني ليل المخيّم، ويعطيني الكلام.

أقف الآن، لا لأعتذر، بل لأبكي.

فأنا واللّه لم أذهب إلاّ إلى بيتك من أجل الصور. قلت أذهب وأجلب صورك وصور نهيلة وصور أولادك وأحفادك، ونبدأ الحكاية. شعرت أنّ ذاكرتي جفّت، وروحي انطفأت، وقلت إنّ الصور وحدها تستطيع تجديد حكايتنا.

أذهب إلى الصور، أضعها أمامك في غرفة المستشفى ونحكي.

قلت بدل أن نحكي عن الحبّ، نحكي عن الأبناء والأحفاد.

قلت نأخذهم واحدًا واحدًا، ونروي حكاياتهم. فنعبر معهم هذين الأسبوعين المتبقيين من شهرنا السابع في صحبة الموت، وندخل آلام الولادة.

أليس هذا قانون الحياة؟

ألم نتّفق أنّنا سنحاول الوصول إلى أعمق نقطة في الموت، كي نكتشف الحياة؟

لا، لم أتركك تلك اللّيلة الرّهيبة.

قلت أذهب ساعة وأعود، ولم أعد.

سامحني.

أرجوك سامحني.

تركتك مع حكاية نهيلة في لحظاتها الأخيرة، تحكي معك ومع إبراهيم. تدعوك إبراهيم وتدعوه يونس. وحولها أولادها وأحفادها يبكون.

لا، لم أكن أريد تركك مع الموت، حيث كان عليك أنت وإبراهيم حراسة نهيلة ومرافقتها في رحلتها الأخيرة.

كنت أريد قصّة أخرى.

كنت أريد أن أقول لك إنّني صدّقت أنّك لم تتوقّف عن الذهاب إلى هناك، بعد ليلة الزيتونة، حين أجلستك امرأتك، وروت لك حقيقتها وحقيقة حياتها. حين قالت لك، إنّكم هناك صرتم يهود اليهود، وإنكم هنا عرب العرب.

واللّه صدّقتك.

فأنا لا أريدك مهزومًا ومطعونًا.

صدّقتك.

فأنت بعد ليلة الزيتونة الرّوميّة، غبت تسعة أشهر، ثمّ عدت إلى سيرتك القديمة، وتابعت رحلاتك إلى هناك رغم كلّ الصّعاب، ولم تتوقّف عن العبور إلاّ بعد عام ١٩٨٢، أي بعد اجتياح لبنان، حين صارت الحركة داخل بيروت مستحيلة، والرحلة من بيروت إلى صيدا أشبه بمغامرة.

عندها توقّفت عن عبور جبل الشيخ، وصاروا يتلفنون لك، وتحكي معهم، وتَعِدهم بلقاء قريب يجمعكم كلّكم في قبرص أو القاهرة. لكنّ ذلك اللّقاء تأجّل دائمًا، كأنّكما لم تكونا تريدانه. كأنّكما كنتما متّفقين دون اتفاق على تلافي اللّقاء خارج المكان الذي صنعتماه من أجل اللّقاء. مرّة تؤجّل أنت، ومرّة تؤجّل هي، إلى أن سقطت نهيلة في المرض.

كنت أريد إخبارك عن سلسلة زياراتك إلى هناك، وسفرك مع نهيلة إلى عكّا، حيث ذهبتما إلى مطعم أبو داود في المدينة القديمة، وأكلتما سمكًا وشربتما عرقًا. وحين لعبت الخمر في راسك قلت لها، «واللّه يا امرأة كأنهم ليسوا هنا، ولم يأخذوا بلادنا. عكّا بقيت عكّا، وجامع الجزّار في مكانه،

والبحر وسمك اللّقس والسّلطان إبراهيم والسرغوس، واللّه يا امرأة أذهب معك إلى البيت وأبقى، شو فيهم يعملوا، ويلّلي بدّو يصير يصير». ثمّ حين عدتما ليلاً، تسلّلتما إلى باب الشمس، وقضيتما اللّيل هناك، ونسيتما حديثكما عن أنواع السمك، ومشروع بقائك في البيت. وتركتك في الصباح، لتعود ليلاً وترافقك إلى خراج دير الأسد، كما كانت تفعل دائمًا.

واللّه كنت سأروي لك حكايات عن نور وابنها يونس، الذي تفوّق في دراسته في عكّا، ودخل جامعة حيفا كي يدرس الهندسة. وعن يونس الثاني، ابن سالم، الذي يدرس إدارة الأعمال في جامعة تل أبيب، ويستعدّ للزواج من فتاة نصراويّة مسيحيّة من عائلة خليفي، وكيف باركت هذا الزواج. قلت لسالم إنّ جدّته كانت تضع تحت وسادتها إيقونة السيّدة العذراء، وإنّه لا بأس، المهمّ أن نتزوّج وننجب الأولاد.

كنت سأروي لك عن يونس الثاني، وكيف قلت له إنّ اللّه باركنا وأكثر من نسلنا. ها نحن طردنا من بلادنا عام ١٩٤٨، ولم يبق منّا هناك سوى مئة ألف. المئة ألف صاروا مليونًا، والثمانمئة ألف الذين طردوا صاروا خمسة ملايين. هم يجلبون المهاجرين، ونحن ننجب الأولاد، وسنرى في النهاية لمن تكون الغلبة.

كنت سأروي لك حكايات الصور، صورة صورة، وحكاية حكاية، ولحظة لحظة، هكذا نتحايل على الوقت، ولا نسمح له بقتلنا.

كانت غلطتي.

يا إلهي، كيف حصل ذلك، كيف سمحت له أن يحصل، كيف لم أنتبه، كيف سكرت!

تركتها في الصباح، وقلت لها إنّني مضطرّ إلى الذهاب إلى المستشفى، لأنّ أبي مريض، فقالت اذهب، أنا أعرف كلّ شيء.

قالت إنّها تعرف كلّ شيء.

ما عدا هذه الجملة لم تقل شيئًا. وقضينا اللّيل كلّه ونحن نأكل ونشرب ونمارس الحبّ.

ماذا جرى لي؟

هل جاءني شبحها كي يحرّرك منّي، ويتركك تمضي بسلام؟

يا ليتها كانت هنا، يا ليت أمّ حسن هنا، لكنّها ماتت قبلك وقبلي، لو كانت أمّ حسن هنا، لكان المأتم مختلفًا. لوقفت وندبت وأبكت الجميع.

حملوك ومشينا خلفهم، وصاروا يرقصون.

لم يمشِ خلف نعشك سوى رجال الزّاوية الشاذليّة، اليشرطية في المخيّم. تذكّروا أنّ أباك كان شيخًا متصوّفًا. فحملوا نعشك وداروا به، وأنشدوا ورقصوا. كان نعشك يطير فوق أياديهم المرفوعة إلى الأعلى، وهم يدورون بأناشيدهم.

وأنا أمشي.

لا أتمايل ولا أنشد ولا أبكي.

مشيت كالغريب، كأنّك لست أبي ولا ابني وكأنّني لم أذهب بك في رحلتك السرّيّة إلى بلادك السرّيّة.

حملوك، وطاروا بك، وأنشدوا لآل البيت، وأنا أقف جامدًا.

كنت كمن لا يرى.

كان طعم تلك المرأة في روحي، رائحتها في جسدي، وصوتها يلبسني.

وأنت ميت وتمضي.

هل تريد أن تسمع ماذا جرى لي؟ وما النّفع؟

هل تريد سماع حكاية جديدة لا يصدّقها راويها وبطلها؟

كنّا قد قرّرنا التوقّف عن إخبار حكايات من هذا النوع. قرّرنا أنّنا نريد حكايات حقيقيّة مثل الحقيقة.

لذلك ذهبت إلى بيتك كي أجلب لك الصور، وأفردها أمامك في غرفة المستشفى، أو أعلّقها على الحيطان وأروي لك.

لكنّي فشلت.

لم أصل إلى بيتك، ولم أجلب الصور.

أعرف أنّك تريد أن تعرف، لكنّي أشعر بالخجل. بدل أن أحزن عليك، وأفتح بيتي لتقبّل التعازي. أمضيت الأيّام الثلاثة الماضية بحثًا عنها.

لم أذهب إلى المستشفى، ولم أتقبّل التعازي مع زينب وأمجد، بل مشيت كالتّائه في أزقّة المخيّم، وحين كنت ألمح طيف امرأة، أركض حتّى أحاذيها، أنظر في وجهها مليًا، قبل أن أتابع سيري، وخيبة الأمل ترتسم على وجهي.

أعرف أنّهم اعتقدوا أنّني جننت.

أعرف ماذا يقولون.

يقولون إنّ خليل أيّوب أصيب بلوثة بعد موت يونس. لكن لا، بلى معهم حقّ. كانت لوثة، واللّه لوثة.

قضيت ثلاثة أيّام أبحث، ولم أنم لحظة. كنت كمن فقد عقله. كيف اختفت، وأين راحت، وما اسمها. حتّى اسمها لا أعرفه. سألتها عن اسمها، بلى سألتها، لكنّي لا أذكر الجواب. هل جاوبتني؟ لا أعرف.

ربّما لم تجاوب، ربّما ابتسمت فهززت رأسي كأنّي فهمت.

ثلاثة أيّام نسيت فيها أنّك أبي وابني، نسيت موتك وحياتك، وركضت خلف شبح امرأة لا أعرف اسمها.

والآن عدت إليك.

سامحني، واغفر لي.

أعرف أنّك ستتفهّم حالتي وتقبل اعتذاري. فأنت أيضًا قضيت خمسين عامًا راكضًا خلف شبح امرأة.

هل تعلم كيف عاد إليّ عقلي؟

أنقذتني تلك الفكرة المرعبة، بأنّها هي، نعم هي، أتت كي تجبرني على قضاء اللّيل بعيدًا عنك، فسرقتك منّي.

عندما جاءتني هذه الفكرة المرعبة، ارتحت قليلاً وغفوت، ثم نهضت وكانت الدنيا ليلاً، والمطر يقرع نافذتي، فقرّرت المجيء إلى قبرك وإخبارك كلّ شيء.

قرّرت أنّه آن لي أن أبكي وأحزن ولا أتعزّى.

قرّرت أنّك متّ، وأنّني سأكمل حياتي من دونك، ومن دون المستشفى، ومن دون حكاياتنا التي لم نروِ سوى أجزاء صغيرة منها.

أنت تذكر.

تركتك، وكانت السابعة مساء، والظلام يوشّح الأفق، وذهبت إلى بيتك من أجل الصور. في الطريق، توقّفت أمام الدكّان، واشتريت ربطة خبز، وقليلاً من الحلاوة الطحينيّة، وقلت أتعشّى حلاوة مع كاسة شاي.

حملت الكيس ومشيت، وهناك، على بعد حوالي خمسين مترًا من بيتك رأيتها.

كانت تلبس فستانًا طويلاً أسود، وتغطّي رأسها بمنديل أسود، وتحمل في يدها حقيبة كأنّها مسافرة.

تقف والحقيبة في يدها، ولا تلتفت، كأنّها صورة فوتوغرافيّة جامدة.

حين وصلت قربها برمت رأسها في اتّجاهي.

«مساء الخير»، قالت.

«مساء النّور»، جاوبت.

«هل تعرف منزل إيليّا الرّومي»؟

«إيليّا ماذا»؟

«إيليّا الرّومي»، قالت.

«لا يوجد رجل اسمه إيليّا في المخيّم»، قلت.

«بلى»، قالت، «إيليّا الرّومي».

«ليس على علمي أنّه يوجد رجل بهذا الاسم».

«أنت من أين»؟ سألتني.

«من هنا، من المخيّم»، قلت.

«لا، من أيّة قرية»؟

«من الغابسية»، قلت.

«عرفتك من لهجتك»، قالت.

«ولكنّي لا أتكلّم لهجة أهل الغابسيّة».

«بلى»، قالت، «تتكلّمها دون أن تعرف».

«ربّما»، قلت، «هذا من تأثير جدّتي».

«قل لي، أين منزله، أريد أن أوصل له رسالة من زوجته».

قلت لا أعلم، وقلت لها إنّها ربّما أخطأت المكان، فنحن هنا في مخيّم شاتيلا.

«أعرف، أعرف» قالت، «جئت إلى مخيّم شاتيلا من مكان بعيد، زوجته في عين الزيتون حمّلتني له رسالة، يجب أن أوصلها وأعود، فالدنيا صارت ليلاً، وأنا غريبة هنا، ولا أعرف أحدًا».

«واللّه يا سيّدتي، لا أستطيع أن أخدمك».

قلت هذه العبارة، وتابعت سيري في اتّجاه بيتك.

سمعت صوتها يأتيني من الخلف، فعدت إليها.

«ماذا تقولين»؟

«أين أهل المخيّم»؟ قالت. «ألا نستطيع أن نسأل أحدًا عنه، أين المختار»؟

قلت لها إنّ الناس لا يخرجون من بيوتهم في المساء.

«لماذا»؟

«لأنّهم يخافون».

«يخافون»!؟

«نعم يخافون، فالأحوال مش ولابدّ كما ترين».

«ماذا عليّ أن أفعل الآن»؟

«لا أعرف».

«يجب أن أوصل الرّسالة وأعود. هل تستطيع إيصالها له، سأتركها معك وأذهب».

«ولكنّي لا أعرف الرجل».

«اسأل عنه».

«واللّه يا سيّدتي، لا يوجد أحد بهذا الاسم في كلّ المخيّم، المخيّم صغير وأنا طبيب، وأعرف كلّ الناس».

«ما اسم حضرتك»؟

«خليل، الدكتور خليل أيّوب»، قلت.

«أرجوك يا دكتور ساعدني».

«أنا تحت أمرك».

«يبدو أنّني سأبيت ليلتي هنا، خذني إلى أحد فنادق المخيّم».

«تبحثين عن فندق في مخيّم! مستحيل، تستطيعين الذهاب إلى المدينة؛ بيروت مليئة بالفنادق».

«لا أريد المدينة»، قالت. «لا وقت لديّ، أريد فندقًا هنا».

«واللّه لا يوجد، لا أعرف».

«ألا أستطيع مبيت ليلتي هنا».

«طبعًا»، قلت، «ولكن أين؟ أين؟ تستطيعين النوم في بيتي إذا أردتِ».

«أنت متزوّج»؟

«لا».

«تعيش مع أمّك»؟

«لا».

«أنام في بيت رجل عازب ويعيش وحده؟ مستحيل»!

«لا، أنت أسأتِ فهمي، أوصلك إلى بيتي وأعود إلى المستشفى، فأنا طبيب كما قلت لكِ، أوصلك وأذهب».

«موافقة»، قالت.

ومشت.

مشت أمامي إلى بيتي. الحقيقة أنّني لم أكن أريد أخذها إلى بيتي. قلت بيتك أقرب. آخذها إلى بيتك، ألمّ الصور وأمضي، وهي تنام هناك.

مشت أمامي كأنّها تعرف الطريق إلى بيتي، وحين وصلنا، وقفت أمام الباب. أخرجت مفاتيحي، وفتحت الباب. ودخلنا. وكانت العتمة ورائحة العفونة. أشعلت عود ثقاب، لأنّ الكهرباء مقطوعة عن المخيّم، وأضأت قنديل الكاز، ورأيتها. كانت تجلس على الكنباية، حقيبتها إلى جانبها، ورأسها بين يديها، وانحناءة كتفيها تمتدّ كظلّ يتراقص على أرض الغرفة.

«البيت بيتك»، قلت، «أنا ذاهب، وتصبحين على خير».

«إلى أين»؟ سألت.

«إلى المستشفى»، قلت.

«ولكنّي جائعة»، قالت.

وضعت الكيس الذي كنت أحمله على الطاولة. «تفضّلي».

فتحت الكيس، ورأت الخبز والحلاوة.

«بعد كلّ هذا المشوار الطويل تطعمني حلاوة، لا، أنا أعدّ العشاء، أين المطبخ»؟

حملت قنديل الكاز، وقدتها إلى المطبخ.

«أنا أكره رائحة الكاز»، قالت، «ألا يوجد شموع في بيتك».

«بلى، بلى»، قلت. وذهبت إلى غرفة النوم، وبحثت في الجارور عن شمعتين كنت أخبّئهما تحسّبًا لنفاد الكاز في القنديل. أضأت الشمعتين، وضعت واحدة في المطبخ، وواحدة في غرفة الجلوس.

فتحت حقيبتها وأخرجت كيس نايلون.

«انتظرني»، قالت.

جلست في الصالون أنتظرها، وأنا أفكّر في هذه العلقة، لا، لم يخطر شيء في بالي. فالمرأة كانت تلبس فستانًا أسود يغطّيها من رأسها إلى قدميها، كما أنّ وجهها كان نصف محجوب بالمنديل الذي يغطّي رأسها. أستطيع القول إنّني لم أرها. فكيف!

لا يا سيّدي، لم يخطر شيء في بالي.

ثمّ رأيتها وقد ربطت فوطة على خصرها، وبدأت في تنظيف الشقّة. حاولت مساعدتها، لكنّها نهرتني بحركة من يدها. وخلال دقائق، والله خلال دقائق لا أكثر، صار كلّ شيء يلتمع بالنظافة. كانت كالساحرة، تتجوّل في البيت، تقلب الأشياء وتنظّفها. وخرجت رائحة صابون عطرة من كلّ الأنحاء.

قالت إنّها ستعدّ الطعام الآن.

«لا يوجد شيء في البيت، هل تريدين أن أذهب وأشتري».

«لا لزوم»، قالت، «معي كلّ شيء».

جلست في الصالون أنتظر الطعام، حين رأيتها تخرج من المطبخ، وتطلب منّي أن أدخل وأتحمّم.

«أنت ادخل وتحمّم، نظّفت كلّ شيء من أجلك وأنت لست نظيفًا».

حملت طنجرة الماء الساخن، التي كانت قد جهّزتها لي في المطبخ، ودخلت إلى الحمّام. وحين خرجت كانت تقف في الصالون وتنتظرني، ثمّ اختفت للحظات في الحمّام، وخرجت بشعرها الطويل المفرود على كتيفها. شعر أسود، بشرة سمراء، عينان خضراوان كبيرتان، فم صغير، ووجه حنطيّ مستطيل، يدان مسبوكتان وأصابع طويلة ورفيعة.

شيء لا يوصف يا سيّدي.

لم أرَ في حياتي امرأة بهذا الجمال، ولا بهذا الحضور، كأنّها رسمت بعينيها دائرة حولي لا أستطيع الخروج منها.

والغريب أنّني لم أسألها من تكون وماذا تريد. ففي تلك اللّحظة تأكّدت أنّ الرسالة ليست حقيقيّة، بل مجرّد حجّة. ومع ذلك لم أسأل. كنت كالمجذوب، كأنّني أدور في حلقة ذكر، كأنّي لا أعرف من اللّغة سوى ترديد كلمة «اللّه اللّه».

وجلسنا حول الطاولة، التي مدّت فوقها طبق السمك المقلي.

لم أشمّ رائحة الزيت، فكيف قلتَ السمك؟

وكانت مائدة الأسماك، سلطان إبراهيم ولقّس وسرغوس. ورأيت الطرطور والبقدونس.

«عندك عرق»؟ سألتني.

«طبعًا»، قلت.

جلبت قنّينة العرق البلدي، وصببت كأسين، مزجتهما بالماء، وقدّمت لها كأسًا.

«أين الثلج»؟ سألت.

«من أين أجلب الثلج»، قلت، «الكهرباء مقطوعة كما ترين».

«من جبل الشيخ»، قالت وابتسمت. «الذي يشرب العرق، يجب أن يدبِّر الثلج».

قالت إنّها لا تشرب العرق دون ثلج.

أمّا أنا فشربت. شربت كأسي وكأسها، وصببت لنفسي عدّة مرّات، وغرقت في السمك والطرطور والعرق.

كانت تأكل بتمهّل وتتفرّج عليّ.

«صحّتين، صحّتين»، قالت.

«اشربي»، قلت.

«لا، أنا لا أحبّ العرق».

وشربت يا سيّدي حتّى تفتّحت مساميّ وعروقي. شربت حتّى شعرت أنّ روحي ردّت إليّ.

نهضتْ، حملت الأطباق إلى المطبخ، وجاءت بكوبين من الشّاي بالنعناع، وأخرجت من حقيبتها كعكًا بيانسون.

«كل من هذا»، قالت. «فهناك حديث منسوب للرسول يقول فيه، إذا استسمكتم فاستحلوا، هذا من أجل ذاك».

أكلت ولم أشبع، ثمّ فتحت كيسي الأسمر، وأخرجت منه الحلاوة الطحينيّة، وأكلتها كلّها.

واللّه يا سيّدي لا أذكر إلاّ ويدها تلفّني، لا أذكرني إلاّ معها وحولها وفيها، كنت أتدوّر وأتخمّر، وأشرب شهدًا لم أذق مثله في حياتي.

كانت كيف أخبرك، نهداها وخصرها وانحناءة فخذها وركبتها والماء الذي يتفجّر من أحشائها، وهمساتها وقبلاتها ولسانها. وكنت لا. كنت أشمّها وأشربها. شربتها قطرة قطرة، وشربتني قطرة قطرة. كنت أنتهي وأبدأ، أصعد كالموج وأنخفض بالموج، ولا أنتهي. كان الموج في أحشائي، والموج يتجدّد ويبدأ، وأنا فوق الموجة وداخلها وتحتها، وهي الموجة والبحر والشاطئ.

لم أنم اللّيل.

لم أحكِ، بلى حكيت، وكانت تضع يدها على شفتي وتسكتني وتأخذني... ثمّ كيف... سمراء، لا بيضاء، عيناها خضراوان لا عسليّتان، شعرها طويل لا قصير، لا أدري.

تلك المرأة التي جاءتني من حيث لا أعلم، ووقفت كالصورة الفوتوغرافيّة أمام بيتك، وكانت تغطّي رأسها بمنديل أسود، ثمّ دخلت بيتي، وخلعت منديلها، ورأيت شعرها معقوصا ككعكة في مؤخّرة رأسها، واعتقدت أنّها تجاوزت الستّين، ثمّ خرجت من الحمّام وصارت مختلفة.

كان شعرها طويلاً، وكانت سمراء وعيناها خضراوان.

انتهينا من أكل السمك، فصارت بيضاء، وعيناها كبيرتان وسوداوان، وشعرها الأسود طويل حتّى ركبتيها.

شربنا الشّاي، فصارت ممتلئة الجسم، بعينين صغيرتين ناعستين، وبشرة حنطيّة. وأخذتني.

وصارت تتلوّن وتتغيّر كأنّها ألف امرأة.

الآن فهمت.

أريد أن أبكي يا سيّدي، أرجوك سامحني، أنا لا، واللّه لا.

طلع الضّوء علينا، وكانت مستلقية على السرير، وعيناها مغمضتان. نهضت، لبست ثيابي، ففتحت عينيها. قلت لها «دقائق، دقائق وأعود، عندي مريض في المستشفى، يجب أن أطمئنّ إليه وأعود».

أغمضت عينيها وهمست «أعرف أعرف»، ومدّت ذراعيها كأنّها تدعوني إليها.

«لا»، قلت. «أذهب لحظة إلى المستشفى، ثمّ أشتري لك ترويقة كنافة بجبن وأعود».

تركتها وذهبت إلى المستشفى، وهناك أمام الباب، رأيت زينب، ضمّتني إلى صدرها، وبكت على كتفي، أمسكت بي من يدي كي تأخذني إلى غرفتك حيث سيتمّ غسلك.

سحبت يدي من يدها، وقلت أعود بعد لحظة.

تركت المستشفى راكضًا إلى بائع الكنافة، وطلبت منه صحنين.

نظر إليّ الرجل بعينين مستغربتين.

«العوض بسلامتك»، قال.

«الله يسلّمك»، قلت، وانتزعت الصحنين من يده وركضت صوب البيت، وأنا أتخيّل ذراعيها السمراوين وعينيها الواسعتين وشفتيها الممتلئتين، وهمساتها.

دخلت إلى البيت، ولم تكن.

لم تكن في السرير، ولا في الغرفة، ولا في الصالون، ولا في الحمّام.

كان السرير مرتّبًا، وكلّ شيء في مكانه.

المطبخ نظيف، ورائحة العفونة تملأ البيت، وكيس الخبز والحلاوة في مكانه على الطاولة، لم يمس.

خطرت الحقيبة في بالي.

ركضت البيت كلّه، انحنيت تحت السرير، فتحت الجوارير، وبحثت في كلّ شيء وعن كلّ شيء.

خرجت من البيت دون أن أقفل الباب ورائي، وركضت في شوارع المخيّم، متفرّسًا في وجوه النساء، ولم أجرؤ أن أسأل. ماذا أسأل؟

وقفت أمام دكّان بائع الحلاوة.

سألني البائع «في أيّ ساعة سيكون المأتم».

«الآن»، قلت.

«كيف الآن؟ ألا تنتظرون صلاة الظّهر».

«بلى ننتظر».

«كم السّاعة»، سألته.

«الثامنة صباحًا»، أجابني.

سألته عن إيليّا، «هل تعرف رجلاً يسكن هنا في المخيّم، ويدعى إيليّا الرّومي».

«إيليّا وفي المخيّم! ما لك إشي يا أخي، اللّه يساعدك، قالوا إنّك اهتممت بالرجل كثيرًا، واللّه أجرك كبير، روح وارتاح الآن، وبعدين تعال إلى الدفن».

عدت إلى المستشفى، رأيت الدكتور أمجد يمسح دموعه، وكان رجال ولغط. قال أمجد إنّهم انتهوا من غسلك، وإنّ التشييع سوف ينطلق من المستشفى، ولا لزوم لأخذك إلى بيتك.

تركتهم ومشيت.

«إلى أين»؟ سألني أمجد.

«أعود»، قلت.

تركتهم وركضت شوارع المخيّم كلّها، تفرّست في كلّ الوجوه، ثمّ عدت إلى بيتي، وبحثت عنها في الغرفة والمطبخ والحمّام والصالون.

جلست على الكرسي أمام الطاولة، حيث كان كيس الخبز والحلاوة، فتحت الكيس، وأكلت رغيفًا مع الحلاوة، ثمّ ذهبت إلى المأتم.

لم أرجع إلى المستشفى بعد المأتم.

زينب قالت إنّ السيّدة وداد سوف تأتي بعد الظهر إلى المستشفى، وتبلغني قرار نقلي إلى مستشفى الهمشري في مخيّم عين الحلوة، لأنّه تقرّر

لاق مستشفى الجليل. وإنّها رفضت الانتقال إلى منطقة صيدا، وقالت إنّها ضّل البقاء هنا، ولو دون عمل، لأنّها على كلّ حال تنتظر الفيزا من ابنها.

قلت طيّب، ولم أذهب إلى المستشفى.

لم أكن أريد شيئًا، سوى العثور على المرأة.

لماذا أخذتني إلى بيتي، وأطعمتني السمك؟

أنا عاشق.

أحترق كالعشّاق وأموت كالعشّاق.

ثلاثة أيّام، وأنا في الموت.

ثلاثة أيّام، حتّى يئست من الموت.

واليوم يا أبي، كنت مستلقيًا على سريري، لمحت طيفها، اقتربت منها، بعدتني بحركة من يدها.

ورأيت في ما يرى النّائم، أنّني في سريرك، كنت في غرفتك مستلقيًا على ريرك، والصور تتأرجح على الحيطان حولي، ورأيتها. خرجت من الحائط قتربت منّي، حاولت أن أضمّها، فتراجعت إلى الخلف، ثمّ التصقت بالحائط. ظرت إلى الصورة مليًا، هذه امرأتي التي كانت في سريري، ماذا تفعل امرأتي خل الصورة؟ ماذا تفعل هذه المرأة التي لا أعرف اسمها داخل صورة نهيلة؟

واستيقظت مذعورًا، وبكيت.

لم أبك شمس، كما بكيتك وبكيتها.

لم أبك أبي، كما بكيتك وبكيتها.

لم أبك أمّي، كما بكيتك وبكيتها.

لم أبك جدّتي، كما بكيتك وبكيتها.

خرجت من بيتي حافيًا وركضت إلى قبرك.

أقف هنا واللّيل يغطّيني، ومطر آذار يغسلني، وأقول لك لا يا سيّدي، حكايات لا تنتهي هكذا، لا.

أقف؛ المطر حبال تمتدّ من السماء إلى الأرض، قدماي تغرقان في وحل، أمد يدي، أمسك بحبال المطر، وأمشي وأمشي وأمشي.

- لم تكن هذه الرواية ممكنة لولا عشرات النساء والرجال، في مخيمات برج البراجنة وشاتيلا ومار الياس وعين الحلوة، الذين فتحوا لي أبواب حكاياتهم، وأخذوني في رحلة إلى ذاكراتهم وأحلامهم.
- كانت المساعدة المباشرة التي قدمها لي: سعيد صالح عبد الهادي وسامية عيسى وآمنة جبريل وعرب لطفي وافتكار النابلسي وعبد سرحان وجاكلين جريصاتي، دليلي إلى شذرات الحكايات، ورفيقي في البحث والكتابة.
- من أجل إنجاز الجانب التاريخيّ في الرّواية، عدت إلى مجموعة من النصوص التي أضاءت طريقي: صلاح الدبّاغ وأنيس صايغ ونافذ النزال وبيان الحوت وأمنون كابليوك وروز ماري صايغ وإدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد ومذكرات القاوقجي ومذكرات بن غوريون وتوم سيغيف وبني موريس، وعشرات من المقالات والدراسات التي تسنّى لي الاطلاع عليها في مكتبة مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة في بيروت.

للمؤلف

روايات

عن علاقات الدائرة، ١٩٧٥، ١٩٨٥

الجبل الصغير، ١٩٧٧، ١٩٨٤

أبواب المدينة ١٩٨١، ١٩٩٠

الوجوه البيضاء، ١٩٨١، ١٩٨٦

المبتدا والخبر (قصص)، ١٩٨٤

رحلة غاندي الصغير، ١٩٨٩

مملكة الغرباء، ١٩٩٣

مجمع الأسرار، ١٩٩٤

دراسات

تجربة البحث عن أفق، ١٩٧٤

دراسات في نقد الشعر، ١٩٧٩، ١٩٨١
١٩٨٦

الذاكرة المفقودة، ١٩٨٢، ١٩٩٠

زمن الاحتلال، ١٩٨٥